مكتبة الجاحظ

لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

١٥٠ - ٢٥٥

بتحقيق وشرح

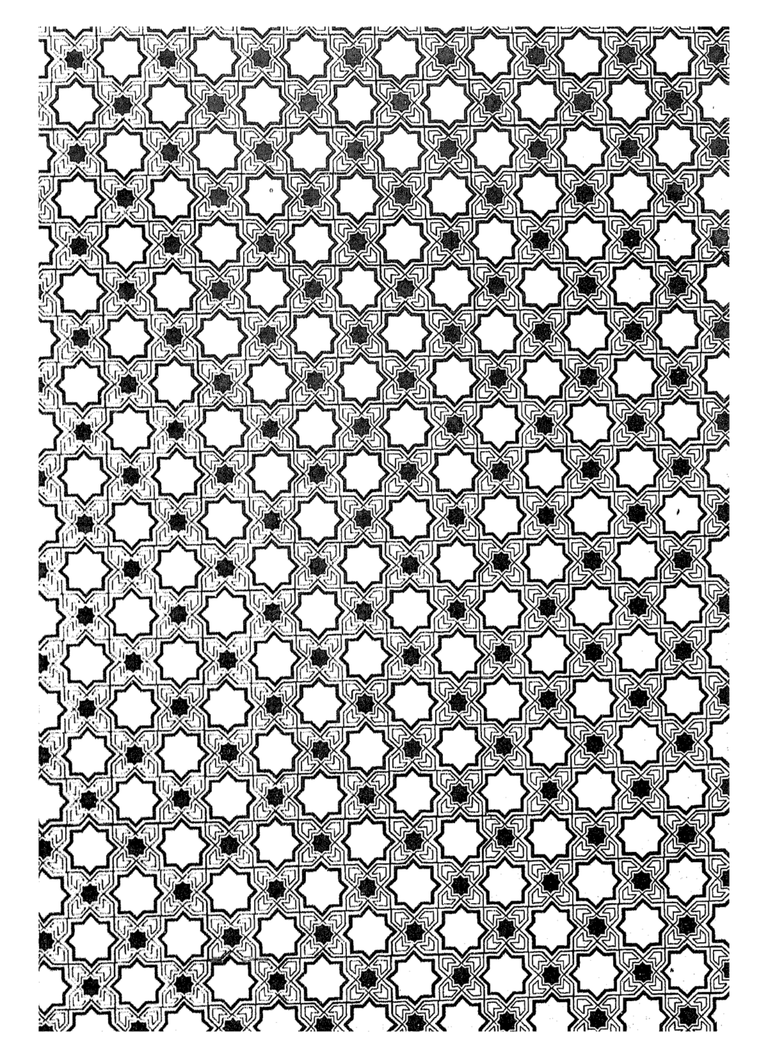
عبد السلام محمد هارون

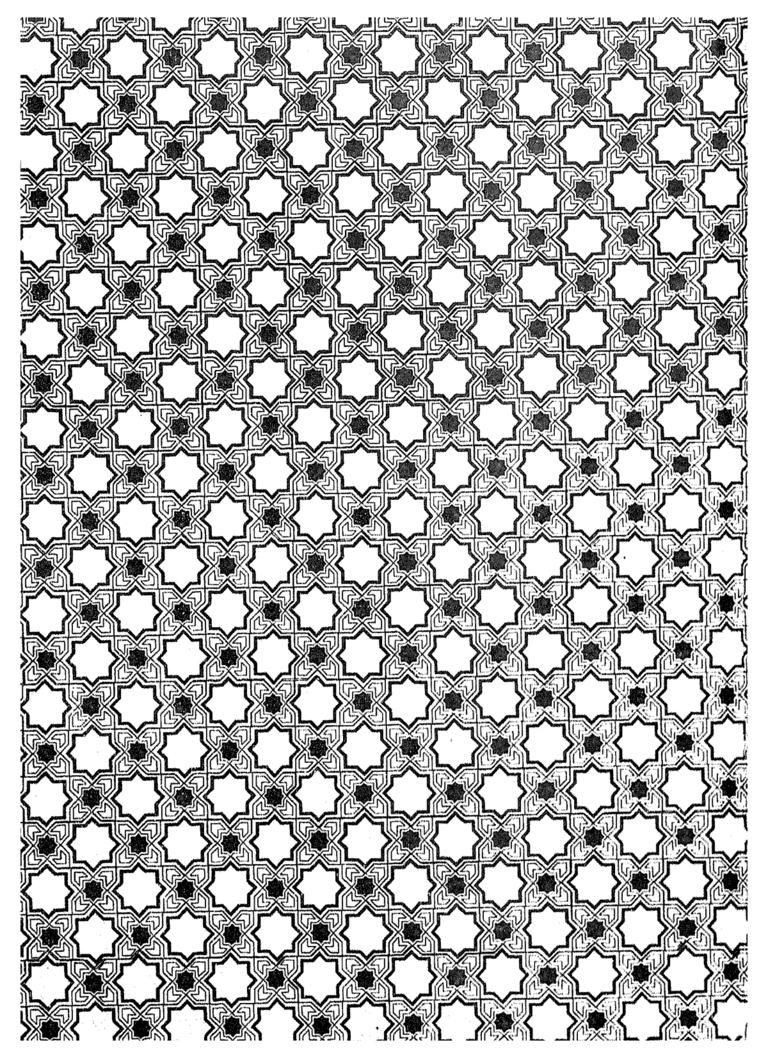


الجزءان ، الأول والثاني

الناشر

مكتبة الخانجي للطبع والنشر والتوزيع





مكتبة الجاحظ

أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

١٥٠ - ٢٥٥

بتحقيق وشرح

عبد السلام محمد هارون



الجزء الأول

الناشر

مكتبة الخانجي بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

كتبتَ إليَّ ـ حفظك الله ـ أن أسعى سعيًا حثيثًا فى إظهار ما بقى من آثار شيخنا الجاحظ ، وزعمتَ أنِّى شغلت عنه بغيره . وكدت أن تلومنى لما فرّطت فى جنب أبى عثمانَ فيما رأيتَ .

وإخالك عرفتَ بعض الحقِّ ولم تَظهَر عليه كلِّه ؛ فإن الحقّ يبدو أحيانًا فى بعض الأمر أبلج واضحًا ، وفى بعض الأمر يَخفى وجهُ حينًا فما تكاد تتبيّنه إلا بعد التعرُّف والتصفّح . فإنّى لم أفارق آثار أبى عثمان مذْ شدوت ، ولا تزال تلك من همِّى ووُكدى ، ما بين قراءةٍ فيها وتنقيح ، وتجلية وتصحيح ، حتى أذيعَ منها بين الناس ما يستطيعه الجهد ، ويسمح به الزمان .

وقد بعثتُ له من قبل كتبًا ثلاثة ضخامًا ، بذلت فيها عصارة النفس وماء الشباب ، وكان ذلك لنفسى صنيعًا أعتزّ به وتشملنى به الغبطة ، لمّا علمت أن الله [illegible]ن من الأدباء قد تلقّوه بترحيب صادق ، وتقدير كريم .

ما كان بى ـ أيّدك الله ـ إلّا أن أُعِدّ أصول ما بقى من آثار الجاحظ روزَها ، وأنظر للصورة التى ينبغى أن تبدوَ فيها . فوجدتُنى بين خليط من المخطوطات والمطبوعات ، ووجدت فيما وجدت مجموعة رسائل الجاحظ المحفوظة بمكتبة «داماد إبراهيم» ، غنية بآثار للجاحظ ، بعضها لم تظهر بعد عليه عيون جمهرة الأدباء .

فرأيت أن أقوم بنشر هذه المجموعة كاملة فى مجلدين مستقلين لها فهارسهما الفنية الخاصة ، ريثما تتاح لى الفرصة أن أكمل جمع سائر الرسائل المفرقة التى لم تحوها هذه المجموعة ، ومنها مختارات عبيد الله بن حسان ، التى كان لها فضل فى تحقيق كثير من نصوص مجموعة داماد ، ومنها رسائل مضمنة بطون الكتب ، كما فى شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ، وطراز المجالس للشهاب الخفاجى ، وجمع الجواهر للحصرى ، وغير ذلك من كبير الكتب وصغيرها .

مجموعة داماد
وهى نسخة الأصل

كان من المهام الجليلة التى اضطلع بها معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية أن أتاح الفرصة للباحثين فى الحصول على مصورات المخطوطات المتناثرة فى المكتبات العامة ، ومنها مكتبات تركيا ، التى حوت مقداراً ضخماً من أنفس الكتب العربية .

وكان مما أسعدنى أن أعثر على هذه المجموعة الجليلة القدر التى صورها معهد المخطوطات بعناية الأخ رشاد عبد المطلب من مكتبة (داماد إبراهيم[1]) بتركيا . ورقها فى مكتبة داماد هو ٩٤٩ ، وفى معهد المخطوطات ف ٩٤٣ من ١٨٥ .

ويحمل صدر هذه النسخة رسم خاتمين :

الخاتم الأعلى كبير ، وقراءته :

---

(١) الداماد فى اللغة التركية : زوج البنت ، كما يقال لزوج الأخت « أنشته » .

« هذا مما وقفه . . . . صاحب الخير والحسنات ، الصدر الأعظم والصهر الأفخم إبراهيم باشا يسّر الله له بالخير ما يشا وزيراً لحضرت السلطان الغازى أحمد خان خلدت خلافته إلى انقراض الدورات » .

والخاتم الأسفل صغير ، وقراءته :

« بو نسخة وقفندر داماد إبراهيم باشانك » .

وتفسيره : هذه النسخة من وقف داماد إبراهيم باشا .

وليس لهذه النسخة تاريخ ، وإن كان المرجح أن خطها من خطوط القرن السادس ، كتبت بالخط النسخى المشرب ببعض قواعد الخط الفارسى ، كما يتضح ذلك فى رسم بعض صنوف الهاء ، وصنوف السين ، وصنوف اللام ، مع إغفالٍ لبعض النقط ، ومع ضبط قليل ذاهب فى الندرة .

وهى فى ٢٣٩ ورقة، منها ١٩ ورقة مفقودة فى أولها . وبالصفحة ٢٢ سطراً ، فى كل سطر نحو ١١ كلمة .

ويبتدئ ترقيم أوراقها بالورقة ٢٠ . وهذا يفسِّر ما صنعته من بدء ترقيم نسختى هذه برقم (٢٠ ظ) الذى أثبته فى ص ٥ من هذا المجلد تعبيراً عن أرقام الأصل التى حرصت على إثباتها فى جنبات هذه النشرة . وقد أشرت إلى ذلك فى مقدمة الرسالة الأولى فى ص ٣ .

وربما كانت الرسالة المفقودة التى كانت فى صدر المجموعة هى « كتاب حكاية عثمان الخياط فى اللصوص ووصاياهم » التى يعزّ وجود أصل لها . وذلك أن داود الجلبى فى كتابه (مخطوطات الموصل ص ٢٦٤) ذكر مجموعة من رسائل للجاحظ كانت محفوظة فى مكتبة أمين بن أيوب الجليلى تطابق

فى عنوانات رسائلها مجموعة داماد وتزيد عليها فى أولها « حكاية عثمان الخياط فى اللصوص ووصاياهم » . ومن المؤسف أن مجموعة أمين الجليلى قد فقدت بعد وفاته، كما ورد فى مقدمة مجموع رسائل الجاحظ لكراوس والحاجرى ص (و).

ويبدو كذلك أنه قد تجوهل قديماً هذا النقص ، وابتدأ المجلد برسالة فضائل الأتراك ، وترقيمها فى النسخة (٢٠ و) أى وجه الورقة ٢٠ ، وجعل عنوانها وجهًا للمجلد ، وسردت تحت هذا العنوان محتويات المجلد بخط مخالف على الوضع التالى . وقد أثبتها هنا بلفظها ، والترقيم لى :

١ — كتاب فضائل الأتراك[1] لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ .
٢ — رسالة كتبها إلى محمد بن عبد الملك فى الأخلاق المحمودة .
٣ — كتاب كتمان السر وحفظ اللسان .
٤ — رسالة المعاش والمعاد فى الأدب .
٥ — كتاب فخر السودان على البيضان .
٦ — رسالة فى الجد والهزل .
٧ — رسالة فى نفى التشبيه .
٨ — رسالة فى معنى كتابه فى الفتيا .
٩ — رسالة إلى أبى الفرج بن نجاح الكاتب تصنيف أبى عثمان .
١٠ — رسالة فصل ما بين العداوة والحسد .
١١ — رسالة فى ذم القواد .

---

(١) ذكر بروكلمان فى كتابه ٣ : ١١٥ من الترجمة العربية أنها ترجمت إلى التركية .

١٢ — رسالة فى النابتة إلى أبى الوليد .

١٣ — كتاب الحجاب .

١٤ — كتاب مفاخرة الجوارى والغلمان .

١٥ — كتاب القيان .

١٦ — كتاب ذم أخلاق الكتّاب .

١٧ — كتاب البغال

١٨ — كتاب الحنين إلى الأوطان .

وظاهر هذا الفهرست أن بالمجموعة ١٨ رسالة وكتاباً . ولكن عند التحقيق ظهر لى أن عددها ١٧ لا ١٨ ؛ لأن الرسالة الثانية ، وهى رسالة « الأخلاق المحمودة والمذمومة » هى بعينها الرسالة الرابعة« رسالة المعاد والمعاش فى الأدب » أو بعبارة أدقّ : نسخة أخرى منها . وقد رجّحت لها التسمية الأخيرة الواردة فى النسخة الثانية ، أى « رسالة المعاد والمعاش » وبيّنت ذلك فى مقدمتها ص ٩٠ .

وعلى ذلك صارت الرسالة الخامسة فى هذا الفهرست تحمل رقم ٤ والسادسة فيه تحمل رقم ٥ ، ويتناقص الترقيم حتى يصير آخر الرسائل برقم ١٧ .

وقد قدّمت لكل رسالة أو كتاب من هذه المجموعة بمقدمة أوضحت فيها تاريخ نشرها إن كانت قد نشرت من قبل ، أو نبّهت على أنها تنشر للمرة الأولى .

وستظهر هذه المجموعة ، فى جزأين ، يلحق بالثانى منهما (الفهارس الفنية) لهما معًا . إن شاء الله تعالى .

المجموعات التى نشرت من قبل

واستكمالاً لدراسة تاريخ نشر رسائل الجاحظ أشير هنا إلى مجموعات من رسائل نشرت من قبل ، وبعضها يتضمن شيئاً مما فى هذه المجموعة ، أعنى مجموعة داماد .

أولا :

مجموعة ڤان ڤلوتن . وعنوانها (ثلاث رسائل لأبى عثمان بن بحر الجاحظ البصرى). طبعت بمطبعة بريل بمدينة ليدن بهولاندا سنة ١٩٠٣ م. وتشمل :

١ — رسالة إلى الفتح بن خاقان فى مناقب الترك وعامة جند الخلافة ص ١ — ٥٦

٢ — كتاب فخر السودان على البيضان ص ٥٧ — ٨٥

٣ — كتاب التربيع والتدوير ص ٨٦ — ١٥٦

وقد قام بإكمال العمل فى هذه المجموعة وتنقيحها ونشرها المستشرق دى جويه : M. J. de Goeje

ثانياً :

مجموعة الفصول المختارة ، اختيار عبيد الله بن حسان . طبعت على هامش كامل المبرد سنة ١٣٢٣ — ١٣٢٤ فى جزأين :

١ — من كتابه فى الحاسد والمحسود ١ : ٢

٢ — من كتابه فى المعلمين ١ : ١٧

٣ — من رسالته إلى الحسن بن وهب فى مدح النبيذ وأصحابه ١ : ٩٧

٤ — من كتابه فى طبقات المغنين ١ : ١٢٠

٥ — من كتابه فى النساء ١ : ١٣٠

٦ — من رسالته إلى الفتح بن خاقان فى مناقب الترك ١ : ١٦٦

٧ — من كتابه فى حجج النبوة ١ : ٢٧٥ إلى ٢ : ١١٧

٨ — من كتابه فى خلق القرآن ٢ : ١١٧

٩ — من كتابه فى الرد على النصارى ٢ : ١٤٨

١٠ — من رسالة إلى أبى الفرج الكاتب فى المودة والخلطة ٢ : ١٩٩

١١ — من كتابه فى استحقاق الإمامة [١] ٢ : ٢١٢

١٢ — من رسالته فى استنجاز الوعد ٢ : ٢٢٠

١٣ — من رسالته فى تفضيل النطق على الصمت ٢ : ٢٢٧

١٤ — من كتابه فى صناعة الكلام ٢ : ٢٣٨

١٥ — من رسالته فى مدح التجارة وذم عمل السلطان ٢ : ٢٤٦

١٦ — صفات الشارب والمشروب ٢ : ٢٥١

١٧ — من رسالته فى استحقاق الإمامة ٢ : ٢٦٩

١٨ — من مقالة الزيدية والرافضة ٢ : ٢٩١

وهذه النسخة ينقصها كثير مما فى النسخة التيمورية ، ونسخة المتحف البريطانى ، فهى مجموعة من الاختيار مبتورة .

ثالثاً :

مجموعة محمد ساسى ، وعنوانها (مجموعة رسائل لمؤلفها العلامة الشهير والفهامة الكبير الأستاذ أبى عثمان عمرو بن محبوب المعروف بالجاحظ) . طبعت بمطبعة التقدم بمصر سنة ١٣٢٥ .

وقد أعاد فيها ما طبع فى مجموعة ڤان ڤلوتن ، وضم إليها ثمانى رسائل أخرى فصارت كلها على الوضع التالى :

---

(١) كذا . ويبدو أنه كتاب آخر .

١ — رسالة فى الحاسد والمحسود	ص ٢ — ١٣[١]
٢ — رسالة إلى الفتح بن خاقان فى مناقب الترك وعامة جند الخلافة	ص ٢ — ٥٣
٣ — كتاب فخر السودان على البيضان	ص ٥٤ — ٨١
٤ — كتاب التربيع والتدوير	ص ٨٢ — ١٤٧
٥ — فى تفضيل النطق على الصمت	ص ١٤٨ — ١٥٤
٦ — فى مدح التجار وذم عمل السلطان	ص ١٥٥ — ١٦٠
٧ — فى العشق والنساء	ص ١٦١ — ١٦٩
٩ — فى استنجاز الوعد	ص ١٧٣ — ١٧٧
١٠ — فى بيان مذهب الشيعة	ص ١٧٨ — ١٨٥
١١ — فى طبقات المغنين	ص ١٨٦ — ١٨٩

رابعاً :

مجموعة يُوشَع فِنسكَل : J Fiukel

وعنوانها : (ثلاث رسائل لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ) وهو موافق لعنوان مجموعة ڤان ڤلوتن . طبعت فى المطبعة السلفية سنة ١٣٤٤ هـ وقد جعلت هذه المجموعة هدية من مجلة الزهراء ، التى كان يصدرها الأستاذ محب الدين الخطيب ، إلى قرائها فى سنتها الثانية . وتشمل هذه المجموعة ثلاث رسائل :

١ — المختار من كتاب الرد على النصارى[٢]	من ص ٩ — ٣٨
٢ — ذم أخلاق الكتاب	من ص ٣٩ — ١٥
٣ — رسالة القيان	من ص ٥٢ — ٧٥

(١) هكذا بأرقام صفحات مستقلة .

(٢) وهى من اختيارات عبيد الله بن حسان .

والرسالتان الأخيرتان منشورتان عن أصل بمكتبة نور الدين مصطفى برقم ١٠٠ وهو أصل يعد الآن مفقوداً .

خامساً :

مجموعة ريشر : Rescher نشرت فى مدينة شتوتجارت سنة ١٩٣١ وهى مقتطفات وترجمات من آثار الجاحظ إلى جانب نصوص أصيلة أخرى له لم تنشر من قبل، كما ذكر بروكلمان ٣ : ١١٠ من الترجمة العربية .

ولم يتيسر لى الوقوف عليها لأنى لم أعثر عليها فى المكتبات العامة بمصر ، وقد أمكننى أن أتعقب ترتيبها وجمعها من مواضع متفرقة متشعبة من كتاب بروكلمان على الوضع التالى :

١ — دراسة لمحتويات البيان والتبيين	ص ٢٢ — ٤٠
٢ — الرد على النصارى	ص ٤٠ — ٦٧
٣ — ذم أخلاق الكتاب	ص ٦٧ — ٧٨
٤ — رسالة القيان	ص ٧٨ — ١٠٠
٥ — رسالة فى المعلمين	ص ١٠١ — ١٠٨
٦ — فى ذم اللواط	ص ١٠٨
٧ — فى مدح النبيذ وصفة أصحابه	ص ١١١
٨ — حجج النبوة	ص ١١٢ — ١٥٩
٩ — صناعة الكلام	ص ١٥٩ — ١٦٣
١٠ — الشارب والمشروب	ص ١٦٣ — ١٦٨
١١ — استحقاق الإمامة	ص ١٦٨ — ١٧٩
١٢ — الحاسد والمحسود	ص ١٨٠ — ١٨٢
١٣ — تفضيل النطق على الصمت	ص ١٨٢ — ١٨٦

سادساً :

مجموعة حسن السندوبى بعنوان (رسائل الجاحظ) طبع الرحمانية سنة ١٣٥٢ هـ : ١٩٣٣ م . ذكر فى مقدمتها أنها « منتقاة من كتب الجاحظ ومن كتب أخرى أكثرها فى متناول الأيدى . وهذه الرسائل فى التاريخ والأدب

والاجتماع والجدل . وقد ألحقنا بها طائفة صالحة من رسائله الخاصة التي يسميها العرف الإخوانيات » .

ولم يشر الأستاذ السندوبي إلى أصل ما مما نَشَرعنه هذه المجموعة ، وتشتمل مجموعته على :

١ — خلاصة كتاب العثمانية ص ١ ـ ١٢ . وقد أتبعها بخلاصة نقض العثمانية لأبي جعفر الإسكافي ص ١٣ـ٦٦ . وقد كتبت عنها في مقدمة العثمانية .

٢ — من كتاب فضل هاشم على عبد شمس	٦٧ — ١١٦
٣ — « « حجج النبوة	١١٧ — ١٥٤
٤ — « « الحجاب	١٥٥ — ١٨٦
٥ — « « التربيع والتدوير	١٨٧ — ٢٤٠
٦ — « « استحقاق الإمامة	٢٤١ — ٢٥٩
٧ — « رسالته في صناعة القواد	٢٦٠ — ٢٦٥
٨ — « كتابه في النساء	٢٦٦ — ٢٧٥
٩ — « رسالته في الشارب والمشروب	٢٧٦ — ٢٨٤
١٠ — « « في مدح النبيذ	٢٨٥ — ٢٩١
١١ — « « في بني أمية	٢٩٢ — ٣٠٠
١٢ — « كتابه في العباسية	٣٠٠ — ٣١٦
١٣ — « رسائله الخاصة	٣٠٣ — ٣١٥

وهذه الرسائل الخاصة الأخيرة ست رسائل :

رسالة إلى أبي الفرج الكاتب في المودة والخلطة ، وأخرى في ذم الزمان ، ورسالة إلى محمد بن عبد الملك الزيات ، وأخرى إلى أحمد بن أبي دُواد ، وغيرها لإبراهيم بن المدبر ، ورسالة أخيرة كتب بها معاتباً .

سابعاً :

مجموعة پاول كراوس وطه الحاجرى ، وعنوانها (مجموع رسائل الجاحظ) طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٣ . وهى نشرة علمية جيدة ، وبها :

١ — رسالة المعاد والمعاش	ص ١ — ٣٦
٢ — كتاب كتمان السر وحفظ اللسان	٣٧ — ٦٠
٣ — رسالة فى الجد والهزل	٦١ — ٩٨
٤ — رسالة فصل ما بين العداوة والحسد	٩٩ — ١٢٤

وإنى لأزجى الشكر صادقاً إلى الأخ السيد (محمد نجيب أمين الخانجى) لتيسيره نشر سلسلة هذه الرسائل وغيرها من نفائس التراث العربى ، مقتدياً فى ذلك بوالده المغفور له السيد (أمين الخانجى) ، الذى يحفظ له التاريخ سبقاً مبكراً بارعاً إلى إحياء كثير من المخطوطات العربية التى أولاها عنايته وإخلاصه .

* * *

وأما بعد ، فإنى أرجو أن أوفق ـ بعون الله ـ حينما أفرغ من نشر هذه المجموعة (مجموعة داماد) محققة على النهج الذى جريت عليه فى نشر الحيوان والبيان والعثمانية ـ أن أتم نشر ما بقى من رسائل الجاحظ فى أجزاء لاحقة .

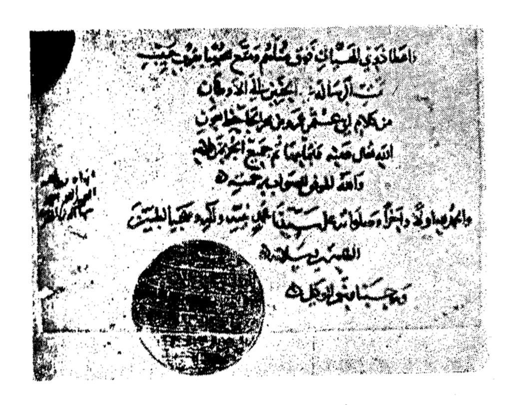
والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

مصر الجديدة فى { ٢٣ من جادى الأولى ١٣٨٤ / ٢٩ من سبتمبر سنة ١٩٦٤ }

عبد السلام محمد هارون



صورة الصفحة الأولى من مجموعة داماد



الصفحة الأخيرة من مجموعة داماد

١

مَنَاقِبُ التُّرك

رسالة إلى الفتح بن خاقان فى مناقب الترك وعامة جند الخلافة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه هى الرسالة الأولى من مجموعة رسائل الجاحظ نسخة مكتبة داماد ، وعنوانها فى المجموعة « فضائل الأتراك » . وقد اخترت لها العنوان الذى فى سائر المراجع الرموز لها بالرموز التالية :

م = مختارات فصول الجاحظ لعبيد الله بن حسان ، نسخة المتحف البريطانى المأخوذ منها نسخة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٦٩ .

ف = الفصول المختارة لعبيد الله بن حسان ، المطبوعة بهامش كامل المبرد طبعة التقدم العلمية سنة ١٣٢٤ . وتختلف عن النسخة السابقة .

ن = ثلاث رسائل للجاحظ نشر ڤان ڤلوتن . طبع ليدن ١٩٠٣ .

س = مجموعة رسائل للجاحظ نشر الساسى .

كما جعلت الرمز « ب » لبقيّة النسخ إذا انفردت نسخة من النسخ السابقة بصورة من النص يخالف أخواتها .

وهذه الرسالة تستغرق من الأصل ما بين الورقة ٢٠ والورقة ٤٩ . وقد أثبت أرقام هذه الأوراق على جنبات الكتاب تيسيرا للرجوع إلى الأصل .

وأكرر التنبيه هنا أن هذا الترقيم هو الترقيم الذى ورد فى النسخة ، وأنه ترقيم مسلسل مع كتاب آخر غير مجموعة داماد سابق عليها .

والفتح بن خاقان هذا هو وزير المتوكل العباسى ، وكان أديباً شاعراً فصيحاً بارع الذكاء ، وكانت له خزانة كتب حافلة ، وله مؤلفات منها كتاب اختلاف الملوك ، وكتاب الصيد والجارح ، وكتاب الروضة والزهر . وقتل مع المتوكل سنة ٢٤٧ . وهو غير الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان صاحب قلائد العقيان .

انظر فهرست ابن النديم ١٦٩ — ١٧٠ وفوات الوفيات ٢ : ١٥٣ — ١٥٤ .

بسم الله الرحمن الرحيم

٢٠ ظ

وفّقك الله لرُشدِك ، وأعانَ على شكرِك ، وأصلحَك وأصلحَ على يديك ، وجعَلنا وإيّاك ممّن يقول بالحقّ ويعملُ به ، ويُؤْثِره ويحتمل ما فيه [ممّا قد يصدُّه عنه[1]] ، ولا يكون حظُّه منه[2] الوصفَ له والمعرفةَ به ، دون الحثّ عليه والانقطاعِ إليه ، وكشفِ القِناع فيه ، [وإيصاله إلى أهله ، والصَّبرِ على المحافظة في ألّا يصلَ إلى غيرهم ، والتثبُّتِ في تحقيقه لديهم[3]] ؛ فإنَّ الله تعالى لم يعلِّمِ الناسَ ليكونوا عالمين دون أن يكونوا عامِلين ، بل علَّمهم ليعملوا ، وبيَّنَ لهم ليتَّقوا التورُّطَ في وسط الخوف ، والوقوع في المضارّ[4] ، والتوسُّطَ في المهالك .

[فلذلك[5]] طلب الناسُ التبيُّن ، ولحبِّ السلامة من المهَلَكة ، والرَّغبةِ في المنفعة ، احتملوا ثِقَلَ العلم ، وتعجَّلوا مكروه المعاناة . ولقلّة العاملين وكثرةِ الواصفين [قال الأوّلون : العارفون أكثر من الواصفين ، والواصفون أكثر من العاملين . وإنَّما[6]] كثُرت الصِّفات وقلَّتِ الموصوفات ، لأنَّ ثوابَ العملِ مؤجَّل ، واحتمال ما فيه معجَّل .

---

(١) ساقطة من الأصل ، وإثباتها من سائر النسخ .

(٢) في الأصل « فيه » ، وأثبت ما في ف ، ن ، س .

(٣) التكملة من م ، ف ، ن ، س .

(٤) في الأصل و س : « ليتقوا ولخوف الوقوع في المضار » .

(٥) التكملة من م ، ف .

(٦) التكملة من م ، ف ، ن ، س .

وقد أعجبنى ما رأيتُ من شَغَفك بطاعة إمامك ، والمحاماةِ لتدبير خليفتك ، وإشفاقِك من كل خَلَل وخَلَّة دخَلَ على مُلكهِ وإنْ دقّ[1] ، ونالَ سُلطانَه وإن صغُر ، ومن كلِّ أمرٍ خالفه وإنْ خفِيَ مكانُه ، وجانَبَ رضاه وإنْ قلَّ ضرره ؛ ومِنْ تخوُّفك أن يَجِد المُتأوِّلُ إليه طريقا[2] والعدوُّ عليه متعلَّقا ؛ فإنَّ السلطانَ لا يَخلو من مُتأوِّلٍ ناقم ، ومن محكوم عليه ساخط ، ومن معدول عن الحكمِ زارٍ[3] ، ومن متعطِّل متصفِّح ، ومن مُعجَبٍ برأيه ذى خَطَلٍ فى بيانه ، مولَع بتهجين الصَّواب ، وبالاعتراض على التَّدبير ، حتَّى كأنَّه رائدٌ لجميع الأمَّة ، ووكيلٌ لسكان جميع المملكة ؛ يَضَع نفسه فى موضع الرُّقباء ، وفى موضع التصفُّح على الخلفاء والوزراء ؛ لا يَعذِرُ وإن كان مَجازُ العُذر واضحًا ، ولا يقف فيما يكون لِلشكِّ محتمِلا ، ولا يُصدِّق بأنَّ الشاهدَ يرى ما لا يرى الغائب ، وأنَّه لا يعرف مَصادر[4] الرَّأى من لم يشهد مَوارِدَه ، ومُستدبَرَه من لم يعرف مُستقبَله . ومِن محرومٍ قد أضغَنَه الحرمان[5] ، ومن لئيم قد أفسَدَه الإحسان . ومن مستبطىءٍ قد أخذ أضعاف حقِّه ، وهو لجهلِه بقَدره ، ولِضِيق ذَرْعه وقلَّة شكره ، يظنُّ أن الذى بَقِيَ له أكثر ، وأنَّ حقَّه أوجَب . ومن مستزيدٍ ٢١ و

---

(١) م ، ف : « من كل خلل يدخله وإن دق » ن : « من كل خلل دخل على ملكه وإن دق » .

(٢) المراد بالمتأول المتعلل الذى يتلمس علة وتأويلا لقيامه على السلطان .

(٣) فى الأصل : « عن الحكمة » ، وأثبت ما فى ب . والزارى ، من قولهم : زرى عليه يزرى زريا وزراية : عابه وعاتبه .

(٤) فى الأصل : « مصداق » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٥) أضغنه : حمله على الضغن والحقد . وفى الأصل : « أضعفه » ، صوابه فى سائر النسخ .

لو ارتجع السُّلطان[١] سالفَ أياديه البيضِ عندَه ، ونِعمَه السَّالفةَ عليه ، لكان لذلك أهلًا ، وله مستحقًّا . قد غرَّه الإملاء[٢] ، وأبطرَه دوامُ الكفاية ، وأفسدَه طولُ الفراغ . ومِن[٣] صاحبِ فِتنةٍ خاملٍ فى الجماعة ، رئيس فى الفُرقة ، نعّاق فى الهرْج ، قد أقصاه السلطان ، وأقام صَغْوه ثِقافُ الأدب[٤] ، وأذلَّه الحكمُ بالحقّ ، فهو مَغيظٌ لا يجد غير التشنيع ، ولا يتشفَّى بغير الإرجاف ، ولا يستريح إلَّا إلى الأمانى ، ولا يأنس إلَّا بكلِّ مُرجِفٍ كذّاب ، ومفتونٍ مُرتاب ، وخارصٍ لا خيرَ فيه[٥] ، وخالفٍ لا غَناءَ عنده ، يريد أن يسوَّى بالكُفاة ، ويُرفَع فوق الحُماة ؛ لأمرٍ [ما] سلَفَ له ، ولإحسانٍ كانَ من غيره ، وليس ممَّن يربُّ قديماً بحديث[٦] ، ولا يَحفل بدُروس شرف ، ولا يَفصل بين ثواب المحتسبين ، وبين الحفظ لأبناء المحسنين .

وكيف يعرف فرقَ ما بين حقِّ الذِّمام وثوابِ الكفاية ، من لا يعرف طبقاتِ الحق فى مراتبه ، ولا يفصل بين طبقات الباطل فى منازله .

---

(١) فى الأصل : « لو ارتجع للسلطان » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٢) فى الأصل و ف : « الأصل » .

(٣) كلمة « من » ساقطة من الأصل و ن و س .

(٤) الصغو . الميل . فى الأصل : « صعره » م ، ف : « صفره » ، وأثبت ما فى س ، ن .

(٥) الخارص : الكاذب ، يقال خرص وتخرص واخترص . ورجل خراص : كذاب . وفى التنزيل العزيز : « قتل الخراصون » س ، ن « حارص » بالمهملة ، تحريف .

(٦) ربه به : أصلحه وطيبه .

ثم أعلمتَنى بذلك أنَّك بنفسك بدأتَ فى تعظيم إمامك ، والحفظ لمناقب أنصار خليفتك ، وإيَّاها حُطت بحياطتك لأشياعه ، واحتجاجك لأوليائه . ونِعم العونُ أنتَ إن شاء الله على ملازمة الطَّاعة ، والمؤازرة على الخير ، والمكانفة لأهل الحق[1] .

وقد استدللتُ بالذى أرى من شِدَّة عنايتك ، وفَرط اكترائك ، وتفقُّدك لأخابير الأعداء[2] وبحثك عن مناقب الأولياء ، على أنَّ ما ظهر من نصحك أَمَمٌ[3] ، فى جَنْب ما بطَنَ من إخلاصك .

فأمتعَ اللهُ بك خليفتَه ، ومنحنا وإياكَ مَحَبَّته[4] ، وأعاذَنا وإيَّاكَ من قَوْل الزُّور[5] ، والتقرُّب بالباطل ، إنَّه حميد مَجيد ، فعَّالٌ لما يريد .

وذكرتَ أبقاكَ اللهُ أنَّك جالست أخلاطًا من جُند الخلافة ، وجماعةً من أبناء الدَّعوة ، وشيوخًا من جِلَّة الشِّيعة ، وكُهولًا من أبناء رجال الدَّولة ، والمنسوبين إلى الطاعة والمناصحة ، [والمحبَّة[6]] الدِّينية ، دون محبة الرغبة والرهبة ، وأنَّ رجلا من عُرْض تلك الجماعة ، ومن حاشية تلك الجِلَّة[7] ارتجَلَ ٢١ ظ

(١) المكانفة : المعاونة .
(٢) م ، ف فقط : « لأجناس الأعداء » .
(٣) الأمم : الشىء اليسير .
(٤) فى الأصل : « نخبة » ، صوابه فى سائر النسخ .
(٥) فى الأصل و ن : « قبول الزور » .
(٦) التكملة من ف ، م ، س .
(٧) م : « وأن رجلا من عرض تلك الجملة » .

الكلام ارتجالَ مستبدٍّ ، وتفرد به تفرُّدَ مُعجَب[1] ، وأنَّه لم يستأمر زعماءهم ، ولم يراقب خطباءهم ، وأنَّه تعسَّفَ المعانىَ وتهجَّمَ على الألفاظ ، وزعم أنَّ جُند الخلافة اليومَ على خمسة أقسام : خراسانى ، وتركىّ ، ومَولًى ، وعربىّ ، وبَنَوِىّ . وأنَّه أكثر من حَمْد الله وشكره على إحسانه ومِنَنه ، وعلى جميع أياديه وسابغ نعمه ، وعلى شمول عافيته وجزيل مواهبه ، حين ألَّف على الطاعة هذه القلوبَ المختلفة ، والأجناسَ المتباينة ، والأهواء المتفرِّقة . وأنَّك اعترضت على[2] هذا المتكلم المستبدّ ، وعلى هذا القائل المتكلِّف ، الذى قسَّم هذه الأقسام ، وخالف [بين[3]] هذه الأركان ، وفصَّل بين أنسابهم[4] ، وفرَّق بين أجناسهم ، وباعَدَ بين أسْبابهم[5] . وأنَّك أنكرتَ ذلك عليه أشدَّ الإنكار ، وقذعته أشدَّ القَذْع[6] ، وزعمت أنَّهم لم يَخرجوا من الاتِّفاق أو من شىء يَقرب من الاتِّفاق . وأنَّك أنكرتَ التَّباعدَ فى النَّسب ، والتَّباين فى السَّبب . وقلتَ : بل أزعُم أنَّ الخُراسانىَّ والتركىَّ أَخَوانِ ، وأن الحيِّز واحد ، وأن [حكم ذلك الشَّرق ، والقضيَّة على[7]] ذلك الصُّقع متَّفق غير مختلف ، ومتقاربٌ غير متفاوت . وأنَّ الأعراق فى الأصل إن لا تكن [كانت[7]] راسخةً فقد كانت متشابهة ، وحدود البلاد المشتملة عليهم إن

---

(١) الكلام بعده إلى « خطباءهم » ساقط من ف .

(٢) فى الأصل : « أعرضت عن » ، صوابه فى سائر النسخ.

(٣) الكلمة ساقطة من الأصل ثابتة فى سائر النسخ .

(٤) ن ، س : « وباعد بين أنسابهم » . وما بعده إلى « أنسابهم » التالية ساقط من ف ، م .

(٥) فى الأصول : « أنسابهم » ، والوجه ماأثبت .

(٦) قذعه قذعا : رماه بالفحش وسوء القول .

(٧) مابين المعقفين ثابت فى جميع النسخ ساقط من الأصل .

لا تـكن متساويةً فإنَّها متناسبة ؛ وكلُّهم خراسانىٌّ فى الجملة وإنْ تميَّزوا ببعض الخصائص ، فافترقوا ببعض الوُجوه .

وزعمتَ أنَّ اختلاف التركى والخراسانى ليس كالاختلاف بين العجمى والعربىّ ، ولا كالاختـلاف بين الرُّومى والصَّقْلبىّ ، والزِّنجىّ والحبَشى ، فضلاً عما هو أبعدُ جوهراً وأشدُّ خلافاً . بل كاختلافِ ما بين المـكّىّ والمدنى ، والبدوىّ والحضرى ، والسُّهلى والجبلى ، وكاختلاف ما بين الطائىّ الجبلىّ والطائىّ السُّهلى ، وكما يقال : أنَّ هذيلاً أكراد العرب ، وكاختلاف ما بين مَنْ نزل البُطون وبين من نزل الحُزُون ، وبين من نزل النُّجود وبين من نزل الأغوار .

وزعمتَ أنَّ هؤلاء وإن اختلفوا فى بعض اللُّغة ، وفارق بعضُهم بعضاً فى بعض الصُّوَر ، فقد تخالفت عُليا تميم ، وسُفْلَى قيس ، وعَجُز هوازن ٢٢ و وفُصحاء الحجاز ، فى اللُّغة ، وهى فى أكثرها على خلافِ لغة حِمير ، وسُكان مَخاليف اليمن ، وكذلك فى الصُّورةِ والشمائلِ والأخلاق[١] . وكلُّهم مع ذلك عربىٌّ خالص ، غير مَشُوب ولا مُعلهَج[٢] ولا مذرَّع[٣] ولا مزلَّج[٤] . ولم يختلفوا اختلافَ ما بين بنى قَحطان وبنى عدنان ، من قِبَل[٥] ما طبع الله

---

(١) ج ، ف : « وكذلك الصورة والصورة ، والشمائل والشمائل ، والأخلاق والأخلاق » .

(٢) المعلهج : الهجين ، وهو العربى ولد من أمة

(٣) المذرع : الذى أمه عربية وأبوه غير عربى . وأنشد :

إذا باهلى عنـده حنظلية   لها ولد منه فذاك المذرع

ف ، ج : « مربوع » تحريف .

(٤) المزلج : الدعى ، والملزق بالقوم وليس منهم .

(٥) فى الأصل : « بأمر قبل » ، صوابه فى سائر النسخ .

عليه تلك البريّةَ من خصائص الغرائز ، وما قسم الله تعالى لأهل كلّ جيزة[١] من الشّكل والصُّورة[٢] ومن الأخلاق واللُّغة .

فإنْ قلتَ : فكيف كان أولادهما جميعاً عرباً مع اختلاف الأبوّة .

قلنا : إنّ العربَ[٣] لما كانت واحدةً فاستوَوْا فى التُّربة وفى اللغة ، والشّمائل والهمّة ، وفى الأنَف والحميّة[٤] ، وفى الأخلاق والسَّجيّة ، فسُبكُوا سَبكاً واحداً ، وأُفرِغوا إفراغاً واحداً ، وكان القَالَب واحداً ، تشابهت الأجزاء وتناسبت الأخلاط ، وحين صار ذلك أشدَّ تشابهاً فى باب الأعمّ والأخصّ وفى باب الوِفاق والمباينة[٥] من بعض ذوى الأرحام ، جرى عليهم حكمُ الاتِّفاق فى الحسب ، وصارت هذه الأسباب ولادةً أخرى حتّى تناكحوا عليها ، وتصاهَروا من أجلها ، وامتنعت عدنان قاطبةً من مناكحة بنى إسحاق وهو أخو إسماعيل ، وجادُوا بذلك فى جميع الدهر لبنى قَحطان ـ وهو ابن عَابَر[٦] ـ ففى إجماع[٧] الفريقين على التناكح والمصاهرة ، ومنعهما من ذلك جميعَ الأمم : كِسرى فَمن دونه ، دليلٌ على أنّ النسبَ عندهم متّفق ، وأنّ هذه المعانىَ قد قامت عندهم مَقام الولادة والأرحام الماسَّة .

---

(١) الجيزة ، بالكسر : الناحية ، كما فى القاموس . ف ، ج : « جزيرة » تحريف .

(٢) فى الأصل : « الصور » مع سقوط الواو بعدها ، ووجهه من سائر النسخ .

(٣) م ، ف : « الجزيرة » .

(٤) الأنف ، بالتحريك : الأنفة . ف فقط : « الأنفة » .

(٥) م ، ف : « وفى البنية » . وفى الأصل : « الشية » ، وأثبت ما فى سائر النسخ .

(٦) فى الأصحاح ١١ : ١٢ من التكوين أنه قحطان بن عابر بن شالح بن أرفكشاد .

(٧) فى الأصل : « اختلاف » ، صوابه من سائر النسخ .

وزعمتَ أنّه أراد الفُرقة والتّحزيب[1] ، وأنّك أردت الأُلفة والتّقريب .

وزعمتَ أيضاً أنّ البَنَوىّ خُراسانى ، وأنّ نسبَ الأبناء نسبُ آبائهم ، وأنّ حُسن صنيع الآباء ، وقديمَ فعال الأجداد ، هو حسب الأبناء . وأنّ الموالىَ بالعرب أشبه ، وإليهم أقرب ، وبهم أمسّ ؛ لأن السُّنّة جعلتهم منهم .

فقلت : إنّ الموالىَ أقرب إلى العرب فى كثير من المعانى ؛ لأنّهم عربٌ فى المدّعَى[2] ، وفى العاقلة[3] ، وفى الوِراثة[4] . وهذا تأويل قوله « موَلى القَوم مِنْهم » و « مولى القَوم مِن أنفسهم[5] » ، و « الولاء لحُمةٌ كلُحمة النّسب[6] » . وعلى شبيه ذلك صار حليفُ القوم منهم ، وحكمه حكمهم ، فصار الأخنس بن شُريق[7] وهو رجلٌ من ثقيف ، وكذلك يَعلَى بن مُنْيَةَ[8] وهو رجل من بَلعدويّة ، وكذلك خالد بن عُرفُطة[9] وهو رجلٌ من عُذرة

٢٢ ظ

---

(١) التحزيب : أن يجعلهم أحزابا وفرقا . فى الأصل : « التخويف » صوابه فى سائر النسخ .

(٢) فى الأصل فقط : « النسب » .

(٣) العاقلة : العصبة التى تعقل عن القاتل ديته .

(٤) م ، ف : الراية » .

(٥) أخرجه البخارى عن أنس . الجامع الصغير ٩١٢٤ .

(٦) أخرجه الطبرانى عن عبد الله بن أبى أوفى ، والحاكم والبيهقى عن ابن عمر . الجامع الصغير ٩٦٨٧ .

(٧) ترجم له فى الإصابة ٦١ وذكر أنه ممن اختلف فى إسلامه .

(٨) فى الأصل : « منبه » ، صوابه فى سائر النسخ وجمهرة ابن حزم ٢١٣ ، ٢٢٩ . قال ابن حزم : « وهى أمه ، وهى بنت غزوان ، أخت عتبة بن غزوان . اسم أبيه أمية بن عبدة » .

(٩) الاشتقاق ٥٤٧ .

من قريش . وبذلك النَّسَب حَرُمت الصَّدَقةُ على موالى بنى هاشم ؛ فإنَّ النبى صلى الله عليه وسلم أجراهم فى باب التنزيه والتطهير مَجرى مواليهم . وبذلك السَّبب قَدَّمَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم بنى عبد المطَّلب على بنى عبد شمس ، وقرابتُهم سواءٌ ونسبُهم واحد ، للعَقْد المتقدِّم ، وللأيدى المتَّفقة .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مِنَّا خير فارسٍ فى العرب : عُكاشة ابن مِحْصَن[1] » ، فقال ضِرار بن الأزْوَر الأسَدىّ : ذاك رجلٌ منَّا يا رسول الله . قال : « بل هو منَّا بالحِلف » . فجعلَ حليفَ القوم منهم ، كما جعلَ ابنَ أُخت القوم منهم .

ثم زعمتَ أنَّ الأتراك قد شاركوا هؤلاء القومَ فى هذا النَّسب ، وصاروا من العرب بهذا السَّبب ، مع الذى بانوا به من الخِلال ، وحُبُوا به من شرف الخصال .

على أنّ وَلاء الأتراك لُبَاب قُريش ، ولُصَاص عبد مناف ، و [هم] فى سرِّ بنى هاشم ، [وهاشم[2]] موضعَ العذار من خدِّ الفرس ، والعِقدِ من لَبَّة الكاعب ، والجوهر المكنون ، والذَّهب المصفَّى ، وموضع المُحَّة من البيضة ، والعَين فى الرأس ، والرُّوح من البدن ؛ وهم الأنف المقدَّم ، والسَّنام الأكبر[3] ، والدُّرَّة الزهراء ، والرَّوضة الخضراء ، والذَّهب الأحمر . فقد شاركوا العربَ فى أنسابهم ، والموالىَ فى أسبابهم ، وفَضَلوهم

---

(١) الإصابة ٥٦٢٦ . وعكاشة بتشديد الكاف وتخفيفها ، وفيه الحديث : « سبقك بها عكاشة » .

(٢) ساقطة من الأصل ثابتة فى سائر النسخ .

(٣) فى سائر النسخ : « الأكرم » .

بهذا الفضل الذى لا يبلغه فضلٌ وإنْ برَع ، بل لا يَعشُره شَرفٌ وإنْ عظُم ، ولا مجدٌ وإنْ قَدُم .

فزعمتَ أنّ أنسابَ الجميع متقاربةٌ غير متباعدة ، وعلى حسب ذلك التّقارب تكون المؤازرة والمكاتفة ، والطاعة والمناصحة ، والمحبة للخلفاء والأئمة .

وذكرت أنّهُ ذكر جُملاً من مفاخرة الأجناس ، وجمهرةً من مناقب هذه الأصناف ، وأنّه جمعَ ذلك وفَصَّلَه[1] وفسّره ، وأنّه ألغَى ذكر الأتراك فلم يَعرِض لهم ، وأضربَ عنهم صفحا ، يُخبِر عنهم كما أخبر عن حُجّة كلّ جيل ، وعن بُرهان كلّ صِنف ؛ وذكرَ أنّ الخراسانىّ يقول : نحن النُّقباء وأبناء النقباء ، ونحن النُّجباء وأبناء النُّجباء ، ومنّا الدُّعاة ، قبل أنْ تَظهر نَقابةٌ[2] ، أو تُعرَف نَجابة ، وقَبلُ المغالبة والمباراة ، وقبل كَشف القِناع وزوال التَّقيّة وزوال ملك أعدائنا عن مستقرِّه ، وثبات ملك أوليائنا فى نِصابه . وبين ذلك ما قُتِلنا وشُرِّدنا ، ونُهِكنا ضرباً[3] وبُضِعنا بالسُّيوف الحِداد[4] ، وعذّبنا بألوان العذاب .

٢٣ و

وبنا شَفَى اللهُ الصُّدورَ ، وأُدرِك الثأر . ومنّا الاثناعَشَر النُّقباء ، والسَّبعون النَّجباء . ونحن الخندقيّة[5] ، ونحن الكفّيّة وأبناء الكفّيّة[6] ،

---

(١) بعده فى معظم النسخ : « وأجمله ».

(٢) النقابة ، بالفتح المصدر ، وبالكسر الاسم . والنقيب : العريف على القوم المقدم عليهم الذى يتعرف أخبارهم وينقب عن أحوالهم.

(٣) م ، ف : « وطلباً » .

(٤) الحداد : المرهفة ، جمع حديد . والبضع : القطع والشق .

(٥) الخندقية : أصحاب الخنادق أيام نصر بن سيار ، كما سيأتى .

(٦) م ، ف : «الكتفية وأبناء الكتفية » .

وَمنا المستجيبة ومن يهرج التيمية[١] ومنّا نيم خزان[٢] وأصحاب الجوربين[٣] ومنا الزَّغَندِيّة[٤] والآزاذمردية[٥] .

ونحن فتحنا البلادَ وقتلنا العباد ، وأبَدْنا العدوَّ بكلِّ وادٍ . ونحنُ أهلُ هذه الدّولة ، وأصحاب هذه الدعوة ، ومَنبِت هذه الشجرة . ومن عندنا هبَّت هذه الرِّيح .

والأنصار أنصاران : الأوس والخزرجُ نصرو النبيَّ صلى الله عليه وسلم فى أوَّل الزمان ، وأهلُ خراسان نصروا ورثتَه فى آخر الزَّمان . غذَانا بذلك آباؤنا وغَذَوْنا به أبناءنا ، وصار لنا نسباً لا نُعرف إلاَّ به ، ودِيناً لا نوالِى إلاَّ عليه .

ثم نحن على وتيرةٍ واحدة ، ومنهاج غير مشترك ؛ نُعرف بالشيعة ، ونَدِين بالطَّاعة ، و نُقتَل فيها ونَمُوت عليها . سِيمانا موصوفٌ ، ولباسنا معروف. ونحن أصحاب الرَّايات السُّود ، والروايات الصحيحة ، والأحاديث المأثورة ، والذين يَهدِمون مُدنَ الجبابرة ، ويَنزِعون المُلْك من أيدى الظَّلَمة . وفينا

---

(١) ن ، س : « يمرج » . م : « النيمية » .

(٢) ف : « تيم » بدل « نيم » .

(٣) الجوربين مهلة فى الأصل وإعجامها من س ، ن . و فى ف : « الحوزتين » و م : « الجوزتين » .

(٤) زغند ، فى الفارسية بمعنى صوت الحيوان الوحشى . فى الأصل : « الدعيدية » وأثبت ما فى سائر النسخ . وسيأتى قوله : « ولنا الأصوات التى تسقط منها الحبالى »:

(٥) الآزاذ مردية ، اسم كان يطلق على طبقة الأشراف من الفرس . انظر مقال الدكتور كراوس فى مجلة الثقافة العدد ٢٢٤ .

تَقدَّم الخَبر ، وصحَّ الأثر . وجاء فى الحديث صفة الذين يفتحون عَمُّورِيَّةَ[١] ويظهرون عليها ، ويقتلون مُقاتليها ويَسْبون ذراريها ، حيث قالوا فى نعتهم : « شُعومهم شعُور النِّساء ، وثيابهم ثيابُ الرهبان » . فصَدَّق الفعلُ القول ، وحقَّق الخبرَ العِيان .

ونحن الذين ذَكرَنا وذَكر بلاءنا أمامُ الأئمة ، وأبو الخلائق العشرة : محمَّد بن على[٢] ، حين أراد توجيهَ الدُّعاة إلى الآفاق ، وتفريقَ شيعته فى البلاد ، أن قال :

٢٣ ظ أما البَصرة وسوادُها فقد غلب عليها عثمانُ وصنائع عثمان ، فليس بها من شيعتنا إلاَّ القليل . وأمَّا الشام فشيعةُ بنى مروان وآل أبى سُفيان . وأمَّا الجزيرة فحَرُوريَّة شارِيَة[٣] ، وخارجة مارقة ، ولكن عليكم بهذا الشَّرق ؛ فإنَّ هناك صدوراً سليمة وقلوباً باسلة ، لم تُفسِدها الأهواء ، ولم تَخامِرها الأدواء ، ولم تعتَقِبْها البدع ، وهم مغيظون موتورون . وهناك العَدد [والعُدّة[٤]] ، والعَتاد والنَّجدة .

---

(١) عمورية : بلد فى بلاد الروم ، فتحها المعتصم العباسى سنة ٢٢٣ . ولهذا الفتح قصة عجيبة فى كتب التاريخ . وفيه يقول أبو تمام :

يايوم وقعة عمورية انصرفت   عنك المنى حفلا معسولة الحلب

(٢) محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، والد السفاح والمنصور ، أول من نطق بالدعوة العباسية . توفى سنة ١٢٥ . تهذيب التهذيب .

(٣) الشارية : جمع شار ، وهم الذى شروا أنفسهم أى باعوها فى سبيل الله ، وهم الخوارج .

(٤) ساقطة من الأصل ثابتة فى سائر النسخ .

ثم قال: [وأنا أتفاءل[١]] إلى حيث يطلع منه النَّهار[٢]. فكنَّا خَيرَ جُندٍ لِخَيرِ إمام؛ فصدَّقنا ظنَّه، وثبَّتْنَا رأيه، وصوَّبنا فِراستَه.

وقال مرَّةً أخرى:

أمرُنا هذا شرقيٌّ لا غربيّ، ومُقبِل لا مدبر[٣]، يطلُع كطلوع الشَّمس، ويمتدُّ على الآفاق امتدادَ النهار، حتَّى يبلغ حيث تبلغه الأخفاف[٤]، وتناله الحوافر.

قالوا: ونحن قتَلنا الصَّحْصَحِيَّة[٥]، والدَّالقية، والدَّكوانيَّة، والرَّاشديَّة[٦]. ونحن أيضًا أصحاب الخنادق أيَّامَ نصر بن سيَّار، وابن جُدَيْعٍ الكرمانيّ[٧]، وشيبان بن سَلَمة الخارجي. ونحن أصحاب نُباتة بن حنظلة[٨]، وعامر بن ضُبارة[٩]، وأصحابُ ابن هبيرة. فَلَنا قديمُ هذا الأمر وحديثُه، وأوّله وآخره

---

(١) موضعها بياض فى الأصل، وإثباتها من سائر النسخ.

(٢) م، ف: «إلى حيث ما تطلع» فقط. ن، س: «إلى حيث يطلع النهار».

(٣) م، ف: «غير مدبر».

(٤) م، ف: «حيثما تبلغه الأخفاف».

(٥) فى الأصل، م، ف: «الصحيحة» صوابه فى ن، س.

(٦) الصحصحية: نسبة إلى صحصح، وكان أحد المتكلمين. انظر الحيوان ٣: ٣٩٥ والبخلاء ٤ والطبرى ٩: ١٣١ فى حوداث سنة ١٣٢. والدالقية، بدلها فى الطبرى: «الدوكانية». والراشدية ذكرهم الطبرى فى الموضع الذى أشرت إليه.

(٧) هو على بن جديع الكرمانى. الطبرى ٩: ٩١، ٩٧ والاشتقاق ٢٩٥ ونوادر المخطوطات ٢: ١٨٦، ١٩١ وجمهرة ابن حزم ٣١٧

(٨) جمهرة أنساب العرب ٢٨٣. وهو من بنى كلاب بن ربيعة.

(٩) الاشتقاق ٢٨٩، ٢٩٠ والجمهرة ٢٥٤، وكان من قواد ابن هبيرة.

ومنَّا قاتلُ مروان[١] .

ونحنُ قومٌ لنا أجسامٌ وأجرام ، وشُعورٌ وهام ، ومناكبُ عِظام ، وجِباهٌ عِراض ، وقَصَرٌ غِلاظ[٢] ، وسواعدُ طوال .

ونحنُ أولَدُ للذُّكورة ، وأنسَلُ بُعولة ، وأقلُّ ضَوًى وضُؤولة ، وأقلُّ إتآمًا وأنتق أرحاما[٣] ، وأشدُّ عصبا وأتمُّ عظاما ، وأبدانُنا أحمَل للسلاح ، وتِجْفافُنا[٤] أملأُ للعيون .

ونحن أكثر مادّةً ، وأكثر عَددا وعُدّة .

ولو أنَّ يأجوج ومأجوجَ كاثَروا مَنْ وراء النَّهر منّا لظهروا عليهم بالعَدد . فأمّا الأَيْد وشِدّةُ الأَسْر ، فليس لأحدٍ بعدَ عادٍ وثمودَ والعمالقة والكنعانيِّين مثلُ أيدِنا وأسْرِنا .

---

(١) فى الطبرى ٩ : ١٣٦ أن قاتل مروان بن محمد سنة ١٣٢ رجل من أهل البصرة يقال له «المغود» . فى الأصل : « وبنا قاتل من ولى » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٢) القصر ، بالتحريك : جمع قصرة ، وهى أصل العنق ، وبه فسر ابن عباس قوله تعالى : «إنها ترمى بشرر كالقصر » فى قراءته بفتح الصاد . فى الأصل : « فصص » وفى ن ، س : « قصص » صوابه فى م ، ف .

(٣) هذا ما فى م ، ف . والإتآم : أن تلد اثنين فى بطن . وأنتق أرحاما : أكثر ولادة . وفى الأصل : « وأجل أحسابا وأوثق أبدانا » وفى ن ، س : « وأقل أيامى وأنتق أرحاما » ، لكن بعض أصول ن توافق الأصل .

(٤) التجفاف : ما جلل به الفرس من سلاح وآلة تقيه الجراح فى الحرب . وفى الأصل : « وخفافنا » وفى سائر الأصول : « وأخفافنا » ، والوجه ما أثبت . وفى البيان ٣ : ١٨ فى قول الشعوبية : « ولا تعرفون الأقبية ولا السراويلات ، ولا تعليق السيوف ، ولا الطبول ولا البنود ولا التجافيف» وانظر ص ١٩ س ١٢ .

ولو أن خيولَ الأرضِ وفُرسان جميعِ الأطراف جُمِعوا فى حَلْبَةٍ واحدة ، لـكُنَّا أكثرَ فى العيون ، وأهْوَلَ فى الصُّدور .

ومتى رأيتَ مواكبَنا وفُرسانَنا ، وبُنودنا التى لا يحملها غيرُنا ، علِمتَ أننا لم نُخلَق إلَّا لقَلْب الدُّوَل ، وطاعة الخلفاء ، وتأييد السلطان . ٢٤ و

ولو أنَّ أهلَ التُّبَّت ورجالَ الزَّابج[١] ، وفُرسانَ الهند ، وحَلْبة الرُّوم ، هجَم عليهم هاشم بن أشتاخنج[٢] لما امتنعوا من طَرْح السِّلاح والهربِ فى البلاد .

ونحنُ أصحابُ اللِّحَى وأرباب النُّهَى ، وأهلُ الحلم والحِجَا ، وأهلُ الثَّخَانة[٣] فى الرأى ، والبُعد من الطَّيش . ولسنا كجُنْد الشَّام المتعرِّضين للحَرَم ، والمتهكين لـكلِّ مُحَرَّم .

ونحن ناسٌ لنا أمانةٌ وفينا عِفَّة . ونحن نجمع بين النَّزاهة والقَناعة والصَّبرِ على الخدمة ، والتجمير عند بعد الشُّقَّة[٤] . ولنا الطُّبول المَهُولة العِظام والبُنود ، ونحن أصحاب التجافيف والأجراس ، والبازيكند[٥] واللُّبود الطِّوال ، والأغماد

(١) الزابج بفتح الباء وكسرها : جزيرة فى أقصى بلاد الهند فى حدود الصين . وفى الحيوان ٧ : ٣٣٠ : « ويزعم تجار التبت ممن قد دخل الصين والزابج » . م : « الزنج » ، تحريف .

(٢) كلمة « بن » ساقطة من الأصل ، وإثباتها من سائر النسخ والطبرى ٩ : ٢٨٣ . وقتل هاشم هذا سنة ١٥٢ .

(٣) فى الأصل : « النجـابة » ، وفى م ، س : « الثجانة » ، وأثبت ما فى سائر النسخ . والمراد قوة الرأى وجزالته .

(٤) تجمير الجيش : إبقاؤه فى ثغر العدو .

(٥) البازيكند ، يبدو أنه كساء يلقى على الـكتف . و « باز » فى الفارسية =

المعَقّفة[١] والشَّوارب المُعقرَبة ، والقلانس الشاشيَّة ، والخيول الشهريَّة[٢] ، والكافر كوبات[٣] والطَّبَرْزينات[٤] [في الأَكُفّ] ، والخناجر في الأوساط . ولنا حُسْنُ الجِلسة على ظهور الخيل . ولنا الأصواتُ التي تُسقِط منها الحَبالى .

وليس في الأرض صِناعةٌ غريبةٌ من أدبٍ وحكمة ، وحسابٍ وهندسة ، وإيقاع وصَنعة[٥] ، وفِقهٍ ورواية ، نَظَرتْ فيها الخراسانية إلّا فَرَعت فيها الرُّؤساء[٦] ، وبزَّت فيها العلماء .

ولنا صَنعة السِّلاح من لِبْد ورِكابٍ ودِرع . ولنا مما جعلناه رياضة وتمرينًا ، وإرهاصًا للحرب ، وتثقيفًا ودُربةً للمجاولة والمُشاولة ، [و] للكرِّ

= بمعنى الكتف . انظر البيان ١ : ٩٥ / ٣ : ١١٥ . في الأصل : « الباركند » وفي سائر النسخ : « الباز فكند » .

(١) المعقفة : المعوجة ، وذلك لاعوجاج السيوف التي تجعل فيها . ف : « والأعمدة والحقفة » ج : « والأعمدة والمعقفة » .

(٢) في اللسان : « والشهرية : ضرب من البراذين ، وهو بين البرذون والمقرف من الخيل » .

(٣) الكافر كوبات : جمع كافركوب ، وهى المقرعة . انظر حواشي البيان ١ : ١٤٢ . في الأصل : « الكافر كورات » ، صوابه في سائر النسخ .

(٤) الطبرزينات : جمع طبرزين ، وهو فأس تستعمل في القتال عند الفرس ، مركبَ من « تبر » بمعنى الفأس ، و « زين » بمعنى السرج ، لعله سمى بذلك لالتزام وضعه بجانب السرج . استينجاس ٢٧٠ والمعرب ١٩٤ والألفاظ الفارسية ١١١ . وكلمة « في الأكف » بعدها من سائر النسخ .

(٥) م ، ف : « وارتفاع بناء وصنعة » .

(٦) فرّعه : علاه وطاله .

بعد الكرّ : مثل الدَّبُّوق[١] ، والنَّزْو على الخيل صغارًا ، ومثل الطَّبطاب[٢] والصَّوَالجِةِ الكبار ، ثم رمى الجثَّمة[٣] ، والبُرجاس[٤] والطائر الخطّاف .

فنحن أحقُّ بالأَثَرة[٥] ، وأولى بشرف المنزلة .

ثم قلت : وزَعم أنَّ القُربة[٦] تُستَحَقُّ بالأسباب الثابتة ، وبالأرحام الشابكة ، وبالقِدمة ، والطاعة للآباء والعشيرة ، وبالشكر النافع ، والمديح الكافى[٧] بالشِّعر الموزون الذى يبقى بقاء الدهر ، ويلوح مالاحَ نجم ، ويُنشَد ما أُهِلَّ بالحج ، وما هَبّت الصَّبا ، وما كان للزَّيت عاصر ؛ وبالكلام المنثور والقول المأثور . أو بصفة مخرج الدولة والاحتجاج للدعوة ، وتقييد المآثر ، إذْ لم يكن [ذلك من[٨]] عادة العجم ، ولا كان يُحفظ ذلك معروفاً لسوى العرب . ونحن نرتبطها بالشعر المقفَّى ، ونصلها بحفظ الأمِّيِّين[٩] . [الذين ٢٤ ظ

---

(١) فى اللسان : « الدبوق : لعبة يلعب بها الصبيان ، معروفة » .

(٢) الطبطاب : مضرب الكرة .

(٣) المجثمة : مانصب من الحيوان للرمى والقتل ،

(٤) البرجاس : غرض فى الهواء على رأس رمح أو نحوه . الألفاظ الفارسية ١٨ . فى الأصل و م : « البرجاسب » وفى ف : « البرحاسبار » ، وأثبت مافى سائر النسخ .

(٥) فى الأصل وبعض أصول ن : «بالإمرة» . وانظر ٢٥ س ٩ و ٢٨ س ١٤

(٦) القربة : القرابة . م : « إن تكن القربة » ف « إن تكن القربى » :

(٧) م ، ف : « والمدلج الباقى » ولعلها : «والمديح الباقى » .

(٨) التكملة من سائر النسخ .

(٩) فى الأصل : « الأثر » ، صوابه من سائر النسخ . وقد سقط بعده سقط كبير ينتهى فى ص ٢٥ أثبته من سائر النسخ بين معقفين .

لا يتّكلون على الكتب المدوّنة ، والخطوط المطرّسة . ونحن أصحاب التفاخُر والتنافر ، والتنازع فى الشّرف ، والتحاكم إلى كلّ حَكم مُقنِع وكاهنٍ سَجّاع . ولنا التعايُر بالمثالب ، والتفاخُر بالمناقب . ونحن أحفظ لأنسابنا ، وأرعى لحقوقنا وتقييدها أيضًا بالمنثور المرسَل ، بعد الموزون المعدَّل ، بلسانٍ أمضى من السِّنان ، وأرهفَ من السَّيف الحُسام ، حتى نذكّرهم ماقد درس رسمُه ، وعفا أثره .

وبين القتال من جهة الرغبة والرهبة فرق ، وليس المُغرِق فى الحفاظ كمن هذا فيه حادث . وهذا بابٌ يتقدّم فيه التالد القديمُ الطارفَ الحديث .

وطُلّاب الطوائل رجلان : سجستانى وأعرابىّ . وهل أكثر النقباء إلّا من صميم العرب ، ومن صَليبة هذا النَّسب ، كأبى عبد الحميد قَحطَبة ابن شَبيب الطائى ، وأبى محمد سليمان بن كثير الخزاعى ، وأبى نصر مالك ابن الهيثم الخزاعى ، وأبى داود خالد بن إبراهيم الذُّهلىّ ، وكأبى عمرو لاهز ابن قريظ المَرَئىّ[1] ، وأبى عتيبة موسى بن كعب المرئىّ[2] ، وأبى سهل القاسم ابن مجاشع المزنىّ[3] ، ومن كان يجرى مجرى النُّقباء ولم يدخل فيهم ، مثل مالك ابن الطواف المُزَنىّ .

وبعد فمن هذا الذى باشر قتل مروان[3] ، ومن هزمَ ابنَ هبيرة ، ومن

---

(١) نسبة إلى امرئ القيس . فهو لاهز بن قريظ بن سرى بن الكاهن بن زيد بن عصية بن امرئ القيس . جمهرة أنساب العرب ٢١٤ . قال : «كان من وجوه أهل دعوة بنى العباس» وفى الأصول : «المزنى» .

(٢) إن صح كان نسبة إلى مران بن جعفى بن سعد العشيرة . انظر جمهرة ابن حزم ٤٠٩ . والمعارف ٤٨ .

(٣) انظر ماسبق فى ص ١٨ . ويبدو أن قتل مروان بن محمد كان موضع مفاخرة بين العرب وغيرهم .

قتلَ ابن ضُبارة ، ومن قتل نُباتة بن حنظلة ، إلّا عَرَبُ الدَّعوة ، والصَّميمُ مَن أهل الدولة ؟! ومن فتح السِّند إلا موسى بن كعب ، ومن فتح إفريقيَّة إلّا محمد ابن الأشعث؟!

وقلت : وقال : وتقول الموالى : لنا النصيحة الخالصة ، والمحبة الراسخة ، ونحن موضع الثقة عند الشدّة . وعلقُ المولى[1] من تحتُ موجبة لمحبّة المولى من فوق ، لأنَّ شرف مولاه راجعٌ إليه ، وكرمه زائد فى كرمه ، وخموله مُسقطٌ لقدره . وبودّه أنَّ خصالَ الكرام كلَّها اجتمعت فيه ؛ لأنّه كلَّما كان مولاه أكبر وأشرف وأظهر ، كان هو بها أشرفَ وأنبل . ومولاك أسلم لك صدرًا ، وأردُّ ضميرًا ، وأقلُّ حسدًا .

وبعدُ فالوَلاء لحمة كلحمة النَّسب[2] ، فقد صار لنا النسب الذى يصوِّبه العَربىّ ، ولنا الأصل الذى يفتخر به العجمى .

قال : والصَّبر ضروب ، فأكرمها كلها الصَّبر على إفشاء السرّ . وللمولى فى هذه المكرمة ما ليس لأحد .

ونحن أخصُّ مَدخلاً ، وألطف فى الخدمة مسلكاً . ولنا مع الطاعة والخدمة والإخلاص وحُسن النيّة ، خدمةُ الأبناء للآباء ، والآباء للأجداد ، وهم بمواليهم آنَس ، وبناحيتهم أوثق ، وبكفايتهم أسَرّ .

وقد كان المنصور ، ومحمد بن على ، وعلى بن عبد الله ، يخصُّون مواليَهم بالمواكلة والبسط والإيناس ، لا يُبهرجون الأسْوَدَ لسواده[3] ، ولا الدميم

---

(١) م : « المولى » ، وكذا بعض أصول ن .

(٢) انظر ماسبق فى ١٢ س ٧ .

(٣) بهرج الشىء : أبطله وأهدره . والمراد أنهم لايضعون من قدره .

لدمامته ، ولا الصناعةَ الدنيئة لدناءتها . ويوصون بحفظهم أكابرَ أولادهم ، ويجعلون لـكثيرٍ من موتاهم الصلاةَ على جنائزهم ، وذلك بحضرة من العمومة وبنى الأعمام والأخوة .

ويتذاكرون إكرام رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثةَ مولاه ، حينَ عقدَ له يومَ مؤتة على جِلّة بنى هاشم ، وجَعَله أميرَ كلِّ بلدةٍ يطؤها[1] .

ويتذاكرون حبَّه لأسامة بن زيد ، وهو الحِبُّ ابنُ الحِبِّ[2] . وعقد له على عظماء المهاجرين وأكابر الأنصار .

ويتذاكرون صنيعه بسائر مواليـــه ، كأبى أنسة[3] ، وشُقران[4] ، وفلان وفلان .

قالوا : ولنا من رءوس النقباء أبو منصور مولى خزاعة ، وأبو الحكم عيسى بن أعْيَن مولى خزاعة ، وأبو النجم عمران بن إسماعيل مولى آل

---

(١) أى يدخلها ويفتحها .

(٢) العثمانية للجاحظ ١٤٧ ، وقد وقع هناك تحريف فى الطبع .

(٣) اختلف فى اسمه فقيل أنسة أيضا كما فى الإصابة ٢٨٥ . وكان حبشيا كما فى جوامع السيرة لابن حزم ١١٤ وكان يأذن على النبى صلى الله عليه وسلم ، ومات فى خلافة أبى بكر .

(٤) شقران يقال كان اسمه صالح بن عدى ، وكان حبشيا أهداه عبد الرحمن بن عوف لرسول الله . الإصابة ٣٩١١ . وهو أحد من دلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قبره . جوامع السيرة ٢٦٥ . وذكر ابن هشام فى السيرة ١٠١٨ أنه تولى صب الماء عليه فى غسله .

أبى مُعَيط . فلنا مناقب الخُراسانية ، ولنا مناقب الموالى فى هذه الدعوة ، ونحن منهم وإليهم ، ومن أنفسهم ، لا يدفع ذلك مسلمٌ ولا ينكره مؤمن ، خدمْناهم كباراً وحملناهم على عواتقنا صغاراً . هذا مع حقّ الرَّضاع والخؤولة ، والنشوء فى الكُتّاب ، والتقلُّب فى تلك العِراص التى لم يبلغها إلاّ كلُّ سعيدِ الجدّ ، وجيهٍ فى الملوك . فقد شاركْنا العربيَّ فى فخرِه ، والخراسانىَّ فى مجده ، والبَنَوىَّ فى فضله ، ثم تفرَّدْنا بما لم يشاركونا فيه ، ولا سبَقونا إليه .

قالوا : ونحن أشكل بالرعيّة ، وأقرب إلى طِباع الدَّهماء ؛ وهم بنا آنَس وإلينا أسكن ، وإلى لقائنا أحنُّ ؛ ونحن بهم أرحم ، وعليهم أعطف ، وبهم أشْبَه . فمَنْ أحقُّ بالأثرة ، وأولى بحُسن المنزلة ممّن هذه الخصالُ له ، وهذه الخلالُ فيه .

وقلت وذكرت أن البنَوىَّ قال :

أنا أصلى خراسان ، وهى مَخرج الدَّولة ومَطلع الدَّعوة ؛ ومنها نجَم هذا القرن ، وصبأ هذا الناب[١] ، وتفجَّر هذا اليَنبوع ، واستفاض هذا البحر ، حتى ضَرب الحقُّ بِجرانه[٢] ، وطبّق الآفاقَ بضيائه ، فأبرأ من السَّقم القديم ، وشفى من الداء العُضال ، وأغنى مِن العَيْلة[٣] ، وبصَّر من العمى[٤]] .

---

(١) صبأ الناب : طلع حده وخرج .

(٢) ضرب بجرانه : استقر وثبت . وأصل الجران باطن عنقِ البعير ، فإذا برك البعير واستقر قيل : ألقى جرانه . وفى حديث عائشة أيضاً : « حتى ضرب الحق بجرانه » .

(٣) أى بعد العيلة وهى الفقر .

(٤) هنا ينتهى السقط الذى بدأ فى ص ٢١ ، وأثبته من سائر النسخ .

قال : وفرعى بغدادُ ، وهى مستقرُّ الخلافة ، والقرار بعد الحَوْلة[١] ، وفيها بقيّة رجال الدعوة ، وأبناء الشّيعة ، وهى خُراسانُ العراق ، وبيت الخلافة ، وموضع المادّة .

قال : وأنا أعْرقُ فى هذا الأمر مِن أبى ، وأكثر تردادًا فيه من جدّى[٢] ، وأحقّ فى هذا الفَضْل[٣] من المولى والعربىّ . ولنا بعدُ فى أنفسنا ما لا يُنكَر من الصّبر تحت ظِلال السّيوف القصار والرّماح الطوال[٤] . [ولنا معانقة الأبطال عند تحطُّم القنا وانقطاع الصفائح[٥] . ولنا المواجأة بالسكاكين ، وتلقِّى الخناجر بالعيون ، ونحن حُماة المستلحَم ، وأبناء المَضايق . ونحن أهل الثبات عند الجولة ، والمعرفة عند الحَيْرة[٦] ، وأصحاب المشهَّرات ، وزينةُ العساكر وحُلَى الجيوش ، ومَن يمشى فى الرُّمح ، ويختال بين الصَّفّين . ونحن أصحاب الفتك والإقدام ، ولنا بعدُ التسلُّقُ ، ونقْب المدُن ، والتقحُّم على ظُبات السّيوف وأطرافِ الرّماح ، ورضخ الجندل ، وهشْم العُمد ، والصبرُ على الجراح وعلى جَرِّ السِّلاح[٧] إذا طار قلبُ الأعرابىّ ، وساء ظنُّ الخُراسانىّ . ثم الصَّبرُ تحت العقوبة ، والاحتجاج عند المساءلة ، واجتماع العقل ، وصحّة

(١) الحولة ، بالحاء المهملة المفتوحة : التحول والتنقل .
(٢) فى الأصل و ن ، س : « وأكثر ترددا من جدى » ، وأثبت ما فى م ، ف .
(٣) ج ، ف : « وأحق بهذا الفضل »
(٤) بعده سقط فى الأصل ، تمامه فى ص ٢٨ س ٩ .
(٥) الصفائح : جمع صفيحة ، وهى السيف العريض .
(٦) ج وبعض أصول ن : « الحيرة » ، وفى سائر النسخ : « الخبرة » ، والوجه ما أثبت .
(٧) يقال أجرّه الرمح ، إذا طعنه به فمشى وهو يجره .

الطَّرْف ، وثباتُ القدمين ، وقلّة التكفّى بحبل العُقابين(١) ، والبعد من الإقرار(٢) ، وقلّة الخضوع للدهر والخضوع عند جفوة الزوّار(٣) وجفاء الأقارب والإخوان .

ولنا القتالُ عند أبواب الخنادق ، ورءوسِ القناطر . ونحن الموتُ الأحمر عند أبواب النُّقَب . ولنا المواجأة فى الأزقّة ، والصَّبر على قتال السُّجون . فسَلْ عن ذلك الخُلَيْدية(٤) ، والكتفية ، والبلاليّة ، والحريبية(٥) . ونحن أصحاب المكابدات(٦) وأرباب البَيَات ، وقتل الناسِ جِهاراً فى الأسواق والطُّرقات .

ونحن نجمع بين السَّلّة والمزاحَفة(٧) . ونحن أصحاب القنا الطِّوال ما كنَّا رَجّالة ، والمَطاردِ القصارِ ما كنّا فُرسانا(٨) . فإن صِرنا كُمُنًا(٩) فالحَتْف

(١) التكفى : التميل والتقلب . والعقابان : خشبتان يشبح بينهما الرجل فيجلد . اللسان (عقب) وجنى الجنتين ٨٠ .

(٢) ف فقط : « من الفرار » . والمراد الإقرار بالذال .

(٣) فى معظم الأصول : « حفوة » . بالحاء المهملة ، والوجه ما أثبت .

(٤) طائفة منسوبون إلى خليد ، وجاء فى البخلاء ٤٢ – ٤٣ : « سل عن الكتيفية والخليدية والحريبية والبلالية » . ويبدو أنهم طوائف من أهل الشغب والفوضى .

(٥) الحريبية : نسبة إلى الحريبة ، بالتصغير ، وهى موضع بالبصرة ، يبدو أنه كان مأوى للشطار .

(٦) هذا ما فى ف . وفى سائر الأصول : « المكابرات » .

(٧) السلة : الدفعة فى السباق إحضاراً .

(٨) المطارد ، جمع مطرد بالكسر ، وهو الرمح القصير .

(٩) جمع كمين ، وهم الذين يكمنون ويختفون فى الحرب .

القاضى ، والسمُّ الذُّعاف . وإنْ كنّا طلائعَ فكلُّنا يقوم مقامَ أمير الجيش . نقاتل بالليل كما نقاتل بالنّهار ، ونقاتل فى الماء كما نقاتل على الأرض ، ونقاتل فى القرية كما نقاتل فى المحلّة .

ونحن أفتك وأخشب[1] ، ونحن أقطع للطّريق وأذكر فى الثُّغُور ، مع حُسن القُدود وجَودة الخرط ومقادير اللِّحَى ، وحُسن العِمَّة ، والنفس المُرّة . وأصحابُ الباطل والفتوّة[2] ، ثم الخطّ والكتابة ، والفقه والرِّواية .

ولنا بغدادُ بأسرها ، تسكن ما سكنّا ، وتتحرّك ما تحرّكنا . والدُّنيا كلُّها معلَّقة بها ، وصائرة إلى معناها . فإذا كان هذا أمرَها وقسرها لجميع الدُّنيا تبعٌ لها[3]] . وكذلك أهلُها لأهلها ، وفُتّاكها لفتّاكها ، وخُلاَّعها لخُلاّعها[4] ، ورؤساؤها لرؤسائها ، وصلحاؤها لصلحائها .

ونحن بعدُ تربيةُ الخلفاء ، وجِيران الوُزَراء ، وُلِدنا فى أفنية مُلوكنا ، ونحن أجنحةُ خلفائنا ، فأخَذْنا بآثارهم ، واحتَذَينا على مثالهم ، فلسنا نَعرِف سواهم ، ولا نُعرف بغيرهم ، ولا يطمع فينا أحدٌ قطُّ من خُطّاب مُلكهم ، وممن يترشّح للاعتراض عليهم . فمَنْ أحقُّ بالأَثَرة ، وأولى بالقُرب فى المنزلة مِمَّن هذه الخصالُ فيه ، وهذه الخلالُ له .

---

(١) أى أشد خشونة وغلاظة .

(٢) كلمة « الباطل » ساقطة من ف .

(٣) هنا ينتهى سقط الأصل الذى بدأ فى ص ٢٦ س ٦ وإثباته من سائر النسخ .

(٤) كذا فى جميع النسخ .

بسم الله الرحمن الرحيم

إنْ ذهَبْنا حفظك الله بِعَقب هذه الاحتجاجات ، وعندَ مقطع هذه الاستدلالات ، نستعمل هذه المعارضةَ[1] بمناقب الأتراك ، والموازنة بين خصالهم وخصال كلِّ صنف من هذه الأصناف ، سلكنا فى هذا الكتاب سبيلَ أصحابِ الخصومات فى كُتُبهم ، وطريقَ أصحاب الأهواء فى الاختلاف الذى بينَهم .

وكتابُنا هذا إنَّما تكلَّفناه لنؤلِّف بين قلوبهم التى كانت مختلفة ، ولنزيد الأُلفة إن كانت مؤتلفة ، ولنُخبِر عن اتِّفاق أسبابهم لتجتمع كلمتُهم ، ولتسلم صدورهم ، وليعرِفَ من كان لا يعرف منهم موضعَ التفاوُت فى النسب ، وكم مقدارُ الخلاف فى الحسب[2] ، فلا يُغيِّر بعضهم مغيِّر ، ولا يفسدَهُ عدوٌّ بأباطيلَ مُمَوَّهة وشُبهات مزوَّرة ؛ فإنَّ المنافق العليم ، والعدوَّ ذا الكيد العظيم ، قد يصوِّر لهم الباطل فى صورة الحقّ ، ويُلبِس الإضاعةَ ثياب الحَزْم . إلا أنَّا على حال سنذكر جُملاً من أحاديثَ رويناها ووعيناها ، وأمورٍ رأيناها وشاهدناها ، وفضائلَ تلقَّفْنَاها[3] من أفواه الرجال وسمعناها . ٢٥ و

وسنذكر جميع ما فى هذه الأصناف[4] من الآلات والأدوات ، ثم ننظر أيُّهم لها أشدُّ استعمالاً ، وبها أشدُّ استقلالاً ، ومَن أثْقَبُ كَيسا وأفتح عيناً

---

(١) ما عدا الأصل وبعض أصول ن : « المفاوضة » ، والوجه ما أثبت .
(٢) م ، ف : « كم مقدار » بدون واو .
(٣) فى الأصل : « تلقفناها » ، وأثبت ما فى سائر النسخ .
(٤) فى سائر النسخ : « ما حفظ لجميع الأصناف » .

وأذكى يقيناً ، وأبعدُ غوراً وأجمع أمراً ، وأعمَّ خواطرَ وأكثرُ غرائبَ ، وأبدع طريقاً ، وأدوَمُ نفعاً فى الحروب ،وأضرَى وأدربُ دُربةً ، وأغمضُ مكيدةً[١] ، وأشدُّ احتراساً وألطفُ احتيالاً ؛ حتَّى يكون الخيار فى يد الناظر المتصفِّح لمعانيه ، والمقلِّب لوجُوهه ، والمفكِّر فى أبوابه ، والمقابِل بين أوّله وآخرِه ، فلا نكون نحن انتحلنا شيئاً دون شىء ، وتقلَّدنا تفضيلَ بعضٍ على بعض ، بل [لعلّنا أن لا[٢]]نُخبرَ عن خاصَّة ما عِندنا بحرف واحدٍ .

فإذا دبَّرنا كتابَنا هذا التدبيرَ ، وكان موضوعُه على هذه الصِّفة ، كان أبعدَ له من مذاهبِ الجدال والمِراء ، واستعمالِ الهوى .

وقد ظنَّ ناسٌ أنَّ أسماء أصناف الأجناس كما اختلفت فى الصُّورة والخطِّ والهجاء ، أن حقائقها[٣] ومعانيَها على حَسَب ذلك . وليس الأمرُ على حسب ما توهَّمَه ؛ ألا ترى أنَّ اسمَ الشَّاكريَّة[٤] وإن خالفَ فى الصُّورة والهجاءِ اسمَ الجُنْد ، فإنَّ المعنى فيهما ليس ببعيدٍ ؛ لأنَّهم يرجعون إلى معنًى واحد وعمل واحد . والذى إليه يرجعون طاعةُ الخلفاء ، وتأييد السلطان .

وإذا كان المولى منقولاً إلى العرب فى أكثر المعانى ، ومجعولاً منهم فى عامَّة

---

(١) بعده فى الأصل: «وأبدع طريقاً وأدوم نفعاً فى الحروب» ، وهو تكرار .

(٢) التكملة من سائر النسخ .

(٣) ج ، ف : « كانت حقائقها » .

(٤) الشاكرية : ضرب من الجنود . وفى القاموس : « الشاكرى : الأجير المستخدم ، معرب چاكر » . وانظر الحيوان ٢ : ١٣٠ .

الأسباب ، لم يكن ذلك بأعجبَ مِمَّنْ جَعَلَ الخالَ والدًا ، والحليفَ من الصَّميم ، وابنَ الأخت من القوم .

وقد جُعِل ابنُ الملاعَنة[1] المولودُ على فراشِ البعل منسوبًا إلى أُمّه .

وقد جعلوا إسماعيلَ وهو ابن عجميَّين عربيًّا ؛ لأنَّ الله تعالى فتَق لَهاته بالعربيّة المُبينة على غير التلقين والترتيب ، ثمَّ فطره على الفصاحة العجيبة على غير النشوء والتَّقدير[2] ، وسلخَ طِباعه من طبائع العجم ، ونقَل إلى بدنه تلك الأجزاء ، [وركّبه اختراعا[3]] على ذلك التركيب ، وسوّاه تلك التسوية ، وصاغَه تلك الصِّياغة[4] ، ثم حباهُ من طبائعهم ، ومنحه من أخلاقهم وشمائلهم ، وطبَعَه من كرمهم وأنفتِهم وهممهم عَلَى أكرمِها وأمكنها ، وأشرفها وأعلاها ، وجعلَ ذلك برهانًا على رسالته ، ودليلًا على نبوّته ؛ فكان أحقَّ بذلك النَّسب ، وأولى بشرف ذلك الحسب .

٢٥ ظ

وكما جُعِل إبراهيمُ أبًا لمن لم يلِدْه ، فالبَنَوِيُّ خُراسانيٌّ من جهة الولادة ، والمولى عربيٌّ من جهة المدَّعَى والعاقلة[5] . وإنْ أحاطَ علمنا بأنَّ زَيدًا لم يخلق من نَجْل عمرو إلّا عِيارًا لنفيناه عنه[6] ، وإن وثِقْنا[7] أنه لم يخلق من صُلبه .

---

(١) الملاعنة : أن يقذف الرجل امرأته برجل أنه زنى بها .

(٢) وكذا فى بعض أصول ن ، وفى سائر النسخ : « والتمرين » .

(٣) التكملة من سائر النسخ .

(٤) وكذا فى بعض أصول ن . وفى سائر النسخ : « الصيغة » .

(٥) انظر ماسبق فى ص ١٢ الحاشية ٣ .

(٦) فى الأصل وبعض أصول ن : « إلا بما هو ألحقناه به » .

(٧) وكذا فى بعض أصول ن ، وفى سائر النسخ : « وإن أيقنا » .

وكما جَعل النبيُّ صلى الله عليه وسلم أزواجَه أمّهات المؤمنين وهنّ لم يلدنَهم ولا أرضعنَهم ، وفى بعض القراءات[1] : ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ﴾ ، على قوله : ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ[2] ﴾ . وجَعل المرأة من جهة الرَّضاع أمًّا ، وجَعل [امرأة] البعل أمّ ولد البعل من غيرها ، [وجعلَ] الرابَّ والدًا ، وجعل العمَّ أبًا [فى كتاب الله[3]] . وهم عبيدُه لا يتقلّبون إلّا فيما قلّبهم فيه . وله أن يجعل من عباده مَن شاء عربيًّا ومن شاء عجميًّا ، ومن شاء قرشيًّا ، ومن شاء زِنجيًّا ؛ كما لَه أن يجعل من شاء ذكراً ومن شاء أنثى ، [ومن شاء خنثى[4]] ، ومن شاء أفردَه من ذلك فجعَله لا ذكراً ولا أُنثى ولا خُنثى .

وكذلك خَلق الملائكةَ وهم أكرمُ على الله من جميع الخليقة . وخلقَ آدمَ فلم يجعل له أبًا ولا أمًّا ، وخلقه من طينٍ ونسبه إليه ، وخلق حوّاء من ضِلع آدمَ وجعلها لهُ زوجًا وسَكنا . وخلق عيسى من غير ذكرٍ ونسبه إلى أمّه التى خلقه منها . وخَلق الجانَّ من نار السَّموم ، وآدمَ من طينٍ ، وعيسى من غير نُطفة . وخلقَ السّماءَ من دُخَان ، والأرضَ من الماء ، وخلق إسحاقَ من عاقرٍ . وأنطق عيسى فى المَهْد ، وأنطق يحيى بالحكمة وهو صغير ، وعلَّم سليمانَ منطِق الطَّير ، وكلامَ النَّمل ، وعلَّم الحَفَظة من الملائكة جميعَ الألسنة حتّى كَتبوا بكلِّ خَطّ ، ونطقوا بكلِّ لسان . وأنطقَ ذِئبَ أُهبانَ بن أوس[5] .

---

(١) هى قراءة أبى وعبد الله بن مسعود فى الآية ٦ من سورة الأحزاب . تفسير أبى حيان ٧ : ٢١٢ .

(٢) الآية ٧٨ من سورة الحج .

(٣) هذه التكملة واللتان قبلها من سائر النسخ .

(٤) التكملة من سائر النسخ .

(٥) أهبان هذا : أحد الصحابة ، ذكروا أن الذئب كلمه ثم بشره بالرسول ، =

والمؤمنون من جميع الأمم إذا دخلوا الجنّة ، وكذلك أطفالهم والمجانينُ [منهم[1]] ، يتكلَّمون ساعةَ يدخلون الجنة بلسانِ أهل الجنّة ، على غير الترتيب والتنزيل ، والتعليم على طول الأيّام والتلقين . فكيف يتعجَّب الجاهلون من إنطلق إسماعيل بالعربية على غير تعليمِ الآباء ، وتأديب الحواضن ؟ !

وهذه المسألة ربَّما سأل عنها بعضُ القحطانية، ممن لا علم له، بعضَ العدنانية ، وهي على القحطانيِّ أشدُّ . فأمَّا جواب العدنانيّ فسلِسُ النِّظام سهلُ المَخرج ، قريبُ المعنى ؛ لأنَّ بني قَحطان لا يدَّعون لقحطانَ نُبوَّةً[2] فيعطيَه الله مثلَ هذه الأُعجوبة .

٢٦ و

وما الذي قَسَم الله ـ عزَّ اسمُه ـ بين الناس من ذلك ، إلَّا كما صنع في طِينة الأرض ، فجعل بعضَها حجراً ، وبعض الحجر ياقوتًا ، وبعضَه ذهبًا ، وبعضه نُحاسًا ، وبعضه رَصاصًا ، وبعضه حديدًا ، وبعضَه ترابًا ، وبعضه فَخَّارًا . وكذلك الزَّاج[3] ، والمَغْرة ، والزِّرنيخ ، والمَرْتك ، والكبريت[4] ، والقار[5]

= انظر تفصيل ذلك في ثمار القلوب ٣٠٩ . وانظر كذلك الحيوان ١ : ٢٩٨ / ٣ / ٥١٣ / ٤ : ٨٠/٧ : ٥٠ ، ٢١٣ ، ٢١٧ والإصابة ٣٠٥ . في الأصل : «لميار» ، صوابه في سائر النسخ والمراجع المتقدمة .

(١) التكملة من م ، ف .

(٢) في الأصل وبعض أصول ن : « بنوم » ، تحريف .

(٣) في الأصل وبعض أصول ن : « الزجاج » ، تحريف .

(٤) في الأصل وبعض أصول ن : « والطين » ، صوابه في سائر النسخ .

(٥) في بعض أصول ن وس : « والفار » تحريف . والقار : الزفت .

والتُّوتيا ، والنُّوشادُر[١] ، والمرقَشِيثا ، والمِغناطيس .

ومَنْ يُحصى عددَ أجزاء الأرض[٢] ، وأصنافَ الفِلِزّ ؟ !

وإذا كان الأمر على ما وصَفْنا فالبَنَوِىُّ خراسانىّ . وإذا كان الخراسانىُّ مولًى ، والمولَى عربىٌّ ــ فقد صار الخراسانىُّ والبَنَوِىُّ والمولى والعربىُّ واحدًا .

وأدنى ذلك أن يكون الذى معهم من خصال الوِفاق غامراً ما معهم من خِصال الخِلاف ، بل هم فى معظم الأمر وفى كُبْر الشَّأن[٣] وعمود النَّسب متَّفقون . والأتراكُ خراسانيةٌ وموالى الخُلفاء قُصرةٌ[٤] ، فقد صار التركىُّ إلى الجميع راجعًا ، وصار شرفُه إلى شرفهم زائداً .

وإذا عُرِف سائرُ ذلك سامحت النُّفوس ، وذهب التَّعقيد[٥] ، وماتَ الضِّغن ، وانقطع سبب الاستثقال ؛ فلم يبقَ إلّا التحاسُد والتّنافسُ الذى لا يزال يكون بين المتقاربيَنِ فى القَرابة وفى المجاورة .

على أنّ التَّوازُرَ والتسالُم[٦] فى القرابات وفى بنى الأعمامِ والعشائرِ ، أفشى وأعمُّ من البُعداء .

---

(١) انظر حواشى الحيوان ٣ : ٣٧٧ و ٥ : ٣٤٩ .

(٢) وكذا فى بعض أصول ن . وفى سائر النسخ : « جواهر الأرض » .

(٣) كبر الشأن ، بكسر الكاف وضمها : معظمه . وبهما قرئ قوله تعالى : « والذى تولى كبره منهم » .

(٤) قصرة ، بالضم ، أى أدنى إليهم ، كما يقال هو ابن عمى قصرة ، أى دانى النسب . وفى الأصل وبعض أصول ن : « نصرة » .

(٥) التعقيد كناية عن الضغينة المعقودة ، ويقولون للرجل إذا سكن غضبه : قد تحللت عقده . وفى الأصل وبعض أصول ن : « التعقل » ، تحريف .

(٦) فى الأصل وبعض أصول ن : « فإن التوازن فى الفساد » ، صوابه فى سائر النسخ .

وَلخوْفِ التَّخاذل ولحبِّ التناصُر ، والحاجةِ إلى التَّعاون ــ انضمَّ بعضُ القبائل فى البوادى إلى بعض ، ينزلون معًا ويَظْعَنون معًا . ومن فارق أصحابَه أقلّ[1] ، [و] من نَصر ابنَ عمِّه أكثر . ومَن اغتبط بنعمتِهِ وتمنَّى بقاءها والزيادة فيها أكثر ممَّن بَغَاها الغوائلَ[2] ، وطلبَ انقطاعَها وزوالَها . ولا بدَّ فى أضعاف ذلك من بعض التَّنافُس والتخاذُل ، إلَّا أنَّ ذلك قليلٌ من كثير .

وليس يجوز أن تصفُوَ الدُّنيا وتَنْقَى من الفساد والمكروه[3] حتَّى يموت جميعُ الخلائق ، وتستوىَ لأهلها ، وتتمهَّد لسكَّانها على ما يشتهون ويهوَوْن ؛ ٢٦ ظ لأن ذلك من صفة دار الجزاء ، وليس كذلك صفةُ دارِ العمل .

---

(١) فى الأصل : « أولى » .

(٢) الغوائل : المهلكات . ويقال بغيتك الشىء : طلبته لك وتمنيته . وفى التنزيل العزيز : « يبغونكم الفتنة » ، أى يبغون لكم .

(٣) نقى الشىء ينقى : صار نقياً خالصا .

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب كنتُ كتبتُه أيّامَ المعتصم بالله[١]، رضى الله عنه، فلم يصل إليه، لأسبابٍ يطول شرحُها، فلذلك لم أعرِضْ للإخبار عنها. وأحبَبْتُ أن يكونَ كتاباً قَصْداً، ومذهباً عَدْلاً، ولا يكونَ كتابَ إسرافٍ فى مديح قوم، وإغراقٍ فى هجاء آخرين. وإن كان الكتابُ كذلك شابَهُ الكذِب، وخالطه التزيُّد، وبُنى أساسُه على التكلُّف، وخرج كلامُه مَخرجَ الاستكراه والتّغْليق[٢].

وأنفَعُ المدائح[٣] للمادح وأجداها على الممدوح، وأبقاها أثراً وأحسنُها ذكرا: أنْ يكون للمديحُ صِدقاً، وللظّاهر[٤] من حَالِ الممدوح موافقاً، وبه لائقاً، حتّى لا يكونَ من المعبِّر عنه والواصفِ [له[٥]] إلاّ الإشارةُ إليه، والتنبيهُ عليه.

وأنا أقول: إن كان لا يمكن ذلك فى مناقب الأتراكِ إلاّ بذِكر مثالب سائر الأجناد، فتَرْكُ ذكرِ الجميعِ أصْوب، والإضرابُ عن [هذا الكتاب

---

(١) بويع المعتصم بالله محمد بن هارون الرشيد بعد وفاة أخيه المأمون سنة ٢١٨. وتوفى بسرمن رأى سنة ٢٢٧. وولى الخلافة بعده ولده هارون الواثق.

(٢) التغليق، المراد به العسر، كما يغلق الباب تغليقا. وفى جميع الأصول: «التعليق» بعين مهملة.

(٣) فى الأصل وبعض أصول ن: «المدح»، ولا تساوق سائر الكلام.

(٤) فى الأصل وبعض أصول ن: «والظاهر»، والوجه من سائر النسخ التى سقطت منها كلمة «من» بعدها.

(٥) التكملة من سائر النسخ، وقد سقطت من بعض أصول ن.

أحزم ، وذكر الكثير من[1]] هذه الأصناف بالجميل[2] ، لا يقوم بالقليل[3] من ذِكر بعضِهم بالقبيح ، لأنَّ ذِكر الأكثر بالجميل نافلةٌ ، وبابٌ من التطوُّع ، وذِكرَ الأقلِّ بالقبيح معصية ، وبابٌ من ترك الواجب . وقليلُ الفريضة أجدَى علينا من كثير التطوُّع .

ولكلٍّ نصيبٌ من النَّقص ، ومِقدارٌ من الذُّنوب ؛ وإنَّما يتفاضَل النَّاسُ بكثرة المحاسن وقلّة المساوى . فأمَّا الاشتمال على جميع المحاسن ، والسَّلامةُ من جميع المساوِى دقيقِها وجليلِها ، وظاهِرِها وخفيِّها ، فهذا لا يُعرف .

وقد قال النابغة :

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلُمّه ... على شَعَثٍ ، أيُّ الرِّجالِ المهذَّبُ

وقال حَرِيش السَّعدىّ[4] :

أخ لى كأيَّام الحيــاةِ إخاؤه ... تلوَّنُ ألواناً علىَّ خطوبُها

إذا عبت مِنْه خَلّةً فتركتُــه ... دعتنى إليــه خَلّةٌ لا أعيبها

وقال بشَّار[5] :

٢٧ و

إذا كنتَ فى كلِّ الأمور معاتباً ... خليلَكَ لم تَلقَ الذى لا تُعاتبهُ

(١) التكملة من سائر النسخ .

(٢) فى الأصل : « أجمل » ، صوابه من سائر النسخ .

(٣) فى الأصل : « لا يقوم الكثير من ذكر بعضهم بالجميل بالقليل » ، وتوجيه العبارة من باقى النسخ .

(٤) فى الأصل : « مرس السعدى » ، وأثبت مافى سائر النسخ . والبيتان بدون نسبة فى عيون الأخبار ٣ : ١٧ .

(٥) ديوان بشار ١ : ٣٠٩ وحماسة البحترى ١٠٠ وحماسة ابن الشجرى ١٤٣ والأغانى ٣ : ٤٧ والتمثيل والمحاضرة للثعالبى ٧٤ .

فعِشْ واحداً أو صِلْ أخاكَ فإنّه مُقــــارِفُ ذنبٍ مَرّةً ومُجانِبُه
إذا أنتَ لم تشرَبْ مِراراً على القذَى ظَمِيتَ وأيُّ الناس تَصفو مشاربُه

وقال مطيع بن إياسٍ اللّيثيّ :

ولئن كنتَ لا تصاحبُ إلاَّ صاحباً لا تزِلُّ ، ما عاشَ ، نَعلُه
لم تجِــدْه ولو جَهَدتَ وأنَّى بالذى لا يكونُ يُوجَد مثلُه
إنّما صاحبى الذى يَغفِرِ الذّ بَ ويكفيــه من أخيــه أقلُّه

وقال محمد بن سعيد[1] ، وهو رجل من الجُنْد :

سأشكر عَمراً إن تراخَتْ مَنِيَّتى أيادىَ لم تُمنَن وإنْ هى جَلَّتِ
فتًى غيرِ محجوب الغِنى عن صديقه
ولا مُظهرِ الشّـــكوى إذا النعلُ زَلَّتِ
رأى خَلَّتى من حيثُ يَخفَى مكانُها فكانت قَذَى عينَيهِ حتّى تَجلَّتِ

---

(١) فى معجم الشعراء للمرزبانى ٤٢١ أنه محمد بن سعد الكاتب التيمى ، وأنه شاعر بغدادى . وقيل الشعر لأبى الأسود الدؤلى وكان عند عمرو بن سعيد بن العاص فبينا هو يحدث إذ ظهر كم قميصه من تحت جبته وبه خرق ، فلما انصرف بعث إليه بعشرة آلاف درهم ومائة ثوب ، فقال هذا الشعر . وقيل الشعر لعبد الله بن الزّبير الأسدى ، وأنه أتى عمر بن أبان بن عثمان فسأله فأعطاه . اللآلى ١٦٦ . ونسب إلى إبراهيم بن العباس الصولى فى مجموعة المعانى ٩٦ ومعجم الأدباء ٥ : ٢٥٨ مرجليوث وابن خلكان ٢ : ٢٤٧ . وقيل لعمرو بن كميل يمدح عمرو بن ذكوان وكان قد رآه وعليه جبة بلا قميص فتشفع له حتى ولى الحرب بالبصرة، فأصاب فى ولايته مالا عظيما . أو هو رجل من أشراف المدينة أنعم عليه عمرو بن سعيد بن العاص وكان قد ظهر كم قميصه من تحت جبته . شرح التبريزى للحماسة . والأبيات بدون نسبة فى الحماسة ١٥٨٩ بشرح المرزوقى وحماسة البحترى ١٥٩ والكامل ١٢٣ .

فإذا كان الخلطاء[١] من جُمهور الناس ، وأصحابُ المعايش من دَهْماء الجماعة ، يرون ذلك واجباً وتدبيراً فى التعامل ، على ما هم فيه من مشاركة الخطأ للصواب ، وامتزاج الضَّعف بالقوَّة ، فلسنا نشكُّ أنَّ الإمامَ الأكبرَ والرَّئيس الأعظم ، مع الأعراق الكريمة والأخلاق الرفيعة ، والتَّمام فى الحلم والعلم ، والكمال فى الحزم والعَزْم ، مع التمكين والقُدرة ، والفَضيلةِ والرِّياسة [والسيادة[٢]] ، والخصائص التى معه من التَّوفيق والعِصمة ، والتأييد وحسن المعونة ، أنَّ الله[٣] جلّ اسْمه لم يكن ليجلّله باسم الخلافة ، ويحبوَه بتاج الإمامة ، وبأعظم نعمةٍ وأسبغها ، وأفضل كرامةٍ وأسناها ، ثم وصَلَ طاعته بطاعته ، ومعصيتَه بمعصيته ، إلَّا ومعه من الحلم فى موضع الحلم ، والعفو فى موضع العفو ، والتَّغافل فى موضع التَّغافل ، مالا يبلُغه فضلُ ذى فضل ، ولا حِلْمُ ذى حلم .

ونحن قائلون ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا بالله ، فيما انتهى إلينا فى أمر الأتراك :

زعم محمّدُ بنُ الجَهم ، وثُمامةُ بن أشرَس ، والقاسمُ بن سيَّار ، فى جماعةٍ ممن يَغشَى دارَ الخلافة ، وهى دار العامَّة[٤] ، قالوا جميعا : ٢٧ ظ

بينا حُمَيد بنُ عبد الحميد جالسًا ومعه بخشاد الصُّغدىّ[٥] ، وأبو شجاع

---

(١) فى الأصل وبعض أصول ن : « الخطاء » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٢) التكملة من سائر النسخ .

(٣) فى الأصل ، وبعض أصول ن: «وأن الله» ، وفى سائر النسخ : «لم يكن الله» .

(٤) ف فقط : « الإمامة » .

(٥) ن ، س : « يخشاد » ج ، ف : « إخشيد الصفدى » .

[شبيب[١]] بن بُخاراخذاى البَلخىّ ، ويحيى بن معاذ ، ورجال من المعدودين المتقدّمين فى العلم بالحرب [من أصحاب التجارب والمراس ، وطول المعالجة والمعاناة[١]] فى صناعات الحرب[٢] ، إذ خرج رسولُ المأمون فقال لهم : نقول لكم متفرّقين[٣] ومُجتمِعين : ليكتبْ كُلُّ رجلٍ منكم دعواه وحجته ، وليقُلْ أيُّما أحبُّ إلى [كُلٍّ[٤]] قائدٍ منكم إذا كان فى عُدَّته من صحبه وثِقاته : أنْ يَلقَى مائةَ تركىٍّ أو مائةَ خارجىٍّ ؟ فقال القوم جميعًا : [لأنْ[٥]] نلقَى مائة تركىٍّ أحبُّ إلينا من أن نَلقى مائة خارجىّ ! وحُميدٌ[٦] ساكت .

فلما فرغ القومُ [جميعًا] من حُجَجهم[٧] ، قال الرّسولُ : قد قال القوم فقُلْ

---

(١) التكملة من سائر النسخ .

(٢) فى سائر النسخ : « بصناعة الحرب » . وكذا فى بعض أصول ن .

(٣) فى سائر النسخ وبعض أصول ن : « مفترقين » .

(٤) التكملة من سائر النسخ .

(٥) التكملة من ف فقط .

(٦) هو أبو غانم حميد بن عبد الحميد الطوسى ، أحد أمراء الدولة العباسية وقوادها وأجوادها ، وهو أحد من وطد الخلافة للمأمون بهزيمته لإبراهيم بن المهدى . وكان لأبى العتاهية وعلى بن جبلة وأبى تمام فيه مدائح . كما رثاه أبو تمام ورثى بنيه محمداً وقحطبة وأبا نصر بقوله :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

وقد قتل بشربة صنعها له جبريل بن بختيشوع سنة ٢١٠ . الأغانى ١٩ : ١٠٠ – ١١٤ والطبرى ٩ : ٢٤٥ – ٢٥٤ وأسماء المغتالين من نوادر المخطوطات ٢ : ١٩٩ – ٢٠٠ .

(٧) فى الأصل وبعض أصول ن : « حجتهم » ، وأثبت ما فى سائر النسخ وكلمة « جميعاً » قبله تكملة من ف وبعض أصول ن .

واكتبْ قولَك ، وليكن حجّةً لك أو عليك . قال : بل ألقَى مائة خارجىٍّ أحبُّ إلىَّ ؛ لأننى وجدت الخصالَ التى يَفضُل بها الخارجىُّ جميعَ المقاتلة غيرَ تامّةٍ فى الخارجىّ ، ووجدتُها تامّةً فى التُّركى . فَفَضْل التركىِّ على الخارجىّ بقَدْر فضل الخارجىِّ على سائر المقاتِلة ، ثمَّ بانَ التركىُّ عن الخارجىِّ بأمورٍ ليس فيها للخارجىِّ دعوى ولا متعلَّق . على أن هذه الأمورَ التى بان بها التركىُّ عن الخارجىّ ، أعظمُ خطراً وأكثر نفعا ، ممَّا شاركه الخارجىُّ فى بعضها[(١)] .

ثم قال حُميد : والخصال التى يَصُولُ بها الخارجىُّ على سائر الناس صِدق الشَّدَّة عن أوّلِ وهلة ، وهى الدَّفعة التى يَبلُغون بها ما أرادوا ، وينالون الذى أمّلوا[(٢)] .

والثانية : الصَّبر على الخَبب وعلى طول السُّرى ، حتَّى يُصبِح القومُ [الذين مَرقوا بهم[(٣)]] غارِّين[(٤)] فيهجموا عليهم وهم بَسُوء[(٥)] ، ولحمٌ على وضَم[(٦)] ، يتعجَّلونهم عن الرَّوِيَّة ، وعن ردِّ النفس عن النَّزوة والجولة ؛ لايظنُّون أنّ أحدًا يقطع فى ذلك المقدارِ من الزَّمان ذلك المقدارَ من البِلاد .

---

(١) ج ، ف : « فى بعضه » .

(٢) ج ، ف : « وينالون بها ما أملوا » .

(٣) التكملة من سائر النسخ . والمروق : المرور بسرعة ، كما يمرق السهم من الرمية .

(٤) غارّين : غافلين .

(٥) ج ، ف وبعض أصول ن : « بشر » .

(٦) الوضم: جمع وضمة ، وهوكل شىء يوضع عليه اللحم من خشب أو حصير يوقى به الأرض . واللحم على الوضم مثل للضعف وعدم الامتناع .

والثالثة : أنَّ الخارجيَّ موصوفٌ عند[١] الناس بأنَّه إن طَلَبَ أدرَكَ ، وإن طُلِبَ فات .

والرابعة : خِفَّة الأزواد وقلّة الأمتعة ، وأنَّها تَجنُب الخيلَ[٢] وتركبُ البغال ، وإن احتاجت أمسَتْ بأرضٍ وأصبحَتْ بأُخْرى ، وأنَّهم قوم حين خَرجُوا لم يخلِّفوا الأموالَ الكثيرة ، والجِنَانِ الملتفَّة ، والدُّور المشَيَّدة ، ولا ضياعًا ولا مُستَغَلَّات ، ولا جواريَ مطهَّمات[٣] ، و [أنهم[٤]] لا سَلَبَ لهم ولا مالَ معهم فيرغبَ الجندُ فى لقائهم ، وإنَّما هم كالطَّير لا تدَّخر ولا تهتمُّ لغَدٍ ، ولها فى كلِّ أرضٍ من المياه والأقوات ما تتبلَّغ به[٥] ، وإن لم تجد ذلك فى بعض البلاد فأجنِحتُها تُقرِّب لها البعيد ، وتسهِّل لها الحزون . وكذلك الخوارج لا يمتنع عليهم القِرَى والمَطعَم ، وإنْ تمنَّع عليهم ففى بنات شَحَّاج وبنات صَهَّال[٦] ، وخفَّةِ الأثقال على طُول الخَبَب ، ما يسهِّل أقواتها ، ويكثِّر من أرزاقها .

٢٨ و

---

(١) وكذا فى بعض أصول ن . وفى سائر النسخ : « بعد » .

(٢) أى تقودها إلى جنب البغال . والضمير للخوارج .

(٣) المطهم من الناس والخيل : الحسن التام كل شىء منه على حدته ، فهو بارع الجمال .

(٤) التكملة من ج ، ف وبعض أصول ن .

(٥) ج ، ف وبعض أصول ن : « من المياه والبزور ما يقوتها » .

(٦) بنات شحاج ، هى البغال ، لأنها تشحج بصوتها . وبنات صهال ، هى الأفراس ، فالفرس صهيل . ويقال بنات شاحج أيضاً . وبنات صهال لم ترد فى اللسان ولا القاموس ، ولكن وردت فى المزهر ١ : ٥٢٥ .

والخامسة : أن الملوك إنْ أرسَلوا إليهم أعدادهم ليكونوا فى خفّة أوزارهم[١] وأثقالهم ، وليقوَوْا على التنقُّل كقوّتهم ، لم يقوَوْا عليهم ؛ لأنّ مائةً من الجند لا يقومون لمائة من الخوارج ؛ وإن كثَّفوا الجيشَ بالجيش ، وضاعفوا العدد [بالعَدد[٢]] ثقُلوا عن طلبهم ، وعن الفَوْت إن طلبهم عدوُّهم . ومتى شاء الخارجىُّ أن يقرب منهم ليتطرَّفهم[٣] أو ليصيب الغِرّةَ منهم ، أو ليسلُبَهم ، فَعَل ذلك ثقةً بأنّه يغنم عند الفرصة[٤] ورؤية العَورة ، ويمكنه الهربُ عند الخوف . وإنْ شاء كبسَهم ليقطع نظامَهم ، أو ليقتطِع[٥] القطعةَ منهم .

قال حُميد : فهذه هى مَفاخرُهم وخصالهم ، التى لها كرِه القُوّاد لقاءهم .

قال قاسم بن سيَّار : وخَصلة أُخرى ، وهى التى رعَبت القلوبَ وخَلَعَتْها ، ونقضت العزائم وفسخَتْها ، وهو ما تسمع الأجنادُ ومقاتِلة العوامّ ، مِن ضرب المثَل بالخوارج ، كقول الشاعر :

إذا ما البخيـــــلُ والحاذِر للقِرى
رأى الضَّيفَ مثـــل الأزرقىِّ المجفِّفِ[٦]

---

(١) الأوزار : جمع وزر بالكسر ، وهو الحمل الثقيل . ف ، ج وبعض أصول ن : « أزوادهم » ، وهو جمع زاد .

(٢) التكملة من سائر الأصول .

(٣) التطرف : الإغارة من حول العسكر .

(٤) فى الأصل : «وليعلم ذلك فانه يغنم عن الفرصة» ، وصوابه من سائر النسخ .

(٥) فى الأصل وبعض أصول ن : « ليقطع » .

(٦) المجفف : الذى جفف فرسه بالتجفاف ، وهو ما جلل به من سلاح وآلة تقيه الجراح .

وكقول الآخر :

وقَلْبِ ودٍّ حالَ عن عَهدِهِ والسَّيفُ ينبو بيدِ الشَّارى

وكقول الآخر :

لقاء الأُسدِ أهونُ من لِقاهُ إذا التحكيم يسهر بالأصيلِ

فهذه زيادة قاسم بن سَيّار .

فأمَّا حُميد فإنّه قال :

الشِّدّةُ الأولى التركىُّ فيها أحمد [أثراً ، وأجمع[١]] أمراً ، وأحكم شأنا ؛ لأنَّ التركىَّ من أجْلِ أن تَصدُقَ شَدّتُه ويتمكَّن عزمُه ، ولا يكونَ مشترَكَ العزم ولا منقسِمَ الخواطر ، قد عوَّد بِرذونَه ألّا ينثنى وإنْ ثناه ، أن يملأ فروجَه[٢] للأمر يديره مرّةً أو مرَّتين ، وإلّا فإنّه لا يدع سَنَنه ، ولا يَقطع ركضه . وإنَّما أراد التركىُّ أن يؤنس نفسَه من البَدَوات[٣] ، ومن أن يعتريه التكذيبُ بعد الاعتزام ، لهَوْل [اللقاء[٤]] ، وحبِّ الحياة ؛ لأنَّه إذا علم أنه قد صيَّر بِرذَونَه إلى هذه الغاية حتَّى لا ينثنىَ ولا يُجيبه إلى التصرُّف معه إلّا بأنْ يصنع شيئاً بين الصَّفَّينِ فيه عطبُه ، لم يُقدِم على الشَّدَّة إلّا بعد إحكام الأمر ، والبصر

٢٨ ظ

(١) التكملة من سائر النسخ .

(٢) الفروج : مابين قوائم الفرس ، وملؤها كناية عن الإسراع وشدة العدو حتى لاتكاد تبدو .

(٣) البدوات : الخطرات والآراء تبدو وتظهر .

(٤) موضع هذه الكلمة بياض فى الأصل ، وإثباته من سائر النسخ . وفى الأصل: « لطول » ، تحريف .

بالعورة[١] . وإنَّما يريد أن يُشَبِّه نفسَه بالمُحرَج الذى إذا رأى أشدَّ القتال[٢] لم يَدَعْ جُهدا ولم يدَّخر حِيلة ، ولينفىَ عن قلبه خواطرَ الفِرار ، ودواعىَ الرُّجوع .

وقال : الخارجىُّ عند الشَّدَّة إنَّما يعتمد على الطِّعان ، والأتراك تطعن طعنَ الخوارج ، وإن شدَّ منهم ألفُ فارسٍ فرَموا رِشْقاً واحداً صرعوا ألفَ فارس ، فما بقاء جيشٍ على هذا النَّوع من الشَّدَّة !

والخوارج والأعراب ليست لهم رِمايةٌ مذكورة على ظهور الخيل ، والتركىُّ يرمى الوحشَ والطَّير، والبُرجاس[٣]، والنَّاسَ[٤]، والمجثَّمة ، والمُثُلَ الموضوعة ، ويَرمِى وقد ملأ فُروجَ دابَّته مُدبِراً ومُقبِلاً ، ويَمنةً ويَسرة ، وصُعُدا وسُفْلا ، ويرمى بعشرة أسهم قبل أن يُفوِّق الخارجىُّ سهماً واحداً[٥]، ويركض دابَّتَه منحدراً من جَبَل ، أو مستفِلاً إلى بطن واد بأكثرَ مما يمكن الخارجىّ على بَسيط الأرض .

وللتركىِّ أربعة أعين[٦] : عينان فى وَجْهه ، وعينان فى قفاه . وللخارجىِّ

---

(١) فى الأصل : « والنظر إلى العودة » وكذا فى بعض أصول ن ، والصواب من سائر النسخ .

(٢) فى الأصل : « إذا آثر القتال » ، ووجهه من سائر النسخ .

(٣) سبق تفسيره فى ص ٢١ .

(٤) انظر ما سيأتى فى ص ٤٨ س ٦ و ٥٩ س ٢ .

(٥) فوق السهم : جعل له فوقا ، والفوق بالضم : موضع الوتر من السهم ، والمراد وضع السهم فى الفوق .

(٦) كذا بتأنيث الأربعة مع العين المؤنثة ، وهو وجه جائز فى العربية مذكور فى المطولات . انظر الصبان ٤ : ٦٢ حيث ذكر ابن هشام أن ما كان لفظه مذكراً ومعناه مؤنثا ، أو بالعكس : فإنه يجوز فيه وجهان.

عيبٌ فى مُستدبَر الحرب ، وللخراسانىِّ عيبٌ فى مُستقبَل الحرب . فعيب الخراسانيَّة أنَّ لها جَولة عند أوَّل الالتقاء[١] ، وإن ركبوا [كُسْأَهم[٢]] كانت هزيمتهم ، وكثيراً ما يَثُوبون ، وذاك [بعد[٣]] الخِطار بالعسكر ، وإطماع العدوِّ فى الشِّدَّة .

والخوارج إذا ولَّوْا فقد ولَّوْا وليس لهم بعد الفَرِّ كَرّ ، إلَّا ما لا يُعَدّ . والتركىُّ ليست له جولةُ الخراسانىّ ، وإذا أدبَرَ فهو السّمُّ الناقع ، والحَتْفُ القاضى ؛ لأنه يصيب بسهمه وهو مدبرٌ كما يصيب به وهو مُقْبل ، ولا يُؤْمَن وَهَقه[٤] ، ولا انتسافُ الفَرَس[٥] ، واختطافُ الفارس بتلك الرَّكضة .

٢٩ و ولم يُفْلِت من الوَهَق فى جميع الدَّهر إلَّا المهلَّب بن أبى صُفرة ، والحَريش ابن هلال[٦] ، وعبَّاد بن الحُصَين[٧] . ورُبَّما رَمى بالوهَق وله فيه تدبير آخر

---

(١) فى الأصل : « بين أول الالتقاء » ، ووجهه من سائر النسخ .

(٢) موضعها بياض فى الأصل ، وإثباتها من سائر النسخ ما عدا ف ، ففيها : « أكساءهم » بالجمع . ويقال ركب كسأه : وقع على قفاه ، والمراد أدبروا وتقهقروا . وكسء كل شىء : مؤخره . (٣) إثباتها من سائر النسخ .

(٤) الوهق ، بالتحريك : حبل شديد الفتل يرمى وفيه أنشوطة ، فتؤخذ فيه الدابة والإنسان ، وجمعه أوهاق . والكلام بعده إلى كلمة « المرمى » ساقط من ج ، ف ، وبعض أصول ن .

(٥) انتسف الشىء : اقتلعه . قال أبو النجم :

وانتسف الجالب من أندابه إغباطنا الميس على أصلابه

(٦) فى الاشتقاق ٢٥٧ : « الحريش بن هلال بن قدامة ، كان من فرسان بنى تميم ، وله أيام بخراسان مشهورة » .

(٧) هو عباد بن الحصين بن يزيد التميمى ، كان شجاعا رئيساً . جمهرة ابن حزم ٢١٣ والاشتقاق ٢٠٢ والبيان ٤ : ٣٦ .

وإن لم يَجْنُب المرمىَّ معه، يوهم الجاهلَ أنّ ذلك إنما كان لخُرق التُّركى[1]، أو لحِذْق المرمىّ.

قال: وهم علَّموا الفُرسانَ حَمل قوسَين وثلاثة قِسىّ، ومن الأوتار على حسبِ ذلك.

قال: والتركىُّ فى حال شَدّته، معَه كلُّ شىء يحتاج إليه لنفسه وسلاحه ودابّته وأداة دابّته. فأمَّا الصَّبر على الخَبَبِ وعلى مواصلة السَّفر، وعلى طُول السُّرى وقَطعِ البلاد، فعجيبٌ جداً.

فواحدةً: أنَّ فرسَ الخارجىِّ لا يصبر صَبر برِذَون التُّركىّ.

والخارجىُّ لا يُحسِن أن يعالج فرسَه إلَّا معالجةَ الفُرسان لخيولهم، والتُّركى أحذق من البيطار، وأجود تقويماً لبِرْذونه على ما يريده من الرَّاضَة[2] [وهو استنتجَه[3]]، وهو ربَّاه فِلوًّا، وتتبَّعه إنْ سماه[4]، وإنْ ركضَ ركض خلفه. وقد عوَّده ذلك حتَّى عرفه، كما يعرف الفرس أقدِمْ[5]،

---

(١) فى الأصل: «لحذق» صوابه فى ن، س. والخرق، بالضم: الجهل والحمق، ونقيض الرفق.

(٢) الراضة: جمع رائض، وهو من يروض الدابة ويسوسها ويذللها. وفى الأصل وبعض أصول ن: «الرياضة»، صوابه من سائر النسخ.

(٣) موضعها بياض فى الأصل، وإثباتها من النسخ.

(٤) فى الأصل وبعض أصول ن: «وثبته»، صوابه من سائر النسخ.

(٥) أقدِم: زجر للفرس، وكذا اقدم. ومثله اجدَم وهجدَم، كلها زجر للفرس. فى معظم النسخ: «اجدم» بالجيم، وهذه بوصل الهمزة وفتح الدال.

والنّاقة حَلْ[1] ، والجمل جَاهِ ، والبغل عَدَسْ ، والحمار ساسا ، وكما يعرف المجنون لقبَه والصبيُّ اسْمه .

ولو حصّلت عُمر التركيِّ وحَسبت أيامه لوجدتَ جلوسَه على ظهر دابّته أكثرَ من جلوسه على ظهر الأرض . والتركيُّ يركب فَحلا أو رَمَكة ، ويَخرج غازياً أو مسافراً ، أو متباعداً فى طلب صيدٍ ، أو سببٍ من الأسباب ، فتتبعه الرَّمَكة وأفلاؤها ، إن أعياه اصطيادُ الناس اصطاد الوحش ، وإن أخفقَ منها أو احتاج إلى طعامٍ فَصَدَ دابّةً من دوابِّه ، وإن عَطِش حَلب رَمَكة من رِماكه ، وإن أراح واحدةً تحتَه ركب أخرى من غير أن ينزل إلى الأرض . وليس فى الأرض أحدٌ إلّا وبدنه ينتقض على اقتيات اللَّحم وحدَه غَيرُه ؛ وكذلك دابّته تكتفى بالعَنقَر[2] والعُشب والشَّجر ، لا يظلُّها من شمس ولا يكنُّها من برد .

قال : وأما الصَّبر على الخَبَب فإنَّ الثَّغريِّين ،[3] والفُرانقيِّين[4] ، والخُصيان والخوارجَ ، لو اجتمعت قواهم فى شخصٍ واحد لما وفَوْا بتركيٍّ واحد[5] .

---

(١) ويقال : « حلى » أيضاً كما فى بعض النسخ . وقال أبو النجم :

* وقد حدوناها بحوب وحل *

(٢) العنقر ، بضم العين والقاف : أصل البقل والقصب والبردى مادام أبيض مجتمعاً . فى الأصل : « بالعفر » ، صوابه من سائر النسخ .

(٣) الثغريون : نسبة إلى الثغر ، وهو واحد ثغور الشام ، ومن أشهر مدنه أنطاكية وبغراس والمصيصة ، وأصل أهلها من الروم .

(٤) نسبة إلى الفرانق ، يعنى بهم عمال البريد . ويبدو أنهم كانوا من غير العرب . والفرانق : الذى يدل صاحب البريد على الطريق ، معرب « پروانك » .

(٥) يقال وفى الشىء الشىء ووفى به : عادله . وفى الأصل وبعض أصول ن : « لم يوفوا » ، تحريف .

والتركىُّ لا يبقى معه على طول الغاية إلَّا الصَّميمُ من دوابِّه[١] . [و] الذى يقتُله التركىُّ بإتعابه له ، وينفيه[٢] عند غَزاته ، هو الذى لا يَصبِر معه فرس الخارجىّ ، ولا يبْقى معه كُلُّ بِرذَونٍ بُخارىّ[٣] . ولو سايرَ خارجيًّا لاستفرغَ وُسْعَهُ قبل أن يبلغ الخارجىُّ عَفوَه[٤] .

٢٩ ظ

والتُّركى هو الراعى ، وهو السائس وهو الرائض ، وهو النَّخَّاس ، وهو البَيطار ، وهو الفارس . والتركىُّ الواحدُ أُمّةٌ على حِدة .

قال : وإذا سار التركىُّ فى غير عَساكر الترك ، فسار القومُ عَشْرَةَ أميالٍ سار عشرين مِيلا ؛ لأنه ينقطع عن العسكر يَمنةً ويَسرة ، ويُسرع فى ذُرى الجبال ، ويَستبطِن قُعور الأودية فى طلب الصَّيد ؛ وهو فى ذلك يرمى [كُلَّ[٥]] ما دبَّ ودَرَج ، وطارَ ووقع .

قال : والتركىُّ لم يَسِر فى العساكر سـيرَ النَّاسِ قطُّ ، ولا سارَ مستقيمًا قطُّ .

قالوا : وإذا طالت الدُّلْجة واشتدَّ السير ، وبَعُدَ المنزل ، وانتصف النَّهار ، واشتدَّ التَّعب ، وشغلَ النَاسَ الـكَلالُ[٦] ، وصَمَت المتسايرون فلم ينطقوا ،

(١) الصميم : الخالص المحض . فى الأصل : « الاطول الصميم » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٢) فى بعض أصول ن : « ويبقيه » .

(٣) نسبة إلى بخارى . وفى بعض أصول ن : « تخارى » .

(٤) العفو : مايجىء بسهولة وبغير كلفة . فى سائر النسخ : «لاستفرغ جهده» .

(٥) التكملة من سائر النسخ .

(٦) الـكلال : التعب والإعياء . ج ، ف وبعض أصول ن : « الـكلام » ، تحريف

وقَطَعهم ما هم فيه عن التَّشاغُل بالحديث ، وتَفَسَّخَ كُلُّ شيء من شدّة الحرّ ، وخمد كُلُّ شيء من شدَّة البرد[١] ، وتمنَّى كُلُّ جليدِ القوى على طُول السُّرى[٢] أنْ تُطوَى له الأرض ، وكلَّما رأى خيالًا أو أبصر عَلَمًا[٣] سُرَّ به واستبشر ، وظنَّ أنَّه قد بلغ المنزل ؛ فإذا بلغَه الفارس نزلَ وهو متفحِّجٌ[٤] كأنَّه صبيٌّ مَحقون ، يئنُّ أنينَ المريض ، ويستريح إلى التثاؤب ، ويتداوى مما به بالتمطِّي والتضجُّع . وترى التركيَّ فى تلك الحال وقد سار ضعفَ ما ساروا وقد أتعب مَنكِبَيه كثرةُ النَّزْع[٥] ، يرى قُربَ المنزِل عَيْرًا[٦] أو ظبيًا ، أو عرَض له ثَعلبٌ أو أرنب ، فيركضُ ركضَ مبتدئٍ مستأنِف ، كأنَّ الذى سار ذلك السَّيرَ وتعب ذلك التَّعبَ غيرُه .

وإنْ بلغ الناسُ واديًا فازدحموا على مَسلَكه أو [على[٧]] قنطَرته ، بطَن بِرذونَه فأقحمَه[٨] ثم طَلَع من الجانب الآخَر كأنَّه كوكب . وإن انتهَوْا إلى عَقَبةٍ صَعبةٍ تَرَكَ السَّنَنَ[٩] وذهب فى الجبل صُعُدًا ، ثم تدلَّى من موضعٍ يَعجِز

---

(١) ج ، ف : « وتفسخ كل شيء من شدة البرد » فقط .
(٢) ف فقط : « قوى على طول السرى » .
(٣) أبصر ، من الأصل فقط . وفى الأصل : « عطاء » موضع « علما » ، صوابه من باقى النسخ .
(٤) متفحج : قد فتح ما بين رجليه .
(٥) النزع فى القوس : مد وترها للرمى بسهامها .
(٦) فى الأصل وبعض أصول ن : « عنزا » ، ووجهه من سائر النسخ .
(٧) التكملة من سائر النسخ .
(٨) بطنه بطنا : ضرب بطنه .
(٩) السنن : نهج الطريق ومحجته . فى الأصل ، ف: « السير » ، صوابه فى سائر النسخ .

عنه الوعِل ؛ وأنت تحسبه مخاطراً بنفسه ، للذى ترَى من مُطَّلعه . ولو كان فى كلِّ ذلك مخاطراً لما دامت له السلامة مع تتابعِ ذلك منه .

قال : ويفخر الخارجىُّ بأنّه إذا طَلب أدرَك ، وإذا طُلِب لم يُدرَك . والتركىُّ ليس يُحوَج إلى أنْ يفوت ؛ لأنه لا يُطلب ولا يُرام . ومَن يروم [ما لا يُطمع فيه] ؟ ! ٣١ و

فهذا . على أنَّا قد علمنا أنَّ العـلَّة التى عمَّت الخوارجَ بالنَّجدة استواء حالاتهم فى الدِّيانة ، واعتقادُهم أنَّ القتال دِين ؛ لأنَّنا حين وجدنا السِّجستانىَّ والخراسانى والجَزَرىَّ واليمامىَّ والمغربِىَّ والعُمانىَّ ، والأزرقىَّ منهم والنَّجْدىَّ[1] والإباضىَّ والصُّفْرىّ ، والمولى والعربىّ ، والعجمىَّ والأعرابىّ ، والعَبيـد والنِّساء ، والحائك والفَـلَّاح ، كلُّهم يقاتل مع اختلاف الأنساب وتباين البلدان[2] ـ علمْنا أنَّ الدِّيانة هى التى سوَّتْ بينهم ، ووفَّقت بينهم فى ذلك . كما أنَّ كلَّ حجَّامٍ فى الأرض من أىّ جنسٍ كان ، ومن أى بلدٍ كان،فهو يحبُّ

---

(١) نسبة إلى نجدة بن عامر ـ وقيل عاصم ـ الحنفى . وهم النجدات أيضاً . وكان نجدة ممن خرج مع ابن الزبير ثم فارقه هو ونافع بن الأزرق من الخوارج ، فصار نافع إلى البصرة ، ونجدة إلى اليمامة . وذلك فى سنة ٦٤ . الملل والنحل ١ : ١٦٥ والطبرى ٧ : ٥٦ ـ ٥٧٠ . ثم صار إلى الطائف ثم إلى البحرين ، ووجه إليه مصعب الزبير بخيل بعد خيل فهزمهم ، وظل خمس سنوات هو وعماله بالبحرين واليمامة وعمان وهجر والعرض ، ثم نقم عليه الخوارج فخلعوه بعد أن كان يسمى أمير المؤمنين ، وأقاموا أبا فديك مكانه سنة ٧٣ وقتل نجدة فى تلك السنة . الطبرى ٧ : ١٩٤ . وانظر أيضاً الفرق بين الفرق ٦٧ والمواقف ٦٢٩ .

(٢) فى الأصل : « وسائر البلدان » ، صوابه من سائر النسخ .

النَّبيذ ، وكما أنَّ أصحاب الْخُلقان[1] والسَّماكين والنَّخَّاسين والحاكَة فى كلِّ بلد من كلِّ جنس ، شِرَارُ خلق الله فى المبايعة والمعاملة . فعلمنا بذلك أنَّ ذلك خِلقةٌ فى هذه الصناعات ، وبِنْيَةٌ فى هذه التِّجارات ، حين صاروا من بين جميع الناس كذلك .

قال : ورأينا التركىَّ فى بلاده ليس يقاتل على دينٍ ولا على تأويل ، ولا على مُلْك ولا على خَراج ، ولا على عصبيّةٍ ولا على غَيرَةٍ دونَ الحُرمة والمَحْرَم[2] ، ولا على حَمِيّة ولا على عَداوة ، ولا على وطنٍ ومنع دارٍ ولا مال ؛ وإنّما يقاتل على السَّلب والخيارُ فى يده . وليس يخاف الوعيدَ إن هرب ، ولا يرجو الوَعْدَ إنْ أَبلَى عذرا . وكذلك هم فى بلادهم وغاراتهم وحروبهم . وهو الطالب غير المطلوب ؛ ومن كان كذلك فإنّما يأخذ العفو من قُوّته ، ولا يحتاج إلى [مجهوده[3]] . ثم هو مع ذلك لا يقُوم له شىء ولا يَطمع فيه أحد ، فما ظنُّك بمن هذه صفتُه أنْ لو اضطرَّه إحراجٌ أو غَيْرةٌ أو غَضَب أو تديُّن ، أو عَرَضَ له بعضُ ما يصحبُ القاتِلَ الحامىَ من العلل والأسباب .

قال : وقناة الخارجىِّ طويلة صَمَّاء ، وقناة التُّركىِّ مِطرَدٌ أجوف[4] . والقُنىُّ المجوّفة القِصار أشدُّ طعنةً وأخفُّ فى الحِمل . والعجم تجعل القُنىَّ

---

(١) يراد بهم من يبيعون الخلقان من الثياب ، جمع خلق ، وهو البالى . انظر الحيوان ٢ : ١٠٥ .

(٢) أى على غيرة على حرمته ومحرمه . فى الأصل وبعض أصول ن: «غير ذلك» صوابه فى سائر النسخ .

(٣) موضعها بياض فى الأصل ، وإثباتها من ب .

(٤) المطرد : رمح قصير .

الطِّوالَ للرَّجَّالة ، وهى قُنِىّ الأبناء[1] ، على أبواب الخنادقِ والمضايق . ٣٠ ظ
والأبناء فى هذا الباب لا يَجرُون مع الأتراك والخُراسانيَّة ؛ لأنَّ الغالبَ على الأبناء المطاعنةُ على أبواب الخنادق وفى المضايق ، وهؤلاء أصحابُ الخَيل والفرسانُ وعلى الخيل والفُرسانِ تدور الجُيوش ، لهم الكرُّ والفرُّ . والفارس هو الذى يَطوِى الجيش طىَّ السجِلّ ، ويفرِّقهم تفريق الشعر . وليس يكون الكمينُ إلّا منهم ولا الطَّليعة ولا السَّاقَة[2] . وهم أصحابُ الأيَّام المذكورة والحروبِ الكبار والفُتوحِ العظام[3] ، ولا تكون المقانب والكتائِب إلّا منهم . ومنهم من يحمل البُنودَ والرَّايات ، والطُّبول والتجافيف[4] والأجراس . وهم أصحاب الصَّهيل والقَتام[5] ، وزجْرِ الخيل ، وقعقعةِ الريح فى الثِّياب[6]

---

(١) الأبناء ، قوم من الفرس أرسلهم كسرى مع سيف بن ذى يزن لما جاء يستنجده على الحبشة ، فنصروه وملكوا اليمن وتديَّروها ، وتزوجوا فى العرب فقيل لأولادهم الأبناء ، وغلب عليهم هذا الاسم ، لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم . اللسان (بنو) . وفى التنبيه والإشراف ٢٢٦ أنهم الذين ساروا مع خرزاذ بن نرسى ابن جاماسب أخى قباذ بن فيروز . وفى ص ٤٢١ أنهم الذين شخصوا مع وهرز إلى اليمن . ويبدو أن جميع الذين اجتذبتهم الحروب من الفرس إلى جزيرة العرب كان العرب يسمونهم الأبناء .

(٢) كذا فى الأصل وبعض أصول ن . وفى ب : « وليس يكون الكمين ولا الطليعة ولا الساقة إلا الكبار منهم » .

(٣) الكلام بعده إلى موضع التنبيه فى ص ٦٥ لم يرد فى ج ، ف . وسأنبه على ذلك فى موضعه .

(٤) جمع تجفاف ، بكسر التاء وفتحها ، وهو ما يوضع على الخيل من حديد وسلاح يقيه الجراح فى الحروب .

(٥) القتام : الغبار . وفى الأصل وبعض أصول ن : « القيام » .

(٦) فى الأصل : « ثياب » مع بياض بعدها ، وأثبت ما فى ن ، س .

والسِّلاح ووقع الحوافر ، والإدراكَ إذا طَلَبوا ، والفَوْت إذا طُلِبوا . ولم يجعل النبيُّ صلى الله عليه وسلم للفارس سهمين وللراجل من المقاتلة سهماً واحداً إلَّا لتضاعيف الردّ فى القتل والفُتوح ، والنُّهبة والمغانم[١] .

ثم قال : ولعمرى إنّ للأبنـاء من القتال فى السِّـكك والسُّجون[٢] والمَضَايق ما ليس لغيرهم . ولـكن الرجَّالة أبداً أتباعٌ ومأمورون ومنقادون ، وقائد الرَّجَّالة لا يكون [إلّا[٣]] فارساً ، وقائد الفُرسان من الممتنع أن يكون راجِلاً . ومَن تعوَّدَ الطِّعانَ والضَّرب والرميَ راكباً إن اضطُرَّ إلى الطَّعن والضَّرب والرمى راجلاً كان على ذاك أدفعَ عن نفســه ، وأردَّ عن أصحابه ، من الراجل إذا احتاج أن يستعملَ سلاحَه فارساً . وعلى أنّه ما أكثرَ ما ينزلون ويقاتلون . وقد قال الشاعر[٤] :

لم يُطِيقوا أن ينزلوا ونَزَلْنـا   وأخو الحرب مَن أَطاقَ النُّزولا

وقال الضَّبّىّ[٥] :

* وعَلامَ أركبُهُ إذا لم أنزِلِ[٦] *

---

(١) الرد : النفع . والنهبة ، بالضم الغنيمة ، كالنهبى . وفى الأصل : « المهبة » ، صوابه فى ن ، س .

(٢) وكذا سبق فى ص ٢٧ س ٦ .

(٣) تكملة ضرورية .

(٤) هو مهلهل ، كما فى الأغانى ٤ : ١٤٩ وشروح سقط الزند ٦٦ والخزانة ٢ : ٣٠٥ . وانظر ما قيل فى النزول فى هذا الموضع من الخزانة .

(٥) هو ربيعة بن مقروم الضبى . الحماسة ص ٦٢ بشرح المرزوقى والخزانة ٢ : ٣٠٥ .

(٦) صدره : فدعوا نزالِ فكنت أول نازل

وقال آخر :

* فعانقٌ ومنـــازلُ[١] *

وقال حُمَيد : وليس فى الأرض قومٌ إلّا والتّساندُ فى الحروب ، والاشتراكُ فى الرِّياسة ضارٌّ لهم ، إلّا الأتراكَ . على أنَّ الأتراكَ لا يتساندون ولا يتشاركون ؛ وذلك أنَّ الذى يُكره من المساندة والمشاركة اختلافُ الرأى ، والتنافُس فى السِّرِّ[٢] ، والتحاسد بين الأشكال ، والتواكل فيما بين المشتركين . ٣١ و

والأتراكُ إذا صافُّوا جيشاً إن[٣] كان فى القوم موضعُ عورةٍ فكلُّهم قد أبصَرها وعرَفها ؛ وإن لم تكن هناك عورةٌ ولم يكن فيهم مطمع ، وكان الرأىُ الانصرافَ ، فكلُّهم قد رأى ذلك الرأىَ وعرفَ الصوابَ فيه . وخواطرهم واحدة ، ودواعيهم مستوية بإقبالهم معاً . وليس هم أصحابَ تأويلاتٍ ولا أصحابَ تفاخر وتناشد ، وإنّما شأنهم إحكام أمرِهم؛ فالاختلاف يقلُّ بينهم .

وكانت الفُرس تعيب العرب إذا خرجو إلى الحرب متساندين ، وكانت تقول : الاشتراكُ فى الحرب وفى الزَّوجة وفى الإمْرة سواء .

قال حُمَيد : فما ظنُّكَ بقومٍ إذا تساندُوا لم يضرَّهم التَّساند ، فكيف يكونون إذا تحاسدوا .

---

(١) لم أهتد إلى بقيته ولا إلى قائله .

(٢) فى الأصل وبعض أصول ن : « السير » .

(٣) فى الأصل وبعض أصول ن : « وإن » ، والواو مقحمة .

فلما انتهى الخبر إلى المأمون[1] قال : ليست بالتُّرك حاجةٌ إلى حكم حاكم بعد حُمَيد ؛ فإنَّ حُميداً قد مارسَ الفريقين ، وحُميد خُراسانيٌّ وحُميد عربيٌّ ، فليس للتُّهمَة عليه طريق .

قالوا : وأتى الخبرُ ذا اليمينين[2] طاهرَ بن الحسين فقال : ما أحسنَ ما قال حُميد . أمَا إنه لم يقصِّر ولم يفرِّط .

فهذا قول الخليفة المأمون ، وحُكم حُميد ، وتصويبُ طاهرٍ .

وخبّرنى رجلٌ من أهل خراسان أو من بنى سَدوس قال : سمعت أبا البطِّ يقول : ويلكم ، كيف أصنع بفارسٍ يملأ فروج دابَّته منحدراً من جَبَل ، أو مُصْعِداً فى مقطعٍ عَفِير ، ويمكنه على ظهر الفَرس مالا يمكن الرقَّاص الأُبُلِّىّ[3] على ظهر الأرض .

قال : وقال سعيد بن عُقْبة بن سَلْم الهُنائىّ[4] ، وكان ذا رأيٍ فى الحرب وابنَ ذى رأيٍ فيها[5] : فَرقُ ما بيننا وبين التُّرك أن التُّرك لم تغزُ قوماً قطّ ،

---

(١) كلمة « الخبر » ساقطة من ن ، س

(٢) قالوا : سمى بذلك لأنه ضرب شخصا بالسيف فى وقعته مع على بن ماهان ، فقدّه نصفين ، وكانت الضربة بيساره . ولد طاهر سنة ١٥٩ وتوفى سنة ٢٠٧ . وفيات الأعيان وثمار القلوب ٢٠٧ .

(٣) نسبة إلى الأبلة ، وهى بلدة على شاطئ دجلة ، وفيها يقول الأصمعى : جنان الدنيا ثلاث : غوطة دمشق ، ونهر بلخ ، ونهر الأبلة .

(٤) نسبة إلى بنى هُناءة بن مالك بن فهم بن دوس . الاشتقاق ٤٩٨ وجمهرة ابن حزم ٣٨٠ حيث ذكر عقبة بن سلم .

(٥) كان عقبة بن سلم والد سعيد والياً للمنصور على البحرين والبصرة .

ولا صافّت جيشاً ولا هجمَتْ على عدوّ كانوا عرباً أو عجماً ، فأخرَجوا إليهم أعدادَهم ولَقُوهم بمثلهم . وليس غايتهم إلّا أن ينقادوا ليكفُّوا عنهم بأسَهم ومَعرّتهم[1] ، ويصرفوا عنهم كيدهم . فإن هم امتنعوا من الصُّلح واعتزموا على الحرب فليس شأنهم والذى يدور عليه أمرهم إلّا مَنعَ أنفسِهم وتحصينَ عسكرهم ، والاحتراسَ منهم . فأمّا أن ترقى هِمَمُهم وتسموَ أنفسُهم إلى الاحتيال عليهم ، والتماس غِرّتهم ، فإنَّ هذا شىءٌ لا يخطُر على بالِ من يحاربهم .

٣١ ظ

ثم قال : وقد عرفتم حيلَهم فى دخول المُدن من جهة حِيطانها المُصْمَتة العريضة ، وحيلتَهم فى عبور نهر بَلْخ .

وسعيدٌ هذا هو الذى قال : إذا حاربتم وكنتم ثلاثةً فاجعلوا واحداً مددا ، وآخرَ كمينا . وله كلامٌ فى الحرب غير هذا كثير .

قال سعيد : وأخبرنى أبى قال : شهدت أبا الخطّاب يزيد بن قَتادة ابن دِعامة الفقيه[2] ، وذكر قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى التُّرك حيث قال : « عَدوٌّ شديدٌ طلبُه ، قليلٌ سلبُه » ، فقال رجلٌ من العالية : نهى عمرُ[3] أبا زُبيدٍ الطائىَّ عن وصف الأسد ؛ لأنَّ ذلك ممّا يزيد فى رُعب

---

(١) المعرة : الشدة والأذى فى الحرب .

(٢) ليس الفقيه يزيد ، بل أبوه قتادة هو الفقيه . وهو قتادة بن دعامة السدوسى، وكنيته أبو الخطاب أيضاً . ولد سنة ٦١ وتوفى سنة ١١٧ . تهذيب التهذيب ووفيات الأعيان ونكت الهميان ٢٣٠ . وقد ذكر الجاحظ قتادة فى مواضع كثيرة من الحيوان والبيان .

(٣) كذا . والمعروف أن عثمان بن عفان هو الذى نهاه . انظر طبقات ابن سلام ٥١٠ و الأغانى ١١ : ٢٤ والخزانة ٢ : ١٥٥ .

الجبان ، وفى هَول الجَنان ، ويُقلُّ من رَغَب الشُّجاع[١] ، وقد وُصِف التُّرك بأشدَّ من وصف أبى زُبيدٍ الأسد .

وقال سعيد فى حديثه يومئذ ، وقد قطعتْ شِرذِمةٌ منهم بلادَ أبى خزيمة - يُريدُ حمزة[٢] بن أدركَ الخارجىَّ - وما والى خُراسانَ [فى] بعض الأمر ، وحمزةُ فى مُعظَم الناس ، فقال لأصحابه : أفرِجوا لهم ما تركوكم ، ولا تتعرَّضوا لهم ؛ فإنّه قد قيل : « تاركوهم ما تاركوكم » .

فهذا قول سعيد بن عقبة ورأيُه وحديثه ؛ وهو عربىٌّ خُراسانى .

وذكر يزيد بن مَزْيد الوقْعة التى قَتل فيها يولبا[٣] التركىُّ الوليدَ بن طريفٍ[٤] الخارجىَّ ، فقال فى بعض ما يصف من شأن التُّرك : ليس لبدن التُّركى على

---

(١) الرغَب : الرغبة والطمع والحرص .

(٢) فى الأصل وبعض أصول ن : « يزيد بن حمزة » تحريف . وأبو خزيمة كنية حمزة . وفى البيان ٤ : ٢٥ عند الكلام على الكنية بأبى خزيمة : « وهذه الكنية كنية زرارة بن عدس ، وكنية خازم بن خزيمة ، وكنية حمزة بن أدرك » . وفى الطبرى ١٠ : ٦٥ وابن الأثير ٦ : ٥٣ : « حمزة بن أترك » وما هنا يطابق البيان والملل والنحل ١ : ١٧٤ . وكان حمزة صاحب فرقة من فرق العجاردة من الخوارج ، خرج فى أيام هارون الرشيد سنة ١٧٩ بسجستان وخراسان ومكران وقهستان ، وهزم الجيوش الكبيرة ، وبقى الناس فى فتنته إلى أن مضى صدر من أيام خلافة المأمون ، ودارت بينه وبين طاهر بن الحسين وعبد الرحمن النيسابوى حروب انتهت بموت حمزة . وانظر المواقف ٦٣٠ والفرق بين الفرق ٧٦ والاعتقادات للرازى ٤٨ .

(٣) أهمل نقط الحرف الأول فى الأصل وبعض أصول ن .

(٤) هذا نص نادر ، فإن الضربة التى أصيب بها الوليد بن طريف لم يبين =

ظهر الدابة ثِقل ، ولا لمشيه على الأرضِ وَقْع ، وإنّه ليرى وهو مدبرٌ ما لا يرى الفارسُ منّا وهو مُقْبل . وهو يرى الفارسَ منا صَيدًا ويعدُّ نفسَه فَهْدا ، ويُعدُّه ظبياً[1] ويعدُّ نفسَه كلبا . والله لو رُمِيَ به فى قعرِ بئرٍ مكتوفا لما أعجزَتْه الحيلة ؟ ولولا أنَّ أعمار عامَّتهم تقصُر دُون الجَبَل – يعنى جَبَل حُلوان – ثم همُّوا بنا ، لألقَوا لنا شُغْلاً طويلاً .

وأنشد رجلٌ من أصحابه :

هَبِ الدنيا تُسَاقُ إليك عفـوًا أليس مصيرُ ذاكَ إلى زَوَالِ

قال : أمّا التُّركى فَلأَن يَنالَ الـكَفافَ غَصبًا أحبُّ إليه من أن ينال المُلْك عفواً . ولم يَتهنَّ تُركىٌّ بطعامٍ إلّا أن يكون صيداً أو مغنما ، ولا يُعزُّ[2] على ظَهر دابّته طالباً كان أو مطلوبا . ٣٢ و

وقال ثُمامة بن أشرس ، وكان مثلَ محمّدِ بن الجهم فى كثرة ذِكره للتُّرك . قال ثمامة : التركىُّ لا يخاف إلّا مَخُوفا ولا يَطمع فى غير مطمع ، ولا يكفُّه عن الطّلب إلّا اليأسُ صِرفا ، ولا يدع القليلَ حتّى يصيب أكثرَ منه ، وإنْ قدر أن يجمعهُما لم يفرِّط فى واحدٍ منهما . والباب الذى لا يُحسنه لا يُحسن منه شيئاً ،

=ضار بها المؤرخون . انظر ابن الأثير ٦ : ٥١ فى حوادث ١٧٩ وكذا الأغانى ١١ : ٩ . وقد ذكر ابن الأثير وأبو الفرج والطبرى ١٠ : ٦٥ أن يزيد بن مزيد هو الذى احتز رأسه بعد ما أصيب . وفى ذلك تقول أخت الوليد ليلى بنت طريف ، أو الفارعة :

فإن يك أرداه يزيد بن مزيد فيارُبَّ خيـل فضها وصفوفِ

وانظر الأمالى ٢ : ٢٧٤ واللآلىء ٩١٣ ووفيات الأعيان ٢ : ١٧٩ .

(١) أى يعد الفارس منا ظبيا جديراً بالقنص . وفى الأصل وبعض أصول ن : « ونعده » .

(٢) أى لايغلب . فى الأصل و ن : « ولا يغر » . وفى س : « ولا يفر » .

والباب الذى يُحسنه قد أحكمه بأسره وأمَرَّه[١] وخفيُّه عنده كظاهره[٢] ، ولا يتشاغل بشىء ليس فيه شىء ، ولا على نفسه من شىء[٣] . فلولا أن يُجِمَّ نفسَه بالنَّوم لما نام ، على أنَّ نومَه مشوبٌ باليقَظة ، ويقظتَه سليمة من الوَسْنة . ولو كان فى شِقِّهم أنبياء ، وفى أرضهم حُكماء ، وكانت هذه الخواطرُ قد مرَّتْ على قلوبهم ، وقَرَعَت أسماعَهم[٤] ، لأنْسَوكَ أدب البصريِّينَ ، وحِكمة اليونانيِّين ، وصَنعةَ أهلِ الصِّين .

وقال ثمامة : عَرضَ لنا فى طريق خُراسانَ تركىٌّ ومعنا قائد يصولُ بنفسه ورجاله ، وبيننا وبين التركىِّ وادٍ ، فسأله أن يبارزه فارسٌ من القوم ، فأخرج له رجلًا لم أر قطُّ أكمَلَ منه ، ولا أحسنَ تمامًا وقَوامًا منه ، فاحتال حتَّى عبر إليهم الفارس ، فتَجاوَلا ساعةً ، ولا نظنُّ إلَّا أنَّ صاحبنا يَفِى بأضعافه ، وهو فى ذلك يتباعد عنَّا . فبينا هما فى ذلك إذْ ولَّى عنه التُّركى كالهاربِ منه ، وفَعَل ذلك فى موضعٍ ظننَّا أنَّ صاحبنا قد ظهر عليه ، وأتبعه الفارسُ لا نشكُّ إلّا أنَّه سيأتينا برأسه ، أو يأتينا به مجنوبًا إلى فرسه ، [فلم نشعر[٥]] إلَّا وصاحبُنا قد أفلتَ عن فرسه وغاب عنه ، فنزل التركىُّ إليه فأخذ سَلَبَه وقتلهُ ، ثم عارض فرسَهُ فجنبه إليه معه .

---

(١) أمره إمرارا : أحكمه ووثقه توثيقاً .

(٢) فى الأصل و ن : « وأمره عنده خفيه كظاهره » . والوجه ما أثبت من س .

(٣) صحت فى ن ، س بزيادة « يخاف » بعد كلمة « لا » .

(٤) هذا هو الصواب ، وعدلت فى ن ، س إلى : « وفرغت لها أسماعهم » ، وليس مايدعو إلى ذلك ، وما أثبت من الأصل أوفق وأعلى .

(٥) موضعها بياض فى الأصل ، وإثباتها من ن ، س .

قال ثمامة : ثم رأيتُ بعد ذلك التركىَّ قد جِىء به أسيراً إلى دار الفضل ابن سهل ، فقلت له: كيفَ صنعتَ يومئذ ، وكيف طاولتَه ثمَّ علاك ثم وليت عنه هاربا ثم قتلته ؟ قال : أمَا إنّى لو شئت أن أقتله حين عَبَر؛ وقد كانَ مقتلُه بارزاً لى ، ولـكنّى احتلتُ عليه حتَّى نحَّيته عن أصحابه لأجوِّزه ، فلا يُحَالَ بينى وبين فرسِه وسَلَبه . ٣٢ ظ

قال ثمامة : وإذا هو يُدير الفارسَ من سائر الناس ويُريغُه كيف شاء وأحبَّ[1] .

قال ثمامة : وقد غَبرتُ فى أيديهم أسيراً فما رأيتُ كإكرامهم وتُحفهم وألطافهم .

فهذا ثمامةُ بن أشرس ، وهو عربىٌّ لا يُتَّهم فى الإخبار عنهم .

وأنا أُخبرك أنِّى قد رأيتُ منهم شيئاً عجيباً وأمراً غريبا : رأيت فى بعض غَزَوات المأمون سِماطَىْ خيلٍ على جَنْبتى الطَّريق بقُرب المنزل ، مائة فارس من الأتراك فى الجانب الأيمن ، ومائةٌ من سائر الناس فى الجانب الأيسر ، وإذا هم قد اصطفُّوا ينتظرون مجىء المأمونِ ، وقد انتصفَ النّهارُ واشتدَّ الحر . فورد عليهم وجَمعُ الأتراك[2] جلوسٌ على ظُهور خيولهم إلَّا ثلاثة أو أربعة ، وجميع تلك الأخلاطِ من الجند قد رَمَوْا بنفوسهم إلى الأرض إلّا ثلاثةً أو أربعة . فقلت

---

(١) أراغه : أراده وطلبه . وعلى الأمر : أداره عليه . وأنشدوا :

يديرونى عن سالم وأريغه   وجلدة بين العين والأنف سالم

(٢) فى الأصل وبعض أصول ن : « وجميع » .

لصاحبٍ لى : انظر أىَّ شىء اتّفق لنا . أشهد أنَّ المعتصمَ كان أعرفَ بهم حين جَمَعهم واصطنعهم .

وأردتُ مرّةً القاطُولَ ـ وهى المباركة ـ وأنا خارجٌ من بغداد ، وأرى فوارسَ من أهل خراسان والأبناء وغيرهم من أصناف الجند ، قد عارَ لهم فرس[1] ، وهم على خيلٍ عتاق يُريغونه فلا يقدرون على أَخْذه ، ومرّ تركىٌّ ولم يكنْ من ذوى هيئاتهم وذوى القدرِ منهم ، وهو على بِرذونٍ له خسيس ، وهم على الخيول المطهّمة ، فاعترضَ الفرسَ اعتراضًا ، وقتله قتلا وَحِيًّا[2] ؛ وأتاه مَن زجَره بشىء ، فوقف أولئك الجندُ وصارُوا نظّارة ، فقال بعضهم ممن كان يُزرِى على ذلك التركىّ : هذا وأبيك التكلُّف والتعرُّض : أنّ فرسًا قد أعجزهم وهم أُسْد البِلاد ، وجاء هذا مع قِصَر قامته وضَعف دابّته ، فطمِعَ أن يأخذه . فما انقضَى كلامُه حتّى أقبلَ به ثمَّ سلَّمه إليهم ومضى لطَِلِبتِه ، لم ينتظر ثناءهم ولا دُعاءهم ، ولا أَراهم أنّه قد صنع شيئًا ، أو أتَى إليهم معروفا .

٣٣ و والأتراكُ قومٌ لا يعرفون المَلَق ولا الخِلابةَ ، ولا النِّفاق ولا السِّعاية ، ولا التصنُّع ولا النَّميمة ولا الرِّياء ، ولا البَذَخ على الأولياء[3] ، ولا البغْىَ على الخلطاء ، ولا يعرفون البِدَع ، ولم تفُسِدهم الأهواء ، ولا يستحلُّون الأموال على التأوُّل ، وإنما كان عَيبَهم ، والذى يُوحِش منهم ، الحنينُ إلى الأوطان ، وحبُّ التقلُّب فى البُلدان ، والصَّبابة بالغارات ، والشَّغَف بالنَّهب ، وشدّة

(١) عار بعير : انفلت وذهب هاهنا وهاهنا وحاد عن الطريق .

(٢) الوحى : السريع .

(٣) البذخ : الكبر والتطاول والفخر .

الإلف للعادة ، مع ما كانوا يتذاكرون من سُرور الظفر وتَتابُعِه ، وحَلاوة المَغْنم وكثرته ، و ملاعبهم في تلك الصَّحارى ، وتردُّدهم فى تلك المُروج ، وألَّا يذهب بطول الفَراغ فضلُ نَجْدتهم باطلا ، ويصير حَدُّهم على طول الأيام كليلًا .

ومَن حَذق شيئاً لم يَصبِر عنه ، ومن كَرِه أمرًا فرَّ منه .

وإنّما خُصُّوا بالحنين من بين جميع العجم لأنَّ فى تركيبهم وأخلاطِ طبائعهم من تركيب بلادهم وتربيتهم ، ومشاكلة مياههم ومناسبة إخوانهم ، ما ليس مع أحدٍ سواهم . ألَا ترى أنَّك ترى البصريَّ فلا تدرى أبصريٌّ هو أم كوفيّ ، وترى المكّيَّ فلا تدرى أمكّيّ هو أم مدنيّ . وترى الجَبَليَّ فلا تدرى أجَبَليٌّ هو أم خراسانيّ ، وترى الجَزَريَّ فلا تدرِى أجَزرىٌّ هو أم شامىّ . وأنت لا تغلَط فى التركىّ ، ولا تحتاج فيه إلى قيافةٍ ولا إلى فِراسة ، ولا إلى مُساءلة . ونساؤهم كرجالهم ، ودوابُّهم تركيّةٌ مثلهم .

وهكذا طَبَع اللهُ تلك البلدة ، وقسم لِتلك التُّربة . وجميعُ دُور الدنيا ونشوءُها إلى منتهى قُواها ومدَّة أجلها ، جارية على عللها ، وعلى مقدار أسبابها ، وعلى قدر ما خصَّها الله تعالى به وأبانَها ، وجَعَل فيها . فإذا صاروا إلى دار الجزاء ، فهى كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً[1] ﴾ .

وكذلك ترى أبناءَ العرب والأعرابِ الذين نزلوا خُراسانَ ، لا تَفصِل بين من نزل أبوه بفرغانة وبين أهل فَرغانة ، ولا ترى بينهم فرقاً فى السِّبال الصُّهب

(١) الآية ٣٥ من سورة الواقعة .

والجلود القَشِرة[١] ، والأقفاء العظيمة ، والأكسية الفَرغانية . وكذلك جميع تلك الأرباع ، لا تفصل بين أبناء النازلة وبين أبناء النَّابتة .

٣٣ ظ وَمحبّةُ الوطن شيء شاملٌ لجميع الناس ، وغالبٌ على جميع الجِيرة[٢] . ولكن ذاك فى التُّرك أغلَب ، وفيها أرسَخ ؛ لما معها من خاصَّة المشاكلة والمناسبة ، واستواء الشَّبَه ، وتكافِى التركيب . ألا ترى أنَّ العبدىَّ يقول[٣] : « عَمَّر اللهُ البُلدان بحبِّ الأوطان » ، وأنَّ ابنَ الزُّبير قال : « ليس الناس بشىء من أقسامهم أقنَعَ منهم بأوطانهم[٤] » ، وأنَّ عُمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « لولا تفرُّق أهواء العِباد لما عَمّر الله البِلاد » ، وأنَّ جُمعة الإيادية قالت : « لولا ما أوصى الله به العبادَ من قَفْر البلاد ، لما وَسِعهم وادٍ ولا كفاهم زاد » .

وذكر قتيبة بن مسلم التُّرك فقال : « هم والله أحنُّ من الإبل المعقَّلة إلى أوطانها » ؛ لأنَّ البعير يحنُّ إلى وطنه وعَطَنِه ، وهو بعُمانَ ، من ظهر البَصْرة ، فهو يخبط[٥] كلَّ شىء ويَستبطن كلَّ وادٍ ، حتَّى يأتىَ مَكانَه ؛ على أنَّه طريق لم يسلكه إلَّا مرة واحدة ، فلا يزال بالشَّمِّ والاسترواح وحسن الاستدلال ، وبالطبيعة المخصوص بها حتَّى يأتى مَبْرَكَه ، على بُعد ما بين عُمانَ والبَصرة .

---

(١) من القشر ، بالتحريك ، وهو شدة الحمرة .

(٢) فى الأصل وبعض أصول ن : « الحيرة » . وفى ف : « الجيزة » . والجيزة بمعنى الناحية .

(٣) بدله فى الحيوان ٣ : ٢٢٧ : « وقد قالوا » .

(٤) الأقسام : جمع قسم ، بالكسر ، وهو الحظ والنصيب . والنص فى الحيوان ٣ : ٢٢٧ .

(٥) فى الأصل وبعض أصول ن : « فهى تحت » تحريف .

فلذلك ضربَ به قتيبةُ المثلَ[١] .

والشُّحُّ على الوطن [والحنين إليه[٢]] ، والصَّبابة به ، مذكورة فى القرآن ، مخطوطة فى [الصُّحف بين[٢]] جميع الناس . غير أنّ التركىّ للعلل التى ذكرناها أشدُّ حنيناً وأكثر نُزوعاً[٣] .

وباب آخر ، ممّا كان يدعوهم إلى الرجوع قبل العزم الثابت[٤] ، والعادة المنقوضة[٥] : وذلك أنّ التُّرك قومٌ يشتدُّ عليهم الحَصْر [والجُثوم[٦]] ، وطول اللُّبث والمُكْث ، وقلّة التصرُّف والتحرُّك ، وأصلُ بِنيتهم إنّما وُضِع على الحركة ، وليس للسكون فيها نصيب ، وفى قُوى أنفُسهم فضلٌ على قوى أبدانهم ، وهم أصحاب توقُّد وحرارةٍ ، واشتغال[٧] وفطنة ، كثيرة خواطرهم ، سريعٌ لحظهم ، وكانوا يَرون الكِفايةَ مَعجَزة ، وطُول المُقام بلادة ، والراحةَ عُقْلة[٨] ، والقناعة من قِصر الهِمَّة ؛ وأنّ تَركَ الغَزْو يُورث الذِّلَّة .

---

(١) إلى هنا ينتهى إغفال الاختيار فى ج ، ف الذى نبهت على بدايته فى ص ٥٣.

(٢) التكملة من ب .

(٣) هذا ما فى ف . وفى الأصل ، ن : «وأشد نزاعا» . ج : «وأكثر نزعا» .

(٤) ج : « عزم الثانى» ف : « ثنى العزم » ، وفى الأصل : « العزم الثانى » ، والوجه ما أثبت من سائر النسخ

(٥) فى الأصل ، س : « والمادة المقوضة » ، صوابه فى ج ، ف . وفى ن : « والمادة المنقوصة » .

(٦) التكملة من ن . والكلمة ساقطة من ف . وبدلها فى ج : « الحتوم » . جثم : لزم مكانه فلم يبرحه .

(٧) فى الأصل و ف : « واستعال » ، وأثبت ما فى ب .

(٨) أى تعقل صاحبها وتحبسه عن الانطلاق .

٣٤ و وقد قالت العرب فى مثل ذلك : قال عبدُ الله بن وَهْبٍ الراسبىّ : « حب الهُوَينا يُكسِب النَّصَب » . والعرب تقول : « من غلا دماغه فى الصَّيف غَلَتْ قِدرُه فى الشِّتاء » . وقال أكثم بن صَيفىّ : « ما أحبُّ أنّى مكفىٌّ كلَّ أمرِ الدنيا » . قيل : ولم ؟ قال : « أخاف العجز » .

فهذه كانت عِلَلَ التُّركِ فى حبِّ الرُّجوع والحنين إلى الوطن .

ومن أعظم ما كان يَدْعُوهم إلى الشُّرُودِ ويبعثهم على الرجوع ، ويُكرِّه عندهم المُقام ، ما كانوا فيه من جَهل قُوَّادهم بأقدارهم ، وقلَّة معرفتهم بأخطارهم ، وإغفالهم موضع الرَّد عليهم والانتفاع بهم ، حتَّى جعلوهم أُسوةَ أجنادهم ، ولم يقنعوا أن يكونوا فى الحاشية والحُشْوة ، وفى غِمار العامّة ومن عُرْض العساكر ، وأنفوا من ذلك لأنفسهم ، وذكروا ما يجب لهم ، ورأوا أنَّ الضَّيْمَ لا يليق بهم ؛ وأنَّ الخمول لا يجوز عليهم ، وأنهم فى المُقَام على من لا يعرف حقَّهم أَلْوَم مِمَّن منعَهم حقَّهم ، فلمَّا صادفُوا مَلكاً حكيماً ، وبأقدار النَّاس عليماً ، لا يميل إلى [سوء[٢]] عادةٍ ولا يَجنَح إلى هوى ، ولا يتعصَّب لبلدٍ على بلد ؛ يدور مع التدبير حيثما دار ، ويقيم مع الحقِّ حيثما أقام ، أقاموا إقامةَ من قد فهم الحظّ[٣] ، ودانَ بالحقّ ونَبَذ العادة ، وآثر

---

(١) فى الأصل وبعض أصول ن : « الدنيا » ، صوابه فى ب .

(٢) التكملة من ب .

(٣) فى الأصل وبعض أصول ن : « الحق » ، وأثبت ما فى ب . لكن فى ف : « منح » موضع « فهم » .

الحقيقة ، ورحَل نفسَه لقطيعَة وطَنه[١] ، وآثر الإمامة على مُلك الجَبَرِيّة[٢] ، واختار الصَّواب على الإلْف .

ثم اعلم[٣] بعد هذا كلِّه أنَّ كلَّ أمةٍ وقرنٍ ، وكلَّ جيل وبَنى أبٍ وجدتَهم قد برعوا فى الصِّناعات ، وفَضَلوا النّاسَ فى البيان ، أو فاقوهم فى الآداب ، وفى تأسيس الملك ، وفى البصر بالحرب ؛ فإنَّك لا تجدهم فى الغاية وفى أقصى النهاية ، إلاَّ أن يكون اللهَ قد سخَّرهم لذلك المعنى بالأسباب ، [وقصرهم[٤]] عليه بالعلل التى تقابل تلك الأمور ، وتصلح لتلك المعانى ؛ لأنَّ مَنْ كان متقسِّم الهوى ، مشترَك الرَّأى ، ومتشعِّب النفس ، غير موفَّر على ذلك الشَّىء ولا مهيَّأٍ له ، لم يَحذِق من تلك الأشياء [شيئاً[٤]] بأسْرِه ، ولم يبلغ فيه غايتَه ، كأهل الصين فى الصناعات ، واليونانيِّين فى الحِكَم والآداب ، والعَرَبِ فيما نحن فيه ذاكروه فى موضعه ، وآلِ ساسان فى المُلْك ، والأتراك فى الحروب . ألا ترى أنَّ اليونانيين الذين نظروا فى العِلَل لم يكونوا تُجَّاراً ولا صُنَّاعاً بأكُفِّهم ، ولا أصحابَ زرعٍ ولا فِلاحةٍ وبناء وغَرْس ، ولا أصحابَ جمعٍ ومنْع ، وحِرص وكَدّ ، وكانتِ الملوكُ تفرِّغهم ، وتُجرى عليهم كفايتَهم ، ٣٤ ظ

(١) يقال رحل نفسه لكذا ، إذا صبر على أذاه . وفى الأصل وبعض أصول ن : « نفطنه » تحريف .

(٢) فى الأصل وبعض أصول ن : « وآثر ملك الإقامة على ملك الحرية » ، صوابه فى ب .

(٣) فى الأصل وبعض أصول ن : « وأعظم » .

(٤) موضعها بياض فى الأصل ، وإثباته من ب .

فنظروا حين نَظَروا بأنفسٍ مجتمعة ، وقوّة وافرة ، وأذهان فارغة ، حتّى استخرجوا الآلاتِ والأدوات ، والملاهيَ التي تكون جَمَاماً للنّفس ، وراحةً بعد الكدّ ، وسروراً يداوى قَرحَ الهُموم ، فصنعُوا[1] من المرافق ، وصاغوا من المنافع كالقَرِصطونات[2] ، والقَبّانات ، والأَسطُرلابات[3] ، وآلة الساعات ، وكالكونيا[4] وكالشيزان[5] والبِركار[6] وكأصناف المزامير والمعازف ، وكالطبّ والحسابِ والهندسة واللُّحون ، وآلات الحرب كالمجانيق ،

---

(١) فى الأصل وبعض أصول ن : « فصنفوا » .

(٢) جاء فى النزهة المبهجة لداود الأنطاكى بهامش تذكرة داود ١ : ١٥ : «علم مركز الأثقال مثل القرصطيون ، يعنى القبان» . وجاء فى كتاب التربيع والتدوير ص ١٣٨ ساسى : « وخبرنى عن القرسطون كيف أخرج أحد رأسيه ثلاثمائة رطل زاد ذلك أم نقص ، ووزن جميعه ثلاثون رطلا زاد ذلك أو نقص » وانظر الحيوان ١ : ٨١ ، فيبدو أنه ضرب من القبان .

(٣) الأسطُرلاب أو الأصطرلاب : مقياس للنجوم ، وهو باليونانية أصطرلابون . وأصطر هو النجم ، ولابون هو المرآة ، وقد يهذى بعض المولعين بالاشتقاقات فى هذا المعنى بما لامعنى له ، وهو أنهم يزعمون أن لاب اسم رجل وأسطر جمع سطر . وهذا اسم يونانى ، اشتقاقه من لسان العرب جهل وسخف . مفاتيح العلوم للخوارزمى ص ١٣٤ والحيوان ١ : ٨١ / ٢ : ٢٤٢ . وقد وقع صاحب القاموس فى هذا الوهم الذى نبه عليه الخوارزمى فى مادة (لوب) .

(٤) فى الأصل : «وكالكرسا» بهذا الإهمال ، وأثبت مافى ج ، ف . وفى مفاتيح العلوم : « الكونيا » بالواو ، وقال : « للنجارين يقدرون بها الزاوية القائمة » .

(٥) ج ، ف : « والكسيران » ن ، س : « والكشتوان » .

(٦) البركار : آلة هندسية مركبة من ساقين متصلتين تثبت إحداها وتدور حولها الأخرى ، ترسم بها الدوائر والأقواس ، وتسمى بالعامية « البرجل » ، وهى فى الفارسية « پَركار » .

والعَرَّادات[١] ، والرَّتيلات[٢] ، والدَّبَّابات ، وآلة النَّفَّاط[٣] ، وغير ذلك مما يطول ذكرُه .

وكانوا أصحابَ حكمة ولم يكونوا فَعَلة ؛ يصوِّرون الآلة ، ويخرطون الأداة ، ويصوغون المُثُل ولا يُحسنون العملَ بها[٤] ، ويشيرون إليها ولا يمسُّونها ، ويرغِّبون فى العلم ويرغَبون عن العمل .

فأمَّا سُكَّان الصين فهم أصحاب السَّبْك والصِيَاغة ، والإفراغ والإذابة والأصباغ العجيبة ، وأصحاب الخَرْط والنَّحت والتصاوير ، والنَّسج والخطّ ، ورفق الكفّ فى كلِّ شىء يتولَّونه ويُعانُونه ، وإن اختلف جوهرهُ ، وتباينت صنعته ، وتفاوَت ثمنُه .

واليونانيون يعرفون الفَلَك ، لأنَّ أولئك حكماء وهؤلاء فَعَلة[٥] . وكذلك العرب ، لم يكونوا تُجَّارًا ولا صُنّاعا ، ولا أطِبَّاء ولا حُسَّابًا ، ولا أصحابَ فلاحة فيكونون مَهنة ، ولا أصحاب زرع ، لخوفهم من صَغَار

---

(١) العرادة : منجنيق صغير . والمنجنيق : آلة ترمى بها الحجارة فى القتال . وانظر حواشى البيان والتبين ٣ : ١٧ .

(٢) فى الأصل وبعض أصول ن : «الترسلات» بالإهمال . وفى بعض أصول ن : « الزقيلات » ، وباقى النسخ : « الرتيلات » . وفى البيان ٣ : ١٧ : « الرتيلة » .

(٣) ج ، ف : « النفاطين » .

(٤) فى الأصل وبعض أصول ن : « المثال ولا يحسنون العمل به » ، وعدلت العبارة لتتفق مع سائرها .

(٥) فى الأصل وبعض أصول ن : « حكما وهم فعلة » وأثبت الصواب من ب .

الجزية[1] . ولم يكونوا أصحابَ جمعٍ وكسب ، ولا أصحابَ احتكار لما فى أيديهم وطلب ماعند غيرهم ، ولا طلبوا المعاشَ من ألسنة الموازين ورءوس المكاييل ، [ولا عرفوا الدَّوانيق والقراريط ، ولم يفتقروا الفقر المدقع الذى يشغَل عن المعرفة[2]] ، ولم يستغنوا الغنَى الذى يورث البُلدة[3] ، والثروة التى تحدث الغِرَّة ، ولم يحتملوا ذُلًّا قطُّ فيُميتَ قلوبَهم ويصغِّر عندهم أنفسَهم . وكانوا سكانَ فيافٍ وتربيةَ العَرَاء ، لا يعرفون الغَمَقَ ولا اللَّثَق[4] ، ولا البُخَار ولا الغِلَظ ولا العَفَن ، ولا التَّخم[5] . أذهان حِداد ، ونفوسٌ منكرة ، فحين حَمَلوا حَدَّهم ووجَّهوا قوام لقولِ الشِّعر وبلاغة المنطق ، وتشقيق اللغة وتصاريف الكلام ، بعد قيافة الأثَر وحفظ النَّسَب ، والاهتداء بالنجوم ، والاستدلال بالآفاق ، وتعرُّف الأنواء ، والبَصر بالخيل والسِّلاح وآلة الحرب ، والحفظ لكلِّ مسموع والاعتبار بكلِّ محسوس ، وإحكام شأن المثالب والمناقب ، بَلَغوا فى ذلك الغايةَ ، وحازوا كلَّ أمنيَّة . وببعض هذه العلل صارت نفوسُهم أكبر ، وهممهم[6] أرفعَ من جميع الأمم وأفخر ، ولأيَّامهم أحفظَ وأذكر . ٣٥ و

وكذلك التُّرك أصحاب عَمَد وسُكَّان فيافٍ وأرباب مواشٍ ، وهم أعراب

---

(١) الصَّغار : الذل .

(٢) التكملة من ب ، ولم يبيض لها فى الأصل .

(٣) البلدة ، بضم الباء وفتحها : ضد النفاذ والذكاء والمضاء فى الأمور .

(٤) الغمق : الندى والرطوبة والوخامة . واللثق : الندى مع سكون الريح . فى الأصل وبعض أصول ن : « العمق والسق » ، تحريف .

(٥) التخم : الوخم ، وهو الوباء .

(٦) فى الأصول وبعض أصول ن : « وقسمهم » ، وأثبت مافى ب .

العَجَمَ كما أنَّ هذيلا أكراد العَرب . فحين لم تشغلهم الصِّناعات والتِّجارات ، والطِّبُّ والفِلاحة والهندسة ؛ ولا غرسٌ ولا بُنيانٌ ، ولا شقُّ أنهار ، ولا جباية غَلّات ، ولم يكن همُّهم غير الغزو والغـارة والصَّيد وركوب الخيل ، ومقارعة الأبطال ، وطلب الغنائم وتدويخ البُلدان ، وكانت هممهم إلى ذلك مصروفةً وكانت لهذه[1] المعـانى والأسباب مسخّرةً ومقصورةً ، عليها ، وموصولةً بها [أحكموا ذلك الأمر بأسره ، وأتَوا على آخره[2] ، و] صار ذلك هو صناعتَهم وتجارتهم ، [ولذّتهم[2]] ونخرهم ، وحديثهم وسمَرَهم .

فلمَّا كانوا كذلك صاروا فى الحرب كاليونانيين فى الحـكمة ، وأهـل الصِّين فى الصناعات ، والأعرابِ فيما عددنا ونزّلنـا ، وكآل ساسانَ فى المُلك والرياسة .

ومما يُستدلُّ به على أنَّهم قد استقصوا هذا البابَ واستغرقوه ، وبلغوا أقصى غايتهِ وتعرَّفوه ، أنَّ السَّيف إلى أن يتقلَّده متقلِّد ، أو يَضرِب به ضارب ، قد مرَّ على أيدٍ كثيرة ، وعلى طبقاتٍ من الصُّنَّاع ، كلُّ واحدٍ منهم لا يعمل عملَ صاحبه ، ولا يُحسنه ولا يدَّعيه ولا يتكلَّفه ، لأنَّ الذى يذيب حديد السَّيف ويُميعُه ، ويصفِّيه ويهذّبه ، غير الذى يمدُّه ويمطُله[3] ، والذى يمدُّه ويمطُله[4]

---

(١) فى الأصل وبعض أصول ن : « وكانوا بهذه » .

(٢) التـكملة من ب .

(٣) فى الأصل وبعض أصول ن : «غير الذى يحده ويده» ، وأثبت ما فى ب .

(٤) المطل : المد . وفى الأصل وبعض أصول ن : « ويملطه » تحريف .

٣٥ ظ

غير الذى يطبعه ويسوِّى متنَه ، ويقيم خَشيبَته[(١)] ؛ والذى يطبعه ويسوِّى متنَهُ غير الذى يَسقيه ويُرهِفُه ، والذى يُرهِفه غير الذى يُركِّب قَبيعتَه ويستوثق من سِيلانه[(٢)] ، والذى يعمل مسامير السِّيلان و [شارِبَى[(٣)]] القبيعة ونصلِ السيف غير الذى ينحت خَشَب غِمده ، والذى ينحت خَشَب غمده غير الذى يدبُغ جِلْده ، والذى يدبغ جلده غير الذى يحلِّيه ، والذى يُحَلِّيه ويركِّب نعلَه غير الذى يَخرز حمائله . وكذلك السَّرْج[(٤)] ، وحالات السَّهم والجَعْبة والرُّمح وجميع السلاح ، مما هو جارِحٌ أو جُنَّة[(٥)] .

والتركىُّ يعمل هذا كلَّه لنفسه من ابتدائه إلى غايته ، فلا يستعين برفيق ، ولا يَفزَع فيه إلى صديق[(٦)] ، ولا يختلف إلى صانع ، ولا يَشغَل قلبه بمطاله وتسويفه ، وأكاذيب مواعيده ، وبِغُرم كِرائه .

وحين بلغَ أوسُ بن حجر صفةَ القانص ، وبلغ له الغايةَ فى جمعه لأبواب الكفاية بنفسه ، قال :

---

(١) فى اللسان : « يقال سيف مشقوق الخشيبة ، يقول عرض حين طبع » . فى الأصل وبعض أصول ن : « جنبتيه » ، ج : « خشابته » ، وأثبت ما فى ن ، س ، ف .

(٢) السيلان ، بالكسر : سنخ قائم السيف ، أى أصل مقبضه .

(٣) التكملة من ن ، س . وبدلها فى ج « وشادى » وفى ف : « وشاذى » . والقبيعة : ما على مقبض السيف من فضة أو حديد . والشاربان : أنفان طويلان فى أصل مقبض السيف .

(٤) فى الأصل وبعض أصول ن : « السراج » .

(٥) الجنة ، بالضم : مايتقى به من ترس ونحوه . فى الأصل وبعض أصول ن : « خارج أو منه » ، تحريف .

(٦) ب : « ولا يفزع إلى رأى صدق » .

قَصِىٌّ مَبِيتِ اللَّيلِ للصَّيد مُطعَم لأَسهُمِه غارٍ وبارٍ وراصفُ[١]

وليس أنه ليس فى الأرض تركىٌّ إلّا وهو كما وصفنا ، كما أنَّه ليس كل يونانىٍّ حكيمًا ولا كل صينىٍّ غايةً فى الحذق ، ولا كلُّ أعرابىٍّ شاعراً قائفا ، ولكنَّ هذه الأمور فى هؤلاء أعمُّ وأتمُّ ، وهى فيهم أظهر وأكثر .

قد قلنا فى السبب الذى تكاملت به النَّجدة[٢] والفروسيَّة فى التُّرك دون جميع الأمم ، وفى العلل التى من أجلها انتظموا جميعَ معانى الحرب ، وهى معانٍ تشتمل على مذاهبَ غريبة ، وخصالٍ عجيبة .

فمنها : ما يُقضى لأهله بالكرم وبُعْد الهمَّة وطلب الغاية . ومنها : ما يدلُّ على الأدب السَّديد والرأى الأصيل ، والفِطنة الثَّاقبة والبصيرة النافذة . [ألا ترى أنّه ليس بدٌّ لصاحب الحرب من الحلم والعلم ، والحزْم والعزم ، والصبر والكتمان ، ومن الثقافة[٣]] ، وقلَّة الغفلة وكثرة التجربة . ولا بدَّ من البصر بالخيل والسلاح ، [والخبرة[٤]] بالرِّجال وبالبلاد ، والعلم بالمكان والزَّمان والمكايد ، وبما فيه صلاحُ هذه الأمور كلّها .

---

(١) ديوان أوس ص ٧١ . قصى مبيت الليل ، يقول : لا يبيت مع أهله ، إنما يبيت مع الوحش . ويقال فلان مطعم للصيد ومطعم الصيد ، إذا كان مرزوقا منه . غار ، هو من غراه يغروه ، إذا طلاه بالغراء . والبرى معروف . والراصف ، من الرصفة ، وهى ما يشد على صدر السهم . فى الأصل : «وواصف» ، صوابه فى ن ، س . والبيت والكلام المتعلق به قبله ساقط من ج ، ف .

(٢) فى الأصل وبعض أصول ن : «قد قلنا فى السنة التى لها تكاملت النجدة» ، صوابه فى ب .

(٣) التكملة من ب . (٤) التكملة من ب .

٣٦ و والمُلكُ يحتاج إلى أواخٍ شِدادٍ وأسباب مِتَان ، ومن أتمِّها سببًا وأعمقها نفعًا ما ثبَّته فى نِصابه ، وأقرّه وسكّنه فى قراره ، وزاد فى تمكُّنه وبهائه ، وقطع أسباب المطمعة فيه ، ومنع أيدى البُغاةِ من الإشارة إليه فضلا عَن البَسْط عليه[1] .

قال : ثم إنَّ التُّرك عطفَتْ على العرَب بالمحاجَّة والمقايَسة ، وقالوا : قلتم إن تكن القرابةُ مما يستَحقُّ بالكفاية فنحن أقدَمُ فى الطَّاعة والوُدّ والمناصَحة ، وإن تكن تُستحقُّ بالقرابة فنحن أقربُ قرابةً .

قالوا : والعرب بعد هذا صِنفانِ : عدنان وقَحطان . فأمَّا القحطانىُّ فنسبتنا إلى الخلفاء أقربُ من نسبتهم ، ونحن أمسُّ بهم رَحِمًا ؛ لأن الخليفة من ولد إسماعيل بن إبراهيم ، دون قحطانَ وعابَر . وولدُ إبراهيم عليه السلام إسماعيلُ ، وأمُّه هاجَر ، وهى قبطيّة . وإسحاقُ وأمُّه سارَةُ وهى سُريانيَّة . والسّتّة الباقون أمُّهم قَطُورا بنت مفطون[2] عربيّة ، من العرب العاربة .

وفى قول القحطانية : إنَّ أمَّنا أشرفُ فى الحسب إذْ كانت عربية . وأربعةٌ من الستّة هم الذين وقَعوا بخراسانَ ، فأولدوا تُركَ خراسان . فهذا قولنا للقحطانىّ .

---

(١) الكلام بعده إلى « وكلها جواد » فى ص ٨٧ ليس فى اختيار ج ، ف .

(٢) فى الأصل وبعض أصول ن : «أمهم قنطور» ، والوجه ما أثبت من جمهرة أنساب العرب ٥ ، ٥١٠ وسيرة ابن هشام ٧١ . وفى سفر التكوين ٢٥ : ١ « قطورة » . وقد ذكرت أسماء الستة فى سفر التكوين .

وأما قولُنا للعدنانيّ ، فإبراهيم أبونا ، وإسماعيلُ عمُّنا ، وقرابتنا من إسماعيل كقرابتهم .

قال الهيثم بن عديّ : قيل لمبارَك التُّركيّ ، وعنده حَمَّادٌ التركى : إنكم من مَذحِج . قال : ومَذحج هذا من هو ذاك ؟ وما نعرف إلّا إبراهيمَ خليلَ الله وأميرَ المؤمنين .

قال الهيثم : وقد كان سقَط إلى بلاد الترك رجلٌ من مَذحجٍ فأنسلَ نسلًا كثيراً ، ولذلك قال شاعر الشُّعوبية للعرب فى قصيدةٍ طويلة :

زعمتم بأنَّ الترك أبناء مذحجٍ وبينَكم قُربَى وبين البرابرِ
وذٰلكم نسلُ ابن ضَبَّة باسلٍ وصُوفانَ أنسال كثير الجرائر[1]

وقال آخر :

متى كانت الأتراكُ أبناء مَذحجٍ ألَا إنَّ فى الدنيا عجيبًا ابن عَجبْ

وقد سمعتم ما جاءَ فى سدّ بنى قَطُورا[2] وشأنِ خيولهم بنخْل السَّواد[3] ، وإنّما كان الحديثُ على وجه التَّهويل والتخويف بهم لجميع الناس ، فصاروا للإسلام مادّةً [و] جنداً كثيفا ، وللخلفاء وِقايةً وموئلًا وجُنّةً حصينة ، وشعاراً دون الدِّثار .

٣٦ ظ

---

(١) فى جمهرة ابن حزم ٢٠٣ : « وباسل بن ضبة يقال إن الديلم من ولده » .

(٢) فى الأصل : « قنطور » . وانظر ما سبق .

(٣) ن ، س : « تبخو السواد » . والسواد سواد العراق ، وهى قرى الكوفة والبصرة ، وأصل السواد جماعة النخل والشجر .

وفى المأثور من الخبر : « تارِكُوا التُّركَ ماتارَكوكم » . وهذه وصيّةٌ لجميع العرب ؛ فإنَّ الرأى متاركتنا ومسالمتنا . وما ظنُّكم بقومٍ لم يَعرِض لهم ذو القرنين . وبقوله « اتركوهم » سُمُّوا التُّرك . هذا بعد أن غَلَب على جميع الأرض غَلبةً وقسراً ، وعَنوةً وقهراً .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « هذا عدوٌّ شديدٌ كَلَبُه ، قليل سَلَبُه » . فنهى كما ترى عن التعرُّضِ لهم ، بأحسنِ كناية .

والعربُ إذا ضَربت المثلَ فى العداوة الشّديدة قالوا : ماهم إلاّ التُّركُ والدَّيلم. قال عَمَلّس بن عَقِيل بن عُلَّفة :

تبدَّلت منه بعد ما شاب مَفرِقى عداوةَ تُركىٍّ وبغضَ أبى حِسْلِ

وأبو حسْلٍ هو الضَّبّ . والعرب تقول : « هو أعقُّ من ضَبّ » ؛ لأنّه يأكل أولادَه .

ولم يُرعِب قلوبَ أجناد العربِ مثلُ التُّركِ . وقال خلفٌ الأحمر :

كأنِّى حين أرهنُهم بَنِيِّى دفعتُهمُ إلى صُهبِ السِّبالِ[(١)]

قال : وإيَّاهم عَنَى أوسُ بن حجر :

نكَّبتُها ماءَهم لمـا رأيتهم صُهبَ السِّبالِ بأيديهم بيازيرُ[(٢)]

(١) يجوز فى ياء المتكلم المدغم فيها ياء أن تكون مفتوحة كما يجوز كسرها . وبالأخيرة قرأ حمزة : « وما أنتم بمصرخى » بالكسر . الأشمونى ٢ : ٢٨٢ .

(٢) فى الأصل وفى بعض أصول ن : « سكبهم اساهم » ، وكتب فى حاشيتها : « ظ حسبتهم أنهم لما رأيتهم » أى الظاهر . والصواب ما أثبت من ن ، س وديوان أوس ٣٣ . والبيازير : جمع بيزارة ، وهى العصا العظيمة . وفى الأصول : «مارين» صوابه من الديوان .

وحدثنى إبراهيمُ بن السِّندى مولى أمير المؤمنين ، وكان عالماً بالدَّولة ، شديدَ الحبِّ لأبناء الدَّعوة ، وكان يحوطُ مواليَه ويحفظ أيَّامَهم ، ويدعو الناسَ إلى طاعتهم ، ويَدرسهم مناقبهم[1] ، وكان فخمَ المعانى فخمَ الألفاظ ، لو قلت لسانُه كان أردَّ[2] على هذا المُلْك من عَشْرةِ آلاف سيفٍ شَهِيرٍ ، وسِنانٍ طَرِيرٍ[3] ، لكان ذلك قولاً ومذهباً .

قال : حدَّثنى عبد الملك بن صالح ، عن أبيه صالح بن على ، أنَّ خاقان ملكَ الترك واقفَ مرة الجُنَيد بنَ عبد الرحمن[4] أميرَ خراسان ، وقد كان الجنيدُ هالَه أمره ، وأفزعه شأنُه ، وتعاظَمه جموعُه وجَمعه ، وبَعِل به[5] ، وفطن به خاقانُ وعرف ما قد وقَع فيه ، فأرسل إليه : ٣٧ و

« إنِّى لم أقفْ هذا الموقفَ وأُمْسِكْ هذا الإمساكَ وأنا أريدُ مكروهاً ، فلا تُرَعْ . ولو كنتُ أريد غَلبةً أو مكروهاً لقد كنت انتسَفْتُ عسكرَكَ انتسافاً

---

(١) يقال درسته الشىء درساً وأدرسته إياه : علمته إياه . انظر اللسان (درس ٣٨٢) .

(٢) يقال هذا الشىء أرد من ذاك ، أى أنفع وأكثر عائدة .

(٣) الشهير : المشهور المسلول ، وإن كان لم ينص عليه فى المعاجم المتداولة . والطرير : المحدد . وانظر البيان ٣ : ٢٧٣ .

(٤) هو الجنيد بن عبد الرحمن بن عمرو بن الحارث ، المرى . جمهرة أنساب العرب ٢٥٢ وفتوح البلدان للبلاذرى ٦٠٣ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ . وقد استعمله هشام ابن عبد الملك على خراسان سنة ١١١ وكانت له حروب مع خاقان ملك الترك . الطبرى ٨: ٢٠٤ – ٢١٤ . وهو غير الجنيد بن عبد الرحمن بن عوف بن بجيد الكلابى . وقد ولى خراسان أيضاً . الجمهرة ٢٨٧ .

(٥) بعل به : ضاق به ودهش فلم يدر كيف يصنع .

أعجلك فيه عن الروية وقد أبصرتُ موضعَ العورة . ولولا أن تعرفَ هذه المكيدة فتعود بها على غيرى من الأتراك ، لعرّفتُك موضعَ الانتشار والخلل والخطأ فى عسكرك وتعبيتك. وقد بلغنى أنك رجلٌ عاقل، وأنّ لك شرفاً فى بيتك وفضلاً فى نفسك ، وعلماً بدينك ، وقد أحببت أن أسأل عن شىء من أحكامكم لأعرفَ به مذهبكم ، فاخرُجْ إلىَّ فى خاصّتك لأخرجَ إليك وحدى ، وأسائلك عما أحتاج إليه بنفسى . ولا تحتفلْ ولا تحترسْ ؛ فليس مثلى مَنْ غدَر ، وليس مثلى يؤمِن من نفسه ، ومن مكره وكيده ، ثم ينكُثُ بوعده . ونحن قومٌ لا نخدع بالعمل ، ولا نستحسن الخديعةَ إلاَّ فى الحرب ، ولو استقام أمر الحرب بغير خديعة لما جوّزْنا ذلك لأنفسنا » .

فأبى الجُنيد أن يخرج إليه إلاَّ وحدَه ، ففَصَلا من الصُّفوف . وقال : سَلْ عمّا أحببتَ ، فإنْ كان عندى جوابٌ أرضاه أجبتُك، وإلاَّ أشرتُ عليك بمن هو أبصر بذلك منِّى .

قال : ما حكمكم فى الزّانى ؟

قال الجُنيد : الزّانى عندنا رجلان : رجلٌ دفعنا إليه امرأةً تُغنيه عن حُرَم النّاس ، وتكفُّه عن حُرَم الجيران ؛ ورجلٌ لم نُعطِه ذلك ، ولم تَحُلْ بينه وبين أن يفعل ذلك لنفسه . فأمّا الذى لازوجةَ له فإنّا نجلده مائة جَلدة ونُحْضِر ذلك الجماعةَ من الناس لنشهِّره ونحذّره به ، ونغرِّبه فى البُلدان لنزيد فى شهرته وفى التّحذير منه ، ولينزجر بذلك كلُّ من كان يهُمُّ بمثل عمله . فأما الذى قد [أغنيناه[1]] فإنا نرجُمه بالجَنْدلِ حتّى نقتلَه .

---

(١) موضعها بياض فى الأصل ، وإثباتها من ن ، س .

قال : حَسَن جميلٌ ، وتدبير كبير ، فما قولكم فى الذى يَقذِف عفيفاً بالزِّنى ؟

قال : يجلَد ثمانين جلدةً ، ولا نَقبَل له شهادةً، ولا نُصدِّق له حديثا .

قال : حَسنٌ جميل ، وتدبير كبير ، فما حُكمكم فى السارق ؟

قال : السّارق عندنا رجلان : رجل يحتال لما قد أحرزَه الناس من أموالهم حتّى يأخذها بنَقْب حيطانهم وبالتسلُّق من أعالى دُورهم ؛ فهذا نقطَع يَده التى سَرقَ بها ،ونَقَب بها ، واعتَمَد عليها . ورجل آخر يُخيف السبيل ، ويقطع الطَّريق ، ويكايد على الأموال[1] ، ويَشْهَرُ السّلاح فإنْ منعَه صاحب المَتاع قَتَله ، فهذا نقتُله ونَصلِبه على المناهج والطُّرق .

٣٧ ظ

قال : حَسَن جميلٌ ، وتدبير كبير . قال : فما حُكمكم فى الغاصب والمستلِب ؟

قال : كلُّ مافيه الشُّبهة ويجوز فيه الغَلَط والوُجوهُ ، كالغَصْب والاستلاب ، والجنايةِ ، والسَّرِقة لمَا يؤكل أو يُشرب فإنّا لا نقطع فيما فيه شُبهة وتتمحّل[2] لذلك وجهاً غيرَ السَّرِقة .

قال : حَسنٌ جميلٌ وتدبير كبير . قال : فما حُكمكم فى القاتل وقاطع الأُذُن والأنف ؟

---

(١) المراد بالمكايدة هنا الاحتيال والمعالجة . وفى الأصل : « يكابر » ، وأثبت ما فى ن ، س .

(٢) فى أصول ن : « ويمتحل » وقد جعلها فان فلوتن : « ويحتمل » ، وتبعته نسخة س . وما أثبت من الأصل أولى وأوفق .

قال : النَّفس بالنَّفس ، والعَيْن بالعين ، والأنفُ بالأنف . وإنْ قتل رجلاً عَشَرةٌ قتلناهم . ونقتل القويَّ البدن بالضَّعيف البدن ، وكذلك اليدُ والرِّجل .

قال : حَسن جميلٌ وتدبير كبير . قال : فما تقولون فى الكذَّاب والنَّمام والضَّراط .

قال : عندنا فيهم الإقصاء لهم وإبعادُهم وإهانتهم ، ولا نقبل شهادتَهم ، ولا نصدِّق أحكامهم .

قال : وليس إلَّا هذا ؟

قال : هذا جوابُنا على ديننا .

قال له : أمَّا النمام عندى ، هو الذى يُضرِّب بين الناس[1] ، فإنِّى أحبِسُه فى مكانٍ لا يَرَى فيه أحدًا . وأمَّا الضَّرَّاطُ فإنِّى أكوِى استَه ، وأعاقب ذلكَ المكانَ فيه[2] . وأمَّا الكذَّاب فإنِّى أقطع الجارحةَ التى بها يكذب ، كما قطعتم اليَد التى بها يَسرق ، وأمَّا الذى يُضحِك النّاسَ ويعوِّدهم السُّخْفَ فإنِّى أُخْرِجه من سلطانى ، وأُصْلح بإخراجه عُقولَ رعيتى .

قال : فقال الجُنَيد بن عبد الرحمن : أنتم قومٌ تردُّون أحكامَكم إلى جواز العقول ، وإلى ما يَحسُن فى ظاهر الرأى ؛ ونحن قومٌ نتبع الأنبياء ، ونرى أنْ لم نَصلُح على تدبير العباد . وذلك أنَّ الله تعالى أعلَمُ بغَيب المَصالح وسِرِّ الأمر[3]

---

(١) وكذا فى ن مع عدم سبق واو لكلمة « هو » فيهما . لكن فى س : « وهو الذى يرفع الحديث بين الناس إشاعة » .

(٢) جملت فى ن ، س : « منه » .

(٣) ن ، س : « وبسر الأمر » .

وحقائقه، ومحصوله وعواقبه، والناسُ لا يعلمون ولا يَرون الحزمَ إلّا على ظاهر الأمور. وكم من مُضيع يَسلم، وحازم يعطب.

قال: ماقلتَ كلاماً أشرف من هذا، ولقد ألقيتَ لى فكراً طويلا.

قال إبراهيم: قال عبدُ الملك: قال صالح: قال الجُنيد: فلم أرَ أوفَى ولا أنصَفَ ولا أفهمَ ولا أذكى منه. ولقد واقَفْتُه ثلاثَ ساعاتٍ من النّهار وما تحرّكَ منه شيء إلّا لسانُه، وما منّى شيء لم أحرّكه. ٣٨ و

وهكذا يَصِفون مُلوكَ التُّرك، يزعمون أنّ ساسان وخاقانَ الأكبرَ، تواقفا ببعض الكسور[١]، وفَصَلا من الصَّفّين، وطالت المناجاة، فلما انفتلا قالوا: كان خاقانُ أركنَ وآدَب، وكان مَركَب كِسرى أركن وآدَب[٢]، ولم يتحرّكْ من خاقانَ إلّا لسانُه، وكان بِرذونُه يرفع قائمةً ويَضع أخرى، وكان مركب كسرى كأنّما صُبَّ صبًّا، وكان كسرى يحرّكُ رأسَه ويُشير بيده.

قالوا: ومن الأعاجيب أنّ الحارثَ بن كعب لا يقوم لحَزْم[٣]، وحزم لا تقوم لكندةَ، وكندةُ لا تقوم للحارث بن كعب.

---

(١) كسور الأودية والجبال: معاطفها وشعابها، لا يفرد لها واحده كما فى اللسان. وقد حورت فى ن، س إلى «الجسور» خلافاً لما فى الأصول، وليس مايدعو إليه.

(٢) أركن من الركانة، وهى السكون والوقار. وفى جميع الأصول: «أزكى» فى هذا الموضع.

(٣) بنو حزم بن زيد بن لوذان بن عمرو بن عبد بن عوف بن غنم بن مالك ابن النجار. جمهرة أنساب العرب ٣٤٨. وفى العرب جرم بن ربان بن حلوان ابن عمران بن الحاف بن قضاعة. الجمهرة ٤٥١.

قالوا : ومثل ذلك من الأعاجيب فى الحارث : أنَّ العربَ لا تقوم للتُّرك ، والتُّرك لا تقوم للرُّوم ، والرُّوم لا تقوم للعرب .

قال جهمُ بن صَفْوانَ الترمذىّ[١] : قد عرفْنا ما كانَ بين فارسَ والتُّرك من الحرب ، حتَّى تزوَّج كسرى أَبْرَويز ، خاتونَ بنت خاقان ، يستميله بذلك الصِّهر ، ويدفَعُ بأسه عنه . وقد عَرفْنا الحروبَ التى كانت بين فارسَ والرُّوم ، وكيف تساجلوا الظفرَ ، وبأىِّ سببٍ غُرِس الزَّيتون بالمدائن وسوسا[٢] ، وبأىِّ سببٍ بنيت الرُّوميّة[٣] ولِمَ سمِّيت بذلك ، ولِمَ بَنَى كسرى على الخليج قُبالة قُسطنطينيَّة النَّواويس[٤] وبيوتَ النار . ولكن متى ظهرت الرُّوم على تُرك خراسان ظهوراً مواليًا ، ضَربُوا بها المثل إلى آخر دارمسه[٥] ، ومَن هناك من الأشباه ، ومن يتخلَّل هذا النسب .

وكانت خاتونُ بنت خاقانَ عند أبرويز فولدت له شِيرويه . وقد ملك شِيرَوَيه بعـــد أبرويز ، فتزوَّج شيرويه مريم بنت قيصر ، فولدت له

---

(١) نسبة إلى ترمذ ، وكان قد أظهر دعوته بها . السمعانى ١٤٩ والفرق بين الفرق ١٩٩ والملل والنحل ١ : ١٠٩ . وقد قتل سنة ١٢٨ . البداية والنهاية ١٠ : ٢٧ ولسان الميزان ٢:١٤٢ . ويقال له أيضاً السمرقندى كما فى لسان الميزان . وفى الأصول : « الريدى » بالإهمال .

(٢) الذى فى معجم البلدان « شوشة » قال : قرية بأرض بابل .

(٣) هذه رومية المدائن ، وهى غير رومية الروم . انظر معجم البلدان (رومية) .

(٤) النواويس : جمع ناووس ، وهى مقابر النصارى .

(٥) كذا وردت هذه العبارة .

فيروزا شاهى[1] أمَّ يزيدَ الناقص[2] والوليد. وكان يقول : ولدنى أربعة أملاك : كسرى ، وخاقان ، وقيصر ، ومَرْوان . وكان يرتجز فى حُروبه التى قَتل فيها الوليد بن يزيد بن عاتكة :

أنا ابنُ كسرى وأبى خاقانْ وقيصرٌ جدِّى وجدِّى مَروانْ[3]

فلما صار إلى الافتخار فى شِعره بالنَّجدة والثقافة بالحرب ، لم يفخر إلّا بخاقانَ فقط فقال :

فإنْ كنتُ أرمِى مُقْبِلًا ثم مُدبرا وأطلُع من طَودٍ زليق على مُهْرِ

بخاقان جدِّى فاعرفى ذاكِ واذكرى أخايِرَهُ فى السَّهل والجبل الوعرِ[3]

٣٨ ظ

قوله « وأطلُع » يريد : وأنزل ، وهى لغة أهل الشام[4] وأخذوها من نازلة العرب فى أوَّل الدهر . وجعل دابَّتَه مُهرًا ، لأنَّ ذلك أشدُّ وأشقّ .

---

(١) فى الأصول : « فيروزا بنتاهى » تحريف . وفى الطبرى ٩ : ٤٦ أن اسمها « شاه آفريد بنت فيروز » .

(٢) هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان . الطبرى ٩ : ٢٢ ، ٤٦ قال : «وإنما قيل يزيدالناقص لنقصه الناس الزيادة التى زادهموها الوليد بن يزيدفى أعطياتهم وذلك عشرة عشرة » . وروى الطبرى أيضاً أنه سمى بذلك تلقيبا له من مروان ابن محمد ، إذ سماه الناقص بن الوليد فسماه الناس الناقص لذلك . فهذا تعليل آخر . وفى أمثلة النحويين : « الناقص والأشج أعدلا بنى مروان » . والأشج : عمر ابن عبد العزيز ، سمى بذلك لشجة أصابته .

(٣) فى الطبرى ٩ : ٤٦ :

أنا ابن كسرى وأبى مروان وقيصر جدى وجدى خاقان

(٣) ن ، س : « أخايره » .

(٤) لم تسجلها المعاجم المتداولة ولا كتب الأضداد ، لكنهم ذكروا طلع عنهم وعليهم بمعنى غاب واختفى . وطلع عنهم وعليهم بمعنى أقبل .

وقال الفضل بن العبَّاس بن رَزِين : أتانا ذات يوم فُرسانٌ من التُّرك ، فلم يبق أحد ممن كان خارجًا إلَّا دخَلَ حِصنَه وأغلقَ بابَه ، وأحاطوا بحصنٍ من ذلك الحصون ، وأبصرَ فارسٌ منهم شيخًا يطَّلع إليهم من فوق ، فقال له التركىّ : لئن لم تنزلْ إلىَّ لأقتُلنَّك قِتلةً ماقتلتُها أحدًا ! قال : فنزل إليه وفتح له الباب ، ودخلوا الحصن ، واكتسحوا كلَّ شىء فيه ، فضحِك من نُزوله إليه وفَتْحِه له وهو فى أحصنِ موضعٍ وأمنعِ مكان ، ثم أقبلَ به إلى حصنٍ أنا فيه فقال : اشتروه منِّى . قلنا : لا حاجةَ لنا فى ذلك . قال : فإنِّى أبيعُه بدرهمٍ واحد . فرمينا إليه بدرهمٍ فخلَّى سبيله ، ثمَّ أدبرَ عنا ومضَى مع أصحابه ، فما لبث إلَّا قليلًا حتَّى عاد إلينا فوقفَ حيثُ نسمع كلامَه ، فراعنا ذلك ، فأخرجَ الدِّرهم من فمه وكسرهُ بنصفَين . وقال : لا يَسْوَى درهمًا[1] ، وهذا غَبنٌ فاحِش ، فخُذُوا هذا النِّصفَ ، وهو على كلِّ حالٍ غالٍ جدًّا بالنِّصف الآخَر .

قال : فإذا هو أظرفُ الخلق .

قال : وكنَّا نعرف ذلك الرجلَ بالجُبْن ، وقد كان سمِعَ باحتيال التُّرك فى دخول المُدن وعُبور الأنهار فى الحروب ، فتوهَّم أنه لم يَتوعَّد بفتح الباب[2]

وقال ثُمامة : ما شبَّهتُ الذَّرَّ إلا بالتُّرك ؛ لأنَّ كُلَّ ذرّةٍ على حِدَتها معَها من المعرفة بادِّخار الطُّعم ، ومن الشَّمِّ والاسترواح ، ونَجْب المدَّخَر[3] حتَّى

---

(١) أى لايساوى درهما . وقد أنكر هذه الكلمة أبو عبيدٍ ، وحكاها أبو عبيدة كما فى اللسان (سوى ١٤٠) .

(٢) أى لم يكن كلامه وعيدا فحسب . وفى ن بعده : « إلا وعنده » ، ثم أكلها فان فلوتن بعبارة « شىء من ذلك » .

(٣) النجب : العض والقشر ، والمراد شق الحبوب . انظر الحيوان ٤ : ٥-٦ ،=

لا ينبُتَ فى جحره[١] ، ثم الاحتيال للناس فى الاحتيال لها بالصِّمامة والعِفاص والمزدجر[٢] ، وتعليق الطَّعام على الأوتاد والبَرَّادات ، مثلُ الذَّرّ مع صاحبتها .

وقال أبو موسى الأشعرىّ : كل جنسٍ يحتاج إلى أمير ورئيس ومدبِّر ، حتّى الذرّ[٣] .

وروى أبو عُمَر الضَّرير[٤] ، أن رئيس الذرّ الرَّائدَ الذى يخرج أوّلًا لِشىء قد شَمَّه دونَ أصحابه ، لخصوصيّةٍ خَصَّه الله تعالى بها ، ولَطافة الحِسّ ، فإذا حاولَ حملَه وتعاطى نَقلَه ، وأعجزهُ ذلك بعد أن يُبْلِيَ عُذرا ، أتاهنَّ فأخبرهنَّ فرجَع ، وخرجَتْ بعده كأنَّها خيطٌ أسودُ ممدود . وليست ذَرّةٌ أبدًا تستقبل ذَرّةً أخرى إلّا واقَفَتْها وسارَّتْها بشىء ثم انصرفتْ عنها[٥] . ٣٩ و

وكذلك الأتراكُ كُلُّ واحدٍ منهم غير عاجزٍ عن معرفةِ مصلحة أمْره ، إلّا أنَّ التفاضل واجبٌ فى جميع أصناف الأشياء والنَّبات والمَوَات . وقد تختلف الجواهر وكلُّها كريم[٦] ، وتتفاضل العِتاق وكلُّها جَوَاد .

= ١٨ و ٧ : ٣٥ . وفى الأصل « بجنب » بإهمال الحرف الأول والثالث . وجعلها فان فلوتن : « وتجنب المزجر » .

(١) فى الأصل : « حتى لايبيت إلا فى جحره » . والوجه ما أثبت . انظر التنبيه السابق ومراجعه .

(٢) فى الأصل : « والمودحر » .

(٣) انظر الحيوان ٤ : ١٩ ، ٢٠ .

(٤) وكذا ورد اسمه فى البيان ٢ : ٦٩ . وفى بعض نسخ البيان « أبو عمرو الضرير » وورد فى الحيوان ٤ : ٢٠ « أبو عمرو المكفوف » .

(٥) انظر الحيوان ٤ : ٧ — ٨ .

(٦) فى الأصل : « وكله كريم » .

وقد قلنا فى مناقب جميع الأصناف بجُمَل ما انتهى إلينا وبلَغَه عِلمُنا ؛ فإنْ وقعَ ذلك بالموافقة فبتوفيق الله وصُنْعه ، وإن قصَّر دون ذلك فالذى قصَّر بنا نُقصانُ عِلمنا ، وقلَّة حفظنا وسماعنا . فأمَّا حُسْنُ النِّيَّة ، والذى نُضمِر من المحبَّة والاجتهاد فى القُرْبة ، فإنا لا نرجع فى ذلك إلى أنفسنا بلائمة . وبين التقصير من جهة التفريط والتَّضييع ، وبين التقصير من جهة العَجز وضَعفِ العَزم ، فرقٌ .

ولو كان هذا الكتاب من كتب المناقضات ، وكتب المسائل والجوابات ، وكان كُلُّ صِنفٍ من هذه الأصناف يريد الاستقصاء على صاحبه ، ويكون غايته إظهارَ فَضْلِ نفسِه وإن لم يصل إلى ذلك إلّا بإظهار نقص أخيه ووليِّه[1] ، لكان كتاباً كبيراً ، كثيرَ الورق عظيما ، ولكان العددُ[2] الذين يَقضُون لمؤلِّفه بالعلم والاتِّساع فى المعرفة أكثرَ وأظهر ، ولكنَّا رأينا أنَّ القليل الذى يُجمع خيرٌ من الكثير الذى يُفرَّق .

ونحن نعوذ بالله من هذا المذهب ، ونسأله العونَ والتسديد ، إنّه سميع قريبٌ ، فعّالٌ لما يريد .

تم الكتاب ولله المنة ، وبيده الحول والقوة
والله الموفق للصواب

الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين وسلامُه وهو حسبُنا ونعم الوكيل .

---

(١) فى ن ، س : « وولده » .

(٢) فى ب : « عدد » .

٢

رِسَالة

المعَاش والمعَاد

أوْ

الأخلاق المحمودة والمذمومة

كتب بها إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دواد

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه الرسالة من نسختين فى الأصل :

النسخة الأولى عنوانها : (رسالة أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ إلى محمد بن عبد الملك فى الأخلاق المحمودة والمذمومة) وهى ثانى رسالة فى مجموعة الأصل ،

والنسخة الثانية عنوانها : (رسالة المعاد والمعاش فى الأدب وتدبير الناس ومعاملاتهم كتب بها إلى أبى الوليد محمد بن أحمد بن أبى دواد) وترتيبها فى المجموعة هو الرابع ، إذ يفصل بين النسخة الأولى والثانية رسالة أخرى هى (كتاب كتمان السر وحفظ اللسان) .

أما محمد بن عبد الملك الزيات فهو فى غنى عن التعريف ، وإن كنت قد عرفت به فى كتابى الحيوان والبيان .

وأما محمد بن أحمد بن أبى دواد فكان قاضياً كأبيه ، ولاه المتوكل على قضاء بغداد والأعمال بعد أن فلج أبوه سنة ٢٣٣ ، ثم عزله المتوكل سنة ٢٣٧ . وتوفى أبو الوليد محمد سنة ٢٣٩ ومات أبوه بعده بعشرين يوماً[1] .

والراجح أن الرسالة كتبها الجاحظ إلى أبى الوليد محمد بن أحمد بن أبى دواد ، لا إلى محمد بن عبد الملك ؛ لأنه يذكر فى صدرها أنه عرف المكتوب إليه هذه الرسالة « أيام الحداثة » . ولا ينطبق ذلك على محمد بن عبد الملك الزيات ، فقد كانت حياته بين سنتى ١٧٣ ، ٢٣٣ ولم تعرف صلة الجاحظ به إلا فى أيام سلطانه .

---

(١) تاريخ بغداد ١ : ٢٩٧ — ٣٠١ . وانظر لترجمة أبيه وإخوته جمهرة أنساب العرب ٣٢٨ وتاريخ بغداد ٤ : ١٤١ — ١٥٦ ووفيات الأعيان ١ : ٢٢ — ٢٦ . وقد انفرد ابن حزم بتسمية أبيه أحمد بن محمد بن أبى دواد .

وتجد ما يقتضى التسمية بالمعاش والمعاد فى ص ٩٥ س ١٧ .

وقد حققت هذه الرسالة على أربع نسخ :

١ — نسخة الأصل فى الموضع الأول من المجموعة .

٢ — نسخة الأصل فى الموضع الثانى من المجموعة ، ورمزها د .

٣ — نسخة المتحف البريطانى التى تمثلها مصورة الجامعة ، ورمزها م .

٤ — نشرة پاول كراوس ومحمد طه الحاجرى ورمزها ط .

بسم الله الرحمن الرحيم

حَفظكَ اللهُ وأمتعَ بك [١]

أما بعدُ فإنَّ جماعاتِ أهل الحكمة قالوا : واجبٌ على كلِّ حكيمٍ أن يُحسِن الارتيادَ لموضع البُغْية ، وأن يبيِّن أسبابَ الأمور ويمهِّدَ لعواقبها. فإنَّما حُمِدت العلماء بحسن التثبُّت فى أوائل الأمور ، واستشفافِهم [٢] بعُقولهم ما تجيء به العواقب ، فيعلمون عند استقبالها ما تَؤُول به الحالات فى استدبارها . وبقدر تفاوتهم فى ذلك تستبين فضائلهم . فأمَّا معرفة الأمورِ عند تكشُّفها ومايظهر من خَفِيَّاتها فذاكَ أمرٌ يعتدل فيه الفاضل والمفضول ، والعالمون والجاهلون [٣] .

وإنِّى عرَفتك ــ أكرَمكَ الله ــ فى أيام الحداثة ، وحيث سُلطان اللَّهو المُخْلق للأعراض أغلبُ على نظرائك ، وسُكر الشباب والجِدَة [٤] المتحيِّفَين للدِّين والمرُوءة مستولٍ على لِدَاتك فاختُبِرتَ أنت وهم [ففقتَهم [٥]] بِبَسْطة المَقدِرة وحُمَيَّا الحداثة ، وطُولِ الجِدَة ، مع ما تقدَّمتَهم فيه من الوسامة فى الصُّورة ، والجمال فى الهيئة . وهذه كلُّها أسبابٌ [تكاد أن [٦]] توجب

---

(١) « حفظك الله وأمتع بك » من د فقط .

(٢) د : « واستشراقهم » .

(٣) م : « والعالم والجاهل » .

(٤) الجدة ، كعدة : اليسار والسعة والغنى ، ومثلها الوجد مثلثة الواو : م : « الحدة » تصحيف .

(٥) التكملة من م .

(٦) التكملة من م .

الانقيادَ للهوى ، ولُججٌ من المهالك لا يَسلمُ منها إلاَّ المنقطع القرين فى صِحّة الفطرة ، وكمال العقل . فاستعبدتْهم الشّهواتُ حتى أعطوها أزِمّة أديانهم ، وسلّطوها على مُروءاتهم وأباحوها أعراضَهم ، فآلت بأكثرهم الحالُ إلى ذُلِّ العُدم وفقد عِزِّ الغنى فى العاجل ، والنّدامة الطويلة والحسرةِ فى الآجل .

وخرجتَ نسيجَ وحدِك ، أوحديًّا فى عصرك[١] ، حكّمت وكيلَ الله عندك ــ وهو عقلُك ــ على هواك ، وألقيتَ إليه أزِمّةَ أمرك ، فسلَكَ بك طريقَ السّلامة[٢] ، وأسلمك إلى العاقبة المحمودة ، وبلغ بك من نيل اللذّات أكثرَ مما بلغوا ، ونال بك من الشّهوات أكثر مما نالوا ، وصرّفك من صنوف ٤١ و النِّعَم[٣] أكثر مما تصرّفوا ، وربطَ عليك من نِعَم الله التى خوّلك ما أطلقَه من أيديهم إيثارُ اللّهو[٤] وتسليطُهم الهوى [على أنفسهم[٥]] ؛ فخاض بهم سُبُل تلك اللُّجَج[٦] ، واستنقذَك من تلك المعاطب ، فأخرجكَ سليمَ الدِّين ، وافرَ المرُوءة ، نقيَّ العرض ، كثير الثّراء ، بيِّن الجِدَة[٧] . وذلك سبيلُ مَن كان ميلُه إلى الله تعالى أكثرَ من ميلِه إلى هواه .

---

(١) هذا ما فى د . وفى الأصل و م : « نفسك » .

(٢) هذا ما فى د . وفى الأصل : « طرق » وفى م : « سبيل » .

(٣) هذا ما فى د ، م وفى الأصل : « التنعم » .

(٤) د : « إيثار الهوى » .

(٥) هذه من د .

(٦) فى الأصل ، م : « نخاض بك تلك اللجج » ، وأثبت ما فى د .

(٧) هذه الكلمة والتى قبلها ساقطتان من د . وفى الأصل ، م: « من الجدة » ،

فلم أزَلْ [أبقاك الله[١]] فى أحوالك تلك كلِّها بفضيلتك عارفاً ، ولك بنعَم الله عندك غابطاً ، أرى ظواهر أمورك المحمودةِ فتدعونى إلى الانقطاع إليك ، وأسأل عن بواطن أحوالك فتزيدنى رغبةً فى الاتِّصال بك ، ارتياداً منى لموضع الخِيَرة فى الأخوَّة ، والتماساً لإصابة الاصطفاء فى المودَّة ، وتخيُّراً لمستودع الرَّجاء فى النَّائبة .

فلما مَحضَتْك الخِبرةُ ، وكشَفَك الابتلاء عن المحمدة ، وقَضَتْ لك التَّجارِبُ بالتَّقدِمة ، وشهِدت لك قلوبُ العامَّةِ بالقَبول والمحبَّة ، وقَطَع الله عُذْرَ كلٍّ من كان يَطلُب الاتِّصالَ بك ، طلبتُ الوسيلةَ إليك والاتِّصالَ بحبلك ، ومَتَتُّ بحُرمة الأدب وذِمام كرمك . وكان من نِعمة الله عندى أنْ جعل أبا عبد الله[٢] ـ حفظه الله ـ وسيلتى إليك ، فوجدت المطلبَ سهلاً والمُرادَ محموداً ، وأفضيت إلى ما يجوز الأُمنيَّة ويفوت الأمل ، فوصلتَ إخاىَ[٣] بمودَّتك ، وخَلطتَنى بنفسك ، وأسْمَتَّنى فى مراعى ذَوِى الخاصَّة بك ، تفضُّلاً لا مجازاة ، وتطوُّلاً[٤] لا مكافاة ، فأمِنت الخطوبَ ، واعتلَيتُ على الزَّمان ، واتخذتُك للأحداث عُدَّةً ، ومن نوائب الدهر حِصناً منيعاً .

فلمَّا حُزْتُ المؤانسة ، وتقلَّبت من فضلك فى صُنوف النِّعمة ، وزاد بصرى من مَواهبك فى السُّرور والخَبْرة ، أردتُ خِبرة المشاهدة ، فبلوتُ

---

(١) التكملة من أحد أصول ط .

(٢) لعله يعنى أبا عبد الله أحمد بن أبى دواد .

(٣) د : « رجاى » .

(٤) د : « وتكرما » .

أخلاقك ، وامتنحت شِيَمك ، وعجمت مذاهبَك على حين غَفَلاتك ، وفى الأوقات التى يقلّ فيها تحفُّظك ، أراعى حركاتِك ، وأراقب مخارج أمْرِك ونَهْيِك ، فأرى [من] استبصغارِك لعظيم النِّعم التى تنْعَم بها ، واستكثارِك لقليل الشُّكر من شاكريك ، ما أعرف به[٢] [و] بما قد بلوت من غيرك ، وما قد شهدت لى به التَّجارِب ، أنَّ ذلك منك طبعٌ غير تكلُّف .

٤١ ظ

هيهاتَ ! ما يكاد ذو التكلُّف أن يَخفَى على أهل الغَبَاوة[٣] ، فكيف على مثلى من المتصفِّحين. فزادتنى المؤانسة فيك رغبةً ، وطول العِشرة لك محبَّة ، وامتحانى أفاعيلَك لك تفضيلاً ، وبطاعتك دينونةً .

وكان من تمام شكرى لربِّى ولىِّ كلِّ نعمة ، والمبتدئ بكلِّ إحسان ، الشُّكرُ لك والقيامُ بمكافأتك بما أمكنَ من قولٍ وفعل[٤] ؛ لأنَّ الله تبارك وتعالى نَظَم الشُّكر له بالشُّكر لذِى النِّعمة مِن خَلْقه ، وأبَى أن يقبلَهما إلاَّ معاً ؛ لأنَّ أحدهما دليلٌ على الآخَر ، وموصولٌ به . فمن ضَيَّع شكر ذى نعمةٍ من الخلق فأمْرَ الله ضيَّع ، وبشاهده استخفّ[٥] .

ولقد جاء بذلك الخبرُ عن الطَّاهر الصادق صلى الله عليه وسلم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « من لم يشكر للناس لم يشكر لله » .

---

(١) التكملة من أحد أصول ط .

(٢) فى الأصل و د : « أعرف» فقط . والكلمة التى قبلها والتى بعدها من أحد أصول ط . وقد زدت الواو بعد هذه العبارة ليلتئم القول .

(٣) فى الأصل و د : « على الغباة » ولم يعرف هذا الجمع للغبى ، ولا هو مقيس . وأثبت ما فى م .

(٤) د : « وعمل » .

(٥) الشاهد : الدليل . فى الأصل : « وبشهادته » ، وأثبت ما فى د .

ولعمرى إنّ ذلك لموجودٌ فى الفطرة، قائم فى العقل : أنَّ مَن كفر نِعَم الخَلْق كان لِنعمِ الله أكفر؛ لأنَّ الخلق يُعطى بعضُهم بعضاً بالكُلْفة والمشقّة، وثِقَل العطية على القلوب، والله يعطى بلا كُلْفة. ولهذه العلّة جمع بين الشُّكر له والشكر لذَوِى النِّعَم من خلقه.

فلما وجبت علىَّ الحجّة بشُكرك، وقُطع عُذرى فى مكافأتك، اعترفتُ بالتقصير عن تقصِّى ذلك، إلاَّ أنِّى بسطتُ لسانى بتقريظك ونشرِ محاسنك. موصولٌ ذلك منِّى[1] عند السامعين بالاعتراف بالعجز عن إحصائها.

وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنَّه قال: « من أُودع عُرفاً فليشكره، فإن لم يمكنه فلينشرهُ، فإذا نشره فقد شَكَره، وإذا كتمه فقد كَفَره ».

ثم رأيت أنْ قد بقِىَ علىَّ أمرٌ من الأمور يمكننى فيه برُّك، وهو عندى عَتيد، وأنت عنه غير مستغنٍ، والمنفعة لك فيه عظيمة عاجلة وآجلة إن شاء الله. ٤٢ و

ولم أزل أبقاكَ اللهُ بالموضع الذى قد عرفتَ[2]، من جَمْع الكُتُب ودراستِها والنَّظَر فيها، ومعلومٌ أنَّ طُول دراستها إنَّما هو تصفُّح عقول العالمين، والعلمُ بأخلاق النبيِّين، وذوى الحكمة من الماضين والباقين من جميع الأمم، وكتبِ أهل الملل.

فرأيتُ أن أجمع لك كتاباً من الأدب، جامعاً لعلمٍ كثيرٍ من المَعاد والمعاش، أصِفُ لك فيه عللَ الأشياء، وأُخبرُك بأسبابها وما اتَّفقت عليه محاسنُ الأمم.

---

(١) فى الأصل: « عندى » وأثبت ما فى د.

(٢) د: « علمت ».

وعلمتُ أنَّ ذلك من أعظم ما أبرُّك به[١] ، وأرجَحِ ما أتقرَّبُ به إليك . وكان الذى حدانى على ذلك ما رأيتُ الله قَسَم لك من الفَهم والعقل ، وركَّب فيك من الطَّبع الكريم .

وقد أجمعت الحكماء[٢] أنَّ العقل المطبوع والكرمَ الغريزىّ لا يبلغان غايةَ الكمال إلاَّ بمعاونة العقل المكتسَب . ومثَّلوا ذلك بالنَّار والحطب ، والمِصباح والدُّهن . وذلك أنَّ العقل الغريزىَّ آلة والمكتسَب مادّة ، وإنَّما الأدبُ عَقلُ غيرِكَ تَزيده فى عقلك .

ورأيتُ كثيراً من واضعى الآداب قبلى قد عَهِدوا إلى الغابرين[٣] بعدَهم فى الآداب عُهوداً قاربوا فيها الحقَّ ، وأحسنوا فيها الدلالة ، إلاَّ أنِّى رأيت أكثرَ مارَسَموا من ذلك فروعاً لم يبيِّنوا عللَها ، وصفاتٍ حسنةً لم يكشفوا أسبابها ، وأموراً محمودة لم يدلُّوا على أصولها .

فإنْ كان ما فعلوا من ذلك [رواياتٍ رَوَوها عن أسلافهم ، و[٤]] وراثاتٍ وَرِثوها عن أكابرهم ، فقد قاموا بأداءِ الأمانة ، ولم يبلغوا فضيلةَ من استنبط[٥] . وإنْ كانوا تركوا الدَّلالة على عِلل الأمور[٦] التى بمعرفة عللها[٧] يُوصل إلى

---

(١) د : « أسرك به » .
(٢) م : « وقد اجتمعت الحكماء على » .
(٣) د : « الغابر » .
(٤) التكملة من د ، م .
(٥) د . « يستنبط » . م : « استطب » .
(٦) هذا ما فى الأصل و م . وفى د : «على أعيان الأمور» .
(٧) د : « اللاتى على معرفة عللها » . وفى الأصل : « التى فى معرفة عللها » وأثبت ما فى م .

مباشرة اليقين فيها ، ويُنتَهى إلى غاية الاستبصار منها ، فلم يَعدُوا فى ذلك منزلة الظنّ بها . ولن تجدوا وصايا أنبياء الله أبداً إلاّ مبيَّنةَ الأسباب ، مكشوفة العِلل ، مضروبةً معها الأمثال .

فألّفت لك كتابى هذا إليك ، وأنا واصفٌ لك فيه الطبائعَ التى رُكب عليها الخلق ، وفُطرت عليها البَرايا كلُّهم ، فهم فيها مستوون[1] ، وإلى وجودها فى أنفسهم مضطرُّون ، وفى المعرفة بما يَتولَّد عنها متَّفقون . ٤٢ ظ

ثمَّ مبيِّنٌ لك كيف تفترق بهم الحالات ، وتَفاوَتُ[2] بهم المنازل ، وما العللُ التى يُوجب بعضُها بعضا ، وما الشىء الذى يكون سببًا لغيره ، متى كانَ الأوّلُ كان ما بعدَه ، وما السَّبب الذى لا يكون الثَّانى فيه إلّا بالأوّل ، وربَّما كان الأول ولم يكن الثانى . وفرقَ ما بين الطَّبع الأول وبين الاكتساب والعادةِ التى تصير طبعًا ثانيا . ولم اختلفَ ذلك ؟ وكيف دواعى قلوبِ الناس ، وما منها يمتنعون عنه ، وما منها لا يمتنعون منه . وما أسباب نوازع شهواتهم ؟ وما الشَّىء الذى يُحتال لقلوبهم به حتى تُستمال ، وحتى تُؤنَس بعد الوَحْشة ، وتَسكن بعد النِّفار ؟ وكيف يُتأتَّى لِيُنْقَضَ[3] ما فيهم من الطبائع المذمومة حتَّى تُصرف إلى الشِّيَم المحمودة ؟ وراسمٌ لك فى ذلك أصولًا ، ومبيِّن لك مع كلِّ أصل منها علَّته وسببَه .

---

(١) فى الأصل : « متساوون » وأثبت ما فى د .

(٢) أى تتفاوت ، بحذف إحدى التاءين . وفى د : « وتتفاوت » .

(٣) د : « لنقض » .

وقد علمتَ أنّ فى كثيرٍ من الحقّ مشبّهات لا تُستبان إلّا بعد النظر ، وهناك يختِل[١] الشّيطانُ أهلَ الغفلة ، وذاك أنّه لا يجد سبيلا إلى اختداعهم عن الأمور الظاهرة[٢] .

فلم أدَعْ من تلك المواضع الخفيّة موضعًا إلّا أقمتُ لك بإزاء كلِّ شبهة منه دليلًا[٣] ، ومع كلِّ خفيٍّ من الحقّ حجّةً ظاهرة ، تَستنبِط لها غوامضَ البرهان وتَستبين بها دقائق الصَّواب[٤] ، وتَستشِفُّ بها سرائرَ القلوب ، فتأتى ما تأتى عن بيِّنة ، وتَدع ما تدعُ عن خِبرة ، ولا يكون بك وحشةٌ إلى معرفةِ كثيرٍ مما يغيب عنك ، إذا عرفت العلل والأسباب ، حتّى كأنك مشاهدٌ لضمير كلِّ امرئٍ ، لمعرفتك بطبعه وما ركّب عليه ، وعوارض الأمور الداخلة عليه ثَمَّ ؛ غيرَ راضٍ لك بالأصول حتّى أتقصّى لك ما بلغَه علمى من الفروع . ٤٣ و ثم لا أرسم لك من ذلك [إلّا[٥]] الأمرَ المعقول فى كل طبيعة ، والموجودَ فى فِطر البرايا كلِّها[٦] . فإنْ أحسنتَ [رعايةَ[٧]] ذلك وأقمته على حُدوده ، ونزّلتَه منازلَه ، كان عمرُكَ ــ وإن قَصُرت أيّامُه ــ طويلا ، وفارقتَ ما لا بدَّ لك من فراقه محموداً ، إن شاء الله .

---

(١) فى الأصل : « يخيل » صوابه فى د . ويختل : يخدع .
(٢) فى الأصل : « عن الأمر الظاهر » ، وأثبت ما فى د .
(٣) كلة « منه » ليست فى الأصل ، وإثباتها من م وفى د : « منها دليلا » .
(٤) هذا ما فى د . وفى الأصل : « دقائق الصواب » .
(٥) التكملة من د .
(٦) فى الأصل : «فى فطرة» ، وأثبت ما فى د .
(٧) التكملة من د .

واعلم أنَّ الآدابَ إنَّما هى آلاتٌ تَصلُح أن تُستعمَل فى الدِّينِ وتُستعمَلَ فى الدنيا ، وإنَّماوُضعت الآداب على أصول الطبائع . وإنَّما أصول أمور التدبير فى الدِّين والدُّنيا واحدة ، فما فسدت فيه المعاملةُ فى الدِّين فسَدتْ فيه المعاملةُ فى الدنيا ، وكُلُّ أمرٍ لم يصحَّ فى معاملات الدُّنيا[١] لم يصح فى الدِّين . وإنَّما الفرق بين الدين والدُّنيا اختلافُ الدارين من الدُّنيا والآخرة فقط ، والحكم هاهنا الحكم هناك ، ولولا ذلك ما قامت مملكة ، ولا ثبتت دولة ، ولا استقامت سياسة . ولذلك قال الله عزَّ وجل : ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا[٢] ﴾ ، قال ابن عباس فى تفسيرها : من كان ليس له من العقل ما يَعرف به كيف دُبِّرت أمور الدنيا ، فكذلك هو إذا انتقل إلى الدِّين ، فإنَّما ينتقل بذلك العقل . فبقدْر جهله بالدُّنيا[٣] يكون جهلُه بالآخرة أكثر ؛ لأن هذه شاهدةٌ وتلك غَيب[٤] ؛ فإذا جهل ما شاهَد فهو بما غاب عنه أجهل .

فأوّلُ ما أُوصيك به ونفسى تقوى الله ؛ فإنَّها جِماعُ كلِّ خير ، وسببُ كلِّ نجاة ، ولِقاح كلِّ رشد . هى أَحرزُ حرزٍ ، وأقوى مُعين ، وأمنَع جُنَّة . هى الجامعةُ محبة قلوب العباد[٥] ، والمستقبلةُ بك محبّةَ قلوبِ من لا تَجرى عليهم

---

(١) د : « فى معاملة الدنيا » .

(٢) الآية ٧٢ من سورة الإسراء .

(٣) فى النسخ : « فى الدنيا » ، والوجه ما أثبت .

(٤) الشاهدة : نقيض الغائبة .

(٥) فى الأصل : « قلوب محبة العباد » ، صوابه فى د .

نعمُك[1]. فاجعلها عدَّتَك وسلاحَك[2] ، واجعل أمر الله ونَهيه نُصب عينيك.

٤٣ ظ وأحـذّرك ونفسى اللهَ والاغترار به ، والإدهان فى أمره ، والاستهانةَ بعزائمه ، والأمْنَ لمكره ؛ فقد رأيتَ آثارَه[3] فى أهل وِلايته وعداوته ، كيف جعلهم للماضين عِبرةً ، وللغابرين مثلا .

واعلم أنَّ خَلقه كلَّهم بَرِيَّتُه ، لا وُصْلَةَ بينه وبين أحدٍ منهم إلَّا بالطاعة ، فأولاهم به أكثرهم تزيُّدًا فى طاعته ، وما خالفَ هذا فإنّه أمانىُّ وغُرور .

وقد مكَّن الله لك من أسباب المقدرة ، ومَهَّدَ لك فى تمكين الغنى والبَسْطة ما لم تَنْحَله بحيلة[4] ، ولا بلغْتَه بقوّة[5] ، لولا فضله وطَوله . ولكنَّه مكَّنك ليبلو خُبرَك ، ويختبر شُكرك ، ويحصىَ سعيَك ، ويكتب أثَرَك ، ثم يوفِّيَك أجرَك ، ويأخُذَك بما اجترحَتْ يدُك أو يَعفوَ ؛ فأهلُ العفو هو .

ولله ابتلاءانِ فى خَلْقه ـ والابتلاء هو الاختبار ـ ابتلاء بنعمة ، وابتلاء بمصيبة . وبِقَدر عظمها يجب التَّكليف من الله عليها[6] ؛ فبقدر ما خَوَّلك من النعمة يستأديك الشُّكر[7] .

---

(١) كلمة « محبة » ساقطة من الأصل ، وإثباتها من د .

(٢) د : « عونك وسلاحك » .

(٣) د : « أثره » .

(٤) تنحله ، من النحلة وهى العطية . د : « ما لم تنله بحيلة » .

(٥) فى الأصل : « ولم تلقنه بقوة » ، وأثبت ما فى د .

(٦) د : « وبقدر عظمهما يجب التكليف عليهما » .

(٧) استأداه المال ونحوه : استخرجه منه وطلب أداءه .

ولو تقصَّى الله على خلقه لعذَّبهم ؛ ولذلك قال : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ[1] ﴾ . ولكنَّه قَبِل التَّوبة ، وأقالَ العثرة ، وجعل بالحسنة أضعافَها .

واعلمْ أنَّ الحكم فى الآخرة هو الحكمُ فى الدُّنيا : ميزانٌ قِسط ، وحكمٌ عدل . وقد قال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ[2] ﴾ .

وهذا مثلٌ ضرَبَه الله ؛ لأنَّ الناس يعلمون أن لو وضع فى إحدى كِفَّتَى الميزان شىء ولم يكُ فى الأخرى قليلٌ ولا كثير ، لم يكنْ للوزنِ معنًى يُعقَل . وذلك أن أحدًا من الخلْق لا يخلو من هَفوةٍ أو زَلّة أو غفلة ؛ فأَخبرَ أنَّ من كان حسناتُه الراجحةَ على سيئاته ، مع النَّدَم على السَّيئات ، كان على سبيل النجاة ، وطريق الفوز بالإفلاح . ومن مالت سيِّئاته بحسناته كان العطبُ والعذاب أولَى به . ٤٤ و

وكذلك حكمُه فى الدنيا ؛ لأنَّه قد تولَّى أولياءَ من خلقـه وشَهِد لهم بالعدالة ، وقد عاتَبَهم فى بعض الأمور لغلبة الصَّلاح [فى أفعالهم وإن هفَوا ، وتبرَّأ من آخرين وعاداهم لغلبة الجور[3]] على أفاعيلهم[4] ، وإن أحسَنُوا فى بعض الأمور .

---

(١) الآية ٤٥ من سورة فاطر .

(٢) الآية ١٠٢ — ١٠٣ من سورة المؤمنون .

(٣) التكملة من د .

(٤) د : « على أفعالهم » .

وكذلك جَرتْ معاملاتُ الخَلْق بينهم ، يُعدِّلون العادلَ بالغالب من فعله وربَّما أساء ، ويفسِّقون الفاسق وربَّما أحسن . وإنما الأمورُ بعواقبها ، وإنَّما يُقضَى على كلِّ امرئٍ بما شاكَل أحوالَه .

فهذه الأمورُ قائمةٌ في العقول ، جرت عليها المعاملة ، واستقامت بها السياسة ، لا اختلافَ بين الأمَّة فيها .

فلا تُغْبَنَنَّ حَظَّك من دِينك[١] ، وإن استطعتَ أن تبلغ من الطَّاعة غاياتِها فلنَفْسك تُمهِّد ، وإلَّا فاجهَدْ أن يَكون أغلبُ أفعالك عليك الطَّاعةَ[٢] ، مع النَّدامة عند الإساءة ، ويكون ميلُك عند الإساءة ، إلى الله أكثر . والله يوفِّقك .

اعلمْ أنَّ اللهَ جلَّ ثناؤه خَلَق خلْقــه ، ثمَّ طبعهم على حبِّ اجترار المنافع[٣] ، ودفع المضارّ ، وبُغض ما كان بخلاف ذلك[٤] . هذا فيهم طبعٌ مركَّب ، وجِبلّة مفطورة ، لا خلافَ بين الخلْق فيه ؛ موجودٌ في الإنس والحَيوان ، لم يدَّعِ غيره مدَّعٍ من الأوَّلين والآخِرين . وبقدر زيادةِ ذلك ونُقصانه تزيد المحبَّة والبغضاء ؛ [فنقصانُه[٥]] كزيادته تميل الطَّبيعة معهما[٦] كميل كِفَّتَي الميزان ، قلَّ ذلك أو كثُر .

---

(١) في الأصل : « فلا تعتبر » ، صوابه في د .

(٢) في الأصل : « أفاعيلك الطاعة » ، وأثبت ما في د .

(٣) اجترار المنافع : اجتلابها . وكلمة « حب » ساقطة من د .

(٤) في الأصل : « ونقص من كان » ، صوابه في د .

(٥) تكملة ضرورية ليتزن بها الكلام .

(٦) في الأصل ، د : « معها » .

وهاتان جملتان داخلٌ فيهما جميع مَحَابِّ العباد ومَكارههم . والنَّفس فى طبعها حبُّ الرَّاحة والدَّعة ، والازدياد والعلوّ ، والعِزّ والغَلبة ، والاستطراف والتَّنُّوق[1] ، وجميع ما تستلذ الحواسُّ من المناظر الحسنة ، والروائح العَبِقة ، والطُّعوم الطَّيِّبة[2] ، والأصوات المونقة ، واللامس اللَّذيذة . ومما كراهيتُه[3] فى طباعهم أضدادُ ما وصفتُ لك وخلافه .

فهذه الخلالُ التى تجمعها خَلتان[4] غرائز فى الفِطَر ، وكوامن فى الطَّبع ؛ جِبِلَّةٌ ثابتة ، وشيمة مخلوقة . على أنَّها[5] فى بعضٍ أكثرُ منها فى بعضٍ ، ولا يعلم قدرَ القلَّة فيه والكثرة إلَّا الذى دبَّرهم .

٤٤ ظ

فلمَّا كانت هذه طبائعَهم ، أنشأ لهم من الأرض أرزاقهم ، وجعل فى ذلك مَلاذًّ لجميع حواسِّهم ، فتعلَّقت به قلوبُهم ، وتطلَّعت إليه أنفسهم . فلو تَركَهم وأصلَ الطبيعة ، مع ما مكَّن لهم من الأرزاق المشتهاة فى طبائعهم ، صاروا إلى طاعة الهوى ، وذهب التعاطف والتبارُّ . وإذا ذهَبا كان ذلك سببًا للفساد ، وانقطاعِ التَّناسل ، وفناء الدُّنيا وأهلها ؛ لأنَّ طَبْع النفس لا يسلُس بعطيَّةِ قليلٍ ولا كثيرٍ مما حَوته ، حتَّى تعوَّض أكثر مما تُعطِى ، إمَّا عاجلًا وإما آجلًا مما تستلذُّه حواسُّها .

---

(١) التنوق فى الشىء : التجود والمبالغة فيه ، مثل التأنق . وفى النسختين : « التاون » ، وقد ارتضيت هذا التصحيح من ناشر ط .

(٢) فى الأصل : « والطعم ذو الطيبة » ، وأثبت ما فى د .

(٣) هذا ما فى د . وفى الأصل : « كراهته » .

(٤) يعنى : « المحاب والمكاره » . وفى د : « التى وصفت لك تجمعها خلتان » . ولا وجه لهذه الزيادة .

(٥) د : « إلا أنها » .

فعِلم اللهُ أنَّهم لا يتعاطفون ولا يتواصلون ولا ينقادون[١] إلاَّ بالتأديب ، وأنَّ التأديب ليس إلاَّ بالأمر والنَّهى ، [وأنّ الأمر والنهى[٢]] غير ناجعَين فيهم إلاَّ بالترغيب والترهيب اللذَين فى طباعهم[٣] . فَدعاهم بالتَّرغيب إلى جَنّته ، وجعلها عوضاً ممَّا تركوا فى جنب طاعته[٤] ، وزجَرهم بالتَّرهيب بالنار عن معصيته ، وخوَّفهم بعقابها على ترك أمره . ولو تركهم جلَّ ثناؤه والطِّباعَ الأوّل[٥] جَروْا على سَنَن الفِطرة ، وعادة الشِّيمة[٦] .

ثم أقامَ الرَّغبة والرَّهبةَ على حدود العَدل ، وموازين النَّصَفة ، وعدَّلهم تعديلاً متّفقا ، فقال : ﴿ فمن يَعْمل مِثقالَ ذَرّةٍ خيراً يَرَهُ . ومَن يعمل مِثقالَ ذَرّةٍ شرًّا يره[٧] ﴾ .

ثم أخبر الله تبارك وتعالى أنَّه غير داخلٍ فى تدبيره الخللُ ، ولا جائزٌ عنده المحاباة ؛ ليعملَ كلُّ عاملٍ على ثقةٍ ممَّا وعَده وواعَده ، فتعلَّقت قلوبُ

---

(١) ولا ينقادون ، ساقطة من د .

(٢) التكملة من د .

(٣) د : « طبائعهم »

(٤) فى الأصل : « طاعتهم » ، وأثبت ما فى د .

(٥) الطباع : الطبيعة والسجية . قال الزجاجى : «الطباع واحد مذكر كالنحاس والنجار » ، يعنى بكسر أولهما . انظر اللسان (طبع) . وفى د : « والطبع الأول » ، وكلاهما متجه .

(٦) م : « وعادات الشيمة » .

(٧) الآية ٧ ــ ٨ من سورة الزلزال .

العباد بالرغبة والرّهبة ، فاطَّرَدَ التدبير ، واستقامت السِّياسة ، لموافقتهما[١] ما في الفِطرة ، وأخذها بمجامع المَصلحة .

ثمَّ جعلَ أكثر طاعته فيما تَستثقل النفوس ، وأكثرَ معصيته فيما تَلَذّ . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « حُفَّت الجنة بالمكاره ، والنّارُ بالشهوات[٢] » . [يخبر أنّ الطريق إلى الجنّة احتمال المكاره ، والطريق إلى النار اتباع الشهوات[٣]] .

فإذا كانوا لم يصلحوا لخالقهم ولم ينقادوا لأمره إلاَّ بما وصفتُ لك من الرَّغبة والرَّهبة ، فأعجزُ الناسِ رأياً وأخطؤهم تدبيراً ، وأجهلُهم بموارد الأمور ومصادرها ، من أمَّل أو ظنّ أورجَا أنَّ أحداً من الخلْق ـ فوقه أو دونه أو من نظرائه[٤] ـ يصلح له ضميره ، أو يصحُّ له بخلاف مادبرهم الله عليه ، فيما بينه وبينهم . ٤٥ و

فالرَّغبة والرَّهبة أصلاَ كلِّ تدبير ، وعليهما مدار كلِّ سياسة ، عظُمتْ أو صغُرت . فاجعلْهما مِثالَك الذى تَحتذِى عليه ، وركنَك الذى تستنِد إليه . واعلمْ أنَّك إن أهملت ماوصفتُ لك عرَّضتَ تدبيرك للاختلاط .

---

(١) يعنى الرغبة والرهبة . وفى الأصل : « لموافقتها » ووجهه من د .

(٢) رواه مسلم والترمذى وأحمد عن أنس ، ومسلم أيضاً عن أبى هريرة . الجامع الصغير ٣٧٣٢ .

(٣) التكملة من د .

(٤) فى الأصل : « أو من يظن أن » مع سقوط هذه العبارة من د ، وصوابها مارأيت وانظر ماسيأتى .

وإنْ آثرتَ الهُوينَا واتّكلت على الكُفاةِ فى الأمر الذى لا يجوز فيه إلاّ نظرك، وزَجَّيت أمورك على رأيٍ مدخول، وأصلٍ غيرِ محكَم، رجع ذلك عليك بما لو حُكِّم فيك عدوُّك كان ذلك غايةَ أمنيَّته، وشفاءَ غيظِه.

واعلم أنَّ إجراءك الأمورَ مجاريَها، واستعمالَك الأشياءَ على وجوهها، يجمع لك أُلفةَ القلوب، فيعاملك[1] كلٌّ من عاملَك بمودّةٍ، أو أَخْذ أو إعطاء، وهو على ثقةٍ من بَصَرِك بمواضع الإنصاف[2]، وعلمك بموارد الأمور.

واعلم أنّ أَثرتَك على غير النصيحة والشَّفقة، والحُرمة والكِفاية، يوجب [لك[3]] المباعدةَ وقلّةَ الثقة ممن آثرته أو آثرتَ عليه.

فاعرِف لأهل البَلاءِ - ممَّن جرت بينك وبينه مودّةٌ أو حرمة، ممن فوقَك أو دونك أو نظرائك - أقدارَهم ومنازلَهم. ثمَّ لتكنْ أمورُك معهم على قدر البلاء والاستحقاق، ولا تُؤْثر فى ذلك أحَداً لهوًى[4]؛ فإنَّ الأَثَرة على الهوى توجب السُّخطة، وتُوجب استصغار عظيم النِّعمة، ويُمحَق بها الإفضال، وتَفسد عليها[5] الطائفتان: مَن آثرتَ ومن آثرت عليه.

أما من آثرت[6] فإنَّه يعلم أنَّك لم تُؤْثره باستحقاقٍ بل لهوًى، فهو

---

(١) فى الأصل: «ويعاملك» والوجه من د.

(٢) د: «بمواقع الإنصاف».

(٣) التكملة من د.

(٤) د: «بهوى».

(٥) فى الأصل: «بها» وأثبت ما فى د.

(٦) د: «آثرته» فى هذا الموضع وسابقه.

مترقِّبٌ أن ينتقل هواك إلى غيره ، فتَحُول أَثَرتُك حيث مال هواك . فهو مدخولُ القَلْب فى مودَّتك ، غير آمنٍ لتغيُّرك .

وأمَّا من آثرتَ عليه بعد الاستحقاق منه ، فقد جعلتَ له السبيلَ إلى الطَّعن عليك ، وأعطيتَه الحُجَّة على نفْسِك . فكلُّ من يعمل على غير ثقةٍ عاد ما أراد به النَّفعَ ضرراً ، والإصلاح [فيه[1]] فساداً . ٤٥ ظ

وربَّما آثَر الرجلُ المرءَ من إخوانه بالعطية السنيَّة على بلاء أبلاه[2] ، فيعظمُ قدرُها[3] عنده حتَّى لعلَّه تطيبُ نفسُه ببذل مالِه ودمِه دونَه[4] . فإنْ أعطى من أبلى كبلائه وكانت له مثل دالَّته[5] ، أكثرَ ممَّا أعطاه ، انتقل كلُّ محمودٍ من ذلك مذموماً ، وكل مستحسَنٍ مستقبحاً . وكذلك الأمر فى العقوبة ، يجريان مجرى واحداً .

فاجعل العدلَ والنَّصَفة فى الثَّواب والعقاب حاكمًا بينك وبين إخْوانك ، فمن قدَّمت منهم فقَدِّمْه على الاستحقاق ، وبصحة النّيّة فى مودته ، وخلوص نصيحته لك ممّا قد بلوتَ من أخلاقه وشيمه[6] ، وعلمتَ بتجربتك له ، أنَّه يعلم أنَّ صلاحَه موصولٌ بصلاحك ، وعطبَه كائن مع عطبك ، ففوِّض

(١) التكملة من د .

(٢) فى الأصل : « بلا بلاء أبلاه » ، والوجه من د .

(٣) فى الأصل : « قدرها » ، صوابه من د .

(٤) د : « ونفسه دونه » .

(٥) فى الأصل : « دلالته » ، صوابه فى د .

(٦) فى الأصل : « ممن قد بلوت فى أخلاقه وشيمه » ، والوجه من د .

الأمرَ إليه ، وأشرِكْه فى خواصِّ أمورِك وخفىِّ أسرارك ، ثمَّ اعرفْ له قدرَه فى مجلسك ومُحاورتك[١] ومعاملتك ، فى كلِّ حالاتك ومزاولاتك فى خلواتك معه[٢] ، وبحضرةِ جُلسائك ؛ فانَّ ذلك زيادة فى نيته ، وداعيةٌ[٣] لمَنْ دونه إلى التقرُّب إليك بمثل نصيحته .

فإن ابتُليتَ فى بعض الأوقات بمن يَضْرِب بحرمة[٤] ويمتُّ بدالّة ، يطلب المكافأةَ بأكثر ممَّا يستوجب ، فدعاك الكرمُ والحياء إلى تفضيله على من [هو[٥]] أحقُّ منه ، إمَّا تخوُّفًا من لسانه[٦] ، أو مداراةً لغيره ، فلا تَدع الاعتذارَ إلى من فوقَه من أهل البَلاَء والنَّصيحة وإظهارَ ما أردتَ من ذلك لهم ؛ فإنّ أهلَ خاصَّتك والمؤتمِنين على أسرارك ، هم شركاؤك فى العيش ، فلا تَستهينَنَّ بشىء من أمورهم ؛ فإنَّ الرَّجلَ قد يترك الشىء من ذلك اتِّكالاً على حسن رأى أخيه[٧] ، فلا يزال ذلك يجرح فى القلب وينمو ، حتَّى يولِّد ضِغْناً ويَحُولَ عداوة .

فتحفَّظْ من هذا الباب ، واحملْ إخوانك عليه بجهدك .

---

(١) د : « ومحادثتك » .

(٢) فى الأصل : « ومزاولتك » . والكلام بعد « معاملتك » إلى هنا ساقط من د .

(٣) د : « فإن ذلك زائد فى نيته وداع » .

(٤) د : « يتقرب بحرمة » .

(٥) التكملة من د .

(٦) د : « تخوفا » بدل « خوفاً » .

(٧) فى الأصل : « أموراً لا على رأى أخيه » ، صوابه فى د .

وستجد فى من يتّصل بك من يغلبه إفراط الحِرص وحُمَيّا الشّره ، ولينُ جانبك له ، على أن ينَقِم العافية ، ويطلُب اللُّحوق بمنازلِ مَن ليس هو مثلَه[١] ، ولا له مثلُ دالَّته ، فتلْقاه لما تصنع به مستقِلاًّ ، ولمعروفك مُستصغِراً . وصلاح من كانت هذه حالَه بخلافِ ما فَسَد عليه أمرُه . فاعرفْ طرائقهم وشِيَمهم ، وداوِ كلَّ مَن لا بدَّ لك من معاشرته بالدواء الذى هو أنجعُ فيه ، إنْ ليناً فليناً ، وإنْ شدّةً فشدّة ؛ فقد قيل فى المثل :

٤٦ و

من لا يـــؤدّبُهُ الجميـ ـلُ ففى عقـــوبته صــلاحُه

وقد قال بعضُ الحــكماء :

« ليس بحــكيمٍ من لم يعاشرْ من لا يَجد من معاشرته بُدًّا[٢] ، بالعدل والنَّصفة ، حتَّى يجعل الله له من أمره فرجا ومخرجا[٣] .

فاحفظْ هذه الأبوابَ التى يُوجب بعضها بعضًا ، وقد ضَمِنَتْ لك أوائلُها كونَ أواخرها . فاعرفْها واقتبسْها ، واعلم أنَّه متى كان الأوّلُ منها وجبَ ما بعده لا بدَّ منه . فاحذر المقدِّمات اللاتى يعقبها المــكروه[٤] ، واحرِص على توطيد الأمور التى على أثَرها السَّلامة ، وألقِحْ فى البدئ الأمورَ التى نِتاجُها العافية[٥] .

---

(١) د : « ويطلب اللحاق بمنازل من ليس مثله » .

(٢) د : « من لم يعاشر من لا بد من معاشرته » .

(٣) هذا ما فى د . وفى الأصل : « حتى يجعل الله له فرجاً » فقط .

(٤) د : « التى » .

(٥) البدئ : الأول . فى الأصل : « والفتح فى يدى » صوابه فى د . وفى د : « أموراً نتاجها العافية » . وفى الأصل : «ونتائجها» .

فمن الأمور التى يُوجب بعضُها بعضًا : المنفعةُ توجب المحبّة ، والمَضرّة توجب البغضاء[١] ، والمُضادّة توجب العداوة ، وخلافُ الهوى يُوجب الاستثقال ، ومتابعتُه توجب الأُلفة ، والصِّدقُ يوجب الثِّقة ، والكذب يُورث التُّهمة[٢] ، والأمانة توجب الطُّمأنينة ، والعدل يوجب اجتماع القُلوب ، والجور يوجب الفُرقة ، وحسن الخلق يُوجب المودَّة ، وسوء الخلق يوجب المباعدة[٣] ، والانبساط يوجب المؤانسة ، والانقباض يوجب الوحشة ، والتكبُّر[٤] يوجب المقت ، والتواضُع يوجب المِقَة ، والجود بالقصد يوجبُ الحمد[٥] ، والبخل يوجب المذَمَّة ، والتوانى يوجب التَّضييع ، والجدّ يوجب رَخاء الأعمال ، والهُوَينا تورث الحسْرة ، والحزم يورث السُّرور ، والتَّغرير يُوجِب النَّدامة ، والحذر يوجب العُذْر ، [وإصابة التدبير توجب بقاء النعمة[٦]] والاستهانة توجب التَّباغِى ، والتَّباغى مقدِّمة الشّر[٧] وسببُ البَوَار . ٤٦ ظ

ولكلِّ شىء من هذا إفراط وتقصير[٨] ، وإنّما تَصحُّ نتائجها إذا أُقيمت على حدودها ، وبقدر ما يدخل مِن الخلل فيها يدخُل فيما يتولَّد منها ، لا بدَّ منه

---

(١) د : « لبغضة » .

(٢) فى الأصل : « النميمة » ، صوابه فى د .

(٣) د : « التباعد » .

(٤) د : « والكبر » .

(٥) د : « والجود والفضل يوجبان الحمد » . ولا يتساوق هذا مع سائر الأسلوب .

(٦) التكملة من د .

(٧) د : « مقدمات الشر » .

(٨) هذا ما يعبر عنه الأخلاقيون بمذهب الوسط .

ولا مَزْحَل عنه ، عليه عادةُ الخلق ، وبه جرَتْ طبائعهم ، وتمام المنفعة بها إصابةُ مواضعها :

فالإفراط فى الجود يوجب التَّبـذير ، والإفراط فى التواضع يوجب المذلَّة[١] ، والإفراط فى الـكبر يدعو إلى مقت الخاصّة[٢] ، والإفراط فى المؤانسة يدعو خلطاء السُّوء[٣] ، والإفراط فى الانقباض يوحش ذا النَّصيحة . وآفة الأمانة ائتمان الخَانة[٤] ، وآفة الصِّدق تصديق الـكَذَبة ، والإفراط فى الحذر يدعو إلى ألاَّ يُوثَق بأحد ؛ وذاك ما لا سبيل إليه . [والإفراط فى المضرّة مَبعثةٌ على حربك[٥]] ، والإفراط فى جرِّ المنفعة عَناء لمن أفرطتَ فى نَفعِه عَنك .

واحذرْ كل الحذر أن يختدعَك الشيطانَ عن الحزْم[٦] فيمثِّلَ لك التَّوانِىَ فى صورة التوكُّل ، ويسلبَك الحذر ، ويُورثَك الهُوَينا بإحالتك على الأقدار ؛ فإنَّ الله إنَّما أمر بالتوكُّل عند انقطاع الحِيَل ، والتسليم للقَضاء بعد الإعذار ، بذلك أنزلَ كتابَه ، وأمْضَى سُنَّته فقال : ﴿ خُذُوا حِذْرَكُمْ[٧] ﴾ ،

---

(١) فى الأصل : « يورث المذلة » ، وأثبت ما فى د .

(٢) فى الأصل : « يدعو العقب الحاصة » ، صوابه فى د .

(٣) بعده فى الأصل : « والإفراط فى الحذر يدعو إلى أن لا يثق بأحد » ، وهو تـكرار لما سيأتى مما اتفقت عليه النسختان .

(٤) الخانة : جمع خائن ، وفى اللسان : «والجمع خانة وخونة ، الأخيرة شاذة» . ونظير هذه الأخيرة فى الشذوذ حائك وحوكة .

(٥) التـكملة من د .

(٦) هذا ما فى د . وفى الأصل : « الحرص » .

(٧) الآية ٧١ من سورة النساء .

﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ[١] ﴾ . وقولُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم : « اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ[٢] » . وسُئل ما الحَزْم ؟ فقال : الحَذَر[٣] .

فتحفَّظْ من هذا الباب وأحكِمْ معرفتَه إن شاء الله تعالى .

واعلمْ أنَّ أكثر الأمور إنَّما هو على العادة وما تَضْرَى عليه النُّفوس ، ولذلك قالت الحكماء : « العادةُ أملَكُ بالأدب »

فرُضْ نفسَك على كلِّ أمرٍ محمود العاقبة ، وضَرِّها بكلِّ ما لا يُذَمّ من الأخلاق[٤] يَصِرْ ذلك طِباعا[٥] ، وينسب إليك منه أكثرُ مما أنت عليه .

واعلم أنَّ الذى يُوجب لك اسمَ الجود القيامُ بواجب الحقوق عند النَّوائب ، مع بَعضِ التَّفَضُّل على الراغبين . وإذا أُوجِبَ[٦] لك اسمُ الجود زالَ عنك اسمُ البخل .

٤٧ و واعلم أنَّ تثمير المال آلةٌ للمكارم ، وعونٌ على الدِّين ، ومُتَألَّفٌ للإخوان ؛ وأنَّ مَن قد فَقَدَ المال قلَّت الرغبة إليه ، والرَّهبة منه ؛ ومَن لم يكنْ بموضعِ رغبةٍ ولا رهبة استهانَ النّاسُ بقدره[٧] .

---

(١) الآية ١٩٥ من سورة البقرة .

(٢) رواه الترمذى عن أنس ، وهو حديث ضعيف ، الجامع الصغير ١١٩١ . ورواه الطبرانى: «قيدها وتوكل» أسنى المطالب لمحمد بن درويش البيروتى ص ٤٤ .

(٣) هذا ما فى د . وفى الأصل : « قال الحذر » .

(٤) فى الأصل : «الإخلاص» صوابه فى د . والتضرية : التعويد ، والضراوة : العادة .

(٥) الطباع : الطبع والجبلة . وانظر ما سبق فى حواشى ١٠٤ . د . طبعا » .

(٦) د : « وجب » .

(٧) هذا ما فى د . وفى الأصل : « به » .

فاجهد الجهد كله ألّا تزالَ القلوبُ معلّقةً منك برغبة أو رهبةٍ ، فى دينٍ أو دُنيا .

واعلم أنَّ السَّرَف لا بقاءَ معه لكثير ، ولا تثميرَ معه لِقليل ، ولا تصلح عليه دنيا ولا دين . وتأدَّبْ بما أدَّبَ الله تعالى به نبيَّه(١) فقال : ﴿ولا تَجْعَلْ يدَكَ مَغلولةً إلى عُنُقِكَ ولا تَبسُطْها كلَّ البَسْطِ فتقعُدَ مَلُومًا مَحسُوراً(٢)﴾ .

وقالت الحكماء : « القَصْد أبقى للجَمَام(٣) » .

فداوِمْ حالَكَ وبقاءَ النِّعمة عليك ، بتقديرك أمورَكَ على قَدْر الزمان ، وبقدر الإمكان ؛ فقد قال الشاعر(٤) :

مَن سابَقَ الدَّهرَ كبا كَبوةً لم يَسْتَقِلْها من خُطَى الدَّهر
فاخطُ مع الدَّهر على ماخطا واجرِ مع الدَّهر كما يجرى(٥)

واعلم أنَّ الصمت فى موضعه رُبَّما كان أنفعَ من الإبلاغ بالمنطق فى موضعه ، وعند إصابة فرصته . وذاكَ صَمْتُك عند من يعلم أنَّك لم تصمت عنه عِيًّا(٦) ولا رَهبة . فليزِدْكَ فى الصَّمْت رغبةً ماتَرى من كثرة فضائح المتكلِّمين فى غير الفُرص ، وهَذَرِ مَن أطلق لسانَه بغير حاجة .

---

(١) فى الأصل : « وتأديب الله فيه ما أدب به نبيه صلى الله عليه وسلم » ، صوابه فى د .
(٢) الآية ٢٩ من سورة الإسراء .
(٣) الجمام ، كسحاب : الراحة .
(٤) هو أبو العتاهية ، كما فى البيان ٤ : ٢١ وملحقات ديوانه ٩٨ نقلا عن الأغانى ٣ : ١٦٤ .
(٥) فى الأصل والبيان : «إذا ما خطا» ، وأثبت ما فى د وبعض أصول البيان .
(٦) العى : العجز . وفى الأصل : « عياء » ، صوابه فى د .

واعلمْ أنَّ الُجبن جبنانِ ، والشَّجاعة شجاعتان ، وليست تكون الشجاعةُ إلاَّ فى كلِّ أمر لا يُدرَى ماعاقبته ، يُخاطَر فيه بالأنفس والأموال . فإذا أردتَ الحزمَ فى ذلك فلا تشجِّعنَّ نفسَك على أمرٍ أبداً إلاَّ والذى ترجو من نفعه فى العاقبة أعظمُ ممَّا تبذل فيه فى المستقبل ، ثم يكون الرجاء فى ذلك أغلبَ عليك من الخوف .

وها هنا موضعٌ يُحتاج فيه إلى النظر : فإن كان ذلك أمرًا واجباً فى الدِّين ، أو خوفاً لعارٍ تُسبُّ بهِ الأعقابُ فأنت معذورٌ بالمخاطرة فيه بنفسك ومالك . وإن كان أمراً تعظُم منفعتُه فى الدنيا[١] إلاَّ أنَّك لا تناله إلاَّ بالخطار بمهجة نفسِك[٢] أو بتعريضِ كلِّ مالك للتَّلف ، فالإقدام على مثل هذا ليسَ بشجاعة ، ولكنْ حماقةً بيِّنةً عند الحكماء .

٤٧ ظ

وقد قالت علماء أوائل الناس[٣] :

* لا يرسل السَّاقَ إلاَّ ممسكاً ساقا[٤] *

---

(١) فى الأصل : « للدنيا » ، وأثبت ما فى د .

(٢) الخطار : المخاطرة ، وهو أن يشفى بنفسه على خطر الهلك . وفى الأصل : « بالإخطار » والوجه ما أثبت من د . وفى د : « بالخطار بنفسك » .

(٣) د : « علماء الأوائل » فقط .

(٤) فى الأصل : « ممسك » صوابه فى د . وهو عجز بيت لأبى دواد الإيادى ، من أبيات رواها العسكرى فى الجمهرة ٢١٢ . وانظر اللسان (حرب ، سوق) وعيون الأخبار ٣ : ١٩٢ وأمثال الميدانى ١ : ٢٠٢ وديوان المعانى ١ : ٢٣٨ والمخصص ٨ : ١٠٣ . وصدره :

* أنى أتيح له حرباء تنضبة *

وقالوا : « لا تُخرج الأمرَ كلَّه مِن يدك وخـذْ بأحد جانبيْهِ[١] » . ثم الشجاعة والجبن فى ذلك بقدر الحالات والأوقات .

واعلمْ أنَّ أصلَ ما أنت مستظهر به على عدوِّك ثلاثُ خلال :

أشرفها : أن تأخذ عليه بالفَضْل وتبتدئَه بالُحسنى ، فتـكون عليه رحمةً ولنفسك ناظرا ؛ فإنَّ كثرة الأعداءِ تنغيصٌ للسُّرور ، وقد قال الله تبارك وتعالى : ﴿ ادفَعْ بالتى هِىَ أحسَنُ فإذا الذى بَينَك وبينه عَداوةٌ كأنَّهُ ولىٌّ حميم[٢] ﴾ .

فإن كان عدوُّك مما لا يصلُح على ذلك فحصِّن عنه أسرارك ، وعَمِّ عليه آثار تدبيرك[٣] ، ولا يطَّلعنَّ على شىء من مكايدتك له[٤] بقولٍ ولا فعل ، فيأخذَ حِذرَه ، ويعرفَ مواضعَ عوَارك ، فإنَّ تحصينَ الأسرار أخذٌ بأزمَّة التدبير ، والإكثارَ من الوعيد للأعداء فشَـل[٥] . ولـكنْ داجِ عدوَّك ما داجاكَ ، وأحصِ معايبَه ما لاحاكَ .

وقال الشاعر[٦] :

كلٌّ يداجِى على البغضاء صاحبه زَكِنْتُ منهم على مِثل الذى زَكِنُوا[٧]

---

(١) د : « جوانبه » .

(٢) الآية ٣٤ من فصلت .

(٣) د : « وعم عليه تدبيرك » .

(٤) د : « مكايدك » .

(٥) هذا ما فى د . وفى الأصل : « وإكثار الوعيد للأعداء فشل » .

(٦) هو قعنب بن أم صاحب ، كما فى اللسان (زكن) . وانظر أبياتاً من قصيدة البيت فى الحماسة (باب الهجاء) بشرح التبريزى .

(٧) زكن بمعنى علم . وعداه بعلى لأن فيه معنى اطلعت .

واعلم أنّ أعظمَ أعوانك عليه الحُجج [ثم الفرصَة[١]] ، ثم لا تُظهرن عليه حُجَّةً ، ولا تهتبِلْ منه غِرّة ،ولا تطلبنّ له عَثرة ، ولا تهتكنّ له ستراً [إلاّ] عند الفرصة فى ذلك كلِّه ، وفى المواضع التى يجب لك فيها العُذْر ويعظم فيها ضررُه ، إن كان العفو عنه شرًّا له .

وإن كان ممن يُظهِر لك العداوةَ ويكشف لك قِناع المحاربة ، وكان ممن أعياكَ استصلاحه بالحلم والأناة ، فلتكن فى أمره بين حالين[٢] : استبطانِ الحذَر منه ، والاستعداد له وإظهار الاستهانة [به[٣]] . ولستَ مستظهِراً عليه بمثل طهارتك من الأدناس ، وبراءتك من المعايب . ٤٨ و

فلتكن هذه سيرتَك فى أعدائك .

واعلم أنّ إشاعةَ الأسرار فسادٌ فى كلّ وجهٍ من الوجوه ، من العدوّ والصديق[٤] . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « استعينوا على الحوائج بسَتْرها ؛ فإنّ كلّ ذى نعمة محسود[٥] » .

وإذا أفشيتَ سِرّك لجاءتِ الأمورُ على غير ما تقدِّر كان ذلك منك فضلاً من قولك على فعلك[٦] . وقد قيل فى الأمثال : « من أفشَى سِرّهُ كثُر المتآمرون

---

(١) التكلة من م .

(٢) د : « حالتين » .

(٣) التكلة من د .

(٤) هذا مافى د . وفى الأصل : « والعدو والصديق » .

(٥) أخرجه السيوطى فى الجامع الصغير ٩٨٥ وذكر أنه حديث ضعيف .

(٦) الكلام من أول الفقرة إلى هنا ساقط من د .

عليه » . فلا تضَعْ سرَّك إلاّ عند من يضرُّه نشره كما يضرُّك ، وينفعه ستره بحسب ما ينفعك[١] .

واعلم أنَّك ستصحب من الناس أجناساً متفرِّقةً حالاتُهم ، متفاوتةً منازلُهم ، وكلُّهم بك إليه حاجة ، وكلُّ طائفة تسُدُّ عنك كثيراً من المنافع لا يقوم به من فوقها ، ولعلَّهم مجتمعون على نصيحتك والشَّفقة عليك . فمنهم من تُريد منه الرأى والمشورة ، [ومنهم مَن تريده للحفظ والأمانة[٢]] ، ومنهم من تريده للشِّدّة والغلظة ، ومنهم من تريده للمِهنة . وكلٌّ يسُدُّ مسَدَّه على حياله . وقد قيل فى الحكمة : « إنّ الخلال تنفع حيث لا ينفع السَّيف » .

ولا تُخْلِيَنَّ أحداً منهم ــ عظُم قدره أو صُغرت منزلتُه ــ مِن عنايتك وتعهُّدك بالجزاء على الحسنة ، والمعاتبة عند العثْرة ؛ ليعلموا أنَّهم منك بمرأًى ومسمع . ثُمَّ لا تَجوزَنَّ بأحدٍ منهم حَدَّه ، ولا تدخلْه فيما لا يصلُح له ، تستقمْ لك حالُه ، ويتَّسِقْ لك أمره[٣] .

واعلم أنّه سيمرُّ بك فى معاملاتِ الناس حالاتٌ تحتاج فيها إلى مداراةِ أصنافِ الناس وطبقاتهم ، يَبلُغ بك غايةَ الفضيلة فيها ، وكمالَ العقل والأدب منها ، أنْ تُسالم أهلَها وتملكَ نفسَك عن هواها ، وتَكفَّ من جماحها[٤] ، بالأمر الذى لا يُخرجك فى دينك[٥] ولا عِرضك ولا بدنك ، بل يُفيدك عزَّ الحلم ، وهيبة الوقار . وهى أمور مختلفة ، تجمعُها حالٌ واحدة .

٤٨ ظ

---

(١) فى الأصل : « وينفعه نشره » ، صوابه فى د . (٢) التكملة من د .
(٣) يتسق : ينتظم . وفى الأصل : « ويتفق » ، وأثبت ما فى د .
(٤) فى النسختين : « عن جماحها » .
(٥) فى الأصل : « بأمر لا يخرجك فى دينك » . صوابه فى د .

منها : أن تأتىَ مَحفِلاً فيه جَمعٌ من الناس ، فتجلس منه دون الموضع الذى تستحقُّه حتى يكون أهلُه [الذين(١)] يرفعونك ، فتظهر جلالتُك وعِظَمُ قدرك .

ومنها : أن يُفيض القومُ فى حديثٍ ، عندكَ منه مثلُ ما عندهم أو أفضلُ ، فيتنافسون فى إظهار ما عندهم ، فإنْ نافستَهم كنتَ واحداً منهم ، وإن أمسكت اقتضوْكَ ذلك ، فصرتَ كأنّك ممتنٌّ عليهمْ بحديثك ، وأنصتُوا لك ما لم يُنصِتُوا لغيرك .

ومنها : أن يتمارى جُلساؤُكَ ـ والمِراء نِتاجُ اللَّجاجة وثَمرةٌ أصلُها الحميَّة ـ فإنْ ضبطتَ نَفَسك كان تحا كُمُهم إليك ، ومعوَّلُهم عليك .

واعلمْ أنَّ طبع النُّفوس ـ إذْ كان على حسبِ العلوّ والغَلَبة ـ أنَّ فى تركيبها بُغضَ من استطالَ عليها . فاستدعِ محبّةَ العامَّة بالتَّواضع ، ومودَّةَ الأخِلاّء بالمؤانسة والاستشارة ، والثِّقةِ والطُّمأنينة .

واعلم أنَّ الذى تعـامِل به صديقَك هو ضدٌّ ما تعامل به عدوَّك . فالصَّديقُ وجهُ معاملتِه المسالمةُ ، والعدوُّ وجهُ معاملته المداراةُ (٢) والموارَبة ، هما ضدّانِ يتنافيان ، يُفسد هذا ما أصلح هذا(٣) ، وكلَّما نقصت من أحدِ البابَين زاد فى صاحبه ، إنْ قليلٌ فقليلٌ ، وإنْ كثيرٌ فـكثيرٌ(٤) .

---

(١) التـكملة من د .

(٢) د : « المداراة والمسالة » ، وكلة « والمسالة » مقحمة .

(٣) د : « فصلاح هذا ما أفسدها »

(٤) د : « إن قليلا فقليل وإن كثيراً فـكثير » .

فلا تَسلمُ بالموارَبة صَداقةٌ ، ولا تَظفرُ بالعدوِّ مع الاستسلام إليه . فضَع الثِّقةَ موضعَها ، وأقم الحذرَ مُقامَه(١) ، وأسرعْ إلى التفهُّمَ بالثِّقة ، ولا تبادرْ إلى التَّصديق ، ولا سيَّما بالمحالِ من الأمور .

واعلمْ أنَّ كلَّ علمٍ بغائبٍ ، كائناً ما كان ، إنَّما يُصاب من وجوهٍ ثلاثة لا رابعَ لها ، ولا سبيلَ لك ولا لغيرك إلى غاية الإحاطات ؛ لاستئثار الله بها . ولن تَهْنأ بعيشٍ مع شدَّة التحرُّز ، ولن يتَّسِق لك أمرٌ مع التضييع(٢) . فاعرفْ أقدارَ ذلك .

فما غابَ عنك مما قد رآه غيرُك ممَّا يُدرَك بالعِيان ، فسبيلُ العلمِ به الأخْبار المتواترة ، التى يحملُها الولىُّ والعدوُّ ، والصَّالح والطَّالح ، المستفيضةُ فى الناس ، فتلك لا كُلفَةَ على سامعها من العلم بتصديقها . فهذا الوجهُ يستوى فيه العالم والجاهل .

٤٩ و

وقد يجىء خبرٌ أخصُّ من هذا(٣) إلاَّ أنَّه لا يُعرف إلاَّ بالسُّؤال عنه ، والمفاجأة لأهله ، كقوم نَقَلوا خَبَرًا ، ومثلُك يحيط علمُهُ(٤) أنَّ مثلَهم فى تفاوت أحوالهم ، وتباعُدِهم من التَّعارف ، لا يُمكن(٥) فى مثلِه التَّواطؤ وإنْ جَهِل ذلك أكثر الناس . وفى مثل هذا الخبر يمتنع الكذبُ(٦) ، ولا يتهيَّأ الاتفاق فيه على الباطل .

---

(١) د : « مكانه » .
(٢) فى الأصل : « ولن يتفق » ، ووجهه من د .
(٣) فى الأصل : « أصح من هذا » ، صوابه فى د .
(٤) د : « وعلمك محيط » ، فقط .
(٥) د : « لا يكون » .
(٦) د : « يشنع الكذب » .

وقد يجيء خبرٌ أخصُّ من هذا ، يحمله الرجلُ والرجلانِ ممن يجوز أن يَصدُقَ ويجوز أن يكذب ، فصِدْق هذا الخبرِ فى قلبك إنّما هو بحُسن الظّنّ بالمخبر ، والثّقة بعدالته . ولن يقومَ هذا [الخبر[1]] من قلبك ولا قلب غيرك مقام الخبرين الأوّلين [أبداً[1]] . ولو كان ذلك كذلك بطل التصنُّع بالدِّين[2] واستوى الظاهر والباطن من العالَمِين .

ولما أنْ كان موجوداً فى العقول أنَّه قد يفتَّش بعضُ الأُمناء عن خيانةٍ[3] ، وبعضُ الصّادقين عن كذبٍ ، وأنّ مِثل[4] الخبرين الأوّلَين لم يتعقّب الناس فى مثلهما كذِباً قطُّ ، عُلِم أنَّ الخبرَ إذا جاءَ مِن مِثلِهما جاء مجيء اليقين ، وأنّ ما عُلم من خبر الواحدِ فإنّما هو بحُسْن الظنِّ والائتمان[5]

فهذه[6] الأخبار عن الأمور التى تدركها الأبصار .

فأمّا العلم بما غابَ مما لا يُدرِكه أحدٌ بعِيان ، مثلُ سرائر القلوب

---

(١) التكملة من د .

(٢) أى والتصنع بالدين كائن لا محالة بين طائفة من الناس ، لا يخلو منه عصر. والتصنع : تكلف حسن السمت وإظهاره والتزين به والباطل مدخول . اللسان : (صنع ٧٩) .

(٣) أى تظهر خيانتهم بعد تفتيشهم .

(٤) فى الأصل : « أو مثل » ، صوابه من د .

(٥) د : « فإذا علم » .

(٦) فى الأصل : « بهذه » ، وفى د : « هذه » . وصواب الأول ووجه الثانى ما أثبت .

وما أشبهها ، فإنَّما يُدَركُ علمُها بآثار أفاعيلها وبالغالب[1] من أمورها ، على غير إحاطةٍ كإحاطة الله بها .

وأوّلُ العلمِ بكلّ غائبٍ الظُّنونُ ، والظُّنونُ إنّما تقع فى القلوب بالدّلائل ، فكلَّما زاد الدليل قَوِيَ الظنُّ حتّى ينتهيَ إلى غاية تزول معها الشكوكُ عن القلوب ؛ وذلك لكثرة الدلائل ، [ولترادفها .

فهذا غاية علم العباد بالأمور الغائبة[2]] .

فمن عرف ما طُبع عليه الخَلْق وجَرت به عاداتُهم ، وعرفَ أسبابَ اتّصالهم واتّصاله بهم ، وتقصَّى عِللَ ذلك ، كان خليقًا ــ إنْ لم يُحطْ بعلم ما فى قلوبهم ــ أن يقعَ من الإحاطة قريباً .

واعلمْ أن المقادير ربّما جرت بخلاف ما تقدّر الحكماء ، فنال [بها[3]] الجاهلُ فى نفسه ، المختلطُ فى تدبيره ، ما لا ينال الحازمُ الأريب الحذِر . فلا يدعونَّك ما ترى من ذلك إلى التَّضييع والاتّكال على مثل تلك الحال ؛ فإنَّ الحكماء قد أجمعت أنَّ مَن أخَذَ بالحزم وقدَّمَ الحذر ، فجاءت المَقاديرُ بخلاف ما قدَّر ، كان عندهم أحمدَ رأياً وأوجبَ عذراً ، ممَّن عمل بالتفريطِ وإن اتَّفقت له الأمور على ما أراد .

---

(١) فى الأصل : « وبالغائب » ، صوابه فى د .

(٢) التكملة من د . والكلام بعده إلى « والله يوفقك » فى ص ١٢٣ انتقل فى الأصل إلى ما يلى «والمواظبة عليه» فى ظهر الورقة ٥١ من الأصل . وقد أجريت ترتيب العبارة من د .

(٣) التكملة من د .

ولعمرى ما يكاد ذلك يجىء إلاَّ فى أقلِّ الأمور ، [وما كَثُر مجىء السَّلامات إلاّ لمن أَتَى الأمور [1]] من وجوهها وإنما الأشياء بعوامِّها[2]. فلا تكونن لشىء ممَّا فى يدك أشدَّ ضِنًّا ، ولا عليه أشدَّ حَدَبًا ، منك بالأخ الذى قد بلوتَه فى السَّرَّاء والضَّرَّاء ، [فعرفت مذاهبه[3]] وخَبَرتَ شِيَمه ،وصحَّ لك غَيبُه، وسلمتْ لك ناحيتُه ؛ فإنما هو شقيقُ روحك[4] وباب الرَّوح إلى حياتك ، ومُستَمَدُّ رأيك وتوأم عَقْلك[5] . ولست منتفعاً بعيشٍ مع الوحدة . ولا بدَّ من المؤانسة ، وكثرةُ الاستبدال تهجم بصاحبه على المكروه . فإذا صفا لك أخٌ فكن به أشد ضنًّا منك بنفائس أموالك ، ثمَّ لا يزهِّدنَّك فيه أنْ ترى منه خُلقاً أو خُلقين تكرههما ؛ فإنَّ نفسَك التى هى أخصُّ النفوس بك لا تُعطيك المَقادةَ فى كلِّ ما تريد ، فكيف بنَفْسِ غيرك !

وبحَسْبك أن يكون لك من أخيك أكثرهُ ، وقد قالت الحكماء : « مَن لكَ بأخيك كلِّه[6] » ، و « أىُّ الرِّجال المهذَّب[7] » .

ثم لا يمنعك ذلك من الاستكثار من الأصدقاء[8] فإنهم جندٌ مُعَدُّون

---

(١) التكملة من د .

(٢) يعنى أن العبرة فى الأحكام بالأعم الغالب .

(٣) التكملة من د .

(٤) د : « شق روحك » . ٥ د : « ويوم غفلتك » ، تحريف .

(٦) لأكثم بن صيفى . المعمرين ١٢ .

(٧) من قول النابغة الذبيانى فى ديوانه ١٤ :

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أى الرجال المهذب

(٨) د : « الصديق » .

[لك[1]] ينشُرون محاسنَك ، ويحاجُّون عنك . ولا يحملنَّك استطرافُ صديق ثانٍ[2] على ملالةٍ للصَّديق الأول ؛ فإن ذلك سبيلُ أهل الجهالة ، مع ما فيها من الدناءة وسوء التدبير ، وزهد الأصدقاء[3] جميعاً فى إخائك . والله يوفقك[4] .

وستجد فى الناس من قد جرَّبته الرِّجالُ قَبلَك ، ومَحَضه اختبارهم لك . فمن كان معروفاً بالوفاء فى أوقات الشِّدَّة وحالات الضرورة ، فنافِسْ فيه واسبقْ إليه ؛ فإنَّ اعتقاده أنفَسُ العُقَدِ[5] . ومن بلاهُ غيرك فكشف عن كُفر النِّعمة ، والغَدْر عند الشِّدة ، فقد حذَّرك نفسَه وإنْ آنسك[6] وكما غدر بغيرك يَغدِر بك ؛ فإنَّ مَن شيمته الوفاء يفى للصَّديق والعدوّ ، ومَن طبيعتُه الغَدرُ لا يفى لأحد[7] ، وإنما يميل مع الرُّجحان : يذلُّ عند الحاجَة[8] ويشمخ مع الاستغناء .

٤٩ ظ

فاحذر ذلك أشــدَّ الحذر . واعلم أنَّ الحكماء لم تذم شيئاً ذمَّها أربعَ خلال :

---

(١) التكملة من د .

(٢) فى الأصل : « الصديق » فقط ، صوابه من د .

(٣) فى الأصل : « الصديقين » ، وأثبت ما فى د .

(٤) د : « موفقك » .

(٥) أراد أنفس مايقتنى . وأصل العقدة الضيعة يقتنيها الرجل .

(٦) فى الأصل : « وأنسك » وأثبت ما فى د .

(٧) فى الأصل : « لا يدوم » ، وأثبت ما فى د .

(٨) د : « فى وقت الحاجة » مع إسقاط كلمة « يذل » .

الكذبُ فإنّه جِماعُ كلِّ شرٍّ . وقد قالوا : لم يكذب أحدٌ قطُّ إلاّ لصغرِ قَدرِ نفسِه عندَه .

والغَضَبُ فإنّه لؤمٌ وسوءُ مقدِرة ؛ وذاك أنّ الغضبَ ثمرةُ خلافِ ما تهوى النفس[1] ، فإنْ جاءَ الإنسانَ خلافُ ما يهوى ممّن فوقه أغضى وسمّى ذلك حُزناً ، وإن جاءهُ ذلك ممّن دونَه حمله لؤمُ النّفس وسوء الطِّباع على الاستطالة بالغَضَب ، والمقدرة والبسطة على البطش[2] .

والجزعُ عند المصيبة التى لا ارتجاعَ لها ؛ فإنّهم لم يجعلوا لصاحب الجزع فى مثل هذا عُذراً ، لما يتعجّل من غمِّ الجزع مع علمه بفَوت المجزوع عليه . وزعموا أن ذلك من إفراط الشَّرَه ، وأنّ أصل الشَّرَهِ والحسد واحدٌ وإن افترقَ فرعاهُما .

وذمُّوا الحسدَ كذمِّهم الجزعَ ، لما يتعجّل صاحبُه من ثقل الاغتمام ، وكُلفة مقاساة الاهتمام ، من غير أن يجدىَ عليه شيئاً[3] . فالحسد اغتمام ، والغَدْر لؤم . وقال بعض الحكماء : «الحسد خلقٌ دنىء ، ومِن دناءته أنّه يبدأ بالأقرب فالأقرب» . وزعموا أنّه لم يَغدِر غادرٌ قطُّ إلاّ لصغر همّته عن الوفاء ، وخمول قَدره عن احتمال المكاره فى جنب نَيل المكارم .

---

(١) د : « النفوس » .

(٢) فى الأصل : « والمقدر والبسطة » ، وفى د : « والمقدرة بالبطش » ، وصوبت العبارة وأكملتها بما تتلاءم به مع ما قبلها .

(٣) هذا ما فى د . وفى الأصل : « من غير أن يكون عليه فى ذاك شىء » ، تحريف .

وبقدر ماذَمّت الحكماء هذه الأخلاق الأربعة[١] ، فكذلك حمِدت أضدادها من الأخلاق ، فأكثرت فى تفضيلها الأقاويل ، وضربت فيها الأمثال ، وزعمت أنّها أصلٌ لكل كريم ، وجِماعٌ لكل خير ، وأنّ بها تُنال جِسامُ الأمور فى الدُّنيا والدين[٢] .

٥٠ و فاجعل هذه الأخلاقَ إمامًا لك ، ومَثَلاً بين عينيك ، ورُضْ عليها نفسَك ، وحكِّمها فى أمرك ، تَفُز بالرّاحة فى العاجل[٣] ، والكرامة فى الآجل .

والصبر صبران : فأعلاهما أن تصبرَ على ما ترجو فيه الغُنم فى العاقبة . والحِلمُ حلمان : فأشرفُهما حلمُك عمَّن هو دُونَك . والصِّدق صدقان : أعظمهما صدقك فيما يضرُّك . والوفاء وفاءان : أسناهما وفاؤك لمن لا ترجوه ولا تخافُه . فإنّ مَن عُرِف بالصِّدق صار الناس له أتباعا ، ومن نُسِب إلى الحلم أُلبِس ثوب الوقار والهيبة وأُبّهةِ الجلالة ، ومن عرف بالوفاء استنامت بالثِّقة به الجماعات[٤] ومن استعزَّ بالصبر[٥] نال جسيمات الأمور .

ولعمرى ما غَلِطت الحكماء حين سمّتْها أركانَ الدِّين والدُّنيا . فالصِّدق والوفاء توأمان ، والصَّبر والحلم توأمان[٦] ، فهنّ[٧] تمامُ كلِّ

---

(١) فى الأصل : « من هذه الأخلاق الثلاثة » ، والوجه من د .

(٢) د : « فى الدين والدنيا » .

(٣) هذا ما فى د . وفى الأصل : « فى العاجل والآجل » .

(٤) يقال استنام إليه ، إذا أنس به واطمأن إليه وسكن . فى الأصل : « واستقامت بالثقة به الجماعة » ، صوابه فى د . وانظر ص ١٢٩ .

(٥) د : « استعان بالصبر » .

(٦) يقال هما توأم أيضاً . فى الأصل : « توأم » فى الموضعين ، وأثبت ما فى د .

(٧) فى الأصل : « فبهن » ، وفى د : « منهن » ، والوجه ما أثبت .

دين ، وصلاحُ كلِّ دنيا . وأضدادهنَّ سببُ كلِّ فُرقة ، وأصلُ كلِّ فساد .

واحذَرْ خَصلةً رأيت الناس قد استهانُوا بها ، وضيَّعوا النظر فيها ، مع اشتمالها على الفساد ، وقَدْحِها البغضاءَ في القلوب ، والعداوةَ بينَ الأوِدّاء : المفاخرةُ بالأنساب ؛ فإنّه لم يغلَط فيها عاقلٌ قطُّ ، مع اجتماع الإنس جميعاً على الصورة[1] وإقرارهم جميعاً بتفرُّق الأمور المحمودة والمذمومة من الجمال والدَّمامة ، واللُّؤم والكرم ، والجُبْن والشَّجاعة ، في كلِّ حين ، وانتقالها من أمّةٍ إلى أمة ، ووجودِ كلِّ محمود ومذموم في أهل كلّ جنسٍ من الآدميِّين . وهذا غير مدفوع عند الجميع .

فلا تجعلنَّ له من عقلك نصيباً ، ولا من لسانك حَظًّا ، تسلَمْ بذلك على النَّاس أجمعين ، مع السَّلامة في الدين .

واعلم أنَّك موسومٌ بسيما من قارنتَ ، ومنسوبٌ إليك أفاعيلُ مَن صاحبت . فتحرَّزْ من دُخلاء السَّوء ، ومجالسة أهل الرِّيَب[2] ، وقد جَرتْ لك في ذلك الأمثالُ ، وسُطِّرتْ لك فيه الأقاويل ، فقالوا : « المرء حيث يجعلُ نفسَه[3] » ، وقالوا : « يُظَنُّ بالمرء ما ظُنَّ بقرينه » ، وقالوا : « المرء بشكلِه ، والمرء بأليفه » .

٥٠ ظ

ولن تقدر على التحرُّز من جماعة النّاسْ[4] ، ولكن أقِلَّ المؤانسةَ

---

(١) أي اتفاقهم جميعاً في الصورة الإنسانية .

(٢) د : « وأظهر مجانبة أهل الريب » .

(٣) ومنه قول منقر بن فروة ، أنشده الجاحظ في البيان ٢ : ١٠٣ و ٣ : ٢٢٨ :

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ... ففي صالح الأخلاق نفسك فاجعل

(٤) د : « جماعات الناس » .

إلاّ بأهل البراءة من كلّ دنَس . واعلم أنّ المرء بقدر ما يَسبِق إليه يُعرَف ، وبالمستفيض من أفعاله يُوصَف ، وإن كان بين ذلك كثيرٌ من أفعاله[١] ألغاه الناس وحكموا عليه بالغالب من أمره .

فاجهَدْ أن يكون أغلبَ الأشياءِ على أفاعيلك كلُّ ما تحمده العوامُّ[٢] ولا تذُمُّه الجماعات ، فإنّ ذلك يعفّى على كلّ خالٍ إن كان .

فبادِرْ ألسنةَ الناس فاشغَلْها بمحاسنك ، فإنّهم إلى كلّ سيِّئٍ سِراع[٣] ، واستظهِرْ على مَن دونك بالتّفضُّل ، [وعلى نظرائك[٤]] بالإنصاف ، وعلى مَن فوقك بالإجلال . تأخذْ بوثائق الأمور ، وأزِمَّة التدبير .

واعلم أنّ كثرةَ العتاب سببٌ للقطيعة ، واطّراحَه كلِّه دليلٌ على قلّة الاكتراث لأمر الصّديق[٥] . فكن فيه بين أمرين : عاتِبْهُ فيما تشتركان فى نفعه وضرّه وذلك فى الهيِّنات[٦] ، وتجافَ له عن بعض غفَلاته تسلمْ لك ناحيتُه . وبحسَبِ ذلك فكن فى زيارته ، فإنّ الإلحاح فى الزِّيارة يَذهَب بالبهاء ، وربّما أورثَ الملالةَ ؛ وطولَ الهِجرانِ يُعقب الجفوة ، ويحُلُّ عقدةَ

---

(١) فى الأصل : « خلافه » ، ووجهه من د .

(٢) فى الأصل : « عليك أفاعيلك » صوابه فى د . وفى د أيضاً : « ماتحمده العوام » .

(٣) فى النسختين : « إلى كل شىء » والوجه ماأثبت . وفى م : « إلى كل شر » .

(٤) التكملة من د ، م .

(٥) فى الأصل : « الأمن » وفى د : « بأمر » وهذه الأخيرة صحيحة ، يقال ما اكترث به وما اكترث له ، أى ما بالى به . وأثبت الوجه الذى يقتضيه الجمع بينهما .

(٦) د : « الهنات » ، وكلاهما متجه .

الإخاء ، ويجعلُ صاحبه مدرجة للقطيعة[1] وقد قال الشاعر[2] :

إذا ما شئت أن تَسْلى حبيباً فأكثِرْ دونَه عَددَ اللّيالى
فما يُسلِى حبيبَك مثلُ نأيٍ ولا يُبلِى جديدَك كابتذالِ[3]
[وزر غِبًّا إذا أحببت خِلاًّ فتحظى بالودادِ مع اتصالِ[4]]

واقتصِدْ فى مِزاحك ؛ فإنَّ الإفراط فيه يذهب بالبهاء ، ويجرِّئ عليك أهل الدَّناءة . وإنَّ التقصير فيه يَقبِض عنك المؤانسين . فإن مزحت فلا تمزَحْ بالذى يسوء مُعاشِريك .

وأنا أوصيك بخلقٍ قلَّ من رأيته يتخلَّق به ، وذاك أنَّ تَحمِلَه شديد ، ومرتقاه صعب ، وبسَبَب ذلك يورث الشَّرف وحميدَ الذِّكر : ألاَّ يُحدثَ لك انحطاطُ من حَطّتِ الدُّنيا من إخوانك استهانةً به ، ولا لحقِّه إضاعة ، ولما كنتَ تعلم من قَدرِه استصغاراً ؛ بل إن زرتَه قليلاً كان أشرفَ لك ، وأعطفَ للقُلوب عليك . ولا يحدث لك ارتفاعُ مَن رفعت الدنيا منهم تذلُّلاً وإيثاراً له على نظرائه فى الحفظ والإكرام ؛ بل لو انقبضتَ عنه كان مادحُك أكثرَ من ذامِّك ، وكان هو أولى بالتعطُّف عليك ، إلاَّ أن يكون مسلَّطاً تخافُ شَذَاه ومَعرَّتَه[5] ، وترجو عنده جَرَّ منفعةٍ لصديق ، أو دفعَ مضرّةٍ

٥١ و

(١) هذا ما فى د . وفى الأصل : « درجة للقطيعة » .

(٢) البيتان التاليان من أبيات الحماسة . انظر شرح المرزوقى ١٣٠٠ وشروح سقط الزند ١٢٢ ، ٦٥٣ ، ٦٩٠ .

(٣) هذا البيت ساقط من د .

(٤) التكملة من د .

(٥) الشذا : الأذى والشر . د : « شذاته » ؛ والشذاة : الحدة . والمعرة : الأذى .

عنه ، أو كبتاً لعدوّ وإنزالَ هوانٍ به ؛ فإنَّ السُّلطان وخُيلاءه وزَهوَه يُحتَمَل فيه ما لا يجوز فى غيره ، ويُعذَر فيه ما لا يُعذر فى سواه[١] .

واعلمْ أنَّ نشرَ محاسنك لايليق بك ، ولا يُقبل منك[٢] ، إلّا إذا كان القولُ لها على ألسُن أهلِ المروءات ، وذَوِى الصِّدق والوفاء ، ومن يَنجع قولُه فى القلوب ممّن يُستنام إلى قوله ، ويُصدَّق خبره ، وممن إنْ قال صدق ، أو مَدحَ اقتصد ، يُثْنِى بقدر البلاء ، فإنَّ إشراف[٣] الثَّناء على قدر النِّعمة يولِّد فى القلوب التكذيب ، ويدلُّ على طلب المَزَايد .

فأمّا ثناء المادحين لك فى وجهك ، فإنَّما تلك أسواقٌ أقاموها للأرباح ، وساهَلُوك فى المبايَعة ، ولم يكن فى الثَّناء عليهم كُلفة ، لكساد أقاويلهم عند الناس . أولئك الصادُّون عن طرق المكارم ، والمثبِّطون عن ابتناء المعالى .

فارتَدْ لنِعَمك مَغرِسًا تنمو فيه فروعُها ، وتزكو ثَمرتُها ، لا تذهبْ نفقتُك ضَياعا ، إمّا لعاجلِ تقدِّمه ، أو لآجلِ ثناء تنتفع به[٤] .

ولن تَعدَمَ أنْ يفجأكَ فى بعض أحوالك حقوقٌ تَبهَظُك ، وأحوالٌ تفدحك ، وأمورٌ كلُّها تتقسَّمُ عنايتَك ، وفى التثبُّت فى مثلها تُعرف فضيلتُك ،

---

(١) الكلام بعده إلى كلة « تنتفع به » فى س ١٢ ساقط من د .

(٢) فى الأصل : « فيك » .

(٣) الإشراف : العلو ، يقال أشرف عليه ، أى علا . والمراد الزيادة . وفى الأصل : « إسراف » .

(٤) انظر ماسبق فى التنبيه الأول .

فلا تستقبلْها بالتضجُّع وتفتير الرأى[١] ، وابدأْ منها بأعظمها منفعةً ، وأشدِّها خوفَ ضرر . وكِلْ ما أعجزَكَ إلى الكُفاة ، واعتذر من تقصيرٍ إنْ كان ؛ فإنَّ الاعتذار يكسر حُمَيَّا اللائمة[٢] ، ويردع شَذاةَ الشِّرَّة .

ثمَّ تلافَ بعد انكشاف ذلك عنك ما فاتك[٣] ، واجهد الجُهْدَ كلَّه أنْ تكون مخارج الحقوق اللازمة لك من عندك سهلةً ، موصولةً لأصحابها[٤] ٥١ ظ بِبِشرك وطلاقة وَجْهك ؛ فقد زعمت الحكماء أنَّ القليل مع طلاقة الوجه أوقع بقلوبِ ذوى المروءات من الكثيرِ مع العُبوس والانقباض[٥] .

وقد قال بعض الحكماء : « غاية الأحرار أن يَلقَوْا ما يُحبُّون ويُحرَموا ، أحبُّ إليهم من أن يلقَوْا ما يكرهون ويُعطَوْا » .

[وما أبعَدوا عن الحقّ[٦]] .

ولا يدعونَّك كفرُ كافرٍ لبعض نِعَمك[٧] ممن آثر هواه على دينه

(١) التضجع ، يقال تضجع فى الأمر ، إذا تقعد ولم يقم به . وفى د : « وتغبين الرأى » .

(٢) الحميا : السورة والشدة والحدة ، وأصله من كسر حميا الشراب بمزجه بالماء . فى الأصل : « حمى اللائمة » ، ووجهه فى د .

(٣) فى الأصل « الانكساف » وفى د : « انكسار » ، والوجه ما أثبت . وكلمة « ما فاتك » ساقطة من د .

(٤) د : « لأصحابك » .

(٥) الكلام بعده إلى كلمة « ويعطوا » فى س ٩ ساقط من د .

(٦) التكملة من د .

(٧) د : « نعمتك » .

ومروءته ، أو غَدْرةُ غادرٍ تصنَّعَ لك وخَتَلك عن مالِكَ ، أنْ تزهدَ في الإنعام[١] ، وتسيء بثقاتك الظنون ؛ فإن هذا موضع يجد الشيطان في مثله الذّريعةَ إلى استفساد الصَّنائع[٢] ، وتعطيل المكارم .

واعلم أنَّ استصغارك نِعَمك يكبِّرها عند ذوى العقول ، وسترك لها نشرٌ لها عندهم ؛ فانشُرْها بسَتْرها ، وكبِّرها باستصغارها .

واعلم أنَّ من الفِعل[٣] أفاعيلَ وإنْ عظمت منافعُها ، ومنافع أضدادها فلإيثارها فضيلةٌ على كلِّ حال . فاجعَلْ صمتَك أكثرَ من كلامك ؛ فإنّه أدلُّ على حكمتك . واجعل عَفْوك أكثر من عقوبتك ؛ فإنّ ذلك أدلُّ على كرمك . ولا تُفْرطنَّ فيه كل الإفراط حتَّى تطَّرِح الكلامَ في موضعه ، والتأديبَ في أوانه .

واعلم أنَّ لكلِّ امرئٍ سيِّداً من عمله ، قد ساهلته فيه نَفسُه وسَلِسَ له فيه هواه ، فتحفَّظْ ذلك من نفسك ، وتقاضَها الزيادةَ فيه ، ورُضْها على تثميره والمواظبةِ عليه[٤] .

واحذر الحذرَ كلَّه الاغترار بأمور ثلاثة ؛ فإنَّ من عَطِب بها كثير ، وتلافِيَها صعبٌ شديد :

---

(١) في الأصل : « الابعاض » ، وأثبت ما في د .

(٢) الصنائع : جمع صنيعة ، وهو ما أعطيته وأسديته من معروف أويد إلى إنسان تصطنعه بها . وفي الأصل : « الطبائع » ، صوابه في د .

(٣) د : « الأفاعيل » .

(٤) انظر ما سبق من التنبيه في ص ١٢١ .

أحدُها : ألاّ تولّىَ جسامَ تصرُّفك وتقلّدَ مُهِمَّ أمورك[1] ووثائق تدبيرك إلاّ امرأً صلاحُه موصولٌ بصلاحك ، وبقاء النِّعمة عليك هو بقاء النعمة عليه .

أو أن تأنس أو تغترّ[2] بمن تعلم أنَّ بصلاحك فسادَه ، وبارتفاعك انحطاطَه ، وبسلامتك عطبَه ؛ فإنَّ من كان هكذا فأنت مَلَكُ مَوتِه[3] . فبِحَسَب ذلك فليكن عندك .

٥٢ ظ

أو أن تجعل مالَك كلَّه فى عُقدةٍ واحدة ، أو حيِّز واحد ، [أو وجهٍ منفرد[4]] ، إن اجتاحَتْه جائحةٌ أو نابتْهُ نائبةٌ بقيتَ حسيرا . وقد قال بعض الحكماء : « فرِّقوا المنيّة » ، و « اطلبوا الأرباحَ بكلِّ شِعب » .

واعلم أنَّه ليس من الأخلاق التى ذمّتْها الحكماء خُلقٌ إلاَّ وقد ينفعُ فى بعض الحالات ، ويردُّ بِهِ شَكْلُه ، ويقام بإزاء مثله ، ويُدافَع به نظيره[5] .

إنَّك ستُمنَى بصُحبة السُّلطان الحازم العادل ، وبصحبة السُّلطان الأخرق الجهول الغَشُوم . فالحازم العادلُ يَسُوسه لك الأدبُ والنُّصح ، والأخرق تسوسُه لك الحِيلة والرِّفق . العادل يَعضُدك منه ثلاث ، وتَصبِر نفسُه لك على ثلاث :

---

(١) فى الأصل : « وتقليدهم أمورك » ، صوابه فى د .

(٢) فى الأصل : « وأن لا تأنس وتحتر » ، صوابه فى د .

(٣) د : « مالك موته » ، والوجه ما أثبت من الأصل .

(٤) التكملة من د .

(٥) الكلام بعده إلى كلة « النصحاء » فى ص ١٣٣ ساقط من د .

فاللواتى يعضُدنك : تسليط العدل وإنفاذ الحكومة ـ وفى ذلك صلاحُ الرعيَّة ـ وإثابة المحسنين الذين إثابتُهم تحصينُ البيضةِ والسُّبل ، والعفو مابُلغ به الاستصلاحُ ، واكتُفِي به من البَسْط . واللَّواتى تصبر نفسُه لك عليهن : الهوى إلى ما وافق الرأى ، وأمضى الرأى الاَّ بعد التثبت حتَّى تعاونَه عليه النُّصحاء[١] .

ولكنِّى أوصيك برياضة نفسِك حتَّى تذلِّلها على الأمور المحمودة ؛ فإنَّ كلَّ[٢] أمرٍ ممدوح هو ممَّا تستثقل النُّفوس . [وممّا تسرُّ به وتنقلب إليه الأخلاق المذمومة[٣]] . فإنْ أهملتها وإيّاها غلبَتْ عليك ، لأنّها فيها طبيعةٌ [مركّبة[٣]] ، وجِبِلَّةٌ مفطورة .

فلتكن المساهلة فى أخلاقك أغلبَ عليك من المعاسَرة ، والحِلمُ أولى بك من العَجَلة ، والصَّبرُ الحاكمَ عليك دون الجزع ، والعفوُ أسبقَ إليك من المجازاة بالذُّنوب ، والمكافأةِ بالسُّوء .

[وكذلك سائر الأخلاق المحمودة والمذمومة ، فلتكن محموداتُها غالبةً على أفعالك ، محكَّمة فى أمورك[٣]] . فإنَّك إنْ ضبطت [ذلك ، وقوّمتَ عليه[٣]] نفسَك ، عشتَ رخيَّ البال ، قليلَ الهموم ، كثير الصديق قليلَ

---

(١) كذا . ولعله : « وإمضاء الرأى بعد التثبت حتى تعاونه عليه معاونة النصحاء » . وهذا نهاية سقط د الذى نبهت عليه فى ص ١٣٢ .

(٢) فى الأصل : « وإن كان » صوابه فى د .

(٣) التكملة من د .

العدوّ ، [سليمَ الدين ، نقيَّ العِرض ، محمودَ الفِعال[1]] ، جميلَ الأُحدوثة في حياتِك وبعد وفاتك ، وكنت بموضع الرجاءِ أن يَصِل اللهُ لك السَّلامةَ الآجلةَ بالنِّعمة العاجلة ، [إن شاءالله عزّ وجلّ[2]] .

٥٣ و أسأل الله المبتدئَ بكلِّ نعمة ، والمتولِّيَ لكلِّ إحسان ، أن يصلِّي على محمد خِيرتِه من خلقه ، وصفوتِه من بريَّته ، وأن يتمَّ[3] عليك نعمتَه ، ويشفع لك ماخَوَّلك من نعمته بالنِّعمة التي يُؤْمَن معها الزَّوال ، في جوارِه ومرافقةِ أنبيائه . والسلام عليك ورحمة الله .

* * *

تمت الرسالة في الأخلاق المحمودة والمذمومة بعون الله ومَنِّه . والله الموفق للصواب ، والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلامُه .

يتلو هذه الرسالة :

كتاب كتمان السر وحفظ اللسان من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ أيضاً . والله سبحانه المستعان على ذلك برحمته[4] .

---

(١) التكملة من د .

(٢) التكملة من د .

(٣) في الأصل : « يتمم » ، وأثبت ما في د .

(٤) وفي د : « تمت الرسالة في كتمان السر وحفظ اللسان من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله ، والله المحمود على ذلك كثيراً برحمته . يتلو هذه الرسالة إن شاء الله تعالى كتاب فخر السودان على البيضان من تأليفه أيضاً . والله الموفق للصواب ، والحمد لله أولا وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه الطيبين الطاهرين وسلامه » .

٣

كِتَابُ كِتْمَانِ السِّرِّ وَحِفْظِ اللِّسَانِ

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذه هى الرسالة الثالثة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« كتمان السرّ وحفظ اللسان »

ومن هذه الرسالة نسختان :

١ ــ نسخة الأصل ، وهى نسخة مكتبة داماد ، فى ضمن مجموع رسائل الجاحظ .

٢ ــ نسخة بول كراوس وطه الحاجرى ، وهى مقابلة على نسخة داماد وعلى كتاب المختار من كلام الجاحظ ، لمجهول . ورمزها « ط » . وقد وقع فى هذه الأخيرة بعض السهو فى إيراد النص على وجهه ؛ فنبهت على ذلك فى الحواشى ، والعصمة لله وحده .

بسم الله الرحمن الرحيم

أمّا بعد فإنّى قد تصفّحتُ أخلاقَك ، وتدبّرت أعراقَك ، وتأمّلتُ شِيَمك ، ووزنتُك فعرفتُ مِقدارَك ، وقوّمتك فعلمتُ قيمتَك ، فوجدتُك قد ناهزتَ الكمالَ ، وأوفيتَ على التّمام ، وتوقّلتَ فى دَرَج الفضائل[1] ، وكدتَ تكون منقطعَ القرين ، وقاربتَ أن تُلفَى عديمَ النّظير ، لا يطمعُ فاضلٌ أن يفُوتَك ، ولا يأنفُ شريفٌ أن يَقصُرَ دونك ، ولا يَحْشَم عالمٌ أن يأخذَ عنك . ٥٤ ظ

ووجدتُك فى خلال ذلك على سبيل تضييعٍ وإهمالٍ لأمرين هما القُطب الذى عليه مدارُ الفضائل ، فكنتَ أحقَّ بالعَذْل ، وأقمنَ بالتأنيبِ ممّن لم يسبقْ شأوَك ، ولم يتسنَّمْ رُتبتَك ؛ لأنه ليس مَلومًا على تضييع القليل مَن قد أضاعَ الكثير ، ولا يُسام[2] إصلاحَ يومه وتقويم ساعته من قد استحوذَ الفسادُ على دهره ، ولا يُحاسَب على الزّلّة الواحدةِ من لا يعدم منه الزللُ والعِثار ، ولا يُنكَر المنكَرُ على من ليس من أهل المعروف ؛ لأنّ المنكر إذا كثُر صار معروفًا ، وإذا صار المنكرُ معروفًا صار المعروف منكرا .

وكيف يُعجَب ممن أمره كلُّه عجب ، وإنّما الإنكار والتعجُّب ممن خرج عن مَجرى العادة ، وفارق السُّنّة والسجيّة ، كما قال الأول : « خالِفْ تُذْكر » .

---

(١) التوقل : الصعود ، والإسراع فيه .

(٢) سامه الشىء : كلفه إياه وجشمه . وفى الأصل : « ولا يسم » ، وفى ط : « لا يهتم بإصلاح يومه » . وما أثبت أوفق بسياق النص .

وقيل : « الكامل من عُدَّت سَقَطاته » ، وقيل : « من استوى يوماه فهو مغبون ، ومن كان يومُه خيراً من غدِه فهو مفتون ، ومن كان غدُه خيراً من يومه فذلك السعيدُ المغبوط » . وفى هذا المعنى قال الشاعر :

رأيتك أمسِ خيرَ بنى مَعَدٍّ وأنت اليومَ خيرٌ منك أمسِ
وأنت غداً تزيد الضعف خيراً كذاكَ تزيد سادة عبد شمس

وقال آخر فى مَعن[1] :

أنت امرؤٌ همُّك المعالى ودَلوُ معروفِكَ الربيعُ
وأنت من وائلٍ صميمٌ كالقلب تُحنَى له الضلوع[2]
فى كلِّ عام تزيد خيراً يُشيعه عنك من يُشِيعُ ٥٥ و

والأمران اللذان نَقَمتهما عليك[3] : وضْعُ القولِ فى غير موضعه ، وإضاعة السِّرّ بإذاعته .

وليس الخطرُ فيما أسُومك وأحاولُ حملَك عليه بسهلٍ ولا يسير . وكيف وأنا لا أعرف فى دهرى ــ على كثير عددِ أهله ــ رجلاً واحداً ممن ينتحل الخاصَّة ، ويُنسَب إلى العِلْية ، ويَطلُب الرياسة ويخطُب السِّيادة ، ويتحلّى

---

(١) معن بن زائدة الشيبانى ، كان مضرب المثل فى الجود والشجاعة ، وكان ممدحاً مقصوداً . وكان من ولاة بنى أمية ، وغضب عليه بنو العباس فى أوائل دولتهم ، ثم أبلى بلاء حسنا مع المنصور ، فأكرمه وقدمه وصار من خواصه . وقتل سنة ١٥١ ، أو ١٥٢ وقيل سنة ١٥٨ . وفيات الأعيان وتاريخ بغداد ١٣ : ٢٣٥ — ٢٤٤ .

(٢) فى الأصل : « تحيى به » ، والوجه ما أثبت .

(٣) يقال نقم ينقم كضرب يضرب ، ونقم ينقم كفرح يفرح .

بالأدب ويديم الثَّخانة والزَّمانة[١] ، والحلمَ والفَخامة ، أرضَى ضبطَه للسانه ، وأحمَدُ حياطتَه لسرِّه . وذلك أنَّه لا شيء أصعبُ من مكابدة الطبائع[٢] ، ومغالبة الأهواء ؛ فإن الدَّولةَ لم تَزل للهوى على الرأى طُولَ الدهر . والهَوى هو الدَّاعية إلى إذاعة السرّ ، وإطلاقِ اللسانِ بفضل القَول .

وإنَّما سمِّى العقل عقلاً وحِجراً ، قال تعالى ـ ﴿ هَلْ فى ذلكَ قَسَمٌ لذى حِجْر[٣] ﴾ ـ لأنّه يزمُّ اللسان ويَخطِمه ، ويشكُلُه ويَربُثُه[٤] ، ويقيِّد الفضل ويعقله عن أن يمضىَ فُرُطاً فى سبيل الجهل والخطأ والمضرَّة ، كما يُعقَل البعير ، ويُحجَر على اليتيم .

وإنَّما اللســان تَرجُمان القلب ، والقلب خزانة مستحفَظة للخواطر والأسرار ، وكلُّ ما يعيه [من[٥]] ذلك عن الحواسّ من خير وشرّ ، وما تولِّده الشَّهوات والأهواء ، وتنتجه الحكمة والعلم .

ومن شأن الصدر ـ على أنه ليس وعاء للأجرام ، وإنَّما يعى بقدرةٍ [من[٥]] الله لا يعرف العبادُ كيف هى ـ أن يضيق بما فيه ، ويستثقل ما حمل

---

(١) الثخانة ، من قولهم رجل ثخين ، أى رزين ثقيل فى مجلسه .

(٢) مكابدة الأمر : معاناة مشقته ، ومقاساة شدته . ووقع فى ط : « مكايدة » خلافاً لما فى الأصل .

(٣) الآية ٥ سورة الفجر .

(٤) يشكله ، من شكل الدابة : شد قوائمها بحبل ، واسم ذلك الحبل الشكال ككتاب . الربث : الحبس . وفى الأصل : « ويزبنه » ، والوجه ما أثبت . وانظر الحيوان ٥ : ٢٦٣ .

(٥) تكملة ضرورية .

منه ، فيستريح إلى نبذه ، ويلذّ إلقاءه على اللسان . ثم لا يكاد أن يشفيه أن يخاطب به نفسَه فى خلواته حتّى يفضىَ به إلى غيره ممن لا يرعاه ولا يحوطه . كلّ ذلك ما دام الهوى مستولياً على اللّسان ، واستعمَلَ فضولَ النَّظر فدعَتْ إلى فضول القول .

فإذا قهر الرأىُ الهوى فاستولى على اللسان ، منعَه من تلك العادة ، وردَّه عن تلك الدُّربة ، وجشَّمه مؤونة الصَّبر على ستر الحلم والحكمة .

٥٥ ظ ولا شىء أعجب من أنّ المنطق أحد مواهب الله العظام ، ونِعمه الجسام ، وأن صاحبها مسؤولٌ عنها ، ومُحاسَب على ماخوِّل منها ، أوجبَ الله عليه استعمالها فى ذكره وطاعته ، والقيامَ بقسطه وحجّته ، ووضْعَها مواضعَ النَّفع فى الدين والدنيا ، والإنفاق منها بالمعروف لفظةً لفظة ، وصرفَها عن أضدادها .

فلم يرضَ الإنسانُ أنْ عطَّلها عمّا خُلقت له مما ينفعُه حتَّى استعمَلها فى ضدِّ ذلك مما يضرُّه ، فاجتمع عليه الإثمانِ اللذان اجتمعا على صاحب المالِ الذى كنزَه ومنَعه من حقِّه ، فوجَب عليه إثم المنع وإن كان لم يصرفْه فى معصية ، ثم صرفِهِ فى أبواب الباطل والفسق فوجب عليه إثم الإنفاق فيها[1] . وهذه غاية الغَبن والخُسران . نعوذ بالله منها .

فاللسانُ أداةٌ مستعمَلة ، لا حَمد له ولا ذمَّ عليه ، وإنما الحمد للحلم واللَّوم على الجهل . فالحلمُ هو الاسمُ الجامع لكلِّ فضل ، وهو سلطان العقل القامع للهوى . فليس قمع الغضب وتسكين قوة الشرَّة ، وإسقاط طائر الخُرق بأحقَّ بهذا الاسم ، ولا أولى بهذا الرسم ، من[2] قمع فرط الرضا وغلبة الشهوات ،

(١) فى الأصل : « منها » . والمراد به فى أبواب الباطل .

(٢) فى الأصل : « مع » ، صوابه من ط .

والمنع من سوء الفرح والبطَر ، ومن سوء الجزع والهلع ، وسرعة الحمد والذم ، وسوء الطَّمع والجشَع ، وسوء مناهزة الفُرصة ، وفرط الحرص على الطَّلِبة ، وشدّة الحنين والرقّة ، وكثرة الشكوى والأسَف ، وقرب وقت الرضا من وقت السُّخط ، ووقت السُّخط من وقت الرضا ؛ ومن اتِّفاق حركات اللسان والبدن على غير وزن معلوم ولا تقديرٍ موصوف ، وفى غير نفع ولا جَدًى[1] .

واعلمْ يقيناً أنّ الصَّمت سَرمداً أبداً ، أسهل مَراماً ـ على ما فيه من المشقَّة ـ من إطلاق اللسان بالقول على جهة التحصيل والتمييز ، والقَصد للصَّواب ، لما قدّمنا ذكره من علة مجاذبة الطِّباع ؛ ولأنّ من طبع الإنسان محبة الإخبار والاستخبار . وبهذه الجِبِلَّة التى جُبل عليها الناس نُقلت الأخبار عن الماضين إلى الباقين ، عن الغائب إلى الشاهد[2] ، وأحبّ الناس أن ينقَل عنهم[3] ، ونَقَشوا خواطرهم فى الصُّخور ، واحتالوا لنشر كلامهم بصنوف الحيل . وبذلك ثبتت حجّة الله على من لم يشاهد مخارج الأنبياء ، ولم يحضر آياتِ الرُّسُل ، وقام مجىء الأخبار عن غير تشاعر[4] ولا تواطؤ مقامَ العِيان ؛ وعرفت البلدان والأقطار والأمم والتجارات والتدبيرات والعلامات ؛ ٥٦ و

---

(١) الجدى : الجدوى والغناء والنفع . يكتب بالألف والياء ، ويقال بالمد أيضاً « الجداء » ، ومنه قوله :

لقلّ جـداءً على مالك إذا الحرب شبت بأجـذالها

(٢) الشاهد : الحاضر ، والمراد به الباقى المعاصر .

(٣) فى الأصل : « أن يعقل عنهم » ، صوابه من ط .

(٤) المراد بالتشاعر المخالطة والملابسة والمعاشرة . انظر العثمانية ص ٣ س ١٥ و ٢٦٣ س ٢ . وأساس البلاغة (شعر) ولسان العرب (شعر ٨١) .

وصار ما ينقله الناس بعضهم عن بعض ذريعة إلى قبول الإخبار عن الرسل ، وسلّما إلى التصديق ، وعوناً على الرضا بالتقليد .

ولولا حلاوة الإخبار والاستخبار عند الناس لما انتقلت الأخبار وحلّت هذا المحلّ . ولكن الله عزّ وجلّ حبّبَها إليهم لهذا السبب ، كما جعل عشق النّساء داعيةً للجماع ، ولذّةَ الجماع سبيلاً للنّسل ، والرّقة على الولد عوناً على التربية والحضانة ـ وبهما كان النشوّ والنماء ـ وحُبَّ الطعامِ والشراب سبباً للغذاء ، والغذاء سبباً للبقاء وعمارة الدنيا .

فعسُر على الإنسان الكتمان لإيثار هذه الشهوة ، والانقيادِ لهذه الطبيعة ؛ وكانت مزاولة الجبال الراسيات عن قواعدها أسهلَ من مُجاذبة الطباع . فاعتراهُ الكربُ لكتمان السرّ ، وغشِيَه لذلك سُقم وكمد يحسُّ به فى سُويداء قلبه بمثل دبيب النمل ، وحِكَّة الجرب ، ومثل لسع الدَّبْر وخزْ الأشافى[1] ، على قدر اختلاف مقادير الحلوم والرَّزانة والخفَّة . فإذا باح بسرّه فكأنه أنشِطَ من عِقال[2] . ولذلك قيل : « الصَّدر إذا نفث برأ » مثلاً مضروباً لهذه الحال . وقيل :

* ولا بدَّ من من شكوى إذا لم يكن صبرُ[3] *

(١) الدَّبر : جماعة النحل . والأشافى : جمع الإشفى ، وهو المثقب يخرز به .

(٢) أى حل من عقال ، والعقال : الرباط الذى يعقل به .

(٣) لمالك بن حذيفة كما فى حماسة البحترى ١٩٧ . وأنشد هذا العجز فى الحيوان ١ : ٣٠٢ وصدره كما فى البيان ٣ : ٢٢٠ و ٤ : ٦٣ :

* وما كثرة الشكوى بأمر حزامة *

ويرى : « بحد حزامة » . ويروى : « لعمرك ما الشكوى بأمر حزامة » .

وليس قولنا « طُبع الإنسانُ على حبّ الإخبار والاستخبار » حجّةً له على الله ، لأنّه طبع على حُبِّ النِّساء ومُنِع الزِّنى ، وحُبِّب إليه الطعامُ ومُنع من الحرام . وكذلك حُبِّب إليه أن يُخبِر بالحقّ النافع ويَستخبر عنه ، وجُعلت فيه استطاعةُ هذا وذاك ، فاختار الهوى على الرأْى .

٥٦ ظ

وممّا يؤكّد هذا المعنى فى كَرْب الكتمان وصُعوبته على العقلاء فضلًا عن غيرهم ، ما رووه[١] عن بعض فقهائهم أنه كان يحمل أخباراً مستورة لا يحتملها العوامّ ، فضاق صدرُه بها ، فكان يبرُز إلى العَرَاء[٢] فيحتفر بها حَفِيرةً يُودِعها دنًّا ، ثم ينكبُّ على ذلك الدّنّ فيحدِّثه بما سمع ، فيروِّحُ عن قلبه ، ويَرَى أنْ قد نَقَل سرَّه من وِعاء إلى وعاء .

وكان الأعمش[٣] سيِّئَ الخلق غَلِقًا ، وكان أصحاب الحديث يُضجرونه ويَسُومونه نشرَ ما يحبُّ طيَّه عنهم ، وتَكرارَ ما يحدِّثهم به ، ويتعنَّتونه ، فيحلف لا يحدِّثهم الشهرَ والأكثر والأقلّ ، فإذا فعلَ ذلك ضاق صدرُه بما فيه ، وتطلَّعت الأخبار إلى الخروج منه ، فيقبل على شاةٍ كانت له[٤] فيحدِّثها بالأخبار والفقه ، حتى كان بعض أصحاب الحديث يقول : « ليت أنّى كنت شاةَ الأعمش » .

---

(١) فى الأصل : « رواه » .

(٢) العراء : الأرض الواسعة المستوية المصحرة ، وأنث الضمير بعدها لمعناها . وفى الأصل : « العرى » ، تحريف كتابى .

(٣) هو سليمان بن مهران الأعمش ، المحدث المعروف . ولد سنة ٦١ يوم عاشوراء ، وهو يوم مقتل الحسين ، وتوفى سنة ١٨٨ .

(٤) فى ثمار القلوب للثعالبى ١٣٤ أنها عنز . والشاة : الواحدة من الغنم ، وقيل الشاة تكون من الضأن والمعز والظباء والبقر والنعام وحمر الوحش .

وشكا هشامُ بن عبد الملك ما يجدُ من فقد الأنيسِ المأمونِ على سرِّه فقال : أكلت الحامضَ والحلوَ حتّى ما أجد لهما طعما ، وأتيتُ النساءَ حتى ما أبالى أمرأةً لقيتُ أم حائطاً ، فما بقيت لى لذّة إلّا وجود أخٍ أضع بينى وبينه مؤونة التحفُّظ .

وقال معاوية لعمرو بن العاص : ما اللذة ؟ قال : تأمر شبابَ قريش أن يخرجوا عنا . ففعل ، فقال : اللّذّةُ طرح المروءة .

وقد صدَقَ عمرو ، ما تكون الزّماتة والوقار إلا بحملٍ على النفس شديد ، ورياضةٍ مُتعبة .

وقال بعض الشعراء[1] :

ألم تَرَ أنَّ وُشاة الرجا ل لا يتركون أديمًا صحيحا
فلا تُفش سِرَّكَ إلّا إليك فإنّ لكلّ نصيحٍ نصيحا

والسرُّ ـ أبقاك اللهُ ـ إذا تجاوز صدرَ صاحبه وأفلتَ من لسانه إلى أذنٍ واحدةٍ فليس حينئذ بسرٍّ ، بل ذاك أولى بالإذاعة ، ومفتاحُ النّشر[2] والشُّهرة . وإنّما بينه وبين أن يَشيع ويستطير أن يُدفع إلى أذنٍ ثانية . وهو مع قلّة المأمونين عليه ، وكَرْب الكتمان ، حَرِيٌّ بالانتقال إليها فى طرفة عين . ٥٧ و

(١) هو أنس بن أسيد ، كما فى أدب الدنيا والدين ٢٧٩ . وفى الكامل ٤٢٤ : « وأحسن ما سمع فى هذا ما يعزى إلى على بن أبى طالب ، فقائل يقول : هو له ، ويقول آخرون : قاله متمثلا . ولم يختلف فى أنه كان يكثر إنشاده » . وانظر الحيوان ٥ : ١٨١ وما فى حواشيه من تخريج .

(٢) فى ط : « الشر » ، خلافاً لما هو واضح فى الأصل .

وصَدْر صاحب الأذن الثانية أضيق ، وهو إلى إفشائه أسرع ، وبه أسخى وفى الحديث به أعذر ، والحجَّةُ عنه أدحض .

ثم هكذا منزلة الثالث من الثانى ، والرابع من الثالث أبداً إلى حيث انتهى .

هذا أيضاً إذا استُعهِد المحدَّث واستُكتِم ، وكان عاقلا حليماً ، وناصحاً وادًّا ، فكيف إذا أخبِر ولم يؤمَر بالكتمان ، وكان ممن يمشِى بالنَّمائم ويحبُّ إفشاء المعايب ، وكان ممن ينطوى على غشٍّ أو شَحناء ، أو كان له فى إظهاره اجتلابُ نفعٍ أو دفع ضرر .

فاللَّوم إذ ذاك على صاحب السرّ أوجب ، وعمّن أفضى به إليه أنزل[1] ؛ لأنه كان مالكاً لسرِّه فأطلق عقالَه ، وفتح أقفاله ، وسرَّحه فأفلتَ من قيده ووَثاقه ، وصار هو العبدَ القِنَّ المملوكَ لمن ائتمنه على سرِّه ، وملَّكه رقّ رقبته ؛ فإن شاء أحسن مَلَكته لحفظ ذلك السّرّ بجزّ ناصيتَه ، وجعله رهينةً ليوم عَتْبه عليه . وقلَّ من يُحسن المَلَكة ، ويحرس الحُرِّيَّة أو يضبط نفسه ؛ فإنه ربَّما لم يُخرجه غِشًّا فأخرجه سُخفًا وضعفا . وإن أساء المَلَكة وخَتَر الأمانة[2] فأطلقَ السرَّ واسترعاه من هو أشدُّ له إضاعة ، فسفكَ الدمَ وأزالَ النعمَ وكشف العَورة وفرَّق بين الجميع ، وإن كان المضيع لسرِّه ألوَم[3] . قال الشاعر :

---

(١) أى أقل . وفى الأصل : « أدل » ، ولا وجه له .

(٢) الختر : شبيه بالغدر والخديعة . يقال ختره فهو ختار ؛ والمراد : خانها .

(٣) فى الأصل : « اليوم » .

إذا ضاق صـــدرُ المرء عن سرِّ نفسه
فصدر الذى يَستودِع السرَّ أضْـــيَقُ[(١)]

فمَن أسوأ حالا ، وأخسر مكاناً ، وأبعد من الحزم ، ممن كان حرًّا مالكاً لنفسه فصيَّر نفسَه عبداً مملوكًا لغيره ، مختاراً للرِّق ، من غير أسرٍ ولا قَسر ! والعبيد لم يَصبروا على الرقّ إلا بذلّ الأسر والسِّباء .

ومن كان سِرُّه مصوناً فى قلبه يُطْلَب إليه فى الحديث به فأخرجه عن يده ، صار[(٢)] هو الطالبَ الراغب إلى من لا يوجب له طاعة ، ولا يفكِّر له فى عاقبة ، ولا يتحرَّز له من مُصيبة[(٣)] . وكلَّما كانت إذاعتُه لأسراره أكثر كان عدد مواليه أكثر ، وشَقاؤه بخدمتهم أدْوَم . فإذا كان أصل السرّ معلومًا عند عِدّةٍ أو أقلَّ من العدّة ، فما أعسرَ استتاره . غير أنّه لا لومَ على صاحب الخيانة فيه إذا كان ليس هو الذى أفشاه ، ولا مِن قِبَله عُلِم . ٥٧ ظ

ولو أنّ أوزنَ الناس حِلمًا مَلكَ لسانَه وحصَّن سرَّه وقلَّل لفظَه ، ما قدَر على أن يملك لحظ عينيه ، وسَحنةَ وجهه ، وتغيُّر لونه ، وتبسُّمَه أو قطوبه ، عند ما يجرى بلبِّه[(٤)] من ذكر ذلك السرّ ، أو يخطر[(٥)] بباله منه ، فيبدو فى وجهه

(١) البيت من أبيات ستة رواها المبرد فى الكامل ٤٢٥ .
(٢) فى الأصل : « وصار » .
(٣) فى الأصل : « ولا يتحرز له بمصيبة » .
(٤) فى الأصل : « به » .
(٥) فى الأصل : « خطر » .

ومخايله إذا عرّض بذكره[١] ، أو سنَح له نظيرٌ أو مَثيل[٢] ، أو حضَر مَن له فيه سببٌ — إلّا بعد التصنُّع الشديد ، والتحفُّظ المُفْرط .

فإذا كان يُعرف من هذه الجهات وما أشبهها ، ويُطَّلع عليه بتظنُّنِ المرجِّمين[٣] ، والمتعقِّبين للأفعال والأقوال ، والنظر فى مصادر التدبير ومخايل الأمور ، فيفشو من هذه الجهات أكثر مما تفشيه ألسُن المذاييع البُذُر[٤] . فكيف إذا أُطلق به اللسان ، وعوِّد إذاعتَه القلبُ . والعادة أملك بالأدب .

وربّما أدركه الحدْس ، وقيَّضه الظنّ[٥] ، فنالتْ صاحبَه فيه خُدعة ، بأن يُذكر له طرفٌ منه ، ويُوهَمَ أنه قد فشا وشاع ، فيصدِّق الظنَّ فيجعله يقيناً ، ويفسِّر الجملة فيصيِّرها تفصيلا ، فيُهلك نفسه ويُوبقها .

وربَّ كلامٍ قد ملأ بطونَ الطَّوامير[٦] قد عُرِف جملتُه وما فيه الضَّررُ

(١) ط : «عرض ذكره» خلافاً لما فى الأصل .

(٢) فى الأصل : « مثل » ، وأثبت ما تقتضيه لغة الجاحظ .

(٣) الرجم : القول بالظن والحدس . ومنه قوله تعالى : « رجماً بالغيب » . والترجيم تفعيل منه .

(٤) البذر : جمع بذور ، كصبور وصبر . وفى حديث على فى صفة الأولياء : « ليسوا بالمذاييع البذر » . والمذاييع : جمع مذياع ، وهو من يذيع السر ويفشيه . انظر اللسان (بذر ، ذيع) . وفى الأصل : « البذر » ، صوابه ما أثبت .

(٥) قيضه : هيأه وسببه من حيث لا يحتسب . وفى الحديث : « ما أكرم شاب شيخاً لسنه إلا قيض الله له من يكرمه عند سنه » .

(٦) جمع طومار ، وهو الصحيفة ، عربى أو دخيل .

منه ، بسَحاءة[١] أو طابَع[٢] ،أو لحظةِ مطّلعٍ فى الكتاب ، أو حرفٍ تبيَّن من ظهره .

فاستيقظ عند هذه الأحوال ، واستعملْ سوء الظّنّ بجميع الأنام ؛ فإنه روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الحزم سوء الظنّ » . وقيل لثقيف : بم بلغتم ما بلغتم من الشّرف والسؤدد ؟ قالوا : بسوء الظنّ .

فلا تعتمد على رجل فى سرِّك تحمدُ عقلَه دون أن تحمد ودَّه ونصحه ؛ فإن الأمر فى ذلك كما قال الشاعر[٣] :

وما كلُّ ذى لبٍّ بمؤتيك نُصحَه ... ولا كلُّ مؤتٍ نُصحَه بلبيبِ

ولقد استحسن الناسُ من بعض رجال العراق أنّه دخل على عبد الملك ابن مروان فأوقعَ بالحجّاج عنده وسبّه ، فلمّا خرج من عنده خبّر بما كان منه ٥٨ و لبعض أصحابه ، فلامَه وأنّبه وقال : ما يُؤمِنك أن يُخبِر أمير المؤمنين عبدُ الملك الحجاجَ بما قلتَ فيه — ومرجِعُك إلى العراق — فيضغَنه عليك ؟ قال : كلّا ، والله إنّى ما رطَلتُ بيدى قطُّ أحداً أرزنَ منه[٤] .

وهذا والله — أبقاكَ الله — الغَلط البيِّن ، والعُذْر الملفَّق[٥] ، وتحسين فارط

---

(١) سحاءة القرطاس : ما انقشر منه .

(٢) الطابع ، بفتح الباء وكسرها : الخاتم الذى يختم به الكتاب . وفى الأصل : « طائر » ، صوابه فى ط .

(٣) هو أبو الأسود الدؤلى . الأغانى ١١ : ١٠٥ ونوادر المخطوطات ١ : ١٦٧ .

(٤) رطَل الشىء يرطُله رَطلا : رازه بيده ليعرف وزنه ، كما فى اللسان . وأرزن من الرزانة ، وأصل الرزانة الثقل .

(٥) فى الأصل : « والعذر المصلق » ، تحريف .

الخطأ ؛ لأنّه ليس كُلُّ راجحٍ وعاقل بناصحٍ لصاحب السرّ ، ولو كان أخوه كذلك كان أمره إليه أهمّ ، وشأنه أولى . والأعلى من الناس لا يكلِّف الأدنى هذه المؤونة ، وإنّما يفعلها الأدنَونَ بالأعلَيْنَ رغبةً ورهبًا ، وتحبُّبًا عندهم بحاجتهم إليهم .

وأكثر ما يذيع أسرارَ الناس أهلوهم وعبيدُهم ، وحاشيتهم وصبيانهم ، و [من[1]] لهم عليهم اليدُ والسلطان . فالسرُّ الذى يودعه خليفةٌ فى عاملٍ له يَلحقُه زَينه وشَيْنه ، أخرى ألَّا يكتمه . وهذا سبيل كل سِرٍّ يستودعه الجِلّة والعظماء ، ومن لا تبلغه العقوبة ولا تلحقُه اللائمة .

وقال سليمان بن داود فى حكمته : ليكن أصدقاؤك كثيراً ، وصاحب سرِّك واحداً من ألف .

وليس معنى الحديث أن تعدَّ ممن تعرف ألفًا وتُفضِىَ إلى واحد بسرِّك[2] إنْ لم يكن ذلك الواحد موضعًا للأمانة فى السرّ . لكنه قيل : رجلٌ يساوى ألفَ رجل ، ورجلٌ لا يساوى رجلًا . وكقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الناس كإبلٍ مائةٍ لا يوجد فيها راحلةٌ[3] » .

فكُلُّ ذلك يراد به أنَّ الفضلَ قليل والنقص قليل لا على نِسَب ما يتلقّاه الاجتماع من هذه الأعداد ؛ لأنّا قد نجد الرجلَ يُوزن بالأمّة ، ونجد الأمة لا تساوى قُلامةَ ظُفرِ ذلك الرجل .

---

(١) ليست فى الأصل .

(٢) ط : « بسر » خلافاً للأصل .

(٣) ويروى : « تجدون الناس بعدى كإبل مائة ليس فيها راحلة » . الراحلة : البعير القوى على الأسفار . أراد أن الكامل الزاهد فى الدنيا قليل كما أن الراحلة النجيبة نادرة فى الإبل الكثيرة . رواه ابن ماجه ٣٩٩٠ بإسناد صحيح .

فإذا كان مَن تقع عليه الشَّريطة معدوماً ـ سيَّما من يُوثَق بحلمه وعقله ، وأمانته ونُصحه ، ومن لا ضررَ عليه ولا نفعَ له فى السِّرّ الذى يُضمر ولا يحرُم عليه كتمانه ، ومن قد وأى على نفسه بالسِّرّ والحفظ[١] ؛ فإنه ليس كلُّ من ضمِّن فلم يضمَن ضامناً ، ولا من استُودع فلم يقبل مستحفَظاً ، ولا من استُخلِف فلم يَخلُف خائناً ، وإنما يلحقه الحمدُ والذمّ ؛ والأجر والإثم إذا ضُمِّن الأمانةَ ثم خَتَرها[٢] ـ فكأنّ القوم قالوا : لا تودعنَّ سرَّك أحداً . وإلاّ فمتى تجد رجلاً فيه الصفة التى وصَف بها مسكينٌ الدَّارمىُّ نفسه حيث يقول :

٥٨ ظ

إنِّى امرؤ منِّى الحياء الذى ترى أنوء بأخلاقٍ قليلٍ خداعُها[٣]

أُواخِى رجالاً لست أُطلِعُ بعضَهم على سِرِّ بعضٍ غير أنِّى جِماعُها[٤]

يَظَلُّون شتَّى فى البلاد وسرُّهم إلى صخرةٍ أعيا الرجالَ انصداعُها[٥]

وقيل لرجلٍ : كيف كتمانُك للسِّرّ ؟ قال : أجعلُ قلبى له قبراً أدفنه فيه إلى يوم النُّشور .

---

(١) وأى على نفسه : أى جعل عليها وعداً . وفى حديث وهب : « قرأت فى الحكمة أن الله تعالى يقول : قد وأيت على نفسى أن أذكر من ذكرنى » . عداه بعلى لأنه أعطاه معنى جعلت على نفسى .

(٢) أى خانها . وانظر ما سبق فى ص ١٤٧ .

(٣) القطوعة فى حماسة أبى تمام فى أول باب الأدب . انظر شرح المرزوقى ١١١٥ — ١١١٦ والحيوان ٥ : ١٨٢ وعيون الأخبار ١ : ٣٩ والكامل ٤٢٥ وأمالى القالى ٢ : ٦٢ والمرتضى ١ : ٣٩٩ .

(٤) الجماع : اسم لما يجمع به الشىء ، كما أن النظام اسم لما ينظم به الشىء .

(٥) أى أن يصدعوها فتنصدع . ويروى : « أعيا الجبال اتضاعها » .

وقال الآخر[١] :

* وأكتمُ السِّرَّ فيه ضربةُ العنُقِ[٢] *

وهذه صفاتٌ موجودةٌ بالأقوال ، معدومة بالأفعال . والمغرورُ من اغترّ بما يعِدُه الواعدُ منها دون أن يَبلُوَ الخَبر .

والذى جرّبناهُ ووجدناه : أنّ من يُفضَى إليه بالشىء ، يَبلغ من إذاعته ونشرِه ما لا يبلغُه الرسولُ المستحفَظ المْعنىّ بتبليغ الرسالة ، المحمودُ المجازَى على أدائها ؛ حتّى ربمّا كان يبلغ[٣] فى الإذاعة لمن أرادها أن يقصد للبلاّغة من الرجال[٤] ، المعروف بالنّميمة والتقتيت[٥] ، فيوهمه أنه قد استحفظه السرّ، فيشيع على لسانه كما يشيع الضوء فى الظُّلمة .

وهذا فِعلُ عمر بن الخطّاب رضى الله عنه حين أحبَّ أن يُشيع إسلامَه فقال : مَن أنمُّ أهلِ مكةَ ؟ قيل له : جميل بن النُّحَيت . فأتاه فأخبره بإسلامه وسأله أن يكتمَه عليه ، فلم يُمسِ وبمكّة أحدٌ لم يعلم بإسلام عمر ، رضى الله عنه .

---

(١) هو أبو محجن الثقفى . ديوانه ٦ والحيوان ٥ : ١٨٢ والأغانى ٢ : ١٤٢ .

(٢) صدره فى ديوانه :

* وأكشف المأزق المكروب غمته *

وفى الحيوان :

* وقد أجـــود وما مالى بذى فنع *

وفى الأغانى :

* وأطعن الطعنة النجلاء عن عرض *

(٣) فى الأصل : « لا يبلغ » وكلمة « لا » مقحمة .

(٤) البلاغة : الكثير التبليغ ، عنى به ذلك وإن لم يكن مذكوراً فى المعاجم المتداولة .

(٥) التقتيت : مبالغة من القت ، وهو النميمة .

ثم يكون من أكثر الأعوانِ على إظهار السرِّ الاستعهادُ له ، والتَّحذير من نَشرِه ؛ فإنَّ النَّهىَ أغْرَى ؛ لأنَّه تكليف مشقّة ، والصبر على التكليف شديد ، وهو حَظْرٌ ، والنفسُ طيَّارة متقلّبة ، تَعشَق الإباحة وتُغرَم بالإطلاق .

ولعلَّ رجلاً لو قيل له : لاتمسحْ يدكَ بهذا الجدار ـ وهو لم يمسَحْها به قطُّ ـ غَرِىَ بأن يفعَل .[1]

وكذلك ما حُدِّث به من السرّ فلم يؤمَر بستره ، لعلّه ألاّ يخطر بباله ؛ لأنَّه موجود فى طبائع الناس الوَلوعُ بكلِّ ممنوع ، والضَّجر بكل محصول . ٥٩ و

فنريد أن نعلم : لِمَ صار الإنسانُ على ما منع ـ وإن كان لا ينفعُه ـ أحرَصَ منه على ما أبيحَ من غير علّة ولا سبب إلاّ امتهانَ ما كثر عَليْه[2] ، واستطرافَ ما قلَّ عنده ؟ ولمَ أقبلَ على مَن ولَّى عنه وولَّى عمّن أقبلَ عليه ؟ ولِمَ قالوا : إذا جدَّت المسألة جَدَّ المنع ؟ وقال الشاعر[3] :

الحرُّ يُلحَى والعصـا للعبدِ وليس للمُلْحِف مثـلُ الرَّدِّ

ولِم صار يَتمنَّى الشَّىءَ ويَنذُر فيه النُّذورَ ، ويتقطَّع إليه شوقاً ، فإذا ظَفِر به صدَّ عنه وأخلقَ عنده ؟ ولِم زهِد الملوكُ فيما فى أيديهم ورغِبوا فيما فى أيدى الناس ؟

فنقول : إنَّ الله تبـارك وتعالى جَعل لكلِّ نفسٍ مَبلغاً من الوُسع لا يمكنُها تجاوزُه ، ولا تتَّسع لأكثرَ منه . فكان معها فيما دونَ الوُسع الفقرُ

---

(١) غَرِى بالشىء غَراً وغَراء : أُولع به وأُغرى .

(٢) فى الأصل : « ولا امتهان بما كثر عليه » ، صوابه فى ط .

(٣) هو بشار بن برد . البيان ٣ : ٣٧ .

وخوفُ الإخوان ، وفيما تجاوَزه عزُّ الغنى وأمنُ العُدْم . وبهذا وبمثله من البُخل والحرص استخفَّت من احتاجَ إليها ، وأعظمَتْ من استغنَى عنها . وجَعلَها توّاقة مشتاقة ، متَطرِّفة ملاّلة[1] ، كثيرة النزاع والتقلب ، تستحكم عليها الفتنة[2] ، ويُبلَى خيرها [من شرِّها[3]] وصبرها من جزعها . ولولا هذه الخلالُ سقطت المِحَن ، فهى تعظِّمُ القليلَ بالضَّرورة إليه إن كان من أقواتها ، أو لشدَّة النِّزاع والشوق إن كان من طُرَف شهواتها ؛ فإنَّ صنوف الشهوات كثيرة ، ولكلِّ صنفٍ منها أهل لا يَحفلون بما سواه . وتتعجّب من الغريب النادر ، ويضحكها البديعُ الطارئ . إلا أنَّه إذا كثر الغريب صار قريباً ، وإذا تجاوز المطلوبُ مقدارَ وُسعها وحاجتها فصار ظِهريًّا وفضلاً استخفَّتْ به وقلَّ فى أعينها كثيرُه . وأعظم الأشياء عندها قدراً ما اشتدَّ إليه الفقرُ والحاجة وإنْ قلَّ قدره[4] ، وأهونها عليها ما استُغنِيَ عنه وإن عظُم خطره . وجَعل لما تَتوق إليه وتشتاقه مكاناً مِن قواها ، له[5] . فإذا امتلأ ذلك المكانُ سروراً ، وقَضَى ذلك الأربُ وطراً مما كان طمَح إليه ، ورويَ مما كان ظامئا إليه ، انصرفَ عنه وقَلاه ، وحالَ عشقُه بُغضاً ، وشوقُه مَلالاً .

والعلّةُ فى ذلك : أنّ الدُّنيا دارُ زوالٍ ومَلال ، ليس فى كيانها أن تثبت ٥٩ ظ

---

(١) التطرف والمستطرف : الذى لا يثبت على أمر وفى الأصل : « مطرفة » . والملالة : الكثيرة الملل .

(٢) فى الأصل : « تستحكم عليها العنته » .

(٣) ليست فى الأصل .

(٤) فى الأصل : « ضرره » .

(٥) أى مكاناً له من قواها .

هى ولا شيء مما فيها على حالٍ واحدة ، وإنَّما الثُّبوت الدائم لدارِ القرار .
فالسآمة تلحقها فى محبوبها ، كما يصيب المنتهىَ من الطعام والشراب والباه ،
فإنه ليس شىء أبغضَ إلى من يتناهى فيه إلى غايته ، من النَّظر إلى ناحيته ،
فضلاً عن ملابسته ، إلى وقت عَودة السبب الأوّل .

فإذا كانت الطبائع تتشابه ، ولكلّ حاسّة قوة ، فإذا امتلأت تلك
القُوّة من محسوسها لم تجد لها وراءه طعماً ولا ريحاً ، وعاد عليها الضَّرر . فبعضُ
النظر يُعمِى ، والصَّوت الشديد يُصِمّ ، والرائحة المُنتنةُ تُبطل المَشَمّ ،
والأطعمةُ الحارّة المُحرقة تبطل حاسَّة اللسان .

وتتطرّف كلٌّ واحدةٍ منها ؛ فبَين الطِّيبِ عند مَنْ بَعُد عهدُه [به] ،
والجاعِ والسَّاع ، وبين من هو مغموسٌ فيه بونٌ بعيدٌ جدًّا ، فى الحلاوة
وحُسن الموقع . كلّ ذلك ما لم يأت المالُ والعلم ؛ فإنّه كلّما كَثر كان أشهَى
وأعجب ؛ لأنّ قَصْدَ الناس له ليس لطلبِ مقدار الحاجة وسدِّ الخَلّة كما يُريده
أهل القَناعة والزَّهادة ، وإنّما يراد لقمع الحِرص ، والحرصُ لا حدَّ له
ولا نهاية ؛ لأنه سعىٌ لا لحاجة ، وإيضاعٌ لا لبُغية .

وهكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو أنّ لابن آدمَ وادِيينِ
من ذهبٍ لا بتغَى إليهما ثالثاً . ولا يملأ جوفَ ابن آدم إلاّ التّراب[1] » .

وقال بعض الحكماء :

من كان لا يَغْنَى بما يُغنيه فكلُّ ما فى الأرض لا يُغْنيه

(١) حديث صحيح ، أخرجه فى الجامع الصغير ٧٤٧٦ بلفظ: « لو كان لابن آدم واد من مال لابتغى إليه ثانيا ، ولو كان له واديان لا بتغى لهما ثالثاً » .

قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وتُحِبُّون المالَ حُبّـا جَمًّا[1] ﴾ . وقال : ﴿ وإنّه لحبِّ الخير لشديد[2] ﴾ . وقال الشاعر :

والنـاسُ إن شَبِعتْ بطونهمُ فعيونهم فى ذاك لا تشبـعْ

فأمّا الحديث الذى جاء : « لا يشبع أربعٌ من أربعة : أرضٌ من مطر ، وعين من نَظَر ، وأنثى من ذكر ، وعالمٌ من علم[3] » . فإنّ العين لا تشبع فى الجملة كما لا يشبع الخيشوم من الاستنشاق . فأمّا مِن صنفٍ مما يراه دون صِنفٍ ، فإنه يَشبَع ويَروى ، ويصدُّ ويصدِف إلى غيره .

٦٠ و

وأمّا العلمُ فإنَّه أوسعُ من أن يُحاطَ به ، فمَن طلبَه لشرفه ونخره فإنه لا حدَّ له ولا نهاية ، ولم يزدد له طلباً إلّا ازداد فيه رغبة . ومن طلب منه مقدار كفايته وحاجته كفاه منه اليسير . على أنه لا يملك من كثُر علمه أن يَرى فيه الغنى والكبرياء أيضاً . وقد يُمَلّ كما يمَلّ كلُّ شىء . وتملُّ العين أيضاً منه ومن المال .

وقيل : اثنان منهومان : طالب علم وطالب دُنيا . وهذه القضيّة[4] تدلّ على الخروج عن العقل ؛ لأن النَّهَم تجاوُز القَدْر .

---

(١) الآية ٢٠ من سورة الفجر .

(٢) الآية ٨ من سورة العاديات .

(٣) حديث ضعيف ، أخرجه السيوطى فى الجامع الصغير٩٢٢ بلفظ : « أربع لا يشبعن من أربع » .

(٤) فى الأصل : « القصة » والقضية : الحكم .

وأمّا[1] الحرص على الممنوع الذى لاينتفع به ، والعجب مما يتعجّب من مثله ، فليس من أخلاق العقلاء . وما لم يكن فى أخلاقهم فلا نظر فيه ولا قياس عليه ، وإنما ذلك فِعلُ من استوحش من الحجّة ، وشرد عن علم العلل والأسباب .

وإفشاء السرّ إنما يوكَّل بالخبر الرائع ، والخطب الجليل ، والدفين المغمور ، والأشنَع الأبلق ، مثل سرّ الأديان[2] لغلَبة الهوى عليها ، وتضاغن أهلها بالاختلاف والتضادّ ، والولاية والعداوة . ومثل سرّ الملوك فى كيد أعدائهم ومكنون شهواتهم ومستور تدبيراتهم ، ثم من يليهم من العظماء والجِلّة ؛ لنَفاسة العوامّ على الملوك[3] ، وأنّهم سماء مُظِلّة عليهم ، أعينُهم إليها سامية ، وقلوبهم بها معَلَّقة ، ورغَباتهم ورهَباتهم إليها مصروفة . ثم عداوات الإخوان ؛ فإنّما صارت العداوة بعد المودّة أشدّ لاطّلاع الصديق على سرّ صديقه ، وإحصائه معايبَه ، وربّما كان فى حال الصّداقة يَجمَع عليه السَّقطاتِ ويُحصِى العيوب ، ويحتفِظ بالرِّقاع ؛ إرصاداً ليوم النَّبوة ، وإعداداً لحال الصَّريمة .

وقد شكا بعض الملوك تنقيب[4] العوامّ عن أسرار الملوك فقال :

٦٠ ظ   ما يريد الناسُ منّا   ما ينام الناس عنّا

---

(١) فى الأصل : « وإنما » .

(٢) فى الأصل : « الأدمان » ، صوابه فى ط .

(٣) النفاسة : الحسد ، يقال نفس عليه ينفس نفساً ، بالتحريك ، ونفاسة كسحابة .

(٤) فى الأصل : « تنقب » .

لو سكَنّا باطن الأر ضِ لكانوا حيثُ كُنّا
إنما همُّهـمُ أنْ ينشُروا ما قد دفَنّا

ولِمَ نرى حُبَّ الطعن على الملوك[١] ، والتجسُّسَ على أخبارهم ، وعشقَ نشرِ المعايب ، واستحلال الغيبة ، ظاهراً فى طباع الناسِ لا يكاد ينجو منه أحدٌ منهم إلّا من رجَح حلمُه وعظُمتْ مروءته ، وظهر سُودَده ، واشتدَّ ورعُه ، حتى قال بعضهم : « الغِيبةُ فاكهةُ النُّسّاك » .

ورَوَوْا عن بعضهم أنه قال : « الفاسقُ لا غِيبةَ له » .

وقال آخر : « أترعون من ذكر الفاسق[٢] ؟ اذكروه يعرفه الناس » .

ولَمْ نر الله جلّ ثناؤه رخَّص فى اغتياب مؤمن ، بل ضربَ المثلَ فى الغِيبة بأكره ما تكرهه النُّفوس ، وما تختار منه الموت على الحياة ، فقال : ﴿ ولا تجسَّسُوا ولا يغتب بعضُكم بعضاً أيحبُّ أحدُكم أن يأكلَ لحمَ أخيه مَيْتاً فكرِهتُموه[٣] ﴾ .

واغتياب الناس جميعاً خُطّةُ جَورٍ فى الحكم ، وسقوطٌ فى الهمة ، وسَخافة فى الرأى ، ودناءةٌ[٤] فى القيمة ، وكُلفة عريضة ، وحسَد ونفاسة ، قد

---

(١) فى الأصل : « ولم نوجب الطعن على الملوك » وفى ط : « ولم نرحب الطعن على الملوك » والوجه ما أثبت . انظر لتأييد هذا الأسلوب ما سبق فى ص ١٥٤ س ٨ وما بعده .

(٢) يقال ورع من الشىء يرع بكسر الراء فيهما ويورع ، كيوجل ، أى تحرج وتأثم . وفى ط عن نسخة المختار : « أتراعون » .

(٣) الآية ١٢ من سورة الحجرات .

(٤) فى الأصل : « ودناء » .

استحوذت على هذا العالَم وغلبَت على طبائعهم ، وتوكّدت لسوء العادةِ عندهم ، ولعلوٍّ الشرِّ على الخير ، وكثرة الدَّغَل والنَّغَل والحسدِ فى القلوب. فلستَ ترى منها ناجياً . إمّا ناظرٌ بعين عدلٍ وإنصاف ، فهو يَرَى ما يُنكِر فيبدو فى وجهه ولسانه . وإما ناظرٌ بعين البغضاء والعداوة فهو كثيراً ما يجد من العيوب فى عدوّه ما يُعينُه على التخرُّص عليه[1] فيقوِّيها ويزيد فيها. وإنْ عَدِم الحقَّ تقوَّلَ وقبّح الحسَن ، وزاد فى قبح القبيح .

والحديث كلُّه ـ إلاّ ما لا بالَ به ـ ذ كرُ الناس ، ولغوٌ وخطَل ، وهُجر وهُذاء ، وغِيبةٌ وهَمزٌ ولمز .

وقال بعض الحكماء لابنه : يا بُنَيَّ ، إنّما الإنسانُ حديث ، فإن استطعتَ أن تكون حديثاً حسناً فافعلْ .

وكلُّ سرٍّ فى الأرض إنّما هو خبرٌ عن إنسان ، أو طىٌّ عن إنسان ، فله فى الغِيبة أكثر الحظّ ، وجُلُّها كُلفةٌ لا ضرورة ، يُرَى صاحبها أنه قد أهمل محاسبة نفسِه ، وغَفر ذنوبَها وألغى عيوبَها ، وقَصَدَ قَصْدَ غيره ، فتشاغل عمّا يعنيه بما لا يَعنيه ، فأنكر أقوالَه وأفعاله ، وهجر تدبيره ، وتعجّب من مَقابحه ، وجَهَد نفْسَه فى تفقُّد أموره . ليس ذلك عن عِنايةٍ بصلاحه ، ولا محبّة لتقويمه وتهذيبه ، ولا أنّه مسيطرٌ عليه ولا محمودٌ عنده على ماعُنِى به من شأنه ، بل هو عنده عين المذموم . (٦١ و)

وهذا جُلّ حديثِ البشَر وشُغلِهم فى الليل والنهار .

---

(١) فى الأصل : « عن التخرص » تحريف . والتخرص : التقول والكذب .

قال بعض الحكماء : فضول النظر تدعو إلى فَضْل القول ، وفضول الخواطر تبعث على اللّهو والخطَل .

ولو كان الرجلُ لا يتكلّم إلّا بما يعنيه ، ولا يتكلّف ما قد كُفِيَه ، قلَّ كلامُه . ولو حكَّم العَدْل[1] فى أموره ، وفيما بينه وبين خالقه ، وبينه وبين إخوانه ومعامليه ، لطاب عيشُه وخفَّت مؤونته والمؤونة عليه ؛ فإنّ الله تبارك وتعالى لم يَخلُق مذاقاً أحلى من العدل ، ولا أروحَ على القلوب من الإنصاف ، ولا أمرَّ من الظُّلم ، ولا أبشعَ من الجور .

وقال بعض المتقدِّمين : « إنما يَعرِف الظُّلمَ من حُكم به عليه » . ومن استعمل العدل دلَّه على أنَّ النّاس يجدون من طعمه وطعم الظلم إذا فعلَه بهم مثلَ الذى يجد إذا ظُلِم ، فكرِه لهم ما كره لنفسه ، فأنصفَ ولم يَظلِم .

ويتظالم الناس فيما بينهم بالشَّرَه والحِرص المركَّب فى أخلاقهم ، فلذلك احتاجوا إلى الحكّام ــ وقد أُطلِقَ لهم تصريف أخلاقهم وأماناتهم[2] ــ التى ردّت إليهم بالأحكام فيها[3] ، ماجنايتُــه عليهم أكثرُ مما يطالبهم به الخصوم[4] .

---

(١) فى الأصل : « العدى » .

(٢) فى الأصل : « تصريفها وأخلاقهم وأماناتهم » .

(٣) فى الأصل : « الأحكام فيها » .

(٤) المراد بالجناية جزاء الجناية ، كما فى قوله تعالى : « يلق أثاما » أى يلق جزاء الآثام ، وهو الإثم . وكما فى قول بشر بن أبى خازم :

وكان مقامنا ندعو عليهم بأبطح ذى المجاز له أثام

وقال بعض الحكماء : إنّ من أصعب الأعمال إنصافَك فى نفسك ، ومواساتَك أخاك فى مالك ، وذِكرَ الله . أمَا إنّى لا أعنى قول سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ـ وإنّ ذلك لمن ذكر الله ـ ولكنْ ذكرَه عند ما يعرض من الأمور ، فإن كان طاعةً لله فعلتَه ، وإن كان معصيةً لله اجتنبتَه .

٦١ ظ وروى عن بعضهم أنه قال : « ثلاثة فى ظلِّ عرش الله يومَ لا ظلَّ إلّا ظلُّه : رجلٌ لم يعب أخاه بعيبٍ فيه مثله حتّى يُصلحَ ذلك العيبَ من نفسه ؛ فإنّه لا يُصلحه حتى يهجُمَ على آخرَ[1] ، فتشغله عيوبُه عن عيوب الناس . ورجلٌ لم يقدِّم يداً ولا رِجْلًا حتى يَعلم : أفى طاعة الله هو أم فى معصيته ؟ ورجلٌ لم يلتمس من الناس إلّا مثلَ ما يعطيهم من نفسه . أما تحبُّون أن تُنصِفوا » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رحم الله عبداً أنفقَ الفضلَ من ماله وأمسكَ الفضلَ من قوله ، وشغله عيبُه عن عيوب الناس » .

وقال عيسى بن مريم[2] : « يا بنى إسرائيل أيرى أحدكم القَذاةَ فى عين أخيه ويَعْبَى عن الجذع المعترضِ فى عَينه » .

وقيل لعيسى بن مريم : ما أفضل أعمالك ؟ قال : تركى ما لا يَعنينى .

وقال عمرو بن عبيد : أعيَتْنى ثلاثُ خلال : تركى ما لا يَعنينى ، ودِرهمٌ من حِلِّه ، وأخ إذا احتجت إلى ما فى يديه بذَلَه لى .

---

(١) أى على عيب آخر فى نفسه .

(٢) انظر إنجيل متى ٧ : ٣ — ٤ .

وما أَحَقَّ من أُحصيت ألفاظُه وليس مِن قولٍ يبدُر منه إلّا لديه رقيبٌ عتيدٌ ، ومَن أحصيت عليه مَثاقيلُ الذّرّ واستُشهِدَ عليه جلدُه وجوارحه ـ أن يضبِط لسانه .

وقد جاء فى بعض الآثار : مَن عَدَّ كلامَه من عمله قَلّ كلامُـه إلّا فيما لا يعنيه .

وكلُّ امرئٍ لحسيبُ نفسِه ، غير مأخوذ بغيره ، وهو الوحيد دون الأهل والولد والقرابة . وقال الله جلّ ثناؤه ـ وقوله الحقّ ـ ﴿ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ[1] ﴾ . وقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ[2] ﴾ .

وليس الأمر بالمعروف والنَّهيُ عن المنكر إلّا مع السَّيف والسَّوط .

وقال بعض الحكماء : شيئانِ لا صلاحَ لأحدهما إلّا بالآخر : اللسان والسَّيف .

وأنت إذا تأمّلتَ أكثر مايتناجَى به المتحدِّثون وجدتَ أكثر السائلين يسألُ عما لا يعنيه ، ويكترث لما لا يكرُثه ، ويُعنَى بما لا ينفعه ولا يضُرّه ؛ وأكثر المجيبين يُجيب ولم يُسأل ، ويتكلّف ما لا يعلم ، ولو قال له قائل : من سألك لافتضح ، ولو حاجَّه فيما ادَّعى ووقَّفه لانقطع . قال الله عز وجلّ : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ[3] ﴾ .

٦٢ ؛

(١) الآية ٢١ من سورة الطور .
(٢) الآية ١٠٥ من سورة المائدة .
(٣) الآية ٨٦ من سورة ص .

ومرّ هشامُ بن عبد الملك ببعض أهل الكُلفة والفضول ، وعليه حُلَّة ذَيَّالة[١] يسحبُها فى التُّراب ، فقال له المتكلف : يا هذا ، إنّك قد أفسدتَ ثوبك . قال : وما يضرُّك من ذلك ؟ قال : ليتك ألقيتَه فى النار . قال : وما ينفعُك من ذلك ؟ فأفحمه غايةَ الإفحام .

ولو تهيّأ للمتكلِّفين فى كل وقتٍ مثلُ صَرامة هشام لازدجر مَن به حياء منهم ، ولقلَّت الفضول والكُلَف والغِيبة .

قالوا : وليس من أحد أذلَّ من مغتاب ؛ لأنّه يُخفى شخصَه ، ويُطامن حِسَّه ، ويغضّ من صوته ؛ ولا يَزيدُ[٢] بما يناله من ذلك إلّا بأن يرفعَ من قَدر خَصمه ويعظِّم من شأنه .

قال معاوية : أتدرى مَن النبيل ؟ هو الذى إذا رأيتَه هبتَه ، وإذا غابَ عنك اغتبتَه .

وهى لعمرى سبيلُ العظماء عند العوامّ ، والملوكِ عند الرعيَّة ، والسَّادة عند العبيد .

فلم يأخذ المغتاب ممن اغتابه شيئاً بعضيهته إيّاهُ[٣] إلّا والذى أعطى من الهيبة عند حضوره أكثر منه .

ولو كان المغتاب لا يستتر من الغِيبة إلا ممّن يخاف سطوته ، كان أعذَر . ولكن اللُّؤم المتمكِّن منه يحمله على اغتياب عَبدِه وأَمَته ، فضلًا عن كفئه ونظيره .

---

(١) الذيالة : الطويلة الذيل .

(٢) فى الأصل : « ولا يريد » .

(٣) العضيهة : الإفك والبهتان والكذب .

ويغتاب الرجلَ عند عدوّه والمشاحِنِ له ، مساعدةً له بالسُّخف ، وتقُرّبًا إليه بالمهانة والضَّعف ، من غير أن يكون له عليه طَول ، أو يلتمس منه على ما تقرَّب به إليه جزاءً أو شُكورا .

ثم لعلّه ينكفئ إلى الذى اغتابه وقصَبَه[١] من ساعته ويومه ، فيعطيه فى عدوّه الذى اغتابه عنده أيضاً مثلَ ذلك وأكثر منه ، لا لعلّةٍ أيضاً ولا مرفق ولا ربحٍ أكثرَ من الذِّلَّة التى يجدُها فى نفسه ، والضَّعف فى مُنَّته ، كما يعظِّم الغنيَّ بغير ثمن ، ويحتقر الفقير بغير سبب ، فمتى كُوشِف أو عُوتبَ لبِسَتْه ذلّةٌ أُخرى من الكِظَّة بالمعاذرِ الكاذبة ، والاعتصام بالأيمان الفاجرة . ومن كانت هذه دُربتَه فهو حريٌّ أن يُطَّلَعَ على دِخْلة أمره ، فلا يُقبَل منه عذر ، ولا يُصدَّق فى قولٍ ولا حلف ، وقد تَسربلَ الذِّلّة ، وتدرَّع الخضوع . ٦٢ ظ

وليس من سُوس النفسِ الكريمة الشَّهمة[٢] ، أن تَلقى الناسَ بخلاف ما يتخلَّقون به[٣] ما لم تأت ضرورة يحتاج فيها إلى كيد وغِيلة ، أو مكر وحيلة ، ويثار بالغِيبة فيها الرأىُ الأصيل من مكانه ، فيفعل ذلك العاقلُ فيما يحلُّ له ويحسُن به ، بعد أن تُعيِيَه الحيلةُ فى استصلاح ذلك العدوّ بالرِّفق والملاينة .

وإنّما قيل : « قلَّ من اعتذرَ إلاّ كذب »، لكثرة النَّطَف فى الناس[٤] ،

---

(١) قصبه قصبا : شتمه وعابه ووقع فيه .

(٢) السوس : الطبع ، والخلق ، والسجية .

(٣) فى الأصل : « يخلفون به » .

(٤) النطف ، بالتحريك : التلطخ بالعيب .

وضعف أنفسهم على الإقرار بالذّنب ، فلا ذِلّة الضّعف الثانى فى الاعتذار نهت عن كُلفة الضّعف الأوّل فى الاغتياب ، ولا كُلفة الضّعف الأوّل صانت عن ذِلّة الضّعف الثانى .

وعلى أنّ أكثر من يُعتَذر إليه ليس بقابلٍ للعذر على حقيقةٍ وإن أظهر القبول ، لما جرّب من سخاء النّاس[1] بالأيمان ، وبعدهم من الإقرار بالذنب مالم تأت حجة واضحة ، ودليلٌ شاهد عدل .

وإذا كانت هذه سبيلَ المعتذَر إليه فيحقُّ على المعتذِر - إن كانت فى نفسه قيمة - أن لايعتذر إلّا إلى من يحبُّ أن يجد له عُذرا ، ولا يعجل إلى المَيْن[2] وهو لا يجد للحجّة مكانا .

وأكثر من يُعتذر إليـــه إنما يُفعل ذلك به خوفاً من سقطته ، وإبقاءً لسلطانه .

والمتفقّهون يتأوّلون فى الأيمان السّلطانية ما يُلحق بها عند السّلطان التُّهمة ، ويُلزِمهم الظّنّة ، سيّما[4] فى الأمور التى فى الإقرار بها إباحةُ الدّم والمال ، وهَتكُ السّتْر .

ولا حسمَ لهذا الداء إلّا باطّراح الفضول ، وسلامة اللسان من أن يَلغ فى الأعراض[3] ، ويستسرّ بالعَضِيهة والبَهْت .

---

(١) فى الأصل : « النفس » .

(٢) المين : الكذب ، مان يمين . وفى الأصل : « المين » .

(٣) أصل الولوغ شرب الماء أو الدم . ومنه ولغ السبع . وفى أساس البلاغة : « ومن المجاز : فلان يأكل لحوم الناس ويلغ فى دمائهم » . والفعل من باب نفع ، ووعد ، وورث ، ووجل . وفى الأصل : « يلغ » .

(٤) كذا وردت بدون « لا » وأجازه بعض النحاة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده[١] » . ومن لم يسلم الناس منه فليس سالماً من نفسه .

وقال القائل : احرسْ أخاك إلاّ من نفْسه .

وقالوا : مقتل المرء بين فَكَّيه .

وكُتب على بعض أبواب المُدن بالسِّنْد[٢] : احفظ رأسَك .

وقال الأوّل : قد تَصِل النِّصال إلى الإخوان فتُستخرَج ، وأمثالُ النِّصال من القول إذا وصلت إلى القلب لم تُستخرَج أبدا .

٦٣ و

وقال بَهْرام[٣] ، وسَمِعَ فى اللَّيل صوتَ طائر فتحدَّاه بسهم وهو لا يراه ، إلاّ أنَّه تتبَّع الصَّوتَ فصرعَه ، فلما صار بين يديه قال : والطَّير أيضاً لو سكتَ كان خيراً له !

وقيل : ماشىء أحقّ بطول سَجْنٍ من لسان[٤] .

وقيل : يَسألُ اللسانُ الأعضاء فى كلِّ يوم فيقول : كيف أنتنّ ؟ فيقُلن : بخيرٍ إن تركتنا !

---

(١) حديث صحيح . أخرجه السيوطى فى الجامع الصغير ٩٢٠٦ ، ٩٢٠٧ ، ٩٢٠٨ . وانظر الترغيب والترهيب ٥ : ١٦٠ .

(٢) فى ط رواية عن كتاب المختار : « بالمسند » ، أى بالخط المسند ، وهو خط حمير باليمن .

(٣) بهرام : اسم لعدة ملوك من الفرس ، أشهرهم بهرام جور بن يزدجرد ، ملك ثلاثا وعشرين سنة ، ونشأ عند ملوك الحيرة وبنى له الخورنق . قال المسعودى فى التنبيه والإشراف ٨٨ : « وكان فصيحاً بالعربية ، وله بها شعر صالح » . وذكره الجاحظ فى الحيوان ١ : ١٤٠ .

(٤) حديث موقوف رواه الطبرانى من كلام عبد الله بن مسعود . الترغيب والترهيب ٥ : ١٦٣ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمُعاذ بن جبل : « وهَلْ يكبُّ الناسَ على مناخرهم فى النّار إلاَّ حصائدُ ألسنتهم[١] » .

وقال عيسى عليه السلام[٢] : « أعمال البّر ثلاثة : المنطق ، والنظر ، والصَّمت . فمن كان منطقُه فى غير ذكر الله فقد لغَا ، ومن كان نظره فى غير اعتبارٍ فقد سَها ، ومن كان صَمتُه فى غير تفكّر فقد لها » .

فانظر بأيِّ الأمرين قطعتَ عمرك ؟ أبِالحكمة أم باللَّغو ؟ وانظر كيف وصف الله تعالى من أثنى عليه بخير من عباده فقال : ﴿ والذين هم عَنِ اللَّغو مُعْرِضُون[٣] ﴾ ، وقال : ﴿ وإذَا سَمِعُوا اللَّغوَ أعرَضُوا عَنْه[٤] ﴾ ، وقال : ﴿ وإذا مَرُّوا باللَّغو مَرُّوا كراماً[٥] ﴾ . وصانَ عنه أسماع أهل الجنَّة وألسنَتهم فقال : ﴿ لا يَسْمَعُون فيها لغواً ولا تأثيماً . إلاَّ قِيلاً سَلاماً سَلاما[٦] ﴾ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العبادة عشرة أجزاء ، تسعةٌ منها فى الصَّمت » .

وقال على بن أبى طالب : « أفضل العبادة الصبر وانتظار الفرج[٧] » .

---

(١) فى اللسان (حصد) : « أى ما قالته الألسنة ، وهوما يقتطعونه من الكلام الذى لاخير فيه ، واحدتها حصيدة ، تشبها بما يحصد من الزرع إذا جذ » . وتكلم عليه فى الترغيب والترهيب ٥ : ١٦٥ — ١٦٦ .

(٢) انظر البيان ١ : ٢٩٧ .

(٣) الآية ٣ من سورة المؤمنون .

(٤) الآية ٥٥ من سورة القصص .

(٥) الآية ٧٢ من سورة الفرقان .

(٦) الآية ٢٥ ، ٢٦ من سورة الواقعة .

(٧) انظر البيان ١ : ٢٩٧ .

وقال بعض الحكماء : لو لم يكن للصَّامت فى صَمته إلاّ الكفايةُ لأن يَتكلَّمَ بكلام ويُحكى عنه محرَّفا فيُضطرَّ إلى أن يقول : ليس هكذا قلتُ ، إنَّما قلتُ كذا وكذا . فيكون إنكاره إقراراً ، واعترافه بما حُكى عنه شاهداً لمن وشَى به ، وادّعاء لتحريفٍ غير مقبول منه إلاّ أن يأتى ببيّنة له[1] — لكان ذلك من أكثر فضائل الصَّمت .

وربَّما ذكر رجلٌ الله تبارك وتعالى ، فكان ذلك الذِّكر إثماً له ، لأنه قد يُدخله فى باب تفخيم الذنب الحقير والإغراء والتَّحريض ، فيسفِك الدمَ الحرامَ ، أو يعظِّم الجرح الصغير . بل ربَّما ضحك وتبسَّم ، فأغْرَى وحَرَّض ، وأَثِم وأوبق . قال بعض الشعراء[2] :

فإن شئتُ أدلَى فيكما غير واحدٍ مجاهرةً أو قال عندى فى سِرِّ
فإنْ أنا لم آمُرْ ولم أنه عنكما ضحكتُ له حتى يَلجَّ ويستشرى

٦٣ ظ

وقالت العرب[3] : « من كُفِيَ شرَّ لَقلقهِ وذَبذَبِهِ وقَبقَبِهِ فقد كُفِيَ الشرّ » .

وهذا بابٌ لولا أن نَشغلَ القارئَ لهذا الكتاب بغير ما قصدنا إليه وعزمْنا عليه لأتينا عليه . وهو كثير موجودٌ لمن طَلبه ، وجملةٌ واحدة فيها

---

(١) فى الأصل : « بها » .

(٢) هو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود . الحيوان ١ : ١٤ — ١٥ ومجالس ثعلب ١٧ — ١٨ وأمالى المرتضى ١ : ٣٩٨ والأغانى ٨ : ٩١و ١٣ : ١٠ وجمع الجواهر ٣ والمحبر ٢٩٧ — ٢٩٨ .

(٣) هو حديث ضعيف ، أخرجه السيوطى فى الجامع الصغير ٩٠٧٣ . وانظر البيان ٣ : ٢٧٢ ومجالس ثعلب ٥٤٠ .

كفاية ؛ فإنَّما تختلف الألفاظ التى تُجعَل كسوةً لتلك المعانى . وإلاَّ فإنّك إذا نظرتَ إلى جميع شُرور الدُّنيا وجدت أوّلها كلمة عَارت فجَنَتْ حرباً عواناً[١] ، كحرب بكر وتغلب ابنَىْ وائل ، وعَبسٍ وذُبيان ابنى بَغِيض ، والأوس والخزرج ابنى قَيْلَة ، والفِجار الأوّل والثانى ، وعامّة حروب العرب والعجم .

وإذا تأمّلتَ أخبارَ الماضين لم تُحصِ عددَ من قتَلهُ لسانهُ وكان هلاكُه فى كلمةٍ بدرَتْ منه .

وليس العجب ممن أفضَى بسرِّه إلى من ليس له بموضعٍ ، ممَّن تقدَّمت معرفته وزالت الشُّكوكُ عنه فى أمره ؛ ولـكنَّ العجبَ عينَ العجب ممن استنام بسرِّه إلى من لم تَقدُم معرفتُه ومن أنس إليه عن اللِّقاءة واللِّقاءتين[٢] ، دونَ معرفة العَين والاسم ، والسَّبب والنَّسَب ، فانخدعَ فى أوّل وهلة وغُبِن عقلَه قبل أن يُغْبَن دينه وماله ، وتضاعفت عليه البليّة بطول الحسرة ؛ فإنَّ البلاءَ عارضٌ ومكتسب ، فكانَ العارضُ السَّماوىّ وما خوَّلته الأقدار سرًّا بعد اجتهاد صاحبه رأيَه ، وحيلته فى طلب الخير . وصوابُ تدبيره فيه أسهلُ وأيسر على العاقل المعتاد للصواب ، وإن كان كل مكروه مرًّا بشِعاً . وإنَّما الـكربُ اللازم والداءُ العَياء ما اجتمع على صاحبه مع الفجيعة والحاجة ، والنَّقص والذِّلّة ، غمُّ النَّدامة والأسفُ على مافرط منه ؛ إذ كان الجانىَ على نفسه بيده .

---

(١) الحرب العوان : التى قوتل فيها مرة بعد مرة . عارت : أفلتت وذهبت على وجهها . « غارت » ، تصحيف .

(٢) فى الأصل: « اللغاة واللغاتين » . وفى ط : « عن اللقاء واللقائين » ، والوجه ما أثبت . وانظر لـكلمة « اللقاءة » شرح الرضى للشافية ١ : ١٨٧ — ١٧٩ .

ولهذا الكلام نظرٌ نكره التطويلَ به ، والمعنى واحدٌ ، وإنّما نحتاج من هذا ومثلِه — ممّا قدّمنا ذكره فى الكتاب — إلى حفظ السرّ ووزن القول. وإلى هذا أجرَينا ، وله قصدْنا .

٦٤ و ولو اقتصرنا فى هذا الكتاب على حرفٍ مما فيه ، لكان بإذن الله كافياً لمن له لُبٌّ وعقل ، لكنّ الاحتجاج أوكَد ، والإيضاحَ أبلغ ، والحظُّ فى هذا القول كلِّه لمن عقَله والآخِذِ به ، أوفرُ [منه[1]] لمن قاله ولم يعمل بقوله ؛ لأنّه إنما يجتنى ثمرة الصواب ، ويَخْتلِف برَفَقِه[2] من صدّق قولَه بفعله ؛ فإنّ الحكمة قول وعمل ، وإنّما حظُّ القائل ما لم يستعمل علمه وقولَه حظٌّ الواصفين ؛ وحُسنُ الصِّفة يزول بزوالها ، وينقطع بانقطاعها ؛ ومدَّتها — إلى أن يملَّها القائل والسامع — يَسيرة .

والأفعال المحمودة متَّصلة النفع والشَّرف والفضيلة فى الحياة وبعد الوفاة ، ومذخورٌ[3] للأعقاب ، وحديثٌ جميلٌ ، ونشرٌ باقٍ على مرِّ الجديدَين . وأكثر من ذلك كلِّه توفيقُ الله وتسديده ؛ فإنّ القلوبَ فى يده ، والخيراتِ مقسوماتٌ من عنده . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

* * *

---

(١) ليست فى الأصل .

(٢) الاختلاف : الاستقاء . والرفق ، بالتحريك : الماء القصير الرشاء السهل المطلب .

(٣) ط : « ومذخورة » ، خلافاً لما فى الأصل

تم كتاب كتمان السر من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، بعون الله وتأييده ، ومشيئته وتوفيقه . والله الموفِّق للصَّواب برحمته .

والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين وسلامُه .

٤

كِتَابُ

فَخْرِ السُّودَانِ عَلَى البيضَانِ

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذه هى الرسالة الرابعة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« كتاب فخر السودان على البيضان »

ومن هذه الرسالة نسخ :

١ — نسخة الأصل ، وهى نسخة مكتبة داماد ، فى ضمن مجموعة رسائل الجاحظ .

٢ — نسخة ڤان ڤلوتن المنشورة فى ليدن ١٩٠٣ ، ورمزها « ن » .

٣ — نسخة الساسى ، ورمزها « س » .

وقد سبق التنبيه على أن هذه الرسالة فى الأصل هى الرسالة الخامسة ، ولكن تكرار الرسالة الثانية بجعلها الرابعة فى الأصل كان سببا فى تغيير أرقام الرسائل بالنقص ، كما اضطرنا إلى أن نتخطى أرقام الأصل فى الرسالة المكررة ، ونثبت الأرقام التى بعدها على جوانب النسخة ، فتبدأ هذه الرسالة بصفحة (٧٨ ظ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

تولاك الله وحفظك ، وأسعدك بطاعته ، وجعلك من الفائزين برحمته . ٧٨ ظ

ذكرت ـ أعاذك الله من الغشّ ـ أنّك قرأتَ كتابى فى مُحاجّة[1] الصُّرحاء للهُجَناء ، وردِّ الهُجَناء ، وجواب أخوال الهجناء ، وأنّى لم أذكر فيه شيئاً من مفاخر السُّودان[2] . فاعلمْ حفِظَك الله أنّى إنّما أخَّرت ذلك متعمِّداً .

وذكرتَ أنّكَ أحببتَ أن أكتب لك مفاخرَ السُّودان ، فقد كتبتُ لك ما حضَرنى من مفاخرهم .

قال الأصمعىّ : قال الفِزْرُ عبدُ فزارة[3] وكانت فى أذنه خُرَبَةٌ[4] : إنّ الوئام[5] يتـترَّع فى جميع الطَّمْش[6] : لا يَقرب العنز الضَّأن ما وجدت

---

(١) فى ن ، س : « محاكمة » .

(٢) الكلام بعده إلى كلمة « السودان » التالية ساقط من ن ، س .

(٣) النص فى الحيوان ٢ : ٢٤٠ ـ ٣٤١ محرفاً . وفيه «الغرير عبد بنى فزارة» .

(٤) الخربة بالباء : ثقب شحمة الأذن؛ يقال عبد أخرب وأمة خرباء . وفى قول ذى الرمة :

كأنه حبشى يبتغى أثراً أو من معاشر فى آذانها الخرب

وفى ن ، س : « خرتة » ، والخرتة بالتاء تكون فى الحديد من الفأس والإبرة. وانظر ما سيأتى فى ص ١٩٨ .

(٥) فى جميع الأصول : « الأوام » ، صوابه ما أثبت . وانظر ما سيأتى من الكلام على الرجز التالى . والوئام : الوفاق .

(٦) الطمش : الناس ، يقال ما أدرى أى الطمش هو ، أى الناس . وقد =

الماعز[١] ، وتنفر الشَّاءُ من المِخلب ولا تأنس بالخُفَّ[٢]

وأنشد أبو زَيدٍ النَّحويُّ :

* لولا الوئامُ هلكَ الإنسانُ[٣] *

وقال شدّادٌ الحارثيُّ[٤] ـ وكان خطيباً عالماً ـ : قلتُ لأمةٍ سوداءَ بالبادية : لمن أنتِ ياسوداء ؟ قالت : لسيِّد الحَضَر يا أصلع . قال : قلت أو لستِ سوداء ؟ قالت : أو لستَ أصلع ؟ قلت : ما أغضبكِ مِن الحق . قالت : الحقُّ أغضبَك ، لا تشتُمْ حتّى تُرهَب[٥] ، ولَأن تتركَه أمثلُ .

وقال شدّاد : لقد كلَّمتها وأنا أظنُّ أنِّى أفِى بأهل نجد[٦] ، وما نَزَعَتْ عنِّى إلاَّ وأنا عِندَ نفسى لا أفى بأَمَتِى .

وقال الأصمعىّ : قال عيسى بن عمر : قال ذو الرُّمَّة : قاتل اللهُ أمةَ آلِ فلانٍ السَّوداء ، ما كان أفصحَها وأبلَغها ! سألتُها كيف كان المطر عندكم ؟ قالت : غِثْنا ما شئنا[٧] .

= عنى بالطمش هاهنا الخلق من إنسى ووحشى . والتترع : التسرع . وفى الحيوان : « يسرع » وفى ن ، س : « ينتزع » .

(١) فى الأصل : «ماوجبت» ، صوابه من الحيوان ، وبذلك صححت فى س ، ن .

(٢) فى الحيوان : « ولا تتأنس » .

(٣) فى الأصل : « الأوام » تحريف . صوابه فى المخصص ١٢ : ١٥١ والغريب المصنف ٣٨٨ . وانظر للمثل أساس البلاغة (وأم) وأمثال الميدانى ٢ : ١١١ .

(٤) فى الأصل : « وكان» ، صوابه فى البيان ٢ : ٧١ حيث الخبر .

(٥) فى البيان : « لا تسبب » ، من السبب .

(٦) أى فى الفصاحة ، ويقال وفى به ، أى عادله ووازنه .

(٧) البيان ٢ : ٧١ ومجالس ثعلب ٣٤٨ .

مناقب السودان

أنّ لقمانَ الحكيمَ منهم ، وهو الذى يقول : ثلاثة لا تعرفهم إلاّ عند ثلاثة : الحليم عند الغَضَب ، و الشُّجاع عند الخوف ، والأخُ عند حاجتك .

وقال لابنه : إذا أردتَ أن تخالطَ رجلاً فأغضِبْه قبل ذلك ، فإنْ أنصفَك وإلاّ فاحْذَره .

ولم يَرْوُوا ذلك عنه إلاّ وله أشياء كثيرة[1] . وأكثرُ من هذا مَدْحُ الله إيّاه وتسميتُه الحكيمَ ، وما أوصى به ابنَه .

٧٩ و ومنهم : سعيد بن جُبَير[2] ، قتله الحجّاج قبل موته بستّة أشهر وهو ابن تسعٍ وأربعين سنة ، ومات الحجّاج وهو ابن ثلاثٍ وخمسين سنة . وكان سعيدٌ أوْرعَ الخَلْق وأتقاهم ، وكان أعظمَ أصحابِ ابن عبّاس . وأصحابُ الحديث يطعنون فى الذى يجىء من قِبَل أصحاب ابن عباس حتى يَجِىء [من[3]] سعيدِ بن جُبير . وأبوه مولَى بنى أسد ، وهو مولى بنى أميّة ، وقُتِل يومَ قُتِلَ والناسُ يقولون : كلُّنا محتاجٌ إليه .

ومنهم : بلالٌ الحبشىُّ رضى الله عنه ، الذى يقول فيه عمر بن الخطاب

---

(١) انظر أقواله بتتبع فهارس البيان ، والحيوان ، وعيون الأخبار ، والتمثيل والمحاضرة وغيرها .

(٢) كان من موالى والبة ، وهم بطن من أسد بن خزيمة ، ولذا يقال فى نسبه : الأسدى الوالبى ، وهى نسبة ولاء . قتله الحجاج صبرا سنة ٩٥ . تهذيب التهذيب .

(٣) ليست فى الأصل .

رضى الله عنه : إن أبا بكرٍ سيِّدُنا وأعتَقَ سيِّدَنا[1] ، وهو ثُلث الإسلام .

ومنهم : مِهْجَع[2] ، وهو أوَّل قتيلٍ قُتِل بين الصَّفَّين فى سبيل الله .

ومنهم : المقداد[3] ، وهو أوَّلُ من عدا به فرسُه فى سبيل الله .

ومنهم : وحشىٌّ[4] قاتلُ مُسيلمةَ الكذَّاب . وكان يقول : قتلتُ خيرَ الناس — يعنى حمزةَ بنَ عبد المطَّلب رضى الله عنه — وقتلتُ شرَّ الناس — يعنى مُسيلِمةَ الكذَّاب .

ومنهم : مكحولٌ الفقيه[5] .

ومنهم : الحيقُطان الشّاعر[6] ، الذى كان يَفضُل فى رأيه وعقله وهمَّته . وهو الذى يقول فى الإخوان : لا تعرفُ الأخَ حتَّى ترافقَه فى الحضَر ، وتُزامِلَه فى السَّفَر .

---

(١) العثمانية للجاحظ ٣٢ ، ١٨٠ .

(٢) فى الأصل : « عقعج » ، صوابه فى السيرة ٤٩٠ والإصابة ٨٢٥٥ ومحاضرة الأوائل للسيوطى ٤٨ . وهو مولى عمر ، قال ابن هشام : « وكان أول قتيل من المسلمين بين الصفين يوم بدر » .

(٣) المقداد بن الأسود الكندى ، كان أبوه عمرو بن ثعلبة حليفا لكندة فتزوج منهم امرأة فولدت له المقداد ، فلما كبر المقداد وقع شر بينه وبين أبى شمر الكندى فضرب رجله بالسيف وهرب إلى مكة فحالف الأسود بن عبد يغوث الزهرى ، وتبناه الأسود فعرف به أولا ، فلما نزلت « ادعوهم لآبائهم » رجع إلى نسبه فقيل المقداد بن عمرو . توفى فى خلافة عثمان سنة ٣٣ . الإصابة ٨١٧٩ .

(٤) وحشى بن حرب الحبشى ، مولى بنى نوفل .

(٥) يبدو أنه من سودان النوبة ، ففى تهذيب التهذيب أنه كان لرجل من هذيل من أهل مصر فأعتقه . ويقال كان من الفرس ، واسم أبيه سهراب . توفى سنة ١١٢ .

(٦) ذكره فى البيان ١ : ١٣٠ ، ٣٢٨ . قال الجاحظ : « وكان خطيباً لا يبارى » . وأصل معنى الحيقطان طائر الدرّاج ، أو الذكر منه .

ومنهم : جُلَيبيبٌ[1] الذى تحدَّثت الرُّواةُ أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجَ فى غزاةٍ فقال لأصحابه : هل تفقِدونَ من أحد ؟ قالوا : نفقد فلاناً وفلاناً . ثم خرج فقال : هل تفقِدون من أحد ؟ قالوا : نفقد فلاناً وفلاناً . ثم خرج فقال : هل تفقدون من أحدٍ ؟ قالوا فى الثالثة : لا . قال : لكنِّى أفقد جُليبيبًا ، اطلبوه . فطلبوه فوجدوه بين سبعةٍ قد قَتَلَهُمْ ثمَّ قُتِل . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « قتَلَ سبعةً ثمَّ قتلوه . هذا منِّى وأنا منه » . قال : ثمَّ حمَلَه على ساعدَيهِ حتَّى حفَروا له ، ماله سَرِيرٌ غير ساعدَىْ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم . قال : ولم يذكروا غُسْلًا .

ومنهم : فرجٌ الحجَّام[2] وكان من أهل العَدالة ، والمقدَّمين فى الشَّهادة . ٧٩ ظ
أعتقه جَعفر بن سُليمان ؛ وذلك أنَّه خدَمه دهرًا يُصلح شاربَه ولحيتَه ويهيِّئه ، فلم يره أخطأ فى قولٍ ولا عمل ، فقال : واللهِ لأمتحننَّه ، فإنْ كان ما أرى منه عن تدبيرٍ وقصدٍ لَأُعتِقنَّه ولَأُزوِّجنَّه ولَأُغنِينَّه . وإن كان على غير ذلك عرفتُ الصُّنعَ فيه . فقال له ذاتَ يوم وهو يحجمه : يا غلامُ ، أتحتجم ؟ قال : نَعم . قال : ومتى ؟ قال : عند الحاجة . قال : وتعرفُ ذلك ؟ قال : أعرفُ أكثرَه وربَّما غلِطت . قال : فأىَّ شىء تأكل ؟ قال : أمَّا فى الشتاء

---

(١) تصغير جلباب . ذكر ابن حجر فى الإصابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجه أنصارية ، ونزل فى قصته قوله تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » . الأحزاب ٣٦ . وكانت أمها أبت أن تزوجها من جليبيب بعد خطبة الرسول إياها لجليبيب . تفسير ابن كثير ٣ : ٤٨٩ — ٤٩٠ .

(٢) الخبر فى الحيوان ٧ : ٢٦١ — ٢٦٢ .

فدا كبراه[١] خاثرة حلوة . وأمّا فى الصّيف فسِكباجةٌ حامضة عذبة[٢] . فبلغ به جعفر بن سليمانَ ما قال . وهو الذى يقول فيه أبو فرعون[٣] :

خــلُّوا الطَّريقَ زوجتى أمامى   أنا حميمُ فرج الحجّـــــام[٤]

قال : وبلغ من عدالته ونُبله فى نفسه وتوقّيه ووَرَعه ، أنّ مواليَه من ولد جعفرٍ وكبارَ أهلِ المِربد ، كانوا لا يطمعون أن يُشهدوه إلّا على أمرٍ صَحيح لا اختلاف فيه .

وأمّا الحيقُطان فقالَ قصيدةً تحتجُّ بها اليمانية على قُريش ومضر ، ويحتجُّ بها العجم والحبشُ على العرب ، وكان جريرٌ رآه يومَ عيدٍ فى قميص أبيَض وهو أسود ، فقال :

---

(١) كذا . وفى الحيوان : « فديجبريجة » . وفى كتاب الطبيخ للبغدادى ١٢ « ديكبريكة » . قال : «وصنعتها أن يقطع اللحم وسطاً ، ويترك فى القدر ، ويلقى عليه يسير ملح وكف حمص مقشور ، وكسفرة يابسة ورطبة ، وبصل مقطع ، وكراث ، ويطرح عليه غمره ماء ويغلى ، ثم تؤخذ رغوته ويلقى عليه خل خمر ومرى ، ويلقى فيه فلفل مسحوق ناعما ويطبخ حتى يبين طعمه . ومن الناس من يحليه بقليل سكر » . وقل محققه داود الجلبى آن اسمه مأخوذ من الآرامية ومعناه الديك المبارك .

(٢) السكباج ، ويقال له الخلية ، والمخللة ، والصفصافة ، وهو لحم يعالج بالخل والتوابل ونحوها ويضاف إليه أحيانا الزعفران والسذاب . انظر صنعته فى كتاب الطبيخ للبغدادى ص ٩ — ١٠ ومحاضرات الراغب ١ : ٢٩٢ .

(٣) ذكره الجاحظ أيضا فى الحيوان ٦ : ٧٨ . وذكره ابن النديم فى الفهرست ٢٣٣ فى جماعة من الشعراء المقلين وقال « أبو فرعون الشاشى . ثلاثون ورقة » يعنى أن شعره فى ثلاثين ورقة . وانظر بعض أخباره وشعره فى طبقات الشعراء لابن المعتز ٣٧٦ — ٣٧٩ .

(٤) فى الأصل : « أنا حمام » ، صوابه فى الحيوان ٧ : ٢٦٢ .

كأنه لما بدا للناسِ أيرُ حمارٍ لُفَّ فى قرطاسِ[1]

فلما سمعَ بذلك الحيقطانُ وكان باليمامة ، دخل الى منزله فقال هذا الشعر :

لئن كنتُ جَعدَ الرَّأسِ والجلدُ فاحمٌ
فإنِّى لَسَبْطُ الكفِّ والعرضُ أزهرُ[2]

وإنَّ سوادَ اللَّون ليس بضائرى
إذا كنتُ يومَ الرَّوع بالسَّيف أخطِرُ

فإن كنتَ تبغى الفخرَ فى غير كنهه
فرهطُ النَّجاشى منك فى الناس أفخرُ[3]

٨٠ و

تأبَّى الجُلَنْدَى وابنُ كسرى وحارثٌ
وهَوذةُ والقِبطىُّ والشيخُ قيصرُ

وفاز بها دونَ الملوك سعادةً
فدامَ له الملكُ المنيعُ الموفَّرُ

ولقمان منهم وابنه وابنُ أمِّه
وأبرهةُ المَلْك الذى ليس يُنكَرُ

غزاكم أبو يكسومَ فى أمِّ داركم
وأنتم كقِبْصِ الرَّملِ أو هو أكثرُ[4]

---

(١) لم يرد البيت فى ديوان جرير .

(٢) أزهر : أبيض نقى . (٣) كنه الشىء : حقيقته .

(٤) القبص : العدد الكثير ، يقال : إنهم لفى قبص الحصى . وقال الكميت :

لكم مسجدا الله المزوران والحصى لكم قبصه من بين أثرى وأقترا

وفى الأصل : « فيض » ، تحريف .

وأنتم كطَيرِ الماءِ لمّا هوى لها ببلقعةٍ ، حُجنُ المخالبِ أكدرُ(١)

فلو كان غيرُ الله رامَ دفاعه علمتَ وذو التّجريب بالناس أخبرُ(٢)

وما الفخرُ إلّا أن تبيتوا إزاءه وأنتم قريبٌ ناركم تتسعّرُ

ويَدلُف منكم قائد ذو حفيظة نُكافحه طورًا وطورا يدبّرُ

فأما التى قُلتم فتلكم نُبوّة وليس بكم صُونَ الحرامُ المستّرُ(٣)

وقلتم لَقَاحٌ لا نؤدّى إتاوةً فإعطاء أربانٍ من الفرّ أيسرُ(٤)

ولو كان فيها رغبةٌ لتوّجٍ إذًا لأتتها بالمَقاول حميرُ(٥)

وليس بها مشتًى ولا متصيَّف ولا كجُؤاثَا ماؤها يتفجّرُ(٦)

---

(١) حجن المخالب ، أى حجن مخالبه . و«أل» بدل من الضمير والحجن : جمع أحجن ، وهو المعوج . وفى الأصل : « حجر » تحريف .

(٢) أى هم قوم لايستطيع أحد دفاع فخرهم ومجدهم فأنت لو حاولت هذا الدفاع علمت عاقبة ذلك .

(٣) أى صين البيت الحرام ذو الستور . وصون : لغة فى صين ، وهى لغة بنى فقعس وبنى دبير ، كما فى قوله :

* ليت شبابا بوع فاشتريت *

وقلتم ، لعلها « نلتم » .

(٤) اللقاح ، كسحاب : القوم لم يدينوا للملوك ولم يصبهم فى الجاهلية سباء والأريان ، بالفتح : الخراج والإتاوة . كما فى اللسان (أرى) . وفى ن ، س : « أربان » بالباء ، وليس بشىء ، فإنه بمعنى العربون . وأراد : أيسر من الفر .

(٥) فى الأصل « لانها » بهذا الإهمال . والمقاول : جمع مقول ، بالكسر ، وهو القيل الملك من ملوك حمير .

(٦) جؤاثا ، ويقال جؤاثاء أيضا : حصن لعبد القيس بالبحرين .

ولا مرتعٌ للعين أو متقنَّص ولـكنَّ تَجرًا ، والتجارةُ تُحقَر
ألستَ كُليبيًّا وأمُّك نعجـــةً لـكم فى سِمان الضَّأن عارٌ ومَفخرُ

أما قوله :

تأبَّى الجُلنــدَى وابنُ كسرى وحارثٌ
وهـــــــوذةُ والقبطىّ والشيخُ قَيصرُ

فإنّه يقول : كتبَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم إلى بَنى الجُلندَى[1] فلم يؤْمنوا وكذلك كسرى ، وكذلك الحارث بن أبى شَمِر ، وكذلك هَوذة بن على الحَنَفىّ ، وكذلك المقوقس عظيم القبطِ صاحبُ الإسكندرية ، وكذلك قيصرُ ملك الرُّوم. على أنَّ بنى الجَلَندَى قد أسلموا من بعد ذلك الـكتابِ ، ولـكنَّ النَّجاشىَّ أسلمَ قبل الفتح ، فدام له ملـكُه ونزع الله من هؤلاء النِّعمة . وقيصر إنْ كانَ قد بقى من ملـكه شىءٌ فقد أخرجوه من كلِّ مكانٍ يبلغُه ظِلْفٌ أو حافر ، وصار لا يتمنَّع إلَّا بالخليج وبالعِقاب والحصون[2] وبالشِّتاء والثُّلوج والأمطار . ٨٠ ظ

ونخرَ بلقمان وابنه .

وأمّا قوله :

غـــــــزاكم أبو يكسومَ فى أمِّ داركم
وأنتم كقِبْص الرَّمل أو هـــو أكثر[3]

(١) وكذا ورد فى أصول الحيوان ١ : ٩٨ ، والمعروف أنهما ابنا الجلندى ، ففى السيرة ٩٧١ : « وبعث عمرو بن العاص السهمى إلى جيفر وعياذ ، ابنى الجلندى الأزديين ملـكى عمان . ومثله فى الإصابة ١٣٠٥ .

(٢) العقاب : جمع عقبة وهى الجبل الطويل يعرض للطريق فيأخذ فيه .

(٣) فى الأصل : « كقيض الرمل » . وانظر ماسبق فى حواشى ١٨٣ .

فإنّه يعنى صاحب الفيل حين أتى مكّةَ ليهدم الكعبة . يقول : كنتم فى عدد الرَّمل ، فلِمَ فررتمْ منه ولم يلقَه أحدٌ منكم حتّى أفضى إلى مكّة ، ومكّةُ أمُّ القُرى ، ودارُ العربِ ، هى جزيرةُ العرب ، ومكّة قريةٌ من قراها ، ولكنْ لما كانت أقدَمَها قِدَما ، وأعظمَها خطرًا ، جُعِلت لها أمًّا . ولذلك قيل لفَتح مكّة : فَتْحُ الفُتوح . وعلى مثل ذلك سمِّيت فاتحةُ الكتاب : أمَّ الكتاب .

والعرب قد تجعل الشىء أمَّ مالم يَلِدْ . من ذلك قولهم : ضرَبه على أمِّ رأسه ، وكذلك أمّ الهاوية[١] . والضَّيف يسمى ربّةَ منزلِهِ أمَّ مَثواىَ .

وقال أعرابىٌّ وقد أصابته براغيثُ عند امرأةٍ كان نزل بها[٢] :

يا أمَّ مثواىَ عدِمتُ وجهكِ أنقذَنى ربُّ العُلا من مصركِ
ولذع بُرغوثٍ أراه مُهلِكِى أبيتُ ليلِى دائبَ التحكّكِ[٣]
* تحكّكَ الأجربِ عند المبركِ *

وقد أبان الله تعالى مكةَ والبيتَ حين قال : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ[٤] ﴾ .

---

(١) كذا . وفى الكتاب العزيز : « فأمه هاوية » . وهاوية والهاوية اسم من أسماء جهنم . وقيل معنى فأمه هاوية ، أى أم رأسه تهوى فى النار ، قال ابن برى : لو كانت هاوية اسما علما للنار لم ينصرف .

(٢) الرجز التالى فى الحيوان ٥ : ٣٩١ .

(٣) فى الحيوان : « دائم التحكك » .

(٤) الآية ٩٦ من سورة آل عمران ،

يقول : فإذا غُزِيت ــ وهى أمُّ القرى وفيها البيتُ الحرام الذى هو شرفُكم ــ فقد غُزِى جميعُكم[(١)] .

وأمّا قوله :

وأما التى قُلتم فتلكم نبــوّةٌ   وليس بكم صُونَ الحرامُ المستَّرُ
[وقلتم لَقَاحٌ لا نؤدّى إتاوةً   فإعطاء أريانٍ من الفرِّ أيسرُ[(٢)]]

فاللّقاح : البلد الذى لا يُؤدِّى إلى الملوك الأَريان[(٣)] . والأَريان : هو الخراج ، وهو الإتاوة . وفى ذلك يقول عَبيد بن الأبرص :

أبَوْا دِينَ المُلوك فهــم لَقاحٌ   إذا نُدِبوا إلى حــربٍ أجابوا

قال : فقلتم إنّا لَقاحٌ ولسنا نؤدّى الخراج والأَريان .

٨١ و

قال : فإعطاء الخراج أهونُ من الفِرار وإسلامِ الدار وأنتم مثلُ عددِ مَنْ جاءكم المرارَ الكثيرة .

وأمّا قوله :

وليس بها مَشْتًى ولا متصيَّف   ولا كجُــؤاثا ماؤُها يتفجَّرُ

يقول : ليس فى الغَلَبة على مكّة رغبة ، ولولا ذلك لغزاها أهلُ اليمن وغيرُهم . وليس بها مشتًى ولا متصيَّف ؛ لأنهم يتبرَّدون بالطائف ويتدفَّوْن بجُدّة . وجُؤاثا : عينٌ بالبحرين . وليس بمكّة شىء يدانى ذلك .

---

(١) فى الأصل : « غزا جميعكم » .

(٢) لم يرد هذا البيت فى الأصل ، والكلام التالى يتعلق به .

(٣) انظر ماسبق فى الحاشية الرابعة من ص ١٨٤ . والكلمة واضحة فى الأصل بالياء المثناة .

وقال :

ولا مرتعٌ للعَين أو متقنّص ولـكنَّ تَجراً والتِّجارة تُحقَرُ

يقول : ليس بها متنزَّهات ، وصَيدُها حرام ، وإنَّما بها تُجَّار والتُّجَّار يُحقَرون . يقول : هم عند الناس فى حدِّ الضعف ولا يستجيز ملكٌ أَخْذَ الذى به يتعيَّشون ، ولا يكون ما يُؤخذ منهم يقوم بنوائب الملوك[١] ، وهم قومٌ[٢] ليس عندهم امتناعٌ . ولذلك يقول الشاعر معاوية بن أوس ، وهو جاهلىٌّ :

وزِقٍّ سـبأتُ لدَى متجرٍ أُسَيوِدَ كالرَّجـل الأسحَمِ[٣]

ضربتُ بفِيـــــهِ على نحره وقائمُهُ كـيدِ الأجذَمِ

إلى التَّـاجر العربىِّ الشحيـ ـحِ أو خَمرِ ذى النَّطَف الطِّمطِمِ[٤]

أراد بهذا كلِّه قريشاً[٥] . يقول : هم تُجَّار وقد اعتصموا بالبيت ، وإذا خَرجوا علَّقوا عليهم المُقْل ولحاء الشَّجر[٦] حتَّى يُعرفوا فلا يقتلهم أحد .

---

(١) يعنى حاجاتهم ونفقاتهم . وأصل النائبة ماينوب الإنسان أى ينزل به من المهمات والحوادث .

(٢) هو معاوية بن أوس بن خلف التيمى ، وهو ابن أبى حارثة المرى . ترجم له المرزبانى فى معجمه ٣٩٢ وذكر له أبياتا أخرى من هذه القصيدة .

(٣) وقع فى ن ، س : « ورزق » ، تحريف . والزق : السقاء ، وهو أيضا ماتنقل فيه الخمر . وسبأ الخمر : اشتراها ، أو حملها من بلد إلى آخر .

(٤) الشحيح : البخيل ، يعنى أنه يغالى فى ثمن الخمر . والنطف ، بالتحريك: جمع نطفة وهى القرط . قال الأعشى :

يسعى بها ذو زجاجات له نطف مقلص أسفل السربال معتمل

والطمطم : الأعجمى الذى لايفصح .

(٥) فى الأصل ، و ن ، س : « قريش » .

(٦) أشير فى الأصل إلى أنها فى نسخة « السمر » . هذا وليس فى نص الشعر المتقدم مايقتضى هذا التفسير من تعليق المقل ولحاء الشجر .

وأما قوله :

ألستَ كليبيًا وأمُّك نعجةٌ لكم فى سِمان الضَّأن عارٌ ومفخرُ

فإنّ بنى كُليبٍ يُرمَون بإتيان الضَّأن ، وكذلك بنو الأعرج ، وسُليم . وأشجعُ تُرمَى بإتيان المَعْز .

٨١ ظ

وقال النَّجاشىّ :

ولو شتمتنى من قُريشٍ قبيلةٌ سِوى ناكةِ المِعزى سُليمٌ وأشجعُ

وقال الفرزدق :

ولستُ مضحِّيًا ما دمتُ حيًّا بشاةٍ من حَلوبةِ أعرجىٍّ[1]

فما أدرى إذا أنفقتُ مالى لعلَّ الشاةَ تُبقَر عن صبىٍّ[2]

وقال الآخر :

إذا أحببت أن تُغْلِى أتانًا فدُلَّ الدارمىَّ على شِراها

يُقبِّل ظهرَها ويكاد لولا فُحول الظَّهر يدنو من قفاها

وودَّ الدارِمىُّ لوَ أنَّ فاه إذا نال الحمارةَ نال فاها[3]

وقال عبد بن رشيد :

قبيلةُ سَوءٍ خَيرهم مثلُ شرِّهم ترى منهمُ للضأن فحلاً وراعيا

إذا جُلِيت فيهم عروسٌ لبعلها ترى النَّعجةَ البَقعاءَ أبكى البواكيا[4]

---

(١) البيتان مما لم يرو فى ديوان الفرزدق .

(٢) تبقر : يشق بطنها . وفى الأصل : « تبعر » .

(٣) فى الأصل ، س « الحمار ينال » . وفى ن : « تنال فاها » ، والوجه ماأثبت .

(٤) فى الأصل : « عروسا » .

ولذلك قال الأخطل :

فانعَقْ بضأنك ياجريرُ فإنَّما منَّتكَ نفسُك فى الخَلاء ضلالا[١]

ولذلك قال الحَيقُطان :

ألستَ كليبيًّا وأمُّك نعجةٌ لها فى سِمان الضَّأن عارٌ ومفخرُ

أمَّا العار فالذى شاع عليهم من ذِكر النِّعاج . وأما المفْخر يقول : إذا فَخَروا فخروا بالشَّاء ، ولا يبلغون إلى حدِّ الإبل .

ومن مفاخر السُّودانِ والزَّنج والحبَش مع ما ذكرنا من قصيدة الحيقطان ، أنَّ جرير بن الخطَفَى لمّا هجا بنى تَغلبَ [و[٢]] قال :

لا تَطلُبَنَّ خُؤولةً فى تَغلبٍ فالزَّنجُ أكرمُ منهمُ أخوالا[٣]

غَضِب سَنيح بن رَباح[٤] شار[٥] ، فهجا جريراً ، وفخر عليه بالزَّنج فقال :

ما بالُ كلبٍ من كُليبٍ سبَّنا أن لم يُوازن حاجباً وعِقالا[٦]

---

(١) ديوان الأخطل ٥٠ وابن سلام ٤٢٩ واللسان (نعق) . وفى الأصل « فانعم » ، تحريف .

(٢) ليست فى الأصل .

(٣) ديوان جرير ٤٥٣ والبيان ٤ : ٨٢ والكامل ٥١٤ .

(٤) فى الكامل ٥١٤ : « رياح بن سنيح الزنجى مولى بنى ناجية » . ويقال أيضا رباح بن سبيح، وسبيح بن رباح ، كما فى اللسان (طول) . وقال ابن الأثير فى الكامل ٤ : ١٦١ فى ذكر فتنة الزنج أيام مصعب بن الزبير : « وجعلوا عليهم رجلا اسمه رياح ، ويلقب شيرزنجى ، يعنى أسد الزنج » .

(٥) فى الأصل « سار » ، وإعجامه مما سيأتى . وفى الحيوان ١ : ٢٧٠ : « السارنجى» . وفى ٧ : ٢٠٥ : « الشارزنجى » .

(٦) فى الأصل : « توازن » ، صوابه فى الكامل واللسان . يعنى جريرا =

إنّ امرأً جَعلَ المراغةَ وابنَها مثــلَ الفرزدق جائر قد فالا[1]

والزِّنجُ لو لاقيتَهم فى صفِّهم لاقيتَ ثَمَّ جَحاجحاً أبطالا

فسلِ ابنَ عمرٍو حين رامَ رماحهم أرأى رماح الزِّنج ثَمَّ طِوالا

فجعــوا زياداً بابنِهِ وتنــازلوا لمــا دُعُوا لنَزَالِ ثَمَّ نزالا[2]

ومربِّطين خيولَهم بفِنــائهم وربطتَ حولَكَ شَيَّها وسِخالا[3]

كان ابن نَدبَةَ فيكمُ من نجلنا وخُفافٌ المتحمِّلُ الأثقالا

وابنَا زُبَيبةَ : عَنترٌ وهَراســةٌ ما إن نرى فيكمْ لهم أمثــالا

سَلْ ابنَ جَيفر حين رام بلادنا فرأى بغزوتهم عليه خَبــالا

وسُلَيكٌ اللَّيثُ الهِزَبْرُ إذا عَدا والقَرْمُ عَبّــاسٌ عَلاكَ فَعــالا

هذا ابن خازِمٍ ابنُ عَجْلَى منهمُ غلبَ القبــائلَ نجــدةً ونَوالا

أبنــاء كلِّ نجيبــةٍ لنجيبــةٍ أُسْدٌ تُربِّبُ عنــدَها الأشبالا

فلَنحنُ أنجبُ من كُليبَ خُؤولةً ولَأنت ألأمُ منهم أخــوالا

وبنو الحُبَابِ مَطَاعن ومَطاعم عند الشِّتاء إذا تَهبُّ شَمَالا[4]

٨٢ و

= وجاء فى قول الأخطل (ديوانه ٥٠ وابن سلام ٤٢٩) مخاطباً لجرير :

منتك نفسك أن تــكون كدارم أو أن توازن حاجباً وعقالا

وحاجب هو حاجب بن زرارة بن عدس بن زيد بن عبــد الله بن دارم ، من رهط الفرزدق ، وكثيراً ما افتخر به . وأما عقال فهو جد الفرزدق ، فإن اسمه همام ابن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم .

(١) المراغة : الأتان ، وهو لقب لقبها به الفرزدق ، كما فى القاموس . فال ، بالفاء : أخطأ رأيه وضعف . وفى الأصل : « قالا » تصحيف .

(٢) زياد ، هو والد حفص بن زياد بن عمرو .

(٣) الشيه ، كسيد : جمع شاة . وفى الأصل : « اشا ا » تحريف .

(٤) فى الأصل : « الحتات » ، ولــكن تعقيب الجاحظ فيما بعد ، يعين أنه « الحباب » .

أما ابن عمرٍو الذى ذَكَرَ ، فهو حَفْص بن زياد بن عمرٍو العَتَكىّ ، كان خليفةَ أبيه على شُرطة الحجاج ، فغَلبَ رَباح شَار الزِّنجى[1] على الفُرات ، فتوجَّه إليه حفص بن زيادٍ فقتلَه رَباحٌ وقتلَ أصحابه واستباح عسكره .

وأمّا ابنُ جيفر فهو النُّعمان بن جَيفر بن عُباد بن جَيفر بن الجُلَندى . كان غزا بلادَ الزِّنج فقتلُوهُ وغَنِموا عسكره .

ثم ذكر أبناء الزِّنجيات حين نَزَعوا إلى الزِّنج فى البَسالة والأنفة[2] . فذكر خُفافَ بن نَدَبة ، وعبَّاسَ بن مِرداس ، وابنَىْ شدّادٍ : عنترةَ الفوارسِ وأخاه هَرَاسة ، وسُليكَ بن السُّلَكة . فهؤلاء أُسدُ الرجال ، وأشدُّهم قلوباً وأشجعهم بأساً ، وبهم يُضرب المثل .

ومنهم: عبدالله بن خازمٍ السُّلَمى، وبنو الحُباب : عُمير بن الحُبابِ وإخوتُه[3] .

وكان أيضاً منهم : الجَحَّاف بن حَكيم[4] . ٨٢ ظ

وهم أيضاً يفخرون برَبَاحٍ أخى بلال وحاله وصلاحِه .

ويفخرون بعامر بن فُهيرة[5] ، بدرىٌّ استُشهِد يومَ بئر مَعُونة ، فرآه الناسُ قد رفعه اللهُ بين السَّماء والأرض ، فليس له فى الأرض قبر .

---

(١) انظر ما سبق فى حواشى ص ١٩٠ .

(٢) فى الأصل : « فى الأصالة والأنفس » ، والوجه ما أثبت .

(٣) انظر الاشتقاق ٣٠٨ ، ٣٣٩ . وجمهرة ابن حزم ٣٦٤ ، ٣٠٥ .

(٤) الاشتقاق ٣٠٨ ، وجمهرة ابن حزم ٢٦٤ .

(٥) كان مولى لأبى بكر الصديق ، ولذا جاء فى نسبته التيمى . انظر الإصابة ٤٤٠٨ ، وقال ابن هشام : عامر بن فهيرة مولى من موالى الأسد ، أسود ، اشتراه أبو بكر رضى الله عنه منهم . السيرة ١٦٤ . فكأنه أزدى وتيمى .

ومنهم : آلُ ياسر[1] .

قالوا : ومنّا الغُدَاف صاحبُ عُبَيد الله بن الحُرّ . لم يكنْ فى الأرض أشدُّ منه : كان يَقطع على القافلةِ وَحدَه بما فيها من الحُمَاة والخُفَراء .

وكَعبَويهِ صاحب المُغيرة بن الفِزْر ، كان مثلاً فى الشَّجاعة .

ويقولون : ومِنّا مرْبح الأشرم ، غلام أبى بحرٍ القائد ، الذى كان قدِم من الشام أيامَ قُتيبةَ بن مسلم ، وكان لا يُرام لقاؤه ، وأمره مشهور .

قالوا : ومنا المنلول وبَنوه ، وهم من الخَول ، ليس فى الأرض أعرْفُ[2] ولا أثقف ولا أعلمُ بالبادية منهم .

قالوا : ومنّا أفلح ، الذى قطع على القوافل بخُراسان وحده عشرين سنة .

قالوا : وإنّما قتلَه مالك بن الرَّيب ، لأنّه وطئه فى جوف اللّيل وهو سكرانُ خاثر[3] . والشاهد على قولنا قولُ ابنه :

أمَالِكُ لولا السُّـــــكر أيقنتَ أنَّه
أخُو الوَرد أو يُربِى على الأسَـد الوَردِ[4]

قالوا : ونحن قد ملـكنا بلادَ العرب من لَدُن الحَبَشة إلى مكّة ،

---

(١) كان منهم عمـار بن ياسر حليف بنى مخزوم . وكانت أم عمار مولاة لهم يقال لها سمية . الإصابة ٥٦٩٩ .

(٢) فى الأصل : « أشرف » .

(٣) يقال هو خاثر النفس ، أى ثقيلها غير طيب ولا نشيط ، وذلك من أثر الخمار . فى الأصل وسائر النسخ : « حاسر » والوجه ماأثبت .

(٤) الورد : مالونه الوردة بالضم ، وهى حمرة تضرب إلى صفرة حسنة .

وجَرَتْ[١] أحكامُنا فى ذلك أجمع . وهزمْنا ذا نُوَاسٍ ، وقتلْنا أقيالَ حمير . وأنتم لم تملكوا بلادنا . وقد قال شاعركم :

وخـــــرّب غُمدانًا وهـــدّم سَقفَه
رِبَاطٌ بأجنادٍ وصولتُـــــــهُ هَصْرُ[٢]

أطافت به الأُحبـــوش ليلًا فقوّضوا
بِنًا شدَّهُ الأقيـــالُ فى سالفِ الدَّهرِ[٣]

بجَمعٍ من اليكسومِ سُـــودٍ كأنّهم
أُسودُ الشَّرَى اجتابتْ جلودًا من النُّمرِ[٤]

قالوا : ومنا كباجلا ، لم يصعد نهر سليمان ولا قاتلَ فى المخارجات[٥] أحدٌ قطُّ يشبهُه .

---

(١) ن ، س : « ومرت » .

(٢) رياط ، يعنى به أرياط الحبشى . وفى السيرة ٢٦ : « وبينون وسلحين وغمدان من حصون اليمن التى هدم أرياط ، ولم يكن فى الناس مثلها » . وانظر الإكليل للهمدانى ٨ : ٣٩٥ . وفى الأصل وسائر النسخ : « رباط » ، تحريف . وفى البيت إقواء ظاهر .

(٣) الأحبوش : الحبش . والبنا : مقصور البناء . وفى ن ، س : « بنا شدة » تحريف .

(٤) اليكسوم ، أراد بهم الحبشة . والأصل فى ذلك كنية أبرهة الأشرم ، إذ كان يكنى أبا يكسوم ، ويكسوم اسم ابنه كما فى التنبيه والإشراف ص ٢٢٦ والسيرة ٤٢ . وفى ذلك يقول لبيد ، وهو يعنى أبرهة ، كما فى اللسان (كسم) :

لو كان حى فى الحياد مخلدا   فى الدهر ألفاه أبو يكسوم

(٥) يعنى بها المبارزات ، وهو أن يخرج كل من الفارسين لصاحبه فيبارزه .

قالوا : ومنّا الأربعون الذين خَرجوا بالفُرات أيّام سَوّار بن عبد الله القاضى ، فأجلَوْا أهلَ الفُرات عن منازلهم، وقتلوا من أهل الأُبُلّة مقتلةً عظيمة . ٨٣ و

قالوا : ومنّا الذى ضربَ عنقَ عيسى بن جعفر بعُمَان ، بمنجلٍ بَحرانىّ[١] ، بعدَ أن لم يَجسُر عليه أحد .

قالوا : والناسُ مجمِعون على أنّه ليس فى الأرض أمّةٌ السّخاء فيها أعمُّ ، وعليها أغلب من الزّنج . وهاتان الخَلّتانِ لم تُوجدا قطُّ إلّا فى كريم .

وهى أطبع الخَلْق على الرّقص الموقّع الموزون ، والضّرب بالطّبل على الإيقاع الموزون ، من غير تأديبٍ ولا تعليم .

وليس فى الأرض أحسنُ حُلوقًا منهم . وليس فى الأرض لغةٌ أخفُّ على اللّسان من لغتهم ، ولا فى الأرض قومٌ أذْربُ ألسنةً ، ولا أقلُّ تمطيطًا منهم .

وليس فى الأرض قومٌ إلّا وأنت تصيب فيهم الأرَتَّ والفَأفاء والعَيِيّ[٢]، ومَن فى لسانه حُبسة ، غيرهم .

والرجل منهم يخُطُب عنـد الملِك بالزّنج من لدنْ طلوع الشّمس إلى غروبها ، فلا يستعينُ بالتفاتةٍ ولا بسَكتةٍ حتّى يفرغ من كلامه .

وليس فى الأرض أمّةٌ فى شِدّة الأبدان وقُوّة الأسرِ أعمُّ منهم فيهما[٣] . وإنّ الرّجلَ لَيرفعُ الحجرَ الثّقيل الذى تَعجِز عنه الجماعة من الأعراب وغيرهم. وهم شجعاء أشداء الأبدان أسخياء . وهذه هى خصال الشرف .

---

(١) البحرانى : نسبة إلى البحرين .

(٢) الأرت : الذى فى لسانه عقدة وحبسة ، يعجل فى كلامه فلا يطاوعه لسانه .

(٣) فى الأصل : « فيها » .

[والزنجى[1]] مع حُسن الخلق وقلّة الأذى ، لا تراه أبدًا إلّا طيّب النفس ، ضَحوكَ السّنّ ، حسنَ الظّنّ . وهذا هو الشرف .

وقد قال ناسٌ : إنّهم صاروا أسخياء لضعف عُقولهم ، ولقصر رَويّاتهم ، ولجهلهم بالعواقب .

فقلنا لهم : بئس ما أثنيتم على السّخاء والأَثَرة ، وينبغى فى هذا القياس أن يكونَ أوفرُ النّاسِ عقلًا وأكثرُ النّاس علمًا أبخَلَ النّاس بُخلًا وأقلَّهم خيرا .

وقد رأينا الصّقالبةَ أبخَلَ من الرّوم ، والرّوم أبعد رويّةً وأشدُّ عقولا . وعلى قياس قولكم أنْ قد كان ينبغى أن تكون الصّقالبةُ أسخَى أنفُسًا وأسمحَ أكُفًّا منهم .

وقد رأينا النّساء أضعفَ من الرّجال عُقولًا ، والصّبيانَ أضعفَ عقولا منهم ، وهم أبخَل من النّساء ، والنّساء أضعفُ عقولًا من الرجال . ولو كان العقل كلّما كان أشدَّ كان صاحبُه أبخل ، كان ينبغى أن يكون الصبىُّ أكرمَ الناس خصالًا[2] . ولا نعلم فى الأرض شرًّا من صبىّ[3] : هو أكذبُ النّاسِ وأنمُّ النّاسِ ، وأشرهُ النّاسِ وأبخَل النّاس ، وأقلُّ الناس خيرًا وأقسى الناسِ قَسوة .

وإنّما يخرج الصبىُّ من هذه الخلال أوّلًا فأوّلًا ، على قدر ما يزداد من العقل فيزداد من الأفعال الجميلة .

(١) ليست فى الأصل .

(٢) ن : « خصلا » خلافا لما فى الأصل .

(٣) انظر البيان ١ : ٢٤٧ والحيوان ٣ : ٤٧١ .

فكيف صار قلّةُ العقل هو سببَ سخاء الزِّنج ، وقد أقررتم لهم بالسَّخاء ثم ادَّعيتم ما لا يُعرف . وقد وقَّفناكم على إدحاض حجتكم فى ذلك بالقياس الصَّحيح .

وهذا القول يوجب أن يكون الجبانُ أعقلَ من الشُّجاع ، والغادر أعقلَ من الوفىّ . وينبغى أن يكونَ الجزوعُ أعقلَ من الصَّبور . فهذا ما لا حُجَّةَ فيه لكم ، بل ذلك هبةٌ فى النّاس من الله . والعقلُ هبةٌ ، وحسن الُخلق هِبة ، والسَّخاء والشجاعة كذلك .

وقد قالت الزِّنج للعرب : من جهلكم أنّكم رأيتمونا لكم أكفاء فى الجاهلية فى نسائكم ، فلمَّا جاء عَدلُ الإسلام رأيتُم ذلك فاسداً ، و [ما[1]] بنا الرَّغبة عنكم[2] . مع أنَّ الباديةَ منَّا ملأى[3] مِمَّن قد تزوَّج ورأس وساد ، ومَنَع الذِّمار ، وكَنَفكم من العدوّ .

قال : وقد ضَربتُم بنا الأمثالَ وعظَّمتم أمرَ ملوكنا ، وقدَّمتموهم فى كثيرٍ من المواضع على ملوكِكم . ولو لم ترَوُا الفضلَ لنا فى ذلك عليكم لَمَا فعلتم .

وقال النَّمِر بن تولب :

أَبِى مَلكَه ما أتَى تُبَّعًا وأبرهــةَ الملكَ الأعظما[4]

فرفَعه على ملوك قومه .

---

(١) ليست فى الأصل .

(٢) فى ن : « وبنا الرغبة عنكم » ، وفى س : « ونبت الرغبة عنا » .

(٣) فى الأصل و ن : « ملاء » ، والوجه ماأثبت مطابقا لتصرف ناشر س .

(٤) العينى ١ : ٥٧٥ وشرح شواهد المغنى للسيوطى ٧٦ والخزانة ٤ : ٤٣٨ . ويروى : « فأدركه » .

وقال لبيد بن ربيعة :

لو كان حيٌّ فى الحيــاة مخلَّدًا فى الدَّهر أدركَه أبو يــكسُومِ[١]

وهذا شىءٌ من وصف الفضل لم يوصف أحدٌ بمثله .

قالوا : وممـا[٢] قدَّمتم به ملوكَنا على ملوكِكم قوله[٣] :

٨٤ و غَلبَ الليالى خلفَ آلِ مُحرِّق وكما فعلنَ بتُبَّعٍ وبهـــرْقَلِ

وغلبنَ أبرهة الذى ألفيتَـــه قد كان خُلِّد فوق غُرْفةِ مَوْكلِ[٤]

فقدَّم أبرهة وأراد التَّسوية[٥] .

قالوا : ومن الحَبَشة عُــكَيمٌ الحبشىّ[٦] ، وكان أفصح من العجَّاج . وكان علماء أهلِ الشام يأخذون عنه كما أخذَ علماء أهل العراق من المنتجع بن نَبْهان . وكان المنتجعُ سِنديًّا فى أذنه خُرْبة[٧] ، وقع إلى البادية وهو صبيٌّ ، فخرجَ أفصحَ من رُؤْبة .

---

(١) أبو يكسوم : كنية أبرهة الأشرم الحبشى . انظر ماسبق فى حواشى ص ١٩٤ ديوان لبيد ٨٣ . أدركه أى أدرك التخليد .

(٢) فى الأصل : « وما » .

(٣) يعنى قول لبيد . انظر ديوانه والإكليل ٨ : ١٠٨ ، ٢١٦ والتيجان ٧٦ . وفى الأصل : « قولكم » ، تحريف

(٤) موكل ، كمرحب : موضع باليمن ، كما فى معجم البلدان . وانظر صفته فى الإكليل ٨ : ١٠٦ .

(٥) يعنى التسوية بين العرب والعجم . وبعد البيت :

والحارث الحراب أمسى قاطنا دارا أقام بها ولم يتحلحل

(٦) انظر القاموس (عكم) .

(٧) انظر ماسبق فى ص ١٧٧

ولما[١] قال حَكيم بن عيّاشٍ الكلبيّ[٢] :

لاتفخرَنَّ بخالٍ من بنى أسد فإنَّ أكرمَ منها الزِّنج والنُّوبُ

اعترضَ عليه[٣] عُكَيمٌ الحبشىّ ، فقال :

ويوم غُمْدانَ كنَّا الأُسدَ قد علموا
ويومَ يثرِبَ كنَّا فِحْلةَ العربِ
وليلةَ الفيل إذْ طارت قلوبهمُ
وكلُّهم هاربٌ مُوفٍ على قَتبِ
منّا النَّجاشِى وذو العقصين صهركمُ
وجدٌّ أبرهةَ الحامى أبى طَلَبِ[٤]
هَبْنى غفرتُ لعدنان تَهكُّمهمْ
فَمَا لحميرَ والمقوال فى النسب
حَمَّارة جُمعت من كلِّ محربةٍ
جَمْعَ الشُّبيكة نُونَ الزَّاخر اللَّجِبِ[٥]

---

(١) فى الأصل : « فلما » .

(٢) ترجم له ياقوت فى معجمه ١٠ : ٢٤٧ وذكر أنه كان بينه وبين الكميت ابن زيد الأسدى مفاخرة

(٣) اعترض عليه . . دخل معه فى الشعر متمما ماقاله .

(٤) ذو العقصين . يعنى به الإسكندر المقدونى الملقب بذى القرنين ، كان له فى رأسه شبه قرنين ، أى عقصتين . والعقص : ضرب من ضفر الشعر . وكان الروم أصهارا للعرب .

(٥) سيأتى فى تفسير الجاحظ أن حمير كانت حمارة . ومحربه ، كذا وردت فى الأصل ، وستأتى فى ص ٢٠٢ باسم « محزوة » والنون : السمك ، واحدته نونة . وهو الحوت أيضا

غُمدان : حصنٌ كانَ ينزلهُ الملكُ الذى يكون على اليَمن ، وكان عجَبًا ، فلما ملكت الحبشةُ اليمنَ أخربَتْه إلّا بقايا هدمَها عثمان بنُ عفّانَ رضى الله عنه فى الإسلام . وقال : « ينبغى لمآثر الجاهليّة أن تُمحَى » . وكان فى الحصن مَصنعةٌ عليها قُبةٌ من طَلْق، وفيها يقول خلفٌ الأحمر :

ومَصنعة الطِّلْق أودَى بهــا عَوادى الأحايش بالصَّيدنِ [1]

وفيها يقول قُدامة حكيمُ المشرق [2] ، وكان صاحبَ كيمياء :

فأوقد فيهــا نارَه ولوَ أنَّها أقامت كعمر الدهر لم تتصرَّمِ

٨٤ ظ لأنَّ الطِّلْق لو أُوقِدَ عليه ألفَ عامٍ لم يسخُن . وبه يتطلَّى النَّفَّاطُون إذا أرادوا الدُّخول فى النار .

وقال لبيد :

أصاحِ ترَى بُرِيقًا هبَّ وهنًـا كمِصباح الشَّـعِيلة فى الذُّبالِ
أرِقتُ له وأنجدَ بعــد هَدء وأصحــابى على شُعَب الرِّحال
يُضىء رَبابُه فى المزن حُبشًــا قياماً بالحِــراب وبالإلالِ [3]

---

(١) المصنعة : شبه صهريج يتخذ للماء . والطلق ، بالكسر وبالفتح : حجر براق يتشظى صفائح إذا دق . والصيدن : الملك . قال رؤبة :

إنى إذا استغلق باب الصيدن لم أنسه إذ قلتَ يوما وصنى

(٢) فى الأصل وسائر النسخ : «قدامة بن حكيم المشرقى » ، وأثبت مافى الحيوان ٥ : ٩٥ . وقد يكون قدامة هذا جدا لقدامة بن جعفر بن قدامة .

(٣) فى الأصل : « رباوة » تحريف ، صوابه فى ديوان لبيد ١٢٤ . والرباب : السحاب الذى تراه كأنه متدل ، كأنه أعناق النعام . والإلال : جمع أَلَّة ، وهى الحربة . وفى الأصل : « وباللآلى » ، صوابه فى الديوان .

وقال ذلك لبيدٌ لأنَّهم إذا أقبلوا بحرابهم ورماحهم وقِسِيِّهم وسيوفهم ، وراياتهم ، وخيولهم وفيولهم ، مع سَواد ألوانهم وضِخَم أبدانهم ـ رأيتَ هَوْلًا لم ترَ مثلَه ولم تسمعْ به ، ولم تتوهَّمْه .

وأمّا قوله :

* ويومَ يثربَ كنَّا فِحلةَ العربِ *

فإنَّ مُسرفَ بن عُقْبة المرّىَّ[1] ، حين كان أباحَ المدينَة ، زعموا أنَّه قد كان هناك أمرٌ قبيحٌ من السودان والجند ، وفى ذلك يقول شاعر من شعراء مُضر :

فسائلْ مُسرفَ المُـرِّىَّ عنكم غداةَ أباحَ للجند العَـذارِى[2]
فـازَجَـكم على حَنَـق زنوجٌ وفَزَّ الشّامُ كالأُسد الضَّوارى[3]
ودَافَعَ وَهْرِزٌ والفـرسُ عنكم ورأسُ الحُبْش يحكُم فى ذَمار[4]
فأفسدَ نسلَكم بسوادِ لونٍ وأيرٍ مثلِ غُرمولِ الحمـارِ

(١) مسرف لقب له ، لقب به لما كان من إسرافه فى سفك الدماء وانتهاك حرمة المدينة وانتهابها فى وقعة الحرة سنة ٦٣ حين بعثه بجيش إلى المدينة يزيد بن معاوية وأمره بهتك حرمتها . واسمه مسلم بن عقبة ، وبهذه الصورة ورد فى البيان ٢ : ١٣١ . وانظر الطبرى ٧ : ٥ — ١٢ والنجوم الزاهرة ١ : ١٦٠ — ١٦٢ . توفى مسرف أو مسلم سنة ٦٤ . وذكر الذهبى أنه أدرك النبى صلى الله عليه وسلم .

(٢) فى النجوم الزاهرة أنه قد افتض فى وقعة الحرة ألف عذراء . والعذارى بكسر الراء ، كما يقتضيه الشعر ، وهى لغة فى جمع عذراء ، ومثلها العذارى بفتح الراء .

(٣) فز الرجل يفز فزازة وفزوزة : توقد .

(٤) وهرز : قائد فارسى أرسله كسرى أنو شروان مع سيف بن ذى يزن الحميرى ، منجدا له على الحبشة حين غلبت على اليمن . وذمار ، كقطام وسحاب : بلد باليمن على مرحلتين من صنعاء .

فذكر إباحةَ الحَبَش لليمن كما ذكر إباحةَ مسرفٍ للمدينة .

وأمّا قوله :

حَمَّارة جُمعت من كلِّ محـزوة جمع الشُّبيكة نون الزاخر اللَّجبِ[1]

فإنه ذهبَ إلى ما تقول الرُّواة أنَّ حِميرَ كانت حَمَّارة .

وأمّا الشُّبيكة فأراد الشبكة .

وقال السُّودان : فهذا الفضلُ فينا ، ولم يصلِّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم قطُّ إلّا على جِنازةٍ أو قَبر ، إلّا النّجاشيّ فإنّه صلَّى عليه وهو بالمدينة وقبرُ النَّجاشيّ بالحبشة .

قالوا : والنجاشيُّ هو كان زوَّجَ أمَّ حَبيبة بنتَ أبى سفيان من النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، ودعا خالدَ بن سعيدٍ[2] فجعله وليَّها ، وأصدقَ عن النبيِّ صلّى الله عليه وسلّم أربعَمائة دينار[3] . ٨٥ و

قالوا : وثلاثة أشياء جاءتـكم مِنْ قِبَلنا . منها الغاليةُ ، وهى أطيبُ الطِّيب وأفخرُه وأكرمُه . ومنها النَّعْش وهو أسترُ للنِّساء وأصْوَنُ للحُرَم . ومنها المصحف ، وهو أوقَى لما فيه وأحصَنُ له ، وأبهى وأهيأ .

---

(١) فى الأصل : « خمارة » : وكذا فى التفسير بعده . انظر ما سبق فى ص ١٩٩ .

(٢) هو خالد بن سعيد بن العاصى ، رابع المسلمين أو خامسهم ، بعثه رسول الله إلى ملك الحبشة فى رهط من قريش . السيرة ٢٠٩ والإصابة ٢١٦٣ .

(٣) كانت أم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب ـ واسمها رملة ـ زوجاً لعبيد الله ابن جحش ، ولدت منه حبيبة وهاجرت معه إلى الحبشة ، فتنصر زوجها عبيد الله =

قالوا : ونحن أهوَلُ فى الصُّدور وأملا للعيون ، كما أنَّ المسوَّدة أهْوَلُ فى العُيون وأملا للصُّدور من المبيِّضة[1] ، وكما أنَّ الليلَ أهولُ من النهار .

قالوا : والسَّوادُ أبداً أهول . وإنَّ العربَ لَتَصِفُ الإبل فتقول : الصُّهب سُرع ، والحُمْر غُزْر ، والسُّود بُهْى[2] . فهذا فى الإبل .

قالوا : ودُهم الخَيل أبهى وأقوى ، والبَقَر السُّود أحسَنُ وأبهى ، وجلودُها أثمن وأنفع وأبقى . والحُمُر السُّود أثمَنُ وأحسَنُ وأقوى . وسُود الشَّاءِ أدسَمُ ألباناً وأكثَر زُبداً، والدُّبْس أغْزر من الحُمْر[3] .

وكلُّ جَبلٍ وكلُّ حجرٍ إذا كانَ أسودَ كان أصلبَ صلابةً وأشدَّ يُبوسة . والأَسَد الأسود لا يقوم له شيء .

وليس من التَّمر شىءٌ أحلى حلاوةً من الأسْوَد ، ولا أعمَّ منفعة ولا أبقى على الدَّهر . والنَّخيل أقوى ما تكونُ إذا كانت سُودَ الجذوع .

= وارتد عن الإسلام . فبعث فيها رسول الله إلى النجاشى عمرو بن أمية الضمرى فخطبها عليه النجاشى . الإصابة ٤٣٢ من قسم النساء والسيرة ١٤٤ ، ٨٨٣ .

(١) كان السواد شعار العباسيين السياسى ، وقد بدأ التسويد فى سنة ١٢٩ أى قبل قيام الدولة العباسية بثلاث سنوات . الطبرى ٩ : ٨٢ . وفى سنة ٢٠٢ جعل المأمون على بن موسى بن جعفر ولى عهده وأمر جنده وأصحابه بطرح السواد ولبس الخضرة فى الأقبية والقلانس والأعلام . الطبرى ١٠ : ٢٤٣ . وكان هذا الأمر من أسباب الثورة على المأمون والانقسام فى طوائف الموالين للعباسيين . وفى تلك السنة أيضاً وثب أخو أبى السرايا بالكوفة فبيض ، فهم المبيضة . الطبرى ١٠ : ٢٤٥ . ومن المبيضة أيضاً أصحاب المقنع الكندى انظر صحاح الجوهرى (بيض) .

(٢) انظر مثل هذا القول لحنيف الحناتم ، وكان من آبل الناس أى أحذقهم برعية الإبل . فى اللسان (بها ١٠٧) .

(٣) الدبس : جمع أدبس ودبساء ، وهو مالونه الدبسة : حمرة مشربة سوادا .

وجاء : « عليكم بالسَّوادِ الأعظَم[١] » . وقال الأنصارىّ :

أَدِينُ وما دَينى علىَّ بمَغْـــــرَمٍ
ولـكنْ على الشُّمِّ الطِّوال القَــراوحِ[٢]

على كلِّ خَــــوّارٍ كأنَّ جذوعَهـا
طُلِينَ بقـارٍ أو بدمٍ ذبائحِ[٤]

قالوا : وأحسَنُ[٥] الخُضرة ماضارَع السَّواد . قال الله جلّ وعلا : ﴿ ومِن دُونِهما جَنّتانِ[٦] ﴾ ، ثم قال لمّا وصَفَهما وشوّق إليهما : ﴿ مُدهامَّتانِ[٧] ﴾ قال ابن عباس : خَضراوانِ من الرّىّ سوْدَاوان .

وليس فى الأرض عودٌ أحسنَ خَشباً ولا أغلى ثمنًا ، ولا أثقلَ وزناً ولا أسلمَ من القَوادح[٨] ، ولا أجدرَ أن ينشَب فيه الخطُّ من الآبنوس[٩] . ولقد بلغ من اكتنازه والتئامه ومُلوسته وشدّة تداخُلِه ، أنّه يرسُب فى الماء

(١) فى اللسان (سود ٢١١) . « وفى الحديث : إذا رأيتم الاختلاف فعليكم بالسواد الأعظم » .

(٢) وكذا فى اللسان (خور) : وهو سويد بن الصامت الصحابى الجليل . انظر اللآلىء ٣٦١ والاقتضاب ٣٧٥ واللسان (قرح) والإصابة ٣٥٩٢ .

(٣) الشم : العاليات ، يعنى النخل . والقراوح : جمع قرواح ، وهو الأجرد الذى قد شذب كربه .

(٤) فى اللسان : « ونخلة خوارة : غزيرة الحمل » . ويروى : « أو بحمأة مائح » .

(٥) فى الأصل : « وحسن » .

(٦) الآية ٦٢ من سورة الرحمن . (٧) الآية ٦٤ من سورة الرحمن .

(٨) جمع قادح ، وهو أكال يقع فى الشجرة أو تصدع .

(٩) الآبنوس ، بضم الباء وكسرها : شجر ينبت فى الحبشة والهند ، خشبه أسود صلب . دخيل انظر المعجم الوسيط .

دونَ جميعِ العِيدان والخَشب . ولقد غَلب بذلك بعضَ الحجارة ؛ إذْ صار يرسُب وذلك الحجرُ لا يرسُب .

والإنسانُ أحسنُ ما يكون فى العَين مادام أسودَ الشعر . وكذلك شعورُهم فى الجنّة .

٨٥ ظ

وأكرمُ ما فى الإنسان حَدَقتاه ؛ وهما سوْداوان . وأكرم الأكحال الإثمِد ، وهو أسود . ولذلك جاء أنَّ الله يُدخل جميعَ المؤمنين الجنة جُردًا مُردًا مكحَّلين .

وأنفع ما فى الإنسان له كبدُه التى بها تَصلُح مَعِدته ، وينهضِم طعامُه ، وبصلاح ذلك قامَ بدنُه ؛ والكبدُ سوداء .

وأنفسُ ما فى الإنسان وأعزُّه سَويداء قلبه ، وهى عَلَقةٌ سوداء تكون فى جوف فؤاده ، تقوم فى القَلب مقامَ الدِّماغ من الرأس .

ومن أطيب ما فى المرأة وأشهاه شَفَتاها للتقبيل ، وأحسن ما يكونان إذا ضارعتَا السَّواد .

وقال ذو الرُّمَّة :

لَمياء فى شَفَتيها حُوَّةٌ لَعَسٌ وفى اللِّثاتِ وفى أنيابها شَنَبُ[1]

وأطيبُ الظِّلِّ وأبردُه ما كانَ أسود . وقال الراجز :

* سود غرابيب كأظلالِ الحجرْ *

(١) ديوان ذى الرمة ٥ واللسان (شنب) .

وقال حُميد بن ثور[١] :

ظَلِلنـــا إلى كهفٍ وظَلَّت ركابُنا
إلى مستكِفّاتٍ لهــنَّ غروبُ

إلى شــجرٍ ألمى الظِّلالِ كأنّه
رواهبُ أحرَمْنَ الشَّرابَ عُــذوبُ[٢]

وجعل الله اللَّيلَ سكناً وجَماما ، والنَّهارَ للـكسب والـكدّ .

والذى يدلُّ على أنّ السّوادَ فى وجهٍ آخرَ مقرونٌ بالشدّة والصَّرامة ، والهَيْج والحركة ، انتشار الحيّاتِ والعقارب وشدّةُ سُمومها باللَّيل ، وهَيجُ السِّباع واستكلابُها باللَّيـل . وتحرُّك الأوجاعِ وظهورُ الغِيلان ، هذه كلُّها بالليل .

قال : وأشبْهنا اللَّيلَ من هذا الوجه .

قالوا : وأبلغ ما تـكون القائلةُ وأشفاها للنَّفس ، وأسرع لمجيئها إذا أردتَها ، وأبطأ لذهابها إذا كرهتها ، ما كان منها فى الظُّلمة ، عند إسبال السُّتور وإغلاق الأبواب .

قالوا : وليس لونٌ أرسخَ فى جوهره وأثبتَ فى حُسنه من سَواد .

وقد جرى المَثَل فى تبعيد الشىء : « لا تَرى ذلك حتَّى يبيضَّ القار ، وحتّى يَشِيبَ الغُراب[٣] » .

---

(١) فى ديوانه ٥٧ واللسان (كفف ، حرم ، لما) والحيوان ٥ : ٥٩٤ .
(٢) عذوب : جمع عاذب ، وهو الذى لا يأكل ولا يشرب .
(٣) الحيوان ٥ : ٥٢٨ .

وهو العَرَض المَلاَّء[1] عند الحكماء .

وأكرمُ العِطر المِسك والعَنبر ، وهما أسودان .

٨٦ و وأصلبُ الأحجارِ سُودها . وقال أبو دَهبلٍ الجمحيُّ يمدح الأزرقَ المخزوميَّ ، وهو عبد الله بن عبد شمس بن المغيرة[2] :

فإنَّ شكرك عندى لا انقضاء له ... مادامَ بالجَزْع من لُبنانَ جُلمودُ
أنت المَدَّحُ والمُغلَى بهِ ثمناً ... إذْ لايعاتب صخرُ الجَندلِ السُّودُ[3]

والعرب تَفخر بسواد اللَّون . فإنْ قال : فَعلامَ ذلك وهى تقول : فلانٌ هِجانٌ ، وأزهرُ وأبيض ، وأغرُّ ؟ قلنا : ليس تريد بهذا بياضَ الجلد ، إنَّما تريد به كرمَ الجوهر ونَقاءه . وقد فخرَتْ خُضر محاربٍ بأنَّها سُود ، والسُّود عند العرب الخُضْر[4] . وقال الشَّماخ بن ضرار :

وراحتْ رَوَاحًا من زَرُودَ فنازعَتْ
زُبالةَ جِلباباً من اللَّيـــل أخضرَا[5]

---

(١) فى الأصل : « الملاه » ، صوابه من تصحيح ن ، س .

(٢) فى جمهرة ابن حزم ١٤٨ — ١٤٩ أنه عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله ابن الوليد بن عبد شمس بن المغيرة. ونحوه فى الشعراء ٥٩٦. وسماه فى الأغانى ٦ : ١٥٧ «ابن الأزرق» ، وهو عنده عبد الله بن عبد الرحمن بن الوليد بن عبد شمس بن المغيرة .

(٣) كذا . وفى الأغانى ٦ : ١٥٨ : « إذ لا تمدح صم الجندل » .

(٤) الحيوان ٣ : ٢٤٧ .

(٥) ديوان الشماخ ٣١ والحيوان ٣ : ٢٤٦

وقال الراجز :

حتَّى انتضانِي الصُّبح من ليـــلٍ خَضِرْ

مثـــلَ انتضاءِ البطل السيفَ الذَّكَرْ[(١)]

وهم يسمُّون الحديدَ أخضر لأنه صُلب[(٢)] ؛ لأن الأخضر أسود[(٣)] .

وقال الحارث بن حِلِّزَة :

إذْ رفَعنا الجمالَ من سَعَف البحـ ـرينِ سيراً حتّى نَهاها الحِساء

فهزمنا جمـــعَ ابنَ أمٍّ قَطَام وله فارســـيّةٌ خضراء[(٤)]

وقال المُحاربيّ وهو يفخر بأنَّه من الخُضْر :

فى خُضر قيسٍ نمانى كلُّ ذى فَخَـــرٍ

صعبِ المقـــــادة آبى الضَّيم شعشاعِ

وبنو المغيرة خُضْر بنى مخزوم . قال عُمر بن عبد الله بن أبى ربيعةَ بنِ المغيرة المخزومىّ — ويقال إنّها للفضل بن العبّاس اللِّهْبى[(٥)] :

وأنا الأخضرُ مَن يَعرِفُنى أخضرُ الجلدةِ فى بَيت العربْ

مَن يساجلْنى يُساجلْ ماجـداً يملأُ الدَّلوَ إلى عَقْد الـكَرَبْ

---

(١) فى الحيوان ٣ : ٢٤٦ : « حتى انتضاه » .

(٢) وجه الكلام « مع أنه صلب » . وفى الحيوان ٣ : ٢٤٦ « وأصل الخضرة إنما هولون الريحان والبقول ، ثم جعلوا بعدُ الحديدَ أخضر والسماء خضراء » .

(٣) فى الأصل : « لأنه » . والوجه ما أثبت .

(٤) فى الأصل : «ابن أم قضاع» . وانظر المعلقات ٤٩٦ بشرح ابن الأنبارى . وابن أم قطام هو حجر بن الحارث والد امرىء القيس

(٥) انظر الحيوان ٣ . ٢٤٧ .

وخُضر غسّانَ بنو جفنةَ الملوكُ؛ قال الغسّانيّ :

إنَّ الخضارمةَ الخُضر الذين وَدَوْا أهلَ البَريص ثمانى منهمُ الحكَمُ[١] ٨٦ ظ

وقد ذكر حسانٌ أو غيره الخُضْرَ من بنى عُكَيم[٢] حين قال :

ولستَ من بنى هاشمٍ فى بيتِ مكرمةٍ
ولا بنى جُمَح الخُضْرِ الجلاعيدِ[٣]

قالوا : وكان ولد عبد المطلب العَشَرة السّادةَ دُلْمًا[٤] ضُخْمًا[٥] ، نظر إليهم عامرُ بن الطُّفيل يَطُوفون كأنّهم جمالٌ جُونٌ ، فقال : بهؤلاء تُمنع السِّدانة .

وكان عبد الله بن عباس أدلَمَ ضخما . وآلُ أبى طالبٍ أشرفُ الخلق ، وهم سُودٌ وأُدمٌ ودُلْم .

---

(١) الخضارمة : جمع خضرم ، بكسر الخاء والراء ، وهو السيد الحمول . وفى الحيوان : « الذين غدوا » . والبريص : اسم نهر دمشق حيث ملك الغساسنة . وفى الحيوان : « ثمان » .

(٢) فى القاموس (عكم) : « وكزبير : اسم » .

(٣) البيت من أبيات فى ديوان حسان ١٢٣ — ١٣٧ يهجو بها مسافع بن عياض التيمى ، أولها :

لو كنت من هاشم أو من بنى أسد أو عبد شمس أو اصحاب اللوا الصيد

وصدره فيه :

* أو فى السرارة من تيم رضيت بهم *

(٤) الدلم : جمع أدلم ، وهو الشديد السواد .

(٥) الضخم : جمع الأضخم . وفى اللسان : « قال ابن سيده : وأما قول أهل اللغة أضخم ، فالذى أتصوره فى ذلك أنهم لم يشعروا بالمفاضلة فى هذا البيت فجعلوه من باب أحمر . قال : ويدلك على المفاضلة أنهم لم يجيئوا به فى بيت ولا مثل مجرداً من اللام، فيما علمناه من مشهور أشعارهم . على أن الذى حكاه أهل اللغة لا يمتنع » .

قالوا : وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « بُعِثت إلى الأحمر والأسود » .

وقد علمتَ أنّه لا يُقال للزّنج والحبشة والنُّوبة بِيضٌ ولا حُمر ، وليس لهم اسمٌ إلّا السُّود .

وقد علمنا أنّ الله عزّ وجل بعث نبيّه [إلى الناس[1]] كافة ، وإلى العرب والعجم جميعًا . فإذا قال : « بُعثت إلى الأحمرِ والأسود » ولسنا عنده حُمرٌ ولا بِيض ، فقد بُعث إلينا ؛ فإنما عنانا[2] بقوله « الأسود » . ولا يَخرج الناسُ من هذين الاسمين ، فإن كانت العرب من الأحمر ، فقد دخلت فى عِداد الرُّوم والصَّقالبة ، وفارسَ وخُراسان . وإن كانت من السُّود ، فقد اشتقَّ لها هذا الاسم من اسمنا . وإنما قيل لهم وهم أدم وسمرٌ سودٌ ، حين دخلوا معنا فى جُملتنا ، كما يَجعلَ العربُ الإناثَ من الذكور ذكورا .

وإذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يعلم أنّ الزّنج والحبشةَ والنُّوبة ليسوا بحمرٍ ولا بِيض ، وأنّهم سُود ، وقد بعثه الله تعالى إلى الأسود والأحمر ، فقد جَعَلَنا والعربَ سواء ، ونكونُ نحن السُّودَ دونهم . فإنْ كان اسمُ أسودَ وقع علينا فنحن السُّودان الخُلَّص ، والعربُ أشباهُ الخُلَّص . فنحن المتقدِّمون فى الدَّعوة . وإذا كان اسمُهم محمولًا على اسمنا ؛ إذْ كنّا وحدنا يقال لنا سُودٌ ، ولا يقال لهم سُودٌ إلّا أن يكونوا معنا .

قالوا : وأنتم ترون كثرةَ العدد مجدًا ، ونحن أكثر النّاس عددًا وولدا .

---

(١) موضع التكملة بياض فى الأصل .

(٢) فى الأصل : « عنا » . ووجهه ما أثبت من ن ، س .

قالوا : ونحنُ صِنفان : النَّمل والـكلاب[١] .

قالوا : ولو عدَلْتم بالنَّمل العرب كلَّها لأربَتْ عليها . فـكيف إذا قُرنت ٨٧ و
إليها الـكلاب ؟ ثم كيفَ إذا ضممتم إليها الحبشةَ والنُّـوبة وفزّان ومرو
وزُغاوة[٢] وغيرَ ذلك من أنواع السُّودان ؟

وليست قَحطانُ من عدنانَ فى شىء . ونحن بالحبشة أشبَه ، وأرحامنا بهم
أمسُّ مِن عدنانَ بقحطان . وإنْ ذكرتم اختلافَ اللُّغات ؛ فإنَّ لغةَ عَجُز
هوازن[٣] ، وقد تختلف اللُّغاتُ والأصل واحد ، وقد تتَّفق والنَّجْر مختلف .
ومَن دخَل أوائل خراسان وأواخرَها ، وأوائل الجبالِ وفارسَ وأواخرَها ،
علِمَ أنَّ اللُّغاتِ قد تختلف لاختلاف طبائع البلدان والأصْل واحد .

قالوا : وأنتم لم تَرَوُا الزِّنج الذين هم الزنجُ قطُّ ، وإنَّما رأيتُمُ السَّبْيَ يجىء
من سواحل قنبلة[٤] وغياضِها وأوديتها ، ومن مهنتنا وسَفِلتنا وعبيدِنا ، وليس
لأهل قنبلة جَمالٌ ولا عقول . وقنبلة : اسمُ الموضع الذى تُرْفُون منه سُفنَكم
إلى ساحله . لأنَّ الزِّنج ضربانِ : قنبلة ولنجوية[٥] ، كما أنَّ العرب ضربان :

---

(١) انظر الحيوان ٤ : ٣٥ والبيان ٣ : ٥١ .

(٢) فى القاموس : « وزغاوة ، بالضم : جنس من السودان» . وانظر التنبيه والإشراف ١٩١ .

(٣) فى الـكلام نقص ، ولعل تتمته : « على خلاف لغة فصحاء الحجاز » . وانظر ما سبق فى مناقب الترك ص ١٠ .

(٤) فى التنبيه والإشراف ٥١ : « ويقرب من جبل القمر هذا كثير من أحواز الزنج ومساكنهم ، إلى أن يتصل ذلك ببلاد سفالة الزنج وجزيرة قنبلو ، وأهلها مسلمون » .

(٥) انظر البيان ٣ : ٥١ .

قَحطان وعدنان . وأنتم لم تَرَوا من أهل لنجوية أحدًا قُطّ ، لا من السَّواحل ولا من أهل الجوف[١] ، ولو رأيتموهم نسيتم الجمال والكمال .

فإنْ قلتم : وكيف ونحن لم نر زنجيًّا قُطّ له عقلُ صبيٍّ أو امرأة ؟

قلنا لكم : ومتى رأيتم من سَبْي السِّند والهند قومًا لهم عقول وعلم وأدب وأخلاق حتَّى تطلُبوا ذلك فيما سقط إليكم من الزنج . وقد تعلمون ما فى الهِنْد من الحساب وعلم النجوم وأسرار الطّبّ ، والخَرط والنَّجر ، والتَّصاوير والصناعات الكثيرة العجيبة ، فكيف لم يتَّفق لكم مع كثرة ما سَبَيتم منهم واحدٌ على هذه الصِّفة ، أو بعُشْر هذه الصِّفة ؟

فإنْ قلتم : أهلُ الشَّرف والعَقْل والعلم إنَّما ينزلون الواسطة ، وبقرب دار الملك ، وهؤلاء حاشيةٌ[٢] وأعلاجٌ وأكَرَة ، ونُزَّال السَّواحِل والآجام والفيوض[٣] والجزائر ، من أكارٍ ومن صيّاد .

قلنا : وذلك مَن رأيتم ومن لم[٤] تَرَوْا منا . وجوابُنا هو جوابُكم لنا .

٨٧ ظ قالوا : ولو أنَّ الزِّنجيَّ والزنجيَّةَ إذا تناكحا بقيت أولادهما بعد الحيض والاحتلام ببلاد العراق ، كانوا قد غلبوا على الدَّار بالعدد والجَلَد ، والعلم والتدبير ، ولكنّ ولد الهندىِّ والهنديّة ، والرومىِّ والروميّة ، والخراسانىّ والخراسانيّة ، يبقون فيكم وفى بلادكم كبقاء آبائهم وأمّهاتهم ، ولا يبقى ولد

---

(١) فى الأصل : « الحوف » ، صوابه بالجيم كما صحح فى ن ، س .

(٢) فى الأصل : « حاشيته » .

(٣) فى الأصل : « والنفوض » .

(٤) فى الأصل : « ومالم » .

الزِّنجيِّين بعد الحيض والاحتلام . على أنّا لا نُصيبُ فى عشرة آلافٍ ، واحدٌ يبلغ ما ذكرنا ، إلّا أن يَضربَ الزنجىُّ فى غير الزّنجيات ، والزّنجية فى غير الزّنج . ولولا أنّ الزّنجىّ والزّنجيّة قليلًا ما يريدان[1] من الغرائب والغرباء ، لكُنّا على حال[2] سَنَرى لرجال الزّنج نسلًا كثيرا . ولكنّ الزنجية لا تكاد تنشَط لغير الزنجىّ .

قالوا : وكذلك البيضانُ منكم ، لا يكادون ينشطون لطلب النّسل من الزّنجيات . والزّنجية أيضاً من الزّنجىّ[3] أسرعُ لِقاحًا منها من الأبيض .

قالوا : وأنتم لا تكادون تعدُّون ممّن وُلِد له من صلبه مائةُ ولدٍ إلّا أن يكون خليفةً[4] ، فيكون ذلك لكثرة الطَّروقة[5] ، ولا تجدون ذلك فى سائركم . والزّنج لا تستكثر هذا ولا تستعظمه ؛ لكثرته فى بلادهم ، لأنّ الزنجية تلد نحوًا من خمسين بطنًا فى نحو من خمسين عاما ، فى كلّ بطنٍ اثنين ، فيكون ذلك أكثر من تسعين . لأنّه يقال إنّ النساء لا يلدن إذا بلغن الستّين إلّا ما يحكى عن نساء قريشٍ خاصّة .

والزّنج أحرص مَنْ خَلَقَ اللهُ على نسائهم ، ونساؤهم لهم كذلك ، وهنّ أطيب من غيرهنّ .

قالوا : فتأمّلوا قولَنا واحتجاجنا ؛ فإنّا قد رَوينا الأخبار وقُلنا الأشعار ، وعرفنا كم وعرفنا الأمم .

---

(١) حورت فى ن ، س إلى : « يلدان » .

(٢) ن ، س : « على كل حال » .

(٣) فى الأصل وسائر النسخ : « من الزنج » .

(٤) انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٤٠ ، ٩٨ .

(٥) طروقة الفحل : أنثاه . والطروقة : الزوجة أيضاً .

وقد كان الفرزدقُ أعلمَ النَّاس بالنِّساء ، وكان قد جَرّب الأجناسَ كلَّها فلم يجدْ مثلهنّ ، ولذلك تزوج أم مكّيّة الزّنجيّة وأقامَ عليها ، وتركَ النِّساء ، للذى وجَد عندها . وفى ذلك يقول :

يارُبَّ خَوْدٍ من بنات الزِّنج   تَمشى بتُنُّـورٍ شديدِ الوَهجِ

* أخثمَ مثلِ القَـدح الخَلَنج *

وكانت دنانيرُ بنت كعبوية الزِّنجى عند أعشى سُليم ، وكانت شديدةَ السَّواد ، فرآها يومًا وقد خضبت يَديْها بالحنّاء ، واكتحلتْ بالإثمد ، فقال :

٨٨ و

تخضب كفًّا بتكتْ من زندها   فتخضب الحِنّاء من مسوَدِّها[٢]

كأنَّها والـكُحلُ فى مِرودِّها[٣]   تـكحلُ عينيها ببعضِ جـلدها

فلما سمِعَتْ ذلك قالت :

وأقبحُ من لونى سَـوادُ مجانهِ   على بَشَرٍ كالقَلْب أو هو أنصع[٤]

فسمَّوه أسودَ ، وصاح به الصِّبيانُ فطلَّقها . وقد كان صبيحةَ عُرسها قال :

* إنَّ الدَّنانيرَ تـكون سُودا[٥] *

---

(١) ديوانه ١٤٣ والأغانى ١٩ : ٢١ .

(٢) نسب هذا الرجز فى الأغانى ١٨ : ٣٦ إلى دعبل الخزاعى . وفى الأغانى : « قطعت » بدل « بتكت » ، وكلاهما بمعنى .

(٣) المرود ، بتشديد الدال للشعر هو المرود الذى يكتحل به . وانظر لأمثال هذا التشديد مجالس ثعلب ٦٠٢ — ٦٠٤ .

(٤) البشر : جمع بشرة ، وهو ظاهر الجلد . والقلب ، بالفتح : جمار النخلة .

(٥) فى ن ، س : « سوداء » ، ولـكن هكذا ضبطت « سودا » فى الأصل بضم السين وبدون الهمزة ، وهو شطر من الأرجاز .

فقالت :

بياض الرأس أقبح من سوادى وشَيب الحاجبَين هو الفُضوحُ

فأمسكَ عنها حينًا ثم عاودَها ، فلما فضحَتْه طلَّقها .

قالوا : وإنْ نَظر البِيضانُ إلى نساء السُّودان بغير عين الشهوة فكذلك السُّودان فى نِساء البيضان . على أنَّ الشَّهواتِ عاداتٌ وأكثرها تقليد . من ذلك أنَّ أهل البصرة أشهى النِّساء عندهم الهندِيَّات وبناتُ الهندِيَّات والأغوار . واليمن أشهى النِّساء عندهم الحبشيّاتُ وبنات الحبشيات . وأهل الشّام أشهى النِّساء عندهم الرُّوميَّات وبناتُ الروميَّات . وكُلُّ قومٍ فإنَّما يشتهون جَلَبهم وسَبْيَهم . إلَّا الشاذّ ، وليس على الشاذّ قياس .

قالوا : وأطيبُ[1] الأفواه نَكهةً ، وأشدُّها عذوبةً ، وأكثرها ريقًا ، أفواهُ الزنج . والكِلاب من بين السِّباع أطيبُ أفواهًا منها[2] .

قالوا : والسواد مُلاومٌ للعين[3] ، وإذا اعتلَّت نخيف عليها لم يكن لها دواء خيرٌ من القعود فى الظُّلمة وفى يد صاحبها خرقةٌ سوداء . فالسَّوادُ للإبصار ، وخيرُ ما فى الإنسان البصر .

وقالوا : والسُّودان أكثر من البيضان ، لأنَّ أكثرَ ما يعُدُّ البِيضانُ فارسَ والجبالَ وخراسان ، والرُّوم والصَّقالبة وفرنجة[4] والأبر ، وشيئًا

(١) سقطت الواو فى كل من ن ، س ، خلافاً لما فى الأصل .

(٢) انظر الحيوان ٢ : ١٥٤ ، ١٧٦ و ٥ : ٢٣٧ .

(٣) كذا فى أصل ون ، س . ويبدو أنه من اللغة المولدة التى شاعت قديماً . وفى اللسان : « ومنه قولهم هذا طعام لا يلائمنى ، ولا تقل يلاومنى »

(٤) انظر مروج الذهب ٢ : ٣٤ والفهرست ٣٠ ، ٣٤ والقاموس (فرنج) .

بعد ذلك قليلاً غير كثير . والسُّودان يُعدُّونَ الزِّنج والحبشة ، وفزّان وبربر ، والقبط والنُّوبة ، وزَغاوة ومَرْو ، والسِّند والهند ، والقَمار[١] والدَّبيلا[٢] ، والصِّين وماصِين . والبحر أكثر من البّر ، وجزائر البحر ما بين الصِّين والزِّنج مملوءةٌ سُوداناً ، كسرنديب ، وكَلَه[٤] ، وأمل ، وزابج[٥] وجزائرها إلى الهند إلى الصين إلى كابُل وتلك السواحل .

٨٨ ظ

قالوا : وكان الأعمى الاشتيام[٦] يقول : السُّودان أكثر من البيضان ، والصَّخر أكثر من الوحل ، والرَّمل أكثر من التُّراب ، والماء المالح أكثر من العذب .

قالوا : ومنَّا العربُ لا من البيضان ؛ لقرب ألوانهم من ألواننا . والهندُ أسفرُ ألواناً من العرب ، وهم من السُّودان. ولأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « بُعثت إلى الأحمر والأسود » . وقد علم النّاسُ أنَّ العرب ليست بحُمر كما ذكرنا قبل هذا[٧] .

---

(١) قمار بفتح القاف وكسرها : موضع بالهند ينسب إليه العود القمارى .

(٢) الذى فى ياقوت « ديبل » بفتح الدال وضم الباء ، وقال : « مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند » . وانظر التنبيه والإشراف للمسعودى ٢٩ ، ٣٠ ، ٤٩ .

(٣) فى الأصل و ن ، س : « سودان » .

(٤) فى معجم البلدان : « كله : فرضة بالهند ، وهى منتصف الطريق بين عمان والصين ، وموقعها من المعمورة فى طرف خط الاستواء » .

(٥) زابج قال فيها ياقوت : « وقيل هى بلاد الزنج ، وبها سكان شبه الآدميين إلا أن أخلاقهم بالوحشُ أشبه » . وفى الأصل : « وتربج » . وانظر ماسيأتى . والباء تفتح وتكسر .

(٦) الاشتيام : رئيس الركاب ، كما فى اللسان (شتم) .

(٧) انظر ص ٢١٠ .

قال : فهذا المَفْخرُ لنا وللعربِ على جميع البِيضان إنْ أحبَّتْ ذلك العربُ ؛ وإن كرهَتْه فإنّ المفخر لنا بالذى ذكرنا على الجميع .

قالوا : ولو لم نكثُركم إلاّ بالزابج وحَدها لفَضَلناكم بهم فضلاً مبيناً ؛ وذلك أنّ ملك الزابج إنْ غضِب على أهل مملكةٍ ولم يتّقوه بالخَراج بعث ألفَ سُنبوقة[1] فى كلّ سُنبوقة ألفُ رجل على أن [لا[2]] يجالدونهم ولا يقاتلونهم ، ولكن يأمرهم أن يقيموا أبداً فيهم حتّى يتّقوهم بالخراج ، فيكون ما يأكلون ويشربون ويُغْذَون ويلبَسون ، أضرَّ عليهم من مقدار الخراجِ المرارَ الكثيرة . فإن اتّقَوهم بالخَراج وإلاّ أرسلَ إليهم ألفَ سُنبوقة أخرى ، فلا يجد ذلك الملكُ بدًّا من أن يتّقيَه بكلّ ما طلب ، ولا يأمن أن يغضبَ فيأتىَ عليه وعلى أهل مملكته .

قالوا : ولقد نزل ملك الزابج على خليجٍ مرّةً والخليجُ فراسخُ فى فراسخ ، فبينا هو على مائدته وفى سُرادقِهِ على شاطئ الخليج ، إذْ سمع صارخةً فقال : ما هذا ؟ وقطع الأكل[3] . قالوا : امرأةٌ سقط ابنُها فى هذا الخليج فأكله التمساح . قال : وفى مكانٍ أنا فيه شىءٌ يشاركنى فى قتل النّاس ! ثم وثب فإذا هو فى الخليج . فلما رأوه الناسُ سقطوا عن آخرهم ، فخضخضوه[4] وهو فراسخ فى فراسخ ، حتّى أخذوا كلّ تمساحٍ فيه أخذَ يدٍ .

---

(١) الذى فى القاموس « السنبوق » ، وقال : « السنبوق كعصفور : زورق صغير » .

(٢) تكملة يستقيم بها الكلام .

(٣) فى الأصل : « وقع الأكل » .

(٤) خضخض الماء ونحوه : حركه . وفى الأصل : « فخضحضوه » .

فيقال : إنّ أهلَ الزابج وأغبابها[1] أكثر من شَطر أهل الأرض .

قالوا : وآخرُ العُمرانِ كلُّه سودانٌ ، وما استدار من أقاصى العُمران أكثرمن أهل الواسطة ، كطوق الرَّحَى الذى يلى الهواء ، الذى هو أوسع وأكثر ذرعاً مما قَصر عنه من فَلَك الرَّحى[2] ولنعتبر ذلك بالجناح المُطِيف ، لا يرى أحد ذَرْعَه مع قلّة عرضه ، ونجده أكثر ذرعاً من نفس الدار . ٨٩ و

وليس خلف الزابج بيضانٌ ، وكذلك جميعُ بلاد السودان السّاكنةِ فى الأطراف وفى آخر أطواق العمران .

قالوا : فهذا دليل على أنّا أكثر ، وإذا كنّا أكثرَ كنّا أفخر . وقد قال شاعركم[3] :

ولستَ بالأكثر منهُ حصًى وإنّما العِزّةُ للكاثرِ[4]

قالوا : والقبط جنسٌ من السودان وقد طَلب منهم خليلُ الرحمن [الولد[5]] فوُلِد له منهم نبيٌّ عظيم الشأن ، وهو أبو العرب إسماعيلُ عليه السلام . وطلب النبيُّ صلى الله عليه وسلم منهم الولد ، ووُلد له إبراهيم ، وكنّاه به جِبريل .

---

(١) الكلمة مهملة النقط فى الأصل . والأغباب : جمع غب ، بالضم ، وهو الغامض من الأرض قال :

كأنها فى الغب ذى الغيطان ذئاب دجن دائم التهتان

(٢) فلك الرحى : مدارها وفى الأصل ون ، س : « ذلك الرحى » .

(٣) هو الأعشى ، ديوانه ١٠٦ .

(٤) يخاطب علقمة بن علاثة مفضلا عامر بن الطفيل عليه . والرواية المشهورة : « منهم حصى » .

(٥) ليست بالأصل ، والكلام يقتضيها .

قالوا : والحجر الأسود من الجنّة . والنُّحاس إذا اشتدَّ سوادُه كان أثمنَ وأجود . فمن استنكرَ لونَ السواد فما فى فِرِنجة(١) والرُّوم والصَّقالبة من إفراط سُبوطة الشّعر والرّقّة والصُّهوبة ، والحُمرة فى شعر الرّأس واللِّحية ، وبياضِ الحواجب والأشفار ، أقبح وأسمج . وليس فى السُّودان مُغْرَب(٢) ، ليس المُغْرب إلاَّ فيكم . ولا سواء من لم تنضجه الأرحام وما جازتْ به حدَّ التمام .

قالوا : ولنا بعدُ معرفةٌ بالتفلسُف(٣) والنَّظَر ، ونحن أثقفُ النّاس . ولنا فى الأسرار حجة . ونحن نقول : إنَّ الله تعالى لم يجعلنا سُودًا تشويهاً بخلقنا ، ولكنَّ البلدَ فعل ذلك بنا . والحجّة فى ذلك أنَّ فى العرب قبائل سُودًا كبنى سُليم بن منصور . وكلُّ مَن نزل الحَرَّةَ من غير بنى سُلَيمٍ كلُّهم سود . وإنَّهم ليتخذون المماليكَ للرعى والسّقاء ، والمهنة والخدمة ، من الأشبانيِّين(٤) ومن الرُّوم نسائهم ، فما يتوالدون ثلاثةَ أبطنٍ حتّى تنقلهم الحرَّةُ إلى ألوان بنى سُلَيم(٥) . ولقد بلغ مِن أمر تلك الحرَّة أنّ ظِباءها ونعامَها ، وهوامَّها وذُبابها، وثعالبها وشاءها وحميرَها ، وخيلها ، وطيرَها كلَّها سودٌ . والسَّواد والبياض إنَّما هما من قِبَل خلقة البلدة ، وما طبع الله عليه الماء

(١) انظر ما سبق فى ص ٢١٥

(٢) المغرب ، بفتح الراء : الأبيض أشفار العينين .

(٣) لعل هذا من أقدم النصوص التى ورد فيها لفظ التفلسف . وفى اللسان : « الفلسفة : الحكمة ، أعجمى . وهو الفيلسوف ، وقد تفلسف » .

(٤) فى الأصل : « الاشبانين » بهذا الإهمال .

(٥) انظر الحيوان ٤ : ٧١ و ٥ : ٣٧٠ .

٨٩ ظ والتُّربة ، ومن قِبَل قُرب الشَّمس وبعدها ، وشدّة حَرّها ولينها . وليس ذلك من قبل مسخٍ ولا عقوبة ، ولا تشويه ولا تقصير [١] .

على أنّ بلاد بنى سُلَيم تجرى مَجرى بلادِ التُّرك . ومَن رأى إبلَهم ودوابَّهم وكلّ شىء لهم تركىّ رآه شيئاً واحداً . وكلُّ شىء لهم تركىٌّ للنظر . وربّما رأى الغُزاةُ دون العواصم أخلاطَ غَنَم الرُّوم فلا يخفى عليهم غَنَم الرُّوم من غَنَم الشَّام ، للرُّوميَّة التى يرونها فيها .

وقد نرى الناسَ أبناءَ الأعراب والأعرابيات الذين وقَعوا إلى خراسان فلا نشُكُّ أنّهم علوجُ القُرى . وهذا موجودٌ فى كل شىء . وقد نرى جَرَادَ [٢] البَقل والرَّيحان وديدانَهما خُضراً [٣] ، ونرى قَمل رأس الشّابّ سُوداً ، ونراها إذا ابيضّ رأسُه بيضًا ، ونراها إذا خُضِبت حُمراً .

فليس سوادُنا ، معشَرَ الزِّنج ، إلاَّ كسواد بنى سُلَيم ومَن عددنا عليكم من قبائل العرب فى صدر هذا الكلام .

وما إفراط سوادِ من اسودَّ من الناس إلاّ [٤] كإفراط بياض من ابيضَّ من الناس . وكذلك السُّمرة المتولِّدة من بينهما ، وكذلك الزِّىّ والهيئات ، وكذلك الصِّناعات ، وكذلك المطاعم والشَّهوات .

---

(١) فى جميع النسخ : « ولا تفضيل » .

(٢) فى الأصل : « جزاز » ، صوابه فى الحيوان ٤ : ٧١ . وقد صحح بذلك فى ن وس .

(٣) فى الأصل : « خضر » .

(٤) فى الأصل : « ولا » .

وقد ذكر الشاعر ، حين مدح أُسيلِمَ بنَ الأحنف الأسديّ ، سوادَ اليمانيَة فقال[١] :

أُسيلِمُ ذاكم لا خَفَـا بمكانه
لعينٍ تداحى أو لأذنٍ تَسمَّعَ[٢]

من النَّفَر الشُّمِّ الذين إذا انتَموْا
وهابَ الرِّجالُ حَلْقةَ البـاب قعقعوا

جـلاَ الأذفرُ الأحوَى من المسك فرقَه
وطيبُ الدِّهان رأسَـه وهو أنزعُ[٣]

إذا النَّفَرُ السُّـود اليَمانونَ حاولوا
له حَـوكَ بُرْدَيه أرقُّوا وأوسـعوا

وقد عابَ بعضُ البِيضانِ عبدَ بنى جَعدَةَ بلونه ، فقال :

قد عابَ لونىَ أقـوامٌ فقلتُ لهم
ما عابَ لونىَ إلاّ مُفـرِطُ الحُمُقِ

إنْ كان لونىَ فيـهُ دُعجةٌ كَلَفٌ
حَـزْن الإهـابِ فإنِّى أبيضُ الخُلقِ

---

(١) الأبيات فى الحيوان ٣ : ٤٨٦ والبيان ١ : ٣٩٦ و ٣ : ٣٠٥ والبخلاء ٢١٣ والعقد ٥ : ٣٤٣ .

(٢) فى معظم المراجع : « لعين ترجى » .

(٣) فى الأصل : « جرى الأذفر . . . فوقه » ، صوابه من البيان والحيوان والبخلاء . والأذفر : الشديد سطوح الرائحة . والأنزع : الذى انحسر الشعر عن جانبى جبهته .

أُرضِي الصَّديقَ وأَحمِي الظُّعنَ معترضاً
صَدرَ القناةِ وأُكنى كنه السَّرَقِ[١]

٩٠و وكانت امرأةُ عمرو بن شأسٍ تجفو عِرَارَ[٢] بنَ عمرو ، وكان ابنَ سوداء ، فقال عمرو بن شأسٍ فى ذلك ، وفى صفةِ أبناء الحبشيَّات والزِّنجيات :

ألم يأتِها أنِّى صحوتُ وأنَّنى
تخشَّعتُ حتّى ما أعارِم من عَرَمْ
وأُطرِقُ إطراقَ الشُّجاعِ ، ولو يرى
مَساغاً لنابيه الشُّجاع لقد أزَمْ.[٣]
أرادت عِرَاراً بالهوان ومن يُرِدْ
عِرَارًا لعمرى بالهوان فقد ظَلَمْ.
وإنّ عِراراً إن يكن غيرَ واضحٍ
فإنِّى أحبُّ الجَونَ ذا المنكِب العَمَمْ.[٤]
فإن كنتِ منِّى أو تُحبِّينَ شيمتِى
فكونى له كالسَّمْنِ رُبَّت له الأَدَمْ.[٥]

---

(١) كذا ورد عجز هذا البيت .

(٢) فى الأصل : « عزار » أو « غراز » ، صوابه من الحماسة ٢٨٠ — ٢٨٢ بشرح المرزوقى ومأأثبت فى حواشيها من المراجع ، والأغانى ١٠ . ٥٩ — ٦٠ .

(٣) أزم : عض شديداً . وفى الأصل : « أرم » ، صوابه فى الأغانى .

(٤) فى الأصل : « لم يكن » ، صوابه من المراجع المتقدمة . والعمم : الطويل التام من كل شىء .

(٥) فى الأصل : « كالشمس » تحريف . قال المرزوقى : والسمن إذا رب نحيه لم يتغير . يريد فلا تتغيرى أنت أيضاً» . والأدم : جمع أديم ، وهو الجلد .

وإلاّ فبِينِى مثــــل ما بانَ راكبٌ
تزوَّد خِمســاً ليس فى سَــيره أَتَم.[١]

وأمّا الهندفوجدناهم يُقدَّمون فى النُّجوم والحساب ،ولهم الخطُّ الهِندىُّ خاصّة ، ويقدَّمون فى الطبّ ، ولهم أسرارُ الطبّ وعلاجُ فاحشِ الأدواء خاصّة . ولهم خَرط التماثيل ونَحتُ الصُّور بالأصباغ تُتَّخذ فى المحاريب[٢] وأشباهِ ذلك . ولهم الشِّطرنجُ ، وهى أشرفُ لُعبةٍ وأكثرُها تدبيراً وفطنة . ولهم السُّيوف القَلْعيّة[٣] ، وهم ألعبُ النّاس بها وأحذقُهم[٤] ضرباً بها . ولهم الرُّقَى النّافذةُ فى السُّموم وفى الأوجاع . ولهم غناءٌ مُعجِب . ولهم الكنكلة[٥] ، وهى وترٌ واحدٌ يُمدُّ[٦] على قرعةٍ فيقوم مقامَ أوتار العُود والصَّنج . ولهم ضروبُ الرَّقص والخِفّة ، ولهم الثّقافة عند الثِّقاف خاصّة ، ولهم معرفةُ المناصفة ، ولهم السِّحر والتَّدخين والدمازكية[٧] . ولهم خطٌّ جامعٌ لحروف اللُّغات ، وخطوطٌ أيضاً كثيرة ، ولهم شعرٌ كثير وخُطَب طوال ، وطبٌّ فى الفلسفة

---

(١) الأتم : الإبطاء .

(٢) فى الأصل : « بجد من المحارب » .

(٣) القلعية : نسبة إلى القلعة ، وهى قلعة عظيمة ببلدة تسمى « كله » ، وهى أول بلاد الهند من جهة الصين ، وفيها تضرب السيوف القلعية . انظر معجم البلدان والحيوان ٣ : ١٤٣ .

(٤) ن ، س : « وأحذقها » .

(٥) انظر نوادر المخطوطات ٢ : ٣٢٤ .

(٦) فى الأصل و ن ، س : « يمر » ، صوابه ما أثبت .

(٧) كذا ولعله « الترماذكية » ، وهو ضرب من اللعوق الطبى . كما فى معجم استينجاس ١٣٩٥ .

والأدب . وعنهم أُخِذ كتابُ كليلة ودمنة . ولهم رأىٌ ونجدةٌ ، وليس لأحدٍ من أهل الصَّبر ما لهم . ولهم من الزِّىّ[١] الحسَنِ والأخلاق المحمودة مثل الأخِلَّة والقَرن والسِّواك ، والاحتباء ، والفَرق والخضاب . وفيهم جمال ومِلحٌ[٢] واعتدال وطيب عَرَق . وإلى نسائهم يضرب الأمثال . ومِن عندهم جاءوا الملوكَ بالعُود الهندىّ الذى لا يَعدِلُه عود . ومن عندهم خرج علم الفكر ، وما إذا تُكلِّم به على السمّ لم يضرّ . وأصلُ حسابِ النُّجوم من عندهم أخذه النَّاسُ خاصَّةً . وآدم عليه السلام إنَّما هبط من الجنَّة فصار ببلادهم[٣] .

٩٠ ظ

قالوا : ومن مفاخر الزنج حُسن الخلْق ، وجودةُ الصَّوت . وإنَّك لتجد ذلك فى القِيان إذا كنَّ من بنات السِّنْد .

وخَصلةٌ أخرى : أنَّه لا يوجد فى العبيد أطبَخُ من السِّندىِّ ، هو أطبع على طيِّب الطَّبخ كلِّه[٤] .

ومن مفاخرهم أنَّ الصَّيارفة لا يولُّون أكيِستَهم وبيوتَ صُروفهم إلَّا السِّندَ وأولادَ السِّند ؛ لأنَّهم وجدوهم أنفَذَ فى أمور الصَّرف ، وأحفَظَ وآمَن . ولا يكادُ أحدٌ أن يجد صاحبَ كيس صَيرفىٍّ ومفاتيحِهِ ابنَ رومىٍّ ولا ابنَ خُراسانىّ

---

(١) فى الأصل : « الرأى ».

(٢) الملح ، بالكسر : الملاحة .

(٣) فى تفسير أبى حيان ١ : ١٦٣ عند الكلام على هبوط آدم : « وآدم بالهند ، وقيل بسرنديب بجبل يقال له واسم » .

(٤) فى الأصل : « هو أطبخ على طيب الطبع كله » .

ولقد بلغ من تبرُّك التجار بهم أنّ صَيارفة البصرة وبنادرة البَرْبَهَارات[١] ، لمّا رأوا ما كَسَبَ فرجٌ أبو رَوحٍ السِّنديُّ لمولاه[٢] من المال والأَرَضِينَ اشترى كلُّ امرئٍ منهم غلامًا سنديًّا ، طمعًا فيما كسبَ أبو رَوْحٍ لمولاه .

قال : وكان عبد الملك بنُ مروانَ يقول : « الأدغم سيِّد أهلِ المشرق[٣] » يعنى عُبَيدَ الله بنَ أبى بَكْرة . وكان أشدَّ السُّودان سواداً . وإيّاه يعنى عبدُ الله بن خازمٍ[٤] حيث يقول :

* حَبشيٌّ حَبشتُهُ حَبشَــــهْ *

فهذا جملة ما حَضَرنا من مفاخر السُّودان . وقد قلنا قبل هذا فى مفاخر قحطان ، وسنقول فى فخر عدنان على قحطان فى كثير مما قالوا إن شاء الله .

* * *

---

(١) البنادرة : جمع بندار ، بضم الباء ، وهم التجار الذين يلزمون المعادن ، أو الذين يخزنون البضائع للغلاء . والبربهار: الأدوية التى تجلب من الهند من الحشيش والعقاقير ، والفلوس وغيرها ، يقول البحرية وأهل البصرة لها : البربهار . أنساب السمعانى ٧١ . وقال الأب أنستاس مارى : المراد بها توابل بر الهند . حواشى الحيوان ٣ : ٤٣٥ .

(٢) اسم مولاه محمد بن السكن ، كما فى الحيوان ٣ : ٤٣٥ .

(٣) فى المعارف ١٢٦ : « سيد أهـــل الشرق » . وفيه : ويقال الأدغم الدابة الديزج ، شبه به » .

(٤) هو عبد الله بن خازم بن أسماء السلمى البصرى ، أمير خراسان . ولى إمرتها لبنى أمية ، فلما ظهر ابن الزبير كتب إليه ابن خازم بطاعته فأقره على خراسان ، ثم ثار به أهل خراسان فقتلوه وأرسلوا رأسه إلى عبد الملك سنة ٧٢ . انظر الطبرى فى حوادث هذه السنة ، وتهذيب التهذيب والإصابة ٤٦٣٢ .

٩١ و

تم كتاب فخر السودان على البيضان

من تأليف أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، بعون الله تعالى وتوفيقه ، ومشيئته وتأييده . يتلوه إن شاء تعالى رسالة له أيضاً إلى محمد بن عبد الملك فى الجد والهزل . والله الموفق للصواب .

والحمد لله أولًا وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين وسلامه .

٥

رِسَالة

فِي الجِدِّ وَالهَزلِ

من تصنيف أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

إلى محمد بن عبد الملك الزيات

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذه هي الرسالة الخامسة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« رسالة فى الجـد والهزل »

من تصنيف أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ إلى محمد بن عبد الملك الزيات

ومن هذه الرسالة نسخ :

١ — نسخة الأصل ، وهى نسخة مكتبة داماد ، فى ضمن مجموعة رسائل الجاحظ .

٢ — مختارات فصول الجاحظ ، وهى نسخة المتحف البريطانى المودعة صورتها فى مكتبة جامعة القاهرة ، ورمزها « م » .

٣ — نسخة بول كراوس وطه الحاجرى ، وهى مقابلة على نسخة داماد ، والمتحف البريطانى ، ورمزها « ط » .

بسم الله الرحمن الرحيم

جُعلتُ فِداكَ . ليس من أجل[1] اختيارى النَّخلَ على الزَّرع[2] أقصيتَنِى ، ولا على ميل إلى الصَّدقة دون إعطائى الخراجَ عاقبتَنِى ، ولا لبُغضى دفعَ الإتاوة والرضا بالجِزية حَرمتَنِى .   ٩٢ ظ

ولستُ أدرى لِمَ كَرِهتَ قُربى وهَوِيتَ بُعدى ، واستثقلتَ روحى ونَفْسى واستطلتَ عُمرى وأيامَ مُقامى . ولِمَ سرَّتك سيِّئتى ومصيبتى وساءتك حسنتى وسلامتى ، حتّى ساءكَ تجمُّلى بقدر ما سَرَّكَ جزَعى وتضجُّرى ، وحتى تمنَّيتَ أنْ أخطئَ عليك فتجعل خطئى حجّةً لك فى إبعادى ، وكرِهتَ صوابى فيك خوفاً من أن تجعله ذريعةً لك إلى تقريبى .

[فإن كان ذلك هو الذى أغضبكَ ، وكان هو السببَ لموجِدتك[3]] فليس ـ جُعلتُ فداكَ ـ هذا الحقدُ فى طبقة هذا الذَّنب ، ولا هذه المطالبة من شكل هذه الجريمة .

---

(١) هذه الكلمة ساقطة من م

(٢) ألف الجاحظ كتاب : (الزرع والنخل) لإبراهيم بن العباس الصولى المتوفى سنة ٢٤٣ . فمنحه خمسة آلاف دينار ، كما ألف كتاب : (الحيوان) لمحمد بن عبد الملك الزيات فمنحه مثلها ، وكتاب : (البيان) للقاضى أحمد بن أبى دواد فمنحه كذلك . معجم الأدباء ١٦ : ١٠٦ . وجاء فى الحيوان ١ : ٤ نظير هذا النص موجها إلى محمد بن عبد الملك الزيات : « وعبتنى بكتاب الزرع والنخل والزيتون والأعناب » .

(٣) التكملة من م .

ولو كان إذ لم يكن فى وزنه وقَع قريباً ، وإذْ لم يكن عِدلَه وقعَ مُشْبِها كانَ أهونَ فى موضع الضَّرر ، وأسهلَ فى مخرج السَّماع .

فأىَّ شىء بقَّيتَ للعدوّ المكاشِف والمنافق[١] الملاطف ، وللمعتمد المصرِّ وللقادر المدِلّ .

ومَن عاقبَ على الصَّغير بعقوبة الكبير ، وعلى الهفوة بعقوبة الإصرار ، وعلى الخطأ بعقوبة العمد ، وعلى معصية المتَستِّر[٢] بعقوبة معصية المعلن[٣] ، ومن لم يفرق بين الأعالى والأسافل ، وبين الأقاصى والأدانى ، عاقبَ على الزّنى بعقوبة السَّرَق[٤] ، وعلى القتل بعقوبة القَذْف . ومن خرج إلى ذلك فى باب العقاب خرج إلى مثله فى باب الثَّواب . ومن خَرجَ من جميع الأوزان وخالف جميعَ التعديل ، كان بغاية العقاب أحقَّ ، وبه أولى[٥] .

والدَّليل على شدّة غيظك وغلَيان صدرِك قُوَّةُ حركتك وإبطاء فترتك ، وبُعد الغاية فى احتيالك . ومن البرهان على ثبات الغضَب ، وعلى كظم الذنب[٦] تمكُّن الحقد ورسوخ الغيظ ، وبُعد الوثبة وشدّة الصَّولة .

وهذا البرهان صحيحٌ ما صحّ النظم ، وقام التعديل ، واستوت الأسباب .

ولا أعلم ناراً أبلغَ فى إحراق أهلها من نار الغيظ ، ولا حركةً أنقضَ

---

(١) م : « والموافق » .
(٢) فى الأصل : « المستتر » ، وأثبت ما فى م . وفى ط نقلا عن ب : « المسر » .
(٣) فى الأصل : « المعاند » صوابه فى م ، ب .
(٤) السرق كسبب وكتف : السرقة . وفى م . « السرقة » .
(٥) فى الأصل : « أحق به وأولى » ، وما أثبت من م أشبه بأسلوب الجاحظ .
(٦) م : « عظم الذنب » .

لقوّة الأبدان من طلب الطوائل[١] مع قلة الهدوء والجهل بمنافع الجَمَام[٢] ، وإعطاء الحالات أقسامَها من التدبير .

٩٣ و

ولا أعلم تجارة أكثرَ خُسراناً ولا أخفَّ ميزاناً من عَداوة العاقل [العالم][٣] ، وإطلاقِ لسان الجليس المُداخِل ، والشِّعارِ دونَ الدِّثار[٤] ، والخاصِّ دون العامّ .

والطالبُ — جُعلتُ فداك — بعُرْض ظَفَرٍ ما لم يَخرج المطلوب ، وإليه الخيار ما لم تقع المنازلة . ومن الحزم ألّا تخرج إلى العدوّ إلّا ومعك من القُوى ما يغمر[٥] الفَضْلة التى ينتجها له الإخراج . ولا بدّ أيضاً من حزمٍ يحذّرك مَصارعَ البغى ، ويخوّفك ناصر المطلوب[٦] .

وبَعدُ — أبقاك الله — فأنت على يقينٍ من موضع ألم الغيظ من نفسك ، والغيظُ عذاب . ولربّما زاد التشفّى فى الغيظ ولم ينقص منه . ولستُ على يقين من نفوذ سهمك فى صَيْدك[٧] [كما أيقنت بموضع الغيظ من صدرك] .

---

(١) الطوائل : جمع طائلة ، وهى الوتر والذحل ، يقال : طلب بنى فلان بطائلة ، أى بوتر كان له فيهم .

(٢) الجمام ، كسحاب : الراحة : م « الحمام » تصحيف .

(٣) التكملة من م .

(٤) الشعار : ما ولى شعر جسد الإنسان دون ما سواه من الثياب . والدثار : ما كان من الثياب فوق الشعار . وفى المثل : « هم الشعار دون الدثار » ، يصفهم بالمودة والقرب . وفى حديث الأنصار : « أنتم الشعار والناس الدثار » .

(٥) فى الأصل : « مالا يغمر » ، صوابه من م .

(٦) أى من تطلبه . وفى الأصل : « ويحرك ناصر المظلوم » ، صوابه فى م .

(٧) فى الأصل : « صدك » ، صوابه من ط رواية عن ب والتكملة بعده من ب .

والحازم لايلتمس شفاء غيظهِ باجتلاب ضِعْفِهِ ، ولا يطفئ نارَ غضبه تأخُّرُ عقوبةٍ من أغضبَه ، ولا يسدِّد سهمَه إلَّا والغرضُ ممكن ، والغاية قريبة ، ولا يهرب إلّا والمهرب مَعجزة .

إنّ سلطان الغيظ غَشوم ، وإنّ حكم الغضَب جائر ، وأضعف ما يكون العزم عن التصرُّف أضعفَ ما يكون الحزم . والغضب فى طِباع شيطان ، والهوى يتصوَّر فى صورة امرأة ، فلا يبصر مَساقط العيب ومواقعَ الشَّرف إلاّ كلُّ معتدلِ الطباع ، ومعتدلِ الأخلاط مستوِى الأسباب .

والله لقد كنت أكره لك سرفَ الرضا مخافةَ جواذبِهِ إلى سرف الهوى . فما ظنُّك بسرف الغضب ، وبغلَبة الغيظ ، ولا سيّما ممّن قد تعوّدَ إهمالَ النَّفس ولم يعوِّدها الصبر ، ولم يعرِّفْها موضعَ الحظّ فى تجرُّع مرارة العفو ، وأن المراد من الأمور عواقبها لا عواجلها[١] .

ولقد كنت أشفِق عليك من إفراط السُّرور فما ظنُّك بإفراط الغيظ . وقد قال بعض الناس : لا خير فى طول الرَّاحة إذا كان يُورث الغفلة ، ولا فى الكفاية إذا كان يؤدِّى إلى المَعجَزة ، ولا فى كثرة الغِنى إذا كان يخرج إلى البلدة[٢] .

جُعلتُ فداك . إنّ دَاء الحزنَ وإن كان قاتلاً فإنه داء مُماطِل ، وسقمه سقم مُطاوِل ، ومعه من التمهُّل بقدر قسطه من أناة المِرَّة السوداء . وداء

(١) فى الأصل : « عواملها » ، صوابه فى م .

(٢) فى الأصل : « كثرة العى » ، صوابه فى م . والبلدة ، بالفتح وبالضم أيضاً : البلادة ، ضد النفاذ والذكاء والمضاء فى الأمور .

الغَيْظ سفيهٌ طيّاش ، وعَجولٌ فحّاش ، يُعجِل عن التوبة ، ويقطع دون الوصيّة ، ومعه من الخُرْق بقدر قسطِه من التهاب المِرّة الحمراء . [والعجول يخطئُ وإن ظفِر ، فكيف به إذا أخفق . على أنّ إخفاقه يزيد فى حقيقة خطئه كما أنّ ظفره لا ينتقص من مقدار زلله[١]]. وأنت روحٌ كما أنت وحشىّ من قرنك إلى قدمك . وعمل الآفة فى الدِّقاق والعتاق أسرع ، وحدُّها عن الغلاظ الجُفاة أكَلّ ؛ فلذلك اشتدّ جزعى لك من سُلطان الغيظ وغَلَبته .

٩٣ ظ

والله لو كنتُ ابتلعتُ مزار بابك ، وأبطلت بمر الباطل[٢] ، ووردت[٣] الفظائع كلَّها ، ونقضت الشُّروط بأسرها ، وأفسدت نتاجك ، وقتلت كلّ شِطر نجىٍّ لك ، ورفعتُ من الدنيا فراهة الخيل ، وجعلتُ المروجَ كلَّها حمًى ، وكنت صداق المرادين[٤] ، وبِرسام الأولاد ، ومسخت جميع الجوارى فى صورة أبى رملة[٥] ورددت شِطاط خَلْقك إلى جُعودة أبى حثّة[٦] وكنت أول من سنّ بَيع الرجال فى النخّاسين ، وفتَحَ باب الظُّلم لأصحاب المظالم ، وحوّلت إليك عقل أبى دينار ، وطُبعت على بيان ما نَويه ، وأعنت على موت المعتصم ، وغضبت لمصرع الأفشين[٧] ، واستجبت للديك الأبيض

---

(١) التكملة من ب .

(٢) كذا وردت العبارة .

(٣) فى الأصل : « ورددت » .

(٤) كذا . وجعلت فى ط : « جذم المردان » .

(٥) لم أجد له ذكراً فى كتب الجاحظ ، كما لم أجد ذلك لأبى حثة التالى .

(٦) الشطاط ، كسحاب وكتاب : الطول وحسن القوام . والجعودة : القصر .

(٧) الأفشين ، بفتح الهمزة وكسرها، كما فى وفيات الأعيان ٢ : ٦٥. واسمه =

الأفرق[١] وأحببت صالح بن حنين[٢]، وأحوجتك إلى حاتم الرِّيش[٣]، وكان أبو الشَّمَّاخ صديقى، والفارسىُّ من شيعتى ـ لـكان ما تركبُنى به سرفا، ولـكنتَ فى هذا العِتاب[٤] متعدِّيا.

جُعلتُ فداك، لا تتعرضْ لعداوة عُقلاء الرُّواة، ولضغينة حُفّاظ المثالب، وللسانِ من قد عُرف بالصِّدق والتوخِّى، وبقلّة الخطل والتنكُّب[٥]، ما وجدتَ عن ذلك مندوحة، ووجدت المذْهَبَ عنه واسعاً. ولا تعاقبْ وادًّا وإن اضطرّك الوادّ، ولا تجعلْ طُولَ الصُّحبة سبباً للتضجُّر، واصبرْ على خَلَقه فإنّ خَلَقَه خيرٌ من جديد غيره. وصَداقة المُتطرِّف غُرور[٦]،

ـــــــــــــــ

= خيذر بن كاوس، وكان مقدم قواد المعتصم، ثم غضب عليه المعتصم فصلبه هو وبابك ومازريار فى سنة ٢٢٦.

(١) الأفرق: المفروق العرف. وفى الأصل: «للدين» صوابه فى ب كما فى حواشى ط. وكلمة «الأبيض» ساقطة من ب كما أن كلمة «الأفرق» ساقطة من الأصل وثابتة فى ت. وكان العامة فى زمن الجاحظ يتبركون بالديك الأبيض الأفرق يزعمون أنه يطرد الشيطان من البيت. الحيوان ٢: ٢٠٧، ٢٥٩ ولـكنهم أيضاً كانوا يقضون على من كان فى داره ديك أبيض أفرق بالزندقة. الحيوان ٢:٢٠٧.

(٢) يبدو أنه كان أحد البغضاء الثقلاء، ذكره أيضاً فى البخلاء ٦. قال الجاحظ: «ولو ولد نادرة حارة فى نفسها مليحة فى معناها، ثم أضافها إلى صالح بن حنين وإلى ابن النواء وإلى بعض البغضاء، لعادت باردة، ولصارت فاترة».

(٣) كان حاتم هذا من ندماء صالح بن هارون الرشيد، قرينا لأبى الواسع، وقنينة، وحسين بن الضحاك. الأغانى ٦: ١٠٤. وسماه أبو الفرج فى ٦: ١٩٥ «حاتم الريش الضراط».

(٤) ط: «العقاب» خلافا لما فى الأصل.

(٥) التنكب، أراد به العدول عن الصواب والحق. وفى الأصل: «التكسب»

(٦) جعلت فى ط: «غرر» بمعنى الخطر.

وملالة الصَّديق أفْن ، والعلم بأقدار[1] الذُّنوبِ غامض ، وحدودُ الذنوب فى العقاب خفيّة . ولن يعرف العقابَ من يجهل قَدر الذَّنب . والأجرام كثيرة الأشكال ، ومتفاوتة فى الأقدار[2] . وإذا أردت أن تعرف مقدار الذنب إليك من مقدار عقابك عليه فانظر فى علَّته وسببه ، وإلى معدنه الذى منه نَجَم ، وعُشِّه الذى منه دَرج ، ومغرِسه الذى منه نبت ، وإلى جهة صاحبه فى التَّتايُع والتَّترُّع[3] ، وفى النزوع والثَّبات ، وإلى قِحَته عند التقريع ، وإلى حيائه عند التعريض ، وإلى فِطنته عند الرشق والتورية[4] ؛ فإنّ فَضْل القطنة ربّما دلّ على فرط الاكتراث ، وعلى قدر الاكتراث يكون الإقدام والإحجام . فكلُّ ذنبٍ كان سببه الدالَّة وضيق صدرٍ وغلظ طباعٍ وحدّة مِرارٍ ، من جهة تأويل أو من جهة غلط فى المقادير ، أو من طريق [فرط[5]] الأنفة وغلبة طباع الحِميّة من بعض الجَفْوة أو لبعض الأثْرة ، أو من جهة استحقاقه عند نفسه وفيما زيّن له من عمله ، وأنّه مقصَّر به مؤخَّر عن مرتبته ، أو كان مبلَّغاً عنه أو مكذوباً عليه ، وكان ذلك جائزاً عليه غير ممتنع فيه —

٩٤ و

---

(١) فى الأصل : « باقرار » .

(٢) فى الأصل : « الأقدام » .

(٣) التتايع فى الشىء: التهافت فيه والإسراع إليه . والترع : التسرع إلى الشىء. وفى الأصل : « التتايع والتبرع » والوجه ما أثبت .

(٤) المراد بالرشق الإصابة بالقليل من الكلام . والتورية : الكناية التى لايفهمها إلا الفطن . ومنه التورية البلاغية التى يراد باللفظ فيها غير المتبادر من معناه . وفى الحديث : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد سفرا ورى بغيره ، أى ستره وكنى عنه وأوهم أنه يريد غيره . وفى الأصل : « التودية » تحريف .

(٥) التكملة من ب .

فإذا كانت ذنوبه من هذا الشكل وعلى هذه الأسباب ، وفى هذه المجارى ، فليس يقف عليها كريم ،[ولا يلتفت لها حليم[1]] .

ولست أسمِّيه بكثرة معروفه كريماً حتى يكون عقله غامراً لعلمه ، وعلمه غالباً لطبعه ، وحتى يكون عالماً بما ترك ، وعارفاً بما أخذ . واسم الحليم جامع للكظم ، والقدرة ، والفهم .

فإذا وجدتَ الذنبَ بعد ذلك لا سببَ له إلاّ البغضة فلو لم ترض لصاحبه بعقابٍ دون قَعر جهنم لَعذَرك كثيرٌ من العُقلاء ، ولصوّبَ رأيك عالَمٌ من الأشراف .

ومتى كانت علّته طبيعةَ البَذاء[2] ، وخُلقه الشّرارة والتسرُّع[3] ، فاقتله قتلَ العقارب ، وادمغه دمغَ رءوس الحيات .

وإذا كان ممن لا يسىء فيك القول ، ولا يرصُدك بالمكروه إلاّ لتعطيه على الخوف ، وتمنع عِرضك من جهة التقيَّة فامنعه جميلَ رفدك ، واحتلْ فى منعه من قِبَل غيرك ؛ فإنّك إن أعطيتَه على هذه الشريطة ، وأعظَمْته من هذه الحكومة فقد شاركته فى سبِّ نفسك ، واستدعيت الألسنةَ البذيّة إلى عرضك ، وكنتَ عوناً لهم عليك .

وكيف تعاقبه على ذنبٍ لك شطره ، وأنت فيه قَسيمُه[4] ، إلا أنّ عليك غُرمه ولك غُنمه .

---

(١) التكملة من ب .

(٢) فى الأصل : « البدا » ، والوجه ما أثبت . وقد قرئت فى ط : « الداء » خطأ .

(٣) الشرارة : مصدر شر يشر شرا وشرارة ، بضم شين المضارع وكسرها .

(٤) فى الأصل : « قسمه » .

ومن العدل المحض والإنصاف الصحيح أن تحطَّ عن الحسود نصفَ عقابه ، وأن تقتصر على [بعض[1]] مقداره ، لأنّ ألم حسدِه لك قد كفاك مؤونة شَطْر غيظك عليه .

وأما الوادُّ فلا تعرِضْ له البتة ، [ولا تلتفِتْ لِفتَه[2]] ، ولو أتى على الحرث والنسل ، وحتى على الرُّوح والقلب . ولا تغتر بقوله إنّى وادٌّ ، ولا تحكم له بدعواه بأنى جدّ وامق . وانظر أنت فى حديثه وإلى مَخارج لفظه ، ٩٤ ظ وإلى لحن قوله ، وإلى طريقته وطبيعته ، وإلى خلقه وخليقته ، وإلى تصرُّفه وتصميمه[3] وإلى توقُّفه وتهوُّرِه . وتأمَّلْ مقدارَ جزعه من قلة اكتراثه ، وانظر إلى غضبه فيك ولك ، وإلى انصرافه عمن انصرفَ عنك وميله إلى من مال إليك ، وإلى تسلُّمه من الشر وتعرُّضه له ، وإلى مُداهنته وكَشْف قناعه . بل لا تَقضِ[4] له بجِماع ذلك ما كان ذلك فى أيام دولتك ومع إقبالٍ من أمرك ، وإن طالت الأيامُ وكثرت الشهور ، حتى تنتظم الحالاتُ ، وتستوىَ فيه الأزمان .

نعم ، ثمَّ لا تحكم له بذلك حتى تكون حالُه مقصورةً على محبَّتك ، ومحنوَّة على نصيحتك ، بالعلل التى توجب الأفعال . والأسبابُ التى تسخّر القلوب للمودّات ، كالعلل الثابتة فى الصنيعة ، والأسباب الموجودة مع مولى

---

(١) ليست فى الأصل .

(٢) التكملة من ب .

(٣) التصميم : المضى فى الأمر بعد إرادته . وفى الأصل : « تصميه » .

(٤) فى الأصل : « لايقضى » .

العَتَاقة ؛ فإنَّ عللهما خلافُ عِلل مولى الكَلالة[١] ، وخلاف علل الصَّديق الذى لم يزل يرى أنَّه مثلك ، وأنه يستوجب منك استيجابك ، ولا سيما إذا كانت الصنيعة أنت ابتدأتَها ، وأنت أبو عُذْرتها .

فإن أنت لم تحكم له بالغاية مع اجتماع هذه العلل فيه ، ومع توافيها إليه ، ولم تقضِ له بأقصى الغاية مع ترادفِ هذه الأسباب وتكامُل هذه الدلائل ، وتعاون هذه البرهانات ، فكل خبرٍ بيِّنَه زُور ، وكلُّ دلالةٍ فاسدةٌ . وقد قال الأول : « دلائل الأمور أشد تثبيتًا من شهادات الرجال» . إلاَّ أن يكون فى الخبر دليل ، ومع الشَّهادة برهان ؛ لأنَّ الدليل لا يكذب ولا ينافق ولا يزيد ولا يبدِّل ، وشهادة الإنسان لا تمتنع من ذلك ، وليس معها أمانٌ من فسادٍ ما كانَ الإمكانُ قائماً .

وبعد متى صار اختيار النَّخل على الزرع يُحقد الإخوان ، ومتى صار تفضيل الحَبّ وتقريظ الثَّمر يورث الهِجران ، ومتى تَميَّزوا هذا التميُّز[٢] وتهالكوا هذا التهالك ؟ ومتى صار تقديم النخلة ملّة ، وتفضيل السنبلة نِحْلة[٣] ؟ ومتى صار الحكم للنَّعجة نسباً وللكَرْمة صِهراً ، ومتى[٤] تكون فيها ديانة وتَستحكم فيها بَصِيرة ، ويحدُث عنها حَمِيَّة .

---

(١) الكلالة من القرابة : ما خلا الوالد والولد .

(٢) فى الأصل : « التميز » .

(٣) فى الأصل : « منحة » .

(٤) فى الأصل : « وحق » .

وقد كنا نَعجب من حرب البسوس فى ضَرع نابٍ[١] ، ومن حرب بُعاثٍ فى مِخرفِ تمرٍ[٢] ، ومن حرب غَطَفان فى سَبَق دابّة[٣] . فجئتنا أنت بنوع من العجَب أبطلَ كلَّ عجب ، وآنسَنا بكل غريب ، وحسَّن عندنا كلَّ قبيح ، وقرّبَ عندنا كلَّ بعيد . ٩٥و

فإنْ جهلتُ ـ أعزَّكَ اللهُ ـ غضبَكَ فمثلى جَهِلَ مالاعلّةَ له ، وإنْ عَجَزتُ عن احتمال عقابك فمثلى ضجَّ ممالا يطيق حمله . ولا عارَ على جازعٍ إلاّ فيما يمكن فى مثله الصبر ، ولا لومَ على جاهل فيما لا ينجح فى مثله الفكر .

وليس هذا أوّلَ شَرَكٍ نصبتَه ، ولا أوّلَ كيد أرَغْتَه ، ولا هى بأول زُبْيَة غطّيتَها وسَترتَها ، وحيلةٍ أكمنتها ورَبَصتها .

وقد كانت التقيَّة والاقتصاد أسلم ، بل كان العَفْو أرحم ، والتغافلُ أكرم .

---

(١) كانت للبسوس بنت منقذ التميمية ، خالة جساس بن مرة ، ناقة يقال لها «سراب» ، فرمى كليب ضرع تلك الناقة بسهم وقد رآها غريبة فى إبله ، فاستغاثت البسوس بخالها جساس ، فطعن جساس كليبا فقتل ، فوقع الشر بينهم لذلك . العقد ٥ : ٢١٣ وما بعدها .

(٢) المخرف بكسر الميم : زبيل صغير يخترف فيه أطايب الرطب . وبفتحها : الحائط من النخل . وانظر لحرب بعاث الأغانى ١٥ : ١٥٤ — ١٥٨ وكامل ابن الأثير ١ : ٤١٧ ووفاء الوفاء ١ : ٢١٥ حيث تتضح لك إشارة الجاحظ إلى المخرف بفتح الميم وكسرها معا .

(٣) السبق ، بالتحريك : الذى يوضع بين أهل السباق ، فمن سبق أخذه . يشير بذلك إلى حرب داحس والغبراء ، حين صد أتباع حمل بن بدر صاحب الفرس التى تسمى الغبراء ، فرسَ قيس بن زهير وكان يسمى « داحسا » . فثارت الحرب بين عبس وذبيان ابنى بغيض بن ريث بن غطفان أربعين سنة . العقد ٥ : ١٥٠ =

ولا خير فى عقوبة تشمت العدوَّ المتقادم[١] ، ويُنادى بها العدوُّ الحادث .
والأناة أبلغ فى الحزم ، وأبعد من الذمّ ، وأحمد مَغَبّةً وأبعد من خُرق العَجَلة .
وقد قال الأول : « عليك بالأناة ؛ فإنك على إيقاع ما أنت مُوقِعُه أقدر منك
على ردِّ ما قد أوقعته » . فقد أخطأ من قال[٢] :

قد يُدرك المتأنِّى بعضَ حاجته   وقد يكون مع المستعجل الزللُ

بل لو قال : والمتأنِّى يِدرك حاجاته أحقّ ، والمستعجل بفَوت حاجاته
أخلَق ، لـكان قد وفَّى المعنى حقّه ، وأعطى اللّفظ حَظَّه ، و [إن[٣]] كان
القول الأوّل موزوناً والثانى منثُوراً[٤] . ولولا أنه اشتقّ المستعجل من
العجلة لما قرنَه بالمتأنّى . وينبغى أن يكون الذى غلَّطه قولُهم : « ربَّ
عَجلة تَهَب ريثاً » . فجعل الـكلام الذى خرجَ جواباً عند ما يعرض من
السبب ، كالـكلام الذى خرج ارتجالا ، وجعـله صاحبه مثلاً عاماً .
فإذا سمّيتَ العمل عجلةً وريثاً فاقضِ على الريث بكثرة الفوت ، وبقدر ذلك من
العجز ، وعلى العجلة بِقلّة النُّجح ، وبقدر ذلك من الخرق .

والرَّيثُ والأناة فى بلوغ الأمل وإدراكِ النّعمة كانتهاز الفرصة واهتبال

= والأغانى ٧ : ٣٤٣ وكامل ابن الأثير ١ : ٣٤٣ ، وجمهرة أنساب العرب ٢٥٠ ، ٢٥١ .

(١) فى الأصل : « القادم » . والمتقادم : القديم .

(٢) هو القطامى . ديوانه ص ٢ ونوادر المخطوطات ١ : ١٦٧ . وانظر مجالس ثعلب ٤٣٧ والمحاسن للبيهقى ٢ : ١٣٣ .

(٣) ليست فى الأصل .

(٤) فى الأصل : « مبتورا » .

الغِرّة . والأناة وإن طالت [فليستْ من جنس الريث[١]] ، وانتهاز الفرصة وإن كانَ فى غاية السُّرعة فليس من جنس العجلة .

وربّتَ كلمة لا توضع إلّا على معناها الذى جُعلَتْ حظَّه ، وصارت هى حقَّه والدالَّةَ عليه دون غيره ، كالحزم والعلم ، والحلم والرِّفق ، والأناة والمداراة ، والقصد والعدل والاهتبال ، وكاليأس والأمَل[٢] ، وكالُخرْق والعَجَلة ، والمداهنة والتسرُّع ، والغلوّ والتقصير .

٩٥ ظ

وربّت كلمةٍ تدور مع خُلَّتها ، وتتقلّب مع جاراتها[٣] ، وإزاء صاحبتها[٤] ، وعلى قدر ما تُقابل من الحالات ، وتُلاقِى من الأسباب ، كالحبِّ والبُغض ، والغضب والرِّضا ، والعزم والإرادة ، والإقبال والإدبار ، والجِدّ والفتور[٥] ؛ لأن هذا الباب الأخير يكون فى الخير والشرّ ، ويكون محموداً ويكون مذموما .

وصاحب العَجَلة ـ أعزّكَ الله ـ صاحب تغريرٍ ومخاطرة ، إن ظفر لم يحمده عالمٌ ، وإن لم يظفر قطعَتْه اللاوم . والرَّيث أخو المَعجَزة ، ومقرون بالحسرة ، وعلى مَدرَجة اللائمة . وصاحب الأناة إن ظفر نفع غيره بالغُنم ، ونفع نفسَه بثمرة العلم ، وأطاب ذكره دوامُ شكره[٦] ، وحُفظ فيه ولدُه . وإن حُرِم

(١) هذه التكملة مساوقة لأسلوب الجاحظ ، وهى من مقترحات ناشر ط .

(٢) فى الأصل : « البأس والأمن » . وفى م : « اليأس والأمن » .

(٣) فى الأصل : « جاراتها » ، وأثبت ما فى م .

(٤) فى الأصل و م : «وإرادة صاحبتها» . وما أثبت أشبه بأسلوب الجاحظ .

(٥) فى الأصل : « والفتوة » ، صوابه فى م .

(٦) م : « وطاب ذكره ، ودام شكره » .

فمبسوطٌ عذرُه ، ومصوَّب رأيه مع انتفاعه بعلمه وما يجد من عزِّ حزمه ونبل صوابه[١] ، ومع علمه بالذى له عند العقلاء ، وبعذرِه عند الأولياء والأعداء .

وما عندى لك إلَّا ما قال الدِّهقان[٢] لأسد بن عبد الله[٣] وهو على خراسان ، حين مرّ به وهو يُدهَق فى حَبْسِه[٤] :

إن كنت تعطى من تَرحم فارحم من تَظلِم[٥] . إنَّ السموات تنفرج لدعوة المظلوم ، فاحذر من ليس له ناصر إلَّا الله ، ولا جُنَّةٌ إلا الثِّقة بنزول الغِيَر[٦] ، ولا سلاحٌ إلَّا الابتهال إلى مولًى لا يُعجزه شىء .

يا أسدُ ، إنَّ البغىَ يصرع أهله ، وإنَّ الظُّلم مرتعه وخيم ، فلا تغترّ بإبطاء العقاب[٧] من ناصرٍ متى شاء أن يغيث أغاث . وقد أملَى لِقومٍ كى يزدادوا

---

(١) فى الأصل : « وقبل صوابه » ، صوابه فى م .

(٢) الدهقان ، بالكسر : زعيم فلاحى العجم ، فارسى معرب .

(٣) هو أسد بن عبد الله القسرى ، أخو خالد بن عبد الله ، كان خالد على العراق وما يليه من الأهواز وفارس والجبال ، وأخوه أسد على خراسان . وكان بدء ولايتهما فى سنة ١٠٦ وعزلا سنة ١٢٠ . تاريخ الطبرى .

(٤) الدهق : التعذيب بالدهق ، وهو بالتحريك : خشبتان يغمز بهما الساق ، وهو بالفارسية « أشكنجه » . وفى الأصل : « فى حبه » تحريف . وفى العقد ٢ : ١٦١ : « ومر أسد بن عبد الله القسرى ، وهو والى خراسان ، بدار من دور الاستخراج ، ودهقان يعذب فى حبسه ، وحول أسد مساكين يستجدونه ، فأمر لهم بدراهم تقسم فيهم ، فقال الدهقان ... » .

(٥) فى العقد : « إن كنت تعطى من يرحم فارحم من يظلم » الفعلان « يرحم » ، و « يظلم » بالبناء للمفعول .

(٦) الغير : اسم بمعنى تغير الحال . وفى الأصل : « التغير » .

(٧) فى العقد : « الغيثات » .

إثماً[١] . وجميعُ أهل السَّعادة إمَّا سالمٌ من ذنب ، وإما تاركٌ لإصرار[٢] . ومن رغب عن التَّمادى فقد نال أحد الغُنمين ، ومن خَرج من السعادة فلا غايةَ له إلا دار الندوة[٣] . وسواء — جُعلت فداك — ظَلَمتَ بالبطش والغَشْم ، أو ظلمت بالدَّحس والدَّسّ[٤] . فشاوِرْ لُبَّك ، وناظر حزمك ، وقِفْ قبلَ الوثبة ، واحذر زَلَّة العالِم .

٩٦ و

وقد قال صاحبكم : من استشار اللَّلالة وقلَّد طبيعتَهُ الاستطرافَ ، وجعل الخَطْرة ذنبا[٥] ، والذنب ذنوباً ، ومقدار الطَّرفة إصرارا ، والصَّغيرَ كبيرا ، والقليل كثيرا ، عاقَب[٦] على المتروك الذى لا يُعبأ به ، وبَلغ بالبطش إلى حيث لا بقيَّةَ معه[٧] ، ورأى أن القطيعة التى لا صلة معها ، والتخليج الذى لا تجمُّل معه ، الحزمُ المحمود ؛ وأنَّ الاعتزامَ فى كلّ موضعٍ هو الرأى الأصيل .

وقال أيضاً : من كانت طبيعته مأمونة عليه عند نفسه ، وكان هواه رائده الذى لا يكذبه ، والمتأمِّر عليه دون عقله ، ولم يتوكَّل لما لا يهواه على

---

(١) إلى هنا ينتهى نص العقد . وفيه : « وقد أملى لقوم ليزدادوا إثما . فأمر أسد بالكف عنه » .

(٢) فى الأصل : « الإصرار » .

(٣) كذا فى الأصل ، وجعلت فى ط : « الشقوة » .

(٤) الدحس : التدسيس للأمور تستبطنها وتطلبها أخفى ما تقدر عليه .

(٥) الخطرة : ما يقع بالبال والوهم .

(٦) فى الأصل : « وعاقب » ، والواو مقحمة .

(٧) البقية : الإبقاء وعدم المبالغة فى الإفساد .

ما يهواه[١] ، ولم ينصر تالدَ الإخوان على الطارف ، ولم ينصف المملول المبعَد من المستطرف المقرَّب ، ولم يخَفْ أن تجتذبه العادة ، وتتحكم عليه الطبيعة ، فليرسم حُججَهما ، ويصوِّرْ صورَهما ، فى كتابٍ مفرد أو لفظ مسموع ، ثم يعرضْهما على جهابذة المعانى وأطباء أدواء العقول ، على ألا يختار إلّا مَن لا يدرى أىَّ النوعين يبغى ، وعلى أيِّهما يحامى ، وأيُّهما دواؤه وأيُّهما داؤه . فإن لم يستعمل ذلك بما فضَل له من سكر سوء العادة ، لم يزل متورِّطًا فى الخطاء مغموراً بالذم[٢] .

سمعتُك وأنت تريدنى وكأنَّك تريد غيرى ، وكأنَّك تشير علىَّ من غير أن تنصَّنى . وتقول : إنّى لأعجب ممَّن تركَ دفاتر علمه متفرِّقة مبثوثة ، وكراريسَ درسِه غير مجموعة ولا منظومة ، كيف يعرِّضها للتجرُّم[٣] ، وكيف لا يمنعها من التفرُّق[٤] . وعلى أنَّ الدفتر إذا انقطعت حِزامته[٥] ، وانحلَّ شِداده ، وتخرَّمت رُبُطه ، ولم يكن دونه وقاية ولا جُنَّة ، تفرَّقَ ورقُه ؛ وإذا تفرَّق ورقه اشتدَّ جمعُه ، وعسُر نظمه ، وامتنع تأليفه ، وربَّما ضاع أكثره . والدَّفتانِ أجمع ، وضَمُّ الجلود إليها أصْوَن ، والحزم[٦] لها أصلح . وينبغى للأشكال أن تُنظم وللأشباه أن تؤلَّف ؛ فإنَّ التأليف يزيد الأجزاء الحسنة حسنا ، والاجتماع

---

(١) فى الأصل : « ولم يتوكل لما يهواه » فقط ، وأثبت نص م .

(٢) م : « بالذنب » .

(٣) التجرم ، من الجرم وهو القطع . وفى م : « للتخرم » من الخرم .

(٤) م : « التخرق » .

(٥) الحزامة والحزام : اسم لما شد به .

(٦) الأصل : « والحرز » ، صوابه من م .

يحدث للمتساوى[1] فى الضعفِ قوة . فإذا فعلتَ ذلك صرتَ متى وجدت بعضَها فقد وجدتَ كلَّها ، ومتى رأيت أدناها فقد رأيت أقصاها ؛ فإن نشِطت لقراءة جميعها مضيتَ فيها .

وإذا كانت منظومةً ، ومعروفةَ المواضع معلومة ، لم تحتج إلى تقليب القماطر على كثرتها ، ولا تفتيش الصناديق مع تفاوت مواضعها ، وخفّت عليك مؤونتها وقلت فكرتك فيها ، وصرفت تلك العناية إلى بعض أمرك ، وادّخرتَ تلك القوّةَ لنوائب غدك . ٩٦ ظ

وعلى أن ذلك أدلّ على حبّك للعلم ، واصطناعك للكتب ، وعلى حسن السياسة ، والتقدم فى إحكام الصناعة .

وقلت : لأمرٍ ما جمعوا أسباع القرآن[2] وسُورَه فى مصحف ، ولم يدَعوا ما فيه مفرّقاً فى الصُّدور ، ولا مبدّدًا فى الدفاتر ، ومفرّقاً فى القماطر . على ذلك أجمع المسلمون ، والسابقون الأولون ، والأئمة الرشيدة ، والجماعة المحمودة ، فتوارثه خلفٌ عن سلف ، وتابعٌ عن سابق ، وصغير عن كبير ، وحديثٌ عن قديم .

ولم أشكَّ فى أنها نَصيحة حازم ، ومشورةُ وامق ، أو رأىُ حَضِر أو حكمة

(١) فى الأصل : « للساوى » ، وأثبت ما فى م .

(٢) تكفل أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب قديماً فى أماليه ٦٣ — ٧٠ ببيان نصفى القرآن وأثلاثه وأرباعه وأخماسه وأسداسه وأسباعه وأثمانه وأتساعه وأعشاره . رواية عن حميد الأعرج . وكذا فعل السجستانى بعده فى المصاحف ١٢٥ — ١٣٠ رواية عن حميد أيضا .

نبغَتْ ، أو صدرٌ جاش فلم يُملَك ، أو علمٌ فاضَ فلم يُرَدّ ، استعملَه من استعمله ، وتركه من تركه .

فلما أخذتُ بقولك ، وصرتُ إلى مشورتك وأكثرتُ حمدَ الله على إفادتك من العلم وحَظّ عنايتك من النّقْل[1] ، وجمعتُ البعض إلى البعض[2] ، والشَّكل إلى الشَّكل ، وتقدَّمتُ فى استجادة الجلود ، وفى تمييز الصنَّاع ، وفى تخيُّر البِياعات[3] ، وغرِمت المال ، وشَغَلت البال ، وجعلتها مصحفًا مصحفا ، وأجملتها صِنفًا صِنفا ؛ ورأيت أنّى قد أحكمت شأنى ، وجمعت إلىَّ أقطارى ، رأيتُ أن أنظر فيها وأنا مستلقٍ ولا أنظر فيها وأنا منتصبٌ ، استظهاراً على تَعب البدن ؛ إذْ كانتِ الأسافل مُثْقلة بالأعالى ، وإذ كان الانتصاب يُسرع فى إدخال الوهَن على الأصلاب ؛ ولأنَّ ذلك أبقى على نور البصر ، وأصلَح لقوّة الناظر ؛ إذْ كلُّ واحدٍ من هذه المصاحف قد أعجزَ يدِى بثِقَل جِرْمه ، وضيَّق صدرى بجفاء حجمه . وإذا ثقُل أنكأَ الصدرَ ، وأوهنَ العظم .

---

(١) فى الأصل : « وحط عناية » .

(٢) هذا من شواهد استعمال « بعض » مقرونة بأل فى قديم الآثار . وإن كان الأصمعى قد أنكره أشد الإنكار حين سئل عن قول ابن المقفع : « العلم كثير ولكن أخذ البعض خير من ترك الكل » . وأنكره أبو حاتم أيضاً وقال : « ولا تقول العرب الكل ولا البعض ، وقد استعمله الناس حتى سيبويه والأخفش فى كتبهما لقلة علمهما بهذا النحو ، فاجتنب ذلك فإنه ليس من كلام العرب » . وقال الأزهرى : « النحويون أجازوا الألف واللام فى بعض وكل وإن أباه الأصمعى » . اللسان (بعض) .

(٣) فى الأصل : « الساعات » ، وليس لها وجه ، والوجه ما أثبت . والبياعات : الأشياء التى يتبايع بها فى التجارة . وانظر الحيوان ٤ : ٣٦٩ . وفى اللسان : « والبياعة : السلعة » .

وإذا أنا نظرت فيها وأنا جالسٌ سدِرَتْ عينى[1] ، وتقوَّس ظهرى ، واجتمع الدمُ فى وجهى ، وأكرهتُ بصَرى على غير جهته ، وأجريت شُعاع ناظرى فى غير مجراه .

٩٧ و

وقد علمتَ — أبقاك الله — مع خِبرتك بمقابح الأمور ، ومواقع المنافع والمضارّ ، ثم بمصالح العباد والبلاد ، أنَّ من كان على مَقْطَع جبل ، أو على شُرُفات قصر ، فأرادَ رؤية السماء على بُعدها ، وجَد ذلك على العين سَهلا خفيفاً ، وإن أراد أنْ يرى الأرضَ على قُربها ، وجد ذلك على العين عِبئًا ثقيلا . فإن بدا لى أن يُقابل عينى به العبدُ ، أو تُواجِهَنى به الأمة ، كلّفتُ أخرقَ النّاس كفًّا ، وأقلَّهم وَفْقا[2] ، وأكثرهم التفاتا ، وأحضرَهم نعاسا ، وأقلَّهم على حالٍ واحدة ثَباتا ، وأجهلَهم بمقدار الموافقة ، ولِمقادير المقابلة ، وبحطِّ اليد ورفعها ، وإمالتها ونصبها . ثم رأيتُ فى تضجُّرهم وتكرُّههم وفِرارهم منه ، ماصيَّر تجشُّمى لثقَل وزنه ، ومُقاساتى لجفاء حَجْمه ، أهونَ على يدى ، وأخفَّ على قلبى . فإن تعاطيتُه عند ذلك بنفسى فشقاءٌ حاضر ، وإن ألزمتُه غيرى فغيظٌ قاتل . وحتَّى صارت الحال فيها داعيةً إلى ترك دَرْسها والمعاودة لقراءتها ، مع ما كان فيها من الفائدة الحسنة ، والمنافع الجامعة ، ومِن شَحْذ الطبيعة ، وتمكين حُسن العادة .

ولو لم يكن فى ذلك إلا الشُّغلَ عن خَوض الخائضين ، والبُعد عن لهو اللّاهين ، ومن الغِيبة للناس والتمنِّى لما فى أيديهم ، لقدكان نفعُ ذلك كثيراً ، وموقعُه من الدِّين والفرض عظيما .

---

(١) سدر بصره سدراً : تحير فلم يكد يبصر . (٢) الوفق ، بالفتح : الموافقة

ومتى ثَقُل الدرس تثاقلت النفس ، وتقاعست الطبيعة . ومتى دام الاستثقال أحدثَ الهجران . وإذا تطاولَ الكدّ رسَخ الزُّهد . وفى ترك النَّظر عَمى البَصر ، وفى إهمال الطبيعة كلال حدّ الطبيعة . وعلى قدر الحاجات تكون الخواطر ، كما أنّه على قدر غريزة العقل تصحُّ الحوائج[1] وتسقَم ، وعلى قدر كثرة الحاجة تتحرّك الجارحة ويتصرّف اللسان ، ومع قلة الحركة وبُعد العهد بالتصرُّف يَحدُث العى ويَظهر العجز ويُبطئ الخاطر . ومع ذهاب البيان[2] يفسد البرهان ، وفى فساد البرهان هلاكُ الدُّنيا وفساد الدِّين .

٩٧ ظ فقد بلغتَ ما أردتَ ، ونِلتَ ما حاولت . فحسُبك الآن من شَجّ من يأسوك ، ومن قَتْل من يقْتَل فيك .

جُعِلت فداك . إنّه ليس يومى منك بواجد ، وأنا على عقابك أوجَد . وليس يُنْجينى منك مَعقِل وَعِل ، ولا مَفازة سبُع ، ولا قَعر بحر ، ولا رأسُ طَود ، ولا دَغَل ولا دَحْل[3] ، ولا نَفقٌ ولا مغارة ولا مطمورة . وليس ينجينى منك إلاَّ مفازة المهلَّب[4] . فإن أعرتنى قلبَه وعلّمتَنى حيلته ، وأمكنتَنى من سِكِّينه . وإلاَّ فأنا أوّل من ابتلعته تلك الحيّة . ولا والله إنْ بى

---

(١) فى الأصل : « الجوائح » . والجوائح : الضلوع ، أو القصار منها . والوجه ما أثبت . وانظر ما قبله وما بعده .

(٢) بذا صححها ناشر ط . وفى الأصل : « البرهان » .

(٣) الدغل بالتحريك : الشجر الكثير الملتف . والدحل ، بالفتح : هوة تكون فى الأرض وفى أسافل الأودية يكون فى رأسها ضيق ثم يتسع أسفلها . وفى الأصل : « دخل » تصحيف .

(٤) كذا فى الأصل .

قوةٌ على الثُّعبان[١] ، فكيف التِّنِّين . أعفِنى من حيّة المهلّب ثم اقتلْنى أىّ قتلةٍ شئت .

إن احترستُ منك ألفيت لنفسى كدًّا شديداً ، وغمًّا طويلاً ، وطال اغترابى وافتراقُ أُلاّفى ، وتعرَّضت للعدوّ ، وتحرَّشْت بالسباع . فإن استرسلتُ إليك لم تَرَ أن تقتلنى إلاّ شرَّ قتلةٍ وآلمها ، ولمْ تعذّبنى إلا بأشدّ النِّقم وأطولها . ولو أردتَ ذبحى لاخترتَ الكليل على المُرهَف ، والتَّطويل على التذْفيف[٢] ، حتى كأنى علَّمت عليك : « شاه مات[٣] » ، أو أكلت سبعةً وأطعَمْتُك واحدة .

ولقد تقدَّمتَ فى المكر واستظهرتَ علىَّ فى الكيد ، حتى تولّيت ذلك فى صغار كتبى وفيما لا تَحفِل به من دوام أمرى ، وعلمتَ أن الدَّرس لليل وأن الا . . . . . . [٤] للنهار ، وأنَّ الكتاب لا يقرأ إلاَّ ليلاً والنِّيرانُ زاهرة ، والمصابيح مُقرَّبة . وعلمتَ أنَّ كلَّ من ضَعُف بصره وكلَّ نظره ، فإنّه أبداً أقربُ مصباحاً وأعظم ناراً . وأنّ[٥] المحرور المحترق ، والممرور الملتهب ، والبائس المتهافت ، إذا كان صاحبَ كتب ودرس ، أنَّه لا يجد

---

(١) أى ما بى قوة عليه .

(٢) التذفيف بالذال المعجمة : الإسراع فى القتل .

(٣) أى لحقك من الغيظ ما يلحق اللاعب بالشطرنج من قول صاحبه له : « شاه مات » .

(٤) بياض فى الأصل . وإزاءه فى هامش النسخة « جراوبه » .

(٥) فى الأصل : « فإن » .

بدًّا من الصبر على ما يُحرقه ويُعميه ، أو التركِ للقراءة فيها والتعرُّض لها . فخيّرتَني بين العمى والجهل . وما فيهما حظٌّ لمختار .

وقلتَ : إذا سَخُن[٢] بدنه سُجِن بوله ، وإذا سُجِن بوله جَرحَ مثانتَه وأحرق كُليته ، وطَبَخ فضول غِذائه ، وجَفّف ما فضل عن استمرائه فأحاله حصًى قاتلاً وصخراً جامداً ، وهو دقيق القضيب ضيِّق الإحليل ، فإذا حصاه يورثه الأُسْر[٣] ، وفى ذلك الأُسر تلفُ النفس أو غاية التعذيب .

٩٨ و وقلتَ : فإن ابتليتُ بطول عمره أقام فينا مشغولاً بنفْسه ، وإن ذهبَ عنّا فقد كفانا مؤونة الحيلة فى أمره .

جُعلتُ فِداك ، ما هذا الاستقصاء وما هذا البلاء ؟ ! وما هذا التتبُّع لغوامض المسألة ، والتعرُّض لدقائق المكروه ؟ ! وما هذا التغلغل فى كل شىء يُخْمِل ذكرى ؟ ! وما هذا الترقّى إلى كلِّ ما يحطُّ من قدرى ؟ !

وما عليك أن تكون كتبى كلها من الورق الصِّينىّ ، ومن الكاغَد الخُراسانىّ ؟ !

قل لى : لِمَ زيّنتَ النَّسخَ فى الجلود ، ولِمَ حثثتنى على الأَدَم ، وأنت تعلم أنَّ الجلودَ جافية الحجم ، ثقيلة الوزن ، إن أصابها الماء بَطلت ، وإن كان يومٌ لَثَقٍ استرخت . ولو لم يكن فيها إلاَّ أنّها تبغّض إلى أربابها نزولَ الغيث ، وتكرِّه إلى مالكيها الحَيا ، لكان فى ذلك ما كفَى ومنعَ منها .

---

(١) فى الأصل : « سجن » .

(٢) الأسر ، بالضم : احتباس البول . فى الأصل : « فأرى حصاه » .

قد علمتَ أنّ الورّاق لا يخطُّ فى تلك الأيام سطرا ، ولا يقطع فيها جلدا . وإن نَدِيت ـ فضلاً على أن تُمطَر ، وفضلاً على أن تغرق ـ استرسلَتْ فامتدّت . ومتى جفّت لم تَعُد إلى حالها إلاَّ مع تقبُّض شديد ، وتشنُّج قبيح . وهى أنتن ريحًا وأكثر ثمنًا ، وأحملُ للغش : يُغَشُّ الكوفىّ بالواسطىّ ، والواسطىّ بالبصرىّ ، وتعتَّق لكى يذهب ريحها وينجابَ شعرها[1] . وهى أكثر عُقداً وعُجَراً ، وأكثر خباطاً وأسقاطاً ، والصُّفرة إليها أسرع ، وسُرعة انسحاقِ الخطِّ فيها أعمّ . ولو أرادَ صاحبُ علم أن يحمل منها قدرَ ما يكفيه فى سَفَره لما كفاه حِملُ بعير . ولو أراد مثل ذلك من القُطْنىّ[2] لكفاه ما يحمل مع زاده .

وقلت لى : عليك بها فإنها أحمل للحكّ والتغيير ، وأبقَى[3] على تعاور العاريّة وعلى تقليب الأيدى ، ولرَدِيدِها ثمن ، ولطرسها مَرجوع ، وللمعاد منها ينوب عن الجُدُد . وليس لدفاتر القطنىّ أثمانٌ فى السُّوق وإن كان فيها كلُّ حديث طريف ، ولَطَفٍ مليح ، وعلم نفيس . ولو عرضتَ عليهم عِدْلها فى عدد الورق جلوداً ثم كان فيها كلُّ شِعر بارد وكلُّ حديث غثّ ، لكانت أثمنَ ، ولكانوا عليها أسرع .

٩٨ ظ

وقلت : وعلى الجلود يعتمد فى حساب الدواوين ، وفى الصِّكاك والعهود ، وفى الشُّروط وصُوَر العقارات . وفيها تكون نَموذجات النقوش ،

---

(١) فى الأصل : « شعره » .

(٢) أى المصنوع من القطن .

(٣) فى الأصل : « وأبقاه » .

ومنها تكون خرائط البُرُد[١] . وهنّ أصلح للجُرُب ولعِفاص الجَرَّة وسِداد القارورة . وزعمتَ أنّ الأَرَضة إلى الكاغَد أسرع ، وأنكرت أن تكون الفأرة إلى الجلود أسرع ، بل زعمت أنها إلى الكاغد أسرع وله أفسد ، فكنتَ سببَ المضرّة فى اتّخاذ الجلود والاستبدال بالكاغد ، وكنتَ سببَ البليّة فى تحويل الدفاتر الخِفاف فى المَحمل ، إلى المصاحف التى تُثقل الأيدىَ وتحطِّم الصدور ، وتقوِّس الظهور ، وتُعمى الأبصار .

وقد كان فى الواجب أن يدع الناس اسم المصحف للشىء الذى جمع القرآن دونَ كل مجلَّد[٢] ، وألاّ يَرُوموا جمع شىء من أبواب التعلُّم بين الدَّفّتين ، فيُلحقوا بما جعله السَّلفُ للقرآن غيرَ ذلك من العلوم .

دعْ عنك كلّ شىء . ما كان عليك أن يكون لى ولدٌ يُحيِى ذكرى ويَحوى ميراثى ، ولا أخرجَ من الدنيا بحسرتى ، ولا يأكلَه مُراءٍ يرصُدنى ، وابن عمّ يحسُدنى ، ولا يرتع فيه المعدِّلون فى زمان السَّوء[٣] ، ولا تُصطنع فيه الرجال ، ويُقضَى به الذِّمام . فقد رأيتَ صنيعَهم فى مال المفقود والمناسخة[٤] والوارثِ الضعيف ، ومن مات بغير وصية .

---

(١) الخريطة : هنة مثل الكيس تكون من الخرق أو الأدم تشرج على مافيها. والبرد : جمع بريد .

(٢) الجاحظ استعمل كلمة « المصحف » للدلالة على المجلد فى نهاية كل جزء من أجزاء الحيوان . انظر مقدمة الحيوان ص ٢٨ .

(٣) المعدلون : الذين يقيمون الأحكام .

(٤) التناسخ والمناسخة فى الميراث : موت ورثة بعد ورثة وأصل الميراث قائم لم يقسم .

جُعلت فداك ، إن النفوس لا تجود لمولى الكَلالة[١] بما تَجُود به لأولاد الأصلاب وما مسَّ تلك الأصلاب ؛ لأنَّ الرحم الماسَّة والقَرابة الملتصقة ، واللُّحمة الملتحِمة ، وإن أمَّلت التركة ونازعت إلى المورِّث ، فمعها ما يأطِرُها ويَثنيها ، ويُحزنها ويبكيها ، ويحرِّك دمها ويستغزر دمعَها . وقد يشفع للولد إلى أبيه حالٌ أبيّة كانت من أبيه .

وابن العمّ الذى ليس بالبعيد فيحُتّك من جَسده ، وليس بالقريب المحنوّ على رَحِمِه ، وسببُه الجاذبُ[٢] له إلى تمنِّى مماتى أمتنُ من سببه إلى تمنِّى بقائى ، وهو إلى الحال الموجبة للقسوة والغلظة أقرب منه إلى الحال الموجبة للرقَّة والعطف . وليس ينصرك إذَا نصَرَكَ ولا يحامى عليك لقرابته منك ، ولكنْ لعلمه بأنَّه متى خذلك حلَّ به ضعفك ، واجترأ بعد ضعفك عليه عدوُّه . فهو يريد بنصره من لا يجب عليه شكره ، ويقوّى ضعف غيره بدفع الضعف عن نفسه . ٩٩ و

جعلتُ فداك . ما كان عليك من بُنيٍّ صغير يكون لى ، ولا سيّما ولست عندك ممن يُدرِكَ كسبه أو تُبلَغ نصرته ، أو يُعايَن برّه أو يؤمَّل إمتاعه .

وما كان عليك مع كبَر سنّى وضَعف ركنى ، أن يكون لى ريحانةً أشمُّها وثمرةً أضمُّها ، وأن أجد إلى الأمانى به سببًا ، وإلى التلهِّى سلّما ، وأن تكثر لى من جنس سرور الحالم ، وبقدر ما يمتَّع به راجى السَّراب اللامع ، حتّى حبّبتَ قِصَر عمرى إلى وليِّى ، وشوّقته إلى ابن عمِّى ؛ وحتّى زدتَ فيما عنده

---

(١) الكلالة من القرابة : ما عدا الوالد والولد .

(٢) فى الأصل : « وسبب الجاذب » .

مع كثرة ما عنده ، وحتى صيّرنى حبُّه لموتى إلى حبِّ موته ، وتأميل مالى [إلى[١]] تأميلِ فقره ؛ وحتى شغلتَنى عمّن كان يشغل عدوّى عنى .

وسواء أعِبتَ علىّ ألا يكونَ لى ولدٌ قبل أن يكون ، أو عبتَ علىّ ألا يكون بعد أن كان . وإنما يعذّبُ الله على النيّة والقصد ، وعلى التوخّى والعمد .

وكما أنّه سواء أن تحتال فى ألا يكون لى مالٌ قبل أن أملكه . أو احتلت فى ألا يكون بعد أن ملكته .

وكنت لا أدرى ما كان وجهُ حبِّك لإعناتى ، والتشييد بذكر تراثى ، والتنويه باسمى ، ولا لمَ زهّدتنى فى طلب الولد ، ورغّبتنى فى سِيرة الرهبان .

فإذا أنت لم ترفع ذكرى فى الأغنياء إلّا لتَعرِض ذنبى للفقراء ، ولم تكثِّر مالى إلّا لتقوِّىَ العلّةَ فى قتلى ، فيالها مكيدةَ ما أبعَدَ غَورَها ، ويالها حُفرةً ما أبعدَ قعرَها . لقد جمع هذا التدبير لطافةَ الشّخص ودقّةَ المسلك ، وبُعد الغاية .

واللهِ لو دبّرها الإسكندر على دارا بن دارا ، أو استخرجها المهلَّب على سُفيان بن الأبرد ، وفُتِحتْ على هرثمة فى مكيدة خازم بن خزيمة ، ولو دبَّرها لُقَيم بن لقمان على لقمان بن عاد[٢] ، ولو أرَاغها[٣] قيس بن زهير على حِصْن ابن حذيفة ، ولو توجَّهتْ لكهّان بنى أسد على دُهاة قريش ــ لقد كان ذلك

(١) ليست فى الأصل .

(٢) انظر البيان ١ : ١٨٤ — ١٨٥ .

(٣) أراغها : أرادها وطلبها . وفى الأصل : « أذاعها » ، تحريف .

من تدبيرهم نادراً [بديعًا[١]] ، ولـكان فى مكايدهم شاذًّا غريبا . وإنَّها لترتفع عن قَصِيرٍ فى كيد الزَّبَّاء ، وعن جَذيمةَ فى مشاورة قَصير . وما إخالُها إلَّا ستدقُّ على ابن العاص ، وتغمُض على ابن هِنْـــد[٢] ، ويكلُّ عنها أخو ثَقيف[٣] ، ويستسلم لها ابن سُمَيَّة[٤] .

٩٩ ظ هذا والله التَّدبير لا مَخَاريق العَرَّاف ، وتزاويق الـكاهن ، وتهاويل الحاوى[٥] ، ولا ما ينتحلها صاحب الرَّئىّ[٦] ؛ بل تضلُّ فيها رُقَى الهند ، وتقرُّ بها سحرة بابل .

فلو كنتَ إذْ أردتَ ما أردتَ ، وحاولتَ ماحاولت ، رفعتَ قبل كلِّ شىء المؤانسة ، ثم أبيتَ المؤاكلة ، ثم قطعت البرّ[٧] ، ثم أذنت مع العامَّة ، ثم أعملتَ الحرمان ، ثم صرَّحت بالجفوة ، ثم أمرت بالحجاب ، ثم صرمت الحبل ، ثم عاديتَ واقتصدت، ثم من بعد ذلك كلِّه أسرفتَ واعتديت ، لـكنتُ

---

(١) التـكملة من ب .

(٢) هو عمرو بن هند .

(٣) يعنى الحجاج بن يوسف .

(٤) يعنى زياد بن أبيه

(٥) انظر الحيوان ٤ : ٣٧٠ .

(٦) الرئى : جنى يتعرض للرجل يريه كهانة وطبا ، يقال مع فلان رئى . وقد أرأى الرجل ، إذا صار له رئى من الجن . فى الأصل : « صاحب الرى » وفى ب : « ينتحها صاحب الدين » ، والصواب ما أثبت . انظر الحيوان ٤ : ٣٧٠ ، ٦ : ٢٠٣ .

(٧) فى الأصل : « الستر » .

واحداً ممن يصبر أو يجزع ، فلعلّي كنت أعيش بالرَّمَق[(١)] ، وأتبلّغ بحُشاشة النفس ، وأعلّل نفسي بالطمع الكاذب . ولكن لجاءات الحوادث وبَغتات البلاء لا يَقُوم لها الحجر القاسي ، ولا الجبل الراسي . فلم تَدعْ غايةً في صرف ما بين طبقات التعذيب إلّا أتيت عليها ، ولا فضولَ ما بين قواصم الظهر إلّا بلغتها . فقد مِتُّ الآن فمع مَن تعيش ؟ [بل قد قتلتني فمَن الآن تعاشر[(٢)] !] ، كما قال ديوست المغنّي لكسرى حين أمَر بقتله لِقتْله تلميذَه بلهبذ[(٣)] : قتلتُ أنا بلهبذ ، وتقتلني ، فمن يُطرِبُك ؟ قال : خلُّوا سبيلَه ؛ فإنّ الذي بقي من عمره هو الذي أنطقَه بهذه الحجّة .

ولكنّي أقول : قد قتلتَني فمع من تعيش ؟ أمَع الشِّطرنجيّين ؟ ! فقد قال جالينوس : إيّاك والاستمتاع بشيء لا يعمُّ نفعه[(٤)] .

إنّ الكلامَ إنما صار أفضلَ من الصَّمت ؛ لأنّ نفع الصمت لا يكاد يعدو الصّامت ، ونفع الكلام يعمُّ القائل والسامع ، والغائب والشاهد ، والراهن والغابر .

وقالوا : ومما يدلُّ من فضل الكلام على الصمت ، أنّك بالكلام تخبر عن الصَّمت وفَضْله ، ولا تخبر بالصَّمت عن فضل الكلام . ولو كان

---

(١) الرفق ، بالتحريك : قلة الماء . ولعل صوابها « الرمق » .

(٢) التكملة من ب .

(٣) في الأصل « بلهند » في هذا الموضع وتاليه .

(٤) الكلام بعده إلى قوله « من سلم » يبدو أنه دخيل من رسالة أخرى ، كما تنبه لذلك ناشرا ط .

الصمتُ أفضلَ لكانت الرسالةُ صمتًا ، ولكان عدمُ القرآن أفضلَ من القرآن .

وقد فرّق بينهما رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وفصّل وميّز وحصّل ، حيث قال : « رحم الله امرأً قال خيراً فغنم ، أو سكتَ فسلِم » . فجعل حظَّ السكوت السلامةَ وحدها ، وجعل حظَّ القول الجمعَ بين الغنيمة والسلامة . وقد يسلم من لا يغنم ، ولا يغنم إلّا من سلم .

فأمّا الدوابُّ فمن يضع المركبَ الكريم إلى الصّاحب الكريم ؟ ومن يَعدل إمتاع بهيمة بإمتاع أديب .

قالت ابنة النُّعمان : لم نر فيما جرّبنا من جميع الأصناف أبلغَ فى خير وشرٍّ من صاحب . ١٠٠ و

ولمّا عزمَ ابن زياد على الحُقنة بعد أن كان تفَحَّشها قال له حارثةُ بن بدر : ما أجِد أولى بتولّى ذلك من الطبيب . قال عُبيد الله : كلّا ، فأين الصاحب .

والله أنْ لو نُتجتَ فى كلِّ عام ألفَ شَبْديز[1] ، وأحبلت[2] فى كل ليلة أربعة آلاف ربرب ، وصار لك كلُّ نهر المبارك[3] بدلًا من بعض بابَك[4] .

---

(١) الشبديز : ضرب من الخيل قاتم اللون أصدأ ، ولفظه فارسى . معجم استينجاس ٧٣١ . وفى الأصل : « سبدين » ، صوابه فى ب .

(٢) فى الأصل : « وقمرت » وأثبت ما فى ب .

(٣) اسم نهر بالبصرة احتفره خالد بن عبد الله القسرى لهشام بن عبد الملك . وفى الأصل : « المبرك » .

(٤) بابك ، بفتح الباء الثانية : نهر فى بغداد منسوب إلى بابك بن بهرام بن بابك. معجم البلدان (نهر الطابق) .

وأكلتَ رأس الجُنَيد بن حاق الأشيم[١]، وأحْبَلتَ ابنَ ألْغَز[٢] من إفراط الشَّبَق، لما كان ينبغي لك أن تعاملنا بهذه المعاملة، ولا كان ينبغي أن تقتلنا هذه القِتلة، ولو اقتصرتَ من العقوبة على شيء دون شيء لكان أعدلَ، ولو عفوتَ البتّة لكان أمثل.

إنَّ الاعتزام على قليل العقاب يدعو إلى كثيره، ومبتدئ العقاب بعرَض لَجَاج. وليس يُعاقب إلَّا غضبان.

والغضب يغلب العزمَ على قدر ما مُكّن، ويحيِّر اللُّبَّ بقدر ما سُلِّط.

والغضب يصوِّر لصاحبه مثلَ ما يصوِّر السُّكر لأهله.

والغضبان يُشعله الغَضَب، ويَغلى به الغيظ، وتستفرغه الحركة، ويمتلئ بَدنُه رعدة، وتتزايل أخلاطه، وتنحلُّ عُقَده، ولا يعتريه من الخواطر إلَّا ما يزيده في دائه، ولا يسمع من جليسه إلَّا ما يكون مادّةً لفساده. وعلى أنّه ربَّما استُفرِغ حتَّى لا يسمع، واحترق حتَّى لا يفهم.

ولولا أنَّ الشيطان يريد ألَّا يخلوَ من عمله، ولا يقصِّرَ في عادته، لما وَسوَس إلى الغَضْبان ولا زَيّنَ له، ولما أغراه ولا فَتحَ عليه؛ إذْ كان قد كفاه، وبلغَ أقصى مُناه.

وليس يُصارع الغضبَ أيامَ شبابه وغَـرْبِ نابه شيءٌ إلَّا صَرَعه، ولا يُنازعه قبل انتهائه وإدباره شيءٌ إلَّا قَهره. وإنَّما يُحتال له قبل هَيْجه،

---

(١) كذا ورد هذا العلم.

(٢) ابن ألغز: رجل من إياد يزعمون أنه كان أعظم الناس عضواً وأشدهم نكاحا. ثمار القلوب ١١١ – ١١٢ وأمثال الميداني ٢: ٢٧٣ في قولهم (أنكح من ابن ألغز) واللسان (لغز). وفي الأصل: «واحتلت بين الغر»، صوابه في ب.

وَيُتوثَّق منه قبل حركته ، ويُتقدَّم فى حَسْم أسبابه وفى قطع علله . فإمَّا إذا تمكَّن واستفحل ، وأذكى ناره واشتعل ، ثم لاقَى ذلك من صاحبه قُدرة ، ومن أعوانه سمعًا وطاعة ، فلو سَعَطته بالتوراة ، ووجَرتَه بالإنجيل ، ولدَدْتَه بالزَّبور[١] ، وأفرغت على رأسه القرآن إفراغا ، وأتيتَه بآدم عليه السلامُ شفيعًا لما قصَّر دون أقصى قوَّته ، ولتمنَّى أن يُعارَ أضعاف قدرته .

وقد جاء فى الأثر : أن أقربَ ما يكون العبدُ مِن غضب الله إذا غضب . .. ظ

قال قتادة : ليس يُسكن الغضبَ إلَّا ذِكر غضب الرحمن عزّ وجلّ .

وقال عمرو بن عبيد : ذكر غضب الربّ يمنع من الغضب . إلَّا أن يريد الذكر باللسان[٢] .

ويسمَّى المتوجِّد غضبان ، والذَّكور حقودا .

فلا تقفْ ــ حفظك الله ــ بعد مضيِّك فى عقابى التماسًا للعفو عنِّى ، ولا تقصِّر عن إفراطك من طريق الرحمة لى ؛ ولكن قِفْ وقفة من يتَّهم الغضبَ على عقله ، والشيطانَ على دِينه ، ويعلم أنَّ للعقل خصومًا ، وللكرم أعداء .

وإنَّ من النِّصف أن تنتصف لعقلك من خَصمه ، وتنتصف لكرمك من عدوّه ، وتُمسكَ إمساكَ من لا يبرّئ نفسَه من الهوى ، ولا يبرّئ الهوى من الخطأ .

---

(١) سعطه الدواء : أدخله فى أنفه بالمسعط . وأو[جره] الدواء : أدخله فى فمه بالوجر . ولده باللدود : صبه بالمسعط فى أحد شقى الفم .

(٢) أى إن ذكر غضب الرحمن باللسان لا يصنع [شيئا] ، وإنما مراده ذكر الغضب بالقلب والفكر .

ولا تُنكر لنفسك أن تزلّ ، ولعقلك أن يهفُو ؛ فقد زلّ آدمُ عليه السلامُ وهفَا ، وعصَى ربَّه وغَوى ، وغرّهُ عدوُّه وخدعَه خصمُه ، وعيب باختلال عزمه وسكون قلبه إلى خلاف ثقته[1] . هذا وقد خلقَه الله بيده ، وأسكنَه فى دار أمنه ، وأسجَدَ له ملائكتَه ، ورفع فوق العالمِين درجته ، وعلَّمه جميع الأسماء بجميع المعانى . ولا يجوز أن يعلِّمه الاسَم ويدعَ المعنى ، ويعلِّمه الدلالة ولا يضع له المدلول عليه . والاسم بلا معنًى لغوٌ ، كالظَّرف الخالى . والأسماء[2] فى معنى الأبدان والمعانى فى معنى الأرواح . اللَّفظ للمعنى بدَنٌ ، والمعنى للَّفظ روح . ولو أعطاه الأسماء بلا معانٍ لكان كمن وهبَ شيئاً جامداً لا حركة له ، وشيئاً لاحسَّ فيه ، وشيئاً لا منفعة عنده .

ولا يكون اللفظ اسماً إلاّ وهو مضمَّن بمعنى ، وقد يكون المعنى ولا اسم له ، ولا يكون اسمٌ إلاّ وله معنًى .

فى قوله جلّ ذكره : ﴿ وعَلَّمَ آدمَ الأسماء كلَّها[3] ﴾ إخبارٌ أنّه قد علَّمه المعانىَ كلَّها . ولسنا نعنى معانىَ تراكيبِ الألوان والطُّعوم والأراييح ، وتضاعيف الأعداد التى لا تنتهى ولا تتناهى . وليس لما فضلَ عن مقدار المصلحة ونهاية الرسم اسمٌ إلاّ أن تدخله فى باب العلم فتقول : شىء ، ومعنًى .

الأسماء التى تدور بين الناس إنّما وُضِعتْ علاماتٍ لخصائص الحالات ،

(١) فى الأصل : « نعته » ، وأثبت مافى ب .
(٢) فى الأصل : « والاسم » .
(٣) الآية ٣١ من سورة البقرة .

لا لنتائج التركيبات . وكذلك خاصّ الخاصّ لا اسْمَ له إلاّ أن تجعل الإشارة المقرونة باللفظ اسماً .

وإنما تقع الأسماء على العلوم المقصورة ، ولعمرى إنّها لتُحيط بها وتشتمل . فأما العلوم المبسوطة فإنّها تبلغ مبالغ الحاجات ثم تنتهى .

١٠١ و

فإذا زعمتَ أنّ الله تبارك وتعالى علّم آدمَ الأسماء كلَّها بمعانيها ، فإنّما تعنى نهاية المصلحة لا غير ذلك . هذا وآدم هو الشجرة وأنت ثمرة ، وهو سماويٌّ وأنت أرضيّ ، وهو الأصل وأنت الفرع ، والأصل أحقُّ بالقوّة والفرعُ أولى بالضّعف .

فلست أسالك أن تمسك إلاّ ريثما تَسكُنُ إليك نفسُك ، ويرتدُّ إليك ذهنُك ، وحتَّى توازنَ بين شِفاء الغيظ والانتفاع بثواب العفو ، وترى الحلمَ وما يَجلب من السلامة وطيبِ الأحدوثة ، وترى تضرُّم الغضب[1] وما يفضى لأهله من فضل القوّة .

على أنّ العقل إذا تخلّص من سُكر الغضب أصابه ما يُصيب المخمورَ إذا خرج من سكر شرابه ، والمنهزمَ إذا عاد إلى أهله ، والمُبرسَم إذا أفاقَ من برسامه[2] .

وما أشكُّ أنّ العقلَ حين يُطلَق من إساره كالمقيَّد حين يفكُّ من قيوده ؛ يمشِي كالنَّزيف ، ويَحجِل كالغراب . فإذا وجبَ عليك أن تحذر على عقلك مُخامَرة داء الغضب بعد تخلُّصه ، وأن تتعمَّده بالعلاج بعد مباينته له وتخلُّصه

---

(١) فى الأصل : « الغرض » .

(٢) البرسام : ذات الجنب ، وهو التهاب فى الغشاء المحيط بالرئة . المعجم الوسيط .

من يده ، فما ظنُّك به وهو أسيرٌ فى مُلكه ، وصريع تحت كلكله ، وقد غطَّه فى بحره ، وغمَره بفضل قوّته .

وقد زعموا أنّ الحسَنَ حضر أميراً قد أفرطَ فى عقوبة بعض المُذْنبين ، فكلَّمه فلم يَحفِل بكلامه ، وخوّفَه فلم يتّعظ بزجره ، فقال : إنّك إنما تضرب نفسَك ، فإن شئتَ الآن فأقِلَّ ، وإن شئتَ فأكثِرْ .

ومَعاذ الله أن أقول لك كما قال الحسنُ لذلك الظالم المعتدى ، والصمّم القاسى ، ولكنّى أقول : اعلم أنّك تضرب من قد جعَلك مِن قتلِه فى حِلٍّ . وإن كان القتل يَحِلّ بإحلال المقتول ، ويسقط عنه عِقابُه بهبة المظلوم ؛ ولو أمكن فى الدين تواهُبُ قِصاص الآخرة فى الدُّنيا ؛ وإن كان ذلك مما تجود به النفس يومَ الحاجة إلى الثواب وإلى رفع العقاب ، وكان الوفاء مضموناً — لكنتُ أوّلَ من أسمحَتْ بذلك[1] نفسُه ، وانشرحَ به صدرُه .

١٠١ ظ جُعلت فداك ، إنّى قد أحصيتُ جميعَ أسباب التعادى ، وحصّلت جميع عِلل التضاغُن ، إلاّ علّةً عداوة الشيطانِ للإنسان ؛ فإنّى لا أعرف إلاّ مجازَها فى الجملة ولا أحقُّ خاصّتها على التحصيل . وعلى حالٍ[2] فقد عرفتها من طريق الجملة وإنْ جهلتُها من طريق التفصيل . فأما هذا التجنّى فلم أعرفه فى خاصٍّ ولا عامّ .

فمن أسباب العداوات تنافسُ الجيران والقرابات ، وتحاسُد الأشكال فى الصناعات . ومن أمتن أسبابهم إلى الشرّ وأسرعها إلى المروءة والعقل ،

---

(١) فى الأصل : « ذلك » . أسمحت : أطاعت وانقادت .

(٢) كذا فى الأصل وب . وإخالها من لغة الجاحظ ، وليس ما يدعو إلى أن تجعل « وعلى كل حال » .

وأقدحها فى العِرض وأحطبِها على الدين[١] ، التشاحُّ على المواريث ، والتنازع فى تخوم الأرَضين . فإن اتّفق أن يكون بين المتشاكلين فى القرابة كان السببُ أقوى ، والداء أدوَى . وعلى حساب ذلك إن جمعتَ هذه الخصومةَ مع الجوار والقرابة واستواء الحظّ فى الصناعة . ولذلك كتب عمر رضى الله عنه إلى قضاته : أن ردُّوا القرابات عن حَرَا القضاء[٢] فإن ذلك يورث التضاغن .

ولم أعجب من دوام ظلمك ، وثباتك على غضبك ، وغِلَظ قلبك ، ودُورُنا بالعسكر متجاورة ، ومنازلنا بمدينة السّلام متقابلة ، ونحن ننظر فى علمٍ واحد ، ونرجع فى النحلة إلى مذهب واحد ؛ ولكن اشتدَّ عجبى منك اليومَ وأنا بفَرْغانة وأنت بالأندلس[٣] ، وأنا صاحب كلام وأنت صاحب نِتاج ، وصِناعتك جودة الخطّ وصناعتى جَودة المحو[٤] ، وأنت كاتبٌ وأنا أمّىّ ، وأنت خَراجىٌّ وأنا عُشرىّ ، وأنت زرعىٌّ وأنا نخلىّ . فلو كنت إذ كنتَ من بكر كنتُ من تميم ، كان ذلك[٥] إلى العداوة سبباً ، وإلى المنافسة سُلَّما .

أنت أبقاك الله شاعر وأنا راوية ، وأنت طويلٌ وأنا قصير ، وأنت أصلَعُ وأنا أنزع ، وأنت صاحب براذينَ وأنا صاحب حمير ، وأنت ركينٌ وأنا عَجُول ، وأنت تدبّر لنفسك وتُقيم أَوَدَ غيرك ، وتتّسع لجميع الرعيّة ، وتبلغ

---

(١) الحطب : الجمع للجيد والردىء ، والمراد الإفساد .

(٢) الحرا : الساحة والناحية . وفى الأصل : « حر القضاء » ، مع ضبط الحاء بالفتح .

(٣) فرغانة ، بالفتح : مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر ، متاخمة لتركستان .

(٤) كذا فى ب وفى الأصل : « النجوم » .

(٥) فى الأصل « كان لك » .

بتدبيرك أقصى الأمة ، وأنا أعجز عن نفسى وعن تدبير أَمَتى وعبدى . وأنت منعم وأنا شاكر ، وأنت ملك وأنا سُوقة ، وأنت مصطنِع وأنا صنيعة ، وأنت تفعل وأنا أصِف ، وأنت مقدَّم وأنا تابع ، وأنت إذا نازعتَ الرجالَ وناهضتَ الأكْفاء لم تقل بعد فراغك وانقطاع كلامك : لو كنت قلتُ كذا كان أجود ، ولو تركت قول كذا لكان أحسن ؛ وأمضيتَ الأمور على حقائقها ، وسلّمت إليها أقساطها على مقادير حقوقها ؛ فلم تندم بعد قول ، ولم تأسف بعد سكوت . وأنا إن تكلّمت[1] ندمتُ ، [وإن جاريت أبدعت[2]] ورأيِي كلُّه دَبَرَىّ . وأنت تُعدُّ فى الشطرنج زبرب ، وأنا فى الشِّطرنج لا أحد[3] .

١٠٢ و

وما أعرف ها هنا اجتماعاً على مشاكلة إلا فى الإيثار بخُبز الخُشْكار على الحُوَّارَى[4] ، والباقلِّى على الجَوْزينج[5] ، وأنّا جميعاً ندَّعى الهندسة .

---

(١) م : « حلمت » .

(٢) التكملة من م وفيها : « جازيت » ، وفى ب : « وإن حاريت هربت » . أبدع ، بالبناء للمجهول وللمعلوم أيضا : كلت راحلته أو عطبت .

(٣) ب : « لا جد » .

(٤) فى الألفاظ الفارسية ٥٥ : « الخشكر : ماخشن من الطحن ، فارسيته خشكار ، وهو القصرى » . وانظر استينجاس ٤٠٢ والبخلاء ٨٤ . والقصرى ، كبشرى : ما يبقى فى المنخل بعد الانتخال ، أو القشرة العليا من الحبة والحوارى بضم الحاء وتشديد الواو وفتح الراء : الدقيق الأبيض ، وهو لباب الدقيق وأجوده وأخلصه .

(٥) الباقلى : بتشديد اللام مقصورة ، ومثله الباقلاء بتخفيف اللام مع المد : الحب المعروف بالفول والجِرجر ، وهو الباقلاء النبطية ، أما الباقلاء المصرية فهى الترمس . اللسان ، وتذكرة داود . والجوزينج : ضرب من الحلوى يصنع من الجوز . ويقال له جوزنيق أيضاً ، فارسيته « كوزينه » . الألفاظ الفارسية ٤٨ .

قد بلغ الآن من جُرمى فى مساواتك فى خبز الخُشكار ، وإيثارى الباقلّى ، والمعرفة بتقدير المدُن وإجراء القُنِىّ ، أن أُنفَى من جميع الأرض ، وأن تجعل فى دمى الجعائل[1] ؛ فإنّى قد هجرت الخُبزَ البتّةَ إلى مواصلة التّمر ، ونزلت الوبَرَ بدلاً من المدر .

دعْنا الآن فإنّك فارغ . إن الله يعلم — وكفى به عليماً ، وكفى به شهيداً ، وكفى به حفيظاً ووكيلاً ، وكفى بجرأة من يعلّمه مالا يعلم جُرأةً وتعرُّضاً ، وكفى بحاله عند الله بُعداً ومقتاً — لقد أردتُ أن أفديك بنفسى فى بعض كتبى ، وكنت عند نفسى فى عِداد الموتى وفى حيِّز الهلكى ، فرأيت أنّ من الخيانة لك ومن اللؤم فى معاملتك ، أن أفديك بنفسى ميتة ، وأن أُرِيَك أنّى قد جُدتُ لك بأنفس عِلْق والعِلق معدوم . ليس أنّ من قد فدّاك فقد جُعل فِداك ، ولكنّها نهايةٌ من نهايات التعظيم ، ودليل من دلائل الاجتهاد . ومن أعلنَ الاجتهاد لك واستسرَّ خلافَ ذلك فقد نافق وخان ، وغشَّ وألَامَ[2] . وأخلِقْ بمن أخلَّ بهذه ألاّ يرعَى حقًّا ، ولا يرجع إلى صحّة ولا إلى حقيقة .

ثم أنت لا يَشفيك منّى السمُّ المجْهِز ، ولا السمُّ السارى ؛ فإنه أبعد غايةً فى التطويل وأبلغ فى التعذيب . لا ولا لُعاب الأفاعى وداهيةُ الدّواهى ، فإنّه يُعجز الرُّقَى ويفُوت ذَرع الأطبّاء . لا ولا نارُ الدّنيا ، بل لا يشفيك من نار الآخرة إلاّ الجحيم ، ولا يَشفيك من الجحيم ألا أن أُرى فى سَوائه[3] وفى

(١) الجعائل : جمع جعالة ، وهى بتثليث الجيم ما يجعل فى مقابل العمل .

(٢) ألام : أتى بما يلام عليه .

(٣) سواء الشىء وسطه .

أُصطُمَّة ناره[١] ، وفى معظم حريقِه ، وفى موضع الصَّميم من لهيبهِ . بل لا تـكتفى بذلك دون الدَّرَك الأسفل ، بل لا يُرضيك شىء سوى الهاوية ، بل لا ترضَى إلاّ بعذاب آل فرعون ، أشدّ العذاب ، بل لا يرضيك إلاَّ عذاب إبليس الذى زيَّن الخَتْر للعباد ، وبثَّه فى البلاد ، والذى خطّأ الربّ وعانَدَه وردَّ قولَه ، وغيَّر عليه تدبيره ، ولم يزده إلاّ شـكًّا ولجاجة ، وتمادياً[٢] وإصراراً . ثم لم يرضَ من الجدّ فى مخالفة أمره ، وخَلْع العذار فى شدّة الخلاف عليه إلاَّ بأن يحلفَ على شدّة اجتهـاده فى ذلك بعزّته ، فجعلَ العزّةَ المانعة من إسخاطه سبيلاً إلى إسخاطه ، والقسَمَ الحاجز دون إغضابه وسيلةً إلى إغضابه ، حيث قال : ﴿ فبعزَّتكَ لأُغوينَّهم أجمعين[٣] ﴾ .

١٠٣ ظ

فعليك عافاكَ الله بإبليس إن كنتَ لله تغضب ، أو عليك بالأكفاء إنْ كنت لنفسك تتشفَّى .

لا ولـكنَّك استغمرتنى واستضعفتنى ، وجعلتنى فَرُّوجَ الرقّاء[٤] ، وتريد أن تتعلَّمَ فىَّ معاقبةَ الأعداء . فإن كنت إلى هذا تذهب فجعفر بن معروف أضعفُ منى ، وعبد الله بن عيسى أسوأ خبراً منّى .

سبحان الله ، يَسلَمُ عليك حَيدر الأفشين[٥] ، ويهلك عليك عمرُو الجاحظ ،

---

(١) الأصطمة والأسطمة : الوسط والمجتمع .

(٢) فى الأصل : « تباينا » ، صوابه فى ب .

(٣) الآية ٨٠ من سورة صٓ .

(٤) الفروج ، لعل المراد به الدجاجة ، وهى كبة الغزل .

(٥) يذكر ابن خلـكان ٢ : ٦٥ أنه بفتح الخاء المعجمة وسكون الياء المثناة من تحتها . قال : «وإنما قيدته لأنه ينصحف على كثير من الناس بحيدر بالحاء المهملة» واسم أبيه كاوس ، كما فى الأغانى ٧ : ١٤٧ ، ١٢ : ٦٤ .

ويسعد[1] بك أبعدُ البعداء ويشقى بك أقرب القرباء . وتتغافل عن مثل الجبال التماساً للتسلُّم وحبًّا للسلامة ، وتَغَلْغَلُ إلى المحقَّرات طلباً للتعرُّض وحبًّا للشرّ .

ومتى قدرتَ على عدوّك فلم تجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه ، ومتى لم تتغافل عنه تكرُّما أو تدعْه احتقاراً ، ومتى اكترثت لكبير وضاقَ صدرُك عن شيء عظيم فهأنذا بين يديك ، فكُلْنى بخلّ وخردل ؛ فوالله إنّك لتأكله غثًّا غير مرىء ، وخبيثاً غير شهىّ .

لا والله ، لكأنَّك وقعتَ على مطمورة ، وظفرت برأس خاقان . كنت أظنّ أنّ الرشاقة والحلم لا يجتمعان ، وأنّ ظَرْف الإنسان وأصالة الرأى لا يفترقان[2] ، وأنّ النزَّق والخفّة مقرونان بخفّة البدن ، وأنّ الرَّكانة والأناة مجموعان لصاحب السِّمَن ، حتى رأيتُك فاعتقدت بك خلاف ذلك الرأى ، واستبدلت فيك ضدَّ ذلك الظَّنّ . فتركتنى حتى إذا نازعتُ الرجال ، وتعرّضت للشَّجَى ، وشغلتُ نفسى بثلب الخِصام[3] ، وانقطعتُ إلى أصحاب القُدود ، وجعلت عُدَوائى[4] فى تقديم القِضاف[5] ، وطال لِسانى ، وأظهرت الاستبصار فى فضلك ، وجعلت مِزاج أخلاطك هو الحجة ، واعتدالكَ هو النهاية ، وطبيعتَك ١٠٣ و

(١) فى الأصل : « ويسود » .

(٢) فى الأصل : « وإطالة الرأى لايعترفان » .

(٣) لعل صوابها : « القصار » .

(٤) العدواء : الشغل . وفى الأصل : « عداوتى » .

(٥) جمع قضيف ، وهو المشوق الجسم .

هى المُسْكة[1] ؛ وزعمتُ أنّ منظرك يغنى عن مخبرك ، وأنّ أوّلك يجلّى عن آخرك ـ شددتَ علىّ شَدَّة المُهر الأرِن ، وتسرَّعتَ إلى تسرُّع الغِرّ النَّزِق ، وألحت [علىّ[2]] إلحاحَ اللَّجوج الحَنِق . كأنك لم تحفل بما يشيع لك من اسم المتسرِّع ، وبما تضاف إليه من سُخف المتترِّع[3] ، بعد أن تكذِّب قولى وتفنِّد خبرى[4] .

وقد تقدمتِ التجربةُ أن الحديد لا يكون حقوداً[5] ، وأن المصطنع لا يكون للصنيعة حاسداً ، فقصدتَ على رأسٍ[6] إلى القياس المتحَن فأفسدته ، وإلى الطبائع المعتدلة فنقضتَها ، وإلى القضايا الصحيحة فرددتَها .

وقالوا بأجمعهم : حالان لا تقبلان الحسد ، ولا يخلوان من الرَّشَد : حال الصَّنيعةِ لمصطنِعه[7] ، وحال المولى لمُعتقه . فكيف إذا كان الصَّنيعة صديقاً ، وكان للخاصّة محتملا .

وإنما صارت — أبقاك الله — أجزاء النفس وأعضاء الجسد مع كثرة عددها ، واختلاف أخلاطها ، وتباعُد أماكنها ، نفسًا واحدة وجسدًا واحدا ،

---

(١) المسكة ، بالضم : القوة ، والعقل . وفى الأصل : « المسكتة » .

(٢) التكملة من ب .

(٣) المتترع : الشرير المسارع إلى مالا ينبغى له .وفى الأصل : « المتبرع » .

(٤) التفنيد : التكذيب . وفى الأصل : « وتفسد » .

(٥) الحديد : ذو الحدة ، وهى الغضب والنشاط والسرعة فى الأمور ولكن الحجاج بن يوسف كان يقول : « أنا حديد حقود » . الحيوان ٣: ٤٧٠ / ٥ :٥٩٢ والبيان٣ : ٢٥٥ .

(٦) فى الأصل « على رأسى » .

(٧) يقال فلان صنيعة فلان ، إذا اصطنعه وأدبه وخرجه ورباه .

لاستواء الخواطر ، ولاتّفاقها على الإرادة . فأنت وصديقُك الموافق ، وخليلك ذو الشكل المطابق ، مستويان فى المَحَابّ ، متّفقان فى الهوى ، متشاكلان فى الشَّهوة ؛ وتعاونـكما كتعاون جوارح أحدكما ، وتسالمـكما كتسالم المتّفق من طبائعكما . فإذا بانَ منك صديقُك فقد بانَ منك شَطرُك ، وإذا اعتلّ خليلك فقد اعتَلّ نصفك ، بل النفوس المضمّنة كالمعانى المضمَّنة ، فذهاب بعضها هو ذهابُ جميعها . فموتى هو موتُ صديقى ، وحياتى هى حياة صديقى . فلا تبعدنَّه من قلبك بُعدَ بدنه من بدنك ؛ فقد يقرُب البغيض وينأى الحبيب . ولعلّ بعضَ طبائعك المخالط لروحك ، أن يكون أعدى من كلّ عدو ، وأقطعَ من كلّ سيف ، وأخوفَ عليك من الأسَد الضارى ، ومن السمّ السارى .

ثم اعلم أنَّ الموثَّق بمودَّته قليل ، وقد صار اليومَ المعتمدُ عليه فى صحّة العُقدة ، وفى كرم الغَيب والعِشرة ، عنقاءَ مُغرِبٍ[1] . ولا أعلم الـكبريت الأحمرَ إلاّ أوجَدَ منه . وإنى لأظنُّ القناعةَ أكثرَ منه . وما أكثرَ مَن جعل انقطاع سببه وضعف طمعه لانقِطاع سببه قناعةً .

١٠٣ ظ

وقيل ليحيى بن خالد : أى شىء أقل ؟ قال : قناعة ذى الهمّة البعيدة بالعيش الدُّون ، وصديقٌ قليـل الآفات كثير الإمتاع ، شكور النفس ، يصيب مواضع المَدْح[2] .

---

(١) عنقاء مغرب ، بالوصف ، وبالإضافة أيضاً ، مثلٌ للندرة أو لما لا يكون ، قال فى القاموس : « طائر معروف الاسم لا الجسم ، أو طائر عظيم يبعد فى طيرانه ، أو من الألفاظ الدالة على غير معنى » .

(٢) جعلت فى ط « المَرح » .

لا والله إنْ تعرفُ[1] على ظهرها موضعًا للسرّ ، ولا مكانًا للشكوى ، ولا روحًا تأنس بها ، ولا نفسًا تسكن إليها . ولو أردتَ أن تعرّفنى من جميع العالَمين رجلًا لمَا قدرت على أحدٍ يحتمل الغنى . ومحتمل الفقر قليل ، ومحتمل الغنى عديم .

إنّ الخير — أبقاك الله — فى أيام كثرته كان قليلًا فما ظنُّك به فى أيام قلَّته ، وإن الشرَّ فى أيام قلّته كان كثيراً فما ظنُّك به فى أيّام كثرته ، وأنت غَريبٌ فى المصطَنِعين . وأنا غَريبٌ فى الصنائع ، والغريب للغريب نسيب ، ونسب المشاكلة وقرابة الطبيعة الموافِقة ، أقربُ من نَسَب الرحِم ؛ لأنّ الأرحامَ مُولعةٌ بالتحاسد ، لهِجة بالتقاطع ، وأن التحابَّ على طبع المشاكلة . والتلاقى على وفاقٍ من الطبيعة ، أبعد من التفاسد ، وأبعد من التعادى . وسببُ التعادى عَرَض فى طبائع الغرباء ، وجوهرٌ فى طبائع الأقرباء .

واعلمْ أنك لا تزال فى وحشة إلى وحشة ، وفى غربة إلى غُربة ، وفى تنكُّر العيش وتسخُّط الحال ، حتى تجدمن تشكو إليه بثَّك ، وتُفضِىَ إليه بذاتِ نفسك . ومتى رأيت عجبًا لم تضحكك رؤيتك له بقدر ما يضحكك إخبارُك إياه . فمَنْ أغلبُ عليك ممّن كانت هذه حالَه منك ، وموقعه من نفسك .

ولو أنّ شيبتى التى بها استعطفتك ، وكَبرة سنّى التى بها استرحمتك ، اللتان لم يحدُثا علىَّ إلاّ وأنا فى ذَراك ، ولم يَحُلّا بى إلاّ وأنا فى ظلِّك ، لكان فى شفاعة الكَبرة ، واسترحام الضّعف والوَهْنة ، ما يَردعُك عنّى أشدَّ الردع ،

(١) جعلت فى ط : « لن تعرف » .

ويؤثر فى طباعك أبينَ الأثر . فكيف وقد أكرمتنى جديداً ، ثم تريد أن تُهينى خَلَقًا ، وقوَّيت عظمى أغلظَ ما كان ، ثم تريد أن توهنه أرقَّ ما كان . وهل هرِمتُ إلّا فى طاعتك ، وهل أخلَقنى إلّا معاناة خدمتك !.

١٠٤ و قال على بن أبى طالب : رأى الشَّيخ الضَّعيف أحبُّ إلينا من جَلَد الشابّ القوىّ[1] .

وأنا أقول كما قال أخو ثقيف[2] : مودّة الأخ التالد وإن أخلَق خيرٌ من من مودّة الطارف وإن ظَهرتْ بشاشته ، وراعتْك جدّته .

وقال عبد الملك بن مروان : رأى الشَّيخ أحبُّ إلينا من مَشهد الغلام .

وقال بعضهم : ليس بغائب من شَهِد رأيُه[3] ، وليس بفانٍ مَن بقىَ أثره .

وما كمَّل العقل ولا[4] وفّر التجربة شىءٌ كنقصان البدن ، وكأخْذ الأيَّام من قوى الأعضاء .

وقال آخر : ما قبّح الرجال شىءٌ كالوِكال ، ولا أفسد الكريمَ شىءٌ كحبّ الاستطراف . وخيرُ الناس من أتْبَعَ الغضبَ مواقعَ الذنوب ، وأتْبَعَ العقابَ مواقعَ الغَضَب ، ولم يُتبِع الغضبَ مواقع الهوى .

---

(١) البيان ٢ : ١٤ و فى أمثال الميدانى ١ : ٢٦٧ : « رأى الشيخ خير من مشهد الغلام » ، وأشار الميدانى إلى أن علياً قالها فى بعض حروبه .

(٢) يعنى الحجاج بن يوسف .

(٣) شهد : كان شاهداً ، أى حاضراً . وقوم شهود أى حضور .

(٤) فى الأصل : « إلا » .

ولقد منحتُك جَلَد شبابي كَمَلا ، وغَرْبَ نشاطي مقْتَبَلا ، وكان لك مَهناه[١] ، وثمرة قواه[٢] ، واحتملت دونك عُرامَه وغَربَه[٣] ، وكان لك غنمه وعليَّ غُرمه ، وأعطيتك عند إدبار بدني قوّةَ رأيي ، وعند تكامل معرفتي نتيجةَ تجربتي ، واحتملتُ دونك وَهْن الكِبَر وإسقامَ الهرم .

وخير شركائك مَن أعطاك ما صفا ، وأخَذ لنفسه ما كدُر . وأفضل خلطائك من كفاك مؤونتَه ، وأحضركَ معونتَه ، وكان كلاله عليه ، ونشاطه لك . وأكرم دخلائك وأشكر مؤمِّليك مَن لا يظنّ أنك تسمِّى جزيل ما تحتمل فى بَذْلك ومواساتك مَؤونة ، ولا تَتابُعَ إحسانِك إليه نعمة ، بل يرى أنَّ نعمة الشاكر فوقَ نعمة الواهب ، ونعمة الوادّ المخلص فوق نعمة الجواد المُغْنى ؛ وأنَّه لا يبلغ فى إعطاء المجهود من نفسه فى خلع جميع ماله إلى مؤمّليه والمتحرِّمين به ، حُسنَ نيّة الشاكر الوامق ، وحقَّ تمنّى الوادّ العارف .

ولو اقتضيتَ جميع حقوقك علىّ ، وأنكرتَ جميع حقوقى عليك ، أو جعلتَ حقِّى عليك حقًّا لك ، ثمّ زعمت أنّ حقَّك لا يؤدّى إلى شكره ، وأنّ حقّى لا يلزم حكمه ، وأنّ إحسانى إساءة ، وأنَّ الصغير من ذنوبى كبير ، وأنّ اللَّمَم مِنّى إصرار ، وأنّ خطائى عمد ، وأنَّ عمدى كلَّه كفر ، وأنّ ١٠٤ ظ

(١) أى مهنأه . ولعلها : « مجناه » .

(٢) فى الأصل : « قوله » صوابه فى م .

(٣) فى الأصل وم : « غرامه » والوجه ما أثبت . وفى الأصل : « وعدمه » صوابه فى م . والعرام : بضم العين : الشدة والغرب : الحدة .

كفرى يوجب القمع[١] ويمنع من النُّزوع لِمَا كان عندك . وما اتَّسع قولى لأ كثر من هذا العقاب ، ولا أشدَّ من هذا الغضَب . وما ينبغى أن يكون هذا المقدار من النِّقم إلاّلبارى النَّسَم فى دار البقاء ، لا فى دار الفَناء .

[و] الذى يجوز بين العباد إنّما هو تعزير أو حدٌّ ، أو قَوَد أو قصاص ، أو حبسٌ أو تغريب ، أو إغرام[٢] أو إسقاط عدالة ، أو إلزامُ اسم العداوة ، أو عقاب يجمع الألم والتَّقويم والتنكيل ، فيكون مَضَضُ الألم جزاءً له[٣] ومعدِّلاً أسبابه .

وربّما قصر الإيقاع على السُّخط وجاوزَ حدَّ الغضب . وربَّما كان مقصوراً على مقدارهما ، ومحبوساً على نهاية حالهما .

وليس كلُّ عقابٍ نتيجةَ سخط ، وقد لا يسمَّى ذلك المُوقِـع والمعاقِب واجداً كما يسمَّى ساخطاً ، ولا يسمَّى عاتباً كما يسمَّى غضبان ، فيخرج كما ترى من أن يسمَّى سُخطاً أو مَوجِدةً وَغضباً ، كما خرجَ عقابُ آدم عليه السلام من هاتين الصِّفتين ، ومن جميع القسمين . وعلى أنه كان إخراجاً من دار الخلد والكرامة إلى دار الابتلاء والمحنة ؛ ومع ما فى ذلك من إعراء الجلد ، والتَّسمية بالظلم ، مع الوصف له بضَعف العَزْم ، والاغترار بيمين الخصم .

والعجبُ أنك تضجر من طول مسألتنا لعفوك مع حاجتنا إلى عاجِل عفوك ، ولا تضجرُ بطول تشاغلك بظلْم صديقك مع استغنائك عن ظلم صديقك . فلو كنت إنّما تفعل ذلك لأنّك تلذُّ ضَربَ السِّياط ورضَّ العظام ،

---

(١) فى الأصل : « الطمع » .

(٢) الإغرام : التغريم ، وهو العقوبة المالية .

(٣) فى الأصل : « أجرا له » .

فَجنب « دندن » أحمل ، والسَّوط فى ظهر قاسِم أحسن ، وأبدانهما تحت السِّياط أثبت ، وإنَّ أرواحهما أبقى ، وهى بأرواح الكلاب أشْبَه ، وإلى طبائع الضِّباب أقرب ، وأرحامهم بالحمير أمَسُّ ، ومَن يُشِير فيهم بذلك أكثر ، والأجر فى ضَرْبهم أعظم . فاستدِم اللذَّة بطريق اللَّذة ، وضع الأمورَ فى مواضعها يطُلْ سرورُكَ بها .

إنَّ عتاقَ الخيل وأحرار الطَّير أدقُّ حِسًّا ، وأشدُّ اكتراثًا .

١٠٥ و والكوادن الغلاظ والحامر الثِّقال[1] ، أكلُّ حِسًّا وأقلُّ اكتراثًا . وليس الصَّبر بالصَّمت والسكوت ، ولا بقلّة الصِّياح والضُّموز[2] . وقد يصيح تحت السَّوط مَن لا يقرُّ على صاحبه ، ولا يدلُّ على عورة نفسه . والكلب المضروب يجمع الصِّياح والهرب ، والفرس العتيق يعدو ولا يصيح ، والحافر كلُّه كظومٌ ضامزٌ[3] ، والخلب كلُّه ضَجورٌ صيَّاح ، والضَّجر فى الخُفِّ عامٌّ ، والبَخاتىُّ أضجر . فسِمن الظِّلف عامّ ، وهو فى الضَّأن أخفى ، وكلّ مضروب هارب صَيّاح ، ومنها ما يجمع الخصال كالكلب والبعير . والهربُ من المكروه محمود ، والمقام عليه مذموم ؛ كالذى يعترى العير السقيم[4] وتجده فى الفرس الكريم ، من قلة الاكتراث وشدته .

---

(١) الحامر : جمع محمر ، يقال فرس محمر ، أى لئيم يشبه الحمار فى جريه من بطئه . ويقال للفرس الهجين محمر أيضاً ، فارسيته « پالانى » . والجمع المحامر والمحامير .

(٢) الضموز ، بالزاى : السكوت . وفى الأصل : « الضمور » ، تصحيف .

(٣) فى الأصل : « ضامن » . وانظر الحاشية السابقة .

(٤) فى الأصل : « عين السقم » وانظر ٢٧٨ س ٢ .

وصبرُ البدن غير صبر النفس . وليس بقاء الأرواح المنعقدة تحت الضرب الشديد من اعتزام النفس ، ولا يدلّ على الكرم .

وفى المثل : « ما رُوح فلانٍ إلّا رُوح كلب » . وتقول العرب : « الضَّبُّ أطول شيء ذَماء[1] » . والكلب لئيم ، والضبُّ غير كريم .

والبازى أكرم من الصَّقر وأشدُّ وأكثر ثمنا ، وأجمل جمالًا ، وأعفى صيدًا[2] ، وأنبل نبلا ؛ إن قبضَ عليه قتله ، وإن لم يُنَحِّ كُندُرته عن قربه أوهن نفسه[3] . ثم بلغ من رقة طبعِ[4] البازى وعِتقه أنه ينقطع بِرَدِّ البازيار له[5] إلى مَسقطه من يده . والصَّقر يتعلَّق بسِباقيه[6] من رجل حمل بدرع[7] فيضطرب منكّساً إلى الصُّبح ، ثم تجده وكأنه لم يزل على كُندرته وعلى مسقطه الذى يؤتَى له .

---

(١) الذماء ، كسحاب : بقية الروح فى المذبوح . وانظر الحيوان ٢ . ١٧٥ و ٣ : ٥٠٨ و ٥ : ٢٥١ و ٦ : ٥٤ ، ٦٤ ، ١٣٧ و ٧ : ٢٥٤ .

(٢) من قولهم : عفا الشيء يعفو ، إذا كثر .

(٣) الكندرة ، بضم الكاف والدال كما فى اللسان ، وبفتحهما كما فى القاموس ، هى مجثم البازى الذى يهيأ له من خشب أو مدر . قال فى اللسان : « وهو دخيل ليس بعربى » . وأوهق نفسه : جعلها فى الوهق ، وهو حبل مغار يرمى ، فيه أنشوطة ، فتؤخذ به الدابة والإنسان . وفى الأصل : « أرهق » .

(٤) فى الأصل : « طمع » .

(٥) فى الأصل : « برده البازيارله » ، والبازيار ويقال له « البازدار » أيضاً لفظان فارسيان ، معناهما واحد ، وهو القائم بأمر البازى ويعرب فيقال له « البيزار » . انظر الحيوان ٤ : ٤٣٠ و ٦ : ٤٧٨ .

(٦) السباقان : قيدان فى رجل الجارح من الطير ، من سير أو غيره وفى ط : « بساقيه » ، خلافا لما فى الأصل .

(٧) كذا فى الأصل .

فليس بدنى من أبدان الاحتمال فأمتعك بطول ثباته لك ، ولا أثبت لك ثبات العَير الـكليل الِحسّ ، ولا أجعل الصِّياح دليلا على الإقرار ،فيكون ذلك أحَدَ ما تتمتَّع به ، وتدرك به حاجاتِ نفسك .

وقد دللتك على ناسٍ يجمعون لك الخصال التى فيها دوامُ لذّتك ، وتمامُ شهوتك ؛ فإنْ زعمتَ أنَّ الذى يثبت روح دندن فى بدنه ، وروح القاسم فى جسمه ، سرورُهما بما قد احتجنَا من كنوز الخلافة وأموال الرعيَّة ، وليس ذلك من رسوخ أرواحهما فى أبدانهما ، ومن شدة الاحتجان وقوة الاكتناز ، ففرِّقْ بينهما وبين تلك الأموال التى تمسك أرواحَهما بالِحيل اللَّطيفة ، والتدبير النافذ ، وبأن تمضىَ فيهما حكمَ الـكتاب والسُّنّة ؛ فإنّه سيحلُّ عُقدة أرواحهما عَقْداً عقداً ، فيعظمُ أجرك ، ويطيب ذكرك ، وتطيع الخليفة ، وتتحبَّب به إلى الأمة ؛ فتـكون قد أحسنت فى صرف الضَّرب إلى أهله ، وأرحت منه غيرأهله .

١٠٥ ظ

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

* * *

تمت الرسالة بعون الله ومنّه وتوفيقه ، والله الموفّق للصواب برحمته ، والحمد لله أولا وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه ، وآله الطيبين الطاهرين وسلامُه .



إلى أبي الوليد محمّد بن أحمد بن أبي دُواد

في

نفي التّشبيه

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذه هى الرسالة السادسة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« رسالة إلى أبى الوليد محمد بن أحمد بن أبى دواد ، فى نفى التشبيه »

وأبو الوليد هذا هو قاضى بغداد فى خلافة المتوكل ، ولاه القضاء بعد أن فلج أبوه أحمد بن أبى دواد ، ثم عزله المتوكل ومات فى حياة أبيه أحمد فى ذى الحجة سنة ٢٣٩ . وترجم له الخطيب فى تاريخ بغداد ١ : ٢٩٧ — ٣٠١ .

وليس لهذه الرسالة إلا نسخة مكتبة داماد ، وعليها اعتمادنا فى إخراج هذه الرسالة .

وقد كتبها الجاحظ فى أيام الخليفة المعتصم ، كما نص على ذلك فى أواخرها .

بسم الله الرحمن الرحيم

أطال الله بقاءك وحَفِظك ، وأتمّ نعمتَه عليك ، وكرامتَه لك .

قد عَرَفتَ - أكرمك الله - ما كان النَّاسُ فيه من القَول بالتَّشبيه والتَّعاون عليه والمعاداة فيه ، وما كان فى ذلك من الإثم الكبير والفِرْية الفاحشة ، وما كان لأهله من الجماعات الكثيرة والقُوّة الظاهرة ، والسُّلطان المكين ، مع تقليد العوامّ وميل السِّفلة والطَّغام .

وليست للخاصّة قوّة بالعامّة ، ولا للعِلية قوّة على الأراذل ؛ فقد قالت الأوائل فيهم ، وفى الاستعاذة بالله منهم :

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : نعوذ بالله من قومٍ إذا اجتمعوا لم يُملَكوا ، وإذا تفرّقوا لم يُعرَفوا .

وقال واصِل بن عطاء : «ما اجتمعوا إلَّا ضَرُّوا ، ولا تفرّقوا إلَّا نفعوا» فقيل له : قد عرفنا مضرّة الاجتماع ، فما منفعة الافتراق ؟ قال : يرجع الطَّيّان إلى تطيينه ، والحائك إلى حياكته ، والمَلَّاح إلى مِلاحته ، والصَّائغ إلى صياغته ، وكُلُّ إنسانٍ إلى صناعته . وكُلُّ ذلك مَرفِقٌ للمسلمين ، ومَعُونة للمحتاجين .

وكان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه إذا نظرَ إلى الطَّغام والحشْو قال : « قَبح اللهُ هذه الوجوهَ ، لا تُعرَف إلَّا عند الشرّ » .

وقال الخُرَيمي[١] عِند ذكره إيَّاهم ، في شعره ، بالتَّعاوِي مع المخلوع[٢] :

من البَوَارى تِراسُها ومن الـ ـخُوص إذا استلأَمَتْ مَغَافِرُها[٣]
لا الرِّزقَ تبغى ولا العطاءَ ولا يَحشُرها بالفِنَـــــاء حاشرُها[٤]

وقال شَبِيب بن شيبة : قاربُوا هذه السِّفلة وباعدوها ، وكونوا معها وفارقوها ، واعلموا أنَّ الغلبة لمن كانت معه ، وأنَّ المقهور من صارت عليه .

وقد وصفهم بعضُ العلماء فقال : يجتمعون من حيث يفترقون ، ويفترقون من حيث يجتمعون ، لا يُفَلُّ غربهم إذا صالوا ، ولا تَنجع فيهم الحيلةُ إذا هاجوا .

والعوامُّ ــ أبقاكَ الله ــ إذا كانت نَشَرًا[٥] فأمْرُها أيسر ، ومُدّة هَيجها أقصَر . فإذا كان لها رئيسٌ حاذق ومُطاع مدبِّر ، وإمام مقلَّد ، فعند ذلك

---

(١) هو إسحاق بن حسان بن قوهى . قال الخطيب : « وأصله من خراسان من بلاد السغد ، وكان متصلا بخريم بن ناعم المرى وآله ، فنسب إليه . وقيل : كان اتصاله بعثمان بن خريم . وأبوه خريم الموصوف بالناعم » . تاريخ بغداد ٦ : ٣٣٦٩ .

(٢) تعاووا معه : اجتمعوا . والمخلوع هو الخليفة الأمين أخو المأمون . وقصيدة خريم رواها الطبرى فى تاريخه ١٠ : ١٧٦ — ١٨١ فى حوادث سنة ١٩٧ وبعض أبياتها فى الحيوان ١ : ٢٢٥ .

(٣) البوارى : الحصير المنسوج ، واحده بورى وبورية ، وبارى وبارية . والتراس : جمع ترس . استلأمت : لبست اللأمة ، وهى الدرع . والمغافر : جمع مغفر ، وهو زرد يلبس تحت القلنسوة . والبيت وتاليه وبينهما ثالث فى الطبرى ١٠ : ١٧٨ .

(٤) فى الطبرى : « ولا يحشرها للقاء حاشرها » .

(٥) النشر بالتحريك : القوم المتفرقون لا يجمعهم رئيس .

١٠٧ و ينقطع الطَّمع ، ويموت الحقّ ويُقتل المُحِقّ . فلولا أنَّ لهم متكلِّمين ، وقُصَّاصًا متفقِّهين ، وقومًا قد باينوهم فى المعرفة بعض المباينة ، لم يلحقوا بالخاصّة ، ولا بأهل المعرفة التّامّة . ولكنا كما نخافهم نرجوهم ، وكما نُشفق منهم نطمع فيهم .

ثم قد علمت ما كنا فيه من إسقاط شهادات الموحِّدين وإخافة علماء المتكلِّمين . ولولا الكلامُ لم يَقُم لله دِين ، ولم نَبِنْ من الملحدين ، ولم يكن بين الباطل والحقّ فرق ، ولا بين النبى والمتنبِّى فَصل ، ولا بانت الُحجّة من الحيلة ، والدليل من الشُّبهة .

ثم لصناعة الكلام مع ذلك فضيلةٌ على كلِّ صناعة ، ومزِيّةٌ على كل أدب . ولذلك جعلوا الكلام عيارًا على كلِّ نظر ، وزمامًا على كلِّ قياس . وإنَّما جعلوا له الأمور وخصُّوه[1] بالفضيلة لحاجة كلِّ عالم إليه ، و[عدم[2]] استغنائه عنه .

فلم يزل — أكرمك الله — كذلك حتَّى وضع الله من عزِّهم ، ونقصَ من قوّتهم . وليس لأمر الله مَردٌّ ، ولا لقضائه مدفع . وحتَّى تحوَّل إلينا رجالٌ من قادتهم ومن أعلامهم ، والمُطاعِينَ فيهم ، وارتاب قومٌ ونافَقَ آخرون . وحتَّى تحوَّلت المحنةُ عليهم ، والتَّقيَّة فيهم . وذلك كلُّه على يد شيخك وشيخنا بعدك — أعزَّه الله — بما بذل من جُهده ، وعرَّض من نفسه ، وتفرَّد بمكروهه ، وغَرغرَ مُرارَه ، صابراً على جسيمه ؛ يرى الكثير فى ذلك قليلا ، والإغراقَ

---

(١) فى الأصل : « وخصوا » .

(٢) تكملة يفتقر إليها الكلام .

تقصيرا ، وبذلَ النَّفس يسيرا . على حين خار[١] كُلُّ بطل ، وحادَ كل مُقْدم ، وعَرَّد كُلُّ رئيس ، وأضافَ كُلُّ مستبصِر[٢] ، وطاح كُلُّ نفّاج ، واستخفى كل مُراء . وحتَّى صاروا هم الذين يُشيرون عليه بالملاينة ، ويحسِّنون عنده المقاربة ، ويخوِّفونه العاقبة ، ويزعمون أنَّ لكلِّ زمانٍ تدبيراً ومصلحة ، وأنَّ إبعادهم أنقر[٣] لطبائعهم ، وإن إطلاقهم أنجع فيما يراد منهم . وحتَّى سمَّوا المداهَنة مداراة ، وإعطاء الرِّضا تقيّة ، والشِّدَّة عند الفُرصة خُرقا ، والانحياز مع صواب الإقدام رفقا ، وموالاة المخالف مخالفة ، والمصافاة معاشرة ، والمهانة حلما ، والضَّعف فى الدِّين احتمالا . كما سمَّى قومٌ الفِرار انحيازا ، والبُخْل اقتصادا ، والجائر مستقصيا ، والبلاء عارضا ، والخَطَل بلاغة . فكذلك كانوا وكان . ١٠٧ظ وعلى هذا افترق أمرهم ؛ وذلك مشهور عنهم .

ثم يصُول أحدُهم على مَنْ شتمه ، ويسالم من شتم ربَّه ، ويَغضَب على من شبَّه أباه بعبده ، ولا يَغضب على من شبَّه الله بخلقه ، ويزعم أنَّ [فى[٤]] أحاديثِ المشبِّهة تأويلاً ومَجازاً ومخارج[٥] ، وأنَّها حقٌّ وصِدق . فإذا قيس . . . . . .[٦] طلب لهذا المجاز ظلم ، وقال ما يليق بلفظ الحديث ،

---

(١) خار : ضعف . وفى الأصل : « خان » .

(٢) أضاف : أشفق وحذر . وفى الأصل : « أصاب » .

(٣) كذا فى الأصل .

(٤) ليست فى الأصل .

(٥) فى الأصل : « ومخارجا » .

(٦) بياض فى الأصل بمقدار كلمتين .

فيكون بشهادته[١] لصحة أحاديثهم مُقِرًّا ، فيصير فيما يدَّعى من خلاف تأويلهم مدَّعياً . ولو كانت هذه الأحاديثُ كلُّهـا حقًّا كان قولُ النبى صلى الله عليه وسلم : « سيفشو الـكذبُ بعدى ، فما جاءكم من الحديث فاعرِضوه على كتاب الله » باطلاً .

وهذا المذهب لمَنْ ينتحل طريقتنا ، ويد زعمه سبيلَنا ، جَورٌ شديد ، ومذاهبُ قبيحة ، وتقرب[٢] فاحش .

وليس ينبغى لديَّانٍ أن يوادَّ من حادَّ اللهَ ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانَهم أو عشيرتهم .

فمتى إذن تزولُ التَّقيّة ، ويجبُ إظهار الحقّ والنُّصرة للدِّين ، والمباينة للمُخالفين ؟ ! أحين يموت الخَصم ويبيدُ أثره ويَهلِك عَقِبه ويقلُّ ناصره ، ويزول جميع الخوف ويكون على يقين من السَّلامة . وكيف يكون القائم حينئذ بالحقِّ مطيعاً ، ولله معظماً ؟ !

فقد سقطت المحِنة وزالت البلوى والمشقَّة . وهل المعصيةُ إلاَّ ما مازجه الهوى والشهوة ، وهل الطّاعة إلاَّ ما شابَهُ المـكروه والـكُلفة[٣] ، وكيف يُتـكلَّف مالا مؤونة فيه ، وكيف يُحمَد مالا مَرزِئة عليه . وكيف يكون شجاعاً مَن أقدمَ فى الأمن ، وتـكمَّن فى الخوف . أوَ ليست النّارُ محفوفةً بالشهوات ، أوَ ليست الجَنّةُ محفوفةً بالمـكاره . وكيف صاروا فى باطلهم أيّامَ قُدرتهم أقوى منا فى حقنا أيام قُدرتنا .

(١) فى الأصل : « سهدته » .

(٢) كذا فى الأصل .

(٣) شابه ، من الشوب بمعنى الخلط والمزج .

وقد علمت ـ أرشدَ اللهُ أمرك ـ أنّ التشبيه وإن كان أهله مقموعين ومُهانين وممتحَنين، فإنّ عدد الجماجم على حاله، وضمير أكثرهم على ما كان عليه، والذين ماتوا قليلٌ من كثير. ونحن لا ننتفع بالمنافق، ولا نستعين بالمرتاب، ولا نثق بالجانح، وإن كانت المبادأه قد نقصت فإنّ القلوب أفسدُ ما كانت.

١٠٨ و

وقد كانوا يتّكلون على السُلطان والقدرة، وعلى العدد والثّروة، وعلى طاعة الرَّعاع والسِّفلة؛ فقد صاروا اليومَ إلى المنازعة[١] أمْيَل، وبها أكلف؛ لأنّهم حِينا يئسوا[٢] من القهر بالحُشوة والسِّفلة، وبالباعة، وبالولاة الفَسَقة، وقلوبهم ممتلئة ونفوسهم هائجة. ولا بدّ لمن كانت هذه صفتَه، وهذا نَعْتَه، من أن يستعمل الحِيلة والحُجّة، إذْ أعجزه البطشُ والصَّولة. وكلُّ مَن كان غيظُه يفضُل عن حلمه، وحاجتُه تَفضل عن قناعته، فواجبٌ أن ينكشف قِناعه، ويظهر سِرُّه، ويبدوَ مكنونه.

وقد أطمعني فيهم مناظرتُهم لنا، ومقايستهم لأصحابنا. وقد صاروا بعد السّبّ يَحُفّون[٣]، وبعد تحريم الكلام يجالسون، وبعد التصامّ يستمعون، وبعد التجليح يدارون[٤]؛ والعامة لا تفطن لتأويل كفِّها، ولا تعرف مقاربَتها. فقد مالت إلينا على قدر ما ظهر من مَيلها، وأصغت لما ترى من استماعها.

---

(١) فى الأصل: «على المنازعة».

(٢) فى الأصل: «ينبوا».

(٣) حفه يحفه: مدحه. وفى المثل: «من حفنا أورفنا فليقتصد» يقول: من مدحنا فلا يغلون فى ذلك ولكن ليتكلم بالحق منه.

(٤) التجليح: المكاشفة فى الكلام.

وقد كتبتُ ـ مدَّ الله فى عُمرك ـ فى الردِّ على المشبِّهة كتاباً لا يرتفع عنه الحاذق المستغنى ، ولا يرتفع عن الريِّض المبتدئ . وأكثر ما يعتمد عليه العامّة ودَهماء أهل التشبيه من هذه الأمور ويَشْتمل عليه الفَضْل من حُشْوة الناس[1] ، ويُختَدع به المُحدَّثون من الجمهور الأعظم ، تحريف آيٍ كثيرةٍ إلى غير تأويلها ، وروايات كثيرة إلى غير معانيها . وقد بيَّنتُ ذلك بالوجوه القريبة ، والدِّلالات المختصرة ، وبالأشعار الصحيحة والأمثال السائرة ، واستشهدتُ الكلامَ المعروف ، والقياسَ على الموجود .

وهو مع ذلك كلِّه كتابٌ قَصْدٌ ، ومقدار عدلٌ ، لم يفضُلْ عن الحاجة ، ولم يقصِّر عن مقدار البُغية . على أنَّ الكلام لا ينبغى أن يكثر وإن كان حسناً كلُّه ، إذا كان السامع لا يَنْشَطُ له ، وجاز قدرَ احتماله ؛ لأنَّ غاية التكلِّم انتفاعُ المستمع . وقد قال الأولون : « قليلُ الموعظة مع نشاط الوعوظ ، خيرٌ من كثيرٍ وافق من الأسماع[2] نبوةً ، ومن القلوب ملالةً » . ١٠٨ ظ

قال بكر بن عبد الله المزنىّ[3] : ليس الواعظ مَن جهل أقدارَ السامعين ، وإنابة المرتدِّين ، وملالة المستطرفين .

وقال على بن أبى طالب ، رضوان الله عليه : « إنّ هذه القلوبَ تَمَلُّ كما تملُّ الأبدان ، فابتغوا لها طُرَف الحكمة » .

---

(١) الفضل : الزيادة . والحشوة ، بالضم : رذال الناس .

(٢) فى الأصل : « الاستماع » .

(٣) هو أبو عبد الله ، نسبته إلى مزينة ، ثقة جليل توفى سنة ١٠٦ . تهذيب التهذيب وصفة الصفوة ٣ : ١٧١ .

وقد كان يقال : إنَّ للقلوبِ شهوةً وإقبالا ، وفترة وإدباراً ؛ فأْتوها من حيث شهوتُها وإقبالُها .

وكان يقال : إذَا أُكْرِهَ القلبُ عَمِى .

وقال واصل بن عطاء : طول التحديق يُكِلُّ الناظر ، وناظر القلب أضعف منه .

وزعم عِمران بن حُدَير[١] قال : قال قَسامة بن زهير[٢] : روِّحوا هذه القلوبَ تَعِ الذِّكر[٣] .

وقال عبد الملك بن قُريب : قال أبو الدَّرداء : إنِّى لأستجمُّ نفسِى ببعض الباطل كراهةَ أنْ أحمَلَ عليها من الحقِّ فأُكلَّها[٤] .

وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقَّاص ، رضى الله عنهما ، وهو بالقادسيَّة : أنْ جنِّبْهم حديث الجاهلية ؛ فإنَّه يذكِّر الأَحقاد . وعِظْهم بأيَّام الله ما نشِطُوا لاستماعها .

وقالوا : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوَّلنا بالموعظة[٥] .

ولذلك أمروا بالجَمَام[٦] وزيارة الغِبّ .

---

(١) من رواة قسامة . تهذيب التهذيب ٨ : ١٢٥ ، ٣٧٨ . فى الأصل : « عمر بن أبى حدنه » .

(٢) قسامة بن زهير المازنى ، له إدراك ، وكان ممن افتتح الأبلة مع عتبة ابن غزوان ، وكان رأساً فى تلك الحروب . مات بعد الثمانين . الإصابة ٧٢٨٠ . وتهذيب التهذيب

(٣) فى الأصل : « يعنى من الذكر » ، صوابه من البيان ١ : ٣٢٧ .

(٤) فى الحيوان ٣ : ٧ : « من الحق ما يملها » .

(٥) يتخولنا : يتعهدنا ، وذلك مخافة السآمة علينا .

(٦) الجمام ، كسحاب : الراحة .

ورووا أنّ شرَّ السَّيْر الحقحقة[١] .

ولَأن ينقُصَ الكتابُ عن مقدار الحاجة أحبُّ إلىَّ من أن يَفضُل عن مقدار القوّة ؛ لأنّ الملالة تبغِّض [فى] الجميع ، وتزهِّد فى الكُلّ .

فأنا أسألك ـ أكرمك الله ـ أن ترى هذا الكتابَ وتقرأ ماخفَّ عليك منه . فإن يصلح الكلامُ [و] كان كما وصفتُ وكما ضَمِنت ، حَثَثتَ على قراءته وعلى اتّخاذه ، وعلى تخليده وعلى تدوينه ، وأمرت مَن يحتاج إلى المادّة ، وإلى حُسن المعونة من الموافقين والإخوان الصّالحين ، أن ينظروا فيه ، وأن يبثّوه ويُشيعوه .

وقد كنتُ أنا على ذلك قادراً ، وبه مستوصيا ؛ ولكنّ الرجل الرفيع إذا رفَع الشىء ارتفع ، كما أنّه إذا وضع الشّىء اتّضع .

وإن كنتَ فيه غَلِقًا[٢] أو لعلّته مستكثرا ، كان لك بحُسن نيتك وصلاح مذهبك ، والذى رجوتُ عنده من المنفعة وصلاح قلوب العامّة ، الأجرُ الكبير ، والثوابُ العظيم ، مع ماتقضى بذلك من ذِمام المتحرِّم بك ، والمتحلِّى من بيتك ؛ ومع اليد البيضاء والصَّنيع المشكور . ١٠٩ و

وحرامٌ على كلِّ متكلِّمٍ عالم ، وفقيه مطاعٍ ، وخطيب مفوّه إن كان[٣]

---

(١) الحقحقة : شدة السير . وهو فى حديث عبد الله بن مطرف بن الشخير حين تعبد فلم يقتصد ، فقال له أبوه : « يا عبد الله ، العلم أفضل العمل ، والحسنة بين السيئتين ، وخير الأمور أوساطها ، وشر السير الحقحقة » . أمثال الميدانى ١ : ٣٢٧ واللسان (حقق) والبيان ٣ : ٢٥٤ .

(٢) الغلق : الضجر . وفى الأصل : « غلطا » .

(٣) فى الأصل : « كلف » .

عنده من الأمر شيء ، إلّا أن يأتيكم به ، ويذكّركم بما عنده ، قلّ ذلك أو كثر، وصادف منكم شُغلًا أو فراغا ، لأنّ ذلك من عندكم أنفق ، والناس إليه أسرع ، والقلوب إليه أسكن ، وهو في العيون أعظم ، لِمَا جعل الله عندكم من حُسن الاختيار ، والعلم بمنافع العباد ، ومصالح البلاد ؛ إذْ كنتم المَفْزَع والمقنع ، والأئمة والمنزع . ولولا ما قُلِّدتم من أمر الجماعة ، والقيام بشأن الخاصّة والعامة ، وأنّ الشّغل برعاية حقّها والدِّفاع عنها ، لم يُبقِ في قُواكم فضلًا للدُّعاء والمنازعة ، ولوَضْع الكتب بالجواب والمسألة ـ لبدأ بكم الفَرْض ، ولكنتم أحقّ بهذا الأمر .

على أننا لم ننطِقْ إلّا بألسنتكم ، ولم نحتذِ إلّا على مثالكم ، ولم نَقْوَ إلّا بما أعرتمونا من فَضْل قوّتكم . وعلى الرُّواة من الأدباء ، وعلى أهل اللَّسَن من الخطباء ، معاونتُكم ومكاتفتكم ، والجلوس بين أيديكم والاستماع منكم ، وعلى أن يطيعوا أمركم ، وأن يَنفُذوا لطاعتكم ، وأن يخلصوا في الدُّعاء، وأن يَمحَضُوا النصيحة ، وأن يضمروا غايةَ المحبّة ، وأن يعملوا في كَفّ[1] الغِلّ والحسَد ، وأن لا يرضَوْا من أنفسهم بالنِّفاق ، وأن يعلموا أنّ الحسَد لا يقع إلّا بين الأشكال ، وأنّ التنافس لا يكون إلّا مع تقارب الحال .

وقد كان يقال : لا يزال الناس بخير ما تفاوتوا ، فإذا تقاربوا هَلكوا .

وكان يقال : ثلاثةٌ توجب الضِّغن وتُكثر من الغِلّ : المجاورة في المنزل، والاستواء في النَّسَب ، والمشاكلة في الصِّناعة .

ولذلك قال شَبيب بن شَيبة لرجلٍ ادّعى محبّته ونصيحتَه : « وكيف

(١) في الأصل : « كفى » .

لا يكون كما وصفتَ وكما ذكرتَ ، ولستَ بخطيبٍ ، ولا جارٍ قريبٍ ، ولا ابنِ عمٍّ نسيب » .

وقال بعض الحكماء : لو لم تعرفوا من لُؤم الحسَد إلاَّ أنَّه موكَّل بالأدنَى فالأدنى . وليس يقع ذلك بين المتباينَين ، ولا يجوز فى المتقاربين .

ولا يكون الطَّلبُ إلاَّ بالطمع ، ولا يكون الطمع إلاَّ بالسَّببُ . فإذا انقطع السَّببُ انقطع الطَّمع ، وفى عدم الطَّمع [عدمُ] الطلب . وكيف يتكلَّف الطَّيرانَ مَن لا جَناحَ له ، وكيف يرجو صلاحَ أمر العامّة وترتيبَ الخاصَّة من عَجَز عن تدبير بيته ، وقصَّر عن تدبير عَبْده ؟ ! ١٠٩ ظ

وإنصاف اللِّسان قليل ، وإنصاف القلب أقلُّ منه .

ونحن نرغب إلى الله فى صَلاحهم ؛ فإنَّ فى صلاحهم صلاحَ قلوبنا لهم .

وقد جعل الله الشكرَ موصولاً بالمزيد ، ومِن الشُّكر على نعمة الله علينا بكم أن نعظِّم ما عظَّم الله من أمركم . ومن صغّر ما عظَّم الله فقد عظَّم ما صغَّر الله . ولا يفعل ذلك إلاَّ الصَّغير القَدْر ، والخامل الذِّكر ، والجاهل بالأمر .

وكيف لا تكونون[1] على ما خبَّرتُ وكما وصفت ، وقد أغنيتم من العَيلة ، وآنستم من الوحشة ، وجمعتم الشَّمل ، وأعدتم الألفة ، ورددتم الظُّلامة ، وأحييتم السُّنَّة ، وأبرزتم التوحيدَ بعد اكتتامه ، وأظهرتموه بعد استخفائه ، واحتملتم عداوةَ الجميع ، ووترتم الطاعنين فى تقويتنا .

ونحن لا نُطالَب ما كنتم قياماً ، ولا نُذكَر ما كنتم شهوداً . ونحنُ مع قلَّة علمنا لا نجد أبدًا عملَنا إلاَّ مقصِّراً عن علمنا . وأنتم مع اتِّساع قلوبكم ،

---

(١) فى الأصل : « يكونون » .

أعمالكم وفوقَ علومكم ؛ لأنَّ كلَّ مَن بذل كلَّ مجهوده ، وخاطر بجميع نعمته ، وكانت الواحدة من نِعَمه كالجميع من نِعَم غيره ، مع خِذلان الموافق ونُكوص المؤازر ، ثمَّ لم تزِدْه الشدائد إلاَّ شدَّة ، والوحدة [إلاَّ] أنسَة ـ حقيقٌ بالتَّفضيل والتعظيم ، والإنابة له بالتقديم .

ولعلَّ قائلاً أن يقول : أدخَلَه فى جملة صفات أبيه ، وجِلَّة مشيختِه وأقربيه ، حيث خَصَّهم بالتَّقديم ، وأبانَهم بالتعظيم . بل كيف يقدَّم من صَغُرت سنُّه وقلَّت تجربته على من تقاربت سنُّه وكثرت تجربته . وكيف تمكن الطاعة الكثيرة فى الأيام القصيرة والشهور اليسيرة ؟ وهل يقول ذلك صاحبُ تحصيلٍ ومقايسة ، والبعيد من الملق والمخادعة .

وما قلتُ ذلك ـ حفظك اللهُ ـ ولا انتحلتُه ، إلاَّ وبرهانى حاضر ، وشاهدى شاهد . وذلك أنَّ للشَّباب[1] سَكرة وطِماحاً ، وقِراعاً وصَولة . والهَرَمُ داخلٌ على جميع الأعضاء ، وآخِذ بقسطه من جميع الأجزاء . ألاَ ترى كيف يكلُّ ناظره وسامعه ، وذائقُه وشامُّه ، وهاشمه وعامله ؛ وكيف تُنتقصُ على مرور الأيام قوّته ، وكذلك قلبه وكلُّ ما بطَن من أمره ، على قدر ما نقص من قُوَى جسمه وتنقُّص من قُوَى شهوته . [و] يخفُّ عليه مخالفةُ هواه ، ومحاربة نَوازِعِه[2] . ومن حَمَل[3] على نفسه فى كمال شبابه وأيَّام سكرته ، وفى سلطان حِدَّته وكمال قوّته ، فَظَلَفَها مرّةً[4] وكبحها

١١٠ و

---

(١) فى الأصل : « للشارب » .

(٢) فى الأصل : « موادعه » .

(٣) فى الأصل : « لمن جعل » .

(٤) ظلف نفسه : منعها هواها

أخرى ، وعاين تلك التكاليف ، وغلبَ تلك الرِّيح كان أبرزَ طاعةً ؛ إذْ كان أحملَ للمشقة .

وعلى قدر المشقّة تكون المثوبة ، وتعظُم عند الله المنزلة ، وتقعُ له فى قلوب النّاس المحبّة . ولذلك قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لسعد ابن أبى وقّاص ، حين وجَّهه إلى العراق : « يا سعد بنى وُهَيب[1] ، إن الله إذا أحبَّ عبداً حبَّبَه إلى خلقه . فاعتبر منزلتَك من الله بمنزلتك من النّاس ، واعلمْ أنَّ مالكَ عند الله مثلُ مالله عندك[2] . ونحن نعتبر حالكَ عند الله بالذى نَجِد لك فى قلوب عباده . وقد ملَّكَ اللهُ بعضَ الناس أبدانَ بعض ، ولم يملِّك القلوبَ أحداً غيره » .

وأمّا قولهم : إن الغَرارة مقرونة بالحداثة ، والحَنكة موصولةٌ بطُول التجربة ، فإنَّ الذِّهن الحديد والطّبعَ الصحيح ، والإرادة الوافرة ، ينال فى الأيَّام اليسيرة ، ويُدرِك فى الدُّهور القصيرة ، مالا تدركه العقول المخدوجة[3] ، ولا الطبائع المدخولة ، والإرادة الناقصة ، فى الأيام الكثيرة ، والدُّهور الطويلة .

---

(١) هم بنو وهيب بن عبد مناف بن زهرة . وهو سعد بن أبى وقاص بن وهيب . واسم أبى وقاص مالك . جمهرة أنساب العرب ١٢٩ والإصابة ٢١٨٩ وفى البيان ١ : ٢٦١ : « ياسعد ، سعد بنى أهيب » . وأهيب ووهيب لغتان .

(٢) إلى ينتهى الخبر فى البيان والتبيين .

(٣) المخدوجة : الناقصة ، من قولهم : خدجت الناقة : ألقت ولدها قبل أوانه لغير تمام . ويقال خدجت المرأة ولدها وأخدجته بمعنى واحد .

وربّما صادفَ القائل مع ذكائه وكثرة قراءته[1] وجودة اعتباره ، زماناً أكثر عجباً ، وأكثر معتبراً ، وإنْ كانت شهورهُ أقلَّ ، وأيَامُه أقصر ، فينالُ مع قلّة الأيام مالا ينال سواه مع كثرتها ، ولا سيّما إذا أُعِينَ بحفظٍ ، وأحسَّ من نفسه بفَضْلِ بيان .

١١٠ ظ

وليس من نَظَر فى العلم على الرَّغبة والشهوة له كمن نظر فيه على المكسبة به والهرب إليه ؛ لأنَّ النفس لا تُسمِح بكلٍّ قواها إلاَّ مع النشاط والشَّهوة ، وهى فى ذلك لنفسها مستكرِهة ولها مكابِدة . والسآمة إلى من كانت هذه صفتَه أقربُ ، وله ألزم . ولولا ذلك لما ولّى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مُعاذَ بن جبلٍ اليمنَ ، وجعل[2] إليه قَبضَ الصَّدَقات ، ومحاسبةَ العُمّال ، وقلّده الأحكامَ وتعليم[3] الناس الإسلام ، وهو ابن ثمانى عشرة سنة . ولا يدفَعُ ذلك صاحبُ خَبَرٍ ولا حاملُ أثر .

وعلى مثل ذلك عَقَد لأُسامة بن زيدٍ الإمرةَ ، وأبَانه بالتَّقدمة على جِلّة الأنصار وكبار المهاجرين ، وخيار السَّلَف المتقدِّمين .

وعلى مثل ذلك ولّى عَتّابَ بن أَسِيدٍ[4] مكّة ، وبها عظماء قريش وكبراء العرب وذَوُو الأخطارِ من كلٍّ قبيلة ، وذوو الأسنان من كلٍّ جيل .

---

(١) فى الأصل : « فوابله » بالإهمال .

(٢) فى الأصل : « وحمل » .

(٣) فى الأصل : « ويعلم » .

(٤) بفتح الهمزة ، كما فى الإصابة ٥٣٨٣ وقد أسلم عتاب يوم الفتح ، واستعمله رسول الله على مكة لما سار إلى حنين .

ومكّةُ فَتح الفُتوح ، وأمُّ القُرى ، وخاتمة الهِجرة وقِبلة العرب ، وموضع الحرم والموسِم الأعظم والحجِّ الأكبر ، والأصلُ والمفخر .

وقد رأيتم مابلغ بخالد بن يزيد فى السُّودد والمحبَّة ، وقَوْد الجيوش والهَيبة ، وهو ابن خمسَ عشرةَ سنة . وقد ذكر ذلك الكميت بن زيد فقال :

قاد الجيوش لخمسَ عشرةَ حِجّةً ولِداته عن ذاك فى أشغال[1]

قَعدت بهم همّاتُهم وسما به هِمَم الملوك وسَوْرةُ الأبطال[2]

فأما ابن بِيضٍ[3] فقال :

بَلغتَ لعشرٍ مَضتْ من سِنيـ ـكَ ما يبلغُ السيِّد الأشيَبُ

فهمُّك فيها جسامُ الأمور وهَمُّ لداتك أنْ يلعبوا

---

(١) البيت فى فتوح البلدان ٦١٩ برواية « ساس الرجال لسبع عشرة » . وفى الأصل هنا : « بخمس عشرة » ، تحريف .

(٢) فى الأصل : « قعدت بهم هماته » . وعند البلاذرى أن الشعر مقول فى محمد بن القاسم .

(٣) ابن بيض ، بكسر الباء ، وهو حمزة بن بيض الحنفى شاعر إسلامى من شعراء الدولة الأموية ، كوفى خليع ماجن كان منقطعا إلى المهلب بن أبى صفرة وولده ، ثم إلى أبان بن الوليد ، وبلال بن أبى بردة ، واكتسب بشعره مالا بلغ ألف ألف درهم . ولم يدرك الدولة العباسية . الأغانى ١٥ : ١٤ – ٢٥ والمؤتلف ١٠٠ وحواشى الحيوان ٥ : ٤٥٤ – ٤٥٥ . وفى عيون الأخبار ١ : ٢٢٩ أن حمزة ابن بيض قال البيتين لمخلد بن يزيد بن المهلب .

وعلى مثل ذلك قال الفرزدقُ فى يزيدَ بن المهلَّب :

ما زال مُذْ عَقَدَت يداه إزارَه ودنا وكان لخمســة الأشبارِ[١]

وإذا الرِّجال رأوا يَزيدَ رأيتهم خُضُعَ الرقاب نواكسَ الأبصارِ

١١١ و

وعلى هذا المجرى مَدح الشَّاعر مَنْ مدحَ فقال :

ما زِلتَ فى عقـــل الـكبيــرِ وأنت فى سنِّ الصــغيرِ

وقد رأيتم ما بلغ محمد بن القاسم[٢] من الفُتوح العظام والأيَّام الجسام ، والقهر للأعداء ، وبلوغ المحبَّة فى الأولياء ، وهو ابنُ خمسَ عشرةَ سنة . وقد ذكر ذلك زيادٌ الأعجمُ فقال :

ما إنْ سمعتُ ولا رأيت عجيبةً كمحمد بن القـاسم بن محمد[٣]

قاد الجيوشَ لِخمسَ عشرة حِجَّةً يا قُربَ ذلك سُوددًا من مَولدِ[٤]

---

(١) ديوان الفرزدق ٣٧٨ والخزانة ١ : ١٠٣ . والرواية فى الديوان : « فدنا فأدرك خمسة الأشبار » . وفى الخزانة : « وسما فأدرك خمسة الأشبار » .

(٢) هو محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبى عقيل ، أحد ولاة الحجاج ، غزا السند وفتحها فى أواخر أيام الحجاج : فتوح البلدان للبلاذرى ٦١٢ — ٦١٩ .

(٣) فى فتوح البلدان ٦١٩ وعيون الأخبار ١ : ٢٢٩ :

إن المروءة والسماحة والندى لمحمد بن القاسم بن محمد

(٤) فى الأصل : « بخمس عشرة » والوجه ما أثبت لكن فى فتوح البلدان « ساس الجيوش لسبع عشرة حجة » ، وفى عيون الأخبار : « قاد الجيوش لسبع عشرة » .

وقال الآخر[1] :

إذا المرء أعيته المروءةُ ناشئاً فمطلبُها كهلاً عليــــه عسيرُ[2]

وقال آخر[3] :

إذا ما ترعرعَ فينا الغـــلام فليس يقال له من هُـــــوَه[4]

إذا لم يَسُدْ قبـــلَ شَدِّ الإزار فذلك فينــــــا الذى لا هُوَه

ولى صاحبٌ من بنى الشَّيصَبان فطوراً أقولُ وطورا هُـــوَه[5]

وزعموا أن عمرو بن سعيد[6] قال له معاوية ـ وذلك قبل أن يَبلُغ ويحتلم ـ إلى مَن أَوْصَى بك أبوك ؟ قال: إنَّ أبى أوصَى إلىَّ ولم يوصِ بى . قال : فيم أوصاك ؟ قال : أوصانى ألاَّ يَفقد إخوانُه منه إلاَّ وجهه[7] .

---

(١) هو المعلوط بن بدل القريعى ، كما فى التنبيه على الحماسة لابن جنى ، وعيون الأخبار ٣ : ١٨٩ . وفى الحماسة بشرح المرزوقى ١١٤٨ : « وقال رجل من بنى قريع ».

(٢) فى الأصل : « كهل » ، صوابه فى المراجع المتقدمة . وأما « عسير » فالرواية فيها : « شديد » ؛ فإن البيت من مقطوعة دالية فى الحماسة .

(٣) هو حسان بن ثابت ، كما فى ديوانه ٤٢٢ واللسان : (شصب) وثمار القلوب ٥٥ . وللأبيات قصة فى الديوان واللسان . ورويت فى الحيوان ٦ : ٢٣١ بدون نسبة .

(٤) فى الديوان واللسان : « فما إن يقال له » .

(٥) الشيصبان ، بفتح الشين والصاد : أبو حى من الجن ، زعموا .

(٦) هو أبو أمية عمرو بن سعيد بن العاصى بن سعيد بن العاصى بن أمية ، المعروف بالأشدق جمهرة أنساب العرب ٨١ وتهذيب التهذيب وتاريخ الطبرى ٧ : ١٧٨ — ١٨١ وحواشى البيان ٣ : ٣١٤ .

(٧) فى البيان ٣ : ٣١٦ : « إلا شخصه » . والخبر فى عيون الأخبار ١ : ٢٣٥ وأمالى المرتضى ١ : ٢٧٧ .

ولو لم يعرف ذلك إلاّ بعبد الله بن العباس وَحْدَه كان ذلك كافياً ، وبرهاناً شافياً ، فإنّ الأعجوبة فيه أربَتْ على كلّ عجب ، وقطعَتْ كلّ سبب . وقد رأيتم حاجةَ عُمر إليه ، واستشارتَه إيّاه ، وتقويمه لعثمان رضى الله عنهما وتغييره عليه . ولو لم يكن للفضيلة من بين أقرانه مستحقًّا ، وبها مَخصُوصاً ، ما خَصَّه الرسول صلى الله عليه وسلم بالدّعوة المستجابة ، ولما خصَّه بعِلم الكتابِ والسُّنَّة وهما أرفعُ العِلم ، وأشرف الفكر . ويدُلُّك على تقديمه للغاية ، وإيثاره للتعليم والاستبانة ، قوله حين قيل له فى حداثته وقبل البلوغ فى سنّه : ما الذى آتاك هذا العلمَ وهذا البيانَ والفهم ؟ قال : « قلبٌ عقولٌ ، ولسانٌ سَؤول » .

١١١ ظ

وقد عرفتم تحاكم العرب فى الجاهليّة فى النُّفورة[1] ، وفى غير ذلك من المخايرة والمشاورة ، إلى أبى جهل بن هشام فى أيّام حداثته وفتائه ؛ ولذلك أدخلوه دارَ الندوة ، ودُفِع [مع[2]] ذوى الأسنان والحَنَكة من بين جميع الشُّبّان ، ومن بين جميع الفتيان .

ولذلك قال قُطبة بن سَيّار[3] حكيمُ فَزارة حين تنافرَ إليه عامر ابن الطُّفيل وعلقمة بن عُلاثة : عليكم بالحديد الذّهن ، الحديث السِّنّ . يعنى أبا جهل .

---

(١) النفورة : الحكومة . قال ابن هرمة (اللسان نفر) :

يبرقن فوق رواق أبيض ماجد يدعى ليوم نفورة ومعاقل

(٢) ليست فى الأصل . وفى عيون الأخبار ١ : ٢٣٠ : « فأدخلته مع الكهول دار الندوة » .

(٣) هو قطبة بن سيار بن عمرو ، من بنى مازن بن فزارة . الاشتقاق ٢٨٣ . وفى الأصل : « سنان » ، تحريف .

فهذا كلُّه دليلٌ واضح ، وبرهان بيِّن .

ولعلَّ قائلا أن يقول : إنَّما الفضل فى خشونة الملبس ؛ وليس ذلك لمن مدحتَ ، ولا هذه صفةُ من وصفت .

وهذا بابٌ ـ أبقاك الله ـ قد يغلط فيه العاقل ما لم يكن بارعاً ، والفَطِن مالم يكن ثاقباً ، والأريب مالم يكن كاملاً . ولو كان الفضل والرِّياسة والقدر والنَّباهة على قدر قَشَفِ الجلدة وبذاذة الهيئة ، وكثرة الصَّوم ، وإيثار الوَحْشة والسِّياحة ـ لكان عثمانُ بن مظعونٍ متقدِّماً لأبى بكر الصديق رضوان الله عليه ، ولكان بِلال بن رَباحٍ غامراً لعثمان بن عفان رضى الله عنهما .

وقد قال ابن شهابٍ الزُّهرى : ليس الناسك[1] إلاَّ من غلب الحرامَ صَبرُه ، والحلالَ شكرُه .

فهذا ماحضرنا من القول ، وأمكنَنا من الاحتجاج . وما أشكُّ أنَّ مَن خَبرَ أمركَ أكثرَ من اختيارى كان عنده أكثر من علمى . وعلى أنَّ منظركَ ــ أسعدك الله ــ يُغنى عن المخبر ، والفِراسة فيك تكفى مؤونة التجربة لك . وقد تقيَّلتَ بحمد الله أخلاقَ شيخك[2] ، واحتذيت على مِثاله كما احتذى على مثال مَن كان قبله . ولولم يتعقَّبوا أمركَ ، ويتصفَّحوا سيرتك فى نفسك ثم فى خاصَّتك و عامَّتك ، لكان فى صدق الفِراسة وظهور المحبّة ما تقضى به النُّفوس ، ويستدِلُّ به المجرِّب .

١٢٢ و

وظنُّ العاقل كيقين غيره .

---

(١) فى الأصل : « ليس الناس » . وفى البيان ٢ : ١٨٧ : « وقيل له أيضاً : ما الزهد فى الدنيا ؟ قال : ألا يغلب الحرام صبرك ، ولا الحلال شكرك » .

(٢) تقيله : تشبه به .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إنّك لن تنتفعَ بعقله حتّى تنتفع بظنّه .

وقال أوس بن حجر :

الألمعى الذى يظن لكَ الظَّنَّ كأنْ قد رأى وقد سَمِعا[(١)]

وقال وهو يمدح ابن كَلَدَة بصِدق الحسِّ ، وصواب الحَدْس ، وَجودَة الظن :

أريبٌ أديب أخو مأزِقٍ نِقــــابًا يخــبِّر بالغــائبِ[(٢)]

وقال آخر[(٣)] يمدح بمثل ذلكَ عبدَ الملك بن مَرْوان :

رأيتُ أبا الوليــد غَداة جَمعٍ به شيبٌ وما فَقَدَ الشَّبــابا[(٤)]

ولـكنْ تَحتَ ذاكَ الشَّيبِ حزمٌ إذا ما ظنَّ أمرض أو أصــابا[(٥)]

وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ ولقد صَدَّقَ عليهم إبليسُ ظَنَّه[(٦)] ﴾ . وقال : ﴿ إنَّ بعضَ الظَّنِّ إثم[(٧)] ﴾ . وفى ذكره البعضَ دليلٌ على أنَّ سائر ذلك صواب وطاعة .

---

(١) ديوان أوس بن حجر ٥٣ والكامل ٧٣١ والحيوان ٣ : ٩٥ والبيان ٤ : ٦٨ يرثى به فضالة بن كلدة . ويروى : « يظن بك الظن » .

(٢) ديوان أوس ١٢ والحيوان ٣ : ٦٠ . والنقاب الرجل العالم بالأشياء البحث عنها الفطن الشديد الدخول فيها . وقد وردت « نقابا » فى الأصل منصوبة ، ويروى : « نقاب » .

(٣) هو كثير . كما فى الحيوان ٣ : ٦٠ والبيان ٤ : ٦٧ .

(٤) جمع ، بالفتح ، هو المزدلفة .

(٥) أمرض : قارب الصواب فى الرأى وإن لم يصب كل الصواب . وفى الأصل : « أعرض » ، صوابه من الحيوان والبيان واللسان (مرض) .

(٦) الآية ٢٠ من سورة سبأ .

(٧) الآية ١٢ من سورة الحجرات .

وكان من أسباب دَفْعي إليك هذا الكتابَ — أبقاك الله — دون أبى عبدِ اللهِ[١] أكرمه الله ، أنكما قد تجريان فى بعض الأمور مجرًى وحداً ، ولأنك وإنْ كنتَ كثير الشُّغل فهو أقلُّ فراغاً منك على كثرة شُغلك ، وفرط عنايتك بما استكفاك واسترعاك . وإنْ جعلتَ لى قسماً من وقت فراغك ، ونصيبًا من ساعة نشاطك . رجوتُ أن يصير إلى ما أمَّلناه عندك من الإنعام علىّ ، والاسترهان لشكرى ؛ فإنّ العرب لم تعظِّم شيئاً قَطُّ كتعظيمها موقعَ الإنعام والشكر والأحدوثة الحسَنة ، والذكر والتمييز ، والاستمداد للنعم ، والكفرُ حائل بين العَوْد والبَدْء .

١١٢ ظ

قال عنترة :

نُبِّيت بشرًا غير شاكرِ نعمتى والكُفر مَخبَثةٌ لنفس المنعِمِ[٢]

وقال السِّنديُّ :

فلم أُجزَ بالحُسنى وعادت مَشاربى بلاقعَ يقروها الحمام المُقرقِرُ

تبدَّلتُ بالإحسان سوءا وربّما تنكَّر للمعروف مَن كان يكفر

(١) هو أبو عبد الله أحمد بن أبى دواد القاضى ، والد من كتب إليه الجاحظ : هذه الرسالة . وأبو دواد اسمه كنيته ، وقيل اسمه « دعمى » وقيل « طلحة » . ولى أحمد القضاء للمعتصم ثم للواثق ، وكان موصوفاً بالجود والسخاء وحسن الخلق ووفور الأدب ، وهو صاحب محنة القول بخلق القرآن فى أيام المعتصم والواثق . ولد سنة ١٦٠ بالبصرة وتوفى سنة ٢٤٠ فى بغداد . تاريخ بغداد ٤ : ١٤١ — ١٥٦ ووفيات الأعيان ١ : ٢٢ — ٢٦ .

(٢) البيت من معلقة عنترة . والرواية : « نبئت عمرا » . انظر شرح القصائد السبع الطوال لابن الأنبارى ٣٥٥ .

ويدل على حبِّهم للثناء وجميل الذِّكر قولُ الأسديّ :

فإنِّى أحبُّ الخلدَ لو أستطيعه وكالخلد عندى أن أموتَ ولم أُلَمْ[١]

وقال :

فأثْنُوا علينا لا أبا لأبيكم بمَسعاتنا إنَّ الثناءَ هو الخُلدُ[٢]

وقال الغَنَوىّ :

فإذا بلغتم أهلكم فتحدَّثوا إنَّ الحديث مَهالكٌ وخلودُ[٣]

فجعلوا الذكر بالجميل مثلَ الخلود فى النعيم .

وعلى هذا المعنى قال فى درك الثَّأر :

فَقَتْلاً بتقتيل وعقراً كعقركم جزاء العُطاس لا يموتُ من اثّأرْ[٤]

وقال حكيم الفرس حين بلَغه موتُ الإسكندر ، وهو قاتل دارا بن دارا : ما ظننت أنَّ قاتل دارا يموت !

وهذا القولَ هو أمدح منه لقاتله . ولم أسمع للعجم كلمةً قطُّ أمدحَ منها . فأمَّا العرب فقد أصبتُ لهم من هذا الضَّرب كلاماً كثيراً .

---

(١) الحيوان ٣ : ٤٧٥ والبيان ٣ : ٣٢٠ .

(٢) الحيوان ٣ : ٤٧٥ والبيان ٣ : ٣٢٠ . والرواية فيهما « بإحساننا » .

(٣) فى بعض نسخ الحيوان : « بلغتم أرضكم » و « متالف وخلود » . انظر الحيوان ٤ : ٤٧٥ .

(٤) هو مهلهل ، كما فى البيان ٣ : ٣٢٠ . وهو بدون نسبة فى الحيوان ٣ : ٤٧٥ . تحريف . وفى الأصل : «وعفوا كعفوكم» تحريف . والعقر : القتل والإهلاك . جزاء العطاس ، هو تشميت العاطس والدعاء له بالخير ؛ أى نعجل بذلك كقدر ما بين العطاس والتشميت . وانظر اللسان (عقب ١١٠ جزى ١٥٩) . لا يموت من اثأر ، أى لا يموت ذكره . اثأر : أدرك ثأره .

ومما يدلُّ على قدر عِظَم الشُّكر عند الشاكر والمشكور له من العرب ، قولُ أوسِ بن حجرٍ فى حَليمة[1] :

سنجزيكِ أو يَجزيكِ عنَّا [مُثوِّبٌ]

وحسبُكِ أن يُثنَى عليكِ وتُحمَدِى[2]

وقال بعض الشعراء[3] :

فلم أجزِهِ إلاَّ التشكّرَ جاهدًا وحسبكَ منِّى أن أقولَ فأَحمَدا[4] ١١٤ و

وكانوا يرون للذَّنب مالا يراه غيرهم . وقال امرؤ القيس بن حُجْر :

* وجُرح اللِّسان كجرح اليدِ[5] *

(١) هى حليمة بنت فضالة بن كلدة . وكانت قد أسدت إليه صنيعا حين جالت به ناقته فصرعته ، فى قصة رواها أبو الفرج فى الأغانى ١٠ : ٧ .

(٢) المثوب : المجازى ، يقال أثابه وأثوبه وثوَّبه ، وفى الكتاب العزيز : « هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون » . وموضع الكلمة بياض فى الأصل ، وإثباتها من ديوان أوس ٢٧ والحيوان ٣ : ٧١ والبيان ٣ : ٣٢٠ . وروى : « عنى مثوب » وروى : « وقصرك » بدل « وحسبك » ؛ وهما بمعنى .

(٣) هو أبو يعقوب الأعور ، كما فى الحيوان ٣ : ٧٢ .

(٤) فى الحيوان :

فلم أجزه إلا المودة جاهدا وحسبك منى أن أود وأجهدا

وفى بعض نسخ الحيوان : « أن أود وأحمدا » .

(٥) صدره فى ديوان امرىء القيس ١٨٥ والبيان ١ : ١٥٦ :

* ولو عن نثا غيره جاءنى *

وقال جرير :

* والسَّيفُ أَشْوَى وَقعةً من لسانيا[1] *

فى أشعار كثيرة .

ولست أمُتُّ إليك — أكرمك الله — بعدَ التوحيد ونَفْى التشبيه ، ونُصرتى للدِّين ، بأمرٍ أنا به أوثقُ من رغبتك فى شُكر الكرام والأُحدوثة الحسَنة . قال الله عز وجل : ﴿ ورفَعْنَا لكَ ذِكرَكَ[2] ﴾ وقال : ﴿ وإنَّه لَذِكرٌ لَكَ ولقومك[3] ﴾ . فلو كان حبُّ الذكر خطيئةً لما رَغَّبَهم فيه ، ولا عُدَّ فى نِعَمه .

ولعل قائلًا أن يقول : وكيف لم تذكُر أميرَ المؤمنين ، والمعتصمَ بربِّ العالمين ، الذى حقَّق الله به الدِّين وسدَّد به الثُّغور ، وردَّ به المظالم ، وحَسَم به عِرق البَغْى ونواجمَ الفتنة ؛ الذى لم يَزَلِ الله يَزيده فى كلِّ طَرفةٍ محبَّة ، ومع كلِّ محبَّة هَيْبة ، ومع كلِّ نِعمةٍ شُكراً ، ومع كل شُكرٍ فضلا . وهو المبتدئ بهذا الأمر والقائم به ، والقطب الذى عليه تَدُور الرَّحَى ، وعلى مِثاله احتَذَى من احتذى ، وبلسانه نَطَق ، وعن رأيه صَدَر . وبيُمن نقيبته ظهر ، وبفَضْل قُوَّته نَهَض . وهو أوّل هذا الأمرِ ووسَطُه ، به يتمُّ إن شاء الله تعالى .

---

(١) صدره فى ديوان جرير ٦٠٦ والبيان ١ : ١٦٧ :

* وليس لسيفى فى العظام بقية *

أى هو يكسر العظم ويتجاوزه لا يغيب فيه أشوى ، من الشوى ، وهو إخطاء المقتل . يعنى أن لسانه أشد فتكا من سيفه ، على ما فى سيفه من قوة وفتك .

(٢) الآية ٤ من سورة الانشراح .

(٣) الآية ٤٤ من سورة الزخرف .

قلنا : إنَّ عقلَ الرَّسول يدلُّ على مُرسِله ، واعتدال القَناة يدلُّ على حِذْق المثقِّف ، ومَديحكَ الوزيرَ راجعٌ إلى مَن اختاره ، وإنَّ تصويبَ ظنٍّ المتفرِّس فيه ومديحَنا له غيرُ راجعٍ إلى وزيره والمحتذِى على مثاله ، بل قد علم النّاسُ أنَّ الحظَّ الأكبرَ للآمرِ دونَ المطيع ، وللمعلِّم دون القائل ، ولأنَّ المسبِّب فى عداله . . . . . [1] وعند النَّظر والتحصيل ، أفضـلُ من المسبَّب ، والمتبوعَ خير من التابع . ألا تَرَى أنَّ مَن مَدح الأنصارَ فهو للنبيِّ صلى الله عليه وسلم والمهاجرين أمدَحُ ، وإن لم يُظهِر ذِكرَهم فى الوصف .

قال جرير : ١١٤ ظ

* تلـكم قُريشىَ والأنصـار أنصارى[2] *

وقال رؤبة :

* ومَنْ على المِنبر لى والمِنْبَرُ *

وربما كانت الـكناية أبلغَ فى التعظيم ، وأدعى إلى التقديم ، من الإفصاح والشرح . وربّما أتى من السكوت بما يَعجِز القولُ عنه وقد بلغ أقصى حاجته وغايةَ أمنيَّته بالإيماء والإشارة ، حتّى يكون تـكلُّفُ القولِ فضلًا ، والـكلامُ خَطَلا .

وما عسى أن أقولَ فيمن قد قوِىَ عقله بطبيعته ، وانتصف عزمُه من شهوته ، وكان عملُه وَفْقَ علمه ، وعملُه غامرًا لحصمه .

---

(١) بياض فى الأصل بمقدار كلمتين .

(٢) صدره فى ديوان جرير ٣١١ :

* إن الذين اجتنوا مجدا ومكرمة *

وفى الأصل : « نبيهم قرشى والأنصار الصابرين » .

وقد يجرى المِلكُ على عِرقٍ صالح ومنشأ سَوْء، فيقدح ذلك فى عِرقه وإنْ لم يستأصله ، وقد يكون له عِرقٌ صالحٌ ومنشأ صِدقٍ ، وتكون أداتُه تامَّةً ويكون مُؤْثِرًا لهواه ، فيكون فى الاسم وفى ظاهر الحكم كمن فسد عِرقُه وخَبُث منشؤه .

وقد جمع الله لأمير المؤمنين[1] مع كرم العُروق وصلاح المنشأ ، البُعدَ من إيثار الهوى . وهل رأيتَ أفعالًا أشبَه بأخلاقٍ ، ولا أخلاقًا أشبَه بأعراقٍ ، من أفعاله بأخلاقه ، وأخلاقه بأعراقه .

فنسأل الله الذى أسندنا بخلافته ، أن يمنَّ علينا بطُول بقائه ، وأن يَخصَّنا بحسن نظرِهِ كما خصَّنا بمعرفة حقِّه ، والاحتجاج لمُلْكه ، والذبِّ عن سُلطانه .

ولربّما كان اللِّسانُ أنفذَ من السِّنان ، وأقطعَ من السَّيف اليمان .
أطال الله بقاءكَ وحَفِظَك ، وأتمَّ نعمته عليك ، وكرامته لك .

* * *

تمت الرسالة بعون الله تعالى ومنه وتوفيقه وتأييده . والحمد لله أولاً وآخراً وصلواته على سيدنا محمد نبيه ، وآله وصحبه ، وسلامُه .

---

(١) يعنى الخليفة المعتصم .



٧

رسالة

إلى أبي عبد الله أحمد بن أبي دُواد

يخبره فيها بكتاب

الفُتيا

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذه هي الرسالة السابعة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« رسالة إلى أبي عبد الله أحمد بن أبي دؤاد الإيادي ، من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، كتبها إليه يخبره فيها بكتاب الفتيا » .

أما أبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد الإيادي فقد سبقت ترجمته في أثناء الرسالة السابقة فأغنى ذلك عن إعادتها .

وقد أجرى الجاحظ ذكر كتاب الفتيا في الحيوان ١ : ٩ قال : « وعبت كتابي في القول في أصول الفتيا والأحكام » .

وما هذه الرسالة إلا تقديم وعبارة إهداء لكتاب الفتيا ، وليست هي كتاب الفتيا بعينه .

ولم أجد لهذه الرسالة أصلا في غير مجموعة مكتبة داماد ، وعليها اعتمادي في إخراج هذه الرسالة .

بسم الله الرحمن الرحيم

أطال الله بقاءك وأعزَّك ، وأصلح على يديك .

١١٥ ظ

كان يقال : السُّلطان سُوق ، وإنَّما يُجلَب إلى كلِّ سوق ما يَنفُق فيها .

وأنت أيُّها العالم معلِّم الخير وطالبُه ، والدَّاعى إليه ، وحامل الناس عليه - مِنْ موضع السُّلطان بأرفع المكان ؛ لأنَّ مَن جعل الله إليه مظالمَ العباد ، ومصالحَ البلاد ، وجعله متصفِّحًا على القضاة[1] ، وعَتاداً على الوُلاة ، ثمَّ جعله الله مَنزِعَ العُلماء ، ومَفزَعَ الضُّعفاء ، ومستراح الحكماء ، فقد وضَعه بأرفع المنازل ، وأسنى المراتب .

وقد قال أهلُ العلم ، وأهل التَّجربة والفهم : « لَمَا يَزَعُ الله بالسُّلطان أكثرُ ممَّا يَزَع بالقرآن[2] » .

وقد كان يقال : شيئان متباينانِ ، إن صَلَح أحدُهما صلَح الآخر : السُّلطان والرعيَّة .

فقد صَلح السُّلطان ، وعلى الله تمامُ النِّعمة فى صلاح الرعية ، حتى يُحقق الأثر ، وتَصدُقَ الشَّهادة فى الخبَر .

---

(١) إشارة إلى أنه كان قاضى القضاة .

(٢) فى اللسان (وزع) : « وفى الحديث : من يزع السلطان أكثر ممن يزع القرآن » . قال : معناه أن من يكف عن ارتكاب العظائم مخافة السلطان ممن تكفه مخافة القرآن والله تعالى . فمن يكفه السلطان عن المعاصى أكثر ممن يكفه القرآن بالأمر والنهى والإنذار .

فنسأل الذى مَنحك حُسن الرِّعاية أنْ يمنحنا حُسنَ الطَّاعة .

وقد نظرتُ فى التِّجارة التى اخترتَها ، والسُّوق التى أقمتَها ، فلم أر فيها شيئاً يَنفُق إلَّا العلمُ والبيانُ عنه ، وإلَّا العملُ الصالح والدُّعاء إليه ، وإلَّا التَّعاون على مصلحة العباد ، ونفْى الفساد عن البلاد .

وأنا ـ مدَّ الله فى عمرك ـ رجلٌ من أهل النَّظَر ، ومن جُمَّال الأثر ، ولا أكمُلُ لكلِّ ذلك ولا أفِى ؛ إلَّا أنِّى فى سبيل أهله وعلى منهاج أصحابه . والمرء مع مَنْ أحبَّ ، وله ما اكتسب .

وعندى ـ أبقاك الله ـ كتابٌ جامعٌ لاختلاف النّاس فى أصول الفُتيا ، التى عليها اختلفت الفُروع وتضادَّت الأحكام ، وقد جمعتُ فيه جميعَ الدَّعاوى مع جميع العلل . وليس يكون الكتابُ تامًّا ، ولحاجة الناس إليه جامعًا ، حتَّى تَحتجَّ لكلِّ قولٍ بما لا يُصابُ عند صاحبه ، ولا يبلغُه أهله ؛ وحتَّى لا ترضى بكشف قناع الباطل دون تجريده ، ولا بتَوْهينه دون إبطاله . وقد قال رسولُ ربِّ العالمين وخاتَمُ النبيِّين ، محمدٌ صلى الله عليه وسلم : « تَهادَوْا تحابُّوا » .

فحثَّ على الهديّة وإن كان كراعًا وشيئاً يسيرا . وإذا دعَا إلى اليسير الحقير فهو إلى الثَّمين الخطير أدعَى ، وبه أرضى . ١١٦ و

ولا أعلم شيئاً أدعَى إلى التحابِّ ، وأوجبَ فى التَّهادى ، وأعلَى منزلةً وأشرفَ مرتبة ، مِن العلم الذى جعلَ الله العملَ له تبعًا ، والجنَّةَ له ثوابا .

ولا عُذرَ لمن كتب كتاباً وقد غاب عنه خَصمُه ، وقد تكفَّل بالإخبار عنه ، فى ترك الحِيطة له ، والقيام بكلِّ ما احتملَه قولُه . كما أنَّه لا عُذر له فى التقصير عن فسادِ كلِّ قولٍ خالف عليه ، وضادَّ مذهبه ، عند من قرأ كتابَه .

وتفهّم أدخاله[١] ، لأنَّ أقلَّ ما يُزِيل[٢] عذره ويزيح عِلّته ، أنَّ قولَ خَصمه قد استهدف لخصمه ، وأصحرَ للسانه[٣] ومكّنه من نفسه ، وسلّطه على إظهار عورته . فإذا استراحَ واضعُ الكتاب من شَغَب خصمه ومداراة جليسه ، فلم يبقَ إلّا أن يَقوى على كسر الباطل أو يعجزَ عنه[٤] .

ومن شُكر المعرفة بمَغَاوى الناس ومَراشدهم ، ومضارِّهم ومنافعهم ، أنْ تحتمل ثِقل مؤونتهم فى تعريفهم[٥] ، وأن تتوخّى إرشادهم ، وإن جَهِلوا فَضْلَ ما يُسدَى إليهم .

ولم يُصَنِ العلمُ بمثل بذله ، ولم يُستَبْقَ بمثل نشره . على أنَّ قراءة الكتب أبلغُ فى إرشادهم من تلاقيهم ، إذْ كان مع التلاقى يكثر التَّظالُم ، وتُفرِط النُّصرة ، وتشتدُّ الحميَّة . وعند المواجهة يُفرِط حبُّ الغلبة ، وشهوةُ المباهاةِ والرِّياسة ، مع الاستحياء من الرجوع ، والأنَفَة من الخضوع . وعَن[٦] جميع ذلك تحدث الضَّغائن ، ويَظهر التَّباين . وإذا كانت القلوبُ على هذه الصِّفة وهذه الحِلْية ، امتنعت من المعرفة[٧] ، وعميَت عن الدّلالة .

---

(١) الأدخال : جمع دخل بالتحريك ، وهو العيب والفساد .

(٢) فى الأصل : « يزيد » .

(٣) أصحر : ظهر وبرز .

(٤) الكلام بعده إلى « وقامت سوق العلم والبيان » فى ص ٢١٧ تجده مع خلاف يسير فى الحيوان ١ : ٨٤ – ٨٧ .

(٥) فى الحيوان : « فى تقويمهم » .

(٦) فى الأصل « وعند » ، ووجهه من الحيوان .

(٧) فى الأصل : « الفرقة » ، وفى الحيوان : « التعرف » .

وليست فى الكتب عِلَّةٌ تمنع من دَرْك البُغية ، وإصابة الحُجّة ؛ لأنّ المتوحِّد بقراءتها ، والمتفرِّد بفهم معانيها ، لا يُباهى نفسَه ، ولا يغالب عَقْله .

والكتاب قد يفضُل صاحبَه ، ويرجُح على واضعه بأمور :

منها أنَّه يوجَدُ[1] مع كل زمانٍ على تفاوت الأعصار ، وبُعد ما بين الأمصار . وذلك أمرٌ يستحيل فى واضع الكتاب ، والمنازِع بالمسألة والجواب . ١١٦ ظ وقد يذهب العالم وتبقى كتبه ، ويَفْنَى العقِّب[2] ويبقى أثره . ولولا ما رسمَتْ لنا الأوائل فى كتبها ، وخلَّدت من عجيب حِكَمِها ، ودوّنَتْ من أنواع سِيَرِها ؛ حتَّى شاهدنا بها ما غابَ عنا ، وفتحنا بها المستغْلِق علينا ، فجَمَعْنا إلى قليلنا كثيرَهم ، وأدركنا مالم نكن ندركُه إلَّا بهم ـ لقد خَسَّ حظُّنا فى الحكمة ، وانقطع سببُنا من المعرفة ، وقَصُرت الهِمّة ، وضعفت النيَّة ، فاعتَقَم الرأىُ وماتت الخواطر ، ونبا العقل[3] .

وأكثر مِن كتبهم نفعاً ، وأحسنُ ما تكلّموا به موقعاً ، كتبُ الله التى فيها الهُدى والرحمة ، والإخبار عن كلّ عِبرة ، وتعريفُ كلِّ سيِّئة وحسنة .

فينبغى أن يكون سبيلُنا فيمن بعدنا كسبيل مَن قبلنا فينا . على أنّا قد وجَدنا من العبرة أكثرَ ممَّا وجدوا ، كما أنَّ مَن بعدنا يَجِد من العِبرة أكثرَ مما وجدنا .

فما ينتظر العالمُ بإظهار ما عنده ، والنَّاشر[4] للحقِّ من القيام بما يلزمه .

---

(١) فى الأصل : « يوخذ » .

(٢) فى الأصل : « العقب » ، وفى الحيوان « العقل » .

(٣) فى الحيوان : « وتبلد العقل » .

(٤) فى الحيوان : « والناصر » .

فقد أمكن القولُ وصلَح الدهر ، وخَوى نجم التَّقيَّة[1] ، وهبَّت ريح العلماء ، وكَسَدَ الجهل والعىّ[2] وقامت سوق العلم والبيان[3] .

وهذا الكتاب ـ أرشدك الله ـ وإن حَسُن فى عينى ، وحَلَا فى صدرى ، فلستُ آمَنُ أن يعترِيَنى فيه من الغلطِ ما يعترى الأبَ فى ابنه ، والشّاعرَ فى قريضه .

والذى دعانى إلى وَضْعه مع إشفاق منه ، وهيبتى لتصفُّحك له ، أنّى حين علمتُ أنَّ الغالبَ على إرادتك ، والمستولىَ على مذهبك ، تقريب العالم وإقصاء الجاهل ، وأنَّك متَى قرأتَ كتاباً أو سمعتَ كلاما ، كنتَ من وراءِ ما فيه من نقصٍ أو فضل ، باتِّساع الفهم ، وصحة العلم ؛ وأنَّك متى رأيتَ زللًا غَفَرته وقوَّمتَ صاحبه ، ولم تُقرِّعْه به ، ولم تَخْزِمْه له . ومتى رأيتَ صواباً أعلنتَه ورعيته ، فدعوتَ إليه وأثَبْتَ عليه . ولأنِّى حين أمنتُ عقابَ الإساءة ، [و] وثقت بثواب الإحسان ، كان ذلك موجباً لوضعه ، ولم أستكرِهْ نفسى عليه ، وصار ذلك موجباً لنَظْمه وموحيًا للتقرُّب به . والسَّبب أحقُّ بالتَّفضيل من المسبَّب ؛ لأنَّ الفعل محمول على سببه ، ومضافٌ إليه ، وعِيالٌ عليه ، ومضمَّن به . ١١٧ و

وإحسانى ـ مَدَّ الله فى عمرك ـ فى كتابى هذا إن كنت محسناً ، صغيرٌ

---

(١) خوى : اختفى وذهب .

(٢) فى الأصل : « والعمل » ، صوابه من الحيوان .

(٣) فى الحيوان : « سوق البيان والعلم » . وإلى هنا ينتهى النص المقارب لنص الحيوان ، الذى أشرت إليه فى ص ٢١٥ .

فى جنب إحسانك ، إذْ كنتَ المثيرَ له من مَرَاقِبه ، والباعثَ له من مراقده . فلذلك صارَ أوفرُ النصيبَينِ لك ، وأمتنُ السببين مضافاً إليك . وإنْ كنتُ قد قصَّرت عن الغاية ، فأنا المضيِّع دونك . وإن كنت قد بلغتُها ففضلُك أظهر وحظُّك أوفر . لأنِّى لم أنشط له إلَّا بك ، ولا اعتمدت فيه إلَّا عليك .

ولولا سوقُك التى لا ينفُق فيها إلَّا إقامة السنّة ، وإماتة البدعة ، ودَفع الظُّلامة ، والنظر فى صلاح الأمَّة — لكانت هذه السِّلعة بائرة ، وهذا الجَلَب مدفوعًا ، وهذا العِلْق خسيسا .

فالحمد لله الذى عَمَرَ الدُّنيا بك ، وأخذ لمظلومها على يديك ، وأيَّدَ هذا المُلْك بيُمنك ، وصَدَّق فِراسةَ الإمام فيك .

وأيَّةَ منزلةٍ أرفعُ وأيَّةُ حالةٍ أحمدُ، مِمَّن ليس على ظهرها عالمٌ إلاَّ وهو يَحِنُّ إليه ، أو قد رحل إليه ، أو قد صار إلى كنفِه وتحتَ جَناحه . وليس على ظهرها ظالمٌ إلاَّ وهو يتَّقِيه ، ولا مظلوم إلَّا وهو يستعديه .

ومن يَقِفُ على قدرِ ثوابِ مَن هذا قدرُه ، وهذه حاله ؟!

وعندى — مدَّ الله فى عمرك — كتبٌ سوى هذا الكتاب ، وليس يمنعنى مِن أن أهديَها إليك معًا إلَّا ما أعرفه من كثرة شُغْلك ، وكثرةِ مايلزمك من التدّبير فى ليلك ونهارك . والعلم وإن كان حياةَ العقل ، كما أنَّ العقلَ حياة الروح ، والرُّوح حياة البدن ، فإنَّ حكمه حكمُ الماء وجميعِ الغذاء ، الذى إذا فضل عَن مقدار الحاجة عاد ذلك ضررًا . وإنَّما يسوغ الشَّرابُ ويُستمرأ الطَّعام الأوّلَ فالأوّل . فكذلك العلم يجرى مجراه ، ويذهب مذهَبه .

١١٧ ظ ومن شأنِ النُّفوس الملالَةُ لِمَا طالَ عليها ، وكثُر عندها . فليس لنا أن نكون من الأعوان على ذلك ، ومن الجاهلين بما عليه طبائع البشَر ؛

فإنَّ أقواهم ضعيفٌ ، وأنشطَهم سَؤوم ؛ وإن كانت حالاتُهم متفاوتةً فإنَّ الضّعفَ لهم شامل ، وعليهم غالب .

فإذا قُرئَ عليك — أيدك الله — هذا الكتابُ التمسنا أوقات الجَمام[1] وساعاتِ الفراغ ، بقدر ما يُمكن من ذلك ويتهيَّأ . والله الموفِّق لذلك ، والمهيِّئ له . ثمَّ أتبَعْنا كلَّ كتاب بما يليه إنْ شاء الله .

وليست بحمد الله من باب الطَّفرة والمداخَلة[2] ، ولا من باب الجوهر والعَرَض ، بل كلُّها في الكتاب والسُّنَّة ، وبجميع الأمَّة إليها أعظمُ الحاجة .

ثم نسألُ الذى عرَّفنا فضلَك ، أن يصلَ حبَلنا بحبلك ، وأن يجعَلنا من صالحى أعوانك ،المستمِعين منك ، والناظرين معك ؛ وأن يُحسِّنَ فى عينك ويُزَيِّنَ فى سمعك ، ما تقرَّبْنا به إليك ، والتمسنا الدنوَّ منك ، إنَّه قريب مجيب ، فعَّالٌ لما يريد .

أطال الله بقاءك ، وأتمَّ نعمته عليك ، وكرامته لك فى الدُّنيا والآخرة .

* * *

تمت الرسالة بعون الله تعالى ومنِّه وتوفيقه . والله الموفق للصواب .

والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه الطيبين الطاهرين وسلامُه .

---

(١) الجمام ، كسحاب : الراحة .

(٢) انظر للطفرة والمداخلة حواشى الحيوان ٤ : ٢٠٨ .

٨

رسالة

إلى أبي الفرج بن نجاح الكاتب

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذه هى الرسالة الثامنة من رسائل الجاحظ ، انفردت بها نسخة مكتبة داماد . وعنوانها :

« رسالة لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، كتب بها إلى أبى الفرج بن نجاح الكاتب » .

وهى غير الرسالة التى كتب بها إليه فى « المودة والخلطة » ، فهذه لم ترد فى مجموعة داماد ، وإنما وردت فى الفصول المختارة لعبيد الله بن حسان ، وكذا فى مختارات فصول الجاحظ نسخة المتحف البريطانى ، وقد نشرها السندوبى كذلك فى رسائل الجاحظ .

وسأقوم بتحقيقها ونشرها إن شاء الله بعد الفراغ من هذه المجموعة : مجموعة داماد .

وأبو الفرج هذا هو محمد بن نجاح بن سَلمة ، كما فى جمع الجواهر للحصرى ١٢١ . وأبوه نجاح بن سَلمة كان على ديوان التوقيع فى خلافة المتوكل وقتله سنة ٢٤٥ ووجه إلى ابنيه أبى الفرج وأبى محمد ، فأخذ أبو الفرج وهرب أبو محمد ، كما ذكر الطبرى فى حوادث تلك السنة .

والملحوظ فى هذه الرسالة أن الجاحظ قد عنى فيها بجمع أسماء من كنيته « أبو عثمان » التى هى كنيته أيضاً ، كما أنها قد سجلت للجاحظ قصيدة من شعره .

بسم الله الرحمن الرحيم

جُعلتُ فِداك ، وأطال الله بقاك ، وأعزّك وأكرمك ، وأتمّ نعمته عليك وأيّدك .

قد نسخت لك — أعزّك الله — فى صدر هذا الكتاب قصيدةً قيلت فى أبى الفرج أدام الله عزّه ، ذكرُوا أن قائلها رجلٌ يكنى أبا عثمان ، ولا أدرى أهو أبو عثمان هشام بن المغيرة[1] ، أم أبو عثمان عَفّان بن أبى العاص[2] .

ولا أدرى أهو أبو عثمان عنبسة بن أبى سفيان ، أم أبو عثمان سعيد ابن عثمان[3] ، ولا أدرى أهو أبو عثمان النّهدى عبد الرحمن بن مَلّ[4] ، أم أبو عثمان ربيعة الرأىِ بن أبى عبد الرحمن[5] .

---

(١) جمهرة أنساب العرب ١٤٥ . وهو والد أبى جهل .

(٢) جمهرة أنساب العرب ٨٣ وهو والد عثمان .

(٣) جمهرة أنساب العرب ١١١ . وهو سعيد بن عثمان بن عفان .

(٤) فى الأصل : « مليل »، صوابه من الجمهرة ٤٤٧ وتهذيب التهذيب ٦ : ٢٧٧ وتقريب التهذيب . وهو عبد الرحمن بن مل — بتثليث الميم — بن عمرو بن عدى بن وهب بن ربيعة بن سعد بن جذيمة بن كعب بن رفاعة بن مالك ابن نهد .

(٥) هو ربيعة الرأى بن أبى عبد الرحمن فروخ التيمى ، أدرك بعض الصحابة والأكابر من التابعين ، وكان صاحب الفتوى بالمدينة . توفى سنة ١٣٦ . تهذيب التهذيب والمعارف ٢١٧ وصفة الصفوة ٢ : ٨٣ — ٨٦ .

ولا أدرى أهو أبو عثمان سعيد بن خالد بن أسيد[(١)] ، أم أبو عثمان إسحاق بن الأشعث بن قيس .

ولا أدرى أهو أبو عثمان المنذر بن الزُّبير بن العوَّام[(٢)] ، أم أبو عثمان عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك[(٣)] .

ولا أدرى أهو أبو عثمان عبد الله بن خالد بن أسيد[(٤)] ، أم أبو عثمان أبو العاص بن [بشر بن[(٥)]] عبد دُهمان ، وهو اسمُه .

ولا أدرى أهو أبو عثمان عبد الله بن عبد الرحمن بن سَمُرة بن حبيب ابن عَبد شمس[(٦)] ، أمْ أبو عثمان عبد الله بن عامر بن كُرَيز[(٧)] .

ولا أدرى أهو أبو عثمان سعيد بن أسعد بن إمام المسجد الجامع الأعظم ، أم أبو عثمان عمرو بن عبيد بن باب[(٨)] .

---

(١) جمهرة أنساب العرب ١١٣ .

(٢) جمهرة أنساب العرب ١٢٣ .

(٣) جمهرة أنساب العرب ٩٠ — ٩١ .

(٤) جمهرة أنساب العرب ١١٣ .

(٥) التكملة من جمهرة أنساب العرب ٢٦٦ .

(٦) جمهرة أنساب العرب ٧٤ . وفى الأصل : « بن جندب بن عبد شمس » ، صوابه من الجمهرة والإصابة ٣٤٦٩ .

(٧) الجمهرة ٧٤ ، ٧٥ ، ٣١١ .

(٨) عمرو بن عبيد بن باب : شيخ من شيوخ المعتزلة ، وأحد الزهاد المشهورين . توفى بحران سنة ١٤٤ ورثاه المنصور . قالوا : ولم يسمع بخليفة رثى من دونه سواه . تاريخ بغداد ٦٦٥٢ والمعارف ٢١٢ .

ولا أدرى أهو أبو عثمان فيروز حُصَيْنٍ العنبرى[١] ، أَمْ أبو عثمان ابن عُمَر بن أبى عثمان الشَّمَّرى[٢] .

ولا أدرى أهو أبو عثمان خالد بن الحارث بن سليمان الهُجَيْمِى[٣] ، أم أبو عثمان أبو العاص بن عبد الوهاب الثقفى[٤] .

---

(١) فى الأصل : « فيروز بن حصن » ، صوابه ما أثبت من البيان ٢ : ٤٣ وجمهرة أنساب العرب ٢٠٩ . وهو مولى حصين بن مالك بن الخشخاش العنبرى قال ابن قتيبة فى المعارف ١٤٧ : « ومن موالى آل الخشخاش فيروز ، أعظم مولى بالعراق قدراً . وقد ولى الولايات وخرج مع ابن الأشعث ، فقال الحجاج : من جاءنى برأس فيروز فله عشرة آلاف درهم ! فقال فيروز : من جاءنى برأس الحجاج فله مائة ألف درهم ! فلما هزم ابن الأشعث هرب إلى خراسان فأخذه يزيد بن المهلب فبعث به إلى الحجاج ». وقد نكل به الحجاج تنكيلا وقتله .

(٢) فى الأصل : « السمرى » ، صوابه من البيان ١ : ١٦ حيث ذكر أبوه « أبو حفص عمر بن أبى عثمان الشمرى » .

(٣) هو خالد بن الحارث بن عبيد بن سليمان الهجيمى البصرى ، كان من عقلاء الناس ودهاتهم ، وكان يقال له « خالد الصدق » . ولد سنة ١٢٠ وتوفى سنة ١٨٦ . ذكره فى البيان ٢ : ٢٢١ .

(٤) هو صاحب الرسالة التى رواها الجاحظ فى البخلاء ١٤١ – ١٥٣ وعقب عليها بذكر رد ابن التوأم عليها . وانظر أخبار أبى نواس لابن منظور ١٨٤ حيث ذكر أباه وإخوته ، ومنهم عبد المجيد الثقفى صاحب ابن مناذر الذى رثاه بقوله :

إن عبد المجيد يوم تولى هد ركنا ما كان بالمهدود

ولا أدرى أهو أبو عثمان سَعيد بن وهب الشاعر[١] ، أم أبو عثمان عمرُو الأعورُ الخارَكى[٢] .

ولا أدرى أهو أبو عثمان الحكم بن صخر الثّقفى[٣] ، أم أبو عثمان عمرو بن بكر المازنىّ .

ولا أدرى أهو أبو عثمان الأعور النحوىّ[٤] ، أم أبو عثمان عمرو ابن بحر الجاحظ .

١١٩ و والذى لا أشك فيه أنّه لم يقرضها أبو عثمان عمرو بن حَرْزة ، ولا أبو عثمان عمرو الخلخل ، ولا أبو عثمان إبراهيم بن يزيد المتطبّب ، ولا أبو عثمان سعيد بن حيان البزاز .

وقد بلغَنى عن أبى عثمان هذا المجهولِ موضعهُ ، المغمور نسبه ، أنه قال : ما راكبُ الأسد الأسود ، والبحر الأخضر ، والمصبور على السَّيف الحسام[٥] ،

---

(١) ذكره الجاحظ فى البيان ٣ : ١٦٢ — ١٦٣ وترجم له ابن المعتز فى طبقات الشعراء ٢٥٧ — ٢٦١ ، وكان شاعراً ماجناً ، وله خبر مع هارون الرشيد . وانظر الأغانى ٢١ : ١٠٤ وتاريخ بغداد ٩ : ٧٣ .

(٢) ترجم له المرزبانى فى معجمه ٢١٩ وقال : « أزدى بصرى أصله من خارك : قرية بفارس على البحر ، ماجن خبيث ، كان على عهد الخلخل الوراق » . وخارك ، بفتح الراء كما فى معجم البلدان ، قال ياقوت : « منهم الخاركى الشاعر ، فى أيام المأمون أو ما يقاربها .

(٣) ذكره أبو الفرج فى الأغانى ١٧ : ١٢١ فى رواية للعتبى عنه . والعُتبى ، هو محمد بن عبد الله العتبى الأخبارى المتوفى سنة ٢٢٨ .

(٤) ذكره الجاحظ فى البخلاء ١٨٠ .

(٥) صبر على القتل صبراً : حبس حتى يقتل .

بأحقَّ بجهد البلاء وشماتة الأعداء ، ممّن تعرَّضَ للمتصفِّحين[١] ، وتحكَّك بالعيّابين ، وحكَّم فى عِرضِ الحَسَدةَ المغتابين .

فإن سَلِم فبحُسْن النيّة ، ولأنه مَدحَ كريماً ، ووصفَ حليماً . والكريم صَفوح ، والحليم متغافل . وإن ابتُلِىَ فبذنبٍ ، وما عفا اللهُ عنه أكبر .

وقال : اللهمَّ اجعلْ هذا القولَ حسناً فى عينه ، خفيفاً على سمعه ، وأَلْهِمْه حُسنَ الظنِّ به ، وبَسطَ العُذْر له ، إنّك سميعُ الدعاء ، رحيمٌ بالضعفاء .

والقصيدة هى قوله :

أقامَ بدارِ الخفض راضٍ بحظِّـــهِ

وذو الحِرص يسرى حين لا أحدٌ يَسرى

يظنُّ الرِّضا بالقَسْم شـــيئاً مهوَّناً

ودُون الرضـــا كأسٌ أمرُّ من الصَّبرِ

جَزِعتُ فلم أَعتِبْ فلو كنتُ ذا حِجاً

لقَنَّعتُ نفسى بالقليـــل من الوَفْرِ

أظنُّ غبيَّ القـــوم أرغدَ عيشةً

وأجذلَ فى حال اليَســـارة والعُسْرِ

تمرُّ به الأحـــداث تُرعِدُ مَرّةً

وتُبرِق أخرى بالخطـــوب وما يدرى

ســـواءٌ علَى الأيام صاحب حُنْكةٍ

وآخرُ كابٍ لا يَريش ولا يَـــبرى

---

(١) المتصفح : المتأمل المتعرف .

فلو شـــاء ربّى لم أكن ذا حفيظةٍ
طَلوباً لغـــايات المكارم والفخرِ
خضَعتُ لبعض القـــوم أرجو نوالَه
وقد كنتُ لا أعطِى الدنيَّـةَ بالقَسْرِ
فلمّا رأيت المرءَ يبـــذُل بِشرَه
ويَجعلُ حُسن البِشر واقيـــةَ التِّبْرِ[1]
ربَعتُ على ظَلْعى وراجعتُ منزلى
فصِرْت حليفاً للدراســـة والفكرِ[2]
وشاورت إخـــوانى فقال حكيمهم
عليك الفـــتَى المُرِّىَّ ذا الخلق الغَمْرِ
فتًى لم يَقفِ فى الدهر موقفَ ظِنَّـةٍ
فيحتاجَ فيـــه للتّنصُّل والعُذْرِ
أُعيـــذك بالرحمن من قولِ شامتٍ ١١٩ ظ
أبو الفـــرج المأمولُ يزهد فى عَمرِو
ولو كان فيـــه راغباً لرأيتَـه
كما كان دهراً فى الرَّخاء وفى اليُسْرِ
أتَرضى ـ فدتك اليـومَ نفسى وأسرتى ـ
بتأخـــير أرزاق وأنت تلى أمرى

(١) أى يجعل بشره بدلا من بذله وعطائه .

(٢) ربع على ظلعه : توقف وانتظر . والظلع ، بالفتح : العرج أو شبيه به .

ألا يافتَى الـكُتّاب والعسكرِ الذى تأزّر بالحسنى وأُيِّد بالنَّصرِ
أخافُ عليك العينَ أو نفسَ وامقٍ وذو الوُدِّ منخوبُ الفؤاد من الذُّعر
وعَهدى به والله يُرشِد أمرَه ويحفظُه فى القاطنين وفى السَّفْر
مُطِلاًّ على التدبير ما يستفزُّه مَكايدُ محتالٍ عقاربُه تَسرِى
برأىٍ يُزيل الطَّود من مستقرِّه وأوضحَ عند الخصم من وَضَح الفجرِ
وعزمٍ كغرب المشرفىّ مصمِّمٍ وقلبٍ ربيط الجأش منثلج الصدر
فيا ابن نجاحٍ أنجح اللهُ سعيكم وأيّدكم بالنَّصر والعدد الدَّثْر[1]
قَعدتُ فلم أطلُب و جُلتُ فلم أُصِب خليلاً يواسينى ويَرغب فى شكرى
وإن أخفقَتْ كفِّى وقد علقَتْكمُ فقد قال رأيِى واستنمتُ إلى شعرى[2]
أعيذك بالرحمن أن تُشمِتَ العِدى فَلَلفقرُ خيرٌ من شماتةِ ذى الغمْرِ[3]
فإن تَرع وُدِّى بالقبول فأهلُه ولا يعرفُ الأقدارَ غير ذوى القدر
وحسبك بى إن شئتَ ودًّا وخُلّةً وحسبك بى يوم النَّزاهة والصَّبر
ألا ربَّ شكر داثر الرسم دارسٍ وشكر كنقش الحميريّة فى الصَّخر

قال أبو عثمان المجهول : إذا كان الممدوح ظاهرَ المحاسن كثيرَ المناقب فلم يُجِدِ الشاعرَ كان ألومَ .

---

(١) الدثر : الكثير .

(٢) استنام إليه : أنس به واطمأن إليه . وفى الأصل : « واستلمت » وإزاءها فى هامش الأصل الحرف « ظ » وتحته الحرف « ن » معناه الظاهر أنها « استنمت » .

(٣) الغمر بالكسر وبالتحريك أيضاً : الحقد والغل .

ونعوذ بالله أن يكون فيكم ما يستدعى الألفاظ الشريفةَ والمعانىَ النفيسة ، ويكونَ التقصيرُ منّى .

وكيفما تصرَّفتْ بى الحالُ فإنّى لم أخرجْ من جهد المجتهدين الراغبين المخلصين . فإن وقعَتْ هذه القصيدة والتى قدّمنا قبلها بالموافقة فالحمد لله . وإن خالفت فنستغفر الله . وإن شيّعتم ضعفَها بقوّة كرمكم[1] ، وقوّمتم أودَها بفضل حلمكم ، كان فى ذلك بلاغٌ لما أمّلنا . والله الموفّق .

* * *

تمت الرسالة بعون الله وتوفيقه ، والله الموفّق للصواب برحمته والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين وسلامه .

---

(١) شيعه تشييعاً : قواه .

٩

كِتَابُ

فَصِلِ مَا بَيْنَ العَدَاوَة وَالحَسَد

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذه هى الرسالة التاسعة من رسائل الجاحظ ، وعُنوانها :

« فصل ما بين العداوة والحسد » ، أى فرق ما بينهما .

وقد سجل الجاحظ فى صدر هذه الرسالة أن هذه الرسالة مسبوقة بكتاب فضل الوعد ، وأن فضل الوعد مسبوق بكتاب أخلاق الوزراء .

أما الأول منهما فقد أشار إليه الجاحظ فى مقدمة الحيوان ١ : ٩ . وأما الثانى منهما فلم أجدله ذكراً .

ويبدو أنه ألف هذه الرسالة لأبى الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، وزير المتوكل ثم المعتمد ، كما تدل عليه أواخر هذه الرسالة فى شعر الجاحظ وتعليقه على شعره ذلك .

وانظر لترجمة عبيد الله هذا تاريخ الطبرى ١١ : ٤٤ ومروج الذهب ٤ : ١١٩ والتنبيه والإشراف للمسعودى ٣١٤ وإعتاب الكتاب لابن الأبار ١٥٩ — ١٦٢ والوزراء والكتاب للجهشيارى ٢٥٤ والفخرى لابن طباطبا ٢١٦ ، ٢٢٨ .

وقد اعتمدت فى إخراج هذه الرسالة على نسخة الأصل فى مجموعة مكتبة داماد ، وهى النسخة الوحيدة التى نشر عنها الأستاذان الدكتور طه الحاجرى ، والمستشرق پاول كراوس نسختهما التى أشرت إليها بالرمز « ط » .

ومما يجدر ذكره أن للجاحظ رسالة أخرى فى موضوع مماثل لهذا ، هى «رسالة الحاسد والمحسود» . وليست فى مجموعتنا هذه ، فموعدها فى النشر والتحقيق بعد الفراغ من نشر هذه المجموعة بعون الله وتوفيقه إن شاء .

بسم الله الرحمن الرحيم

[1] أصحبَ الله مدّتك السعادةَ والسّلامة ، وقرنَها بالعافية والسُّرور ، ووصَلها بالنعمة التى لا تزُول ، والكرامة التى لا تحُول .	١٣٠ ظ

هذا كتابٌ ـ أطال الله بقاءك ـ نبيلٌ بارع ، فُصِل فيه بين الحسَد والعداوة ، ولم يسبقْنى إليه أحد ولا إلى كتاب فضل الوعد الذى تقدَّم هذا الكتاب ، ولا إلى كتاب أخلاق الوزراء الذى تقدَّم كتاب فضْل الوعد .

وإنَّما نبُلتْ هذه الكتب وحَسُنت وبَرَعتْ ، وبذَّت غيرَها ؛ لمشا كلتها شرفَ الأشراف ، بما فيها من الأخبار الأنيقة الغريبة ، والآثار الحسنة اللَّطيفة ، والأحاديث الباعثة على الأخلاق المحمودة ، والمكارم الباقية المأثورة ، مع ما تضمَّنتْه[2] من سِيَر الملوك والخلفاء ووزرائهم وأتباعهم ، وما جرت عليه أحوالهم .

فأنا أسألك بساطع كرمك وناصع فضلك ، لمَّا[3] امتننتَ علىَّ بصرف عنايتك إلى قراءتها . فإنْ لم يمكنك تبحُّرها والتقصِّى لجميعها ، للأشغال التى

---

(١) صدرت هذه الرسالة بعبارة ليست من أسلوب الجاحظ ، ونصها : « الحمد لله رب العالمين كما هو أهله . وصلى الله على محمد خاتم النبيين كما أمر به ، وعلى آل محمد كما سنه محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم كثيراً » .

(٢) فى الأصل : « ما تضمنتها » .

(٣) لما ، هنا ، بمعنى إلا ، كما فى التنزيل العزيز : « إن كل نفس لما عليها حافظ » .

تَعروكَ ، فبحسبك[(١)] أن تقف على حدودها ، وتتعرّف معانىَ أبوابها بتصفُّح أوائلها ؛ فإنّ معك قلباً به من اليقظة والذكاء ، والتوقّد والحفظ ، ما يكفى معه النَّظر الخاطف[(٢)] .

إنه لم يخلُ زمنٌ من الأزمان فيما مضى من القرون الذاهبة إلاّ وفيه علماء محقِّون، قد قرءوا كتب مَن تقدَّمهم، ودارسوا أهلها، ومارسوا [الموافقين[(٣)]] لهم ، وعانَوْا[(٤)] المخالفين عليهم ، فَمَخَضوا الحكمة وعجموا عيدانها ، ووقفوا على حدود العلوم ، فحفظوا الأمّهات والأصول ، وعرفوا الشرائع والفروع ، فَفَرَقوا ما بين الأشباه والنظائر ، وصاقبوا بين الأشكال والأجناس ، ووصلوا بين المتجاور والمتوازى[(٥)] ، واستنبطوا الغامض الباطن بالظاهر البيِّن ، واستظهروا على الخفىِّ المشكل بالمكشوف المعروف ، وعُرفوا بالفهم الثَّاقب والعلم الناصع ، وقضت لهم المِحنة بالذكاء والفطنة ، فوضعوا الكتب فى ضُروب العلوم وفنون الآداب لأهل زمانهم ، والأَخلافِ من بعدهم . يزدلفون بذلك إلى الممتنّ عليهم بفضل المعرفة التى ركّبها الله فيهم ، وأبانهم من غيرهم ، وفضّلهم عليهم ، ويباهون به الأمم المخالفة لهم ، ويتبارون بذلك فيما بينهم . ولهم حُسَّادٌ معارضون من أهل زمانهم فى تلك العلوم والكتب ، ١٢١ و

(١) فى الأصل : « وبنفسك » .
(٢) فى الأصل : « نظر الخاطف » .
(٣) موضعها بياض فى الأصل .
(٤) من المعاناة . وفى الأصل : « وعابوا » .
(٥) فى الأصل : « بين المتجاوز والمتوارى » .

منتحلةٌ يدَّعون مثلَ دعاويهم ، قد وَسَموا أنفسَهم بسِماتِ الباطل[١] ، وتسمَّوْا[٢] بأسماء العلم على المجاز من غير حقيقة ، ولبسوا لباس الزُّور متزخرفين متشبِّعين بما لا محصول له[٣] . يحتذون أمثلة المحقِّين فى زيِّهم وهَديهم ، ويقتفون آثارهم فى ألفاظهم وألحاظهم ، وحركاتهم وإشاراتهم ، ليُنسَبوا إليهم ويُحَلُّوا محلَّهم ، فاستمالوا بهذه الحيلة قلوبَ ضعفاءِ العامّة ، وجهلاءِ الملوك ، واتَّخَذهم[٤] المعادُون للعلماء المحقِّين عُدّةً يستظهرون بهم عند العامّة . وحَملَ المدَّعيةَ للعلم المزوِّرِ الحسدُ على بَهْت العلماء المحقِّين ، وعَضْههم والطَّعن عليهم[٥] ، وجرّأهم على ذلك ما رأَوْا من صَغْو ضَعَفة القلوب وإذلّة الناس إليهم[٦] ، وميل جهلاء الملوك معهم عليهم ، وأمَّلوا أن ينالوا بذلك بشاشة العامة ، وتستوىَ لهم الرِّياسة على طَغام الناس ورَعَاعهم ، ويستخولوا رُعَاتَهم[٧] وقومَهم ، فهمرُوا وهدَروا[٨] وتورَّدوا

---

(١) أى بسمات غير حقيقية .

(٢) فى الأصل : « وسموا » .

(٣) تشبع : تزين بما ليس عنده . وفى الحديث : « المتشبع بما لا يملك كلابس ثوبى زور » .

(٤) فى الأصل : « وانجدهم » .

(٥) العضه : أن يقول فيه ما لم يكن ؛ إفكا وبهتانا .

(٦) الصغو : الميل . وفى الأصل : « منه رأوا من صغو » .

(٧) فى الأصل : « رعاعهم » .

(٨) الهمر : الدمدمة بغضب . وجعلت فى ط : « فهمزوا » .

على أهل العلم بغباوتهم[١] ، وكشفوا أغطية الجهل عن أنفسهم ، وهتكوا ستراً كان مُسدَلا عليهم بالصَّمت . فقد قيل : « الصمت زَين العالم ، وسِتر الجاهل » ؛ طمعاً فى الرياسة وحبًّا لها . وقد قيل :

حبُّ الرياسة داءٌ لا دواء له وقلَّما تَجِدُ الراضين بالقسَمِ

ولم يخل زمنٌ من الأزمنة من هذه الطبقة ولا يخلو . وهلاكُ من هلك من الأمم فيما سلف بحبِّ الرياسة . وكذلك من يهلِكُ إلى انقضاء الدّهر فبحبِّ الرياسة .

١٢١ ظ وقد قيل : هلاك الناس منذ كانوا إلى أن تأتىَ الساعةُ بحبِّ الأمر والنَّهى ، وحبِّ السَّمع والطاعة .

فأشكل على العامّة أمرُ العالم الحقيقىّ والمدَّعى المجارى المنتحل للزُّور والباطل ؛ ثم ترادفَ عليهم من هذه العلل التى يعمى لها السبيل الواضح والطَّريق المنشأ[٢] ، على الجاهل المستضعف ؛ وذى الغَبَاء المسترهَف[٣] .

ولست آمَنُ — جعلنى الله فداك — أن تكون هذه الكتب التى أُعنَى بتأليفها ، وأتأنَّق فى ترصيفها ، يتولَّى عرضَها عليك من قد لبِس لباسَ الزُّور فى انتحال وضع مثلها ، ونسبَ نفسَه إلى القوّة على نظائرها ، والمعرفة بما يقاربها ، إن لم يكن أخاها فابنَ عمِّها ، وتشبَّع بما لم يُطعمْه الله منها .

---

(١) من قولهم : توردت الخيل البلدة ، إذا دخلتها قليلا قليلا قطعة قطعة . وفى الأصل : « توددوا » .

(٢) فى الأصل : « المنتا » .

(٣) من الرهيف ، وهو الرقيق اللطيف . وفى الأصل : « وذى الغنا » ، ووجهه ما أثبت .

ولعلَّ بعضَ من حَوْله(١) ، أو بعض من يهزل به ، ويرتع فى عقله ويلهو بلبِّه ، ويضعه على طَبطابة اللَّعب(٢) ، وفى أرجوحة العبث ، يوهمه(٣). الحسدَ له على ما يدَّعى من ذلك ، ويتقدَّم إلى آخرين فى إيهامهم إياه ذلك ، فيزيده فعلُهم ضراوةً بادِّعاء ما ليس معه وهو منه عارٍ . فإذا رجع إلى الحقائق علم أن مثله كما قد قيل :

ومن يَســكن البحرَينِ يعظمْ طِحالُه
ويُغبَطْ بمـــا فى البطن والبطنُ جائع(٤)

وقد قيل : « الذئب يُغبطُ وهو جائع » . فيلتوِى فى قراءتها ، ويقبض لسانه عن بَسطِ ما يحتاج أن ينشره منهـا ، ويقصِّر فى تفخيم حروفها ولا يملأ فمَه منها .

بلْ لا آمن أن يتجاوز ذلك إلى الطَّعن عليها بقولٍ أو إشارة ، فيوهم فسادَ معانيها ويُومى إلى سقوط ألفاظها ، من غير أن يُظهر المعاداة لها ، والحسدَ لمؤلِّفها ، والحمل عليها بقولٍ يكون دليلاً على ما يضمر ، وهو أبلغ ما يكون من قلب المستمع وأنْجعُه فيـه(٥) ، فيقع ذلك بخَلَده . وقد قيل : « مَن يَسمع يَخَلْ » .

---

(١) فى الأصل : « ما حوله » .

(٢) الطبطابة : خشبة عريضة يلعب بها بالكرة . وفى الأصل : « طبطاب » .

(٣) فى الأصل : « فيوهمه » .

(٤) البيت فى الحيوان ٤ : ١٣٩ والشعر والشعراء ٧٣١ وأمثال الميدانى ١ : ٢٥٥ .

(٥) فى الأصل : « وأنجعه » .

وليس يقابله أحدٌ برَدٍّ[١] ، ولا يوازيه بنزاع ، فيزداد نشاطاً عندما يرى من خلاء الأمر . وقد قيل : « كلُّ مُجْرٍ فى الخلاء يُسَرُّ[٢] » وكلُّ مناظرٍ متفرّدٍ بالنظر مسرور ، وإنَّما يُعرَف جَرْىُ الخيل عند المسابقة ، وبراعةُ النظر عند المخاصمة .

وقال لى بِشرٌ المريسى[٣] : عُرِض كتابى على المأمون فى تحليل النَّبيذ ، وبحضرته محمد بن أبى العبّاس الطُّوسى ، فانبرى للطَّعن عليه والمعارضة للحُجج التى فيه ، وأسهبَ فى ذلك وخَطب ، وأكثر وأطنَب ، فقلِقَ المأمونُ واحتدم ، وهاج واضطرم ؛ لاستحقار الطُّوسى[٤] وخلاءِ المجلس له ، وكان

١٢٢ و

---

(١) فى الأصل : « بود » .

(٢) فى الأصل : « يسبق » ، صوابه من الحيوان ١ : ٨٨ و ٤ : ٢٠٧ والميدانى ٢ : ٧٣ وأمالى القالى ٢ : ٨٩ . ويروى أيضاً « مسر » كما فى البيان ١ : ٢٠٣ . وأصله أن الرجل يجرى فرسه فى المكان لا مسابق له فيه ، فهو مسرور بما يرى من فرسه . يضرب للرجل تكون فيه الخلة يحمدها من نفسه ولا يشعر بما فى الناس من الفضائل .

(٣) هو أبو عبد الرحمن بشر بن غياث بن أبى كريمة المريسى ، نسبة إلى مريس أو مريسة . ومريس : قرية بمصر ، اختلف فى ضبطها بفتح الميم وكسر الراء مخففة أو مثقلة ، أما مريسة فقد ضبطها صاحب القاموس كسكينة بكسر الميم وبتشديد الراء . كان أحد دعاة الجهمية ، وأبوه كان يهودياً قصارا صباغا . وإليه تنسب فرقة المريسية . توفى سنة ٢١٨ . تاريخ بغداد ٣٥١٦ والسمعانى ٥٢٣ ولسان الميزان ٢ : ٢٩ — ٣١ .

(٤) الاستحقار : الاحتقار والاستصغار .

يحبُّ أن يَنزَعَه وازعٌ يكفُّه بحجّةٍ تُسكته ، فلما لم يرَ أحداً بحضرته يذبُّ عن كتابى قال متمثلاً :

يا لكِ من قُبّرةٍ بمعمَرِ   خلا لكِ الجوُّ فبيضى واصفِرى
ونقِّرى ماشئتِ أن تنقِّرى[1]

فما كان إلاّ ريثَ فراغِه من التمثُّل بهذه الأبيات حتى استؤذن لى فدخلتُ عليه ، فقال : يأبا عبد الرحمن ، ما تقول فى النبيذ ؟ فقلت : حِلٌّ طِلقٌ يأمير المؤمنين . فقال : فما تقول فيما أسكر كثيره ؟ قلت : لعنَ الله قليله إذا لم يسكر [إلاّ[2]] كثيره . ثم قال : إنَّ محمداً يخالفك . فأقبلت على ابن أبى العباس فقلت له : ما تقول فيما قال أمير المؤمنين ؟ قال : لا خلافَ بينى وبينك . كلاماً يوهم به أهلَ المجلس ، حبًّا للتسلُّم منّى والتخلُّص من مناظرتى ، لا على حقيقة التحليل له . فاستغنمت ذلك منه وقلت له : فما لى لا أرى أثر قُواه فى عقلك ؟ فضحك المأمون ، فلمّا رأيت ضحكَه أطنبتُ فى معانى تحليل النبيذ ، وابن أبى العباس ساكتٌ لا ينطق ، وكان قبل دخولى ناطقاً لا يسكت . فلما رأى المأمونُ سكوتَه عند حضورى مع كثرة كلامه فى ثَلْب كتابى وعيبه ـ كان ـ قبل دخولى ، قال متمثِّلاً :

مالكَ لا تنبحُ يا كلبَ الدَّوْمْ   قد كنتَ نبّاحًا فما لك اليومْ[3]

---

(١) الرجز لطرفة ، قاله وهو صغير يصطاد القبر ، وهو ضرب من الطير . وقال ابن برى : هو لـكليب بن ربيعة التغلبى وليس لطرفة . اللسان (قبر) . وذكر ابن قتيبة فى الشعراء ١٤٠ أنه أول شعر قاله طرفة . وانظر الحيوان ٣ : ٦٦ و ٥ : ٢٢٧ .

(٢) ليست بالأصل .

(٣) أنشده فى الحيوان ٢ : ٧٥ .

ثم نظرَ إليّ فقال : إنّ الكتب عقولُ قومٍ وراءها عندهم حججٌ لها ، فما ينبغي أن يُقضَى على كتابٍ إلّا إذا كان له دافع عنه، وخصمٌ يبين عمّا فيه ؛ فإنّ أبناء النِّعَم وأولاد الأُسْد محسودون .

ثم قال : ياأبا عبد الرحمن ، بإزاء كل حاسد راهن .

وقد قيل فى مثلٍ من الأمثال : « الحَسَنُ[1] محسود » . وفى مثل آخر : « لن تعدَم الحسناء ذامًا[2] » . وقال الأحنف بن قيس :

١٢٢ ظ

ولن تصادف مَرعًى ممرعًا أبدًا إلّا وجدت به آثار مأكولِ[3]

يقول : يُعاثُ[4] فى كلِّ [مرعًى[5]] حَسَنٍ ويؤكل منه ، فيَعيبه ذلك .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « ما أحدث الله بعبدٍ نعمةً إلّا وجدتَ له عليها حاسداً . ولو أنَّ امرأً كان أَقْوَمَ من القِدْح لوَجدتَ له غامزاً[6] » .

---

(١) فى الأصل : « الحسد » .

(٢) الذام ، بتخفيف الميم : العيب . ومثله الذيم . وضبطت فى ط بتشديد الميم سهوا .

(٣) وكذا فى أصل عيون الأخبار ٤ : ٩ . لكن فى أدب الدنيا والدين ١٣٥ « آثار منتجع » . والبيت فيه بدون نسبة .

(٤) فى الأصل : « يقال يعاب » .

(٥) تكملة يقتضيها القول .

(٦) القدح ، بالكسر : السهم .

وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : الحاسد لا يملك إلا عنانَ حَسَده ؛ لأنّه مغلوبٌ على نفسه .

وقال الخطَّاب بن نُمَير السَّعدىّ : الحاسد مجنون ؛ لأنه يحسُد الحسنَ والقبيح .

وقال المهلّب بن أبى صفرة : الحسد شِهابٌ لا يبالى من أصابَ ، وعلى مَن وقع .

والعداوة لها عقل تسوس به نفسَها فيَنجُم قرنُها ، وتُبدى صفحتها فى أوقات الهِتْر . وإلّا فإنها كامنةٌ تنتهز أزمنة الفرص . والحسد مسلوب المعقول بإزاء الضّمير فى كلِّ حينٍ وزمانٍ ووقت .

ومن لؤم الحسد أنه موكَّل بالأدنى فالأدنى ، والأخصِّ فالأخصّ . والعداوة وإنْ كانت تقبِّح الحسَن فهى دونَ الحسد ؛ لأنَّ العدوَّ المباين قد يحُول وليًّا منافقاً ، كما يحُول المولَى المنافق عدوًّا مباينا .

والحاسد لا يزول عن طريقته إلّا بزوال المحسود عليه عندَه . والعداوة تحدُث لعلّةٍ[1] ، فإذا زالت العلَّة زالت معها . والحسد تركيب لعله يحسد عليه[2] فهو لا يزول إلّا بزواله . ومن هذا قال معاوية رحمه الله : يمكنني أن أُرضىَ الناس كلَّهم إلّا حاسدَ نعمة ، فإنّه لا يرضيه منها إلّا زوالها .

وأعداء النِّعمة إذا شورِكوا فيها ونالوا منها تزحزحوا عن عداوتها ، وكانوا من أهلها الحامينَ عنها ، والدافعينَ عن حماها .

---

(١) فى الأصل : « العلة » .

(٢) كذا فى الأصل .

ومن هذا قال المغيرة بن شُعبة : النعمة التى يُعاش فيها نعمةٌ محروسة ليس عليها ثائر يغتالها ، ولا ذو حسد يحتال فى غِيَرِها .

١٢٣ و وقال قتيبة بن مسلم : خير الخير وأحصنُه خيرٌ عِيشَ فيه . وكلُّ خيرٍ كان يُرضَخُ[1] بذلاً كان من التالف ممنوعًا ، ومن الغِيَر آمنا .

وحُسَّاد النعمة إن أُعطوا منها وتَبَحبَحُوا فيها ، ازدادوا عليها غَيظًا وبها إغراء .

والعداوة تَخلِقُ وتُمَلّ ، والحسد غَضٌّ جديد ، حُرِم أو أُعطِيَ[2] ، لا يبيد . فكل حاسدٍ عدوٌّ ، وليس كل عدوٍّ بحاسد . وإنَّما حمل اليهود على الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم — وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم أنه نبيٌّ صادق ورسول مُحِقّ ، يقرءون بَعثه فى توراتهم ، ويتدارسونه فى بيت مِدْراسهم[3] — الحسدُ ، وحجز بين علمائهم والإيمان به ، ثم نَتَجَ لهم الحسدُ عداوتَه .

ومن الدليل على أنَّ الحسدَ آلم وآذَى وأوجعُ وأوضَع من العداوة ، أنه مُغرًّى بفعل الله عزّ وجلّ ، والعداوة عاريَة من ذلك لا تتّصل إذا اتّصلت إلّا بأفعال العباد . ولا يُعادَى على فعل الله تباركت أسماؤه . ألا ترى أنك لم تسمع أحدًا عادى أحداً لأنّه حسن الصورة جميلُ المحاسن ، فصيح

---

(١) رضخ له من ماله رضخا : أعطاه . والبذل : السخاء . وفى الأصل : « يوضح بدلا » .

(٢) فى الأصل : « إذا عطى » .

(٣) المدراس : الموضع الذى يدرس فيه . وفى الأصل : « مدارستهم » .

اللسان حسَن البيان . وقد رأيتَ حاسدَ هذه الطبقة وسمتَ به ، وهم كثير تعرفهم بالخبَر والمشاهدة .

فهذا دليلٌ على أن الحسدَ لا يكون إلّا عن فساد الطبع ، واعوجاج التركيب ، واضطراب السُّوس[1] .

والحسد أخو الكذب ، يجريان في مضمار واحد ؛ فهما أليفان لا يفترقان ، وضجيعان لا يتباينان . والعداوة قد تخلو من الكذب ؛ ألا ترى أنّ أولياء الله قد عادَوْ أعداء الله إذْ لم يستحلُّوا أن يكذبوا عليهم ؟! والحسد لا يبرأ من البُهت ، وكيف يبرأ منه وهو عموده الذى عليه يعتمد ، وأساسه الذى به البناء يُعقَد . وأنشد :

كضَرائر الحسْناء قُلن لوجهها   كذباً وزوراً إنَّه لدَميمُ[2]

والحسد نارٌ وَقودُه الرُّوح، لا تَبُوخ أبدًا أو يَفْنَى الوَقود[3] . والحسد لا يبلَى إلاّ ببِلى المحسود أو الحاسد . والعداوة جمر يُوقده الغضب ، ويطفئه الرِّضا ، فهو مؤمَّل الرُّجوع مرجوّ الإنابة[4] . والحسد جوهرٌ والعداوة اكتساب .

وقال بعضهم : الحسد أنثى ، لأنَّه ذليل ؛ والعداوة ذكرٌ فَحْل ، لأنَّها عزيزة . ١٢٣ ظ

(١) السوس ، بالضم : الطبع ، والخلق ، والسجية .

(٢) البيت لأبى الأسود الدؤلى . انظر حواشى البيان ٤ : ٦٣ . وفى البيان : « حسدا وبغيا » . والضرائر : جمع ضرة ، بالفتح وهى امرأة الزوج ، جمع نادر .

(٣) فى الأصل : « ويفنى الوقود » .

(٤) الإنابة : الرجوع ، وفى التنزيل العزيز : « منيبين إليه » .

والحسد وإنْ كان موكّلا بالأدنى فالأدنى فإنّه لم يَعرَ منه الأبعد فالأبعد . فقد رأينا وشاهدنا مَن كان يسكن العراق وينتحل العلم والأدب ، انتهى إليه خبَرُ مشاركٍ له فى الصناعة من أهل خراسان وجَنْبةِ بَلْخ[1] من اتّساق الرياسة فى بلده ، وجميل حالِه ونبيل محلّه عند أهل مصره ، وطاعةِ العامّة له ، وترادُف الناس عليه ، فطار قلبه فرَقًا ، وأخذَتْه الأَرْباء[2] ، وتنفّس الصُّعداء وانتفضَ انتفاضَ المُفْلس المطور[3] ، فقال لى رجلٌ من إخوانى كان عَن يمينى ، حين رأى ما رأى منه : بحقٍّ قال من قال : « لم يُرَ ظالم أشبَه بمظلوم من حاسدِ نعمة ؛ فإنّ نَفَسه متّصل ، وكربَه دائم ، وفكرته لا تنام » .

وهو فى أهل العلم أكثر ، وعليهم أغلب ، وبهم أشدُّ لصوقًا منه بغيرهم من الملوك والسُّوقة . وكأنّ من ناله التقصير فى صناعة العلم عن غايته القصوى[4] قد استشعر حسدَ كلِّ ما يرِدُ عليه من طريف أدبٍ ، أو أنيقِ كلام ، أو بديعِ معنًى . بل قد وقع بخَلَده لضعفه ، وقرّ فى رُوعه لخساسته[5] ، أنّه لا ينال أحدٌ منهم رياسةً فى صناعة ، ولا يتهيّأ له سياسةُ أهلها ، إلّا بالطّعن

---

(١) فى الأصل : « وحبه » ، بدون نقط . والجنبة : الناحية . وانظر الحيوان ٤ : ٤٩ .

(٢) الأرباء : جمع ربو ، وهو البهر والنهيج وتواتر النفس .

(٣) هذا عكس ما أنشده فى الحيوان ٣ : ٢٢٨ :

وكنت فيهم كممطور ببلدته   فسر أن جمع الأوطان والمطرا

وفى الأصل : « المعلس » تحريف .

(٤) فى الأصل : « عن غاية القصوى » .

(٥) الخساسة : الخسة والدناءة . وفى الأصل : « لحاسته » .

على نواصيهم[١]، والعيب لِجِلّتهم، والتحيُّف لحقوقهم.

قال لى مسلم بن الوليد الأنصارى الشاعر، الذى يُعرَف بصريع الغوانى[٢]: خُيِّل إلى نَوكَى الشُّعراء أنَّهم لا يُقضَى لهم بجودة الشِّعر إلّا بهجائى والطَّعن فى شعرى، ولسانٍ يُهجَى به عرضى، لا أنفكُّ متَّهما[٣] من غير جُرم، إلّا ما سبق إلى قلوبهم من وساوس الظنون والخواطر التى أوهمتهم أنه لا يسجِّل لهم بجودة الشعر إلّا إذا استعملوا فىَّ ما خُيِّل إليهم.

وأخبرنى أشياخنا من أهل خراسان أنّ أبا الصَّلت الهروىّ كان عند الفضل بن سهل ذى الرياستين بمرو، فقرأ عليه كتاباً ألّفه النَّضر بن شُميل، فطعَن أبو الصَّلت فيه، وكان الفضل عارفاً بالنضر الشُّميلىّ، واثقاً بعلمه، مائلاً إليه، فأقبلَ على أبى الصَّلت وقال له: إن يحيى بن خالدٍ قال يومًا: إنّ كتبى لتُعرَضُ على من يغلُظ فهمه عن معرفتها، ويَجسُو ذهنُه عنها، ولا يبلغ أقصى علمه ما فيها[٤] — يُعرِّض[٥] بإسماعيلَ بن صُبيح[٦] — فيطعنُ فيها ولا يدرى ما يُقرأ عليه منها. إلّا أن نار الحسد تُلهِبه فيَهذى

١٢٤ و

(١) النواصى: جمع ناصية، وهم الرؤساء والأشراف.

(٢) توفى مسلم بن الوليد سنة ٢٠٨، كما فى النجوم الزاهرة ٢: ١٨٦. وكان قد اتصل بذى الرياستين الفضل بن سهل، فولاه بريد جرجان، وبها مات. معجم المرزبانى ٣٧٢.

(٣) فى الأصل: «منهما».

(٤) فى الأصل: «أمانيها».

(٥) فى الأصل: «فعرض».

(٦) كان إسماعيل بن صبيح كاتباً ليحيى بن خالد البرمكى. الجهشيارى ١٥٠. وقلده إبراهيم الحرانى ديوان زمام الشام وما يليها. الجهشيارى ١٦٨.

هَذَيانَ المريض ، ويهمزُ هَمَزاتِ الغَيْرَى[١] ، ثم لا يرضى أن يقفَ عند أوّل الطعن ويَمِيلَ عنه حتَّى يستقصيَ على نفسه إظهارَ جهله عند أهل المعرفة ، باستيعابه الطَّعن على ما لم يبلغ درايتَه ، ولم يُحِط به علمه ، ثم يُنسيه جهلُه الطَّعنَ الذى تقدَّم منه فيها ، ويَحمله نوكُه على استعمال معانيها وألفاظها ، فى كتبه إلى إخوانه وأعوانه الذين شهدوه فى أوانِ طعنه عليها ، وحين ثَلْبِه لها .

وقد عرفتُ حقيقةَ ما قال يحيى بن خالدٍ بالتَّجرِبة والابتلاء . وإنّى ربَّما ألّفت الكتابَ المحكم المتقَن فى الدِّين والفقه ، والرسائل والسِّيرة ، والخُطَب والخراج والأحكام ، وسائر فنون الحكمة ، وأنسبهُ إلى نفسى ، فيتواطأ على الطَّعن فيه جماعةٌ من أهل العلم ، بالحسَد المركّب فيهم ، وهم يَعرِفون براعته ونَصاعته . وأكثر ما يكون هذا منهم إذا كان الكتاب مؤلَّفاً لملكٍ معه المقدرة على التقديم والتأخير ، والحطِّ والرَّفع ، [والترغيب[٢]] والترهيب ، فإنَّهم يهتاجون عند ذلك اهتياجَ الإبل المغتلمة ، فإن أمكنتْهم حيلةٌ فى إسقاط ذلك الكتاب عند السيِّد الذى أُلِّف له فهو الذى قصدوه وأرادوه ، وإنْ كان السيِّد المؤلَّفُ فيه الكتابُ نِحريراً نِقاباً ، ونِقريساً بليغاً ، وحاذقاً فطناً ، وأعجزَتْهم الحيلة ، سرَقوا معانىَ ذلك الكتاب وألّفوا من أعراضه وحواشيه كتاباً ، وأهدَوه إلى ملك آخر ، ومتُّوا إليه به[٣] ، وهم قد ذمّوه وثَلَبوه لمّا رأوه منسوباً إلىّ ، وموسومًا بى .

---

(١) الهمز : العيب . والهماز : العياب . وفى الأصل : « همزان » ، تحريف .

(٢) ليست فى الأصل .

(٣) أى توسلوا به إليه . والمت : التوسل بحرمة أو قرابة .

١٢٤ ظ

وربَّما ألّفتُ الكتاب الذى هو دونَه فى معانيه وألفاظه ، فأترجمه باسم غيرى ، وأُحيله على من تقدَّمنى عصرُه مثل ابن المقفّع والخليل ، وسَلْم صاحبِ بيت الحكمة[١] ، ويَحيى بن خالد ، والعَتّابىّ ، ومن أشبه هؤلاء من مؤلِّفى الكتب ، فيأتينى أولئك القوم بأعيانهم الطاعنون على الكتاب الذى كان أحكَمَ من هذا الكتاب ، لاستنساخ هذا الكتابِ وقراءته علىّ ، ويكتبونه بخُطوطهم ، ويصيِّرونه إمامًا يقتدون به ، ويتدارسونه بينهم ، ويتأدّبون به ، ويستعملون ألفاظَه ومعانيَه فى كتبهم وخطاباتهم ، ويروونه عنّى لغيرهم من طلاَّب ذلك الجنس فتثبت لهم به رياسة ، [و] يأتمُّ بهم قومٌ فيه ؛ لأنه لم يترجَم باسمى ، ولم يُنسَب إلى تأليفى .

ولربَّما خرج الكتابُ من تحت يدى مُحصَفًا كأنّه متنُ حجرٍ أملسَ ، بمعانٍ لطيفةٍ محكمةٍ ، وألفاظ شريفة فصيحة ، فأخاف عليه طعنَ الحاسدين إنْ أنا نسبتُه إلى نفسى ، وأحسد عليه من أهمُّ[٢] بنسبته إليه لجودة نظامه وحسن كلامه ، فأُظهره مُبْهمًا غُفلًا فى أعراض أصول الكتب التى لا يُعرف وُضّاعها ، فينهالون عليه[٣] انهيالَ الرَّمْل ، ويستبقون إلى قراءته سباقَ الخيل يوم الحَلْبة إلى غايتها .

وحسَدُ الجاهلِ أهونُ شوكةً وأذلُّ مِحنا ، من حسَد العارف الفطِن ؛ لأنّ الحاسد الجاهل يبتدر إلى الطَّعن على الكتاب فى أوّل وهلة يُقرأ عليه ، من

---

(١) ذكره ابن النديم فى الفهرست ١٧٤ قرينا لسهل بن هارون صاحب خزانة الحكمة ، وسعيدِ بن هارون شريك سهل بن هارون فى بيت الحكمة .

(٢) ط : « أهتم » ، خلافا لما فى الأصل .

(٣) فى الأصل : « عليها » .

قبل استتمام قراءته ورقةً واحدة ؛ ثم لا يرضى بأيسر الطعن وأخفِّه حتّى يبلغ منه إلى أشدِّه وأغلظه ، من قَبلِ أن يقف على فصوله وحدوده[1] . وليس ثَلْبُه مفسَّرًا مفصَّلا ، ولكنه يُجمل ذلك ويقول : هذا خطأ من أوّله إلى آخره ، وباطل من ابتدائه إلى انقضائه ، ويحسب أنَّه كلما ازداد إغراقًا[2] وطَمنًا ١٢٥ و وإطنابًا فى الحَمْل على واضع الكتاب[3] ، كان ذلك أقربَ إلى القَبول منه . وهو لا يعلم أنَّ المستمع إليه إذا ظَهَر منه على هذه المنزلة استخفَّ به ، وبكّته بالجهل ، وعلم أنّه قد حكم من غير استبراء ، وقضَى بغير رويّة ، فسقطَ عنه وبطل .

والحاسد العارف الذى فيه تقيَّة ومعه مُسكة ، وبه طَعْم أو حياة[4] ، إذا أراد أن يغتال الكتاب ويحتال فى إسقاطه ، تصفّح أوراقه ووقف على حدوده ومفاصله ، وردّد فيه بصره وراجعَ فكره ، وأظهر عند السيِّد الذى هو بحضرته وجلسائه ، من التثبُّت والتأنّى حِبالةً يقتنص بها قلوبهم ، وسببًا يسترعى به ألبابهم[5] ، وسُلَّما يرتقى به إلى مرادِه منهم ، وبساطًا يَفرشُ عليه مصارعَ الُخدَع . فيوهم به القصدَ إلى الحقّ والاجتباء له . فربّما استرعى[6] بهذه المخاتل والُخدَع قلبَ السيِّد الحازم .

فمن أعظم البلايا وأكبر المصائبِ على مؤلِّفى الكتب إذا كان العارض

(١) فى الأصل : « وحروفه » . وانظر س ١١ .
(٢) فى الأصل : « غرقا » .
(٣) فى الأصل : « وضع الكتاب » .
(٤) الطعم : العقل . وفى الأصل : « طعمة » .
(٥) فى الأصل : « يستدعى » .
(٦) فى الأصل : « استدعا » .

لها على السيّد الذى منه تُرجَى أثمانها ، وعنده تنفقُ بضائع أهلها ، على هذه الصِّفة التى وصفتُها من الحسد والحذقِ بأسبابه ، والمعرفة بالوجوه التى تثلم المحسودَ وتهدُّه ، وتضع منه ومن كتبه . لا سيَّما إنْ كان مع استبطان الحسَد واستعمالِ الدهاء والذَّكاء جليساً لازماً ، وتابعاً لايفارِق ، ومحدِّثاً لا يَرِيم ، وليست له رِعَةٌ[1] تحجُرهُ عن الباطل ، ولا معه حذرٌ يبعثه على الفكر فى العواقب ؛ فإنّ هذا ربَّما وافقَ فترةَ السيِّد بطُول ترداد الكلام ، وكثرة تكراره عليه ، من تأكيدِ خطائه[2] ، ونُصرته قوله ، وذِياده عنه ، واحتجاجه فيه ، فيؤثِّر فى قلبه ، ويضجِّع رأيه[3] . فليس للسيِّد الذى يحبُّ أن تصير إليه الأمور على حقائقها ، وتُصوَّرَ له الأشياء على هيئاتها ، حيلةٌ فى ذلك إلاّ حسمَ مادّة هذا من أهل الحسَد ، بالإعراض عنهم ، والاحتجاز دونهم .

وربَّما بلغ من الحاسد جهد الحسد إذا لم يُعمَل بشهوته ، ولم تنفذ سهامُ لَطائفه ، أن يقرَّ على نفسه بالخطأ ، ويعترفَ أنّ الطَّعن الذى كان منه فى الكتاب عن سهوٍ وغفلة ، وأنّه لم يكن بلغ منه فى الاستقصاء ما أراد ، وكان مشغولَ الفكر مقسَّم الذهن ، فلمَّا فرغَ له ذهنُه وانفرد له همُّه راجع ما كان[4] بدرَ منه ، لتُظَنَّ به الرِّعةُ ، ويقالَ إنّه لم يرجع عن قوله واعترَفَ بالخطأ إلاّ من عقل وازع ، ودِينٍ خالص . وإنما ذلك حيلةٌ منه ودهاء

١٢٥ ظ

---

(١) الرعة: التقى والتحرج ، يقال ورِع يرِع ويَوْرَع رِعَة ووَرعا ، وورُع يورُع وروعا ووَراعة . وفى الأصل : « زعة » تحريف .

(٢) الخطاء ، كسحاب : الخطأ . وجعلت فى ط « خطابه » سهوا .

(٣) التضجيع : التوهين .

(٤) فى الأصل : « وكان » .

قدَّمه أمامَ ما يريد أن يوكِّد لنفسه ويوطِّد لها، من قبول القَول فى سائر ما يَرِد عليه من الكتب عن غير موافقةٍ على مَوَاضع، ويجعل ما قد تقدَّم له من الرُّجوع عن قوله عند ما تبيَّن له[1] خلافُ ما قال، أوثقَ أسباب عدالته، وأحكمَ عُرَى نَصَفته.

وكان يقال: مِن لطيف ما يستدعى به الصِّدقُ إظهار الشك فى الخبر الذى [لا[2]] يُشَكُّ فيه.

وكان يقال: من غامض الرياء أن تُرَى بأنك لا ترائى. ومن أبلغ الطَّعن على ما تريد الطَّعن عليه أن تطعن ثم تستغفر الله، ثم تتمهَّل فترةً[3]، ثم تَعودَ لطعنٍ هو أعظم منه وأطمُّ من الأوَّل؛ ليُوثَق بك فيه، ويقالَ: إنَّ هذا لو كان عن حسدٍ ما رجَع عن الطعن الأوَّل.

وقد قيل: ذو الغِيبة المشهورُ بها المنسوب إليها يقلُّ ضررُه، ويضعُف كيده، لما شاع له فى الناس وانتشر منه، فكان عندهم ظَنيناً متَّهماً، ومطبوعاً عليها، يستمعون منه على قضاء ذمام المجالسة والتلذُّذ به، من غير قبول[4] ولا اصطفاء له.

وإنما البليّة فى غِيبة حُذّاق المغتابين الذين يسمعون، فيضحكون ولا يتكلَّمون. وأحذق منهم الذين يستمعون ويُسكتون القائل ويدعون الله

---

(١) فى الأصل: «عند التبين له».

(٢) ليست فى الأصل.

(٣) فى الأصل: «ثم تمهل فترد».

(٤) فى الأصل: «قول».

بالصَّلاح للمقُول فيه ، فهم قد أسكتوا القائل المغتاب ودعَوا المقُول فيه ، وأوكدوا قول القائل[1] ؛ لأنَّه لو حلّ عندهم محلَّ البراءة مما قيل له لُجِبَّه القائلُ ورُدِع عن قوله .

ومُظهر التَّوقّي قليلهُ عند العامّة كثير . والمتورِّد المتقحِّم لا تكاد العامّة تقبل منه . ١٢٦ و

وقد قال بعض العلماء : إنَّ عُبيد الله[2] بن عبد الله بن عتبة بن مسعود كان من نبلاء المغتابين وحُذَّاقهم حيثُ يقول :

مسَّا تُرابَ الأرض ، منه خُلِقتُما وفيها المعادُ والمصير إلى الحشرِ

ولا تعجبا أن تُؤتَيا وتعظَّما فما حُشِيَ الإنسانُ شرًّا من الكبرِ[3]

فلو شئت أدلى فيكما غير واحد علانيةً أو قال ذلك فى سرِّ[4]

فإن أنا لم آمُر ولم أنهَ عنكما ضحِكتُ له حتّى يلجَّ فيستشرى

ومن هذا سرق العتابىُّ[5] المعنَى حيث يقول :

إنْ كنتَ لا تحذر شتْمى لما تعرِف من صفحى عن الجاهلِ

---

(١) يقال وكده توكيدا ، وأوكده ، وآكده إيكادا .

(٢) فى الأصل : « عبد الله » ، صوابه من البيان ١ : ٣٥٦ . وانظر الحيوان ١ : ١٤ .

(٣) فى المحبر ٢٩٧ : « لا تعجبا أن تؤتيا وتكلما » ، وفى البيان والحيوان : « ولا تأنفا أن ترجعا فتسلما » .

(٤) فى الأصل : « أدنى فيكما » ، صوابه من المراجع السابقة .

(٥) هو كلثوم بن عمرو العتابى ، من شعراء الدولة العباسية ، كان منقطعا إلى البرامكة فوصفوه للرشيد ووصلوه به ، فبلغ عنده كل مبلغ . الأغانى ١٢ : ٢ — ٩ وتاريخ بغداد ١٩٦١ ومعجم الأدباء ١٧ : ٢٦ . على أن الأبيات نسبت فى الخزانة ٤ : ١٢ إلى كعب بن زهير .

فاخشَ سكوتى سامعاً ضاحكاً فيك لشنويع من القائلِ
مقالةُ السُّوء إلى أهلها أسرعُ من منحدِرٍ سائلِ
ومَن دعا الناسَ إلى ذمِّه ذمُّوه بالحق وبالباطل

وسئل القاسم بن معن عن ابن أبى ليلى ، فقلَّب كفَّيه[1] وقال :

من الناس من يَخفَى أبوه وجدُّه وجدُّ أبى ليلى لـكالبدر ظاهرُ

فلم تثبت عليه به حجةٌ فى ذمٍّ له ولا مدح . وقد بلغ ما أراد .

وسئل يوماً عن علمه فقال : أوعُوه وَطْباً ، فإن كان محضاً أو مشُوباً أظهرَه الوطبُ وماخِضُوه[2] .

فإنْ قَدَحَ ـ جعلنى الله فداكَ ـ بالحسدِ قادحٌ فيما أؤلفه من كتابى لك ، وسبقَ إلى وهمك شكٌّ فيه ، أعلمتَنى النُّكتةَ التى قَدَح فيها ، ثم قابِلْه بجوابى ، فإنى أرجو ألاَّ تحتاج إلى حاكِم عند تجاثِى القولين بين يديك ، لعلوّ الحقّ على الباطل ، ودموغه إيَّاه .

١٢٦ ظ

والحسد أذلُّ نفساً من أن يُجاثىَ أحدًا ، والعداوة إنَّما قدِّمت عليه لأنها عزيزةٌ منيعة .

ويقال : الحسد لا يبدو إلاَّ فى العين وعلى اللسان المقصور عند أهله المؤتلفين على . . .[3] والعداوة تبدو وتَنجم قُرونها وينبسط لسانها عند الموافقين له والمخالفين عليه .

(١) فى الأصل : « كفه »
(٢) يعنى من يمخضون الوطب .
(٣) بياض فى الأصل بمقدار كلمة .

وسئل خالد بن صفوان عن شبيب بن شيبة فقال : ذاك امرؤ سِيطَ بالحسد وجُبِل عليه ، فليس له أخٌ فى السرّ ولا عدوٌّ فى العلانية[١] .

وسئل العَتَّابى عن أهل بغداد فقال : حُسّادٌ ، إخوانُ العلانيةِ ، وأعداء السَّريرة ، يعطونك السكلّ[٢] ويمنعونك القُلّ .

ومما يدلُّك على أنَّ الحسد أخسُّ وأغبَنُ من العداوة ، أنّ المِلَل كلَّها ذمَّتْهُ وعابته . ولا نعلم أنّ شاذًّا من الشواذِّ ، وشارداً من الشُّرَّاد ، فَضْلاً عن جِيل من الأجيال ، أمرَ بالحسد ؛ كما قيل : « عادِ من عاداك ، وقارعْ بالعداوة أهلها » . ثم عظُم شأنُ العداوة عندهم ، وجلّ قدرُها لديهم ، حتّى اختلفوا فى وجوه العمل فيها ؛ فمنهم مَن أمر بها على الحزم والعقل .

وقال الشَّعبىُّ لبِشر بن مروان : لو وجَّهتَ إلى عمرو بن محمد بن عقيل مولى آل الزُّبير ـ وكانَ شتَمه ـ مَن يأتيك به سحباً وجرًّا ! فقال بشر : إنّى مستعملٌ فى عدوِّى قولَ القائل :

وعادِ إذا عاديتَ بالحزم والنُّهى   تنلْ ظفراً ممن تُريد وتَغلبُ

فكان بهذا ممن يرى المعاداةَ بالحزم ، ويغتالُها بالعقل والتأنِّى .

وكان عروة بن المغيرة يقول : شرُّ العداوة ما سُتر بالمداراة ، وأشقاها للأنفس ما قُرِع بمثلها بادياً . وكان ينشد :

---

(١) انظر البيان ١ : ٤٧ ، ٣٤٠ والحيوان ٥ : ٥٩٢ وعيون الأخبار ٣ : ٧٣ .

(٢) انظر ماسبق فى ص ٢٤٨ ، ٢٩٨ .

لا أتقى حَسَكَ الضَّغائن بالرُّقى فِعلَ الذليلِ ولو بقيتُ وحيدا[1]

١٢٧ و

لكن أُعِدُّ لها ضغائنَ مثلها حتّى أداوىَ بالحقود حُقودا

كالخمْر خير دوائها منها بها تَشفى السَّقيمَ وتُبرئُ المنجودا[2]

فانتهى قوله إلى ابن شُبرمة فقال : « لله درُّ عُروةَ ، هذه أنفس العرب ! » .

فهؤلاء رأوا كشفَ المعاداة ولم يَرَوا التأنِّى .

ومنهم من رأى المعاداةَ بعد الفِرار منها والإعذار فيها ، فإن هى أبت إلا المقارنة قارَنوها بمثلها .

قال شبيب بن شيبة : إذا رأيت الشرَّ قد أقبل إليك فتطامَنْ له حتّى يتخطَّاكَ ، ولا تَهِجْه ولا تبحثْ عنه ؛ فإنْ أبَى إلاّ أن يَبرُكَ عليك فكن من الأرض ناراً ساطعة تتلظَّى[3] . وأنشد :

إذا عاداكَ مختنِكٌ لبيبٌ فعادِ النَّومَ واحترسِ البيَاتا

ولا تُثِرِ الرَّبوضَ وخلِّ عنها وإن ثارت فكن شَبحًا مَواتا

---

(١) الحسك : جمع حسكة ، وهى الشوكة .

(٢) المنجود : المكروب . و نحوه قول أبى نواس :

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء وداونى بالتى كانت هى الداء

وأصل المعنى للأعشى حيث يقول :

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

انظر سرقات أبى نواس لمهلهل بن يموت ص ٧٠ .

(٣) فى الأصل : « ساطعا يلتى » .

تَجُزْكَ إلى سواكَ ونَحِّ عنها نخــير الشرِّ أسرعه فَواتا[١]
وإن مالت عليك وخفتَ منها فواجِهْهــا مجــاهرةً صِلاتا[٢]

ومنهم من أمر بقبول الإنصاف وترك المحاسبة . قال عبيد الله بن عبد الله ابن [عتبة بن] مسعود : إنّ الملاماتِ والمذمّاتِ كلَّها قبيحة ، وأقبح المَلامة والمذَمّة ما كانتا فى ترك نَصَفة أو شدّة منافسةٍ فى تعداد الذُّنوب . وأنشد :

منافســةُ العدوِّ أو الصــديقِ تجرُّ إلى المذمّة والملامــه
إذا أعطاكَ نِصفًا ذو وِدادٍ وبعضَ النِّصف فانتهز السَّلامه[٣]

ومنهم من قال : لا ترض من عدوِّك إلاّ بالظُّلم ، ولا تقبلْ إنصافه ونافسه فى ذلك[٤] . قال العباس بن عبد المطلب :

أبا طالب لا تقبل النِّصف منهم ولو أنصفوا حتى تَعُقَّ وتَظلما

ومنهم من أمر بمعونة الدهر على العدوّ إذا حمل عليه . قال : حدثنى ١٢٧ظ إبراهيم بن شُعبة المخزومى قال : سمعت من حكى لى عن مُصعَب بن الزبير قال : إذا رأيت يد الدهر قد لطمتْ عدوَّك فبادره برجلك ، فإنْ سلم من الدَّهر لم يسلمْ منك . وأنشد :

إذا بركَ الزّمانُ على عدوٍّ بنكبته أعنتَ له الزّمانا

---

(١) فى الأصل : « ونح عليها » .
(٢) مصدر صالتَ ، والفعل ومصدره لم يرد فى المعاجم المتداولة . ومادة (صلت) تدل على الظهور والسرعة .
(٣) النصف ، بالكسر : الانصاف .
(٤) فى الأصل : « من ذلك » .

قال العتّابى : قلت لطوق بن مالك[1] : إنّ من شرط الدهر ومن صناعة الزمان السَّلب ، فإذا حملت الأيام على عدوّك ثِقلاً وأمكنتك منه فزِده ثِقْلًا إلى ثقله . قال : فقال لى طَوْق : من لم ينتهز من عدوّه انتهزَ منه ، وحالت الأيام التى كانت بيضًا عليه سودًا . وأنشد :

لله درّكَ ما ظننتَ بثـائرٍ حَرّانَ ليس على التُّراب براقدِ

أحقدتَه ثم اضطجعتَ ولم ينم أسفًا عليك وكيف نومُ الحاقدِ

إن تُمكِنِ الأيامُ منك ، وعَلَّها ، يومًا نُوَفِّك بالصُّواع الزائد[2]

ولئن سلمتَ لأتركنَّك عارضا بعدى لـكل مُسـالمٍ ومعاند

ومنهم من كان يرى جَبر كسرِ العدوّ وإقالةَ عثرته ، ونُصرتَه عند وثوب الدَّهر عليه .

قال : حدثنى ابن عبد الحميد قال ابن شُبرُمة[3] : كانت الحرب يوم

---

(١) فى الأصل : « لمالك بن طوق » وفى هامشه : « لطوق بن مالك » ، وهو الصواب بدليل ما سيأتى بعده . وهو طوق بن مالك بن طوق بن مالك بن عتاب ، كما فى جمهرة أنساب العرب ٣٠٤ . وله خبر آخر مع العتابى فى الأغانى ١٢ : ٦ . وأبوه مالك بن طوق ، كان والياً على الأهواز ، وكان شاعراً . الأغانى ١٧ : ١٥٧ . وهو صاحب رحبة مالك بن طوق ، أنشأها فى عصر الرشيد ، وهو القائل للرشيد حين أراد أن يفتك به :

أرى الموت بين السيف والنطع كامنا

يلاحظنى من حيثما أتلفت

(٢) وعلها ، أى ولعلها . فى الأصل : « توفك » ، تحريف . والصواع : مكيال ، وربما شرب به .

(٣) هو عبد الله بن شبرمة بن حسان بن المنذر الضبى ، أبو شبرمة الكوفى القاضى ، ولاه أبو جعفر قضاء الكوفة . وكان ثقة فى الحديث ، شاعراً حسن الخلق جوادا . ولد سنة ٧٢ وتوفى سنة ١٤٤ . تهذيب التهذيب .

صِفِّينَ بين العرب مَحضةً لا شوبَ فيها، فكانت محاربتهم كِدامًا واعتناقاً، وكانوا إذا مرُّوا برجل جريحٍ كانوا يقولون: خذله قومُه فانصروه، وألقاه دهره بمَضْيعةٍ فردُّوه إلى أهله.

وقال ابن شُبرمة: مازلنا نسمع أنَّ المصيباتِ تنزَع السجيّات.

قال: وأنشدنى بعضُ أهل العلم فى هذا المعنى:

فلَوْ بى بدأتم قبل من قد دعوتمُ ... لفرّجتُها وحدى ولو بلغَتْ جَهدى

إذا المرء ذو القربى وذو الحقد أجحفَتْ ... به سَنةٌ سلَّتْ مصيبتُه حقدى[1]

ومنهم من رأى الإفضال على عدوّه وتركَ مجازاته. وهذا كثير لا يُحتاج فيه إلى استقصاء شواهده.

١٢٨ و

قال غَيْلان بن خَرَشة الضبّىّ[2] — وقال بعضهم: بل الأحنف ابن قيس[3] — لا تزال العرب بخيرٍ ما لبِست العمائم وتقلَّدت السيوفَ وركبت الخيل، ولم تأخذها حميّة الأوغاد. قيل: وما حميّة الأوغاد؟ قال:

---

(١) نسب هذا البيت فى عيون الأخبار ٣ : ١٠٧ إلى أبى الأسود الدؤلى. وليس فى ديوانه المنشور فى نفائس المخطوطات. والسنة: الجدب والقحط.

(٢) غيلان بن خرشة، كان سيد بنى ضبة بالبصرة، وكان من البلغاء. الاشتقاق ١٩٤ وجمهرة ابن حزم ٢٠٤. وكان غيلان أحد أصحاب أبى موسى الأشعرى، ثم انتقض عليه وكان سبباً فى أن يعزل عثمان أبا موسى الأشعرى ويولى مكانه عبد الله ابن عامر. الجهشيارى ١٤٧.

(٣) الذى فى البيان ٢ : ٨٨ و ٣ : ٩٨ أن القول للأحنف. والنص فيه: «وقال غيلان بن خرشة للأحنف، يا أبا بحر، ما بقاء ما فيه العرب؟ قال: إذا تقلدوا السيوف، وشدوا العمائم ...». فالقول والجواب إنما هو للأحنف.

أن يَرَوا الحِلم ذُلاً ، والتَّواهُبَ ضَيماً[١] .

وقال الشَّعبيّ لرجل قال له : ألا تنتقم من فلانٍ فقد عاداك ونصَبَ لك ؟ فقال :

ليست الأحلامُ فى حال الرِّضا إنّما الأحلام فى حال الغضَبْ

وأنشدنى بعض العلماء بيتين وقال : إنّ الزُّبيرىّ[٢] كان كثيراً مايتمثَّل بهما :

وإنِّى لِأعدائى على المقت والقِلى بنى العمّ منهم كاشح وحسودُ

أذُبُّ وأرمى بالحصى من ورائهم وأبدأ بالُحسنَى لهم وأعــود

وكان عبد الملك بن مروان إذا أُنشِد :

إنى وإن كان ابن عمى كاشحًا لمُراجِمٌ من دونه وورائه[٣]

ومُفِيدُهُ نصرى وإن كان امرأً متزَحزحًا فى أرضه وسمـائه[٤]

وإن اكتسى ثوباً نفيساً لم أقل ياليت أنَّ علىَّ حسنَ ردائه[٥]

---

(١) فى حاشية هـ من نسخ البيان : « التواهب هو أن يترك من حقه لصاحبه عند الحاكم ، على وجه المروءة ومكارم الأخلاق . فإذا رأى أن ترك ذلك ذلة فتلك حمية الأوغاد ».

(٢) هو عبد الله بن مصعب ، كما فى تاريخ الطبرى ١٠ : ١١٢ . وكان عاملا للرشيد على المدينة واليمن . وانظر البيان ١ : ٣٢ و ٣ : ١١٠ .

(٣) الشعر لهذيل بن مشجعة البولانى ، كما فى الحماسة ١٨٦٠ بشرح المرزوقى . والكاشح : المضمر العداوة . وفى الحماسة : « غائبا لقاذف من خلفه » .

(٤) فى الحماسة : « ومفيده نصرى » .

(٥) فى الأصل : « ثوباً نسيساً » ، تحريف . وفى الحماسة : « ثوباً جميلا » .

وإذا تخرَّق فى غنـاه وفَرته وإذا تَصعلك كنت من قرنائه(١)

قال : هذا والله من شعر الأشراف . نفى عن نفسه الحسدَ واللؤم والانتقام عند الإمكان ، والمسألةَ عند الحاجة .

ومنهم من أمرَ بالسَّفه فى العداوة واستعمالِ الُخرق فيها .

حدَّثنى نوح بن أحمد عن أبيه عن ابن عبَّاس قال : جاء النابغةُ الجعدىّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هل معك من الشِّعر ما عفا الله عنه ؟ قال : نعم . قال : أنشدْنى منه . فأنشده :

وإنَّا لقومٌ ما نعـوِّد خيلَنا
إذا ما التقينا أن تَحِيـدَ وتَنفرا(٢)
وتُنكر يومَ الرَّوع ألوانَ خيلِنا
من الطَّعن حتى تَحسبَ الجَوْنَ أشقرا
وليس بمعروفٍ لنـا أن نردَّها
صِحاحًا ولا مستَنكراً أن تعقَّرا
بَلغنا السَّماءَ مجـدُنا وسناؤنا
وإنَّا لنبغى فوق ذلك مَظْهرا

١٢٨ ظ

(١) التخرق : التوسع فى الإنفاق . ويقال وفره ماله : جعله وافرا لم ينقص منه .

(٢) الأبيات من قصيدة للنابغة الجعدى فى جمهرة أشعار العرب ١٤٥ — ١٤٨ . وهى أولى المشوبات . ورويت أيضاً فى الاستيعاب ص ١٥١٥ والخزانة ١ : ٥١٣ — ٥١٤ واللآلى ١٤٧ ، ٧٧٢ .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلى أينَ يا أبا ليلى ؟ فقال : إلى الجنّة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إلى الجنّة إن شاء الله » .

ثم رجع فى قصيدته فقال :

ولا خير فى جهلٍ إذا لم يكن له حليمٌ إذا ما أورد الأمرَ أصدَرا
ولا خير فى حِلمٍ إذا لم تكن له بوادرُ تحمى صَفوَه أن يكدَّرا[1]

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا فضَّ الله فاكَ ! » . قال : فأتتْ عليه عشرون ومائة سنة ، كلّما سقطت له سِنٌّ اثَّغَرت أخرى مكانها ؛ لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فهذا أحسن ما رُوى فى البادرة التى يُصان بها الحلم .

وقال الشاعر الجاهلىّ[2] :

صَفحنا عن بنى ذُهلٍ وقلنا : القومُ إخوانُ
عسى الأيّامُ أن يَرجِعـ ـنَ حيًّا كالذى كانوا[3]
فلمّا صرّح الشّرُّ وأمسَى وهو عُريانُ

---

(١) البادرة : الكلام الذى يسبق من الإنسان فى الغضب ، كما فى اللسان (بدر) عند إنشاد هذا البيت .

(٢) هو الفند الزمانى ، واسمه شهل بن شيبان . شاعر جاهلى قديم ، كان أحد فرسان ربيعة المشهورين ، شهد حرب بكر وتغلب وقد قارب المائة . الخزانة ٢ : ٥٨ — ٥٩ والأغانى ٢٠ : ١٤٣ — ١٤٤ واللآلى ٥٧٩ . والقصيدة هى ثانى مقطوعة فى حماسة أبى تمام .

(٣) الحى : الواحد من أحياء العرب ، والبطن من بطونهم . وفى الحماسة : « قوما » .

مَشَينا مِشـــيةَ الليثِ　　بَدا واللَّيثُ غضبانُ[١]

بضربٍ فيـه توهينٌ　　وتضجيعٌ وإذعانُ[٢]

وطعنٍ كفمِ الزِّقّ　　وَهَى والزِّقُّ ملآنُ[٣]

وفى الشرِّ نجـاةٌ حيـ　　نَ لا يُنجيكَ إحسانُ

حدثنا أبو مِسْهر عن أبيه عن خالد بن عَمرو الكلبىّ قال :

كنَّا مع أبى بَرْزَة الأسلمىّ[٤] فى غَزاة ، فكان منّا رجل يمتار لنا المِيرةَ ويقوم بحوائجنا ، فإذا أقبلَ قلنا : جزاكَ الله خيرا . فغضب لدعائنا ، فشكونا ذلك إلى أبى برزة ، فقال أبو برزة : كنّا نسمع أنّ من لم يصلحه الخير أصلحَه الشرّ ، فاقلبوا له . فكنّا نقول له إذا أتانا بالحوائج : جزاكَ الله شرًّا وعَرًّا[٥] ، فيضحك لذلك .

١٢٩ و

وأنشدنى رجلٌ عن بعض الأعراب :

أرى الحلمَ فى بعض المواطن ذلّةً　　وفى بعضها عزًّا يُشرِّف فاعلُه

إذا أنت لم تَدفَع بحلمك جاهلًا　　سفِيهًا ولم تَقرِنْ به من يُجاهلُه

لبستَ له ثوبَ المـذلّة صاغراً　　فأصبحَ قد أودى بحقِّك باطلُه

(١) فى الحماسة : « غدا » .

(٢) فى الحماسة : « وتخضيع » ، وهو اختلاط الصوت .

(٣) فى الحماسة : « غذا » بالذال المعجمة ، أى سال

(٤) صحابى جليل ، وهو نضلة بن عبيد الأسلمى ، مشهور بكنيته ، نزل البصرة وشهد مع على قتال الخوارج بالنهروان ، وأتى خراسان فنزل مرو ، ومات بالبصرة سنة ٦٠ . الإصابة ٨٧١٠ والاستيعاب ٢٨٧٢ والاشتقاق ١٠٦ .

(٥) العر : الشر والشين ، وأصل معناه الجرب .

فأبقِ على جُهَّـال قومك إنّه ... لـكلِّ حليمٍ موطنٌ هو جاهلُه[(١)]

وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « استوصُوا بالغَوغاء خيراً ، فإنهم يطفئون الحريق ، ويسُدُّون البثوق[(٢)] » .

وقال أبو سلمى[(٣)] فى الجاهلية :

لا بدَّ للسُّـودَد من رِماح[(٤)] ... ومن عَديد يُتَّقى بالراحِ[(٥)]

* ومن كلابٍ جَمّةِ النُّباحِ *

وقال مسلم بن الوليد[(٦)] :

حلفتُ لئن لم تلقَنى سـفهاؤها ... خُزاعةُ والحيَّانِ عوفٌ وأسلَمُ

لأرتجعنَّ الودَّ بينى وبينهـا ... بِقافيةٍ تَفرِى العـروقَ فتحسِمُ

من اللاءِ لا يرجعن إلاّ شواردًا ... لهنَّ بأفواه الرجال تَهَمْهُـمُ

أصابوا حليمًا فاستعدُّوا بجاهل ... إذا الحلم لم يمنعك فالجهلُ أحزمُ

ولم نستقصِ الأبواب كلَّها بالمعارضة[(٧)] فى هذا الـكتاب ، ولو استقصينا

---

(١) أى لـكل حليم موطن يجب أن يجهل فيه وينزع عن حلمه .

(٢) البثوق : جمع بثق ، وهو منبعث الماء يخرقه السيل .

(٣) الحيوان ١ : ٣٥١ / ٣ : ٧٩ . والرجز بدون نسبة فى البيان ٣ . ٣٣٥ .

(٤) فى الحيوان والبيان : « من أرماح » .

(٥) فى الأصل : « ومن عداء » ، صوابه فى الحيوان والبيان .

(٦) الأبيات لم ترد فى ديوان مسلم ولا ملحقاته ، وفى الديوان ١٧٧ — ١٨٣ قصيدة على روى هذه الأبيات .

(٧) فى الأصل : « المعارضة » .

لطالت بنا الأيّام وتراخت الليالى إلى بلوغ الغاية فى تمام الكتاب . وإنّما ذكرنا من كل باب عَرضَ فيه ما دلّ على معناه الذى إليه قُصِد .

ولم نر الحسَد أَمرَ به أحدٌ من العرب والعجم فى حالٍ من الأحوال ، ولا ندبَ إليه ونبَّه عليه . وقد نُبِّه على العداوة وفُصِّل بين أحوالها بما قد بيَّنّاه ، فظهر فضلُها على الحسد بذلك .

وكنت امرأً قليل الُحسَّاد حتّى اعتصمتُ بعُروتك ، واستمسكتُ بحبلك واستذريت فى ظِلّك[1] ، فتراكَمَ علىَّ الُحسَّاد وازدحموا ، ورمَونى بسهامهم من كل أوبٍ وأفق ، وتتايَعوا علىَّ تتايُعَ الدَّبْرِ[2] على مُشتار العَسَل . ولئن كثروا لقد كثُر بهبوب ريحك إخوانى ، وبنَضْرة أيامك وزهرة دولتك خُلّانى . وأنا كما قلت :

١٢٩ ظ

فأكثرتَ حُسَّادى وأكثرتَ خُلَّتى
وكنتُ وحُسَّادى قليلٌ وخُلَّانى

فلمّا بلغت هذا الفصلَ من تأليف هذا الكتاب دخلَ علىّ عشرةُ نفرٍ من من الكُتّابِ قد شملهم معروفك ، ورفع مراتبَهم جميلُ نظرك ، فهم من طاعتك والمحبّة لك على حسب ما أوليتَهم من إحسانك وجزيل فوائدك ، فأفاضوا فى حديثٍ من أحاديث الحسد ، فشعَّب لهم ذلك الحديثُ شعوباً

---

(١) استذرى بالشجرة : استظل بها وصار فى دفئها . واستذرى بفلان : التجأ إليه . وفى الأصل : « واستذرأت » .

(٢) تتايع على الشىء : تهافت فيه وأسرع وتساقط . وفى الحديث : «ما يحملكم على أن تتايعوا فى الكذب ، كما يتتايع الفراش فى النار» . وفى الأصل : « تتابعوا على تتابع » ، صوابه بالياء . والدبر : جماعة النحل .

افتنُّوا فيها ــ والحديث ذو شجون ــ فما برحوا حتَّى أتتنى رقعةُ أُناسِيَةٍ[1] من الحسّاد فيها سهامُ الوعيد ، ومقدّمات التهديد والتحذير والتخويف ، للطّعن على ماألّفت[2] من الكتب إن أنا لم أضمن لهم الشركة فيما يُجرَى علىّ ، فدفعت رُقعتَهم إلى من قرُب إلىّ منهم ، فقرأها ثم قال : « قاتَلَهم الله ! أبظلمٍ يرومون النَّيل ويلتمسون الشركة فى المعروف ! لَنزعُ الرُّوح بالكلاليب أهونُ من بذل معروفٍ بترهيب » . وأنشأ يقول :

أبقى الحوادث من خليـ ـلك مثل جندلة المرَاجم[3]

قد رامنى الأعداء قبـ ـلك فامتنعتُ من المظالم

ودَفعها إلى من قرُب منه فقرأها . وقال الثانى : « صَكَّة جُلمود ، لكل مُرعدٍ حَسُود ، يَستطر العُرف بالتهديد . خلِّ الوعيدَ ، يذهب فى البِيد » . وأنشأ يقول :

أَبرِقْ وأرعِدْ يا يزيـ ـدُ فما وعيدُك لى بِضائرْ[4]

ودفعها إلى الثالث فقرأها وقال : « سألوا ظلما ، وخوَّفوا هَضمًا ، لَقُوا حربًا ولقيتَ سِلما » . وأنشأ يقول :

---

(١) أناسية : جمع إنسى أو أناس . وفى اللسان (أنس) : « ويبين جواز أناسى بالتخفيف ــ يعنى تخفيف الياء ــ قول العرب : أناسية كثيرة . والواحد إنسى وأناس إن شئت » .

(٢) فى الأصل : « ألف » .

(٣) الشعر لمعاوية ، فى أمالى القالى ٢ : ٣١١ . وفى الأصل : « أما الحوادث » و « المزاحم » ، صوابهما فى الأمالى وشرح القصائد السبع لابن الأنبارى ٣٢٩ .

(٤) البيت للكميت ، كما فى اللسان (برق ، رعد) ومجالس العلماء ١٤١ وشرح القصائد السبع ٥٢٣ .

زعم الفرزدقُ أن سيقتل مِربعاً أبشِرْ بطول سـلامة يا مربعُ[1]

ودفعها إلى الرابع فقرأها وقال : « قول الذّليل وبولُه سِيَّان » . وأنشأ يقول :

١٣٠ و

ماضرَّ تغلبَ وائلٍ أهجوتَهـا أم بُلتَ حيثُ تناطحَ البحرانِ[2]

ودفعها إلى الخامس فقرأها وقال : « نهيق الحمار ، ودمُ الأعيار جُبارٌ جُبار[3] » . وأنشأ يقول :

ما أُبالى أنَبَّ بالحزن تيسٌ أم لَحَـانى بظهرِ غيبٍ لئيمُ[4]

ودفعها إلى السادس فقرأها وقال : « إذا عَلِقتك الأمجاد ، فليهُنْ عليك الحُسّاد » . وأنشأ يقول :

إذا أهلُ الـكرامة أكرمونى فلا أخشى الهوانَ من اللِّئام

ودفعها إلى السابع فقرأها وقال : « كيف يخاف الصُّرَعة ، من هو فى ذى المَنَعة » . وأنشأ يقول :

---

(١) البيت لجرير فى ديوانه ٣٤٨ وجمهرة أنساب العرب ٢٨٣ والشعراء ٤٦٦ . ومربع ، هو مربع بن وعوعة بن سعيد ، كما فى جمهرة أنساب العرب . ومربع هذا هو راوية جرير ، وكان الفرزدق قد حلف ليقتلنه .

(٢) للفرزدق فى ديوانه ٨٨٢ والبيان ٣ : ٢٤٨ والخزانة ٢ : ٥٠١ ، وهو من قصيدة يذكر فيها تفضيل الأخطل إياه ، مادحا فى ذلك بنى تغلب ، ويهجو فيها جريرا . وتغلب هم قوم الأخطل . تناطح البحران : تقابلا . وانظر الحيوان ١ : ١٣ .

(٣) الأعيار : جمع عير بالفتح ، وهو الحمار الوحشى . والجبار : الهدر . وكذا وردت الـكلمة مكررة .

(٤) لحسان بن ثابت فى ديوانه ٣٧٨ والحيوان ١ : ١٣ .

كم تنبحون وما يغـــنى نباحكم
ما يملك الـكلبُ غـير النَّبح من ضررِ

ودفعتها إلى العاشر[(١)] فقرأها وقال : « نَوكى هلـكَى ، لم يعرفوا خَبَرك ، ولا درَوْا أمرك » . وأنشأ يقول :

فلو علم الـكلاب بنو الـكلاب بحالك عنـــد سيِّدنا لذلُّوا

وعندى صديقٌ لى من السُّوقة له أدبٌ ، فقال لى بعقب فراغهم مُسِرًّا : إنّ هؤلاء الـكتّاب قد أظهروا الاستخفاف بقول الحُسّاد ، وضربوا الأمثال فى هوانهم عليك ، وعرفوا أنَّك فى منعة من عزٍّ أبى الحسن أطال الله بقاءه ، ومعقلٍ لا يُسامَى ولا يُنال . وأنا أقول بالشُّفعَة[(٢)] :

توقَّ قومًا من الحُسّاد قد قَصَدوا لحطِّ قدرك فى سرٍّ وفى علَنِ

فقلت له : إنّى أقول بيتين هما جوابك وجواب الحُسَّاد :

إنَّ ابن يحيى عبيـــدَ الله أمّننى
من الحوادث بعد الخوف من زمنى[(٣)]
فلستُ أحذر حُسَّادى وإن كثُروا
ما دمت ممُسِكَ حَبــلٍ من أبى الحسنِ

فلما رأى صديقى اقتفائى آثار الـكتَّاب ، باستهانتى للحساد عند اعتلاقى

---

(١) كذا فى الأصل بدون أن يذكر قبله ما قال الثامن والتاسع ، فقد يكون إغفالا من الجاحظ لهما ، وقد يكون سقطا من النسخة .

(٢) فى الأصل : « بالشفقة » .

(٣) يعنى عبيد الله بنْ يحيى بن خاقان ، وزير المتوكل ثم المعتمد . انظر مروج الذهب ٢ : ٣٧١ والتنبيه والإشراف ٣١٤ وإعتاب الـكتاب لابن الأبار ١٥٨ ، ١٦٢ والفخرى ٢١٦ ، ٢٢٨ .

١٣٠ ظ

حبائلك أعزك الله ، أنشأ متمثلا بقول نصر بن سيار[1] :

إنّى نشأت وحُسّادى ذوو عددٍ يا ذا المعارج لا تنقص لهم أحدا[2]

إن يحسدونى على ما قد بَنَيت لهم فمثل حُسن بلائى جرَّ لى الحسدا

وليس العجب أن يكثروا وأنا أنعق بمحاسنك ، وأهتف بشكرك ، ولكن العجبَ كيف لا تتفتّت أكبادُهم كمدا .

وكان بعضهم يقول : اللهمَّ كثِّر حُسّادَ ولدى ؛ فإنّهم لا يكثرون إلّا بكثرة النِّعمة .

فإنْ كان والدِى سبقَ منه هذا الدُّعاء ، فإنّ الإجابة كانت مخبوءة إلى زمان عزِّك ؛ فقد رأينا تباشيرها ، وبدت لنا عند عنايتك غايتُها .

وكان بعض الصالحين يقول : اللهم اجعلْ ولدى محسودين ، ولا تجعلهم مرحومين ؛ فإنّ يومَ المحسود يومُ عِزَّة ، ويومَ الحاسد يومُ ذلَّة .

---

(١) نصر بن سيار : أمير من الدهاة الشجعان ، كان أمير خراسان سنة ١٢٠ ولاه هشام بن عبد الملك ، ثم غزا ماوراء النهر ففتح حصونا وغنم كثيراً ، وعمل أيضاً على خراسان لمروان بن محمد آخر الأمويين ، وقد انتبه إلى استفحال الدعوة العباسية فكتب إلى بنى مروان بالشام فلم يأبهوا بالخطر ، وظل يكافح حتى عجز وتغلب أبو مسلم على خراسان ، فخرج نصر من مرو إلى قومس ، واستمر فى كفاحه إلى أن لحقه المرض فى مفازة بين الرى وهمذان ، ومات بساوة سنة ١٣١ . وفى الأصل : « يقول بشعر »

(٢) فى الكتاب العزيز : « من الله ذى المعارج » قال قتادة : ذى المعارج : ذى الفواضل والنعم ، وقيل معارج الملائكة ، وهى مصاعدها التى تصعد فيها وتعرج فيها . وقال الفراء : ذى المعارج من نعت الله ، لأن الملائكة تعرج إلى الله فوصف نفسه بذلك .

ويقال : إنّه لمّا مات الحجّاج سمعوا جاريةً[١] خلف جِنازته وهى تقول :

اليوم يرحمنا من كان يحسدُنا والیوم نَتْبعُ من كانوا لنا تبعا

ويقال : إنّ زيادَ بن أبيه قال لِحُرَقَةَ ابنة النعمان[٢] : أخبريني بحالكم . قالت : إن شئتَ أجملتُ وإن شئتَ فسّرتُ . فقال لها : أجملى . فقالت : « بتنا نُحسَد ، وأصبحنا نُرحَم[٣] » . فخطبها زيادٌ وكانت فى دَيرٍ لها فكشفَتْ عن رأسها ، فإذا رأسٌ محلوق ، فقالت : أرأسُ عروس كما ترى يا زياد ؟ وأعطاها دنانير فأخذتْها وقالت : جزَتْك يدٌ افتقرتْ بعد غنًى ، ولا جزَتك يدٌ استغنتْ بعد فقر !

ولا نعلم الحسدَ جاء فيه شيء أكثر من حديث روى عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لاحَسدَ إلا فى اثنتين[٤] : رجل آتاه الله حفظ القرآن فهو يقوم به

---

(١) فى البيان ٣ : ١٧٧ : « خرجت عجوز من داره وهى تقول » .

(٢) حرقة هذه بنت النعمان بن المنذر بن امرىء القيس بن عمرو بن عدى ابن نصر بن ربيعة بن الحارث بن مالك بن عمم بن نمارة بن لخم . المؤتلف ١٠٣ . ولها مقطوعة فى الحماسة ١٢٠٣ بشرح المرزوقى رويت أيضاً فى المؤتلف . وبعض أخبارها فى البيان ٢ : ٨٩ / ٣ : ١٤٥ ، ١٦١ . وحرقة بضم الحاء المهملة وفتح الراء ، كما فى اللسان والقاموس . قال فى اللسان : « وحريق ابن النعمان ابن المنذر . وحرقة بنته » ، ومثله فى شرح الحماسة للتبريزى لكنه جعل أخاها « حرق » كزفر . وفيهما يقول الشاعر :

نقسم بالله نسلم الحلقه ولا حُريقاً وأخته الحرقه

(٣) أى كنا فى نعمة محسودين بالأمس ، فأصبحنا اليوم ولا حاسد لنا ، بل نحن فى موضع الرثاء .

(٤) فى الأصل : « اثنين » ، صوابه فى صحيح البخارى . انظر فتح البارى ٣ : ٢١٩ و ١٣ : ٢٥٣ وصحيح مسلم ١ : ٥٥٨ — ٥٥٩ والترغيب والترهيب ٣ : ١١ ومسند ابن حبان ١٢٥ ، ١٢٦ .

آناء الليل وآناء النَّهار ، ورجل آتاه الله مالًا فهو ينفقه فى وجوه البِرّ آناء الليل وآناء النهار » .

فهذا الحسدُ إنَّما هو فى طاعة الله عزّ وجلّ ، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وقال بعض الأشراف : ١٣١ و

احسُدْ على نَيل المكارم والعلى إذْ لم تكن فى حاله المحسودِ

حَسَدُ الفتى بالمكرمات لغيره كرمٌ ولكن ليس بالمعدود

فهذا ما انتهى إلينا من أخبار الحسد ، وزادك الله شَرفًا وفضلًا ، وعلمًا ومعرفة ، ولا زلتَ بالمكان الذى يُهدَى إليك [فيه] الكتبُ ، وتتحف بنوادر العلوم وفرائد الآداب ، إنَّه قريب مجيب .

* * *

تم الكتاب ولله المنة ، وبيده الحول والقوة

تتلوه رسالة من كلام أبى عثمان أيضاً فى ذم القواد

والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وسلامه .

١٠

رِسَالَة

فِي صِنَاعَاتِ القُوّاد

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذه هى الرسالة العاشرة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها فى نسخة الأصل :

«رسالة لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله ، فى ذم القواد » .

وفى مقدمة نسخة الأصل أيضاً أنها تسمى « صناعات القواد » وتسمى أيضاً « طبائع القواد ».

وجاء فى جمع الجواهر للحصرى ١١٦ : « وللجاحظ فى هذا النوع رسالة كتب بها إلى المعتصم ، وقيل إلى المتوكل ، فى الحض على تعليم أولاده ضروب العلوم وأنواع الأدب » .

ثم روى الحصرى طرفا من هذه الرسالة كانت موضع مقارنة فى النص .

وجاء عنوانها فى طراز المجالس ٦٧ « صناعات القواد » ثم ساق الرسالة بأكملها. وكان هذا النص موضع مقارنة أيضاً فى نسخته المطبوعة والنسختين المودعتين بدار الكتب برقم ٦٦ ، ٦٧ أدب م .

وتمتاز هذه الرسالة بأنها قد سجلت كثيراً من الألفاظ الدخيلة والمولدة التى كان يستعملها الصناع والعمال وأصحاب المهن المختلفة .

بسم الله الرحمن الرحيم

[1]أرشدك الله للصَّواب ، وعرَّفكَ فضل أولى الألباب ، ووهب لك جميلَ الآداب ، وجعلك ممن يعرف عزّ الأدب كما تعرف زوائد الغنى .　　١٣٣ ظ

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : دخلت على أمير المؤمنين المعتصم بالله فقلت له : يا أمير المؤمنين ، فى اللسان عشر خصال : أداة يَظهر بها البيان ، وشاهد يُخبر عن الضمير ، وحاكم يفصل بين الخطاب ، وناطق يُرَدُّ به الجواب ، وشافع تُدرَك به الحاجة ، وواصف تُعرف به الأشياء ، وواعظ يُعرَف به القبيح ، ومُعزٍّ يُرَدُّ به الأحزان[2] ، وخاصَّةٌ يُزهَى بالصَّنيعة[3] ، ومُلهٍ يونِق الأسماع .

وقال الحسن البصرى : إنّ الله تعالى رفع درجةَ اللسان ، فليس من الأعضاء شىء ينطق بذكره غيره .

وقال بعض العلماء : أفضل شىء للرجلِ عقلٌ يُولَد معه ، فإنْ فاته ذلك

---

(١) قبله فى الأصل : « هذه رسالة لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، منسوبة فى نسخة إلى ذم القواد ، وفى أخرى إلى كتاب صناعات القواد ، وفى أخرى إلى كتاب طبائع القواد » .

(٢) فى المطبوعة من الطراز : « ومغرد ترد به الأخزان » ، تحريف .

(٣) فى الأصل : « يذهب بالصنيعة » ، وأثبت ما فى النسخة المطبوعة من الطراز .

فمالٌ يُعظَّم به ، فإنْ فاته ذلك فعلمٌ يعيشُ به[1] ، فإن فاته ذلك فموتٌ يجتثُّ أصلَه .

وقال خالد بن صفوان : ما الإنسان لولا اللِّسانُ إلاّ ضالّة مُهملة أو بهيمةٌ مرسَلة ، أو صورة ممثَّلة[2] .

وذُكر الصَّمت والنطق عند الأحنف فقال رجلٌ : الصَّمت أفضل وأحمد . فقال : صاحب الصمت لا يتعدّاه نفعه ، وصاحب المنطق ينتفع به غيره . والمنطق الصَّوابُ أفضل[3] .

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « رحم الله امرأً أصلحَ من لِسانه » .

قال : وسمع عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه رجلاً يتكلّمُ فأبلغَ فى حاجته ، فقال عمر : هذا والله السِّحرُ الحلال .

١٣٣ و وقال مَسلمة بن عبد الملك : إنّ الرجل ليسألنى الحاجة فتستجيبُ نفسى له بها ، فإذا لحنَ انصرفت نفسى عنها .

وتَقدم رجلٌ إلى زياد فقال : أصلح الله الأمير ، إنَّ أبينا هلك ، وإن أخونا غصبنا ميراثَه . فقال زياد : الذى ضيعت من لسانك أكثر مما ضيَّعت من مالك[4] .

---

(١) ما بعد « يولد معه » ساقط من الطراز .

(٢) البيان ١ : ١٧٠ .

(٣) فى الأصل والطراز : « والصواب » ، صوابه من مطبوعة الطراز .

(٤) الخبر فى البيان ٢ : ٢٢٢ وعيون الأخبار ٢ : ١٥٩ ونزهة الألباء ١٢ .

وقال بعض الحكماء لأولاده : يا بنيّ أصلحوا من ألسنتكم ، فإنّ الرجل لتنوبُه النائبة فيستعير الدابّة والثياب ، ولا يقدر أن يستعير اللِّسان .

وقال شَبيب بن شَيبة ورأى رجلاً يتكلّم فأساء القول ، فقال : يا ابن أخي ، الأدبُ الصالح خيرٌ من المالِ المضاعف .

وقال الشاعر(١) :

وكائن ترى من صامتٍ لك مُعجِبٍ زيادتُه أو نقصُه فى التكلُّمِ
لسانُ الفتَى نصفٌ ونصفٌ فؤادُه فلم يبقَ إلاّ صورةُ اللحم والدَّمِ

فخذْ يا أمير المؤمنين أولادَك بأن يتعلموا من كلٍّ الأدب ؛ فإنّك إن أفردتَهم بشىء واحد ثم سئلوا عن غيرِه لم يحسنوه .

وذلك أنّى لقيت حِزَاماً(٢) حين قدِمَ أمير المؤمنين من بلاد الرُّوم ، فسألته عن الحرب كيف كانت هناك ؟ فقال :

لقيناهم فى مقدار صَحْن الإصطبل ، فما كان بقدرِ ما يحُسُّ(٣) الرجلُ دابتَه حتّى تركناهم فى أضيقَ من مَمْرغة . وقتلناهم فجعلناهم كأنهم أنابير سِرجين(٤) ،

---

(١) هو زهير بن أبى سلمى ، كما فى المعلقات برواية الزوزنى ، وليس فى رواية ابن الأنبارى أو التبريزى أو ديوانه بشرح ثعلب وبشرح الشنتمرى .

(٢) فى الأصل : « خزاما » ، وأثبت ما فى الطراز وجمع الجواهر . وفى جمع الجواهر : « وذلك أن حزاما صاحب خيلك حين سألته عن الوقعة ببلاد الروم » .

(٣) حس الدابة يحسها حساً : نفض عنها التراب ، وذلك إذا فرجنها بالمحسة . وفى مطبوعة الطراز فقط : «يحش» بالشين .

(٤) الأنابير : الأكداس ، جمع أنبار ، وهذه جمع نبر بالكسر .

فلو طُرحتْ رَوْثةٌ ما سقطَتْ إلاَّ على ذَنَب دابّة .

وعمل أبياتاً فى الغزل فكانت :

إن يَهدِمِ الصدُّ من جسمى مَعالفَه
فإن قلبى بقَتِّ الوَجد معمورُ[(١)]

إنّى امرؤ فى وَثاقِ الحبِّ يَكبحه
لجامُ هجرٍ على الأسقام معذورُ[(٢)]

علِّلْ بِجُلِّ نبيلٍ من وصالك أو
حُسْنِ الرُّقاد فإنَّ النَّوم مأسورُ[(٣)]

أصاب حبلَ شِكال الوَصْل حينَ بدا
ومِبضع الصدِّ فى كفيه مشهورُ[(٤)]

لبستُ برقعَ هجر بعد ذلك فى
إصطبل وُدٍّ فرَوث الحُبِّ منثورُ[(٥)]

---

(١) القت : الفصفصة ، وهى من علف الدواب .

(٢) عذر الدابة عذرا : شد عليها العذار ، وهو السير الذى يكون عليه اللجام . وفى جمع الجواهر : « ويح امرئ فى وثاق الحب » .

(٣) فى جمع الجواهر : « أنل خليلك نيلا من وصالك » ، والمأسور : المشدود بالإسار ، وهو الحبل .

(٤) الشكال ، ككتاب : ما تشد به قوائم الدابة . وفى جمع الجواهر : « أمنت فتل شكالى حين ودعنى ومبضع الحب » .

(٥) فى الطراز : « إصطبل حب » .

قال : وسألت بَخْتِيَشُوع [الطبيب[1]] عن مثل ذلك فقال :

لقيناهم فى مقدار صَحْن البِيمارستان ، فما كان بقدر ما يختلف الرجل مَقعدين[2] حتى تركناهم فى أضيقَ من مِحْقَنة ، فقتلناهم فلو طرحت مِبضعًا ما سقط إلّا على أكحَلِ رَجُل[3] . ١٣٣ ظ

وعمل أبياتًا فى الغزل فكانت :

شَرِب الوصلُ دَسْتَجَ الهجر فاسْتَطْ　لَقَ بطنُ الوِصال بالإسهالِ[4]

ورمانى حِبِّى بقُولَنجِ بَيْنٍ　مُذهـلٍ عن مَلامة العُذّالِ[5]

ففؤاد الحبيب ينحله السُّـ　لُّ وقلبى معذَّبٌ بالمَلالِ[6]

وفؤادى مُبرسَم ذو سَقـامٍ　يابنَ ماسُوهَ ضلَّ عنِّى احتيالى[7]

لو ببقراط كان ما بى وجالِيـ　نُوسَ باتا منه بأ كسَفِ بالِ .

---

(١) التكملة من طراز المجالس وجمع الجواهر . وهو بختيشوع بن جبريل ابن بختيشوع ، وكان سريانيا نبيل القدر ، وكان يضاهى المتوكل فى اللباس والفرش، وكان عظيم المنزلة عنده ، ثم إنه أفرط فى إدلاله عليه فنكبه . وكان موته سنة ٢٥٦ . طبقات الأطباء ١ : ١٣٨ — ١٤٤ والقفطى ٧٢ — ٧٣ .

(٢) اختلف الرجل : ذهب إلى التوضأ إذا أخذه بطنه .

(٣) الأكحل : عرق فى اليد إذا قطع لم يرقأ الدم .

(٤) الدستج ويقال الدستيج : آنية تحول باليد .

(٥) البيت ساقط من جمع الجواهر .

(٦) وهذا ساقط من الطراز .

(٧) كذا فى الأصل وإحدى مخطوطتى الطراز . يريد «ماسويه» . وفى سائر نسخ الطراز : « بابن السوء » . وفى جمع الجواهر : « يابن ماسويه » ولا يستقيم به الوزن . وابن ماسويه هو أبو زكريا يحيي أو يوحنا ، خدم المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل . الفهرست ٤١١ والقفطى ٢٤٨ — ٢٥٦ .

قال : وسألت جعفراً الخياطَ عن مثل ذلك فقال :

لقيناهم في مقدار سُوق الخلقان ، فما كان بقدر ما يَخيط الرجل دَرْزًا[١] حتَّى قتلناهم وتركناهم في أضيق من جربّانٍ[٢] ، فلو طرحتْ إبرةً ما سقطت إلّا على رأس رجل .

وعمل أبياتاً في الغزل فكانت :

فتَقتَ بالهجر دُروزَ الهوى إذْ وخزتني إبرةُ الصّدِّ
فالقلب من ضِيق سراويلهِ يعثُر في بايكة الجهد[٣]
جشَّمتَني يا طيلسانَ النوى منك على شوزكتي وجدي[٤]
أزرار عيني فيك موصولة بعُروة الدمع على خدِّي
يا كستبان القَلبِ يا زِيقَه عذَّبني التَّذكارُ بالوعد[٥]
قد قصَّ ما يعهد من وَصله مِقراضُ بينٍ مُرهَفُ الحدِّ[٦]

---

(١) الدرز : موضع الخياطة ، كما في شفاء الغليل ، ويقال للقمل والصئبان : بنات دروز ، ومنه أخذ الدرزي الخياط الذي صحفته عامة عصرنا بالترزي .

(٢) جربان القميص: جيبه ، يقال بضم الجيم والراء وبكسرهما ، وهو بالفارسية « كريبان » .

(٣) في جمع الجواهر : « يعثر بي في تكة الجهد » .

(٤) في جمع الجواهر : «على سوء شقا جدى » ، وفيه أيضاً «حسدتني » بدل : « جشمتني » .

(٥) في جمع الجواهر : « يادستبان القلب » ، كما أن سائر البيت فيه محرف .

(٦) في جمع الجواهر : « ما أعرف من وصلة » .

يا حُجزة النَّفس ويا ذيلَهـــا   مالىَ من وصلكَ من بُدِّ[١]
ويا جُـــربَّانَ سُرورى ويا   جَيبَ حياتى خُلتَ عن عهدى[٢]

قال : وسألت إسحاق بن إبراهيم عن مثل ذلك ـ وكان زرّاعًا[٣] ـ فقال :

لقيناهم فى مقدار جَريبينِ من الأرض ، فما كانَ بقدرِ ما يَبْقى الرجل مَشَارَةً[٤] حتّى قتلناهم ، فتركناهم فى أضيق من بَاب ، وكأنّهم أنابير سُنْبُل[٥] ، فلو طُرِح فدّان[٦] ما سقط إلّا على ظهر رجل[٧] . ١٣٤ و

وعمل أبياتاً فى الغزل فكانت :

زرعتُ هواه فى كراب من الصَّفا   وأسقيتُه ماءَ الدوام على العهدِ[٨]

---

(١) الحجزة ، بالضم : معقد السراويل والإزار وفى الأصل والطراز المطبوع . « ياحزة النفس » ، وفى المخطوط : « ياحيرة النفس ويا ويلها » ، صوابه من جمع الجواهر .

(٢) سبق تفسير الجربان فى ص ٣٨٤ . وفى جمع الجواهر : « جيب غرامى » .

(٣) فى جمع الجواهر : « زارعا » .

(٤) المشارة ، بفتح الميم : الدبرة ، وهى البقعة من الأرض تزرع . وفى طراز المجالس : « من سانية » .

(٥) الأنابير ، سبق تفسيرها فى ص ٣٨١ .

(٦) الفدان : الذى يجمع أداة الثورين فى القران للحرث ، والآلة التى يحرث بها .

(٧) فى طراز المجالس : « على ظهر ثور » ، تحريف . وفى جمع الجواهر : « إلا على رأس رجل » وبعده فى جمع الجواهر : « فصاروا مثل أكوام التبن » .

(٨) فى جمع الجواهر : « فى جريب مثلث » .

وسَرجَنْتُه بالوصل لم آلُ جاهدًا ليُحرزَه السِّرجين من آفة الصّدِّ[١]
فلمّا تعالى النَّبتُ واخضرَّ يانعاً جرى يرَقانُ البين فى سُنبُل الودِّ[٢]

قال : وسألت فرجًا الرُّخَّجىَّ[٣] عن مثل ذلك — وكان خبّازًا — فقال :

لقيناهم فى مقدار بيت التَّنُّور ، فما كان بقدر ما يخبز الرجلُ خمسة أرغفة حتى تركناهم فى أضيق من حَجَر تنّور ، فلو سقطت جمرة ما وقعت إلّا فى جَفنة خبّاز[٤] .

وعمل أبياتاً فى الغزل فكانت :

قد عَجَن الهجرُ دقيقَ الهوى فى جَفنةٍ من خَشَب الصدِّ
واختمرَ البينُ فنارُ الهوى تُذكَى بسرجينٍ من البُعدِ[٥]
وأقبل الهجرُ بمحراكِهِ يفحص عن أرغفة الوَجدِ[٦]

---

(١) السرجين : السماد تدمل به الأرض ، معرب .

(٢) اليرقان : دود يكون فى الزرع ثم ينسلخ فيصير فراشاً . وفى جمع الجواهر : « وأفرك حب الحب في سنبل الود » . وبعده بيتان ، وهما :

أتته أكف الهجر فيها مناجل فأسرعن فيه حين أدرك بالحصد
فياشؤم مالى إذ يعطل للشقا ويا ويح ثورى صار معلفه كبدى

(٣) نسبة إلى رخج ، كسكر ، وهى كورة ومدينة من نواحى كابل .

(٤) فى جمع الجواهر : « فلو طرحت جردقا لما وقع إلا فى خوان الخبز على كثرة القتلى » .

(٥) السرجين ، سبق تفسيره . وفى جمع الجواهر : « تزجى بشوك الهجر من بعدى » .

(٦) المحراك . أداة تحرك بها النار . وفى جمع الجواهر : « وأقبل الصد بهجرانه » .

جَـرادق الموعِد مسْمومة مثرودة فى قَصعة الجهـــدِ[١]

قال : وسألت عبد الله بن عبد الصمد بن أبى دَاوُد عن مثل ذلك — وكان مؤدِّبا — فقال :

لقيناهم فى مقدار صَحْن الـكُتَّاب[٢] ، فمـا كان بقدر ما يقرأ الصبىُّ إمامَه[٣] حتى ألجأناهم إلى أضيق من رَقْم[٤] فقتلنـاهم ، فلو سقطت دواةٌ ما وقعت إلّا فى حِجر صبىّ .

وعمل أبياتاً فى الغزَل فـكانت :

قد أماتَ الهجرانُ صِبيانَ قلبى ففؤادى معذَّب فى خَبَــالِ[٥]
كسَر البينُ لَوح كِبدى فما أطـ مع ممن هويتُه فى وصــالِ[٦]
رفع الرقْم من حيــاتى وقد أطـ لَق مولاىَ حبلَه من حبــالى
مَشق الُحبُّ فى فؤادىَ لَوحَيـ ـنِ فأغرى جوانحى بالسُّلالِ[٧] ١٣٤ ظ

---

(١) الجرادق : جمع جردق ، وهو الرغيف ، فارسى معرب . وفى جمع الجواهر : « جرادقا للوعد مسمومة » .

(٢) الصحن : الساحة وسط الدار . والـكتاب : موضع تعليم الصبيان ، وأصل الـكتاب هؤلاء الذين يتعلمون الـكتابة ، ثم أطلق الاسم مجازا على الموضع الذى يتعلمون فيه . وفى اللسان : « والـكتاب موضع تعليم الـكتاب » . وفى جمع الجواهر : « فى مقدار كتف » .

(٣) إمام الصبى : مايتعلمه كل يوم ، يقدر له على مقدار يومه .

(٤) فى جمع الجواهر : « من فم الرقم » . والرقم ، بسكون القاف : الرمز الـكتابى المستعمل للتعبير عن أحد الأعداد ؛ وفتح القاف خطأ شائع .

(٥) جمع الجواهر : « موله ذو خبال »

(٦) فى جمع الجواهر : « لوح وصلى » .

(٧) المشق : سرعة الـكتابة ، ومد الحروف فى الـكتابة . والسلال : السل .

لاقَ قلبى بنانُه فمداد الـ ـعَين من هجر مالِكِى فى انهمال[(١)]

كُرسُفُ البين سوَّد الوجهَ من وصـ ـلى فقلبى بالبين فى إشعال[(٢)]

قال : وسألت عليَّ بن الجهم بن يزيد[(٣)] — وكان صاحبَ حمام — عن مثل ذلك فقال :

لقيناهم فى مثل بيت الأنبار[(٤)] ، فما كان إلّا بقدر ما يغسل الرجل رأسَه حتى تركناهم فى أضيقَ من باب الأتُّون ، فلو طرحت لِيفةً ما وقعت إلّا على رأس رجل .

وعمل أبياتاً فى الغزل فكانت :

يا نُورةَ الهجر حَلقتِ الصَّفا لما بدت لى لِيفةُ الصَّدِّ[(٥)]

يا مِئزر الأسقام حتَّى متى تُنقَع فى حوض من الجَهْد

أوقِدْ أتُونَ الوصلِ لى مَرّةً منك بِزِنبيلٍ من الودِّ[(٦)]

---

(١) أصله من لاق الدواة : أصلح مدادها . وفى طراز المجالس : « لاق قلبى مداده » ، وفى جمع الجواهر : « لاق كبدى دواته » .

(٢) الكرسف : القطن ، وكانوا يجعلونه هو أو الصوف فى الدواة .

(٣) فى جمع الجواهر : « وسألت الجهم بن بدر » .

(٤) لعله يعنى البيت الذى تحفظ فيه الثياب . وفى اللسان : « والأنبار : بيت التاجر الذى ينضد فيه متاعه » . وبعده فى جمع الجواهر : « فقاتلناهم بمقدار ما تحلق النورة ، ثم ألجأناهم إلى أضيق من الأبزن ، فهزمناهم بقدر ما يغسل الرجل وجهه ، فلو طرحت ليفة . . . . » .

(٥) جمع الجواهر : « بما بدا من ليفة » .

(٦) الأتون : الموقد ، وهو بتشديد التاء ، وتخفيفها من لغة العامة . والزنبيل بكسر الزاى كقنديل ، وقد تفتح ، وهو القفة .

فالبين مُذْ أُوقِدَ حمّامُه قد هاج قلبى مسلخ الوجد[١]
أفسد خِطميَّ الصَّفا والهوى مُخَالة النَّاقض للعهد[٢]

قال : وسألت الحسن بن أبى قماشة[٣] عن مثل ذلك — وكان كنَّاسًا — فقال :

لقيناهم فى مقدار سَطح الإيوان ، فما كان إلّا بقدر ما يكنس الرجل زَبِيلًا[٤] حتَّى تركناهم فى أضيق من جُحر المَخرَج ، ثم قتلناهم بقدر ما يشارط الرجل على كَنْس كنيف ، فلو رميتَ بابنة وَردَانةٍ[٥] ما سقطتْ إلَّا على فم بالوعة[٦] .

وعمل أبياتًا فكانت :

أصبح قلبى بَرْبَخًا للهوى تَسلَحُ فيه فَقْحةُ الهَجرِ[٧]
بنات وردان الهوى للبلى أصبَرُ من ذَا الوجدِ فى صدرى[٨]

---

(١) فى جمع الجواهر : « هيج قلبى منشلح الوجد » .
(٢) جمع الجواهر : « بحاله الناقص » .
(٣) جمع الجواهر : « الحسن بن أبى قماش » .
(٤) الزبيل : الزنبيل ، وهو القفة . وفى جمع الجواهر : « زنبيلا » .
(٥) بنت وردان ، هى المعروفة فى مصر بالخنفس . معجم المعلوف ٣٦ وانظر الحيوان ٢ : ١٥٣ و ٣ : ١٣ ، ٣٧١ و ٤ : ٣٩ ، ٢٧٢ ، ٣٠٠ . وابنة وردانة ، لعلها من لغة العامة فى عصره .
(٦) فى جمع الجواهر : « إلا على ظهر قتيل » .
(٧) البربخ : مجرى البول . يسلح ، من السلاح بالضم ، وهو النجو . وفى جمع الجواهر : « للهوى مخرجا » .
(٨) البيت ساقط من جمع الجواهر .

خَنافسُ الهِجران أثكلتنى يومَ تولّى مُعرِضًا صبرى[١]
أسقم ديدانُ الهوى مُهجتى إذْ سلحَ البَينُ على عُمرى

١٣٥ و قال : وسألت أحمدَ الشَّرابىَّ عن مثل ذلك فقال :

لقيناهم فى مقدار صحن بيت الشَّراب ، فما كان بقدر ما يصفِّى الرجلُ دنًّا[٢] حتى تركناهم فى أضيق من رِطليّة[٣] فقتلناهم ، فلو رميت تُفَّاحةً ما وقعت إلا على أنف سكران .

وعمل أبياتاً فى الغزل فكانت :

شربت بكأس للهوى نبذة معًّا ورقرقت خَمر الوصل فى قَدَح الهَجْرِ[٤]
فسالت دِنان البين يدفَعُها الصبًا فكسَّرن قرَّابات حُزْنى على صدرى[٥]
وكان مِزاج الكأس غُلَّةَ لوعةٍ ودورقَ هِجرانٍ وقِنِّينتَىْ غدرِ

قال : وسألت عبد الله بن طاهر[٦] عن مثل ذلك — وكان طبّاخا — فقال :

لقيناهم فى مقدار صَحْن المطبخ ، فما كان بقدر ما يَشوِى الرجُل حَمَلًا حتّى

---

(١) جمع الجواهر : « نومى فولى معرشاً » .
(٢) جمع الجواهر : « بمقدار ما يبزل الرجل دنا » .
(٣) الرطلية ، بفتح الراء وكسرها : نسبة إلى الرطل ، والمراد وعاء أو كأس يسع رطلا من الشراب . وانظر الحيوان ٣ : ٢٣٦ . وبعده فى جمع الجواهر : « ثم سالت دماؤهم كالدردى ، فلو طرحت كأسا لما وقع إلا فى كف رجل » .
(٤) جمع الجواهر : « بكأس اللهو من راحة الهوى » .
(٥) القرابات : ضرب من الأوانى ، كما هو ظاهر ؛ ولم أجده فى المعاجم .
(٦) جمع الجواهر : « عبد الله الطاهرى » .

تركناهم فى أضيقَ من مَوقِد نار ، فقتلناهم فلو سقطت مِغرفةٌ ما وقعت إلا فى قِدر(١) .

وعمِل أبياتاً فى الغزل فكانت :

يا شبيهَ الفالوذ فى حُمرة الخـ ـدِّ ولَوزِينجَ النُّفوسِ الظِّماء
أنت جَوزينجُ القُلوب وفى اللِّيـ ـنِ كلِين الخَبيصةِ البيضاء(٢)
عُدْتُ مُستَهتَرًا بسِكباجِ وُدٍّ بعد جُوذَابةٍ بجَنْب شِواء(٣)
يا نسيمَ القُدور فى يوم عُرسٍ وشبيهًا بشُهدةٍ صفراء(٤)
أنت أشهَى إلى القلوب من الزُّبْـ ـدِ مع النِّرْسِيان بعد الغَداء(٥)
أُطعِمَ الحاسدون ألوانَ غَمٍّ فى قِصاع الأحزانِ والأدواء(٦)

---

(١) جمع الجواهر : « لقيناهم فى مقدار مطبخ أمير المؤمنين ، فما كان إلا بمقدار ما يشوى الرجل حملا أو جديا ، أو يفرغ من طبخ ثلاثة ألوان أو يعقد فالوذجة ، حتى تركناهم فى أضيق من أثافى القدر ، فلو طرحت ملعقة لما وقعت إلا على بطن قتيل » .

(٢) فى جمع الجواهر : « الصفراء » .

(٣) السكباج : لحم يعالج بالخل والتوابل ، ويضاف إليه أحياناً الزعفران والسذاب . محاضرات الراغب ١ : ٢٩٢ وكتاب الطبيخ للبغدادى ٩ . والجوذاب ، بالضم : طعام يتخذ من سكر ورز ولحم . وانظر باقى صفته فى كتاب الطبيخ ٧٠ — ٧٢ .

(٤) جمع الجواهر : « ياقتار القدور » و « بشهدة بيضاء » .

(٥) النرسيان : ضرب من أجود التمر . وفى اللسان : « وأهل العراق يضربون الزبد بالنرسيان مثلا لما يستطاب » .

(٦) فى جمع الجواهر : « والضراء » .

قد غلا القلبُ مذ نأتْ عنك داری غلیانَ القدور عند الصِّلاءِ[١]
هام قلبي لمّا كَسَرن غَضارا تِ سروری مغارفُ الشّحناء[٢]
فتفضّلْ على العميدِ بيومٍ جُد بوصلٍ يُكبَتْ به أعدائى[٣]
وتفضّلْ على الكئيب ببَزْما وَرْدِ وَصلٍ يَشفِى من الأدواء[٤]

١٣٤ ظ قال : وسألتُ — أطال الله بقاءك — محمد بن داود الطوسىَّ عن مثل ذلك — وكان فرّاشا — فقال :

لقيناهم فى مقدار صَحن بساط[٥] ، فما كان إلا بقدر ما يفرش الرجل بيتًا[٦] حتّى تركناهم فى أضيق من مِنصّة فقتلناهم ، فلو سقطت مِخَدّة ماوقعتْ إلّا على رأس رجل .

ثم عمل أبياتاً فى الغزل فكانت :

كسَحَ الهجرُ ساحةَ الوصل لمّا غبّر البينُ فى وجوه الصّفاء[٧]
وجَرى البينُ فى مرافق ريشٍ هى مذخورةٌ ليوم اللقاءِ[٨]

---

(١) فى الأصل وطراز المجالس : « السلاء » ، صوابه فى جمع الجواهر .
(٢) الغضارات : الصحاف المتخذة من الغضار ، وهو الطين الحر .
(٣) العميد والمعمود : الذى عمده الحب ، أى أوجعه وأضناه .
(٤) البزماورد: ضرب من الخبز يحشى بشواء مدقوق مضاف إليه الخل والأفاويه. وانظر بقية صفته فى كتاب الطبيخ ٥٩ .
(٥) جمع الجواهر : « فى مثل تربيع الفسطاط » .
(٦) بعده فى جمع الجواهر : « أو بيتين » .
(٧) الكسح : الكنس . وفى الأصل والطراز : « كسر » تحريف . وفى جمع الجواهر : « كنس » ، وهى بمعنى كسح .
(٨) المرافق : جمع مرفقة ، وهى المخدة .

فرشَ الهجر فى بيوتِ هموم   تحت رأسى وسادةَ البُرَحَاء(١)
حينَ هيَّأت بيت خَيشٍ من الوصـ   ـلِ لأبوابه ستور البهاء(٢)
فرشَ البحرُ لى بيوتَ مُسوحٍ   مُتَّكاها مَطارح الحصباء(٣)
رِقَّ للصبِّ من براغيثِ وجدٍ   تعترى جِلدَه صباحَ مساء(٤)

قال : فضحك المعتصم حتى استلقَى ، ثم دعا مؤدِّب ولده فأمره أن يأخذهم بتعليم جميع العلوم .

* * *

تم كتاب الجاحظ ولله المنة ، وبيده الحول والقوة ، والله سبحانه الموفق للصواب.
والحمد لله أولا وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلامه .

بعده زيادات ليست للجاحظ(٥)

---

(١) فى الأصل ومخطوط الطراز : « لى بيوت » ، صوابه فى مطبوع طراز المجالس . والبرحاء : الشدة ، والمشقة . وفى جمع الجواهر :

فلقد بث فى فراش همومى   تحت خدى وسائداً لضنائى

(٢) الخيش : ثياب رقاق النسج غلاظ الخيوط تتخذ من مشاقة الكتان .

(٣) المتكأ : ما يتوكأ عليه لطعام أو شراب أو حديث . وفى الأصل وطراز المجالس : « متكآتها من الحصباء » ، صوابه فى جمع الجواهر . والمطارح : جمع مطرح ، بالكسر ، وهو المفرش ، كما فى المعجم الوسيط .

(٤) فى جمع الجواهر : « من بواعث وجد قد تخالسنه » . وبعد هذا البيت فى جمع الجواهر بدلا من الكلام التالى هنا : « ياأمير المؤمنين ، إنما ينطق اللسان بما يتصور الجنان ، ويظهر فى الكلام ما يخطر على الأوهام ، فمن لم يعرف إلا شيئاً واحداً لم يتكلم عليه ، ومن كثر علمه كثرت خواطره ، واتسعت مذاهبه ، ورب هزل أنفع من جد إذا أصيب به موضع الحاجة ، ووضع بحيث تقع همم النفوس عليه . والسلام » . ثم قال الحصرى معقباً على هذه الرسالة :

« والجاحظ صنع هذه الأشعار لما وضع هذه الأخبار ، وكان قديراً على الشعر سراقاً له » .

(٥) وهى فى مقدار ثلاث ورقات من الأصل ، على لسان أهل الصناعات .

فهرس الكتب والرسائل

دار الجيل للطباعة ١٤ قصر اللؤلؤة - الفجالة
جمهورية مصر العربية تليفون : ٩٠٥٢٩٦

مكتبة الجاحظ

أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

١٥٠ - ٢٥٥

بتحقيق وشرح

عبد السلام محمد هارون

رسائل الجاحظ

الجزء الثاني

ومعه الفهارس الفنية لمجموعة داماد

الناشر

مكتبة الخانجي بالقاهرة

دار الجيل للطباعة
جمهورية مصر العربية
١٤ قصر اللؤلؤة - الفجالة
تليفون : ٩٠٥٢٩٦

١١

رِسَالة

فِي النَّابتَة

إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دُواد



بسم الله الرحمن الرحيم

وهذه هى الرسالة الحادية عشرة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها فى الأصل :

« رسالة لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، إلى أبى الوليد محمد بن أحمد ابن أبى دواد فى النابتة » .

أما أبو الوليد فقد سبق التعريف به فى صدر الرسالة السادسة ، وهى : « رسالة نفى التشبيه » .

وأما النابتة فيعنى بهم الطوائف المبتدعة التى نشأت بعد مضى الصدر الأول من الإسلام ، ولا سيما بعد فتنة عثمان .

وأصل النابتة فى اللغة هم الأغمار من الأحداث ، فأطلق هذا اللفظ عليهم إشارة إلى ضعف آرائهم ووهن تفكيرهم ، وإلى أنهم طارئون على الأصول الدينية المتعارفة ، لايعتمدون فى ذلك على أساس وثيق .

والنابتة والنوابت تسمية قديمة وردت فى شعر أبى السرى الشميطى ، وهو قوله : (انظر البيان ٣ : ٣٥٦) :

لا حرورا ولا النوابت تنجو لا ولا صحب واصل الغزال

والجاحظ يقرن النابتة بالمبتدعة إذ يقول فى موضعين من هذه الرسالة : « نابتة عصرنا ومبتدعة دهرنا » ص ١٢ س ٤ وص ١٤ س ٧ .

وبالرافضة إذ يقول فى هذه الرسالة ص ١٨ س ٨ : « حتى نبتت هذه النابتة وتكلمت هذه الرافضة » .

وبالعوام إذ يقول فى ص ٢٠ س ٣ : « وقد كانت هذه الأمة لا تجاوز معاصيها الإثم والضلال إلا ما حكيت لك عن بنى أمية وبنى مروان وعمالها ومن لم يدن بإكفارهم ، حتى نجمت هذه النوابت ، وتابعتها هذه العوام ، فصار الغالب على هذا القرن الكفر » .

ويتحدث عن نابتة الموالى فى قوله ص ٢١ س ١ : « وقد نجمت من الموالى ناجمة ، ونبتت منهم نابتة » .

ولهذه الرسالة أصل أول ، هو مجموعة مكتبة داماد .

وقد نشرها للمرة الأولى من قبل « فان ڤلوتن » معتمدا على هذا الأصل نسخة مكتبة «داماد» ، وعنوانها مطابق للأصل « رسالة لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ إلى أبى الوليد محمد بن أحمد بن أبى دواد فى النابتة » .

ومن هذه النشرة نسخة بدار الكتب برقم ٧٦٠ أدب تيمور ، وهى فصلة من مجلة: Actes de XIe Cony. Intern des Or. كما ذكر بروكلمان ٣: ١١٣. وفى هذه النشرة تحريفات كثيرة أشرت إليها فى حواشى نشرتى هذه .

ونشرها كذلك الشيخ محمود عرنوس سنة ١٩٣٧ م بالمطبعة الإبراهيمية عن نسخة دار الكتب ٢٨٥٥ تاريخ ، المكتوبة سنة ١٣٣٢ هـ مع المقابلة على مخطوطتين فى المكتبة التيمورية برقم ٣٢١ ، ٢٠٨٧ تاريخ . وعنوانها عنده هو : « رسالة للجاحظ فى بنى أمية » .

وأعاد نشرها بعد ذلك السيد عزت العطار الحسينى فى سنة ١٣٦٥ هـ بعنوان : « رأى أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ فى معاوية والأمويين » مع أن عنوانها فى الأصل الذى نشر عنه نسخته وهو مخطوطة دار الكتب رقم ٢٨٥٥ تاريخ : « رسالة للجاحظ فى بنى أمية » .

وقد عنيت فى نشرتى هذه بالمقابلة على المخطوطات الثلاث :

١ — مخطوطة دار الكتب برقم ٢٨٥٥ تاريخ ، المكتوبة سنة ١٣٣٢ .

٢ — المخطوطة التيمورية الأولى برقم ١٠٨٧ تاريخ تيمور ، المكتوبة سنة ١٣١٧ هـ. وعنوانها الذى كتب بخط أحمد تيمور باشا : «رسالة للجاحظ فى ذم بنى أمية » .

٣ — المخطوطة التيمورية الثانية برقم ٣٢١ تاريخ تيمور ، المكتوبة ١٣١٩هـ. وعنوانها : « رسالة للجاحظ فى بنى أمية » .

بسم الله الرحمن الرحيم

أطال الله بقاءك ، وأتمَّ نعمتَه عليك ، وكرامتَه لك .

اعلمْ ، أرشدَ الله أمرك ، أنَّ هذه الأمّةَ قد صارت بعد إسلامها والخروجِ من جاهليّتها إلى طبقاتٍ متفاوتة ، ومنازلَ مختلفة :

فالطَّبقة الأولى : عصرُ النبي صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعُمر رضى الله عنهما ، وستُّ سنينَ من خلافة عثمان رضى الله عنه ؛ كانوا على التوحيد الصَّحيح والإخلاص المُخلَص ، مع الألفة واجتماع الكلمةِ على الكتاب والسنَّة . وليس هناك عملٌ قبيحٌ ولا بدعةٌ فاحشة ، ولا نَزْعُ يدٍ من طاعةٍ ، ولا حسدٌ ولا غِلٌّ ولا تأوُّل ، حتَّى كان الذى كان من قَتل عثمان رضى الله عنه وما انتُهِكَ منه ، ومن خَبْطهم إيَّاه بالسِّلاح ، وبَعْج بطنه بالحراب ، وفَرْيِ أوداجه بالمشاقص[1] ، وشَدْخ هامته بالعَمَد[2] ، مع كفِّه عن البَسْط ، ونَهيِه عن الامتناع ، مع تعريفه لهم قَبل ذلك مِن كم وجهٍ يجوز قَتْل من شَهِد الشهادة ، وصلَّى القِبلةَ[3] ، وأكَلَ الذَّبيحة ؛ ومع ضربِ نسائه بحَضْرته ، وإقحام الرِّجالِ على حُرمته ، مع إتِّقاء نائلة بنتِ الفُرافِصة[4] عنه بيدها ، حتَّى

(١) جمع مشقص ، وهو من النصال : ما طال وعرض .

(٢) العمد : جمع عمود ، وهو العصا ، والخشبة القائمة فى وسط الخباء .

(٣) أى جهة القبلة ، وجعلت فى المطبوعة « إلى القبلة » خلافا لما فى الأصل .

(٤) نائلة بنت الفرافصة بن الأحوص ، امرأة عثمان ، تزوجها وهى مسلمة وكان أبوها نصرانيا . جمهرة ابن حزم ٤٥٦ .

أطَنُّوا إصبعين من أصابعها[١] ، وقد كَشَفَتْ عن قِناعها ، ورفعَتْ عن ذيلها ؛ ليكونَ ذلك ردْعًا لهم ، وكاسرًا من عزمهم ؛ مع وَطْئهم فى أضلاعه بعد موته ، وإلقائهم على المزبلة[٢] جسدَه مجرّدًا بعد سَحبه ، وهى الجَزَرة[٣] التى جعلَها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كُفُوًا لبناته وأيامَاهُ وعقائله[٤] ؛ بعد السَّبِّ والتعطيش ، والحصْر الشَّديد ، والمَنع من القُوت ؛ مع احتجاجه عليهم ، وإفحامه لهم ، ومع اجتماعهم على أنَّ دمَ الفاسق حرامٌ كدم المؤمن ، إلَّا من ارتدَّ بعد إسلام ، أو زنى بعد إحصان ، أو قَتل مؤمناً على عَمدٍ ، أو رجلٌ عَدَا على النّاسِ بسَيفهِ فكان فى امتناعهم منه عطبُه ؛ ومع إجماعهم[٥] على ألَّا يُقتَل من هذه الأمة مُوَلٍّ ، ولا يُجهَزَ منها على جريح .

١٤٠ و ثم مع ذلك كلِّه دَمَروا عليه[٦] وعلى أزواجه وحُرَمه ، وهو جالسٌ فى محرابه ، ومُصحَفُه يلوحُ فى حِجره ، لن يرى أنَّ موحِّداً يُقْدم على قتل مَن كان فى مثل صفتِه وحاله .

---

(١) الإطنان : سرعة القطع .

(٢) المزبلة ، بفتح الميم والباء وبضمهما : موضع الزبل ، وهو السرجين وما أشبهه.

(٣) الجزرة : ما يجزر ويذبح . ولعله إشارة إلى حديث ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا كان يوم القيامة يؤتى بعثمان وأوداجه تشخب دما ، اللون لون دم ، والرائحة رائحة مسك » . الرياض النضرة ٢ : ١١٢ .

(٤) تزوج عثمان رقية بنت رسول الله ، وتزوج أيضا أم كلثوم بنت رسول الله .

(٥) قرأها ڤان ڤلوتن : « اجتماعهم » خلافا لما هو واضح فى الأصل . لكن فى التيموريتين : « اجتماعهم » .

(٦) دمروا عليه : هجموا ودخلوا بدون إذن . وفى الأصل والتيمورية الثانية : « ذمروا » بالذال المعجمة ، وفى التيمورية الأولى : « زمروا » ، وفى نسخة الدار : « دفروا » ، وجميع ذلك محرف .

لا جَرَم لقــد احتلبوا به دَمًا لا تطير رغوتُه ، ولا تسكُن فَورته ، ولا يموت ثائره ، ولا يكلّ طالبُه . وكيف يَضيعُ دمُ اللهُ وليُّه[١] والمنتقمُ له ؟!

وما سمعنا بدمٍ بعد دم يحيى بن زكريّا عليه السلام غلا غليانَه ، وقَتل سافحَه ، وأدركَ بطائلته ، وبلغ كلّ مِحْنته[٢] ، كدمه رحمةُ الله عليه .

ولقد كان لهم فى أَخْذِه وفى إقامته للناس والاقتصاص منه ، وفى بَيع ما ظَهر من رِباعه[٣] وحَدائقه وسائر أمواله[٤] ، وفى حَبْسه بما بقيَ عليه ، وفى طَمْرِه حتّى لا يُحسَّ بذكره ، ما يُغنيهم عن قَتلِه إنْ كان قد ركب كُلَّ ما قذفوه به ، وادَّعَوه عليه .

وهــذا كُلُّه بحَضرة جِلَّة المهاجرين ، والسَّلَف المقدَّمين ، والأنصار والتابعين .

ولــكنَّ النّاسَ كانوا على طبقاتٍ مختلفة ، ومراتبَ متباينة : من قاتلٍ ، ومن شادٍّ على عَضُده ، ومن خاذلٍ عن نُصرته . والعاجزُ ناصرٌ بإرادته ، ومطيعٌ بحُسْن نِيَّته . وإنّما الشّكُّ منّا فيه وفى خاذله ، ومَن أراد عزلَه والاستبدالَ به . فأمّا قاتلُه والمعين على دمِه والمريدُ لذلك منه ، فضُلّالٌ لا شكَّ

---

(١) قرأها ڤان ڤلوتن : « وكيف يضيع الله دم وليه » ، خلافا لما فى الأصل . وورودت على قراءته فى نسخة الدار والنسختين التيموريتين .

(٢) المحنة : البلية التى يمتحن بها الإنسان .

(٣) الرباع : المنازل والديار ، واحدها ربع بالفتح . كما يجمع الربع أيضاً على ربوع وأرباع .

(٤) فى الأصل : « أقواله » ، صوابه فى جميع المخطوطات وڤان ڤلوتن .

فيهم ، ومُرّاقٌ لا امتراء فى حكمهم . على [أنّ[1]] هذا لم يَعُدْ منهم الفجور ، إمّا على سوء تأويل ، وإمّا على تعمُّد للشّقاء .

ثمّ ما زالت الفتنُ متّصلة ، والحروب مترادفة ، كحرب الجمل ، وكوقائع صِفّين ، وكيوم النّهْرَوان ، وقبل ذلك يومُ الزّابوقة[2] وفيه أُسِر ابنُ حُنَيف[3] وقُتِل حُكَيم بن جَبَلة[4] .

إلى أن قَتَلَ أشقاها عليَّ بنَ أبى طالب رضوانُ الله عليه ، فأسعدهُ الله بالشّهادة ، وأوجب لقاتله النارَ واللّعنةَ .

إلى أنْ كان من اعتزال الحسَن عليه السلام الحروبَ وتخليتِهِ الأمورَ ، عند انتشار أصحابه ، وما رأى من الخَلَل فى عسكره ، وما عرف من اختلافهم على أبيه ، وكثرة تلوُّنهم عليه .

فعندها استوى معاويةُ على المُلك ، واستبدَّ على بقيّة الشُّورى ، وعلى

---

(١) التكملة من ثان ثلوتن وسائر المخطوطات .

(٢) الزابوقة : موضع قريب من البصرة كانت فيه وقعة الجمل أول النهار .

(٣) فى الأصل : « أبو حنيف » . وفى مخطوطة الدار : « ابن حنيفة » ، وإنما هو « ابن حنيف » . كما فى التيموريتين . واسمه : « عثمان بن حنيف » . انظر الطبرى ٥ : ١٧٣ — ١٨٢ . وهو فى عداد الصحابة . الإصابة ٥٤٢٧ وجمهرة ابن حزم ٣٣٦ ووقعة صفين ١٥ .

(٤) حكيم بن جبلة بن حصين العبدى ، كان من عمال عثمان على السند ثم البصرة ، وكان بعد ذلك أحد قتلة عثمان رضى الله عنه . انظر مروج الذهب ١ : ٤٤٠ وجمهرة أنساب العرب ٢٩٨ . و « حكيم » بهيئة التصغير ، كما فى الإصابة ١٩٩١ . وقد ذكره ابن حجر فيمن له إدراك . وانظر صورة من شجاعته النادرة فى الطبرى ٥ : ٢٨٠ فى حوادث سنة ٣٦ .

جماعةِ المسلمين من الأنصار والمهاجرين فى العام الذى سَمَّوْه عامَ الجماعة — ١٤٠ ظ
وما كان عامَ جماعةٍ ، بل كان عامَ فُرْقة وقهر وجَبَرِيّة وغَلَبة ، والعامَ الذى تحوَّلت فيه الإمامة مُلكاً كِسرويًّا ، والخلافةُ غَصْبًا قيصريًّا ، ولم يَعْدُ ذلك أجمعَ الضَّلالَ والفِسق .

ثمَّ ما زالت مَعاصِيه من جنسِ ما حكينا ، وعلى منازلِ ما رتَّبنا ، حتَّى ردَّ قضيَّة رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ردًّا مكشوفا ، وجَحد حُكمَه جحداً ظاهرا ، فى ولدِ الفراشِ وما يجبُ للعاهر[1] ، مع إجماع[2] الأمّةِ أنَّ سُمَيَّةَ لم تكن لأبى سُفيانَ فِراشًا ، وأنّه إنَّما كان بها عاهراً ؛ فخرجَ بذلك من حُكم الفُجَّار إلى حكم الكفَّار .

وليس قتل حُجْر بن عدىّ ، وإطعام عمرو بن العاص خراجَ مصر ، وبيعته يزيد الخليع ، والاستئثارُ بالفىء ، واختيار الوُلاة على الهوى ، وتعطيلُ الحدود بالشَّفاعة والقرابةِ ، من جِنْس جَحْد[3] الأحكام المنصوصة ، والشرائع المشهورة ، والسُّنن المنصوبة .

وسواءٌ فى باب ما يستحقُّ من الإكفار جَحدُ الكتاب وردُّ السنة ؛ إذْ كانت السنَّة فى شُهرة الكتاب وظهوره ، إلَّا أنَّ أحدهما أعظم ، وعقاب الآخرة عليه أشدّ .

---

(١) إشارة إلى حديث « الولد للفراش ، وللعاهر الحجر » .

(٢) قرأها ڤان ڤلوتن « اجتماع » سهوا ، خلافاً لما أثبت من الأصل . ووردت كقراءة ڤان ڤلوتن فى التيموريتين .

(٣) فى الأصل : «حد» ، صوابه من جميع المخطوطات وتصحيح ڤان ڤلوتن

فهذه أوّلُ كَفرةٍ كانت فى الأمّة .

ثم لم تكن إلّا فيمَنْ يدَّعى إمامتها ، والخلافة عليها .

على أن كثيرًا من أهل ذلك العصر قد كفروا بترك إكفاره . وقد أربَتْ عليهم نابتةُ عصرنا ، ومبتدعةُ دهرنا فقالت : لا تسبُّوه فإنّ له صُحبة ؛ وسبُّ معاوية بدعة ، ومن يبغضْه فقد خالفَ السُّنَّة .

فزعَمتْ أنّ من السُّنّة تركَ البراءة ممن جحد السُّنَّة .

ثمّ الذى كان من يزيدَ ابنِه ومن عُمَّاله وأهل نُصرته ، ثم غزْو مكّة ، ورمى الكعبةِ ، واستباحة المدينة ، وقتل الحسين عليه السَّلام فى أكثر أهل بيته مصابيحِ الظَّلام ، وأوتادِ الإسلام ؛ بعد الذى أعطى من نفسه من تفريق أتْباعه ، والرُّجوع إلى داره وحَرَمه ، أو الذَّهاب فى الأرض حتى لا يُحَسَّ به ، أو المقام حيث أُمِرَ به ، فأبَوْا إلّا قَتْلَه والنُّزول على حكمهم .

١٤١ و

وسواء قَتَلَ نفسه بيده ، أو أسلَمها إلى عدوِّه وخَيَّر فيها من لا يبرُد غليلُه إلّا بشُرْب دَمِهِ .

فاحسِبوا قتلَه ليس بكفر ، وإباحةَ المدينة وهَتكَ الحُرمة ليس بحجَّة ، كيف تقولون[1] فى رَمْى الكعبة ، وهدمِ البيت الحرام ، وقبلة المسلمين ؟

فإنْ قلتم : ليس ذلك أرادوا ، بل إنما أرادوا المتحرِّز به والمتحصِّن بحيطانه . أفما كان من حقِّ البيت وحَرِيمه أن يحصروه فيه إلى أن

---

(١) فى الأصل : « تقول » ، صوابه فى نسخة الدار .

يُعْطِيَ بيده ، وأىُّ شىء بقِىَ من رجلٍ قد أُخِذت عليه الأرضُ إلّا موضعَ قدمِهِ .

واحسُبْ ما[١] رَوَوْا عليه من الأشعار التى قولُها شِرك ، والتمثُّلُ[٢] بهـا كفر ، شيئًا[٣] مصنوعًا ، كيف يُصنَع بنَقْر القضيب بين ثَنيّتَىِ الحسين عليه السـلام ، وحَمْلِ بناتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم حواسِرَ على الأقتاب العـارية والإبلِ الصِّعاب ، والـكشفِ عن عَورة علىِّ بن الحسـين عند الشَّكِّ فى بلوغه على أنَّهم إنْ وَجَدوه وقد أنبتَ قتَلوه ، وإن لم يكن أنبتَ حَمَلوه ، كما يَصنعُ أميرُ جيشِ المسـلمين بذَرارِى المشركين ؟

وكيف تقولون[٤] فى قول عُبيد الله بن زياد لإخوته وخاصَّتـه : دعونى أَقتلْه فإنَّه بقيّةُ هذا النَّسل ، فأحسِمَ به هذا القَرْن[٥] ، وأُميتَ به هذا الدَّاء ، وأَقطعَ به هذه المادّة .

خَبِّرونا على ما تدلُّ[٦] هذه القسوةُ وهـذه الغلظة ، بعد أن شفَوْا

---

(١) فى الأصل : « عما » ، صوابه فى جميع المخطوطات وڤان ڤلوتن .

(٢) فى الأصل وڤان ڤلوتن : « والمثيل » ، صوابه فى جميع المخطوطات .

(٣) فى الأصل وڤان ڤلوتن : « وشيئاً » ، صوابه فى جميع المخطوطات .

(٤) فى الأصل ونسخة الدار وڤان ڤلوتن : « تقول » ، والوجه ما أثبت من التيموريتين .

(٥) يعنى قرن الفتنة .

(٦) أثبت ألف « ما » الاستفهامية بعد الجار ، وهو قليل ، قرئ به فى قوله تعالى : « عما يتساءلون » . انظر البيان ٣ : ١٢٥ .

أنفسَهم بقتلهم ، ونالوا ما أحبُّوا فيهم . أتَدلُّ على نَصبٍ وسوء رأى وحِقدٍ وبَغضاء ونفاق ، وعلى يقينٍ مدخول وإيمان ممزوج ، أم تدلُّ على الإخلاص وعلى حبِّ النبى صلى الله عليه وآله وسلم والحفظِ له ، وعلى براءة السَّاحةِ وصحّة السَّريرة ؟

فإن كان على ما وصفنا لا يعدو الفسقَ والضَّلال — وذلك أدنى مَنازِله — فالفاسق ملعونٌ ، ومن نهى عن لَعْن الملعون فملعون .

وزعمت نابتةُ عصرنا ، ومبتدعة دهرِنا ، أنَّ سبَّ وُلاةِ السُّوء فِتنة ، ولعن الجَوَرَة بِدعة ، وإنْ كانوا يأخذون السَّمِىَّ بالسَّمِىِّ ، والولىَّ بالولىِّ ، والقريبَ بالقريب ، وأخافوا الأولياء ، وآمنوا الأعداء ، وحكموا بالشفاعة والهوى ، وإظهار القُدرة ، والتهاون بالأمَّة ، والقمع للرعيّة ، وأنهم فى غير مداراة ولا تقيَّة ، وإنْ عدا ذلك إلى الكفر ، وجاوزَ الضَّلالَ إلى الجحد ، فذاك أضلُّ لمن كفَّ عن شتْمهم والبراءةِ منهم . ١٤١ ظ

على أنَّه ليس من استحقَّ اسمَ الكفر بالقتل كمن استحقَّه بردِّ السنَّةِ وهدم الكعبة . وليس مَن استحقَّ الكفر بالتشبيه كمن استحقَّه بالتجوير .

والنَّابتةُ فى هذا الوجه أكفَرُ من يزيدَ وأبيه ، وابن زيادٍ وأبيه .

ولو ثبت أيضاً على يزيدَ أنَّه تمثَّل بقول ابن الزِّبَعْرَى[1] :

---

(١) هو عبد الله بن الزبعرى بن قيس بن عدى بن سعيد بن سهم القرشى . والزبعرى أبوه ، وهو بكسر الزاى وفتح الباء مقصور . ومعناه فى اللغة السيء الخلق ، والغليظ . وكان عبد الله من أشعر قريش ، وكان شديداً على المسلمين ، ثم أسلم =

ليت أشياخِى ببدرٍ شَهِدوا جَزَعَ الخزرجِ مِن وَقْعِ الأَسَلْ
لاستطاروا واستهــلُّوا فرحًا ثم قالوا يا يزيدًا لا تسَــلْ[١]
قد قتلنا الغُرَّ من ساداتهم وعَدلنا مَيلَ بدرٍ فاعتدل[٢]

كانَ تجويرُ النَّابتىِّ لربِّه ، وتشبيهه بخلقه ، أعظمَ من ذلك وأفظَع .

على أنَّهم مُجمِعون على أنّه ملعونٌ مَن قتل مؤمناً متعمِّداً أو متأوِّلا . فإذا كان القاتل سُلطاناً جائرا ، أو أميراً عاصيا ، لم يستحلُّوا سبَّه ولا خَلْعه ، ولا نفيَه ولا عَيبَه ، وإنْ أخافَ الصُّلحاء وقَتل الفقهاء ، وأجاعَ الفقيرَ وظلَمَ الضعيف ، وعطَّل الحدودُ والثُّغور ، وشرب الخمورَ وأظهر الفجور .

ثم ما زال النــاس يتسكَّعُون مرّةً ويداهنونَهم مرّة ، ويقاربُونهم مرة ويشاركونهم مرّة ، إلّا بقيّةً ممن عَصَى الله تعــالى ذكرُه ، حتَّى قام عبدُ الملك بنُ مَرْوان ، وابنُه الوليد ، وعاملهما الحجّــاجُ بن يوسف ،

= فى الفتح سنة سنة ثمان واعتذر عن إيذاء المسلمين وقريش . الإصابة ٤٦٧٠ والمؤتلف ١٣٢ والاشتقاق ١٢٢ .

(١) جعلها ڤان ڤلوتن « يايزيد لافشل » : والبيت ليس من كلام ابن الزبعرى ، وإنما صنعه يزيد وأقحمه . وقصيدة ابن الزبعرى فى السيرة ٦١٦ جوتنجن وشرح شواهد المغنى للسيوطى ١٨٧ . وبعض أبياتها فى الحيوان ٥ : ٥٦٤ والاشتقاق .

(٢) فى الأصل والمخطوطات وڤان ڤلوتن : « وعدلناه ببدر » ، صوابه فى السيرة والحيوان وشرح شواهد المغنى .

ومولاه يزيدُ بن أبى مُسْلِم[1] ، فأعادُوا على البيت بالهَدْم[2] ، وعلى حَرَم المدينة بالغَزْو ، فهدموا الكعبة ، واستباحوا الحُرْمة ، وحوَّلوا قِبلةَ واسط ، وأخَّروا صلاةَ الجمعة إلى مُغيرِبانِ الشَّمس . فإن قال رجلٌ لأحدٍ منهم : اتَّقِ اللهَ فقد أخَّرت الصلاةَ عن وقتها ، قتَله على هذا القول جِهارًا غيرَ خَتْلٍ ، وعلانيةً غيرِ سِرّ . ولا يُعلم القتل على ذلك إلّا أقبحَ من إنكاره ، فكيف يكفُرُ العبد بشىء ولا يكفُر بأعظم منه ؟ ١٤٢و

وقد كان بعضُ الصَّالحين ربَّما وَعظ [بعضَ[3]] الجبابرة ، وخوَّفَه العواقب ، وأراه أنَّ فى الناس بقيّةً ينهَوْن عن الفساد فى الأرض ، حتَّى قام عبدُ الملك بن مَرْوان والحجاجُ بن يوسُف ، فزجرا عن ذلك وعاقبا عليه ، وقَتَلا فيه ، فصاروا لا يتناهَوْن عن منكرٍ فَعَلوه .

فاحسُبْ أنَّ تحويل القبلة كان غَلطًا ، وهدمَ البيت كان تأويلا ، واحسُبْ ما رَوَوا من كلِّ وجه أنَّهم كانوا يزعمون أنَّ خليفة المرء فى أهله أرفعُ عنده

---

(١) فى الأصل : « يزيد بن أبى مسلمة » تحريف . وهو أبو العلاء يزيد ابن أبى مسلم الثقفى مولاهم ، واسم أبى مسلم « دينار » . كان يزيد مولى الحجاج وكاتبه ، ولما حضرت الوفاة الحجاج استخلفه على الخراج بالعراق ، فلما مات أقره الوليد بن عبد الملك ، ولما ولى أخوه سليمان عزله بيزيد بن المهلب . وفى سنة ١٠١ ولى إمارة إفريقية من قبل يزيد بن عبد الملك فحاول أن يسير فى أهلها بسيرة الحجاج فقتلوه سنة ١٠٢ . وفيات الأعيان ٢ : ٢٧٦ — ٢٧٨ والطبرى ٨ : ١٦٧ ونوادر المخطوطات ٢ : ١٧٨ .

(٢) انظر ما سبق فى ص ١٢ .

(٣) ليست بالأصل ولا فى المخطوطات ، والكلام يقتضيها .

من رسوله إليهم ، باطلاً ومصنوعاً مولَّداً . واحسُبْ وَشْمَ[١] أيدى المسلمين ونَقْشَ أيدى المسلماتِ ، وردَّهم بعد الهجرة إلى القُرى[٢] ، وقَتل الفقهاء ، وسبَّ أئمَّة الهدى ، والنَّصْبَ لِعترة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لا يكون كفراً ، كيف تقول فى جمع ثلاثِ صلواتٍ فيهنَّ الجمعةُ ولا يصلُّون أولاهنَّ حتَّى تصير الشَّمسُ على أعالى الجُدْران[٣] كالمُلاء المعصفَر . فإنْ نطَقَ مسلمٌ خُبط بالسَّيف ، وأخذته العَمَدُ ، وشُكَّ بالرِّماح .

وإن قال قائلٌ : اتَّقِ الله ، أخذته العزَّة بالإثم ، ثمَّ لم يرضَ إلاَّ بنثْر دماغه على صدره ، وبصَلْبه حيث تراه عيالُه .

ومما يدلُّ على أنَّ القوم لم يكونوا إلاَّ فى طريق التمرُّد على الله عزَّ وجلَّ ، والاستخفاف بالدِّين ، والتَّهاون بالمسلمين ، والابتذال لأهل الحقّ ، أكْلُ أمرائهم الطَّعامَ ، وشُربُهم الشَّرابَ ، على منابِرهم أيّامَ جُمَعهم وجُموعهم . فَعَل ذلك حُبَيش بن دُلْجَة[٤] ، وطارقٌ مولى عثمان[٥] ، والحجَّاجُ بن يوسف

---

(١) جعلها عزت العطار « وشم » بالشين .

(٢) قرأها ڤان ڤلوتن : « قراهم » خلافا لما هو واضح فى الأصل ، وإن كانت فى المخطوطات « قراهم » أيضاً .

(٣) فى الأصل : « الجدرات » ، صوابه فى جميع المخطوطات وڤان ڤلوتن .

(٤) فى الأصل والمخطوطات وڤان ڤلوتن : «حسن بن دلجة» ، صوابه فى الطبرى ٧ : ٨٤ وجمهرة أنساب العرب ٢٢٨ . قال ابن حزم : « بعثه مروان إلى الحجاز ، فبعث ابن الزبير ، الحنتف — يعنى الحنتف بن السجف — فقتل حبيشاً وأفلت الحجاج يومئذ وكان مع حبيش . وكان هذا سنة ٦٥ كما فى تاريخ الطبرى .

(٥) هو طارق بن عمرو ، مولى عثمان بن عفان ، ولاه عبد الملك بن مروان إمارة المدينة بعد فتنة ابن الزبير فى سنة ٧٣ . قال الطبرى : « فوليها خمسة أشهر » . وفى تهذيب التهذيب ٥ : ٧ أن عبد الملك عزله فى سنة ٧٣ وولى الحجاج بن يوسف .

وغيرهم . وذلك إنْ كان كفرًا كلُّه فلم يبلُغْ كفرَ نابتةِ عصرنا ، وروافضِ دهرنا ؛ لأنَّ جنس كفر هؤلاء غير كفر أولئك .

كانَ اختلافُ الناس فى القَدَر على أنَّ طائفةً تقول : كلُّ شىء بقضاء وقدر ، وتقول الطائفة الأُخرى : كل شىء بقضاء وقدر إلاَّ المعاصىَ . ولم يكن أحدٌ يقول إنَّ الله يعذِّب الأبناء ليغيظ الآباء ، وإنَّ الكفر والإيمانَ مخلوقانِ فى الإنسان مثل العمى والبصر . وكانت طائفةٌ منهم تقول إنَّ الله ١٤٢ ظ لا يُرَى ، لا تزيد على ذلك ، فإنْ خافت أنْ يُظَنَّ بها التشبيه قالت يُرى بلا كيفٍ ، تعرِّيًا مِن التَّجسيم والتَّصوير ، حتَّى نبتت هذه النابتة ، وتكلَّمَت هذه الرّافضة ، فثبَّتتْ له جسماً ، وجعلت له صورة وحَدًّا ، وأكفرتْ من قال بالرُّؤْية على غير الكيفية .

ثم زعم أكثرُهم أنَّ كلام الله حسن وبيِّن ، وحُجَّةٌ وبرهان ، وأنَّ التَّوراة غير الزَّبور ، والزَّبور غير الإنجيل ، والإنجيل غير القرآن ، والبَقَرة غير آل عِمْران ، وأنَّ الله تولَّى تأليفَه ، وجعلَه برهانَه على صدقِ رسوله ، وأنَّه لو شاء أن يزيد فيه زاد ، ولو شاء أن ينقصَ مِنه نَقَص ، ولو شاء أن يبدِّله بدَّله ، ولو شاء أن ينسخه كلَّه بغيرِه نَسَخه ، وأنَّه أنزله[1] تنزيلا ، وأنَّه فصَّله تفصيلا ، وأنَّه بالله كان دون غيره ، ولا يَقدر عليه إلا هو ، غير أنَّ اللهَ مع ذلك كلِّه لم يخلقْه . فأعطَوْا جميعَ صفات الخَلْقِ ومَنَعوا اسمَ الخلق .

والعجَب أنَّ الخَلْق عند العرب إنَّما هو التقدير نفسُه ؛ فإذا قالوا خَلَق

(١) كذا فى جميع النسخ . والأوفق « نزله » .

كذا وكذا ، وكذلك قال ﴿ أحسَن الخالِقِين[1] ﴾ وقال ﴿ تَخْلُقُونَ إفْكاً[2] ﴾ وقال : ﴿ وإذْ تخلُقُ مِن الطِّينِ كهيئَةِ الطَّيْر[3] ﴾ فقالوا : صنعَه وجعلَه وقدَّره وأنزلَه ، وفصَّله وأحدثَه ، ومنعوا خَلَقه . وليس تأويل خَلقه أكثرَ من قدَّره. ولو قالوا بدل قولهم قَدَّره ولم يخلُقْه : خلقَه ولم يقدِّره ، ما كانت المسألةُ عليهم إلاَّ من وجهٍ واحد .

والعجب أنَّ الذى منعه بزعمه أنْ يزعم أنَّه مخلوقٌ ـ أنَّه لم يسمع ذلك من سَلِفه وهو يعلم أنَّه لم يسمع أيضاً عن سلفه أنّه ليس بمخلوق . وليس ذلكَ بهم ، ولكن لِمَا كان الكلامُ من الله يقال عندهم على مثل خُروج الصَّوت من الجوف ، وعلى جهة تقطيع الحروف وإعمال اللِّسان والشَّفتين ، وما كان على [غير]هذه الصُّورة[4] والصِّفة فليس بكلام .

ولمّا كنّا عندهم على غير هذه الصفة ، وكنا لكلامنا غير خالقين ، وجَبَ أنَّ الله عز وجَلَّ لكلامه غير خالق ، إذ كنَّا غيرَ خالقين لكلامنا . فإنَّما ١٤٣ و

(١) فى الآية ١٤ من سورة المؤمنون : « فتبارك الله أحسن الخالقين » وفى الصافات : « وتذرون أحسن الخالقين » .

(٢) الآية ١٧ من العنكبوت . وهى : « إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا » . والاقتباس بترك الواو والفاء ونحوها جائز كثير . انظر ما كتبت فى حواشى الحيوان ٤ : ٥٧ .

(٣) الآية ١١٠ من سورة المائدة .

(٤) فى الأصل : « وإن ما كان على هذه الصورة » ،صوابه وتكملته فى جميع المخطوطات .

قالوا ذلك لأنّهم لم يجدوا بين كلامنا وكلامه فرقا ، وإن لم يقرُّوا بذلك بألسنتهم . فذاك معناهُم وقصدهم .

وقد كانت هذه الأمّةُ لا تجاوز معاصيها الإثمَ والضَّلال ، إلّا ما حكيتُ لك عن بنى أميَّةَ وبنى مَرْوَانَ وعمَّالها ، ومَن لم يَدِنْ بإكفارهم ، حتَّى نجمت النَّوابتُ ، وتابعتْها هذه العوامُّ ، فصار الغالبُ على هذا القرْن الكفرَ ، وهو التَّشبيه والجبر ، فصار كفرهم أعظمَ من كُفرِ من مضى فى الأعمال التى هى الفسقُ ، و [صاروا[١]] شركاءَ من كفر منهم ، بتولِّيهم وترك إكفارهم . قال الله عزّ من قائل : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ[٢] ﴾ .

وأرجو أن يكون الله قد أغاث المحِقِّينَ ورَحِمهم ، وقوّى ضعفَهم وكثَّر قلتهم ، حتّى صار[٣] وُلاةُ أمرِنا فى هذا الدّهر الصَّعب ، والزَّمن الفاسد ، أشدَّ استبصاراً فى التَّشبيه من عِلْيتنا ، وأعلمَ بما يلزم فيه منَّا ، وأكشفَ للقِناع من رؤسائنا ، وصادفوا النَّاسَ وقد انتظموا معانىَ الفسادِ أجمع ، وبلغوا غاياتِ البِدَع ، ثم قرنوا بذلك العصبيَّةَ التى هلك بها عالَمٌ بعد عالَمَ ، والحميَّةَ التى لا تُبقِى دينًا إلَّا أفسدَتْه ، ولا دُنْيَا إلَّا أهلكتْها ، وهو ما صارت إليه العجم من مذهب الشُّعوبيَّة[٤] ، وما قد صار إليه الموالى من الفَخْر على العَجَم والعرب .

---

(١) تكملة ضرورية .

(٢) الآية ٥١ من سورة المائدة .

(٣) فى الأصل وجميع المخطوطات : « حتى صاروا » .

(٤) انظر حواشى البيان ٣ : ٥ .

وقد نجمت من الموالى ناجمةٌ ، ونبتت منهم نابتةٌ ، تزعم أنَّ المَولى بولايةٍ قد صار عربيًّا ؛ لقول النبيِّ صلى الله عليه وسلَّم : « مَولى القَوم منهم[١] » ، ولقوله : « الوَلاء لُحمةٌ كلُحمة النَّسَب ، لا يُباع ولا يُوهَب » .

قال : فقد علِمْنا أنَّ العجمَ حين كان فيهم المُلْك والنبوَّة كانوا أشرفَ من العرب ، وأنَّ الله لمّا حوَّل ذلك إلى العرب صارت العربُ أشرفَ منهم .

قالوا : فنحن معاشرَ الموالى بقديمِنا فى العَجَم أشرفُ من العرب ، وبالحديث الذى صار لنا فى العرب أشرفُ من العجم[٢] . وللعرب القديمُ دونَ الحديث[٣] . ولنا خصلتان جميعًا وافرتانِ فينا ، وصاحبُ الخصلتين أفضلُ من صاحب الخَصلة .

١٤٣ ظ

وقد جعل الله المولى بعد أن كان عجميًّا عربيا بوَلائهِ ، كما جعل حليف قريش من العرب قرشيًّا بحِلفِه ، وجعل إسماعيلَ[٤] ، بعد أن كان أعجميًّا[٥] ، عربيًّا . ولولا قولُ النبى صلى الله عليه وسلم إنَّ إسماعيلَ كان عربيًّا ما كان عندنا إلَّا أعجميًّا ؛ لأنَّ الأعجم[٦] لا يصير عربيًّا ، كما أنَّ العربىَّ لا يصير أعجميًّا .

---

(١) انظر فتح البارى ١٢ : ٤١ .

(٢) فى الأصل : « فى العجم » ، صوابه فى المخطوطات وڤان ڤلوتن .

(٣) جعلها عزت العطار : « وللعرب الحديث دون القديم وللعجم القديم دون الحديث » . خلافا لما فى أصله وما فى أصل داماد .

(٤) فى الأصل والمخطوطات : « وبعد أن جعل إسماعيل » .

(٥) كذا فى الأصل ونسخة الدار . وفى التيموريتين وڤان ڤلوتن : « كان أعجمياً » بسقوط : « بعد أن » .

(٦) الأعجم والأعجمى سيان . ويقال رجل أعجم وقوم أعجم أيضاً ، وهم خلاف العرب .

فإنّما علِمْنا أنّ إسماعيل صيّره الله عربيًّا بعد أن كان أعجميًّا بقول النبى صلى الله عليه وسلم ، فكذلك حكمُ قوله : « مَولى القَومِ منهم » ، وقوله : « الوَلاء لُحمةٌ » .

قالوا : وقد جعل الله إبراهيم عليه السلام أباً لمن لم يلدْ كما جعله أباً لمن ولَد ، وجعل أزواجَ النبىِّ أمّهاتِ المؤمنينَ ولم يلدنَ منهم أحداً ، وجعلَ الجارَ والدَ من لم يلدْ ، فى قولٍ غير هذا كثيرٍ قد أتينا عليه فى موضعه .

وليس أدعَى إلى الفساد ولا أجلبَ للشَّرِّ من المفاخرة ، وليس على ظَهرها إلا فَخُورٌ ، إلّا قليل .

وأىُّ شىء أغْيَظُ من أن يكون عبدُك يزعُم أنّه أشرف منك وهو مقرٌّ أنه صار شريفاً بعِتْقِك إيّاه .

وقد كتبتُ ــ مدَّ الله فى عمرك ــ كتبًا فى مفاخرة قحطان ، وفى تفضيل عدنان ، وفى ردِّ الموالى إلى مكانهم من الفَضْل والنَّقص ، وإلى قَدْر ما جعلَ الله تعالى لهم بالعرب من الشَّرف . وأرجو أن يكون عدلًا بينهم ، وداعيةً إلى صَلاحهم ، ومَنْبَهَةً لما عليهم ولهم .

وقد أردتُ أن أرسلَ بالجزء الأوّل إليك ، ثم رأيتُ ألّا يكون إلاّ بعد استئذانك واستئمارك ، والانتهاء فى ذلك إلى رغبتك .

فرأيَكَ فيك موفّقًا[1] ، إن شاء الله عزَّ وجل . وبه الثِّقة .

* * *

---

(١) جعلها ڤان ڤلوتن « موفق » ، كما فى نسخة الدار والتيمورية الثانية . وما هو ظاهر فى الأصل والتيمورية الأولى أوفق وأولى ؛ فإنه يطلب منه رأيه .

تمت الرسالة من كلام أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله ، إلى ١٤٤ و
أبى الوليد محمد بن أحمد بن أبى دُوَاد فى النَّابتة ، والله الموفِّق للصواب .

يتلوه كتاب الحجاب من كلامه أيضاً .

والحمـد لله أولا وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين وسلامه .

١٢

كتاب الحجاب

من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذه هي الرسالة الثانية عشرة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« كتاب الحجاب »

ومن هذا الكتاب نسختان :

١ — نسخة الأصل ، وهي نسخة مكتبة داماد .

٢ — نسخة أخرى مضمنة في كتاب طراز المجالس للخفاجي . ومنه ثلاث نسخ:

ا — النسخة المطبوعة بالمطبعة الوهبية سنة ١٢٨٤ . والنص فيها من ص ٧٣ إلى ص ٩٧ .

ب — مخطوطة الطراز رقم ٦٥ م أدب كتبت سنة ١٠٩٤ .

حـ — مخطوطة الطراز رقم ٦٧ م أدب كتبت سنة ١٠٣٢ .

وقد راجعت نسخة الأصل على نسخ طراز المجالس الثلاث : المطبوعة ، والمخطوطتين ، واستخلصت منها جميعاً ومن مراجع التحقيق والشرح نسختي هذه . وبالله التوفيق .

بسم الله الرحمن الرحيم

أطال الله بقاءك ، وجعلني من كل سوء فداءك ، وأسعدك بطاعته وتولاك بكرامته ، ووالى إليك مزيده . ١٤٥ ظ

إنه يقال ـ أكرمك الله ـ « إن السَّعيد من وُعظ بغيره ، وأن الحكيم من أحكمته تجاربُه » . وقد قيل : « كفاكَ أدباً لنفسك ما كرهْتَ من غيرك » وقيل : « كفاكَ من سوءٍ سماعُه[١] » ، وقيل : « إنَّ يقَظة الفهم للواعظ ممَّا يدعو النَّفس إلى الحذر من الخطاء[٢] ، والعقلَ إلى تصفيته من القذى » .

وكانت الملوكُ إذا أتتْ ما يَجلُّ عن المعاتبة عليه ضُرِبت لها الأمثال ، وعُرِّض لها بالحديث . وقال الشاعر[٣] :

العبدُ يُقرَعُ بالعصا   والحُرُّ تكفيه المَلامَهْ

وقال آخر[٤] :

* ويكفيكَ سَوءاتِ الأمور اجتنابُها[٥] *

---

(١) في مخطوطتي طراز المجالس : « من سوء سماعه » ، وفي المطبوعة : « كفاك من سوء فعل سماعه » .

(٢) في الطراز : « إن من يقظة ... مايدعو .. » .

(٣) هو يزيد بن مفرغ ، كما في البيان ٣ : ٣٦ .

(٤) هو هلال بن خثعم ، كما في الحيوان ١ : ٢٨٣ . وفي عيون الأخبار ٣ : ٢٢١ : « هلال بن جشم » .

(٥) صدره في الحيوان وعيون الأخبار :

* وإن قراب البطن يكفيك ملؤه *

وقال عبد المسيح المتلمِّسُ :

لِذِى الحِلْمِ قبلَ اليوم ما تُقرَعُ العصا
وما عُلِّمَ الإنسانُ إلاَّ لِيعلما[١]

وقال بعضهم : « فى خفىِّ التعريض ما أغنَى عن شنيع التَّصريح » .

وقد جمعتُ فى كتابى هذا ما جاء فى الحجاب من خبرٍ وشعرٍ ، ومعاتبة وعُذر[٢] ، وتصريح وتعريض ، وفيه ما كفى . وبالله التوفيق .

وقد قلت :

كفى أدباً لنفسك ما تراه لغيرك شائناً بين الأنامِ

ما جاء فى الحِجاب والنَّهى عنه

روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه مِن الوُلاة اضطلعَ بأمانته وأمره : إذا عدل فى حكمه ، ولم يحتجب دون غيره ، وأقام كتابَ الله فى القريب والبعيد » .

وروى عنه عليه السلام أنّه وجّه علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه إلى بعض الوجوه ، فقال له فيما أوصاه به : « إنِّى قد بعثتُك وأنا بك ضنين ١٤٦ و فابرزْ للناس ، وقدِّم الوضيعَ على الشَّريف ، والضَّعيفَ على القوىّ ، والنِّساء قبل الرجال ، ولا تُدخلنَّ أحداً يغلبك على أمرك ، وشاور القرآن فإنّه إمامُك » .

---

(١) البيان ٣ : ٣٨ .

(٢) فى الأصل ومخطوطتى الطراز : « وغدر » ، صوابه من المطبوعة .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا استعمل عاملاً شرطَ عليه أربعا[١]: لا يركب برذونا ، ولا يتّخذ حاجباً ، ولا يلبس كتّاناً ، ولا يأكل دَرْمَكاً[٢] .

ويوصى عمّاله فيقول : إيّاكم والحجابَ ، وأظهروا أمْركم بالبَرَاز ، وخذوا الذى لكم وأعطُوا الذى عليكم ، فإنّ امرأً ظُلِم حقّه مضطرٌّ[٣] حتى يَغْدُوَ به مع الغادين .

وكتب عمر رضوانُ الله عليه[٤] إلى معاوية وهو عاملُه على الشام :

« أمّا بعدُ فإنّى لم آلُكَ فى كتابى إليك ونفسى خَيْراً . إيّاكَ والاحتجابَ دونَ الناس ، وأْذَن للضعيف وأدنِه حتى ينبسط لسانُه ، ويجترئَ قلبه ، وتعهّد الغريب فإنّه إذا طال حبسُه وضاق إذنُه تَرَكَ حقَّه ، وضَعُف قلبه ، وإنما أتْوَى حقَّه مَنْ حَبَسَه[٥] . واحرص على الصُّلح بين الناس ما لم يستبِنْ لك القضاء . وإذا حضرك الخصمان بالبيِّنة العادلة والأيمان القاطعة فأمضِ الحكم . والسلام » .

وكتب عمر رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى :

« آسِ بين الناس فى نظرك وحِجابك وإذنك[٦] ، حتّى لا يطمعَ شريفٌ

(١) فى الأصل وطراز المجالس : « أربع » .
(٢) الدرمك : الدقيق النقى الحوارى . والمراد الخبز المتخذ منه .
(٣) فى المطبوعة من طراز المجالس : « مضض » ، تحريف .
(٤) فى طراز المجالس : « رضى الله عنه » .
(٥) أتواه : ذهب به ؛ والتوى : الهلاك .
(٦) فى البيان ٢ : ٤٩ : « آس بين الناس فى مجلسك ووجهك » . آس بينهم : سو بينهم واجعل كل واحد منهم أسوة خصمه .

فى حَيْفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك . وأعلم أن أسعد الناس عند الله تعالى يومَ القيامة مَن سَعِد به النّاس ، وأشقاهم من شَقُوا بِهِ » .

وروى الهيثم بن عدىّ عن ابن عباس قال : قال لى عبيد الله بن أبى المخارق القينىّ[(١)] :

استعملنى الحجاج على الفَلُّوجة العُليا[(٢)] ، فقلت : أَمَا[(٣)] ها هنا دِهقانٌ يُعاش بعقله ورأيه[(٤)] ؟ فقيل لى : بلى ، ها هنا جميل بن بَصْبَهَرَّى[(٥)] . فقلت : علىَّ به . فأتانى فقلت : إن الحجّاجَ استعملنى على غير قرابة ولا دالّة ولا وسيلة ، فأشِرْ علىّ . قال :

١٤٦ ظ لا يكونُ لك بوّابٌ حتّى إذا تذكَّر الرجلُ من أهل عملك بابَك لم يَخَفْ حُجّابك ، وإذا حضرك شريفٌ لم يتأخّر عن لقائك ولم يحكم على شرفك حاجبُك[(٦)] . وليَطُلْ جلوسُك لأهل عملك يَهَبْك عُمّالك ، ويبقى مكانُك[(٧)] . ولا يختلفْ لك حكمٌ على شريف ولا وضيع ، ليكنْ حكمُك واحداً على الجميع ، يثقِ الناسُ بعقلك . ولا تَقبل من أحدٍ هديّةً فإنّ صاحبَها لا يَرضَى بأضعافها مع ما فيها من الشُّهرة .

---

(١) فى طراز المجالس : « عبيد الله بن أبى المخترق القينى » .

(٢) هما فلوجتان : العليا والسفلى ، أو الكبرى والصغرى ، قريتان كبيرتان من سواد بغداد والكوفة ، قرب عين التمر .

(٣) فى الأصل : « أنا » ، والصواب فى طراز المجالس .

(٤) الدهقان : زعيم فلاحى العجم ، فارسى معرب .

(٥) كذا ضبط فى أصح نسخة من البيان والتبيين . انظر ٢ : ٢٦٣ و ٣ : ٣٦

(٦) على ، بمعنى مع . وفى طراز المجالس : « مع شرفك » .

(٧) طراز المجالس : « ويتق » .

مَن عَهِدَ إلى حاجبه

قال موسى الهادى لحاجبه : لا تحجُب الناسَ عنّى ؛ فإنّ ذلك يزيل التزكية ، ولا تُلقِ إلىّ أمراً إذا كشفتَه وجدتَه باطلًا ، فإنّ ذلك يُوتغ المملكة[١] .

وقال بعض الخلفاء لحاجبه : إذا جلستُ فأْذنْ للناس جميعًا علىّ ، وأبرز لهم وجهى ، وسكِّن عنهم الأحراس ، واخفِض لهم الجناح ، وأطِبْ لهم بشرَكَ ، وألِنْ لهم فى المسألة والمنطق ، وارفعْ لهم الحوائج ، وسوِّ بينهم فى المراتب ، وقدِّمهم على الكفاية والغَناء ، لا على الميل والهوى .

وقال آخر لحاجبه : إنّك عينى التى أنظرُ بها ، وجُنّةٌ أستنيم إليها ، وقد ولَّيتُك بابى فما تُراك صانعًا برعيّتى ؟

قال : أنظرُ إليهم بعينك ، وأحملُهم على قدر منازلهم عندك ، وأضعهم لك فى إبطائهم عن بابك ولزومهم خِدمَتك مواضعَ استحقاقهم ، وأرتِّبهم حيث وضعهم ترتيبُك[٢] ، وأُحسِنُ إبلاغك عنهم وإبلاغَهم عنك .

قال : قد وفَيت بما عليك ولك قولًا ، إن وفيتَ به فعلًا . والله ولىُّ كفايتك ومَعُونتك[٣] .

---

(١) أوتغه : أهلكه . وفى اللسان : « وفى حديث الإمارة : حتى يكون عمله هو الذى يطلقه أو يوتغه » ، أى يهلكه . وفى طراز المجالس: « يوقع المهلكة » .

(٢) وكذا فى عيون الأخبار ١ : ٨٣ ، لكن فى طراز المجالس : « مواضع استحقاقهم فى رتبهم حيث وضعهم ترتيبك » .

(٣) بدله فى عيون الأخبار : « قد وفيت مالك وما عليك إن صدقته بفعل » .

وعَهِد أميرٌ إلى حاجبه فقال : إنّ أداء الأمانة فى الأعراض أوجَبُ منها فى الأموال ؛ وذلك أنّ الأموالَ وِقايةٌ للأعراض ، وليست الأعراض بوقاية للأموال . وقد ائتمنتك على أعراض الغاشِينَ لِبابى ، وإنّما أعراضُهم أقدارُهم ، فصُنْها لهم ، ووفِّرها عليهم . وصُنْ بذلك عرضى ، فلعمرى إنّ صيانتك أعراضَهم صيانةٌ لِعرضى ، ووقايتَك أقدارَهم وقايةٌ لقـــدرى ؛ إذ كنتُ الحظىَّ بِزينِ إنصافهم إن أُنصِفوا ، والمبتلَى بشَين ظلمهم إن ظُلموا فى غِشيانهم بابى ، وحضورهم فِنائى .

١٤٧ و

أوفِ كلّ امرئٍ قدرَه ، ولا تُجاوزْ به حدَّه ، وتوقَّ الجورَ فى ذلك التوقّىَ كلَّه . أقبلْ على من تحجب بإبداء البِشر وحلاوة العُذر ، وطلاقة الوجه ولِين القَول ، وإظهار الودّ ، حتَّى يكون رضاه عنك لما يرى من بشاشتك به وطلاقتك له ، كرِضًا من تأذنُ له عنك لما يُمنحه من التكريم ، ويحويه من التعظيم ؛ فإنّ المنع عند الممنوع فى لين المقالة يكاد يكون كالنَّيل عند العظماء فى نفع المَنَالة .

أَنْهِ إلىَّ حالاتِ كلِّ مَن يغشى بابى من وجيهٍ وخامل ، وذى هيئة وأخى رَثاثة ، فيما يحضُرون له بابى ، ويتعلّقون به من إتيانى .

لا تحتقرنَّ من تقتحمه العيون لرثاثةِ ثوبٍ أو لدمامة وجه ، احتقاراً يخفَى علىّ أثره ، فربَّما بَذَّ مثلُه[1] بمخبره من يروقُ العيونَ منظرُه .

---

(١) بذ القوم يبذهم بذا : سبقهم وغلبهم وبذ فلانا ، إذا ما علاه وفاقه فى حسن أو عمل ، كائنا ما كان . فى طراز المجالس : « بز » تحريف ، فإن البز بالزاى معناه السلب ، ومنه قولهم فى المثل : « من عزبز » .

إنك إن نقَصتَ الكريمَ ما يستحقُّه من مال لم يغضَب بعد أن تستوهبه منه ، وإن نقصتَه من قدره أسخطتَه أشدَّ الإسخاط ، إذ كان يريد دنياه ليصونَ بها قدرَه ، ولا يريد قدره ليُبقِى به دنياه . فكن لتحيُّف عِرضه أشدَّ توقِّيًا منك لتحيُّف ماله[1] .

إن المحجوب وإنْ كان عدْلُنا فى حجابه كعدلنا على المأذون له فى إذنه ، يتداخلُه انكسارٌ إذا حُجِبَ ورأى غيره قد أُذِن له . فاختصَّه لذلك من بشاشتك به ، وطلاقتك له ، بما[2] يتحلَّل به عنه انكسارُه . فلعمرى لو عَرف أنّ صوابنا فى حجابه كصوابنا فى الإذن لمن نأذن له ، ما احتجنا إلى ما أوصيناك به من اختصاصه بالبشر دون المأذون له .

إن اجتمعَ الأعلَون والأوسطونْ والأدنَون ، فدعوتَ بواحدٍ منهم دون مَن يعلوه فى القدر ، لأمرٍ لا بدّ من الدعاء به له ، فأَظهِرِ العُذر فى ذلك لئلّا تخبثَ نفسُ من عَلاهُ ؛ فإنّ الناس يتغالب لمثل ذلك عليهم سوء الظُّنون . والواجبُ على من ساسَهم التوقِّى على نفسه من سُوء ظنونهم ، وعليهم تقويم نفوسهم ؛ إذْ هو كالرأس يألم لألم الأعضاء ، وهم كالأعضاء يألمون لألم الرأس . ١٤٧ ظ

المدائنى قال : قال زياد بن أبيه لحاجبه[3] :

---

(١) التحيف : التنقص . وفى طراز المجالس : « لتخيف » بالخاء ، وهما سواء فى المعنى . وفى اللسان (خيف) : « وتخيف ماله : تنقص من أطرافه ، كتحيفه ، حكاه يعقوب وعده فى البدل . والحاء أعلى » .

(٢) فى الأصل وطراز المجالس : « ما » ، والوجه ما أثبت .

(٣) الخبر فى الكامل ١٧٠ ليبسك والعقد ١ : ٧١ .

يا عَجلانُ : قد ولّيتك بابى ، وعزلتك عن أربعة[١] : طارقِ ليلٍ ؛ فشرٌّ ما جاء به أو خيْر[٢] . ورسولِ صاحب الثَّغر ؛ فإنّه إن تأخّر ساعةً بطل به عملُ سَنَة[٣] . وهذا المنادى بالصلاة[٤] . وصاحب الطَّعام ؛ فإنّ الطعام إذا تُرِكَ بردَ ، وإذا أعيد عليه التسخين فسد .

الهيثم بن عدىٍّ قال : قال خالد بن عبد الله القسرىّ لحاجبه[٥] : لا تحجبنّ عنّى أحداً إذا أخذتُ مجلسى ؛ فإن الوالىَ لا يحتجب إلاّ عن ثلاث : إمّا رجلٌ عِيٌّ يكره أن يُطَّلع على عِيّه ، وإمّا رجلٌ مشتمل على سَوءة ، أو رجلٌ بَخيل يكره أن يدخل عليه إنسانٌ يسأله شيئاً .

أنشدنى محمودٌ الورّاقُ لنفسه فى هذا المعنى :

إذا اعتصَم الوالى بإغلاق بابه ... وردَّ ذوى الحاجات دون حجابه

ظننتُ به إحدى ثلاثٍ ، وربّما ... نزعت بظنٍّ واقع بصوابه

فقلتُ : به مَسٌّ من العىّ ظاهر ... ففى إذْنه للناس إظهار ما بِهِ

(١) فى العقد : « عن أربع » . والأفصح التأنيث لنية أربع رجال ، ويجوز أن تحذف التاء ، كما فى حديث « وأتبعه بست من شوال » . الأشمونى ٤ : ٦١ .

(٢) فى الكامل : « فشر ما جاء به ، ولو جاء بخير ما كنت من حاجته » .

(٣) فى الكامل : « فإن إبطاء ساعة يفسد تدبير سنة » . وفى العقد : « فإنه إن أبطأ ساعة أفسد عمل سنة . فأدخله على وإن كنتُ فى لحافى » .

(٤) ورد المنادى بالصلاة فى كل من الكامل والعقد مقدما على الأربعة جميعها . وعبارة الكامل : « عزلتك عن هذا المنادى إذا دعا للصلاة فلا سبيل لك عليه » . وفى العقد : « هذا المنادى إلى الله فى الصلاة والفلاح لا تحجبه عنى فلا سلطان لك عليه » .

(٥) الخبر فى عيون الأخبار ١ : ٨٤ مع خلاف فى العبارة وهو أيضاً فى شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ١٧ : ٩٢ — ٩٣ مع جعل الخبر لأبرويز .

فإن لم يكن عيّ اللسان فغالبٌ   من البُخل يحمى مالَه عن طِلابه

فإن لم يكن هذا ولاذا فَرِيبةٌ   يصرّ عليها عند إغلاق بابه[١]

وأنشدنى بعض المحدثين فى ابن المدبِّر[٢] :

لولا مقـــــارفة الرِّيَبْ   ما كـنتَ ممّن يحتجبْ

أوْلا فعِيٌّ منـــــك أو   بُخـــــلٌ على أهل الطَّلَبْ

فاكشفْ لنـــا وجه الحجا   بِ ولا تُبالى مَن عَتَبْ

من ينبغي أن يُتّخذ للحجابة

قال المنصور للمهدىّ : لا ينبغى أن يكون الحاجب جَهولاً ، ولا غبيًّا ، ولا عييًّا ، ولا ذَهولاً ولا متشـاغلاً ، ولا خاملاً ولا محتَقَراً ، ولا جهماً ولا عَبوساً . فإنّه إن كان جهولاً أدخل على صاحبه الضَّررَ من حيث يقدِّر المنفعة ، وإن كان عَييًّا لم يؤدِّ إلى صاحبه ولم يؤدِّ عنه ، وإن كان غبيًّا جَهِل مكانَ الشريف فأحَلَّه غير منزلته ، وحطَّه عن مرتبته ، وقدَّم الوضيعَ عليه ، ١٤٨ و

(١) عند ابن أبى الحديد : « يكتمها مستورة بثيابه »

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن عبيد الله بن المدبر ، شاعر كاتب متقدم ، من وجوه كتاب أهل العراق ، وذوى الجاه والمتصرفين فى كبار الأعمال ، وكان المتوكل يقدمه ويؤثره ويفضله ، ووزر للمعتمد على الله ، ومات سنة ٢٧٩ وهو يتقلد للمعتضد ديوان الضياع ببغداد . معجم الأدباء ١ : ٢٢٦ — ٢٣٢ والأغانى ١٩ : ١١٤ — ١١٩ وتاريخ الطبرى ١١ : ٣٤١ . وفى نصوص معجم الأدباء ما يدل على أنه كان شديد الحجاب .

وجهل ما عليه وماله . وإن كان ذَهولاً متشاغلاً أخلَّ بما يحتاج إليه صاحبُه في وقته ، وأضاعَ حُقوقَ الغاشِينَ لبابه ، واستدعى الذّمَّ من الناس له ، وأذِن عليه لمن لا يحتاج إلى لقائه ولا ينتفع بمكانه . وإذا كان خاملاً محتَقراً أحلَّ الناسُ صاحبَه في محلّه وقضَوْا عليه به . وإذا كان جَهماً عبوساً تلقَّى كل طبقةٍ من الناس بالمكروه ، فترك أهلُ النصائح نصائحَهم ، وأخلَّ بذوي الحاجات في حوائجهم ، وقلّت الغاشيةُ لباب صاحبِه ، فِراراً من لقائه .

الهيثم بن عديّ عن مجالد عن الشَّعبيّ ، أن عبد الملك بن مروان قال لأخيه عبد العزيز بن مروان ، حينَ ولاَّه مصر :

إنّ الناس قد أكثروا عليك ، ولعلك لا تحفظ . فاحفظْ عنّي ثلاثا .

قال : قل يا أمير المؤمنين .

قال : انظر من تَجعلُ حاجبَك ، ولا تجعلْه إلاّ عاقلاً فَهِماً مُفْهِماً ، صدُوقاً لا يُورد عليك كذباً ، يُحسن الأداء إليك والأداء عنك . ومُرْهُ ألاَّ يقفَ ببابك أحدٌ من الأحرار إلاّ أخبرَك ، حتّى تكون أنت الآذِنَ له أو المانع ؛ فإنه إن لم يفعل كان هو الأميرَ وأنت الحاجب . وإذا خرجتَ إلى أصحابك فسلِّم عليهم يأنسوا بك . وإذا هممتَ بعقوبةٍ فتأنَّ فيها ؛ فإنّك على استدراكها قبل فوتها أقدرُ منك على انتزاعها بعد فوتها[1] .

وقال سهل بن هارون للفَضْل بن سَهْل :

إنّ الحاجبَ أحدُ وجهَي الملك ، يُعتَبَر عليه برأفته ، ويلحقُه ما كان في غلظته وفظاظته . فاتخذْ حاجبك سهلَ الطبيعة ، معروفاً بالرأفة ، مألوفاً منه

(١) في الأصل ومخطوطتي الطراز : « طولها » ، صوابه في مطبوع الطراز .

١٤٨ ظ

البرُّ والرَّحمة . وليـكن جميل الهيئة حسن البسْطة ، ذا قصدٍ فى نيَّته وصالح أفعاله . ومُره فليضع الناسَ على مراتبهم ، وليأذنْ لهم فى تفاضُل منازلهم ، وليُعط كلاًّ بقِسطه من وجهه ، ويستعطف[1] قلوب الجميع إليـه ، حتّى لا يغشى البابَ أحدٌ وهو يخاف أن يقصَّر به عن مرتبته ، ولا أن يُمنع فى مدخل أو مجلسٍ أو مَوضعِ إذنٍ شيئاً يستحقُّه ، ولا أن يمْنَع أحداً مرتبته[2] . وليضع كلاًّ عنـدك على منزلته . وتعهَّدْه فإن قصَّر مقصِّر قام بحسن خِلافته وتزيين أمره .

وقال كسرى أنوشِروان فى كتابه المسمى « شاهينى[3] » :

ينبغى أن يكون صاحبُ إذن الخاصّة رجلاً شريفَ البيت ، بعيد الهمّة ، بارعَ الـكرم ، متواضعاً طلقاً ، معتدلَ الجسم بهىَّ المنظر ، ليِّن الجانب ، ليس ببذِخ ولا بطرٍ ولا مرِح ، ليِّنَ الـكلام ، طالباً للذِّكر الحسن ، مشتاقاً إلى محادثة العلماء ومجالسةِ الصُّلحاء ، محبًّا لـكلِّ مازيِّن عمله ، معانداً للسُّعاة[4] ، مجانباً للـكذّابين ، صدوقاً إذا حدَّث ، وفيًّا إذا وعد ، متفهِّماً إذا خُوطِب ، مجيباً بالصواب إذا رُوجع[5] ، منصِفاً إذا عامل ، آنساً مؤنساً ، محبًّا للأخيار ، شديد الحنوّ على المملـكة ، أديباً له لطافةٌ فى الخدمة ، وذكاءٌ فى الفهم ، وبَسطةٌ فى النطق ، ورفقٌ فى المحاورة ، وعلمٌ بأقدار الرجال وأخطارها .

---

(١) فى مطبوع الطراز : « وليستعطف » .

(٢) فى الأصل : « ولا أن يمتنع ولا مرتبته » ، وأثبت ما فى الطراز .

(٣) فى الطراز : « شاهى » .

(٤) فى الأصل : « للسعادة » ، صوابه فى الطراز .

(٥) فى الأصل ومخطوطى الطراز : « راجع » ، وأثبت مافى الطراز المطبوع.

وقال فى حاجب العامّة :

ينبغى أن يكون حاجبُ العامّة رجلاً عبدَ الطّاعة ، دائم الحراسة للملك ، مَخُوف اليد ، خَشِنَ الـكلام[١] مروِّعا ، غير باطشٍ إلاّ بالحقّ ، لا أنيسًا ولا مأنوسًا ، دائم العُبوس ، شديداً على المُريب ، غير مستخفٍّ بخاصّة الملك ومَن يهوى ويقرِّبُ[٢] ، من بطانته .

محلُّ الحاجب وموضعه ممن يحجبه

قال عبد الملك لأخيه عبد العزيز ، حين وجَّهه إلى مصر :

اعرف حاجبَك ، وجليسَك ، وكاتبَك . فإنَّ الغـائب يُخْبِره عنك كاتبُك ، والمتوسِّم يعرفك بحاجِبِك ، والخارج من عِندك يعرفك بجليسك . ١٤٩ و

وقال يزيد بن المهلب لابنه مَخْلَد حين ولاّه جُرجان : استظرفْ كاتبكَ ، واستعقِلْ حاجبَك .

وقال الحجّاج : حاجب الرجل وجهُه ، وكاتبُه كلُّه .

وقال ابن أبى زُرعة : [قال[٣]] رجلٌ من أهل الشـام ، لأبى الخطاب الحسن بن محمد الطائى يعاتبه [فى حجابه[٣]] :

هذا أبو الخطاب بدرٌ طالعٌ من دون مَطلعه حجابٌ مظلمُ
ويقـال وجه المرء حاجبُـه كما بلسان كاتبـــه الفتى يتـكلَّم

---

(١) فى الطراز : « حسن الـكلام » .
(٢) فى الطراز : « ويقربه » .
(٣) التـكملة من الطراز .

أُدنيتُ من قبل اللِّقاء ، وبعده أُقصيت ، هل يَرضَى بذا من يفهمُ
وإذا رأيتُ من الكريم فظاظةً فإليه من أخلاقه أتظلَّمُ

وقال الفضل بن يحيى : إنَّ حاجب الرجل عاملُه على عِرضه ، وإنّه لا عِوَض لحرٍّ من نفسه ، ولا قيمة عنده لحرّيّته وقدره .

وأنشدنى ابن أبى كامل فى هذا المعنى :

واعلمَنْ إن كنتَ تجهلُه أنّ عِرض المرء حاجبُه[1]
فيهِ تبدو محاسنُه وبه تبدو معايبُه

من عوتب على حجابه أو هجى به

إسحاق الموصلىّ عن ابن كُنَاسة قال :

خُبِّرت أنّ هانئ بن قبيصة وفدَ على يزيدَ بنِ معاوية ، فاحتجب عنه أيامًا ، ثم إنّ يزيد ركب يومًا يتصيّد فتلقّاه هانئ فقال : يا يزيد ، إنّ الخليفة ليس بالمحتجب المتخلِّى ، ولا المتطرِّف المتنحِّى[2] ، ولا الذى ينزل على الغُدران والفلوات ، ويخلو للّذّات والشّهوات . وقد وَلِيتَ أمرَنا فأقمْ بين أظهُرنا ، وسهِّل إذْننا ، واعملْ بكتاب الله فينا . فإن كنت قد عَجَزتَ عمّا هنا

(١) نسب فى محاضرات الراغب مع رواية أخرى إلى يحيى بن المعلى . انظر المحاضرات ١ : ١٠١ . وهو بدون نسبة مع رواية : « إن كنت تعلمه » فى عيون الأخبار ١ : ٨٤ .

(٢) فى الطراز : « المختلى ، ولا المتطرف المتنحى » .

فارددْ علينا بَيعتَنا نُبايِعْ من يعملُ بذلك فينا ، ويُقيمه لنا . ثم عليك بخلواتك وصيدك وكِلابك .

قال : فغضب يزيد وقال : والله لولا أن أسُنَّ بالشام سُنَّة العراق لأقمتُ أوَدَك .

١٤٩ ظ ثم انصرف وما هاجه بشيء ، وأذِن له ، ولم تتغيّر منزلته عنده ، وترك كثيراً مما كان عليه .

المَوْصِليُّ[١] قال : كان سعيد بن سَلْم[٢] واليًا على أرمينية ، فورد عليه أبو دُهْمان الغَلَّابي[٣] ، فلم يصلْ إليه إلّا بعد حين ، فلما وصل قال – وقد مَثَل بين السِّماطين – :

والله إنّي لأعرف أقوامًا لو علموا أنَّ سَفَّ التُّراب يُقيم من أود أصلابهم لجعلوه مُسكةً لأرماقِهم ، إيثاراً للتنزُّه[٤] عن العيش الرقيق الحواشِي . والله

(١) هو إسحاق بن إبراهيم الموصلي ، كان راوية للشعر حافظاً للأخبار ، ولد فى سنة ولادة الجاحظ سنة ١٥٠ وتوفى ٢٣٥ . وفيات الأعيان ١ : ٦٥ ومعجم الأدباء ٦ : ٥ – ٥٨ .

(٢) هو سعيد بن سلم بن قتيبة الباهلى ، قدم بغداد وحدث بها وروى عنه ابن الأعرابى ، وكان عالماً بالحديث والعربية . تاريخ بغداد ٤٦٥٧ .

(٣) أبو دُهمان : شاعر من شعراء البصرة ، أدرك دولتى بنى أمية وبنى هاشم ، ومدح المهدى ، وكان طيباً ظريفاً مليح النادرة . الأغانى ١٩ : ١٥١ . ودهمان بضم الدال . والغلابى بتشديد اللام ، كما فى الأنساب للسمعانى . والخبر فى البيان ٢ : ٢٠٠ ٢٠١ والمتكلم فيه هو سعيد بن سلم نفسه ، قال : « كنت واليًا على أرمينية ، فغبر أبو دهمان على بابى أياماً ، فلما وصل إلىّ مثل بين يدى قائماً بين السماطين وقال : » .

(٤) التنزه : الابتعاد .

إنى لبعيدُ الوَثبة ، بطيء العَطفة[1] إنّه والله ما يثنيتى عليك إلّا مثلُ ما يَصرفنى عنك ، ولأن أكونَ مملقاً[2] مقرّباً أحبُّ إلىّ من أن أكون مكثراً مبعَدا . والله ما نسأل عملا لا نضبطه ولا مالًا إلّا ونحن أكثر منه ، وإنَّ الذى صار فى يدك قد كان فى يدِ غيرك[3] ، فأمسَوْا والله حديثا ، إنْ خيراً فخيراً ، وإن شرّاً فشرّا[4] . فتحبّب إلى عبادِ الله بحُسن البِشر ، ولِين الحجاب[5] ؛ فإنّ حبَّ عباد الله موصولٌ بحبّ الله ، وهم شهداء اللهِ على خلقه ، وأمناؤه على من اعوجَّ عن سبيله[6] .

إسحاق بن إبراهيم المَوْصلى[7] قال :

استبطأنى جعفر بن يحيى ، وشكا ذلك إلى أبى ، فدخلت عليه ـ وكان شديد الحِجاب ـ فاعتذرت إليه وأعلمتُه أنّى أتيته مراراً للسّلام فحجبنى نافذٌ غلامُه .

---

(١) العطفة : الرجعة

(٢) فى البيان والعقد ١ : ٧٢ : « مقلا » .

(٣) فى البيان : « وهذا الأمر الذى صار إليك وفى يديك قد كان فى يدى غيرك » .

(٤) كذا فى الأصل ومخطوطتى الطراز ، وهو أحد أوجه أربعة جائزة فى العدية . وفى مطبوع الطراز والبيان : « إن خيراً فخير وإن شراً فشر » وهو الوجه الثانى . ويقال أيضاً برفع الكلمتين ، وبرفع الأولى ونصب الثانية .

(٥) وكذا فى الطراز . وفى البيان : « ولين الجانب » .

(٦) فى البيان : « ورقباؤه على من عاج عن سبيله » ، وفى العقد : « على من اعوج عن سبيله » .

(٧) سبقت ترجمته ص ٤٢ .

فقال لى وهو مازحٌ : متى حجبَك فنِكْه . فأتيته بعد ذلك للسلام فحجبنى ، فكتبتُ إليه رقعةً فيها :

جُعِلتُ فداءكَ من كلِّ سُوءٍ   إلى حُسْنِ رأيك أشكو أناسا
يَحُولون بينى وبين السَّلامِ   فما إن أسلِّمُ إلّا اختلاسا
وأنفذت رأيك فى نافذٍ   فما زاده ذاك إلّا شِماسا

وسألتُ نافذاً أن يوصِّلها ففعَل ، فلما قرأها ضحك حتى فحص برجليه وقال: لا تحجبْه أىَّ وقتٍ جاء . فصرتُ لا أُحجَب .

وحُجِب أحمد بن أبى طاهر بباب بعض الكتّاب فكتب إليه :

ليس لحرٍّ من نفسه عِوَض ، ولا من قَدرِه خطر ، ولا لبذل حُرّيّته ثمن . وكلُّ ممنوع فمستغنًى عنه بغيره ، وكلُّ مانعٍ ما عنده ففى الأرض عِوَضٌ منه ، ومندوحةٌ عنه . وقد قيل : أرخصُ ما يكون الشىء عند غلائه .

وقال بشار : ١٥٠ و

* والدُّرُّ يُتركُ من غلائه[1] *

ونحن نعوذ بالله من المطامع الدنيَّة ، والهمَّة القصيرة ، ومن ابتذال الحرّية ، فإنّ نفسى واللهِ أبيّةٌ ، ما سقطَتْ وراء همَّة ، ولا خذلَها ناصرٌ عند نازلة ، ولا استرقَّها طمع ، ولا طُبِعت على طبع . وقد رأيتك ولِّيتَ عرضَك

---

(١) صدره فى المختار من شعر بشار ص ٦٤ :

* وغلا عليك طلابه *

ومثله قول محمود الوراق فى نهاية الأرب ٣ : ٨٨ :

وإذا غلا شىء على تركته   فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

من لا يَصُونه ، ووكَّلتَ ببابك من يَشينُه ، وجعلت تَرْجُمانَ كرمك من يُكثِّر من أعدائك ، وينقُص من أوليائك ، ويسيء العبارةَ عن معروفك ، ويوجِّه وفودَ الذمّ إليك ، ويُضغِن قلوبَ إخوانك عليه ؛ إذْ كان لا يَعرف لشريفٍ قدرا ، ولا لصديقٍ منزلة ، ويُزيل المراتب عن جهاتها ودرجاتها ، فيحُطُّ العَليّ إلى مرتبة الوضيع ، ويرفع الدنيَّ إلى مرتبة الرفيع ، ويقبل الرُّشَى ، ويقدِّم على الهوَى . وذلك إليك منسوبٌ ، وبرأسك معصوب ، يَلزَمك ذنبُه ، ويحلُّ عليك تقصيره .

* * *

وقد أنشدنى أبو علىٍّ البصير[1] :

كم مِن فتًى تحمد أخلاقه ... وتسكن الأحرارُ فى ذمّته[2]

قد كثَّر الحاجبُ أعداءه ... وأحقدَ الناس على نعمته[3]

---

(١) هو أبو على الفضل بن جعفر بن الفضل بن يونس النخعى ، المعروف بالبصير ، لقب بذلك تفاؤلا ، أو لأنه كان يقوم من المجلس ويعود ولم يؤخذ بيده ، يفعل فعل البصير : كان من أهل الكوفة وسكن بغداد ، ومدح المتوكل وبقى إلى أيام المعتز ، وكان يتشيع تشيعاً فيه بعض الغلو . نكت الهميان ٢٢٥ — ٢٢٦ . وقال ابن المعتز فى ترجمته فى الطبقات ٣٩٨ : « وكان أبو على كاتباً رسالياً ليس له فى زمانه ثان ، شاعراً جيد الشعر ، وقد قلنا فى أخبار العتابى : إن هذا قلما يتفق للرجل الواحد ، لأن الشعر الذى للكتاب ضعيف جداً ، وكتابة الشعراء ضعيفة جداً ، فإذا اجتمعا فى الواحد فهو المنقطع القرين » .

(٢) البيتان فى عيون الأخبار ١ : ٨٥ بدون نسبة .

(٣) فى عيون الأخبار : « وسلط الذم على نعمته » .

وأُنشِدت لبعضهم :

يدلّ على سَروِ الفتى واحتماله
إذا كان سهلًا دونه إذنُ حاجبه
وقد قيل ما البوّابُ إلا كربّه
إذا كان سهلًا كان سهلًا كصاحبه

وقال الطائى[1] :

حَشَم الصَّديق عيونهم بحّاثةٌ لصديقه عن صِدقه ونفاقه
فليُنظَرنّ المرء من غِلمانه فهمُ خلائقه على أخلاقه[2]

وقال آخر :

اعرف مكانك من أخيك ومن صديقك بالحشَمْ

وقال ابن أبى عُيَينة :

إنّ وجه الغلام يخبر عمّا فى ضمير المولى من الكتمانِ
فإذا ما جهلتَ ودَّ صديقٍ فامتحِنْ ما أردتَ بالغلمانِ

١٥٠ ظ

وقال آخر :

ومخنة الزائرين بيّنة تُعرف قبل اللقاء بالحشَمِ

وأنشدنى عبد الله بن أحمد المِهْزَمىّ[3] فى علىّ بن الجهم :

أَعَلَىَّ دونك يا علىُّ حجابُ يُدنَى البعيدُ وتحجب الأصحابُ

---

(١) أبو تمام . ديوانه ٤٠٥ .

(٢) فى الأصل : « فهم خلائقه » ، وأثبت ما فى الطراز وفى ديوان أبى تمام : « فهم دلائله » .

(٣) فى الطراز : « المهر » تحريف . وهو عبد الله بن أحمد بن حرب ، =

هذا بإذنك أَمْ برأيك أم رأى هذا عليك العبـــدُ والبوّابُ
إنَّ الشريفَ إذا أمورُ عبيدهِ غَلبَتْ عليــه فأمره مُرتابُ

وأخذَه من قول الطائىّ :

أبا جعفرٍ وأصـــولُ الفتى تدلُّ عليـــــه بأغصانه
أليس عجيبــاً بأنّ امــرأً رجاك لحـــادثِ أزمانه
فتـــأمر أنت بإعطائه ويأمر فَتْحٌ بحـــرمانه
ولستُ أحبُّ الشريف الظريفَ يكون غـلاماً لغلمـــانه

وحُجب ابن أبى طاهرٍ بباب بعض الكتاب ، فكتب إليه :

« إنه من لم يرفعه الإذْن لم يضعْه الحجاب ، وأنا أرفعك عن هذه المنزلة ، وأربأ بعدوِّك عن هذه الخليقة ، وما أحد أقامَ فى منزلهِ ـ عظُم أو صغُر قدره ـ إلاّ ولو حاول حجابَ الخليفة عنه لأمكنه . فتأمّلْ هذه الحالَ[1] وانظُرْ إليها بعَين النَّصَفة ، ترَها فى أقبح صورة ، وأدنا[2] منزلة . وقد قلت :

إذا كنتَ تأتى المرءَ تُعْظِم حقَّه ويَجهل منك الحقَّ فالهجرُ أوسعُ
ففى الناس أبدالٌ وفى العزِّ راحةٌ وفى اليأس عمّن لا يواتيك مَقنَع[3]
وإنّ امرأً يرضَى الهوانَ لنفسه حرِىٌّ بجدع الأنف والجدعُ أشنَعُ

= المعروف بأبى هفان المهزمى ، وكان له محل كبير فى الأدب ، وحدث عن الأصمعى . تاريخ بغداد ٩ : ٣٧٠ .

(١) فى طراز المجالس : « الحالة » . والحال تذكر وتؤنث .

(٢) فى الأصل وطراز المجالس والعقد ١ : ٧٦ : « وأدنى » .

(٣) فى الأصل والطراز « مطمع » ، وأثبت مافى العقد .

فدعْ عنك أفعالاً يَشينك فِعلُها وسهِّل حجاباً إذنُه ليس ينفعُ

١٥١ و وحدّثني عبد الله بن أبي مروانَ الفارسيّ قال :

ركبت مع ثُمامة بن أشرسَ إلى أبي عبّادٍ الكاتب ، في حوائج كتب إليَّ فيها أهلُ إرمينيّة من المعتزلة والشيعة ، فأتيناه فأعظمَ ثُمامةَ وأقعده في صدر المجلس وجلس قُبالتَه ، وعنده جماعةٌ من الوجوه ، فتحدّثْنا ساعة ثم كلّمة ثمامةُ في حاجتي ، وأخرجتُ كُتبَ القوم فقرأها ، وقد كانوا كتبوا إلى أبي عبّادٍ كتبا ، وكانوا أصدقاءه أيّام كونه بإرمينية ، فقال لي : بكِّرْ إليّ غداً حتّى أكتبَ جواباتِها إنْ شاء الله . فقلت : جعَلني الله فداكَ ، تأمر الحاجبَ إذا جئتُ أن يأذنَ لي . فغضِب من قولي واستشاط وقال : متى حُجِبت أنا ، أَوَلِي حاجبٌ[1] ، أو لأحد عليَّ حجاب ! .

قال عبد الله : وقد كنت أتيتُه فحجبني بعضُ غِلمانه ، فحلَف بالأيمان المغلَّظة أن يقلعَ عينَيْ مَن حجَبني ، ثم قال : يا غلامُ ، لا يبقَ في الدار غلامٌ ولا منقطعٌ إلينا[2] إلاّ أحضرتُمونيه الساعة ! قال : فأتى بغلمانِه وهم نحوٌ من ثلثمائة ، فقال : أشِرْ إلى مَن شئتَ فيهم . فغمزني ثمامة فقلت : جُعِلتُ فداكَ لا أعرفُ الغلامَ بعينه . فقال : ما كان لي حاجبٌ قطُّ ، ولا احتجبت ، وذلك لأنّه سَبق منّي قول ، لأنّي كنت وأنا بالريّ وقد مات أبي وخلّف لي بهـا ضِياعاً فاحتجت إلى ملاقاة الرجال والسّلطان فيما كان لنا ، فكنت أنظر إلى الناس يَدخُلون ويَصِلون وأُحجَبُ أنا وأُقصَى ، فتقاصر إليّ نفسي ،

(١) في الأصل : « ولي حاجب » ، صوابه من الطراز .

(٢) في مطبوع الطراز : « لا تبق في الدار غلاما ولا منقطعاً إلينا » .

ويضيق صدرى ، فآليتُ على نفسى إن صرتُ إلى أمرٍ من السُّلطان ألاَّ أحتجبَ أبداً .

وحدّثنى الزُّبير بن بكّار قال :

استأذن نافعُ بن جُبير بن مُطعِم[١] على معاوية ، فمنعه الحاجبُ فدقَّ أنفه ، فغضب معاوية وكان جُبَيرٌ عندَه ، فقال معاوية : يا نافع ، أتفعلُ هذا بحاجبي ؟ قال : وما يمنعنى منه وقد أساء أدبه وأسأتَ اختياره ؟ ! ثم أنا بالمكان الذى أنا به منك . فقال جُبَير : فَضَّ الله فاك ، ألاّ تقول : وأنا بالمكان الذى أنا به من عبد مناف ؟ ! قال : فتبسَّم معاوية وأعرضَ عنه . ١٥١ ظ

قال : وفَد رجلٌ من الأكاسرة على بعضِ ملوكهم ، فأقام ببابه حَولاً لا يصلُ إليه ، فكلَّم الحاجبَ فأوصل له رقعةً فيها أربعة أسطر :

السطر الأول فيه : الأمل والضرورة أقدَماني إليك .

وفى الثانى : ليس على العَديم[٢] صبرٌ على المطالبة .

وفى الثالث : الرجوع بلا فائدةٍ شماتةُ العدوِّ والقريب .

وفى الرابع : إمّا « نَعَمْ » مُثمِرة ، وإمّا « لا » مؤيسة ، ولا معنَى للحجاب بينهما .

---

(١) هو أبو عبد الله نافع بن جبير بن مطعم بن عدى النوفلى ، مدنى تابعى ثقة ، كان يحج ماشياً وناقته تقاد ، وكان فصيحاً عظيم النخوة جهير الكلام . توفى سنة ٩٩ تهذيب التهذيب ، وجمهرة أنساب العرب ١١٦ . وكان لجبير أبيه صحبة . الإصابة ١٠٨٧ وجمهرة أنساب العرب .

(٢) فى الأصل وإحدى مخطوطتى الطراز : « على العدم » ، ووجهه من المخطوطة الأخرى . والعديم : الفقير الذى لا يملك شيئاً . وفى مطبوعة الطراز : « للعدم » .

فوقَّع تحت كل سطرٍ منها : « زِهْ[1] » .

وأنشد الوليد بن عُبَيد البحترىّ[2] فى ابن المدبِّر[3] يهجو غلامه بشراً :

وكم جئتُ مشتاقاً على بُعد غايةٍ إلى غير مشتاقٍ وكم ردَّنى بشرُ[4]

وما بالُه يأبَى دخولى وقد رأى خروجىَ من أبوابه ويدى صِفرُ

وأُنشِدت لبعضهم :

لعمرى لئن حجبتنى العبيدُ ببابك ما يَحجبــوا القافيــهْ

سأرمى بهــا من وراء الحجاب جـــزاء قروضٍ لــكم وافيه

تُصِمُّ السَّــميعَ وتُعمى البصــير ويُسأل من أجلهــــا العافيه

وأنشدنى أحمد بن أبى فَنَن[5] ، فى محمد بن حمدون بن إسماعيل :

ولقد رأيتُ بباب دارِك جفوةً فيهـا لحسن صنيعـــةٍ تــكديرُ

---

(١) زِه : كلمة فارسية تقال عند الاستحسان .

(٢) هو أبو عبادة البحترى الشاعر المشهور . ولد سنة ٢٠٦ وتوفى سنة ٢٨٤ .

(٣) إبراهيم بن المدبر ، مضت ترجمته فى ص ٣٧ .

(٤) فى ديوان البحترى ٧ :

فلم جئت طوع الشوق من بعد غايتى إلى غير مشتاق ولم ردنى بشر

وفى محاضرات الراغب ١ : ١٠٢ بدون نسبة :

ولم جئت مشتاقا على بعد شقة إلى غير مشتاق ولم ردنى بشر

(٥) هو أبو عبد الله أحمد بن صالح — وكنية صالح أبو فنن — شاعر مفلق مطبوع ، أكثر المدح للفتح بن خاقان ، وكان أسود اللون ، وهو القائل :

لئن حسبت سواد الليل غيرنى فإن قلبى فى حسَنى أبى دلف

طبقات الشعراء لابن المعتز ٣٩٦ — ٣٩٧ وتاريخ بغداد ٤ : ٢٠٢ — ٢٠٣ وفوات الوفيات .

ما بال دارك حين تُدخَل جنّةً ... وبباب دارك منكرٍ ونكيرُ

وأنشدنى أبو على الدِّرهمى اليمامىُّ فى أبى الحسن على بن يحيى :

لا يُشبه الرجلَ الكريمَ نجارُه ... ذا اللُّبِّ غيرُ بشاشة الحجّابِ

وبباب دارك مَن إذا حيَّيتَهُ ... جَعل التبرُّمَ والعُبوسَ ثوابى

أوصيتَه بالإذن لى فكأنّما ... أوصيتَه متعمِّدًا لحجابى

وأنشدنى أبو على البصير فى أبى الحسن على بن يحيى :

فى كلِّ يوم لى ببابك وقفةٌ ... أطوى إليها سائر الأبوابِ

فإذا حضرتُ وغبتُ عنك فإنّه ... ذنبٌ عقوبتُه على البوّابِ

١٥٢

وأنشدنى أبو على اليمامى ، وعاتب بعض أهل العسكر فى حاجِبِه[1] ، فلم يأذنْ له الحاجب بعد ذلك ، فكتب إليه :

صار العتابُ يزيدنى بُعدًا ... ويَزيد مَن عاتبتُه صدّا

وإذا شكوت إليه حاجِبَه ... أغْراه ذاك فزادنى ردّا[2]

وأنشدنى العجيني[3] فى بعض أهل العسكر ، يعاتبه فى حِجابه ويهجو حاجِبَه :

إنّما يحسُن المديح إذا ما ... أنشد المادح الفتى الممدوحا

وأرانى بباب دارك عُمِّر ... تُ طويلا مُقصًى مُهاناً طريحا

---

(١) فى الأصل : « حاجته » ، والوجه ما أثبت من مخطوطتى الطراز .

(٢) فى الأصل : « أعداه ذاك » ، صوابه من الطراز .

(٣) فى مطبوع طراز المجالس : « العجيبى » بالباء ، وفى إحدى المخطوطتين : « العمى » وفى الأخرى : « العجنى » .

إنّ بالباب حاجبًا لك أمسَى مُنْكِرٌ عنده ظريفاً مليحا[١]
ما سألناه عنك قطُّ وإلّا ردّ من بُغضه مَرَدًّا قبيحا

وأُنشِدت لبعضهم فى هجاء حاجب :

سأتركُ باباً أنت تملك إذنَه ولو كنتُ أعمى عن جميع المسالكِ
فلو كنتَ بوّابَ الجنانِ تركتُها وحوّلت رَحْلى مسرعًا نحو مالكِ[٢]

وكتب بعض الكتّاب إلى الحسن بن وهبٍ ، فى بوّابِه :

قد كنت أحسب أنّ طرفَك مَلَّنى
ورُميتُ منكَ بجفوةٍ وعذابِ
فإذا هواكَ على الذى قد كان لى
وإذا بليّتُنا من البوّابِ
فاعلم ــ جعلتُ فداكَ ــ غيرَ معلِّمٍ
أنّ الأديب مؤدَّبُ الحجّابِ

وقال رَزِينٌ العَروضىّ[٣] لجعفر بن محمد بن الأشعث[٤] :

(١) منكر هذا : أحد الملكين : منكر ونكير .

(٢) مالك : خازن جهنم . وفى الأصل والطراز وعيون الأخبار ١ : ٨٥ والمحاسن والمساوى ١ : ١٢٦: « رجلى » بالجيم ، تحريف . وحول رحله : حاد عن طريقه ، ومنه قوله ــ انظر دلائل الإعجاز ص ٢٣ :

يأيها الرجل المحول رحله هلا سألت عنَ آل عبد منافِ

وفى محاضرات الراغب ١ : ١٠٢ : « وعميت عنها مسرعاً » .

(٣) رزين العروضى ، وكنيته أبو زهير ، ذكره الجاحظ فى الحيوان ٧ : ٢١٧ وقال : « لم أر قط أطيب منه احتجاجاً ولا أطيب عبارة » .

(٤) فى الحيوان : « يهجو ولد عقبة بن جعفر » .

إن كنت تحجبنى للذنب مزدهيًا فقد لعمرى أبوكم كلّم الذيبا
فكيف لو كلّم الليثَ الهَصُورَ إذاً تركتم الناسَ مأكولًا ومشروبا
هذا السُّنيدىُّ ماساوى إتاوتَه يكلّم الفيل تصعيداً وتصويبا
اذهَبْ إليك فما آسى عليك وما ألقى ببابك طَلَّاباً ومطلوبا

١٥٢ ظ

المدائنى قال : كان يزيد بن عمر الأسيّدىّ[1] على شرطة البصرة ، فأتاه الفرزدق فى جماعةٍ فوقفَ ببابه ، فأبطأ عليه إذنه ، فقال ـ وكان [ابن[2]] عُمر يلقّب الوَقّاحَ ـ :

ألم يكُ من نَكْس الزّمان على استه
وقوفى على باب الوَقاح أُسائلُه[3]
فإن تك شُرْطيًّا فإنى لِغالب
إذا نزلت أركانَ فَخٍّ منازلُه[4]

وقال أبو علىّ البصير[5] ، وحجَبَه محمد بن غسّان ، بعد أُنسٍ كانَ بينهما :

قد أُتينا للوعدِ صَدرَ النّهارِ فدُفِعْنا من دون بابِ الدارِ

---

(١) فى ديوان الفرزدق ٦٧١ : « يزيد بن عمير الأسيدى » .
(٢) تكملة ليست فى الأصل ولا فى الطراز ، وفى حواشى ديوان الفرزدق ، لابن حبيب : « كان يزيد يلقب الوقاح » .
(٣) فى الديوان : « أزاوله » .
(٤) لغالب ، أى ينتمى إلى أبيه غالب ويعتز به . وفى الديوان : « فإنى ابن غالب إذا جمعت أركان فج » . وفج تحريف ، وإنما هى : «فخ» كما فى الأصل والطراز . وفخ ، بالخاء : واد بمكة .
(٥) سبقت ترجمته فى ص ٤٥ .

وسمِعنا ، من غيرِ قصدٍ لأن نسـ مع َ، صوتَ الغناء والأوتارِ[١]
فأحطْنَا بكل ما غاب من شأ نكَ عنَّا خُـبْرًا بلا استخبارِ
فإذا أنتَ قد وَصلتَ صَبوحًا بغَبوقٍ ودُلجـــةً بابتكارِ
وإذا نحن لا تخاطبنـــا الغلـ مانُ إلّا بالجَحْـــد والإنكارِ
فانصرفنا وطالما قد تَلقَّـــو نا بأُنسٍ منهـــمْ وباستبشارِ
ذاكَ إذ كان مرّةً لك فينـــا وطرٌ فانقضى من الأوطارِ[٢]
حين كُنَّا المقدَّمين على النـــا سِ وكنّا الشِّعارَ دونَ الدِّثارِ
كم تأنّيتُ وانتظـــرت فأفنيـ تُ تأنِّيَّ كلَّه وانتظـــارى
فعليك السلام كُنّا من الأهـ لِ فصِرنا كسائر الزُّوّارِ[٣]

وله إليه أيضاً :

قد أطَلْنا بالباب أمسِ القُعودا وجُفِينا به جفاءً شـــديدا
وذممنـــا العبيدَ حتى إذا نحـ نُ بلَونا المولَى عَذَرنا العبيدا[٤]
وعلى موعدٍ أتيناك معـــلو مٍ وأمرٍ مُؤكَّد تأكيـــدا
١٥٣ و فأقمْنا لا الإذنُ جاء ولا جا ءَ رسولٌ قال انصرفْ مطرودا
وصـبَرنا حتّى رأينـا قُبيلَ الـ ظُّهـر بِرذونَ بعضِهِم مردودا

---

(١) هذا البيت ساقط من طراز المجالس .
(٢) فى الأصل وإحدى مخطوطتى الطراز: «وطرا» ،صوابه من مطبوع الطراز. وفى المخطوطة الأخرى : « وترا نقضى من الأوطار » .
(٣) فى الطراز : « من جملة الزوار » .
(٤) هذا البيت وسابقه بدون نسبة فى عيون الأخبار ١ : ٨٧ .

واستقرَّ السكانُ بالقـوم والقلـ ـمانُ فى ذاك يمنحونا صـدودا
ويُشيرون بالمضىّ فلمّـا أُحرجوا جرّدوا لنا تجريدا
فانصرفنا فى ساعةٍ لو طرحت الـ ـلَّحمَ فيها نِيًّا كُفيتَ الوَقودا
فلعمرى لو كنت تعتدّ لى ذنـ ـبًا عظيما وكنتَ فظًّا حقـودا
وطَلبتَ المزيدَ لى فى عـذابٍ فوقَ هـذا لَمَا وجدتَ مزيدا
كان ظنِّى بك الجميـلَ فألفيـ ـتُكَ من كلِّ ماظننتُ بعيدا
فعليك السـلامُ تسليمَ من لا يَضمن الدهرَ بعدها أن يعودا

وله فى أحمد بن داود السِّيبى[1] وقصد إليه بكتاب إسحاق بن سعدٍ الكاتب :

يا ابن سـعدٍ إن العقوبة لا تلـ ـزَم إلّا من ناله الإعـذارُ
وابن داود مستخفٌّ وقـد وا فَته مشحوذةٌ عليـه الشِّفارُ
فاهـدِهِ للتى يكون له منـ ـها مَفرٌّ مادامَ يُنجِى الفِرارُ
سامَنى أحمـد بن داود أمراً ما على مثـله لدَىَّ اصطبارُ
لى إليـه فى كلِّ يومٍ جـديدٍ رَوحةٌ ماأُغِبُّهـا وابتكارُ
ووقوفٌ ببابه أُمنَـع الإذ نَ عليـه ويَدخل الزُّوَّارُ
خُطّةٌ مَن يُقم عليها من النا سِ ففيها ذُلٌّ له وصَغارُ
لو ينـال الغنى لمـا كان فى ذ لِكَ حظٌّ ينـاله مختارُ

---

(١) نسبة إلى السيب ، بكسر أوله ، وهو كورة من سواد الكوفة. وفى مطبوع الطراز : « البستى ».

عزبَ الرأىُ فىّ عنه وعزّتْـ ـهُ أناةٌ طويلةٌ وانتظارُ

وحُجِب بباب بعض الكُتّاب فكتب إليه :

أقمتُ ببابك فى جفوةٍ يلوِّن لى قولَه الحاجبُ

فيطمعنى تارةً فى الوصول وربَّتَما قال لى : راكبُ

١٥٣ ظ

فأعلم عند اختلاف الكلامِ وتخليطِه أنّه كاذبُ

وأعزمُ عزماً فيأبى عَلَىّ إمضاءهُ رأيىَ الثاقبُ

وإنّى أراقب حتى يثو بَ للحرّ من رأيه ثائبُ

فإن تعتذرْ تُلفِنى عاذراً صَفوحاً وذاكَ هو الواجبُ

وإلا فإنى إذا ما الحبا لُ رَثّتْ قُواها ، لها قاضبُ

وقال لعلىّ بن يعقوبَ الكاتبِ وحُجِب ببابه :

قد أتيناكَ للسّلام فصادفْـ ـنا على غير ما عَهِدنا الغلاما

وسألناه عنك فاعتلّ بالنّو مِ وما كان مُنكَراً أن تناما

غير أنّ الجواب كان جواباً سيِّئاً يُعقِب الصّديقَ احتشاما

فانصرفنا نوجِّه العُذرَ إلاّ أنَّ فى مضمَر القلوب اضطراما

يا ابنَ يعقوب لا يلومنّ إلاّ نفسَه بعدَ هذه مَن ألاما

وقال لعلى بن يحيي المنجِّم[1] ، وحجبَه غلامُه :

---

(١) هو أبو الحسن على بن يحيي بن أبى منصور المنجم ، فارسى الأصل ، وأسلم أبوه يحيي على يد المأمون . وأبو الحسن أديب شاعر مفتن فى علوم العرب والعجم ، وكان جواداً ممدحاً ، نادم المتوكل وعلت منزلته عنده ، ثم لم يزل مع الخلفاء يكرمونه واحداً واحداً إلى أيام المعتمد . ومات سنة ٢٧٥ . معجم المرزبانى ٢٨٦ — ٢٨٧ .

ليس يرضى الحرُّ الكريم ولو أوْ طعتَه الأرضَ أن يذلَّ لعبدِ
فعليك السلامُ إلاَّ على الطُّرْ قِ وحيٍّ كما علمتَ وودِّى[١]

وقال أبو هِفّان[٢] لعلى بن يحيى ، يعاتبه فى حجابه :

أبا حسنٍ وفِّنا حقَّنا بحقٍّ مكارمك الوافيه
أأُحجَب دونك شرَّ الحجاب ويدخل دونى بنو العافيه[٣]
أعوذُ بفضلك من أن أُساءَ وأسألُ ربِّى لك العافيه
فإنى امرؤٌ تتَّقينى الملوكُ وتدخل فى حَلَق الضَّافيه[٤]
كتبت على نفسِ من رامَنى ببعض الأذى للرَّدى صافيه

وأُنشِدت لبرقوق الأخطل[٥] وحُجب بباب بعض الكُتّاب :

قد حُجِبنا وكان خطباً جليلا وقليلُ الجفاءِ ليس قليلا
لم أكن قبلها ثقيلا وهل يثْ قُلُ من خاف أن يكون ثقيلا ١٥٤ و
غير أنى أظنُّ لازال ذاك الـ ظَّنُّ ينقاد أن يكون ملولا

---

(١) الطرق ، كذا وردت فى الأصل والطراز .

(٢) هو عبد الله بن أحمد المهزمى ، المترجم فى ص ٤٦ .

(٣) العافية . طلاب الرزق ، واحدهم عاف . عفاه يعفوه : أتاه لطلب معروفه .

(٤) أى فى دروعى السابغات . وفى الأصل : « خلق الصافية » . وفى مطبوع الطراز : «فى حلق الصافية » ، وفى إحدى مخطوطتى الطراز : «حلق الصافية » وسقط البيت من المخطوطة الأخرى .

(٥) كذا . وفى طبقات الشعراء لابن المعتز ٤٢١ أن اسمه الأخيطل ، ويعرف ببرقوقا . وهو صاحب الشعر العجيب فى تشبيه المصلوب :

كأنه عاشق قد مد بسطته يوم الفراق إلى توديع مرتحل
أو قائم من نعاس فيه لوثته مواصل لتمطيه من الكسل

وأخذه من قول الآخر :

لمَّا تحاجبتَ وقد خِفت أن تَدنوَ من ودِّك بالمقبلِ

أقللتُ إتيانكمُ إنَّه من خافَ أن يُثقِلَ لم يثقُلِ[1]

وأنشدنى أبو عبد الرحمن العَطَوى[2] :

لأبى بكرٍ خليلى حُسنُ رأيٍ فى الحجابِ

يا أبا بكر سقاك الله من صَوب السَّحاب

لن ترانى بعدها من بَعدِها قارعَ بابِ

إن يَنُبْ خَطْبٌ ففى الرُّسْلِ بلاغٌ والكتابِ

ولخالدٍ الكاتب فى جعفر بن محمود :

احتجبَ الكاتبُ فى دهرنا وكان لا يحتجب الكاتبُ

القوم يَخلُونَ لحجّابهمْ فيُنكحُ المحجوب والحاجبُ

ولأبى سَعْدٍ المخزومى[3] فى الحسن بن سهل :

ترهَّبَ بَعدكَ الحسنُ بن سهلٍ فأَغلَقَ بابَه دون المديحِ

---

(١) فى مطبوع الطراز : « أقللت من إتيانكم » .

(٢) منسوب إلى جده عطية ، وهو أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن ابن عطية العطوى . شاعر من أهل البصرة ، وكان يعد فى متكلمى المعتزلة ، ويذهب مذهب الحسين النجار فى خلق الأفعال . قدم بغداد أيام أحمد بن أبى دواد واتصل به . وقد اختار له المبرد من شعره . تاريخ بغداد ٣ : ١٢٧ وأنساب السمعانى ٣٩٤ .

(٣) أبو سعد المخزومى ممن عرف بكنيته ، واسمه عيسى بن الوليد . وهو شاعر مقل من شعراء الدولة العباسية ، عاصر دعبلا وعبد الله بن أبى الشيص . وفيه يقول ابن أبى الشيص : =

كذبتُ له ولم أكذبْ عليه كما كذبَ النَّصارى للمسيحِ

وأنشدنى البَلاذُرىّ فى بعض كتاب أهل العسكر :

أيحجُبنى من ليس من دون عرسه حِجابٌ ولا من دون وَجْعائه سِترُ[(١)]
ومَن لو أماتَ اللهُ أهونَ خلقه عليـــــه لأضحى قد تضمَّنَه قبرُ .

وأنشدَنى حبيبُ بن أوسٍ ، فى موسى بن إبراهيم ، أبى المغيث :

أمُوَيسُ لا يُغنِى اعتذارُكَ طالباً وُدِّى فما بعد الهجاء عتابُ[(٢)]
هَبْ مَن له شىءٌ يريد حجابَه ما بالُ لاشىءٍ عليــه حجابُ ١٥٤ ظ
ما إن سمعتُ ولا أُرانى سامعاً يوماً بصحراء عليها بابُ[(٣)]
من كان مفقودَ الحياء فوجهُهُ من غــير بوّابٍ له بوّابُ

ولآخر :

بَخِلَ الأمــــيرُ بإذنه فجلستُ فى بيتى أمــيرا
وتركت إمــرتَهُ له والله محمــودٌ كثــيراً

= أبا سعد بحــق الخمـــ س والمفروض من صومك
أقلت الحـــق فى النسبـــ ة أم تحــلُم فى نومك

الأغانى ١٨ : ٥٠ — ٥٤ .

(١) الوجعاء : الدبر .

(٢) مويس : تصغير ترخيم لموسى . وفى ديوان أبى تمام ٤٨٨ :

أمويس لا تغن اعتذارك طالبا عفوى فما بعد العقاب عتاب

(٣) فى ديوان أبى تمام : « أبدا بصحراء » .

وأنشدنى الزُّبير بن بكّارٍ لبعض الشعراء[١] :

سأترك هذا البابَ ما دام إذنُه علَى ما أرى حتّى يَلين قليــلا[٢]

إذا لم نجد للإذن عنــدك سُلَّما وجَدنا إلى ترك المجىء سبيلا[٣]

الزُّبير بن بكّارٍ قال : وفَدَ ابنُ عمٍّ لداود بن يزيد المهلّبىّ عليه فحجبَه ، وجعل يَمطُله بحاجته ، فكتبَ إليه :

أبا سليمانَ وعداً غيرَ مكذوبِ اليأس أروَحُ من آمال عُرقوبِ

أرى حمامةَ مَطْلٍ غير طائرةٍ حتى تُنقِّب عن بعض الأعاجيب

لا تركبنَّ بشعرى غير مَركبِه فيركبَ الشِّعر ظهراً غير مركوب

لئن حُجبتُ فلم تأذن عليك فما شِعرى إذا سارَ عن أُذنٍ بمحجوبِ

إن ضاق بابُك عن إذنٍ شددت غداً رحلى إلى المَطَريِّين المناجيبِ[٤]

قومٌ إذا سئلوا رقّت وجوههم لا يستقيدون إلاّ للمواهيبِ

---

(١) هو أبو العميثل ، كما فى طبقات الشعراء لابن المعتز ٢٧٨ . ونسبه المرزبانى فى معجمه ٤٣١ لأبى نبقة محمد بن هشام السدرى . وذكر أنه كان قد صار إلى باب رجل من وجوه أهل البصرة فأبطأ إذنه قليلا .

(٢) فى عيون الأخبار ١ : ٨٥ ومعجم المرزبانى : « حتى يخف » . وفى طبقات ابن المعتز ٢٨٧ : « حتى تلين » .

(٣) فى عيون الأخبار والعقد ١ : ٧٤ والمحاسن والمساوى ١ : ١٢٦ : « عندك موضعا » . وفى معجم المرزبانى : إذا لم أجد يوما إلى الإذن سلما » .

(٤) المطريون ، يعنى بنى مطر ، وكانوا قوما ممدحين ، مدحهم مروان ابن أبى حفصة بقوله :

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم أسود لها فى غيل خفان أشبل

وللأحوص بن محمد الأنصاريّ فى أبى بكر بن حزم :

أعجبتَ أنْ ركب ابنُ حَزمٍ بغلةً　　فركوبُهُ فوق المنابر أعجبُ

وعجبتَ أن جَعل ابن حزمٍ حاجباً　　سبحانَ مَن جَعلَ ابن حَزمٍ يُحجَبُ

وأُنشِدت لابن حازمٍ[١] يعاتب رجلاً فى حجابه :

صحبتُك إذْ أنت لا تُصحبُ　　وإذْ أنت لا غيرك للوكبُ[٢]

وإذْ أنت تفــــرح بالزائرين　　ونفسُك نفسَــك تستحجبُ

وإذ أنت تُكثر ذمَّ الزمانِ　　ومشيُك أضعافُ ما تركبُ　١٥٥ و

فقلتُ : كريمٌ له هِمَّــــــةٌ　　تُنــــال فأُدرِكُ ما أطلبُ

فنِلْتَ فأقصــيتَنى عامداً　　كأنّىَ ذو عُـــرّةٍ أجربُ

وأصبحتُ عنك إذا ما أتيـ　　ـتُ دونَ الورى كلّهم أُحجبُ

وأنشدنى أبو تمّامٍ الطائىّ :

ومحجَّبٍ حاولتُه فوجــدتُه　　نَجِماً عن الرَّكب العُفاة شَسُوعَا[٣]

لما عَدِمتُ نوالَه أعدمتُه　　شكرِى فرُحنا مُعدِمَين جميعاً

---

(١) هو محمد بن حازم بن عمرو الباهلى ، نشأ بالبصرة ، ثم سكن بغداد ، وهو من شعراء الدولة العباسية ، وكان كثير الهجاء للناس فاطرح ، ولم يمدح من الخلفاء إلا المأمون . الأغانى ١٢ : ١٥١ — ومعجم المرزبانى ٤٢٩ وتاريخ بغداد ٧٨١ .

(٢) فى مطبوع طراز المجالس : « المركب » بالراء .

(٣) يعرض فى هذا الشعر بإسحاق بن إبراهيم المصعبى ، كما فى ديوان أبى تمام ٤٩٨ .

ووقف العُتبيُّ بباب إسماعيل بن جعفرٍ يطلب إذنَه ، فأعلمه الحاجبُ أنّه فى الحمّام ، فقال :

وأَميرٍ إذا أردنا طعاماً قال حُجّابُه أَتَى الحمّاما
فيكون الجواب منّىَ للحا جب ما إن أردتُ إلاّ السّلاما
لستُ آتيكمُ من الدّهر إلاّ كلَّ يومٍ نَويتُ فيه الصِّياما
إنّنى قد جعلتُ كلَّ طعامٍ كان حِلاًّ لكمْ علىَّ حراما

وأنشدنى إسحاق بن خلَفٍ البصرىُّ له :

أيَحْجُبنى أبو الحسَنِ وهذا ليسَ بالحسَنِ
وليس حِجابُه إلاّ عن الزّيتون والجُبُنِ

وأنشدنى بعضهم :

لا تتّخِذْ باباً ولا حاجباً عليك من وجهك بوّابُ
أنت ولو كنتَ بِدَوِّيّةٍ عليك أبوابٌ وحُجّابُ

ولعلى بن جبلة فى الحسن بن سهل :

اليأس عزٌّ والذِّلّة الطّمَعُ يضيق أمرٌ يوماً ويتّسِعُ
لا تستريثَنَّ إذنَ محتجبٍ إن لم تكن بالدّخول تنتفع[1]
أحقُّ شىء بطولِ مَهجَرةٍ من ليس فيه رِىٌّ ولا شِبَعُ[2] ١٥٥ ظ

---

(١) استراثه : استبطأه .

(٢) فى طراز المجالس : « يطول مهجره » ، وفى إحدى مخطوطاته : « بطول هجره » .

قُل لابن سهل فإنَّنى رجلٌ إن لم تَدَعْنى فإننى أدعُ[١]
اليأس مالى وجُنّتى كرمٌ والصَّبر والٍ علىّ لا الجزَعُ

ولأبى تمام الطائىّ فى أبى المغيث[٢] :

لا تَكْلَفَنَّ وأرضُ وجهك وجهه فى غير منفعةٍ ، مؤونةَ حاجبِ[٣]
لا تمتهنِّ بالحجاب فإننى فَطِن البديهة عالم بمواربى[٤]

ولبعض الشعراء فى العباس بن خالد ، وخُبِّرت أنّه لابن الأعمش :

أتحجُبنى فليس لديك نَيلٌ وقد ضيّعتَ مكرمةً ومجدا
وفى الآفاق أبدالٌ ورزقٌ وفى الدُّنيا مَراحٌ لى ومَغدى

وأنشدنى أبو الخطاب ، لدِعبِل ، فى غَسَّانَ بن عباد[٥] :

لَقَطْعُ الرمال ونَقْل الجبال وشرب البحار التى تصطخبْ
وكشفُ الغِطاء عن الجنِّ أو صُعودُ السَّماء لمن يرتقب
وإحصاء لُؤم سعيدٍ لنا أو الثُّكلُ فى ولدٍ مُنتجَبْ

---

(١) فى عيون الأخبار ١ : ٨٧ : «لما عدمت نواله أعدمته» .

(٢) هو أبو المغيث موسى بن إبراهيم الرافقى انظر ص ٥٩ .

(٣) كلفه كلفا : أولع به وأحبه . وفى ديوان أبى تمام ٤٨٩ : « وأرض وجهك صخرة » .

(٤) المؤاربة : المداهاة ، يقال هو يؤارب صاحبه ، إذا داهاه . وفى الديوان : « لا تدهشنى » و « ندس البديهة » . وفى مطبوع الطراز : « بمآربى » .

(٥) كان غسان بن عباد واليا على خراسان فى عصر المأمون . الأغانى ١٤ : ٣٦ . وسيأتى ذكره وولده « محمد » قريبا .

أخفُّ على المرء من حاجةٍ تكلَّفَ غشيانَها مرتقِبْ
له حاجبٌ دونه حاجبٌ وحاجب حاجِبِه محتجِبْ

ولمرداس بن حزام الأسدى[١] ، فى بَشِير بن جرير بن عبد الله :

أتيتُ بَشيراً زائراً فوجدته أخَا كبرياء عالِماً بالمعاذر
فصدَّ وأبدى غلظةً وتجهُّماً وأغلقَ بابَ العُرف عن كلِّ زائرِ
حجاباً لحرٍّ لا جواداً بمالِه ولا صابراً عند اختلاف البواتر[٢]

وحُجب أبو العتاهيَة بباب أحمدَ بن يوسُفَ الكاتب ، فكتب إليه :

ألم تَرَ أنَّ الفقرَ يُرجَى له الغنى وأنَّ الغنى يُخشَى عليه من الفقرِ
فإن نِلتَ تيهاً بالذى نلتَ من غنىً فإنَّ غناىَ بالتكرُّم والصَّبرِ

١٥٦ و

وله أيضاً فيه :

إنّى أتيتُك للسَّلا مِ تكلُّفا منى وحُمقا
فصَددْتَ عنِّى نخوةً وتجبُّراً ولَوَيتَ شِدقا
فلوَ انَّ رزقى فى يَدَيْـ ـكَ لما طلبتُ الدَّهرَ رزقا

---

(١) وكذا فى طراز المجالس وكنايات الجرجانى ٨٩ . وفى الحيوان ١ : ١٠٥ والمؤتلف ١٠٩ : « خذام » ، وفى معجم المرزبانى ٣٧٠ : « حذام » ، وفى الأغانى ١٠ : ٨٧ « جذام » . وفى ثمار القلوب ٢٠٨ « حرام » . وذكر الآمدى أنه شاعر إسلامى كان ينزل الكوفة ، وكان خبيثاً فاحشاً .

(٢) البواتر : السيوف القواطع . يعنى اختلافها فى الضرب .

(٣) قبله فى ديوان أبى العتاهية ٣٥٢ :

أبا جعفر إن الشريف يشينه تتايهه على الأخلاء فى الوفر

ولأحمد بن أبي طاهر :

ليس العجيب بأن أرى لك حاجبًا ولأنت عندي من حجابك أعجبُ
فلئن حُجِبتُ لقد حجبتُ معاشراً ما كان مثلُهمُ ببابك يُحجَب

وله في بعض الكتاب :

ردَّني بالذُّلِّ صاحبُه إذا رآني أني أطالبُه
ليس كَشْخاناً فأشتُمَه إنَّما الكَشْخانُ صاحبُه[١]

وله أيضاً في علي بن يحيى يعاتبه في بعض قصائده :

أصَوَاباً تراه أصلحك اللهُ فما إنْ رأيتُه بصوابِ
صرتُ أدعوكَ من وراء حجابٍ ولقد كُنْتَ حاجبَ الحجّابِ

أتى أبو العتاهية باب أحمد بن يوسفَ الكاتب[٢] في حاجةٍ فلم يؤذَن له ، فقال :

لئن عدتُ بعد اليومِ إنّي لظالمٌ سأصرف وجهي حيث تُبغَى المكارمُ
متى يُنجِح الغادي[٣] إليك بحاجةٍ ونصفك محجوبٌ ونصفك نائم

ولآخر :

رأيتُك تطرُدنا بالحجـاب عنك برِفقكَ طَردًا جميلا[٤]

---

(١) الكشخان : الديوث القواد .

(٢) وكذا في المحاسن والمساوي ١ : ١٢٦ وفي العقد ١ : ٧٣ : « إلى باب بعض الهاشميين » .

(٣) وكذا في العقد وعيون الأخبار ١ : ٨٥ . وفي المحاسن والمساوي : « الغادي لديك » .

(٤) في الطراز : « عنك برِوقك » ، وفي إحدى مخطوطتيه : « بزوقك » .

ولكن فى طمع الطامعيـ ـنَ والحرّ من ذا يفكّ العقولا[1]

فهل لك فى الإذن لى بالرّحيـ ـلِ فقد أبَت النفسُ إلا الرحيلا

وحدّثنى أبو علىّ البَصير قال : حدَّثنى محمد بن غَسَّان بن عباد[2] قال : كنتُ بالرَّقة ، وكان بها مُوسَوَسٌ يقول الشِّعر المُحالَ والمنكر ، فغدَّيتُه يومًا معى احتسابًا للثواب ، فأتانى من غدٍ وعندى جماعةٌ من العُمَّال ، فحجبَه الغُلام ، فلمَّا كان من غدٍ وقف على الباب وصاح :

١٥٦ظ

عليك إذنٌ فإنّا قد تغدّينا لسنا نعود لأكلٍ قد تغدَّينا[3]

يا أكلةً سلفَتْ أبقت حرارتُها داءً بقلبكَ ما صُمنا وصلَّينا

قال : وما علمتُه قال شعرًا على استواء غيرَه ، ولكنّى وُعظت به فوقع مكروهى على لسانى .

وأُنشِدت لحمّادِ عجردٍ يعاتب بعضَ الملوك :

إذا كنت مكتفيًا بالكتا ب دونَ اللّمام تركتُ اللِّماما

وإلّا فأوصِ هَدَاك الليـ ـكَ بوّابكمْ بى وأوصِ الغلاما

فإن كنتُ أُدخلت فى الزائريـ ـن ، إمّا قعودًا وإما قياما

وإنْ لم أكن منك أهلاً لِذاك فلا لومَ لست أحبُّ الملاما

فإنّى أذمُّ إليـك الأنا مَ أخزاهم الله ربِّى أناما

فإنِّى وجدتهمُ كلَّهمْ يُميتون مجداً ويُحيون ذاما[4]

---

(١) كذا فى الأصل والطراز .

(٢) سبقت ترجمة والده فى ص ٦٣ .

(٣) فى طراز المجالس : « نعود للأكل إنا قد تغذينا » .

(٤) الذام : العيب .

ولأبى الأسد الشَّيبانىّ[١] ، يعاتب أبا دُلَف فى حجابه[٢] :

ليت شعرى أضاقت الأرضُ عَنّى أم نفِىٌّ من البـــلاد طريدُ[٣]
أم قُدارٌ أم الحَبَابة أم أحـ مرُ لاقت به البــلاء ثمودُ[٤]
أم أنا قانعٌ بأدنى معـــاشٍ همَّتى القوتُ والقليلُ الزهيدُ
مِقولى قاطعٌ وسيفى حســامٌ ويدى حُرَّةٌ وقلبى شـــديدُ
رُبَّ باب أعزّ من بابك اليو مَ عليـه عســا كرٌ وجنودُ
قد ولَجنـــاه داخلينَ غدُوًّا ورَواحًا وأنت عنــه مَذودُ
فاكففِ اليوم مِن حجابك إذ لَسْـ تَ أميرًا ، ولا خميسًا تقودُ
لن يقيم العزيز فى البلد الهُو نِ ولا يكسَـــدُ الأديبُ الجليدُ[٥]
كل مَن فرَّ من هوانٍ فإن الـ رُّحبَ يلقاه والفضـــاء العتيد

---

(١) اسمه نباتة بن عبد الله الحمانى ، شاعر مطبوع متوسط الشعر من شعراء الدولة العباسية ، من أهل الدينور ، وكان طيبا مليح النوادر مداحا خبيث الهجاء . الأغانى ١٢ : ١٦٧ — ١٧١ . وانظر ديوان المعانى ٢ : ١٠٣ وطبقات الشعراء لابن المعتز ٣٤٨ .

(٢) كان قد زاره بالكرج فحجب عنه أياما ، كما فى الأغانى ١٢ : ١٦٩ :

(٣) الأغانى : « أم بفج أنا الغداة طريد » .

(٤) قدار ، هو قدار بن سالف الذى يقال له أحمر ثمود ، عاقر ناقة صالح . والحبابة : جارية يزيد بن عبد الملك ، وكانت قد أفسدت عليه نفسه بشدة تعلقه بها . أمالى الزجاجى ٧٤ والأغانى ١٣ : ١٥١ . والبيت لم يرد فى الأغانى .

(٥) فى الأغانى : « ولا يكسب الأريب » .

١٥٧ و ولعليّ بن جبلة فى بعض الملوك :

حجابك ضيّقٌ ونداك نَزرُ وإذنك قد يُراد عليه أجرُ
وذلٌّ أن يقوم إليك حُرٌّ وطُلّاب الثَواب لديك نَقْرٌ(١)

وأنشدنى اليمامىّ فى أبى الصَّقر إسماعيل بن بلبل ، يعاتبه فى حجابه :

لكلِّ مؤمّلٍ جدوَى كريمٍ على تأميله يومًا ثوابُ
وأنت الحرُّ ما خانتك نفسٌ ولا أصلٌ إذا وقع انتسابُ
وشكرى ظاهر ورجاىَ جَزلٌ ففيم جَزاىَ من ذلٍّ حِجابُ
وحقّى أن تكافئنى مزيدًا بشكرى إذْ به نَزلَ الكتابُ

وأُنشِدت لأبى مالك الأعرج(٢) :

علَّقت عينى بباب الدار منتظراً منك الرسولَ فخلَّصْها من البابِ
لمّا رأيت رسولى لا سبيلَ له إلى لقائك من دفعٍ وحجّابِ
صانعت فيك بمثلَىْ ما أُؤمِّله فيما لديك وهذا سَعىُ خَيَّابِ

ولبشّار بن برد ، فى عُبيد الله بن قَزَعة :

إذا سُئل المعروفَ أغلَقَ بابَهَ فلم تَلقَه إلّا وأنت كمينُ
كأنّ عُبيدَ الله لم يرَ ماجدًا ولم يدرِ أنّ المكرماتِ تكون
فقل لأبى يحيى متى تدركُ العلا وفى كلّ معروف عليك يمينُ

---

(١) النقر : القليل ، وأصل النقر والنقير النكتة فى النواة .

(٢) هو أبو مالك النضر بن أبى النضر التميمى ، وفد على الرشيد ومدحه الأغانى ١٩ : ١٥٠ — ١٥١ .

وأنشدَ لأبى زُرعة — رجلٍ من أهل الشام — فى أبى الجهم بن سيف :

ولـكنْ أبو الجهم إن جئته لهيفًا حُجِبت عن الحـاجبِ
وليس بذى موعدٍ صادق ويَبخَلُ بالموعد الـكاذبِ

وحُجب سعيد بن حُميد بباب الحسن بن مَخْلَد[1] ، فـكتب إليه :

ربّ بِشرٍ يصيِّر الحرَّ عبدًا لك غالتْه جفوةٌ فى الحجابِ
وفتًى ذى خلائقٍ مُعجِبـاتٍ أفسـدَتْهـا خلائقُ البوّابِ
وكريم قد قصَّرت بأياديـه عبيدٌ تسىء للآداب[2]
لا أرى للـكريم أن يشترى الدنـيا جميعًا بوقْفةٍ بالبـاب
إنْ تركتَ العبيدَ والحُـكمَ فينا صار فضـلُ الرءوس للأذناب
فأحلُّوا أشكالَهم رُتَبَ الفضـل ،وحَطُّ الأحرارِ عَفْر التّراب[3]

ظ ١٥٧

وأُنشِدت لعبد الله بن العباس[4] :

أنا بالبـاب واقفٌ منذ أصبحْـتُ على السَّرج ممسك بعنانى[5]
وبعين البوّاب كلُّ الذى بى ويرانى كأنَّه لا يرانى

---

(١) الحسن بن مخلد بن الجراح ، كان يخلف إبراهيم بن العباس الصولى على ديوان الضياع فى عصر المتوكل . إعتاب الـكتاب ١٥١ ، ثم صار وزيراً للمعتمد . إعتاب الـكتاب ١٦٢ والتنبيه للمسعودى ٣٢٠ .

(٢) فى مطبوع طراز المجالس : « بالآداب » .

(٣) فى الأصل وطراز المجالس : « وحط الأحرار » .

(٤) هو عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع بن يونس بن أبى فروة . وكان شاعراً مطبوعاً ومغنياً محسنا . الأغانى ١٧ : ١٢١ — ١٤١ .

(٥) ذكر أبو الفرج ١٧ : ١٢٥ من قصة هذا الشعر أن عبد الله بن العباس طلب من أحمد بن المرزبان أن يعرض له رقعة على الخليفة المنتصر ، وكان نائماً ، =

وأُنشِدتُ لأبى عيينة المُهلّبى[١] ـ واسمه عبد الله بن محمد ـ[٢] يعاتب رجلًا من قومه :

أتيتُك زائراً لقضاء حقٍّ فحالَ السِّتْرُ دونَك والحجابُ[٣]

ولستُ بساقِطٍ فى قدر قومٍ وإن كَرِهوا كما يقع الذبابُ

ورأى مذهبٌ عن كلِّ ناءٍ بجانبِه إذا عزَّ الذّهابُ[٤]

وأنشدنى ابنُ أبى فَنَن[٥] :

ما ضاقت الأرضُ على راغبٍ يطّلبُ الرزق ولا ذاهبِ

بل ضاقت الأرضُ على صابرٍ أصبحَ يشكو جَفوةَ الصّاحبِ

مَن شَتَمَ الحاجبَ فى ذَنْبِهِ فإنّما يَقصِدُ للصّاحبِ

فارغبْ إلى الله وإحسانه لا تطلبِ الرزق من الطالبِ

= فلما انتبه من نومه وجد مكتوباً فيه هذان البيتان فأمر بإدخاله ، فدخل فعرفه أحمد خبره واعتذر إليه وعرض رقعته على المنتصر . والبيتان كذلك فى العقد ١ :٧٥ بدون نسبة .

(١) ذكر ابن المعتز فى طبقات الشعراء ٢٨٨ أن « أبا عيينة » كنية لكل من كان من المهالبة .

(٢) ذكره فى جمهرة أنساب العرب ٣٦٩ . وذكر ابن المعتز أنه صحب طاهر ابن الحسين فلم يرض صحبته وهجاه .

(٣) عيون الأخبار ١ : ٨٩ مع نسبته إلى عبد الله بن أبى عيينة . وكذا فى المحاسن والمساوى ١ : ١٢٦ مع نسبته إلى عبد الله بن محمد بن أبى عيينة .

(٤) البيت لم يرد فى المصادر المتقدمة . وفى طراز المجالس: « ورأى مذهبى » . وفيه نظر إلى قول الله : « أعرض ونأى بجانبه » .

(٥) اسمه أحمد بن صالح . سبقت ترجمته فى ص ٥٠ .

قال المدائني : أتى عُويفُ القوافي[1] بابَ عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، فحُجِبَ أيّامًا ، ثم استأذنَ له حُبيش صاحبُ إذنِ عمر ، فلمّا قام بين يدَيه قال :

أجبنى أبا حفص ، لقيتَ مُحمَّدًا على حَوْضه مستبشِرًا بدُعا كا[2]

فقال عمر : أقول لبيَّك وسَعدَيك ! فقال :

وأنت امرؤٌ كلتا يديكَ طليقةٌ شِمالُك خيرٌ مِن يمينِ سِواكا

علامَ حجابى ، زادكَ اللهُ رِفعةً وفضلًا ، وماذا للحجابِ دعاكا ١٥٨و

فقال : ليس ذاكَ إلّا لخير ! وأمر له بصِلة .

المدائني قال : أقام عبد العزيز بن زُرارةَ الكلابيّ[3] ، بباب معاوية حينًا لا يُؤْذَن له ، ثم دخل فقال :

---

(١) هو عويف بن معاوية بن عقبة بن حصن ، سمى عايف القوافى بقوله :

سأكذب من قد كان يزعم أننى إذا قلت قولا لا أجيد القوافيا

وهو شاعر من شعراء الدولة الأموية من ساكنى الكوفة . معجم المرزبانى ٢٧٧ — ١٧٨ والأغانى ١٧ : ١٠٥ — ١١٨ والخزانة ٣ : ٨٧ .

(٢) البيت وتاليه فى الطبرى ٨ : ١٣٧ . وفى الطبرى : « مستبشراً من وراكا » .

(٣) عبد العزيز بن زرارة : أحد أشراف العرب وشعرائهم ، روى له الجاحظ شعراً فى الحيوان ٣ : ٨٤ . ومدحه بعض الشعراء . الحيوان ٦ : ٣٢٩ ، وذكر أبو الفرج فى الأغانى ١٠ : ٦٨ أنه هو الذى تكفل بدفن توبة بن الحمير فى أيام مروان بن الحكم . وفى جمهرة أنساب العرب ٢٨٣ أنه وقف على باب معاوية مستأذناً ، وأنه توفى فى عهده .

دخلتُ على معاويةَ بنِ حربٍ وكنتُ وقد يئستُ من الدخولِ
رأيتُ الحظَّ يسترُ عيبَ قومٍ وأيهاتَ الحظوظُ من العقول[١]

قيل لُحبّى المدنيةِ : ما الجرحُ الذى لا يندمل ؟ قالت : حاجة الكريم إلى اللئيم ثم لا يُجدَى عليه[٢] . قيل لها : فما الذُّلّ ؟ قالت : وقوف الشريف بباب الدنىّ ثم لا يُؤذَن له . قيل لها : فما الشَّرف ؟ قالت : اعتقاد المِنَن فى أعناق الرجال ، تبقى للأعقاب فى الأعقاب[٣] .

وقيل لعُروة بن عدىّ بن حاتم وهو صبىٌّ ، فى وليمة كانت لهم : قِفْ بالباب فاحجُبْ من لا تعرف وائذَنْ لمن تعرفُ[٤] . فقال : لا يكون ـ والله ـ أوّلَ شىء استُكفِيتُه منعُ الناس من الطَّعام .

وأُنْشِدتُ لأبى عُيينة المهلّبى[٥] :

بُلغةٌ تحجُب الفتى عن دُناةٍ وعتاب يخاف أو لا يخافُ[٦]

---

(١) أيهات : لغة فى هيهات ، أى بعد .

(٢) فى عيون الأخبار ٣ : ١٣٩ : « ثم يرده » . جدا عليه : أعطاه .

(٣) فى مطبوع طراز المجالس : « فى الأحقاب » . والأحقاب : الدهور ، جمع حقب بالضم ، وهو مقدار ثمانين سنة .

(٤) فى مطبوع الطراز : « وأدخل من تعرف » .

(٥) انظر ما سبق فى ص ٧٠ .

(٦) الدناة : جمع دنى ، وهو الخسيس الذى لا غناء عنده . ولم أجد هذا الجمع ، ولا هو منقاس فى دنى ، إلا أن يكون جمع دانئ بعد تسهيله . والدانئ : الخبيث البطن والفرج ، الماجن ، كما فى اللسان . وانظر أمالى الزجاجى ١٢٠ حيث أنشد قول القائل :

ورفضت صفحته التى لم أرضها وأزلت عن رتب الدناة مقامى

هو خيرٌ من الرُّكوب إلى با ... بِ حِجابٍ عنوانُهُ الانصرافُ
بئس للدولةِ التى تُرفع السِّـ ... ـفلةُ فيهـا وتَسقُط الأشرافُ

وأُنشِدت لموسى بن جابرٍ الحنفى[١] :

لا أشتهى يا قوم إلّا مُكرَهًا ... بابَ الأمير ولا دفاعَ الحاجبِ[٢]
ومن الرِّجال أسـنّةٌ مذروبة ... ومزنَّدون شُهودُهم كالغائبِ[٣]
منهم أُسـودٌ لا تُرام ، ومنهمُ ... ممّا قَمَشْتَ وضمَّ حبلُ الحاطبِ[٤]

وأنشدَنى بعضُ أصحابنا :

إنّى امرؤٌ لا أُرى بالباب أقرعُه ... إذا تَنَمَّرَ دونى حاجبُ البابِ
ولا ألوم امرأً فى ودِّ ذى شَرَفٍ ... ولا أُطالبُ وُدَّ الكاره الآبى[٥]

وأنشدنى ابنُ أبى فَنَن :

الموت أهونـُ مِن طول الوقوف على ... ١٥٨ ظ
بابٍ ، علىّ لبوّابٍ عليـــــه يدُ

---

(١) موسى بن جابر بن أرقم بن مسلمة الحنفى ، شاعر نصرانى جاهلى كثير الشعر ، وكان يلقب أزيرق اليمامة ، ويقال له ابن الفريعة كما كان يقال لحسان بن ثابت . المؤتلف ١٦٥ والمرزبانى ٣٧٦ .

(٢) الأبيات فى الحماسة ٣٦٣ — ٣٦٥ بشرح المرزوقى .

(٣) مذروبة : محددة ، أى يمضون فى الأمور مضاء هذه الأسنة . والمزند : البخيل . الشهود : الحاضرون : جمع شاهد . وأراد بالغائب الغائبين . يقول: لاغناء عندهم، فحاضرهم كغائبهم .

(٤) فى الحماسة : « وبعضهم مما قمشت » .

(٥) فى الأصل : « ذى سرف » بالسين . صوابه فى الطراز .

مالى أقيمُ على ذلِّ الحجابِ كأنْ قد مَلَّنى وطنٌ أو ضاقَ بى بلدُ

وأنشدنى الزبير بن بكّار لجعفرِ بن الزُّبير[١]:

إنَّ وُقوفى من وراء البابْ[٢] يَعدِلُ عندى قَلعَ بعضِ أنيابْ[٣]

وأنشد لمحمود الورَّاق:

شاد الملوكُ حصونَهم[٤] وتحصَّنوا من كل طالب حاجةٍ أو راغبِ

عالَوْا بأبواب الحديد لعزِّها وتنوَّقوا فى قُبْح وجه الحاجب[٥]

فإذا تَلطَّف للدخول إليهم راجٍ تلقَّوْه بوعدٍ كاذب

فاضرعْ إلى مَلِك الملوك ولا تكنْ بادِى الضَّراعة طالبًا من طالب

وأنشدنى أبو موسى المكفوف:

لن ترانى لك العيونُ ببابِ ليس مثلى يُطيق ذُلَّ الحجابِ

يا أميراً على جَريبٍ من الأر ضِ له تِسعةٌ من الحجّابِ

---

(١) يقوله لعمر بن عبد العزيز، كما فى الأغانى ١٣ : ١٠٠ .

(٢) قبله فى الأغانى :

* يا عمر بن عمر بن الخطاب *

وذلك أن أم عمر بن عبد العزيز هى أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب . سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ٥ وجمهرة أنساب العرب ١٠٥ .

(٣) فى الأصل وإحدى مخطوطتى الطراز : «عنى» موضع « عندى » ، صوابه فى الطراز والأغانى أنياب ، أى أنيابى . وفى الأصل والطراز : « قلع أنيابى » وفى مطبوع الطراز : « قلعهم أنيابى » ، والوجه ما أثبت . وفى الأغانى : « حطم بعض الأنياب »

(٤) فى حواشى الأصل : « قصورهم »

(٥) التنوق : التأنق ، وهو التجود والمبالغة .

قاعداً فى الخرب تُحجَبُ عنّا ماسمعنا إمارةً فى خراب

وأنشدنى أبو قَنْبَر الكوفىُّ :

ولستُ بمتّخِذٍ صاحبًا يُقيم على بابه حاجبا[١]

إذا جئتُه قيل لى نائمٌ وإن غبتُ ألفيتُه عاتبا[٢]

ويُلزم إخوانَه حَقَّهُ وليس يَرى حقّهمْ واجبا

فلستُ بِلاقيه حتّى المماتِ إذا أنا لم ألْقَه راكبا

وأنشدنى أبو بكر محمد بن أحمد ، من أهل رأس العَيْن[٣] ـ لنفسه فى بعض بنى عمران بن محمدٍ الموصلىّ :

يا بَاَ الفوارسِ أنتَ أنت فتَى النَّدَى شهِدَتْ بذاك ولم تَزَلْ قحطانُ

فلأىِّ شىءٍ دون بابك حاجبٌ من بُغضِه يتخبَّطُ الشَّيطانُ[٤]

١٥٩ و

فإذا رآنى مالَ عنّى مُعرِضًا فكأنَّنى من خوفه سَرَطانُ

---

(١) الأبيات بدون نسبة أيضاً فى عيون الأخبار ١ : ٨٥ — ٨٦ .

(٢) وكذا فى طراز المجالس وفى عيون الأخبار :

إذا جئت قال له حاجة وإن عدت ألفيته غائبا

(٣) ويقال رأس عين أيضا : مدينة كبيرة قديمة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ، وفيها عيون كثيرة عجيبة صافية تجتمع كلها فى موضع فتصير نهر الخابور . وفيها يقول الأسود بن يعفر :

وعمرو بن مسعود وقيس بن خالد وفارس رأس العين سلمى بن جندل

(٤) وكذا فى طراز المجالس ، لكن فى إحدى المخطوطتين : « من مسه » .

من عاتبَ على حجابِه والإذنِ لغيره

قال الأشهب بن رُمَيلة :

أبلغ أبا داود أنّى ابنُ عمّه وأنَّ البَعيث من بنى عمٍّ سالِمِ[١]

أتُولِج بابَ الملك مَن ليس أهلَه وريشُ الذُّنابَى تابعٌ للقوادم

وقال عاصمٌ الزِّمّانىُّ[٢] ، من بنى زِمَّان[٣] :

أبلغ أبا مِسمعٍ عنى مغلغَلةً وفى العتابِ حياةٌ بين أقوامِ

أدخلتَ قبلى رجالاً لم يكن لهمُ فى الحقِّ أن يَلجِوا الأبوابَ قُدّامِى

فقد جعلتُ إذا ما حاجةٌ عرضَتْ ببابِ دارك أدلُوها بأقوامِ

وقال هشام بن أبيضَ ، من بنى عبد شمس :

وليس يَزيدُنى حَسَبى هواناً علىَّ ولا ترانى مستكينا

فإنْ قدّمتمُ قبلى رجالاً أرانى فوقَهم حسباً ودينا

ألسنا عائدين إذا رجعنا إلى ما كانَ قدَّمَ أوّلونا

فأرجِعَ فى أَرومةِ عَبْشَمىٍّ ترى لى المجدَ والحسبَ السَّمينا

وقال دينار بنُ نُعيمٍ الكلبىّ :

أبلغْ أميرَ المؤمنينَ ودونَه فراسخُ تَطوِى الطَّرفَ وهو حديدُ

---

(١) فى مطبوع طراز المجالس : « وأن البعيثى » ، تحريف .

(٢) كذا . والذى فى البيان ٢ : ٣١٦ و ٣ : ٢٠٢ و ٤ : ٨٥ : « همام الرقاشى » وفى العقد ١ : ٦٨ : « هشام الرقاشى » .

(٣) فى الأصل : « مازن » ، صوابه من الطراز .

بأنّى لدى عبد العزيز مدفَّعٌ   يقدَّم قبــلى راسبٌ وسـعيد
وإنّى لأدنَى فى القـرابة منهما   وأشرفُ إن كنتَ الشريفَ تُريدُ

المدائنى قال : أتى ابن فَضالة بن عبد الله الغنويُّ باب قُتيبةَ بنِ مسلم ، فأساء إذنَه فقال :

١٥٩ ظ

كيفَ المُقامُ أبا حفصٍ بساحتكم   وأنت تُـكرمُ أصحابى وتجفونى
أراهمُ حين أغشَى بابَ حجرتكمْ   تَدعوهم النَّقَرَى دونى ويقصونى
كم من أميرٍ كفانى الله سَخْطتَه   مذْ ذاك أوليتُه ما كان يولينى
إنِّى أبَى لىَ أن أرضَى بمنقصةٍ   عمٌّ كريمٌ وخالٌ غير مأفونِ
خالى كريمٌ وعمِّى غير مؤتَشَبٍ .   ضَخم الحَمالة أبَّاءٌ على الهُونِ[١]

المدائنى قال : كان مَسْلمة بن عبد الملك تزوّجَ ابنةَ زُفَرَ بن الحارث الكلابىّ ، وكان ببابه عاصمُ بن يزيد الهلالىّ ، والهُذَيل وكوثرٌ ابنا زفر ، فكان يأذن لهما قبل عاصم ، فقال :

أمَسْلَمُ قد منَّيتنى ووعدتَنى   مَواعدَ صدقٍ إن رجعتَ مؤمَّرا
أيُدعَى هُذيلٌ ثمّ أُدعَى وراءه   فيالكَ مَدْعًى ما أذلَّ وأحقرا
وكيف ولم يشـفع لى اللّيلَ كلَّه   شفيعٌ وقد ألقى قناعاً ومئزرا
فلستُ براضٍ عنك حتّى تحبَّنى   كحبِّك صِهرَيكَ الهُذيلَ وكوثرا

---

(١) المؤتشب : المخلوط غير الصريح فى نسبه . والحمالة ، كسحابة : الدية يحملها قوم عن قوم .

وقال الأصحم ، أحدُ بنى سعد بن مالك بن ضُبيعة[١] بن قيس بن ثعلبة ، يذكر خالدَ بن عبد الله القسرىَّ ، وأبان بنَ الوليد البَجَلىّ ، وحجبَه خالد :

ومنزلةٍ ليست بدارِ تئيّــةٍ أطال بها حبسى أبانٌ وخالدُه[٢]

فإنْ أنا لم أرْزلْ بلاداً هُما بهـا فلا ساغَ لى من أعذب الماء باردُه

إذا ما أتيتُ البابَ صادفتُ عنده بَجيلةَ ، أمثالَ الكلاب ، تُراصِدُه

عليهمْ ثياب الخزّ تبكى كما بكت كَراسيُّه ، من لُؤمه ، ووسائده

ويُدعَونَ قُدّامى ويَجعَل دوننـا من السّاج مسمورًا تئطُّ حدائده[٣]

المدائنى قال : كان تَميم بن راشدٍ مولى باهلةَ ، حاجباً لقُتيبة بن مسلم بخراسان ، فكان يأذن لسُويد بن هَوبرٍ النّهشلىّ ، ومُجفَر بن جزىّ[٤] الكلابىّ ، قبل الحُضَين بن المنذر الرقاشى ، فقال الحُضَين[٥] :

١٦٠ و

إنّى لألقَى من تميم وبابِهِ عَنـاء ويدعو مُجفَرا وابن هَوبرا

نَزِيعَين من حيَّينِ شـتّى كأنّما يرى بهما البوّابُ كسرى وقيصرا

---

(١) فى الأصل والطراز : « صعصعة » ، صوابه من جمهرة أنساب العرب ٣١٩ — ٣٢٠ .

(٢) التئية : التلبث والتحبس . تأيا : تحبس .

(٣) مسمورا ، أى مشدودا بالمسامير ، يعنى الباب . تئط : تصوت

(٤) فى مخطوط الطراز : « محفر بن جزى » وفى المطبوع : « محفر بن حرب » .

(٥) فى الأصل والطراز : « الحصين » فى هذا الموضع والذى قبله وصوابه « الحضين » بالضاد المعجمة وهو الحضين بن المنذر بن الحارث بن وعلة ، شاعر فارس ، من كبار التابعين . مات على رأس المائة فى أمارة سليمان بن عبد الملك . جمهرة أنساب العرب ٣١٧ والمؤتلف ٨٧ والخزانة ٢ : ٨٩ — ٩٠ وتهذيب التهذيب والقاموس (حضن) .

وقال عُبَيد الله بن الُحرّ الفاتكُ ، لعبد الله بن الزُّبير ، وشكا إليه مُصعبًا وحجّابَه :

أبلغ أمير المؤمنين نصيحتى فلستُ على رأيٍ قبيحٍ أُواربُه

أفى الحقِّ أن أُجفَى ويَجعلَ مصعب وزيريه مَنْ قد كنتُ فيه أحاربه (١)

وما لامرئٍ إلاّ الذى اللهُ سائقٌ إليه وما قد خَطَّ فى الزُّبر كاتبُه

إذا ما أتيتُ البابَ يُدخَل مسلمٌ ويمنعنى أن أدخل البابَ حاجبُه

لقد رابنى من مُصعبٍ أنّ مصعباً لدى كلِّ ذى غشٍّ لنا هو صاحبُه

وقال ابن نوفل (٢) لخالد بن عبد الله القسرىّ ، وحجَبَه :

فلو كنتُ غَوْثيًا لأدنيتَ مجلسى إليك، أخا قَسْرٍ، ولكنّنى فحلُ (٣)

رأيتك تُدنى ناشئاً ذا عجيزةٍ بمَحجرِ عينيه وحاجِبِه كُحلُ

فوالله ما أدرى إذا ما خلوتُما وأُرْخِيت الأستارُ أيُّكما الفحلُ

(١) فى مطبوع طراز المجالس : « وزيرا به من كنت » .

(٢) هو يحي بن نوفل ، شاعر من شعراء الدولة الأموية كان معاصرًا للحكم ابن عبدل الأسدى . ذكره فى الحيوان والبيان . وانظر الأغانى ٢ : ١٤٤ .

(٣) غوثيا : نسبة إلى الغوث بن نبت ، من أجداد قسر ، وهو قسر بن عبقر ابن أنمار بن إراش بن عمرو بن الغوث . وفى الأصل وطراز المجالس وإحدى مخطوطتى الطراز : « عوثيا » ، وفى المطبوعة والمخطوطة الأخرى : «عوتيا» وانظر جمهرة أنساب العرب ٣٨٧ .

وقال عمرو بن الوليد[١] ، فى عُقبة بن أبى مُعَيط[٢] :

أفى الحق أن نُدنَى إذا ما فزعتمُ ونُقصَى إذا ما تأمنون ونُحجبُ
ويُجعلَ فوقى مَن يودُّ لوَانَّكم شهابٌ بكفَّىْ قابسٍ يتلهَّبُ[٣]
فهـا أنتمُ داويتمُ الـكَلْمَ ظاهراً فمن لكَلوِمِ فى الصُّدور تَحَوَّبُ[٤]
فقلتُ وقد أغضبتمونى بفعلـكم وكنت امرأً إذا مِرّةٍ حين أغضَب
أمالىَ فى أعدادِ قومىَ راحـةٌ ولا عند قومى إنْ تَعَتَّبتُ مُعتَبُ[٥]

المدائنىُّ قال : كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج أن يستعمل مِسمَع ابن مالكٍ[٦] على سجستان ، فولاّه إياها ، فأتاه الضَّحّاكُ بن هشام فلم يُنِلْه خيراً وأقصاه ، فقال :

وما كنت أخشى يابنَ كبشة أن أرى
لبـــابك بوّاباً ولاستِكَ مِنبرا

---

(١) هو أبو قطيفة عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبى معيط الأموى ، وكان ممن نفاه ابن الزبير مع بنى أمية إلى الشام . الأغانى ١ : ٦ — ١٨ . ومعجم المرزبانى ٢٤٠ — ٢٤١ .

(٢) فى معجم المرزبانى أنه يقوله لعبد الملك بن مروان ، وكان تقدم عليه فى الإذن عبد الله بن جعفر وخالد بن يزيد بن معاوية .

(٣) فى معجم المرزبانى : «لو أنـكم ضرام » .

(٤) فى معجم المرزبانى : « فهل أنتم » و « فمن لقروح » ثم قال : «ويروى : فإن أنتم » . ولم يرو المرزبانى البيتين بعده .

(٥) فى الأصل وإحدى مخطوطتى الطراز : « أعداء » ، وصوابه من المطبوع والمخطوطة الأخرى .

(٦) له أخبار فى الأغانى . وفى طراز المجالس : « سبع بن مالك » ، تحريف . وانظر جمهرة أنساب العرب ٢٣٠ .

١٦٠ ظ

وما شجَرَ الوادى دعوتَ ولا الحصَى
ولكن دَعَوت الُحرقتينِ وجَحدرا[1]

أخذْنا بآفاق السماء فلم ندَعْ لعينك فى آفاقها الُخضرِ منظرا

من مدح برفع الحجاب

قال أيمن بن خُرَيم[2] فى بِشْر بن مروان :

ولو شاء بشرٌ كان مِن دون بابه طَماطمُ سُودٌ أو صَقالبةٌ حُمْرٌ[3]
ولكنَّ بشرًا أسهلَ الباب للتى يَكون له مِن دونها الحمدُ والشُّكرُ
بعيدُ مَرادِ الطَّرف ما رَدَّ طرفَه حذارَ الغواشى بابُ دار ولاسِترُ[4]

وله أيضاً فى عبد العزيز[5] :

لِعبدِ العزيزِ على قومِه وغيرِهمُ مِنَنٌ ظاهرَه

---

(١) الحرقتان : سعد وتيم ابنا قيس بن ثعلبة بن عكابة ، كما فى جنى الجنتين ٤٠ واللسان (حرق ٣٢٩) وجحدر هو جحدر بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن عكابة . جمهرة أنساب العرب ٣٢٠ . وشجر الوادى والحصى : مثل فى الكثرة .

(٢) أيمن بن خريم بن الأخرم بن عمرو بن فاتك ، من شعراء الدولة الأموية ، ولأبيه صحبة برسول الله ورواية عنه . وجعله أبو الفرج فى الأغانى ٢١ : ٥ شيعيا ، ولكن المسعودى فى التنبيه والإشراف ٢٦٣ عده عثمانيا ، وبذلك يكون قد اضطرب بين التيارين .

(٣) فى الأغانى ٢١ : ٨ : « أو صقالبة شقر » .

(٤) الغواشى والغاشية : من ينتابون من سؤال وزوار وأصدقاء .

(٥) هو عبد العزيز بن مروان . ونسبة الشعر إلى أيمن مقول فيها . ونسبه الجاحظ فى الحيوان ١ : ٣٨٢ والبخلاء ٢٢٠ إلى عمران بن عصام ، وأبو الفرج فى الأغانى ١ : ١٢٩ إلى نصيب . وديوان المعانى ١ : ٣٣ لعمران بن عصام ، ويروى لنصيب . وفى الشعر والشعراء ٣٧٤ لنصيب .

فبـابُك أليَنُ أبوابهم ودارُك مأهولةٌ عامره
وكلبُك أرأف بالمعتفينَ من الأمِّ بابنتها الزّائره
وكفُّك حينَ ترى السائليـ ـنَ أندى من اللَّيلة الماطره
فمنك العطاء ومنّا الثنـاء بكل مُحَبَّرةٍ سـائره

ولآخر أيضاً :

مالى أرَى أبوابَهم مهجورةً وكأنَّ بابَكَ مجمَعُ الأسواقِ
إنّى رأيتُك للمكارم عاشقًا والمكرُماتُ قليلةُ العُشّاقِ

والتيمىّ[1] :

يزدحمُ النـاسُ على بابه والمنهلُ العذبُ كثير الزِّحامْ

ولأشجَعَ بن عمرٍو السُّلمىّ :

على باب ابن منصورٍ علاماتٌ من البـذْلِ
جماعاتٌ وحَسْبُ البا بِ جودًا كثرةُ الأهلِ

١٦١ و

وأُنشِدتُ لعُمارة بن عقيل، فى خالدِ بن يزيد :

تأبَى خلائق خالد وفِعـالُه إلاَّ تجنُّبَ كلِّ أمرٍ عائبِ
وإذا حضرْنا الباب عند غَدائه أذن الغَدَاءُ برغم أنفِ الحاجبِ

وأُنشِدتُ لبعضهم :

أبلج بين حَاجبيه نورُه إذا تغَدَّى رُفعت سُتوره

(١) فى الطراز : « والتميمى » . وهو فى عيون الأخبار ١ : ٩٠ بدون نسبة .

ولثابت قُطْنَةَ[1] ، فى يزيد بن المهلّب :

أبا خالدٍ زدتَ الحيـــاةَ محبّةً إلى الناس أنْ كنتَ الأميرَ المتوّجا

وحُقّ لهم أن يرغبوا فى حيـاتهم وبابُك مفتوحٌ لمن خاف أو رجا

تَزِيد الذى يرجو نداك تفضُّلا وتُؤمن ذا الإجرام إنْ كان مُحرَجا

من أُمِّل حجابُه ولم يُذمّ عليه

المدائنى قال : حضر أبو سفيانَ بنُ حربٍ بابَ عثمانَ بن عفّـانَ رضى الله عنه ، فحُجِبَ عنه ، فقال له رجلٌ يُغْرِيه به : حجبَك أميرُ المؤمنين يا أبا سفيان ؟ فقال : لا عَدِمتُ مِن قومى مَن إذا شاء أن يحجبَنى حجبَنى .

وأنشدنى الطائىّ[2] فى إسحاقَ بنِ إبراهيم الموصلىّ :

يأيُّهـــا الملكُ المـأمول نائلُه وجُوده لمُراعى جُوده كَثَبُ[3]

ليس الحجابُ بمُقصٍ عنك لى أملاً إنّ السماء تُرَجّى حين تحتجبُ

---

(١) فى الأصل والطراز : « بن قطبة » ، صوابه ما أثبت كما فى البيـان ١ : ١٤٩ ، ٢٣١، ٣٢٢ و ٤ : ٥١ .وهو أبو العلاء ثابت بن كعب ، شاعر فارس شجاع ، من شعراء الدولة الأموية ، وكان فى صحابة يزيد بن المهلب. ولقب « قطنة » لأن سهماً أصابه فى عينه فى بعض حروب الترك فـكان يجعل عليها قطنة ، الأغانى ١٣ : ٤٧ – ٥٤ والشعراء ٦١٢ والطبرى ٨ : ١٨٥ والخزانة ٤ : ١٨٥ .

(٢) هو أبو تمام . ديوانه ٢٢ . وفيه : « وقال يعاتب أبا دلف . وقيل عبد الله ابن طاهر » .

(٣) فى الديوان :

يأيها الملك النـــائى بغُرته وجوده لمرجى جوده كثب

وله أيضاً فى مالك بن طوق[1] :

قل لابن طوقٍ رحَى سعدٍ، إذا خَبطتْ حوادثُ الدهر أعلاها وأسفلَها

١٦١ ظ أصبحتَ حاتِمَها جودًا ، وأحنفَها حلماً ،وكيِّسها علما ودَغفلَها[2]

مالى أرى الحجرةَ الفيحاء مقفلةً عنِّى وقد طال ماا ستفتحتُ مقفلَها

كأنَّها جنّةُ الفِردوس مُعرِضةً وليس لى عملٌ زاكٍ فأدخلَها

ولأبى عبد الرحمن العَطَوىّ فى ابن المدبِّر :

إذا أنت لم ترسل وجئتُ فلم أصلْ ملأتُ بعذرٍ منك سمعَ لبيبِ

قَصدتُكَ مشتاقاً فلم أر حاجبًا ولا ناظرًا إلاَّ بعينِ غضوبِ

كأنى غريمٌ مقتضٍ أو كأنّنى طلُوعُ رقيبٍ أو نُهوضُ حبيبِ

فقمتُ وقد فَكَّ الحجابُ عزيمتى على شكر بُسطِ الراحتين وَهوبِ[3]

علىَّ له الإخلاصُ ماردعَ الهوى أصالةُ رأيٍ أو وقارُ مَشيبِ

وأنشدنى الخثعمىّ :

كيفما شئتَ فاحتجب يأبا اللّيْـ ـثِ ومن شئت فاتّخذْ بوّابا

---

(١) ديوان أبى تمام ٢٣٦ .

(٢) الكيس النمرى ، من علماء النسب . انظر البيان ١ : ٣٢٢ ، ٣٥١ ودغفل هو ابن حنظلة بن زيد الشيبانى النسابة ، أدرك الرسول ولم يسمع منه . وغرق في يوم دولاب فى قتال الخوارج سنة ٧٠ الإصابة ٢٣٠٥ وابن النديم ١٣١ والميدانى ٢ : ٢٧٣ والمعارف ٢٣٢ والاشتقاق ٢١١ وتاريخ الإسلام ٢ : ٢٨٧ .

(٣) البسط ، بكسر الباء وضمها : المبسوطة . وفى قراءة عبد الله : « بل يداه بسطان » وفى مطبوع الطراز : « سبط الراحتين » .

أنت لو كنت دون أعراضٍ قحطا نَ وأسبلْتَ دونها الأحسابا[1]

لرأيناكَ في مرايا أياديـ ـكَ يقينًا ولو أطلتَ الحجابا

وأنشدني البلاذُرِيّ في عُبيد الله بن يحيى بن خاقان :

قالوا اصطبارُكَ للحجابِ وذُلُّه عارٌ عليكَ يدَ الزّمانِ وعابُ[2]

فأجبتُهم ولكلِّ قولٍ صادقٍ أو كاذبٍ عند الكريم جوابُ

إنّي لأغتفرُ الحجابَ لماجدٍ ليست له مِنَنٌ عليَّ رِغابُ

قد يرفع المرءُ اللئيمُ حجابَه ضَعةً ، ودون العُرف منه حجابُ

والحرُّ مبتذَلُ النَّوالِ وإن بدا من دونه سِترٌ وأُغلِقَ بابُ

* * *

تمّ كتاب الحجاب[3] ، ولله الحمد والمنّة ، وبيده الحول والقوّة ، ١٦٢ و
والله سبحانه الموفّق للصواب برحمته .

يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب « مفاخرة الغلمان والجواري » من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ أيضاً ، والله المستعان وعليه التُّكلان ، إنّه سميعٌ مجيب الدعاء .

والحمد لله أولاً وآخرًا ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلامُه ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

---

(١) في الطراز : « دونه الأبوابا » .

(٢) يد الزمان ، أي الزمان كله ، كقولهم : « يدَ الدهر » و« يدَ المسنَد » . وانظر اللسان (يدى ٣٠٨ – ٣٠٩) .

(٣) بدله في الطراز : « وهذا آخر كتاب الحجاب » .

١٣

كِتَابُ

مُفاخَرَة الجَوارى وَالغِلمانِ

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذه هي الرسالة الثالثة عشرة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« كتاب مفاخرة الجوارى والغلمان »

وقد ذكره ياقوت فى معجم الأدباء ١٦ : ١٠٧ باسم : « كتاب الجوارى »
وقد نشر هذه الرسالة من قبل « شارل بلاّ » فى دار المكشوف ببيروت سنة ١٩٥٧ .

ومن هذا الكتاب نسخة واحدة ، هى نسخة مكتبة داماد ، وهى الأصل المعتمد . وقد عنيت بمقابلتها على نشرة «شارل » ؛ لأبين بعض وجوه التصحيح لتلك النشرة ، موضحا بعض السهو فى الأسقاط أو فى قراءة الناشر لنصوص الأصل ، وله العذر فى ذلك ، فإن النسخة مهملة النقط فى كثير من كلماتها .

ولا يسعنى إلا أن أعترف للأستاذ « شارل » بفضل السبق فى نشر هذه الرسالة وإتحاف المكتبة العربية بها .

وللأستاذ الدكتور صلاح الدين المنجد نقد لنشرة شارل بلا فى الجزء الثانى من المجلد الثالث من مجلة معهد المخطوطات العربية ص ٣٣٥ عدد (نوفمبر سنة ١٩٥٧) ، أشار فيه إلى كتاب مماثل لكتاب الجاحظ هو (كتاب الحكايات) لقاضى القضاة بدر الدين العينى ، مخطوطة بورصة ، حسن جلبى ٥١ (٣٣) ورقة ٧ ب وما بعدها .

بسم الله الرحمن الرحيم

بالله نستعين ، وإياه نستهدِى ، وعليه نتوكل . ١٦٣ ظ

إنّ لكل نوعٍ من العلم أهلًا يَقصدونه ويُؤْثرونه ، وأصناف العلم لا تُحصَى ، منها الجزلُ ومنها السَّخيف . وإذا كان موضعُ الحديث على أنّه مُضحِكٌ ومُلهٍ ، وداخلٌ فى باب حدّ المزح ، فأُبدلتِ السَّخافة بالجزالة انقلبَ عن جهته ، وصار الحديث الذى وُضع على أن يَسُرَّ النفوس يكرُبُها ويغُمّها .

ومَن كان صاحبَ علمٍ ممرَّناً موقَّحاً[1] ، إلفَ تفكير وتنقيب[2] ودراسة ، وحِلفَ تبيُّن ، وكان ذلك عادةً له ، لم يَضِره النَّظرُ فى كلّ فنٍّ من الجِدّ والهزل ؛ ليخرج بذلك من شكل إلى شكل . فإنَّ الأسماعَ قد تملُّ الأصوات المُطرِبة ، والأوتارَ الفصيحة ، والأغانىَّ الحسنة ، إذا طالَ ذلك عليها .

وقد رُوِى عن أبى الدّرداء رضى الله عنه أنه قال : « إنِّى لأستجمُّ نفسى[3] ببعض الباطل مخافةَ أن أَحمِلَ عليها من الحقّ ما يُملُّها » .

وقد روى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : « العلم أكثر من أن يُحصَى ، فخذوا من كلّ شىء أحسنَه » .

---

(١) واضحة فى الأصل بوضع علامة الإهمال تحت الحاء . والموقح : الذى أصابته البلايا فصار مجربا .

(٢) فى الأصل : «وتنقب» ،ونظيره فى الحيوان ٣ : ٦ « إلف تفكير وتنقير ، ودراسة كتب وحلف تبين » .

(٣) فى الحيوان ٣ : ٧ : « إنى لأجم نفسى » .

ورُوى عن الشَّعبى أنه قال : « إنّ القلوب تملُّ كما تَملُّ الأبدان ، فابتغوا لها طرائف الحكمة » .

وبعض من يُظهر النسك والتقشُّف إذا ذُكِر الحِرُ والأير والنَّيك تقزَّز وانقبض . وأكثر من تجده كذلك فإنما هو رجلٌ ليس معه من المعرفة والكرم[1] ، والنُّبل والوقار ، إلّا بقدر هذا التصنُّع .

ولو عَلِم أنَّ عبد الله بن عباسٍ أنشد فى المسجد الحرام[2] وهو مُحرِمٌ :

وهُنَّ يمشين بنا هميسا إنْ تَصدُقِ الطَّيرُ ننكْ لَميسا[3]

فقيل له : إنَّ هذا من الرَّفَث ! فقال : إنما الرَّفَث ما كان عند النساء .

وقول علىٍّ رضوانُ الله عليه ودخل على بعض أهل البصرة ، ولم يكن فى حَسَبه بذاك[4] ، فقال : مَن فى هذه البيوت ؟ فقال : عقائل من عقائل العرب . فقال : « مَن يَطُلْ أيرُ أبيه ينتطِقْ به[5] » .

١٦٤ و

فعلَى علىٍّ فى التَّنزُّه يُعَوَّل[6] .

---

(١) فى الحيوان ٣ : ٤٠ : « من العفاف والكرم » .

(٢) انظر حواشى الحيوان فى هذا الموضع .

(٣) الهميس : المشى الخفى الحس . ولميس : اسم امرأة .

(٤) فى الحيوان : « وقال بن أبى طالب بن أبى طالب رضى الله حين دخل على بعض الأمراء .

(٥) معناه من كثر إخوته اشتد ظهره وعزُّه بهم . مجمع الأمثال ٢ : ٢٢٨ .

(٦) فى الأصل : « افعلى على فى التزه معول » . وفى الحيوان ٣ : ٤٢ : « فعلى على رضى الله عنه يعول فى تنزيه اللفظ وتشريف المعانى » .

وقول أبى بكرٍ الصديق رضى الله عنه لبُديل بن وَرقاء يومَ الحُديبيَة ، وقد تهدَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عَضِضتَ ببَظْر اللات ، أنحنُ نخذُله[1] ؟ ! » .

وقول حمزة بن عبد المطّلب رضى الله عنه : « وأنت يا ابنَ مقطِّعة البُظور ممن يكثِّر علينا ! » .

وحديثٌ مرفوع : « مَن عَذِيرى من ابن أمِّ سِباع[2] مقطِّعة البُظور » .

ولو تتبَّعتَ هذا وشبهَه وجدته كثيرا .

وإنّما وُضعت هذه الألفاظُ ليستعملها أهل اللغة ، ولو كان الرأى ألّا يُلفظَ بها ما كان لأوّلِ كونِها معنًى ، ولكان فى التّحريم[3] والصَّون للُغة العرب أن تُرفع هذه الأسماء والألفاظ منها .

وقد أصاب كلَّ الصَّواب من قال : « لكلِّ مقامٍ مقال[4] » .

ولو كان ممّن يتصوّف ويتقشَّف، عَلِم قول امرأة رِفاعةَ القُرظىّ[5] تجبَهُه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم غيرُ محتشِمة : إنّى تزوّجت عبد الرحمن

---

(١) انظر التعليق عليه فى حواشى الحيوان ٣ : ٤٢ .

(٢) سباع هذا ، هو ابن عبد العزى الغبشانى ، السيره ٦١١ . وكانت أمه ختانة بمكة . السيرة ٥٦٣ .

(٣) فى الحيوان ٣ : ٤٣ : « فى الحزم » .

(٤) الحيوان ٣ : ٤٣ وأمثال الميدانى ٢ : ١٣٢ .

(٥) رفاعة بن سموأل القرظى . الإصابة ٢٦٦٣

ابن الزَّبِير[١] ، وإنّما معه مثل هُدبة الثَّوب[٢] ، وكنت عند رِفاعة فطلَّقنى ـ ورسول الله صلى الله عليه وسلم ما يَزِيد على التبسُّم[٣] حتى قضتْ كلامها ـ فقال : « تريدين أن تَرجعى إلى رفاعة ؟ لا ، حتَّى تذوقى من عُسَيلته ويذوقَ من عُسَيلتكِ[٤] » . ورَوَاه[٥] ابن المبارك عن مَعمر عن الزُّهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها ـ لعلم أنّه على سبيل التَّصَنُّع والرِّياء .

ولو سمعوا حديثَ ابن حازمٍ حين زعم أنَّه يُقيمُ ذَكَرَه ويصعد السُّلَّمَ وامرأتُه متعلِّقة بذكرِه حتَّى يصعَد .

وحديثَ ابن أخى أبى الزِّناد إذْ يقول لعمِّه : أَنْخَرُ عند الجماع ؟ قال : يا بُنيّ إذا خلوتَ فاصنع ما أحببت . قال : ياعمِّ ، أتنخَرُ أنت ؟ قال : يا بنيّ ، لو رأيت عمَّك يجامع لظننتَ أنّه لا يؤمن بالله العظيم !

---

(١) عبد الرحمن بن الزَّبِير ، بفتح الزاى وكسر الموحدة ، ابن باطيا القرظى . الإصابة ٥١١٣ .

(٢) فى الأصل : « الثور » ، وهو تحريف عجيب ، صوابه فى صحيح مسلم ١٠٥٥ وابن ماجه ٦٢١ واللسان (هدب) ، قال : « أرادت متاعه وأنه رخو مثل طرف الثوب لا يغنى عنها شيئاً » . والحديث أيضا فى صحيح البخارى (كتاب الطلاق) ولفظه فيه : « فذكرت أنه لا يأتيها ، وأنه ليس معه إلا مثل هدبة » . وهو أيضاً فى (كتاب اللباس) بلفظ . « وإنه والله ما معه يا رسول الله إلا مثل هذه الهدبة ، وأخذت هدبة من جلبابها » ونظير هذا اللفظ فى مسلم ١٠٥٦ وانظر الموطأ ٥٣١ .

(٣) فى الأصل : « على الرمر » ، صوابه من صحيح البخارى (كتاب اللباس : باب الإزار المهدب) .

(٤) كناية عن المخالطة . وقد بسط الكلام عليها فى اللسان (عسل) .

(٥) فى الأصل : « وروى » . وإنما هو إسناد للحديث السابق . وهو فى صحيح مسلم من طريق عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن عروة عن عائشة .

وهذان من ألفاظ المُجّان .

ورُوِى عن بعض الصَّالحين من التابعين رحمهُ الله ، أنه كان يقول فى دعائه : اللهمَّ قَوِّ ذَكَرِى على نكاحِ ما أحللتَ لى .

ونحن لم نقصد فى ذكرنا هذه الأخبارَ الردَّ على من أنكرَ هذه الأمور ، ولكنَّا لما ذكرنا اختصام الشِّتاءِ والصيف[1]، واحتجاج أحدهما على صاحبه ، واحتجاج صاحب المعز والضَّأن بمثل ذلك[2] ، أحببنا أن نذكر ما جَرى بين اللاَّطة والزُّناة ، وذكرنا ما نقل حُمَّال الآثار ورَوَتْه الرُّواة ، من الأشعار والأمثال ،وإن كان فى بعض البَطالات[3] ، فأردنا أن نقدِّم الحُجَّة لمذهبنا فى صدر كتابنا هذا . ١٦٤ ظ

ونعوذ بالله أن نقول ما يُوتِغ ويُردِى[4] ، وإليه نرغب فى التأييد والعصمة ، ونسأله السلامة فى الدِّين والدُّنيا برحمته .

* * *

قال (صاحب الغلمان) : إنّ من فضل الغلام على الجارية أن الجارية إذا وُصفت بكمال الحسن قيل : كأنَّها غلامٌ ، ووصيفةٌ غُلاميّة .

قال الشاعر يصف جارية :

لها قدُّ الغلام وعارِضاهُ وتفتير للبتَّلة اللَّعوبِ

---

(١) ذكره ياقوت فى معجم الأدباء ١٦ : ١٠٧ بلفظ « كتاب افتخار الشتاء والصيف » .

(٢) يشير إلى ما أورده فى كتاب الحيوان ٥ : ٤٥٥ — ٥١١ .

(٣) البطالة ، بفتح الباء : الهزل . بَطِل يبطَل بَطالة .

(٤) أوتغه وأرداه : أهلكه .

وقال :

فطِبْ لحديثٍ من نديم موافقٍ وساقيةٍ بَيْنَ المُرَاهَقِ والحُلْمِ[١]

إذا هى قامت والسُّداسىّ طالَها وبين النَّحيف الجسمِ والحسَن الجسمِ[٢]

وقال والبة بن الحُباب :

وميراثيَّـــــة تمشى اختيالاً من التكريه قاتلة الـكلام[٣]

لهـا زِىُّ الغـــلام ولم أقِسْها إليه ولم أُقصِّر بالغـــلام

وقال عُـكَّاشة[٤] :

مطمومة الشَّعر فى قُمْصٍ مزرَّرةٍ فى زىّ ذى ذكرٍ سِيماهُ سِيماها[٥]

وأكثر من قول الشاعر قول الله عزّ وجلّ : ﴿ يَطُوفُ عليهمْ غِلمانٌ لهمْ كأنَّهمْ لؤلؤٌ مكنونٌ[٦] ﴾ وقال تبارك وتعالى : ﴿ يَطُوف عَلَيهمْ وِلْدانٌ مُخلَّدُونَ . بأكوابٍ وأبارِيقَ[٧] ﴾. فوصفَهم فى غير موضعٍ من كتابه، وشوّقَ إليهم أوْلياءهُ .

١٦٥ و قال (صاحب الجوارى) : قد ذكر الله جلَّ اسمُهُ الحُورَ العينَ أكثرَ ممـا ذكر الوِلدان ، فما حجَّتكَ فى هذا إلا كحجَّتنا عليك .

---

(١) أى بين المراهقة والاحتلام .

(٢) السداسى : الذى طوله ستة أشبار .

(٣) كذا ورد البيت محرفا

(٤) هو عكاشة بن عبد الصمد العمى ، من أهل البصرة ، من بنى العم وهو شاعر مقل من شعراء الدولة العباسية ، له ترجمة فى الأغانى ٣ : ٧٣ — ٧٧

(٥) طم شعره : جزه أو عض منه .

(٦) الطور ٢٤ .

(٧) الواقعة ١٧ — ١٨ .

وممّا صان الله به النّســاء أنّه جعل فى جميع الأحكام شاهِدَين : منها الإشراكَ بالله ، وقتلُ النّفْس التى حرّم الله تعالى ؛ وجَعَل الشهادةَ على المرأة إذا رُميت بالزّنى أربعةً مجتمعِين غير مفترقين فى موضعٍ ، يشهدون أنّهم رأوه مثلَ المِيل فى المُكحُلَة[1] . وهذا شىءٌ عَسِير ؛ لما إراد الله من إغماض هذا الحدّ[2] إذ جعل فيه الشّدخَ بالحجارة .

وإنّما خلق الله الرّجال بالنساء .

وريحُ الجارية أطيَبُ ، وثيابُها أعطَر ، ومِشيتُها أحسن ، وتَغْمتها[3] أرقّ ، والقلوب إليها أمْيَل . ومتى أردتَها من قُدَّامٍ أو خَلْفٍ من حيث يَحسُن ويحلّ وجدتَ ذلك كما قال الشاعر :

وصيفةٌ كالغُلامِ تصلح لل * أمرَينِ كالغُصنِ فى تثنّيهــا[4]

أكلَها اللهُ ثم قالَ لهـــا لما استَتَمّتْ فى حُسنِها : إيها[5]

قال : ونظر بعض الحاجّ إلى جاريةٍ كأنها دُمية فى محراب ، قد أبْدت عن ذراعٍ كأنه جُمّارة ، وهى تَتكلّمُ بالرّفَث ، فقال : يا هذه ، تَتكلّمين بمثل هذا وأنت حاجّة ! قالت : لستُ حاجّةً ، وإنما يحجُّ الجملُ ، ألست ترانى

---

(١) الميل : المرود يكتحل به .

(٢) يعنى حد الزنى . ووقعت فى نشرة شارل « الحكم » ، خطأ مخالفا الأصل .

(٣) فى الأصل : « ومشيها أحسن » والوجه ما أثبت . و فى نشرة شارل : « وتغمها » ، خلافا لما فى الأصل الذى لم ينبه عليه .

(٤) فى الأصل : « للغلام » ، وصححها شارل بدون تنبيه .

(٥) إيها بمعنى حسبك ، كما فى اللسان .

جالسةٌ وهو يمشى ! قال : ويحكِ ، لم أر مثلَك فمن أنتِ ؟ قالت : أنا من اللواتى وصفهنَّ الشَّاعر(١) فقال :

ودَقّت وجَلّت واسبَكَرّت وأُكمِلتْ
فلو جُنَّ إنسانٌ من الُحسن جُنَّتِ

قال (صاحب الغلمان) : إنّ أحداً لا يدخل الجنّة إلا أمردَ ، كما جاء فى الحديث : « إنّ أهلَ الجنّة يدخلونها جُرْدًا مكحَّلين » . والنِّساء إلى المُرْدِ أميَل ، وله أشهى ، كما قال الأعشى :

وأرى الغوانىَ لا يواصلن امرأً
فَقَدَ الشَّبابَ وقد يَصِلْنَ الأمردا(٢)

وقال امرؤ القيس :

فيارُبَّ يومٍ قد أروحُ مرجَّلًا
حبيبًا إلى البيض الأوانسِ أملسا(٣)
أراهن لا يُحبِبنَ مَن قَلَّ مالُه ١٦٥ ظ
ولا مَن رأين الشَّيب فيه وقوّسا

---

(١) هو الشنفرى الأزدى . المفضليات ١٠٩ والحيوان ٣ : ١٠٨ والبيان ٣ : ٢٢٤ ومجالس ثعلب ٤٢٦ .

(٢) ديوان الأعشى ١٥١ برواية : « إن الغوانى » .

(٣) ديوان امرئ القيس ١٠٦ — ١٠٧ . وصواب روايته : «ويارب يوم» ، وفى الديوان أيضاً : « إلى البيض الكواعب » والأملس : الناعم ، أو النقى من العيوب . وقبله :

فيارب مكروبٍ كررت وراءه وطاعنت عنه الخيل حتى تنفسا

وقال عَلْقمة بن عَبَدَة :

فإنْ تســـألونى بالنِّساء فإنّنى بَصــيرٌ بأدواء النِّساء طبيبُ[١]
إذَا شابَ رأسُ المرء أو قلّ ماله فليس له فى ودِّهن ّ نصيبُ
يُرِدْنَ ثَراءَ المـالِ حيث علِمنَه وشَرخُ الشَّباب عندهنّ عجيبُ

قال (صاحب الجوارى) : فإنّ الحديث قد جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم : « حُبّب إلىَّ النِّساء والطِّيب ، وجُعلَ قُرَّةُ عينى فى الصَّلاة[٢] » . ولم يأت للغلمان مثلُ هذه الفضيلة . وقد فُتِن بالنساء الأنبياء عليهم السلام ، منهم داودُ ، ويُوسفُ ، عليهما السلام[٣] .

قال (صاحب الغلمان) : لو لم يكن من بليّة النساء إلّا أنّ الزِّنى لا يكون إلّا بهنّ[٤] ، وقد جاء فى ذلك من التغليظ ما لم يأتِ فى غيره فى الـكتاب نصًّا ، وفى الروايات الصحيحة . قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا ٱلزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا[٥] ﴾ ، وقال : ﴿ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ

---

(١) ديوان علقمة ١٣١ — ١٣٢ والمفضليات ٣٩٢ والبيان ٣ : ٢٣٩ والشعر والشعراء ١٧١ .

(٢) الجامع الصغير ٣٦٦٩ . والرواية : « جعلت » .

(٣) فى الأصل : « عليهم السلام » .

(٤) كذا وردت العبارة محذوفة الجواب ، ونحو هذا كثير فى الـكتاب العزيز وكلام العرب .

(٥) فى الأصل : « فاحشة ومقتا وساء سبيلا » . وهو تحريف للآية ٣٢ من سورة الإسراء . وفى سورة النساء ٢٢ : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا » . وانظر ما كتبت فى تحريف آيات القرآن فى كتابى تحقيق النصوص ص ٣٩ .

يَلْقَ أَثَامًا . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا[١] ﴾ ، وقال :
﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ
بِهِمَا رَأْفَةٌ[٢] ﴾ . وقد جعل بينهما[٣] إذا لم يكن شهودٌ التلاعُنَ والفُرقة
فى عاجل الدُّنيا ، إلى ما أعدَّ للكاذب منهما[٤] من اللَّعن والغضب فى الآخرة .

قال (صاحب الجوارى) : ما جَعَل الله من الحدّ على الزّانى إلّا ما جعل
على اللُّوطىّ مثلَه . وقد رُوى عن على بن أبى طالبٍ رضى الله عنه ، أنّه أُتِىَ
بلُوطىٍّ ، فأُصعِدَ المئذنةَ ثم رُمِىَ منكَّساً على رأسه ، وقال : « هكذا يُرمَى به
فى نار جهنّم » .

وحُدِّث عن أبى بكر ، رضى الله عنه ، أنّه أُتِىَ بلوطىٍّ فعرقَبَ عليه
حائطا[٥] .

وحديث أبى بكر أيضاً رضى الله عنه ، أنَّ خالد بن الوليد كتب إليه
فى قومٍ لاطُوا فأمر بإحراقهم .

وأحرقهم هشام بن عبد الملك ، وأحرقهم خالد بن عبد الله بأمر هشام . ١٦٦ و

وفى حديث مجاهد أنَّ الذى يعمل عملَ قومِ لُوطٍ لو اغتسلَ بكلِّ قطرةٍ
من السَّماء وكلِّ قطرة فى الأرض لم يزَلْ نجِسًا .

---

(١) الفرقان ٦٨ — ٦٩ .
(٢) النور ٢ .
(٣) فى الأصل : « بينهم » .
(٤) فى الأصل : « منها » .
(٥) أصله عن عرقب الدابة : قطع عرقوبها ، وهو فى رجلها بمنزلة الركبة فى يدها . والمعنى هدم عليه جدارا .

وحديث الزُّهرىّ : « اللُّوطىّ يُرجَم ، أُحصِنَ أو لم يُحصَنْ ؛ سُنّةٌ ماضيةٌ » .

ورُوى عن الحكم بن عُتَيْبَة[1] أن عليًّا رحمه الله رجمَ لوطيًّا وقال : « لعن رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الذّكرينِ يَلعَبُ أحدُهما بالآخَر » .

وحديث أنسٍ قال : « لعَن رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المؤنّثين من الرجال ، والمذكّراتِ من النساء[2] » .

وقد نَفَى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مُخنَّثًا من المدينة يقال له « هِيتٌ[3] » وسمِعَه يقول لأمّ سَلَمة زوجِ النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا فَتحتم الطّائفَ فعليكِ بادِيَةَ بنتَ غَيْلان[4] ، فإنها هَيفاء شَموع[5] ، إذا

---

(١) الحكم بن عتيبة الكندى ، سمع بعض الصحابة والتابعين ، وحدث عنه الأعمش وقتادة وشعبة وغيرهم . ولد سنة ٥٠ وتوفى سنة ١١٣ تهذيب التهذيب . وفى الأصل : «بن عينية » ، تحريف .

(٢) الحديث فى الجامع الصغير ٧٢٦٨ من حديث ابن عباس .

(٣) قال ابن حجر فى فتح البارى ٨ : ٣٥ : «وهو بكسر الهاء وسكون التحتانية بعدها مثناة . وضبطه بعضهم بفتح ، وأما ابن درستويه فضبطه بنون ثم موحدة ، وزعم أن الأول تصحيف . قال : والهنب : الأحمق » .

(٤) حديثها فى صحيح البخارى . انظر فتح البارى ٨ : ٣٥/٩ : ٢٩٣/١٠ : ٢٨٠ ويروى : « ببادية » ، والأكثر إثبات الباء مع مفعول أسماء الأفعال كما ذكر الرضى . ومن حذفها قوله تعالى : « عليكم أنفسكم » . الصبان ٣ : ٢٠٠ .

(٥) الهيفاء : الضامرة البطن . والشموع : الآنسة اللعوب الضحوك .

قامت تثنّت ، وإذا تكلّمتْ تغنّتْ ، تُقبِل بأربعٍ وتُدبِرُ بثمانٍ[1] ، وبين رجليها كالإناء المكفوء ، فزوِّجيها عُمرَ ابنَكِ» . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد تغلغلتَ فى النظر ياعدوَّ الله[2] ، وما ظننتُك من ذوِى الإربة[3] ! » ، فنفاه عن المدينة .

قال (صاحب الغلمان) : من عيوب المرأة أنّ الرجلَ إذا صاحبَها شيَّبتْ رأسَه ، وسهّكت ريحَه ، وسوّدت لونَه ، وكثّر بولُه . وهنّ مصايد إبليس وحبائلُ الشيطان ، يُتعِبن الغنيَّ ، ويكلِّفن الفقير ما لايجد . وكم من رجلٍ تاجرٍ مستُورٍ قد فلّسته امرأتُه حتّى هامَ على وجهه ، أو جلسَ فى بيته ، أو أقامته من سُوقه ومَعاشه .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما تركتُ بعدى فتنةً أضرَّ على الرجال من النِّساء[4] » .

قال (صاحب الجوارى) : قد جاء الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « تزوَّجوا فإنِّى مُكاثرٌ بكم الأمم[5] » .

وجاء عنه : « إذا قضيتُم غزوَكم فالكَيْسَ الكَيْسَ » . يعنى النكاح .

---

(١) تقبل بأربع ، يعنى عكن بطنها ، أنها أربع . وتدبر بثمان ، يعنى أطراف العكن من عن يمين وشمال : أربع وأربع . انظر هذا التفسير النادر فى فتح البارى . وفى اللسان (ستت) : «تمشى على ست إذا أقبلت ، وعلى أربع إذا أدبرت» وانظر اللسان (سدس) أيضا .

(٢) وقع فى نشرة شارل : « ياعبد الله » . خلافا لما أثبت واضحا فى الأصل .

(٣) قال ابن حجر فى فتح البارى ٨ : ٣٥ : «وهو بكسر الهاء وسكون التحتانية

(٤) الحديث فى الجامع الصغير ٧٨٧١ .

(٥) الجامع الصغير ٣٢٨٧ .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « مِسكينٌ مِسكينٌ رجلٌ لا زوجةَ له . مسكينةٌ مسكينةٌ امرأةٌ لا بعلَ لها » .

وجاء عنه صلى الله عليه وسلم : « تزوّجوا والتمِسُوا الولدَ ؛ فإنّهم ثمراتُ القلوب . وإيّاكم والعُجُزَ العُقُر » . ١٦٦ ظ

وكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أكثرَ أهلِ عصره نساء ، وكذلك كانت الأنبياء عليهم السلامُ قبله .

وقد أنبأك الله عزّ وجلّ بخبر داود عليه السلامُ فى القرآن ، وما رُوى أنّه كان لسليمان عليه السلام .

وقد تزوّج ابنُ مسعودٍ فى مرضه الذى مات فيه .

وقال مُعاذ : زوِّجونى لا ألقى الله تعالى وأنا عَزَب[1] .

ورُوى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : إنى لأُجهِد نَفسى فى النِّكاح حتّى يُخرِجَ الله منّى نسمةً تسبِّحه[2] .

وروى أنه قال : عليكم بالأبكار الشّواب ؛ فإنهنَّ أطيبُ أفواهًا ، وأنتق أرحاما[3] .

والحديث فى هذا أكثر من أن نأتىَ عليه .

---

(١) نحوه ما جاء فى البخلاء ١٣٢ — ١٣٣ . « وقد قال أبو الدرداء فى وجعه الذى مات فيه : زوجونى فإنى أكره أن ألقى الله عَزبا » .

(٢) قرأها شارل : « شبهة بشيخه » ، مع وضوح ما أثبت من الأصل .

(٣) الجامع الصغير ٥٥٠٧ — ٥٥٠٩ . واللسان (نتق) . أنتق أرحاما : أكثر أولادا ، وأصل النتق الرمى ، يقال للمرأة ناتق لأنها ترمى بالأولاد رميا . وفى الأصل : « أفتق » ، تصحيف .

قال (صاحب الغلمان) : إنَّ من عيوب الجوارى أنَّ الرجل إذا اشترى الوصيفةَ إلى أن يستبرئها محرَّمٌ عليه[1] أن يستمتع بشىء منها قبل ذلك ، والوصيف لا يحتاج إلى ذلك . وقد قال الشاعر :

فديتُكَ إنّما اخترناك عَمْدًا لأنك لا تحيض ولا تَبِيضُ

وقد جاء فى الحديث أنَّ الزِّنى فيه ست خصال : ثلاث فى الدنيا وثلاث فى الأخرى . فأما التى فى الدنيا فيذهب بالبهاء ، ويعجّل الفناء ، ويقطعُ الرِّزق من السماء . وأمّا اللواتى فى الآخـرة فالحسابُ ، والعذاب ، ودخول النار .

ورُوى عن مجاهدٍ ، قال : إنَّ لأهل النار صرخةً من ريح الزُّناة .

وقالوا : إن أهل النار ليتأذَّونَ بريح الزُّناة .

قال (صاحب الجوارى) : لم نسمع بعاشقٍ قَتَلَهُ حبُّ غلام . ونحن نعدُّ من الشّعراء خاصةً الإسلاميِّين جماعةً ، منهم جَميل بن مَعْمَر قتله حبُّ بُثينة ، وكُثيِّرٌ قتله حبُّ عَزّة ، وعُرْوة[2] قتـله حبّ عفراء ، ومجنون بنى عامر هيَّمتْه ليلى ، وقَيس بن ذَرِيح قتلتْه لُبنى ، وعبد الله بن عَجْلان[3]

---

(١) فى الأصل : « محرمة عليه » . والاستبراء : ألا يمسها حتى يستبرئها بحيضة ، أى يعلم براءتها من الحمل . قرأها شارل « يشتريها » خطأ .

(٢) عروة بن حزام العذرى . الشعر والشعراء ٦٠٤ — ٦١٠ والأغانى ٢٠ : ١٥٢ — ١٥٨ والخزانة ١ : ٥٣٣ — ٣٥٦ وتزيين الأسواق ٧٠ .

(٣) عبد الله بن عجلان النهدى ، شاعر جاهلى . يقول فى هند :

ألا إن هندا أصبحت منك محرما وأصبحت من أدنى حموتها حما

الشعر والشعراء ٦٩٥ . وانظر الأغانى ١٩ : ١٠٢-١٠٥ وتزيين الأسواق ٧٦

قتلته هند ، والغمر بن ضرار قَتلته جُمْل . هؤلاء من أحصينا ، ومن لم نذكر أكثر .

١٦٧ و قال (صاحب الغلمان) : لو نظر كثيِّر وجميلٌ وعروةُ ، ومَن سمِّيتَ من نظرائهم ، إلى بعضِ خَدَم أهل عصرنا ممن قد اشتُرِىَ بالمال العظيم فَراهة وشَطاطاً[1] ونقاء لون ، وحُسنَ اعتدالٍ ، وجَودةَ قدٍّ وقَوام ، لنبذوا بُثَينة وعَزّة وعَفراء من حالقٍ[2] ، وتركوهُنّ بمزجَرِ الكلاب . ولكنك احتجَجتَ علينا بأعرابٍ أجلافٍ جُفاة ، غُذُوا بالبؤس والشَّقاء ونشؤوا فيه ، لا يعرِفون من رَفَاغة العَيش[3] ولذّاتِ الدنيا شيئاً ، إنّما يسكنون القِفارَ ، وينفِرون من الناس كنُفور الوحش ، ويقتاتون القنافذَ والضِّباب ، وينقُفون الحنظل[4] ، وإذا بلَغ أحدُهم جُهْدَهُ بكى على الدِّمنة ونَعَت المرأة ، ويشبّهها بالبقرة والظَّبية ، والمرأةُ أحسنُ منهما . نعم حتَّى يشبِّهها بالحَيَّة ، ويسمِّيها شوهاء وجرباء ، مخافة العين عليها بزَعمه .

فأمَّا الأدباء والظرفاء فقد قالوا فى الغلمان فأحسنوا ، ووصفُوهم فأجادوا ، وقدّموهم على الجوارى ، فى الجدّ منهم والهزل .

---

(١) الشطاط ، كسحاب : الطول واعتدال القوام ، وقيل حسن القوام .

(٢) الحالق : الجبل العالى . وفى الحديث : « فهممت أن أطرح بنفسى من حالق » .

(٣) الرفاغة : رغد العيش وطيبه .

(٤) ينقفون الحنظل : يشقونه عن الهبيد ، وهو حبه يستخرجونه ليأكلوه وجعلها شارل : « وينفعون » بالعين ا وانظر الحيوان ٥ : ٤٤٣ .

وقال الشاعر يصف الغلام :

شبيهٌ بالقضيبِ وبالكثيب غريبُ الحسن فى قدٍّ غريبِ
بَرَاه الله بدرًا فوقَ غصنٍ ونيطَ بحقوه دِعصُ الكثيبِ[1]
أغَنُّ تَوَلَّدُ الشهواتُ منه فما تَعدوه أهواءُ القلوبِ
وما اكتحلت به عينٌ ففاتت مسلَّمةَ الضميرِ من الذُّنوبِ
شَغلتُ به الهَوَى ونزَعتُ عنه ولم أُدنَس به دَنَسَ المُريبِ

وقال آخر :

كلِفتُ بظبيٍ له سوالفُ أُدمانَهْ[2]
قضيبٌ على رَمْلةٍ على شُعبتَىْ بَانه
له لحظُ وحشيّةٍ وألفاظُ إنسانَه

وقال أبو نواس :

سَقْيًا لغير العلياءِ والسَّنَدِ وغيرِ أطلال مَىَّ بالجَرَدِ[3]
ويا صبيبَ السَّحاب إن كنت قد جُدتَ اللِّوَى مرةً فلا تَعُدِ
لا تَسقيَنْ بلدةً إذا عُدَّت الـ بُلدانُ كانت زيادةَ الكَبِدِ[4]

(١) الدعص : قور من الرمل مجتمع . وفى الأصل . « دعص كثيب » .

(٢) الأدمانة ، بضم الهمزة : الظبية الخالصة البياض ، ومثلها فى وزنها الخمصانة . وقد أنكر الأصمعى الأدمانة مع ورودها فى شعر ذى الرمة .

(٣) الجرد : جبل فى ديار بنى سليم . وفى الأصل : « بالجدد » ، صوابه فى ديوان أبى نواس ٢٦٥

(٤) زيادة الكبد : هنة متعلقة منها تزيد على سطحها . وفى الأصل : « الكمد » صوابه من الديوان

١٦٧ ظ

إنْ أَتحرّزْ من الغُــــراب بها يكن مَفَرِّى منه إلى الصُّرَدِ[١]

بحيث لا تجلب الفِجاجُ إلى أذنيك إلاَّ تَصــايُحَ النَّقَدِ[٢]

أحسنُ عندى من انكبابك بالـ فِهْر مُلحًّـــــا به على وتدِ[٣]

وُقوفُ ريحـــانةٍ على أُذنٍ وسَــيرُ كأس إلى فمٍ بيــدِ

يَسقيــكها من بنى العِباد رشأً منتسبٌ عِيــدُه إلى الأحدِ[٤]

إذا بنى المـاء فوقَهـــا حَببًا صلَّبَ فوق الجبــين بالزَّبَدِ

أشربُ من كفِّه الشمول ومن فيه رُضاباً [يجرى] على بَرَدِ[٥]

فذاك خَيرٌ من البكاء على الـ رَّبعِ وأَنمَى فى الرُّوح والجسَدِ

قال (صاحب الجوارى) : فقد قال أبو نُواسٍ الحكمىُّ شاعركم أيضاً :

لا تبكِ ليــــلَى ولا تطرَبْ إلى هنـــدِ

واشربْ على الوردِ من حمــــراءَ كالوردِ

---

(١) فى الأصل : « إذا تحدى مر الغراب بها » ، صوابه من الديوان . والصرد بضم ففتح طائر فوق العصفور.

(٢) الفجاج : جمع فج ، وهو الطريق الواسع . وفى الديوان : « الرياح » . والنقد : صغار الغنم ، واحدتها نقدة .

(٣) فى الديوان : « على الوتد » .

(٤) العباد : قوم من قبائل شتى من بطون العرب ، اجتمعوا على النصرانية ونزلوا بالحيرة .

(٥) الشمول : الخمر . وفى الأصل : « من كفه رضابا » ، صوابه فى الديوان . وكلة « يجرى » ساقطة من الأصل . وفى الديوان : « تجرى » .

كأساً إذا انحدرتْ فى حَلْقِ شاربِها
رأيتَ حمرتَها فى العينِ والخدِّ[١]

فالخمر ياقوتةٌ والكأسُ لؤلؤةٌ
من كفِّ لؤلؤةٍ ممشوقة القدِّ[٢]

تَسقيك من عَينها سحراً ومن يدها
خمراً فما لك من سكرينِ من بُدِّ[٣]

لى نَشوتانِ وللنَّدمانِ واحدةٌ
شىءٌ خُصصتُ به من بينهم وحدى[٤]

وقال أيضاً :

دع عنك لَومى فإنَّ اللومَ إغراء ... وداوِنى بالتى كانتْ هى الداء[٥]

صَفراء لاتنزِل الأحزانُ ساحتَها ... لو مَسَّها حجرٌ مسَّته سَرَّاء

من كفِّ ذات حِرٍ فى زىِّ ذى ذكر ... لهـا مُحبّانِ : لوطىٌّ وزنّاء

قامت بإبريقها والليلُ معتكرٌ ... فظَلَّ من وجهها فى البيت لألاء[٦]

---

(١) فى الديوان ٢٦٥ : « أجدته حمرتها » .

(٢) فى الديوان : « فى كف جارية » .

(٣) فى الديوان : « من يدها خمرا ومن فمها » .

(٤) الندمان ، بالفتح : النديم على الشراب ، يكون مفرداً ويكون جمعا كما هنا فى البيت .

(٥) ديوان أبى نواس ٢٣٤ .

(٦) فى الديوان : « فلاح من وجهها » .

فأرسلتْ من فمِ الإبريق صافيةً كأنَّما أخذُها بالعين إغفاءُ[1]

فى فتيةٍ زُهُــــرٍ ذلَّ الزمانُ لهم فما يصيبُهمُ إلاَّ بما شاءوا[2]

لِتلك أبكى ولا أبــكى لمنزلةٍ كانت تكون بها هندٌ وأسماءُ[3]

[قال صاحب الغلمان[4]] . . . . . وقال النظام : ١٦٨ و

بانَ بكَ الشَّـــكل والنَّظيرُ وجلَّ عن وصفك الضَّميرُ[5]

فليس يُخطِيكَ فى امتحـــانٍ صغــيرُ أمرٍ ولا كبــيرُ

خُلقتَ من مثلِ لا عِيـانٍ جسماً على أنّه منـــيرُ

فأنت عنـــد المَجَسِّ نارٌ وأنت عنـد اللّحاظ نورُ[6]

وقال أبو هشامٍ الخرَّاز :

يا مَن تعدَّى العبادَ من شبَهِه لمَّا قَصُرنَ الصِّفاتُ عن كُنهِه

ويا غــــزالاً يَسبِى بلحظَته مكتحِلاً راحَ أو على مرهِهِ[7]

يَجعَلُ قتـــلَ النُّفوس نزهتَه يوشكُ يُفْنى النُّفوسَ فى نُزَهِه

لبَّيك داعٍ دعَا فقلتُ له والقَلبُ فى كربه وفى ولَهِه

---

(١) فى الأصل : « كأنها أخذها » ، وأثبت ما فى الديوان .

(٢) فى الديوان : « دارت على فتية دار الزمان بهم » .

(٣) فى الديوان : « كانت تحل بها » .

(٤) ليست فى الأصل .

(٥) يقول : بَعُدَ أن يكون لك مشاكل أو مناظر وفى الأصل: «والفطير» ، والوجه ما أثبت .

(٦) فى الأصل : « عند المجس نور » ، والوجه ما أثبت

(٧) المرَه : ضد الكحل وامرأة مرهاء : لا تتعهد عينها بالكحل .

هذا فــؤادى أتاكَ مبتدعاً طَوعاً ولم يأتكمْ على كُرْهِهِ
يَشرَهُ منكم إلى مواصلةٍ يا بُوسَ قلبٍ يذوبُ من شَرهِهِ
فالآن قل للخيال يطرقُ مَنْ أعيا عليه وِصالُ منتبِهِهْ

وقال الحكَمى[1] :

رَسْمُ الكَرَى بين الجفون مُحِيلُ عفَّى عليه بُكاً عليكَ طويلُ
يا ناظراً ما أقلعَتْ نظراتُه حتّى تشحَّطَ بينهنَّ قتيلُ[2]
أحللتُ من قلبِي هواكَ محلَّةً ما حلَّها المشروبُ والمأكولُ

وقال أيضاً :

لى حبيبٌ كلَّما زاد فى جفوتهِ لى كان أشهَى
هو وجهٌ كلُّه فى كلِّ ما نَظرتْ عيناكَ منه كان وجها
وكذا الدُّرَّةُ لا يَدرِى الفتى أيُّها من أيِّها فى العَينِ أبهى

وقال أيضاً :

١٦٨ ظ

أفنيتُ فيكَ معانىَ الشكوى وصفاتِ ما ألقى من البلوى[3]
قلَّبتُ آفاقَ الكلام فما أبصرتُنى أغفلت عن معنى
وأعُدُّ مالا أشتكى غَبَناً فأعودُ فيه مرّةً أخرى[4]

---

(١) أبو نواس . ديوانه ٣٨٨ ، يقوله فى صاحبته « جنان » . فالاستشهاد به هنا فى غير موضعه .

(٢) فى الديوان : « ما أقلعت لحظاته » . تشحط فى دمه وبدمه : تخبط فيه واضطرب .

(٣) هى أول مقطوعة فى غزل المذكر من ديوان أبى نواس ص ٤٠٢ .

(٤) كذا فى الديوان . وفى الأصل : « مالا أشتهى عيشا » .

فلوَ أنَّ ما أشكو إلى بشرٍ لأراحنى ظنِّى من الشَّكوى
لكنَّنى أشكو إلى حجرٍ تنبو المعاولُ عنه بل أقسَى[1]

فهذا وشبهه من الشعر كثير .

وإذا جئتَ إلى أصحاب الهزْل كقول بعضهم ممَّن ذمَّ النساء :

هذه الخمرُ فاشربِ واسقنى يا ابنَ مصعبِ[2]
اسقنيها وغنِّنى : مَن لقلبٍ معذَّبِ
طمِعَتْ فىَّ طَفْلَةٌ ربَّ راجٍ مجنَّبِ[3]
قلتُ لمَّا رأيتها أسفرَتْ لى : تنقَّبِى
لستُ والله مُدخِلًا إصبَعِى جُحْرَ عقربِ

وقال آخر :

لا أبتغى بالمُردِ مطمومةً ولا أبيع الظَّبىَ بالأرنبِ[4]
لا أُدخِل الجُحْرَ يدى طائعاً أخشى من الحيَّة والعَقربِ

وقال آخر :

ليس لى فى الحِرِّ حاجَه نَيكُه عندى سَماجه[5]

---

(١) فى الديوان : « منه أو أقسى » .

(٢) هذا البيت وتاليه فى ديوان أبى نواس ٢٤٨ برواية :

اسقنى يا ابن مصعب من سلافات زرنب
اسقنيها وغنِّنى : مَنْ لصب معذب

(٣) الطفلة ، بالفتح : الرخصة الناعمة الرقيقة .

(٤) المطمومة ، سبق تفسيرها فى ص ٩٦ .

(٥) الحر بكسر الحاء وتشديد الراء كما ضبط فى الأصل : لغة فى الحر =

ما يَنيكُ الحرَّ إلّا كلُّ ذى فقرٍ وحاجه
فإذا نكتم فنيكوا أمرداً فى لون عاجَه

وقال يوسف لَقْوه[١] :

ما يساوِى نَيكُ أنثَى عند أيرى بَعرتَينِ
إنّما نَيكُ الجوارى حَلُّ دَيْنٍ بعدَ دينِ
ليس للأيرِ حياةٌ غير ريحِ الُخصيتَينِ

١٦٩ و

وهو الذى يقول :

وعلى اللُّواط فلا تلُومَنْ كاتبًا إنّ اللِّواطِ سجيَّةٌ فى الكاتبِ
ولقد يتُوب مِن المحارم كلِّها ، وعن الُخصَى ما عاشَ ليس بتائب

وقال الحَكَمىّ :

لَلطمةٌ يَلطِمنى أمردٌ تأخذُ منّى العينَ والفكّا[٢]
أطيبُ من تُفّاحةٍ فى يدِى معضوضةٍ قد ملئتْ مِسْكا

وقال آخر :

إنْ تَزنِ محصَنَةٌ تُرجَمْ عَلانيَةً وإن يَلُطْ عَزَبٌ لا يُرجمِ العَزَبُ

= بالتخفيف ، وهو الهن ، كما فى اللسان (حرح) . وأصله حرح ، فحذفوا الحاء الأخيرة وشددوا الراء .

(١) فى الأصل : «أبو يوسف لقوة» صوابه ما أثبت . وهو يوسف بن الحجاج الصيقل ، والصيقل لقب أبيه فيقال أيضاً يوسف بن الصيقل ، ولقوة لقب يوسف . وكان كاتباً مولده ومنشؤه بالكوفة ، وكان يصحب أبا نواس ويأخذ عنه ويروى له وكان فاسقا مجاهرا باللواط . وله أخبار مع هارون الرشيد . الأغانى ٢٠ : ٩٣-٩٦ .

(٢) لم أجده فى ديوان أبى نواس .

وقال آخر :

أيسرُ ما فيـــه من مفاضَلةٍ أمْنُكَ من طَمثِه ومن حَبَـلِه

وهذا قليلٌ من كثيرِ ما قالوا ، فقد قالت الشعراء فى الغلام فى الجدّ والهزل فأحسَنُوا ، كما قالت الشعراء فى الغَزَل والنَّسيب ، ولا يَضِير[١] المحسنَ منهم أقديماً كان أو محدَثاً .

قال (صاحب الجوارى) : أمّا أنت فحيث اجتهدتَ واحتفلتَ جئت بالحكَمىّ ، والرَّقاشىّ ، ووالبَـة ، ونظرائهم من الفُسَّاق والمرغوب عن مذهبهم ، الذين نبغوا فى آخر الزمان ، سُقّاطٌ عند أهل المروءات ، أوضاعٌ عند أهل الفضل[٢] ؛ لأنّهم وإن أسهبوا فى وصف الغلمان ، فإنما يمدحون اللّوَاطَ ويُشيِدون بذكره .

وقد علمتَ ما قال الله تبارك وتعالى فى قوم لوطٍ ، وما عجّلَ لهم من الخزى والقذف بالحجارة ، إلى ما أعَدَّ لهم من العذاب الأليم . فمن أسوأُ حالًا ممن مَدَحَ ما ذمّه الله ، وحَسَّنَ ما قبّح ! وأين قول من سَمَّيتَ من قول الأوائل فى الغزل والنَّسيب والنساء ! وهل[٣] كان البكاء والتشبيب والعويل إلا فيهنَّ وعليهنّ ، ومن أجلهنّ ! وهل ذمّت العرب الشَّيبَ مع الخصال المحمودة التى فيه

---

(١) فى الأصل : « ولايضر » .

(٢) الأوضاع : أراد به جمع الوضيع ، كما الأشراف جمع شريف ، وهو جمع لم يرد فى المعاجم .

(٣) الأصل : « وكل » .

١٩٦ ظ إلا لكراهتهنّ له . قال شاعر الشعراء من الأوّلين والآخرين ، امرؤ القيس :

أراهُنّ لا يُحببن من قَلّ ماله
ولا مَن رأينَ الشّيبَ فيه وقوّسا[1]

وقال علقمة بن عَبَدة الفحلُ ، وكان نظيرَ امرئ القيس فى عصره :

إذا شابَ رأسُ المرء أو قلّ مالُه فليس له فى ودِّهِنّ نصيبُ[2]
يُرِدْنَ ثَراءَ المال حيث علمْنَه وشَرخُ الشّبابِ عندهُنّ عجيبُ

وما قالت القدماء فى النسيب أكثرُ من أن نأتىَ عليه . وأين قولُ من ذكرتَ فى صفات الغلمان من قول امرئ القيس فى التشبيب حيث يقول :

وما ذَرفتْ عيناكِ إلّا لتضربِى
بسَهميكِ فى أعشارِ قلبٍ مقتّلِ[3]
أغرّكِ منّى أنّ حُبّكِ قاتلى
وأنّكِ مهما تأمرى القلبَ يفعلِ

وقول الأعشى :

لو أسندَتْ مَيتًا إلى نحرها عاشَ ولم يُنقَل إلى قابرِ[4]

---

(١) ديوان امرئ القيس ١٠٨ . وقد سبق فى ص ٩٨

(٢) ديوان علقمة ١٣٢ والمفضليات ٣٩٢ .

(٣) البيتان من معلقته . وانظر الميسر والأزلام من تأليفنا ص ٢٥ — ٣١ ففيه بحث مسهب .

(٤) ديوان الأعشى ١٠٥ .

حتّى يقــولُ الناس مما رأوا يا عجبًــــا للقاتلِ النــــاشرِ

وقال جرير :

إنّ الذين غَدَوْا بلُبِّك غادروا وشَلًا بعينك لا يَزالُ مَعينا[١]

غيَّضْنَ من عَبَراتهنَّ وقلنَ لى ماذا لقِيتَ من الهـوى ولقينا

وقال جميل :

خليـــلىْ فيما عشتما هل رأيتُمَا قتيلًا بكى من حبِّ قاتلِه قبلى[٢]

وقال القُطامىّ :

يقتُلننا بحديثٍ ليس يعلمُــه مَن يتَّقينَ ولا مكنونُه بادى[٣]

فهنّ يَنبِذنَ من قولٍ يُصبْن بهِ مَواقعَ الماء من ذى الغُلّة الصادى

فهؤلاء القدماء فى الجاهلية والإسلام ، فأين قول من احتججتَ به من قولهم !

ولا نعلم أحداً قال فى الغلام ما قال الحكَمىّ وهو من المحدَثين . وأين يقع قولُه من قول الأوائل الذين شبَّبوا بالنساء ! فدَعْ عنك الرَّقاشىّ والبَة والخرّاز[٤] ومن أشبههم ؛ فليست لك علينا حجّة فى الشعراء .　١٧٠ و

---

(١) ديوان جرير ٥٧٨ . وقد ورد البيتان فى الأصل بتقديم ثانيهما على أولهما ، والوجه ما أثبت من الديوان .

(٢) ديوان جميل ١٧٦ .

(٣) ديوان القطامى ٨ .

(٤) سبق فى ص ١٠٩ باسم « أبو هشام الخراز » .

وأُخرى : ليس من قال الشعر بقريحته وطبعه واستغنى بنفسه ، كمن احتاج إلى غيره يطردُ شِعْره[١] ، ويحتذى مثالَه ، ولا يبلُغ مِعشَاره .

قال (صاحب الغلمان) : ظَلَمتَ فى المناظرةِ ولم تُنصِف فى الحجَّة ؛ لأن لم ندفع فضلَ الأوائل من الشعراء ، إنّما قلنا إنهم كانوا أعراباً أجلافاً جُفاةً ، لا يعرفون رقيقَ العيش ولا لذَّاتِ الدنيا ؛ لأنَّ أحدَهم إذا اجتهد عند نفسه شبَّه المرأة بالبقرة ، والظبية ، والحيّــة . فإنْ وصفَها بالاعتدالِ فى الخلقة شبّهها بالقضيب ، وشبَّه ساقَها بالبَرْديّة ؛ لأنّهم مع الوحوش والأحناش نشؤوا ، فلا يعرفون غيرها .

وقد نعلم أنّ الجارية الفائقة الُحسنِ أحسنُ من البقرة ، وأحسنُ من الظَّبية ، وأحسن من كلّ شيء شُبِّهَتْ به .

وكذلك قولهم : كأنَّها القمر ؛ وكأنّها الشمس ؛ فالشَّمس وإن كانت حسنةً فإنما هى شىء واحد ، وفى وجه الإنسان الجميل وفى خلقهِ ضروبٌ من الُحسن الغريب ، والتركيب العجيب . ومن يشكُّ أنّ عينَ الإنسان أحسنُ من عين الظَّبى والبقرة ، وأن الأمر بينهما متفاوت !

وهذه أشياء يشترك فيها الغلمانُ والجوارى ، والحجَّة عليك مثلُ الحجّة لك فى هذه الصفات .

وأمّا احتجاجُك علينا بالقرآن والآثار والفقهاء ، فقد قرأنا مثل ما قرأت ، وسَمِعْنا من الآثار مثلَ ما سمعت . فإن كنت إلى سرور الدُّنيا تذهب ، ولذّاتِها تريدُ ، فالقولُ قولُنا . كما قال الشاعر :

---

(١) الطرد والاطراد : الاصطياد ، والمراد التتبع .

ما العيش إلّا فى جُنون الصِّبا   فإنْ تولّى فزمانُ المُدامْ
كأسًا إذا ما الشيخُ والَى بها   خمسًا تردّى برداء الغلامْ

وإن كنتَ إلى التقشُّف والتزهيد فى اللّذَّاتِ تَعمِد فتَركُ جميع الشّهوات ١٧٠ ظ
من النساء وغيرهنّ أفضل . فإنْ أنصفتَ فأْتنا بمثل حجّتنا . فأمّا أن تتلو علينا
القرآنَ وتأتيَنا بأحاديثَ ألَّفتَها فهذا منك انقطاع . ومَثَلنا ومثلك فى ذلك مَثَلُ
بَصرىٍّ وكوفىٍّ تفاخَرا بعدد أشراف أهل البصرة وأشراف أهل الكوفة ،
فقال البصرىّ للكوفىّ :

هاتِ فى أربعِ قبائل الكوفة مثلَ أربعة رجالٍ بالبصرة فى أربع قبائل :
فى تميم الكوفة مثل الأحنف ، وفى بكر الكوفة مثل مالك بن مسمع ، وفى
قيس الكوفة مثل قتيبة بن مسلم ، وفى أزد الكوفة مثل المهلب .

فقال الكوفىّ : مِخنف بن سُليم من أزد السَّراة ، وهم أشرف من
أزد عُمان .

فقال البصرىّ : إنا لم نكن فى شرف القبائل وفرقِ ما بينهما[1] ، فإنما
ذكرنا للمهلّبَ بنفسه ، وما علمتُ أن أحداً يبلغ من جهله أن يفخر بمخنف
ابن سليم فيفضّله على المهلب . وأخْمَل رجل من ولد المهلّب أشهر فى الولايات
وفى الفرسان وفى الناس من مخنف . وللمهلّب رجلٌ ليس له بالعراق نظيرٌ
يقاومه ، ومناقبه وأيّامه وفتُوحُه أكثر وأشهر من أن يجوز لنا أن نجعله إزاء
مِخْنف . وما زالوا يقولون : « بصرة المهلّب » . ولو لم يكن للمهلّب إلّا أنه

(١) أى بين أزد السراة وأزد عمان ، أو لعلها : « بينها » أى بين القبائل .

وَلَدَ يزيدَ بن بن المهلّب كان كافيا(١) . ونحن إذا قلنا : ليس فى قيس الـكوفة مثل قتيبة بن مسلم(٢) ، قال قائل : فزارة أشرف من باهلة . قلنا : ليس هذه معارضة ؛ فإنّما المعارضة أن تذكر أسماء بن خارجة ثم تقول ونقول ، فنذكر فتوح قتيبة العِظام ، والشّهامة والنفسَ الأبية ، والشّجاعةَ والحزمَ والرأى ، والوفاء ، وشرفَ الولاية ، ونذكر سُودَدَ أسماء ، وجودَه ونوالَه . فأمّا أن نتخطّى أنفسَهما إلى قبائلهما كما تخطَّيتَ(٣) بدنَ المهلّب وبدن مِخنف إلى أزْدِ عمانَ وأزدِ السَّراة ، فهذا ليس من معارضة العلماء .

وكذلك إذا ذكرنا عُبّادَ البصرة وزُهّادَها ونُسّاكها فقلنا : لنا مثل عامرِ ابن عبد قيس ، وهَرِم بن حَيّان(٤) ، وصِلَةَ بن أشْيَم(٥) . قلتَ : فعُبّاد

---

(١) انظر جمهرة أنساب العرب ٣٦٧ — ٣٧٠ .

(٢) قتيبة بن مسلم الباهلى عامل الحجاج على الرى ثم خراسان ، قام بأعمال جليلة فى الفتح الإسلامى ، وقتل غدراً بفرغانة سنة ٩٦ فقال فيه بعض الأعاجم : يامعشر العرب ، قتلتم قتيبة ! والله لوكان قتيبة منـّا فمات فينا جعلناه فى تابوت ، فكنا نستفتح به إذا غزونا . المعارف ١٧٨ — ١٧٩ والطبرى فى حوادث سنة ٩٦ .

(٣) فى الأصل : « تخطأت » ، صوابه ماأثبت . وفى اللسان : « ولا يقال تخطأت » ، وهو دليل أنها كانت مستعملة فى لغة العامة .

(٤) هرم بن حيان العبدى ، أحد عمال عمر ، وبعثه عثمان بن أبى العاص إلى قلعة بجرة فافتتحها عنوة سنة ٢٦ . الإصابة ٤٩٤٧ وصفة الصفوة ٣ : ٣٧ . وانظر البيان ١ : ٣٦٣ .

(٥) هو أبو الصهباء صلة بن أشيم العدوى الناسك ، لقى جماعة من الصحابة ، وأسند عن ابن عباس وغيره . وقتل شهيداً فى غزاة فى أول إمرة الحجاج على العراق سنة ٧٥ فاجتمعت النساء عند زوجته الناسكة معاذة العدوية للتعزية فقالت : مرحبا ، إن كنتن جئتن لتهنئتى فمرحبا بكن . وإن كن جئتن لغير ذلك فارجعن . صفة الصفوة ٣ : ١٣٩ والإصابة ٤١٢٧ .

الكوفة : أُويسٌ القَرَنى[١] ، والرَّبيع بن خُثَيم[٢] ، والأسود بن يزيد النَّخَعى . وهذا جواب . ١٧١ و

فأمّا أن تذكرَ طِيبَ الدُّنيا والتمتُّع من لذّاتها وصفات محاسنها ، وتذكر ظرفاءها وأربابَها ، وتجيئنا بأحاديث الزهّاد والفقهاء ، فقد انقطع الحِجَاج بيننا وبينك .

وقد قلنا فى صدر كتابنا[٣] : إن الكلامَ إذا وُضِع على المزْح والهزل ، ثم أخرجتَه عن ذلك إلى غيره من الجدّ ، تغيّر معناه وبطَل .

وقد رُوى أنّ معاوية سأل عمرو بنَ العاصِ يومًا ـ وعنده شَبابٌ من قريش ـ فقال له : ياأبا عبد الله ، ما اللذّة ؟ فقال : مُر شبابَ قريشٍ فليقوموا . فلما قاموا قال : « إسقاط المروءة » .

---

(١) هو أويس بن عامر القرنى ، بفتح القاف والراء ، نسبة إلى قرن بن رَدمان ، وهم حى من مراد بن مذحج . أدرك أويس حياة الرسول وشهد صفين مع على ، وفيها قتل . الإصابة ٤٩٧ وتهذيب التهذيب وصفة الصفوة ٣ : ٢٢ وجمهرة أنساب العرب ٤٠٧ .

(٢) الربيع بن خثيم ، بضم الخاء بعدها ثاء مفتوحة ، ابن عائذ بن عبد الله الثورى الكوفى . قال له ابن مسعود : «لو رآك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحبك» . توفى سنة إحدى ، وقيل ثلاث ، وستين . تهذيب التهذيب وصفة الصفوة ٣ : ٣١ وابن النديم ٢٦٠ .

(٣) أقحم الجاحظ نفسه فيما اصطنع لنفسه من مناظرة بين صاحب الغلمان وصاحب الجوارى . وانظر كذلك ص ١٢٥ س ٥ ـ ٦ .

قال الشاعر[١] فى مثل ذلك :

مَن راقبَ النّاسَ ماتَ غمًّا وفاز باللّذّةِ الجسورُ

وقال الحكمىّ :

تجاسرتُ فكاشفتُـ ـكَ لمّا غُلِب الصّبرُ[٢]

وما أحسَنَ فى مثلـ ـكَ أن يَنْهتِكَ السِّتْرُ

قال (صاحب الجوارى) :

فنحن نترك ما أنكرتَ علينا ونقول : لو لم يكن حلال ولا حرام ، ولا ثواب ولا عقاب ، لكان الذى يُحصّله المعقولُ ويدركه الحسُّ والوجدان ، دالًّا على أنّ الاستمتاع بالجارية أكثر وأطولُ مدّة ؛ لأنه أقل ما يكون التمتّع بها أربعون عامًا ، وليس تجد فى الغلام معنًى إلّا وجدتَه فى الجارية وأضعافَه . فإن أردت التفخيذ فأردافٌ وثيرة ، وأعجاز بارزة لا تجدها عند الغلام . وإن أردت العِناق فالثُّدِيُّ النواهد ، وذلك معدومٌ فى الغلام . وإن أردتَ طِيبَ المأتَى فناهيك ، ولا تجد ذلك عند الغلام . فإن أتَوْه فى مَحاشِّه[٣] حدثَ هناك من الطَّفَاسة[٤] والقذر ما يكدِّر[٥] كلَّ عيش ، وينغِّص كلَّ لذّة .

---

(١) هو سلم بن عمرو الخاسر . انظر ترجمته وتحقيق اسمه فى حواشى الحيوان ٣ : ٩٠ . والبيتان كذلك له فى التمثيل والمحاضرة الثعالبى ٧٧ .

(٢) قبله فى ديوان أبى نواس ص ٤٢٢ :

أيا من طرفه سحر ومن مبسمه در

(٣) المحاش ، بتشديد الشين : جمع محشة ، وهى الدبر .

(٤) الطفاسة : القذر . طفس يطفس طفسا وطفاسة .

(٥) فى الأصل : « يكد » .

وفى الجارية من نَعمة البشَرة ولدونة المفاصل ، ولطافة الـكفَّين والقدمين ، ولين الأعطاف ، والتثنِّى وقلّة الخشَن[١] وطِيبِ العَرق ماليس للغلام ، مع خصالٍ لا تحصى ، كما قال الشاعر[٢] : ١٧١ ظ

... ...

يصفُ جَودة القَدّ وحُسنَ الخرط ، ويفرق بين المجدولة والسَّمينة .

وقولهم « مجدولة » يريدون جودةَ العَصَب وقلّة الاسترخاء ، ولذلك قالوا : خُمصانة وسَيفانة ، وكأنها جانٌّ[٣] ، وكأنَّها جَدْلُ عِنان[٤] ، وكأنّها قضيبُ خيزُران . والتثنِّى فى مِشية الجارية أحسنُ مافيها ، وذلك فى الغلام عيبٌ ؛ لأنّه يُنسَب إلى التخنيث والتأنيث ـ وقد وصفت الشعراء المجدولةَ فى أشعارها ، فقال بعضهم :

لها قِسمةٌ من خُوط بانٍ ومن نقًا
ومن رشأ الأقواز جِيـدٌ ومَذرِفُ[٥]

---

(١) الحشن : الوسخ ، واللزج من دسم البدن . وفى الأصل : « الحسو » ولا وجه له .

(٢) يعنى به أبا نواس ، كما هو عادته . ولعل الشعر الساقط من الأصل بعده ، قوله فى ديوانه ٣٨٨ :

فوق القصيرة والطويلةُ فوقها دون السمين ودونها المهزول

(٣) الجان : ضرب من الحيات دقيق خفيف .

(٤) أى عنان مجدول . وفى الأصل : « جذل عنان » . وانظر الحيوان ٦ : ٢٦٢ .

(٥) الأقواز : جمع قوز ، بالفتح ، وهو الـكثيب من الرمل . وفى الأصل : « الأمرار » . والمذرف : المدمع ، يعنى العين . ذرف الدمع : سال . وفى الأصل : « ومرذف » .

وقال آخر :

مجدولة الأعلى كثيبٌ نصفها إذا مشَتْ أقعدها ما خلفَها

وقال الآخر :

ومجدولةٍ جدلَ العنانِ إذا مشَتْ ينوء بخَصريها ثِقالُ الرّوادِفِ

وقال الأحوص :

مِن المدمَجاتِ اللحمِ جَدْلًا كأنّها عِنانُ صَناعٍ أنعمَتْ أن تَحَوّدا

وقالوا فى ذلك أكثرَ من أن نأتىَ عليه .

والغلام أكثر ما تبقى بهجته ونقاء خدّيه عشرةَ أعوام ، إلى أن تتّصل لحيتُه ويخرج من حدّ المُرودَة[١] ، ثمّ هو وَقَاحٌ طورًا ينتف لحيتُه ، وتارة يَهْلُبُها ليستدعىَ شهوةَ الرّجال[٢] . وقد أغنى الله الجاريةَ عن ذلك ، لما وهب لها من الجمال الفائق ، والحسن الرائق .

فإن قلتَ : إنّ من النساء من يتحسَّن ويستر عيبه[٣] بخضاب الشعر وغيره ، كما قال الشاعر :

عجوزٌ ترَجّى أن تكون فتيّـــــةً

وقد لَحِبَ الجنبانِ واحدَوْدَبَ الظّهرُ[٤]

---

(١) فى الأصل : « المردة » . يقال فى المصدر مرد ومرودة أيضاً .

(٢) واضحة فى الأصل ، وقد ظنها شارل فى الأصل : « ليستبد عن سهوة » فصححها إلى « ليستبد على شهوة الرجل » . يهلبها : ينتفها .

(٣) فى طبعة شارل : « من يتحسن ويسترن عيبهن » ، خلافا لما فى الأصل .

(٤) نسبهما المبرد فى الكامل ١٧٦ إلى شيخ من الأعراب . وذكر أبو الحسن الأخفش فى حواشيه على الكامل بعدها بيتين من القصيدة نسبا فى ديوان جران العود ١١ إلى الرحال بن عزرة بن المختار . وفى عيون الأخبار ٤ : ٤٤ : « كانت لرجل من الأعراب امرأة عجوزة ، وكانت تشترى العطر بالخبز فقال » . وأنشد البيتين .

تدسُّ إلى العطّار مِيرة أهلها ولن يصلحَ العطّارُ ما أفسَد الدّهرُ[1]

قلنا : قد يفعل ذلك بعض النساء إذا شُيِّبَتْ وليس كالغلام[2] ، لعموم هَلْب اللِّحَى فى الغلمان .

وذكرتَ الخِصْيانَ وحُسن قدودِهم ، ونَعْمة أبشارهم ، والتلذُّذ بهم ، وأنَّ ذلك شىءٌ لا تعرفه الأوائل ، فألجأْتنا إلى أن نَصِفَ ما فى الخِصيان وإن لم يكن لذلك معنًى فى كتابنا ، إذ كنّا إنّما نقول فى الجوارى والغِلمان . ١٧٢ و

والخصىُّ — رحمك الله — فى الجملة ممثَّل به ، ليس برجل ولا امرأة ، وأخلاقه مُقسَّمة بين أخلاق النساء وأخلاق الصِّبيان ، وفيه من العيوب التى لو كانت فى حَوْراء كان حقيقًا[3] أن يُزْهَد فيها منه ؛ لأن الخصىَّ سريع التبدُّل والتنقُّل من حدّ البَضاضة ومَلاَسة الجلد ، وصفاء اللَّون ورقّته ، وكثرة الماء وبريقه ، إلى التكسُّر والجمود والكمود ، والتقبُّض والتجمُّد والتحدُّب ، وإلى الهُزَال وسوء الحال . لأنّك ترى الخصىَّ وكأنَّ السيوفَ تلمع فى وجهه[4] ، وكأنه مرآةٌ صِينيّة ، وكأنّه جُمّارة ، وكأنّه قضيب فِضّةٍ قد مسَّه ذهب ، وكأنّ فى وجَناته الوردَ . فإن مَرِضَ مَرْضةً ، أو طعنَ فى السنِّ ذهب ذَهابًا لا يعود .

---

(١) وكذا فى عيون الأخبار ، والرواية المعروفة : « وهل يصلح العطار » كما فى الكامل ، ورسالة التربيع والتدوير ، والتمثيل والمحاضرة للثعالبى ٢١٩ .

(٢) فى الأصل : « بالغلام » .

(٣) فى الأصل : « حقيق » .

(٤) فى الحيوان ١ : ١٠٧ : « فى لونه » .

وقال بعض العلماء : إنّ الخصىَّ إذا قُطع ذلك العضوُ منه قويتْ شهوتُه ، وقويتْ مَعِدته ، ولانت جِلدتُه ، وانجردت شَعرتُه ، وكثرتْ دمعته ، واتّسعت فَتْحتُه ، ويصير كالبغل الذى ليس هو حِمارًا ولا فَرسًا[1] ؛ لأنّه ليس برجلٍ ولا امرأة . فهو مذبذبٌ لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

ويعرض للخَصىّ سُرعة الدَّمْعة والغضب ، وذلك من أخلاق النساء والصِّبيان . ويَعرض له حبُّ النميمة وضيقُ الصَّدر بما أُودِع من السِّرِّ . ويعرض لهم البَول فى الفراش ولا سيَّما إذا باتَ أحدهم ممتلئًا من النَّبيذ .

ومما ناله[2] من الحسرة والأسف لما فاتهم من النّكاح مع شدّة حبِّهم للنساء ، أبغَضوا الفحول أشدَّ من تباغض الأعداء ، فأبغضوا الفحول بُغضَ الحاسد لذوى النِّعمة .

وزعم بعضُ أهل التجربة من الشُّيوخ المعمَّرين أنّهم اعتبروا أعمارَ ضروب الناس فوجدوا [طولَ[3]] أعمار الخصيان أعمَّ من جميع أجناس الرجال ، وأنهم لم يجدوا لذلك عِلّةً إلاَّ عدمَ النّكَاح . وكذلك طول أعمار البغال لقلة النَّزْو . ووجدوا أقل الأعمار أعمار العصافير ؛ لكثرة سفادها. ‏١٧٢ ظ

ثم الخصىُّ مع الرِّجال امرأةٌ ، ومع النِّساء رجل . وهو من النمائم والتحريش والإفساد بين المرء وزَوْجِه ، على ما ليس عليه أحد . وهذا من النَّفاسة والحسَد للفحول على النساء . ويعتريه إذا طعن فى السنِّ اعوجاج فى أصابع اليد ، والتواء فى أصابع الرِّجل .

(١) فى الأصل : « حمار وفرس » . وانظر الحيوان ١ : ١٠٨ .
(٢) كذا فى الأصل ، وسيأتى الضمير بعده لجماعة الخصيان ، وهو تعبير جائز .
(٣) التكملة من الحيوان ١ : ١٣٦ .

ودخل بعضُ الملوكِ على أهله ومعه خصيٌّ[1] فاستترت منه ، فقال لها : تستترين منه وإنما هو بمنزلة المرأة ! فقالت : أَلِموضِعِ المُثْلة به يحلُّ له ماحرَّم الله عليه .

مع أنَّ فى الخصىِّ عيوباً يطول ذِكرُها .

ولولا خوف الملال والسآمة على الناظر فى هذا الكتاب ، لقُلنا فى الاحتجاج عليك بمالا يدفعه من كانت به مُسكةُ عقل ، أوْ له معرفة . وفيما قُلنا ما أقنعَ وكفَى . وبالله الثِّقة .

* * *

وقد ذكرنا فى آخر كتابنا هذا مقطَّعاتٍ من أحاديث البطَّالين والظُّرفاء ، ليزيد القارئُ لهذا الكتاب نشاطا ، ويَذهبَ عنه الفتور والكَلال ، ولا قوَّة إلا بالله .

١ — قال : مرض رجلٌ من عُتاة اللاَّطَة مرضًا شديدا ، فأيسوا منه ، فلما أفاقَ وأبلَّ من مرضِه ، دخل عليه جيرانُه فقالوا له : احمدِ الله الذى أقالَكَ ، ودعْ ما كنتَ فيه من طلب الغلمان والانهماك فيهم ، مع هذه السنِّ التى قد بَلغتَها . قال : جَزاكم الله خيراً ؛ فقد علمتُ أنّ فَرط العناية والمودَّة دعاكم إلى عِظتى . ولكنّى اعتدتُ هذه الصناعةَ وأنا صغير ، وقد علمتم ما قال بعض الحكماء : ما أشدَّ فِطامَ الكبير !

---

(١) جعلت فى نشرة شارل : « خصيه » ، خلافاً لما فى الأصل .

قال الشاعر[١] :

والشيخ لا يترك أخلاقَه حتى يُوارَى فى ثَرى رمسِهِ[٢]

فقاموا مِن عنده آيسينَ من فلاحه .

٢ — قال : كان رجلٌ من اللاّطة وله بنون لهم أقدارٌ ومروءات ، فشانَهم بمشيته مع الغلمان وطلبِه لهم ، فعاتَبوه وقالوا : نحن نشترى لك من الوصائف على ما تشتهى ، تشتغل بهنَّ ، فقد فضحتَنا فى الناس . فقال : هبكم تشترون لى ما ذكرتم فكيف لشيخكم بحرارة الجُلجُلتين ! فتركوا عتابه وعلموا أنّه لا حيلةَ فيه . ١٧٣ و

٣ — وقال بعض اللُّوطيين : إنَّما خُلق الأيرِ للفَقْحة ، مدوّرٌ لمدوَّرة ؛ ولو كان للحِرِ كان على صيغة الطَّبَرْزِين[٣] .

وقال شاعرهم :

إذا وجدتُ صغيراً وجأتُ أصل الحَمَاره[٤]

وإن أصبت كبيرا قصدت قَصد الحَرَاره

فما أبالى كبيراً قصدتُ أو ذا غَرَاره[٥]

٤ — وقيل لامرأة من الأشراف كانت من المتزوِّجات : ما بالُكِ مع

(١) هو صالح بن عبد القدوس ، كما فى الحيوان ٣ : ١٠٢ والبيان ١ : ١٢٠ والتمثيل والمحاضرة ٧٨ وتاريخ بغداد ٩ : ٣٠٣ ونهاية الأرب ٣ : ٨٢ .

(٢) فى الأصل : « فى الثرى رمسه » ، وصوابه من المراجع السابقة .

(٣) الطبرزين : فأس يعلقها الفارس فى سرج جواده . المعرب للجواليقى ١٩٤ ، والألفاظ الفارسية ١١١ .

(٤) الحمارة بفتح الحاء مع فتح الحاء وتشديد الراء وقد تخفف فى الشعر ، كما فى القاموس : شدة حر القيظ .

(٥) الغرارة ، كسحابة : قلة الفطنة للشر عن كرم وحسن خلق .

جمالك وشرفِك لا تمكثين مع زوجك إلّا يسيراً حتى يطلّقك ؟ قالت : يريدون الضِّيق ، ضيَّق الله عليهم .

٥ — قال : طلّق رجلٌ امرأتَه ، فمرّ رجلٌ فى بعض الطُّرقات فسمع امرأةً تسأل أخرى عنها فقالت : البائسة طلّقها زوجُها ! فقالت : أحسَنَ باركَ اللهُ عليه . فقال لها : يا أمةَ الله ، من شأن النِّساء التعصُّب بعضُهن لبعض ، وأسمعكِ تقولين ما قلتِ . قالت : يا هذا ، لو رأيتَها لعلمتَ أنّ الله تعالى قد أحلَّ لزوجها الزِّنى ، من قُبح وجهها .

٦ — وقال مخنَّثٌ لامرأة : يا معشرَ النِّساء ، مالكنّ هِمّةٌ إلّا طلب النَّيك ، لا تؤثرنَ عليه شيئاً . فقالت : إن أمْرًا[1] انتقلتَ من شهوتِه من طَبْع الرِّجال إلى طبع النساء حتّى عقَرْتَ لحيتَك له[2]، لحقيق ألّا تُلامَ عليه .

٧ — قال إسحاقُ الموصلىّ : نظرتُ إلى شابٍّ مخنَّثٍ حسنِ الوجه جدًّا قد هَلَب لحيته فشانَ وجهَه ، فقلت له : لِمَ تفعلُ هذا بلحيتك ، وقد علمتَ أنّ جمالَ الرجال فى اللِّحى ؟ فقال : يا أبا محمد[3] ، أيسرُّك بالله أنّها فى استِك ؟ قلت : لا والله ! فقال : ما أنصفتَنى ، أتكره أن يكون فى استك شىء وتأمرنى أن أدَعَه فى وجهى ! .

---

(١) قرأها شارل : « امرأ » ، مع وضوح ما أثبت من الأصل ، ولا يستقيم الكلام بدونه .

(٢) هو من قولهم عقر النخلة : قطع رأسها كله مع الجُمّار .

(٣) هى كنيه إسحاق بن إبراهيم الموصلى ، ويقال أيضاً له « أبو صفوان » كما فى الأغانى ٥ : ٤٩ .

٨ — وقال : اشترى بعض وُلاة العراق قَينةً بمالٍ كثير ، فجلس يومًا يشربُ وأمَرها أن تغنّيَه ، فكان أوّل صوتٍ تغنّت به :

أرُوح إلى القَصّاص كلَّ عشيَّةٍ أرجِّي ثوابَ الله فى عدد الُخطى

١٧٣ ظ فقال للخادم : ياغلامُ ، خذْ بيد هذه الزّانية فادفعْها إلى أبى حَزْرة القاصّ . فمضى بها إليه فلقيَه بعد ذلك ، فقال : كيف رأيتَ تلك الجارية ؟ فقال : ما شئتَ أصلحك الله ، غير أنّ فيها خَصلتين من صفات الجنّة ! قال : ويلك ماهُما ؟ قال : البَرد ، والسّعة .

٩ — قال : علِقَ رجلٌ من أهل المدينة امرأةً فطال عَناؤه وشقاؤه بها حتّى ظفِر بها ، فصار بها إلى منزل صديقٍ له مغنٍّ ، ثم خرج يشترى ما يحتاج إليه ، فقالت له : لو غنّيتَ لى صوتاً إلى وقت مجى صديقك !

فأخذ العودَ وتغنّى :

منَ الَخفِرات لم تفضَحْ أخاها ولم ترفَعْ لوالدها شَنارا[1]

قال : فأخذت المرأةُ خُفَّها ولبستْ إزارَها وقالت : ويلى ويلى ، لا والله لا جلستُ ! فجَهَد بها فأبَتْ وصاحت ، فخشىَ الفضيحةَ فأطلقها . وجاء الرجلُ فلم يجدْها ، فسأله عنها فقال : جئتَنى بمجنونة ؛ قال : ما لها ويلك؟ قال : سألَتْنى أن أغنّيها صوتًا ففعلتُ ، فضربتْ بيدها إلى خفّها وثيابها فلبستْ وقامت تولول ، فجَهَدْتُ أن أحبسَها فصاحت فخلّيتُها . قال : وأىَّ شىء غنّيتَها ؟ فأخبره ، فقال : لعنك الله ! حُقّ لها أن تهرب !

---

(١) الشنار ، بالفتح: العيب .

قال : تَواصف قومٌ الجماعَ ، وأفاضوا فى ذكر النساء ، وإلى جانبهم مخنَّث فقال : بالله عليكم دعُوا ذِكر الحِرِ لعنَه الله ! فقال له بعضُهم: متى عهدُك به ؟ قال : مُذْ خرجتُ منه !

١٠ — قال : تزوّج رجلٌ امرأةً ، فمكثت عنده غيرَ بعيد ، ثم أتى الرجلُ بالذى زوّجه فقدَّمه إلى القاضى فقال : أصلحكَ الله ، إنّ هذا زوّجنى امرأةً مجنونة . قال : وأىَّ شىء رأيت من جنونها ؟ قال : إذا جامعتُها غُشِيَ عليها حتَّى أحسبَها قد ماتت . فقال له القاضى : قم قَبحك الله فما أنت لمثلِ هذه بأهل . وكانتْ رَبوخاً[1] .

١١ — قال : كانت عائشة بنت طلحة من المتزوّجات[2] ، فتزوّجها عُمر بن عبيد الله بن مَعْمَر التَّيمىّ ، فبينا هى عنده تَحدَّثُ مع امرأةٍ من زُوَّارِها إذْ دخل عُمر فدعا بها فواقَعها ، فسمِعت المرأة من النَّخير والشَّهيق أمراً عجيباً ، فلمَّا خرجت قالت لها : أنتِ فى شرفكِ وقَدْرِك تفعلين مثل هذا ! قالت : إنّ الدوابَّ لا تُجيد الشُّربَ إلاَّ على الصَّفير !

١٧٤ و

١٢ — قال : وكانت حُبَّى المدِينيّةُ[3] من المغتلمات ، فدخلَ عليها نسوةٌ من المدينة فقُلن لها : يا خالةُ ، أتيناكِ نسألكَ عن القَبْع[4] عند الجماع يفعلُه النِّساء ، أهو شىءٌ قديم أم شىءٌ أحدثَه النِّساء ؟ قالت : يا بناتى ، خرجتُ

---

(١) الربوخ : التى يغشى عليها عند الجماع .

(٢) كذا فى الأصل . وعنى بها « المردفات » . انظر ما كتبت فى نوادر المخطوطات ١ : ٥٩ .

(٣) انظر الحيوان ٢ : ٢٠٠ و ٦ : ٧٥ .

(٤) القبع ، سيفسره الجاحظ فيما يلى .

للعمرة مع أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه ، فلمّا رجعنا فكُنّا بالعَرْج نظر إلىّ زوجى ونظرتُ إليه ، فأعجبَه منّى ما أعجبَنى منه فواثبَنى ، ومرّت بنا عِيرُ عثمان فقبعتُ قبعةً وأدركنى ما يصيب بناتِ آدم ، فنفرتِ العيرُ – وكانت خمسَ مائة [١] – فما التقى منها بعيرانِ إلى الساعة .

والقَبْع : النَّخير عند الجماع . والغربلة : الرَّهز . كذلك تسمّيه أهل المدينة .

ويقال إن حُبَّى علّمت نساء أهل المدينة القَبْعَ والغَربلة .

١٣ — قال : وكانت خُلَيدةُ امرأةً سوداء ذاتَ خَلْق عجيب ، وكان لها دارٌ بمكّة تُكريها أيّامَ الحاجّ ، فحجَّ فتًى من أهل العراق فاكترى منزلَها ، فانصرفَ ليلةً من المسجد وقد طافَ فأعيا ، فلما صَعِد السَّطحَ نظر إلى خليدةَ نائمةً فى القَمَر ، فرأى أهيأَ النّاسِ وأحسنَه خَلْقاً [٢] ، فدعَتْه نفسُه إليها فدنا منها ، فتركتْه حتى رفَع برجليها فتابعَتْه وأرتْه [٣] أنها نائمة ، فناكها ، فلمّا فرغَ ندِم فجعل يبكى ويلطِم وجهَه ، فتعاربَتْ [٤] وقالت : ما شأنك ؟ لسعَتْك حيّة ؟ لدغتْكَ عقرب ؟ ما بالك تبكى ؟ قال : لا والله ولكنّى نكتك وأنا محرِم . قال : فتنيكنى وتبكى ؟ أنا والله أحقُّ بالبكاء منك . قمْ يا أرعن !

---

(١) قرأها شارل : « حمر مائة » مع وضوحها فى الأصل .

(٢) وحد الضمير ذهابا إلى المعنى ، أى من وُجد ومن خُلق . انظر اللسان دثقل ٩٣ حنا ٢٢١ .

(٣) فى الأصل : « وأورته » .

(٤) فى الأصل : «فتعارفت »، ولعل وجهه ما أثبت إن صح اشتقاقه من قولهم : امرأة عروب : ضحاكة متحببة إلى زوجها ؛ كما قالوا : تعربت المرأة : تغزلت .

١٤ — وقال ابن حُبَّى[1] لأمّه : يا أُمَّه ، أىُّ الحالات أعجبُ إلى النِّساء من أخْذ الرجال إيّاهنّ ؟ قالت : يا بنىّ ، إذا كانت مُسِنَّةً مثلى فأبرِكْها وألصقْ خدَّها بالأرض ثمّ أوعبْه فيها . وإذا كانت شابةً فاجمعْ فخذيْها إلى صدرها فأنت تدركُ بذلك ما تريدُ منها وتبلغُ حاجتك منها .

١٥ — وقال : اشترى قومٌ بعيراً وكان صَعباً ، فأرادوا إدخالَه الدّارَ ١٧٤ ظ فامتنع ، فجعلوا يضربونه وهو يأبَى ، فأشرفتْ عليهم امرأةٌ كأنّها شِقّةُ قمر ، فبُهتوا ينظرون إليها ، فقالت : ماشأنه ؟ فقال لها بعضهم : نريده على الدُّخول فليس يدخل . قالت : بُلَّ رأسَه حتّى يدخُل .

١٦ — قال : نظر رجلٌ بالمدينة إلى جاريةٍ سَرِيّة ترتفع عن الخِدمة ، فقال : يا جاريةُ ، فى يدك عمل ؟ قالت : لا ، ولـكنْ فى رجلى .

١٧ — قال بعضُهم : كنّا فى مجلس رجلٍ من الفقهاء فقال لى رجل : عندك حُرّةٌ أو مملوكة ؟ قلت : عندى أمُّ ولدٍ ، ولمَ سألتَنى عن ذلك ؟ قال : إنّ الحرّة لها قدرُها فأردتُ أن أعلّمك ضرباً من النَّيك طريفاً . قلت : قل لى . قال : إذا صرتَ إلى منزلكَ فنم على قفاك ، واجعل مخدّةً بين رجليك ورُكَبك[2] ليكون وِطاءً لك ، ثمّ ادعُ الجارية وأقم أيرك وأقعِدْها عليه ، وحوِّل ظهرها إلى وجهك ، وارفع رجلَيك ومُرها أن تأخذ بإبهامك كما يفعل الخطيبُ على المنبر ، ومُرها تَصعَد وتنزِل عليه ؛ فأنّه شىء عَجَب .

---

(١) انظر ما سبق فى ص ١٢٩ .

(٢) هو من وضع الجمع موضع المثنى ، وهو كثير فى كلامهم . انظر همع الهوامع ١ : ٥٠ — ٥١ .

فلمَّا صار الرجلُ إلى منزله فعلَ ما أمره به ، وجعلت الجارية تعلو وتستفِل ، فقالت : يا مولاىَ ، مَن علَّمك هذا النَّيك ؟ قال : فلانٌ المكفوف . قالت : يامولاى ، ردّ الله عليه بَصَره !

١٨ — قال : كانت امرأة من قريش شريفةً ذاتَ جمال رائعٍ ومال كثير ، فخطبَها جماعةٌ وخطبها رجلٌ شريفٌ له مالٌ كثير ، فردّته وأجابت غيره ، وعزموا على الغدُوِّ إلى وليِّها ليخطُبوها[1] ، فاغتمَّ الرجلُ غمًّا شديداً ، فدخلتْ عليه عجوزٌ من الحىّ فرأتْ مابه وسألته عن حاله فأخبرَها ، قالت : ما تجعل لى إنْ زوّجتُك بها ؟ قال : ألف درهم . فخرجتْ من عنده ودخلَتْ عليها ، فتحدَّثتْ عندها مليًّا وجَعلَتْ تنظر فى وجهها وتتنفَّس الصُّعَداء ، ففعلتْ ذلك غير مرَّة ، فقالت الجارية : ما شأنُكِ يا خالة ، تنظرين فى وجهى وتَنَفَّسين ؟ قالت : يا بُنَيّة ، أرى شبابكِ ، وما أنعَم الله عليكِ به من هذا الجمال ، وليس يتمُّ أمرُ المرأة إلاَّ بالزَّوْج ، وأراكِ أيِّمًا لا زوجَ لك . قالت : فلا يَفُضَّكِ الله ، قد خطبَنى غير واحدٍ وقد عزمتُ على تزويج بعضهم . قالت : فاذكرى لى مَن خطبك . قالت : فلان . قالت شريفٌ ، ومن ؟ قالت : فلان . قالت : شريف ، فما يمنعُك منه ؟ قالت : وفلانٌ ـ لصاحبها ـ قالت : أُفٍّ أُفّ ، لا تريدينه[2] . قالت : وماله أليس هو شريفًا[3] كثيرَ المال ؟ قالت : بلى ، ولكن فيه خصلةً أكرهُها لك . قالت : وما هى ؟

١٧٥ و

---

(١) فى الأصل : « يخطبوها » .

(٢) إخبار فى معنى النهى ، أى لا تريدينه ولا تفكرى فى شأنه .

(٣) فى الأصل : « شريف » .

قالت : دعى عنكِ ذِكرَها . قالت : أخبرينى على كلِّ حال . قالت : رأيتُه يبول يوماً فرأيتُ بين رجليه رجلاً ثالثــة . وخرجَتْ من عندها فأتته ، فقالت : أعِدْ إليها رسولَك . وأتاها الرجل الذى كانت أجابته ــ بعد مجىء الرسول ــ فردّتْه وبعثَتْ إلى صاحب المرأة : أنِ اغدُ بأصحابك . فتزوّجها فلما بنَى بها إذا معه مثل الزِّرّ ، فلمّا أتتْها العجوز فقالت : بكم بِعتينى يالْخَناء[1] ؟ قالت : بألف درهم . قالت : لا أ كلتِيها إلاّ فى المرض !

١٩ — قال : كان هشام بن عبد الملك يقبض الثِّياب[2] من عِظَم أيره ، فــكتب إلى عامله على المدينة : « أمّا بعد فاشــتر لى عِكاكَ النَّيك[3] » . قال : وكانَ له كاتبٌ مدينىٌّ ظريف ، فقال له : ويحك ، ما عِكاكُ النَّيك ؟ قال : الوصائف . فوجَّه إلى النَّخّاسينَ فسألهم عن ذلك . فقالوا : عِكاك النَّيك الوصائفُ البيضُ الطِّوال . فاشترَى منهنّ حاجتَه ، ووجّه بهنَّ إليه .

قال : وكانت بالمدينة امرأةٌ جميلةٌ وَضِيّة ، تخطبَها جماعةٌ وكانت لا تَرضَى أحدًا ، وكانت أمُّها تقول : لا أزوجها إلاّ مَن ترضاه . نخطبها شابٌّ جميلُ الوجه ذو مالٍ وشرف . فذكرتْه لابنتها وذكرت حالَه وقالت : يا بنيّةُ إن لم تَزَوّجى هذا فمن تَزَوَّجين ؟ قالت : يا أمَّه : هو ما تقولين ، ولــكنّى بلغنى

(١) كذا فى الأصل ، وهو وجه جائز فى العربية ، يزيدون بعد تاء المخاطبة وكافها ياء . انظر سيبويه ٢ : ٢٩٦ . وقد تــكرر هذا الوجه فيما سيأتى من قوله : « لا أ كلتيها » . واللخناء : الخبيثة رائحة المــكان .

(٢) فى الأصل . « الثيب » .

(٣) العــكاك : جمع عكة ، بالضم ، وأصل العكة زقيق صغير أصغر من القربة يتخذ للسمن .

عنه شىء لا أقدِرُ عليه . قالت : يا بنيّتى لا تحتشمين من أمّك ، اذكرى كلَّ شىء فى نفسك . قالت : بلغنى أنّ معه أيرًا عظيما وأخاف ألاّ أقوى عليه . فأخبرت الأمُّ الفتى فقال : أنا أجعلُ الأمرَ إليك تُدخلين أنتِ منه ما تريدُ وتحبسين ما تريد . فأخبرت الابنةَ فقالت : نعَمْ أرضى إن تكفّلتِ لى بذلك[1] . قالت : يا بنيّةُ والله إنّ هذا هو لشديدٌ علىّ ، ولكنّى أتكفّلُه لك . فتزوّجته . فلما كانت ليلةَ البناء قالت : يا أمَّه ، كونى قريبةً منّى لا يقتلْنى بما معه . فجاءت الأمّ وأغلقت الباب وقالت له : أنتَ على ما أعطيتَنا من نفسِك ؟ قال : نعم ، هو بين يديكِ . فقبضت الأمّ عليه وأدنتْه من ابنتها فدَسَّتْ رأسَه فى حِرِها وقالت : أزيدُ ؟ قالت : زيدى . فأخرجت إصبعًا من أصابعها فقالت : يا أُمَّه زيدِى . قالت : نعم . فلم تزل كذلك حتّى لم يبق فى يدها شىء منه ، وأوعبَه الرجلُ كلَّه فيها ، قالت : يا أُمَّه زيدِى . قالت : يا بنيّةُ لم يبقَ فى يدى شىء . قالت بنتُها : رحمَ الله أبى فإنّه كان أعرفَ الناسِ بك ، كان يقول : إذا وقع الشىء فى يديك ذهب البركةُ منه . قومِى عنّى !

٢٠ — قال : تزوّج رجلٌ امرأةً وكان معه أيرٌ عظيم جدًّا ، فلمّا نا كها أدخلَه كلَّه فى حِرِها ، ولم تكن تقوى عليه امرأة ، فلم تتكلَّمْ ، فقال لها : أىُّ شىء حالُكِ خرجَ من خلفِكِ بعدُ ؟ قالت : بأبِى أنتَ وهل أدخلتَه ؟

٢١ — قال : نظر رجلٌ إلى امرأةٍ جميلة سريّة ، ورجُلٌ فى دارها دميم مشوّهٌ يأمُر وينهى ، فظنَّ أنّه عبدُها ، فسألها عنه فقالت : زَوجى . قال : يا سبحانَ الله ، مثلُكِ فى نِعمة الله عليكِ تتزوّجين مثل هـذا ؟ فقالت :

(١) فى الأصل : « ذلك » . وقرأها شارل : « تكلفت لى ذلك » خطأ .

لو استدبرتك بما يستقبلنى به لعظم فى عينك . ثم كشفت عن فخذها فإذا فيه بقع خضر ، فقالت : هذا خطاؤه فكيف إصابته .

٢٢ — قال : وكانت بالمدينة امرأة ماجنة يقال لها سلامة الخضراء ، فأخذت مع مخنث وهى تنيكه بكيرنج[١] ، فرفعت إلى الوالى فأوجعها ضرباً وطاف بها على جمل ، فنظر إليها رجل يعرفها فقال : ما هذا يا سلامة ؟ فقالت : بالله اسكت ، ما فى الدنيا أظلم من الرجال ، أنتم تنيكونا[٢] الدهر كله فلما نكنا كم مرة واحدة قتلتمونا .

٢٣ — قال : تزوج رجل امرأة فقيل له : كيف وجدتها ؟ قال : كأن ركبها دارة القمر[٣] ، وكأن شفريها أير حمار مثنى .

٢٤ — وقال بعض العجائز المغتلمات :

١٧٧ و

وخضبت ماصبغ الزمان فلم يدم ... صبغى ودامت صبغة الأيام[٤]

أيام أمشى والشباب غريرة ... وأناك من خلفى ومن قدامى

٢٥ — وقال سياه ، وكان من مردة اللاطة ، واسمه ميمون بن زياد ابن ثروان ، وهو مولى لخزاعة :

---

(١) الكيرنج : نموذج لقضيب الرجل ، والكلمة فارسية مركبة من « كير » بمعنى القضيب ، كما فى معجم استينجاس ١٠٦٨ ؛ و « رنج » وهو بالفارسية « رنك » ومعناه الشكل . وانظر حواشى الأغانى ١ : ١٦٩ طبع دار الكتب وفى الأصل : « بكيدنج » ، صوابه ما أثبت .

(٢) كذا فى الأصل ، وقد يكون حكاية للغتها .

(٣) الركب ، بالتحريك : منبت العانة .

(٤) فى الأصل : « ماصنع » .

أَخُزاعُ إنْ عَدَّ القبائلُ فَخرَهم فضَعُوا أكفَّكمُ على الأفواهِ
إلاّ إذا ذُكر اللِّواطُ وأهلُه والفــاتقون مشارجَ الأستاهِ
فهناك فافتخروا فإنّ لكم به مجدًا تليدًا طارفًا بسياهِ[1]

٢٦ — قال : وجاء سِياه إلى الكُميت فقال له : ياأبا عُمارة ، قد قلتُ على عروض قصيدتك :

* أبتْ هــذه النَّفسُ إلاّ ادِّكارا[2] *

فقال : هات . فقال :

أبتْ هذه النفسُ إلاّ خَسَارا وإلاّ ارتداداً وإلاّ ازورارا[3]
وحَمْلَ الدُّيوكِ وقَودَ الكلابِ فهـذا هِرَاشًا وهـذا نِقارا
وشُربَ الخمورِ بمــاء الغمام تنفجر الأرضُ عنه انفجــارا

٢٧ — وقال : أُخِذ « ديكٌ » ، وكان من كبار اللاَّطة ، وهو رجلٌ من أهل الحجاز ، مع غلامٍ من قُريش كأنه قديدَة[4] ، فقيل له : عدوَّ الله هبك تُعذَر فى الغِلمان الصِّباح فما أردتَ إلى هذا ؟ فقال : بأبى أنتم وأمّى ، قد والله علمتُ أنه كما تقولون ، وإنّما نكتُه لشرفه .

---

(١) أى مجدا تليدا وطارفا : قديما وحديثا . وفى الأصل : « مجدا ليه » .
(٢) انظر الموشح للمرزبانى ١٩٣ .
(٣) فى الأصل : « وإلا ردا » . والكلمتان بعدها واضحتان فى الأصل . وقرأها شارل : « وإلا انفرارا » .
(٤) القديدة : تصغير القدّة بالكسر ، وهى واحدة القِد : سيور تقد من جلد فطير غير مدبوغ . انظر الحيوان ٤ : ١٢١ .

٢٨ — وقد يُضرب المثلُ فى اللِّواط بالحجاز فيقال: « أَلْوَطُ من ديك » ، كما يقول أهل العراق : « أَلْوَطُ من سِياه » ، وهو كوفىّ .

وقد اختصرتُ كتابى هذا لئلا يملَّه القارئ . وبالله التوفيق .

* * *

تم كتاب مفاخرة الجوارى والغلمان ، والله المستعان ، وعليه التُّكلان ، ولا إله إلا هو .

يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب القيان من كلام أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ أيضاً ، والله الموفق للصواب . والحمد لله أولاً وآخرًا ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلامه . ١٧٦ ظ

١٤

كِتَابُ

القِيَانِ

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذه هي الرسالة الرابعة عشرة من رسائل الجاحظ في مجموعة داماد ، وعنوانها :

« كتاب القيان »

ووردت في معجم الأدباء ١٦ : ١٠٨ باسم « كتاب القينين والغناء والصنعة »

ومن هذه الرسالة نسختان :

الأولى : نسخة الأصل ، وهي نسخة مكتبة داماد .

والثانية : النسخة التي نشرها « يوشع فنكل » في المطبعة السلفية سنة ١٣٤٤ هـ في مجموع ثلاث رسائل .

أولاها : في الرد النصارى .

والثانية : في ذم أخلاق الكتاب .

والثالثة : كتاب القيان .

ونسخة يوشع فنكل نشرها عن أصل في مكتبة نور الدين مصطفى في ضمن مجموعة رسائل خطية للجاحظ وغيره برقم ١٠٠ وفي آخر ما نصه :

« استكتبه محمد بن خالد خليل الأزهري الحسيني اللاذقي النائب في مركز ولاية الموصل ، غرة ذي القعدة سنة ١٣١٧ » .

وقد حاولت أن أعثر على هذا المخطوط فلم أوفق ، فجعلت مطبوعة « يوشع فنكل » أساساً في المقابلة ورمزت لها بالرمز « ط » .

ونص الرسالة في نشرة « فنكل » يستوعب ما بين ص ٥٣ إلى ص ٧٥ .

ومهما يكن فالفضل الأول في إظهار هذه الرسالة عائد إلى الأستاذ « يوشع فنكل » الذي أسجل له شكر قراء العربية لإسهامه في نشر آثار شيخنا الجاحظ .

بسم الله الرحمن الرحيم

١٧٧ ظ

من أبي موسى بن إسحاقَ بن موسى ، ومحمد بن خالد خذار خذاه ، وعبد الله بن أيوب أبي نُمير ، ومحمد بن حماد كاتب راشد ، والحسن بن إبراهيم ابن رباح ، وأبي الخياز ، وأبي الرنال[1] ، وخاقان بن حامد ، وعبد الله ابن الهيثم بن خالد اليزيديّ المعروف بمَشْرَطة ، وعلك بن الحسَن ، ومحمد ابن هارون كتّبة ، وإخوانهم المستمتعين بالنّعمة ، والمؤثرين للذّة ، المتمتّعين بالقيان وبالإخوان[2] ، المعِدِّين لوظائف الأطعمة وصنوف الأشربة ، والراغبين بأنفسهم عن قبول شيء من الناس ، أصحاب الستر والستارات ، والسُّرور والمروءات .

إلى أهل الجهالة والجفاء ، وغلظ الطّبع ، وفساد الحسّ .

سَلامٌ على من وفّق لرشده ، وآثَر حظَّ نفسه ، وعرف قدر النِّعمة ؛ فإنّه لا يشكر النِّعمة مَن لم يعرفها ويعرف قدرها ، ولا يزاد[3] فيها من لم يشكرها ، ولا بقاء لها على[4] مَن أساء حملها .

وقد كان يقال : حَمْل الغِنَى أشدُّ من حمل الفَقر ، ومؤونة الشكر أضعفُ من مشقَّة الصبر . جعلنا الله وإياكم من الشاكرين .

---

(١) كذا في النسختين .

(٢) في الأصل : « من القيان وبالإخوان » ، وأثبت ما في ط .

(٣) ط : « ولا يزداد » .

(٤) في ط : « عند » .

أمّا بعد فإنه ليس كلُّ صامتٍ عن حجّته مبطلاً فى اعتقاده ، ولا كلُّ ناطقٍ بها لا برهانَ له محقًّا فى انتحاله . والحاكم العادل من لم يعجَلْ بفَصْل القضاء دون استقصاء حُجَج الخصماء ، [و[1]] دون أن يحوِّل[2] القول فيمن حضر من الخُصَماء والاستماع منه ، وأن تبلغ الحجّة مداها من البيان ، ويشرك القاضى الخصمين فى فهم ما اختصما فيه ، حتى لا يكون بظاهر ما يقع عليه من حكمه أعلمَ منه بباطنه ، ولا بعلانيَةِ ما يُفْلِج الخِصامَ منه أطبَّ منه بسرِّه[3] . ولذلك ما استعمل أهلُ الحزم والرويَّة من القضاة طُولَ الصمت ، وإنعامَ التفهُّم والتمهُّل ، ليكون الاختيار بعد الاختبار ، والحكم بعد التبيُّن[4] .

وقد كُنّا ممسكين عن القول بحجّتنا فيما تضمَّنه كتابُنا هذا اقتصارًا[5] على أن الحقَّ مكتفٍ[6] بظهوره ، مُبِينٌ عن نفسه ، مستغنٍ عن أن يُستدَلَّ عليه بغيره ؛ إذْ كان إنّما يُستدَلُّ بظاهرٍ على باطن ، وعلى الجوهر بالعرض ، ولا يُحتاج أن يستدَلَّ بباطن على ظاهر . ١٧٨ و

وعلمنا أنّ خصماءنا وإنْ موّهوا وزخرفوا ، غير بالغِينَ للفلَج والغلبة

(١) هذه من ط .

(٢) ط : « يجول » .

(٣) أفلجه على خصمه : غلبه . والخصام : جمع خصم ، كما قاله الزجاج . انظر تفسير أبى حيان ٢ : ١١٤ . أطب : أعلم . وفى ط : «أطيب منه لسره» ، تحريف .

(٤) ط : « اليقين » .

(٥) فى الأصل : « اقتصادا » ، صوابه فى ط .

(٦) ط : « مكيف » ، تحريف .

عند ذوى العَدْل دون الاستماع منّا ، وأنَّ كلَّ دعوَى لا يفلُجُ صاحبُها بمنزلة ما لم يكن ، بل هى على المدَّعِي كَلٌّ وكَربٌ حتّى تؤدِّيَه إلى مسَرة النُّجح أوراحة اليأس .

إلى أنْ تفاقَمَ الأمرُ وعِيلَ الصَّبر ، وانتهى إلينا عيبُ عصابةٍ لو أمسكْنا عن الإجابة عنها والاحتجاج فيها ، علماً بأنَّ من شأن الحاسد تهجينَ ما يَحسُد عليه ، ومن خُلق المحروم ذمَّ[1] ما حُرِم وتصغيرَه والطّعنَ على أهله — كان لنا فى الإمساك سَعة . فإنّ الحسدَ عقوبةٌ موجبةٌ للحاسد بما يناله منه ويَشينُه[2] ، من عصيان ربّه واستصغار نعمته ، والسَّخط لقَدَره[3] ، مع الكرب اللازم والحزن الدائم ، والتنفس صُعُداً[4] ، والتشاغل بما لا يُدرَك ولا يُحصَى . وأنَّ الذى يشكر فعلى أمرٍ محدودٍ يكون شكره ، والذى يحسد فعلى مالا حدّ له يكون حسدُه . فحسده متّسع بقدر تغيُّر اتّساع ما حَسد عليه . لأنّا خفنا أن يظنّ جاهل أنَّ إمساكنا[5] عن الإجابة إقرار بصدق العَضيهة[6] ، وأن إغضاءنا لذى الغيبة[7] عجز عن دَفْعها .

---

(١) الكلمة ساقطة من ط ، وجعل مكانها ناشرها [تقبيح] اقتراحا منه .

(٢) الكلمة مهملة النقط فى الأصل ، وإعجامها من ط .

(٣) ط : « والسخط على القدرة » .

(٤) يقال : هو يتنفس الصعداء ، ويتنفس صعداً ، الأولى ممدودة بضم ففتح ، والأخيرة مقصورة بضمتين ، وهو النفس بتوجع .

(٥) فى الأصل : « أن أمسكنا » ، صوابه فى ط

(٦) العضيهة : الإفك والبهتان .

(٧) ط : « عن ذى الغيبة » .

فوضعنا فى كتابنا هذا حُججاً على مَن عابنـا بملك القيان ، وسبَّنا بمنادمة الإخوان ، ونَقَم علينـا إظهارَ النِّعم والحديث بها . ورجونا النَّصر إذ قد بُدِينا والبادى أظلم ، وكاتب الحقّ فصيح ـ ويروى « ولسان الحقّ فصيح » ـ ونَفَس المُحرَج[1] لا يُقامُ لها ، وصَولة الحليم المتأنّى لا بقاء بعدها .

فبيَّنّا الحجّة فى اطِّراح الغَيرة فى غير محرَّم ولا رِيبة ، ثم وصَفْنا فضلَ النعمة علينا ، ونقَضْنا أقوال خصمائنا بقولٍ موجَزٍ جامعٍ لما قصدْنا . فمها أطنبنا فيه فللشَّرح والإفهام ، ومهما أدمجنا وطوينا فليخِفّ حمله . واعتمدنا على أنَّ المطوّل يقصَّر ، والملخَّص يختصَر ، والمطوىَّ يُنْشَر ، والأصولَ تتفرع ، وبالله الكفاية والعون .

١٧٨ ظ

إنّ الفروع لا محالةَ راجعةٌ إلى أصولها ، والأعجاز لاحقةٌ بصدورها ، والموالىَ تبعٌ لأوليائها ، وأمور العالم ممزوجة بالمشاكلة ومنفردة بالمضادَّة ، وبعضها عِلّةٌ لبعض ، كالغيث علَّة السَّحابُ والسَّحابُ علَّة الماء والرُّطُوبة ، وكالحبّ عِلّته الزَّرعُ ، والزَّرعُ عِلّته الحبّ ، .والدَّجاجة علّتها البيضة ، والبيضة[2] علَّتها الدجاجة ، والإنسان علّتهُ الإنسان .

والفَلَك وجميع ما تحويه أقطار الأرض ، وكلُّ ما تُقِلُّه أكنافهـا للإنسان خَوَلٌ ومتاعٌ إلى حين . إلاّ أنّ أقربَ ما سُخِّر له من روحه وألطفَه عند نفسه « الأُنثى » ؟ فإنّها خُلِقَتْ له ليسكنَ إليها ، وجُعلَت بينه وبينها مودّة ورحمة .

---

(١) ط : « المجروح » .

(٢) فى الأصل : « البيض والبيض » . صوابه فى ط .

ووجب أن تكون كذلك وأن يكون أحقَّ وأولى بها[١] من سائر ماخُوَّل[٢] إذ كانت مخلوقةً منه . وكانت بعضاً له وجزءاً من أجزائه ، وكان بعضُ الشيء أشكلَ ببعض وأقرب به قُرباً من بعضه ببعض غيره . فالنساء حرثٌ للرجال ، كما النباتُ رِزقٌ لما جُعل رزقاً له[٣] من الحيوان .

ولولا المحنة والبلوى فى تحريم ما حرِّم وتحليل ما أُحلّ ، وتخليص المواليد من شُبهات الاشتراك فيها ، وحصول المواريث فى أيدى الأعقاب ، لم يكن واحدٌ أحقَّ بواحدةٍ منهن من الآخَر ، كما ليس بعضُ السَّوامِ أحقَّ برعْى مواقع السَّحاب من بعض ، ولكان الأمر كما قالت المجوس : إن للرجل[٤] الأقربَ فالأقربَ إليه رحماً وسبباً منهنّ . إلا أنّ الفرض[٥] وقع بالامتحان نخصَّ المطلق ، كما فعل بالزّرع فإنّه مرعًى لولد آدم ولسائر الحيوان إلاّ ما منَعَ منه التحريم .

وكلُّ شىء لم يُوجَد محرَّمًا فى كتاب الله وسنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم فمباحٌ مُطْلَق . وليس على استقباح الناس واستحسانهم قياسٌ مالم تَخرج من التحريم دليلًا على حسنه ، وداعيًا إلى حَلاله .

---

(١) ط : « أحق بها وأولى » .

(٢) فى الأصل : « لسائر ما خول » ، وتصحيحه وإثبات « من » فى ط .

(٣) فى الأصل « رزق له » ، صوابه فى ط .

(٤) فى الأصل وط : « ان الرجال » ، وقد ارتضيت ما اقترح ناشر ط من هذا التصحيح .

(٥) ط : « الغرض » .

١٧٩ و ولم نعلم للغَيرة فى غير الحرام وجهًا ، ولولا وقوع التحريم لزالت الغيرة ولزِمَنا قياس مَن أحقُّ بالنساء[1] ؛ فإنَّه كان يقال : ليس أحدٌ أولى بهنَّ من أحد[2] ، وإنَّما هنَّ بمنزلة المَشَامّ والتُّفَّاح الذى يتهاداه الناسُ بينهم . ولذلك اقتصرَ من له العِدَّة على الواحدة منهنَّ ، وفرَّق الباقى منهنَّ على المقرَّبين . غير أنَّه لما عزم الفريضة بالفرق بين الحلال والحرام ، اقتصر المؤمنون على الحدِّ المضروب لهم ، ورخَّصوه فيما تجاوزَه[3] . فلم يكن بين رجال العرب ونسائها حجابٌ ، ولا كانوا يرضَون مع سقوط الحجاب بنظرة الفَلْتة ولا لحظة الخُلْسة ، دون أن يجتمعوا على الحديث والمسامَرة ، ويزدوجوا فى المناسمة والمثافَنَة[4] ، ويسمَّى المولَع بذلك من الرِّجال الزِّيرَ ، المشتقَّ من الزيارة . وكلّ ذلك بأعين الأولياء وحضور الأزواج ، لا ينكرون ما ليس بمنكر إذا أمنوا المُنكَر ، حتَّى لقد حَسِكَ فى صدر أخى بُثَينة من جميل ما حَسِكَ[5] من استعظام المؤانسة ، وخروج العُذر عن المخالطة ، وشكا ذلك إلى زوجها وهزَّه ما حشَمه ، فكَمَنا لجميلٍ عند إتيانه بُثينة ليقتلاه ، فلما دنا لحديثه وحديثها سَمِعاه يقول ممتحنًا لها : هل لك فيما يكون بين الرِّجال

---

(١) كلمة « قياس » ليست فى ط .

(٢) هذا ما فى ط . وفى الأصل : « واحد » .

(٣) هذا ما فى ط وفى الأصل : « تجاوزوه » .

(٤) ناسمه مناسمة : دنامنه وشامَّه ، وحادثه ، وسارَّه . كما فى المعجم الوسيط . والمثافنة : المجالسة والمحادثة . وفى الأصل : « المثافعه » . وفى ط : « المشافعة » ، والوجه ما أثبت .

(٥) الحسك : الضغن والحقد . وفى ط : « حصل ... ما حصل » .

والنساء ، فيما يَشفى غليل العشق ويُطفئ نائرة الشوق ؟ قالت : لا . قال : ولم ؟ قالت : إنَّ الحبَّ إذا نـكح فَسَد ! فأخرج سَيْفاً قد كان أخفاه تحت ثوبه ، فقال : أمَا والله لو أنعَمتِ لى لملأتُه منك[1] ! فلمَّا سمعا بذلك وثِقا بغَيبهِ وركنا إلى عفافه ، وانصرفا عن قتله ، وأباحاه النظرَ والمحادثة .

فلم يزل الرِّجال يتحدَّثون مع النساء ، فى الجاهلية والإسلام ، حتَّى ضُرب الحجاب على أزواج[2] النبىّ صلى الله عليه وسلم خاصَّة .

وتلك المحادثة كانت سببَ الوُصلة بين جَميلٍ وبثينة ، وعَفراء وعُروة ، وكثيِّر وعزَّة ، وقَيسٍ ولُبنى ، وأسماء ومرقِّش ، وعبد الله بن عَجْلان وهِنْد[3] .

ثم كانت الشرائف من النساء يقعدن للرِّجال للحديث ، ولم يكن النظر من بعضهم إلى بعض عاراً فى الجاهلية ، ولا حرامًا فى الإسلام . ١٧٩ ظ

وكانت ضُباعة ، من بنى عامر بن قُرط[4] بن عامر بن صعصعة ، تحت عبد الله بن جُدعانَ زماناً لا تلد ، فأرسلَ إليها هشامُ بن المغيرة المخزومىُّ :

---

(١) أى لو أجبتنى بنعم لملأت السيف من دمك .

(٢) ط : « نساء » .

(٣) انظر ما سبق فى رسالة مفاخرة الجوارى ص ١٠٤ – ١٠٥ .

(٤) فى الأصل : « قرطة » ، وأثبت ما فى ط . وفى جمهرة ابن حزم ٢٨٢ أن القرطاء بطن من عامر بن صعصعة ، من العدنانية ، وهم بنو قرط وقريط وقريطة بنى عبيد بن أبى بكر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة . وانظر معجم قبائل العرب ٩٤٥ . وفى الإصابة ٦٧٠ قسم النساء : « ضباعة بنت عامر بن قرط ابن سلمة بن قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة »

ما تصنعين بهذا الشَّيخ الكبير الذى لا يُولَد له ، قولى له حتَّى يطلِّقك[1] .
فقالت لعبد الله ذلك ، فقال لها : إنِّى أخافُ عليكِ أن تتزوَّجى هشامَ بن المغيرة.
قالت : لا أتزوّجه . قال : فإن فعلتِ فعليك مائة من الإبل تنحرينها
فى الحزْوَرَة[2] وتنسجين لى ثوباً يَقطع ما بين الأخشَبَيْن[3] ، والطوافُ
بالبيت عُريانة . قالت : لا أطيقه . وأرسلتْ إلى هشامٍ فأخبرتْه الخبرَ فأرسلَ
إليها : ما أيسَرَ ما سألكِ ، وما يَكرُثُك[4] وأنا أيسرُ قريشٍ فى المال ،
ونسائى أكثر نساءِ رجل من قريش ، وأنت[5] أجملُ النِّساء فلا تأبَيْ عليه .
فقالت لابن جُدعان : طلِّقنى فإنْ تزوَّجتُ هشامًا فعلىَّ ما قلتَ . فطلَّقها بعد
استيثاقه منها ، فتزوَّجها هشامٌ فنحر عنها مائةً من الجُزُر ، وجمع نساءه فنسجن
ثوباً يسعُ ما بين الأخشَبين ، ثم طافت بالبيت عُريانة ، فقال المطَّلب
ابن أبى وَدَاعة : لقد أبصرتُها وهى عُريانةٌ تطوفُ بالبيت وإنِّى لَغلامٌ أتْبعها

---

(١) كلمة « حتى » ساقطة من ط .

(٢) فى الأصل وط : « الجزورة » صوابه ما أثبت والحزورة : سوق مكة ، وقد دخلت فى المسجد لما زيد فيه . معجم البلدان . والخبر فى الإصابة ٦٧٠ قسم النساء برواية أخرى .

(٣) الأخشبان : جبلان يضافان تارة إلى مكة وتارة إلى منى ، أحدهما أبو قبيس والآخر قعيقعان .

(٤) كرثه الأمر يكرثه : ساءه واشتد عليه وبلغ منه المشقة . وفى ط : « يلويك » ، تحريف .

(٥) هذا ما فى ط . وفى الأصل : « فأنت » .

إذا أدبرتْ ، وأستقبلها إذا أقبلت ، فما رأيت شيئاً مما خلق الله أحسنَ منها ، واضعةً يَدَها على رَكَبِها وهى تقول :

اليومَ يبــــدو بعضُه أو كلُّه   فما بدا منـــــــه فلا أُحلُّه

كم ناظرٍ فيـــه فما يملُّه[1]   أخْثم مثل القَعْب بادٍ ظلُّه[2]

قال : ثم إنَّ النساء إلى اليوم من بنات الخلفاء وأمّهاتهن ، فمن دونهنَّ يَطُفن بالبيت مكشّفات الوجوه ، ونحو ذلك لا يكمل حجٌّ إلا به .

وأعرسَ عمر بن الخطّاب رضى الله عنه بعاتـكة ابنة زَيد [بن عمرو[3]] ابن نُفَيل ، وكانت قبله عند عبد الله بن أبى بكر ، فمات عنها بعد أن اشترط عليها ألا تتزوّج بعده أبدًا ، على أن نَحَلَها[4] قطعةً من ماله سوى الإرث ، فخطبها عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وأفتاها بأن يعطيَها مثلَ ذلك من المال فتصَدَّقَ[5] به عن عبد الله بن أبى بكر ، فقالت فى مرثيته :

١٨٠ و

فأقسمتُ لا تنفكُّ عينى سخينةً   عليك ولا ينفكُّ جلدىَ أغبرا

---

(١) ط : « فما أبله » ، تحريف .

(٢) فى الأصل وط : « أجثم » بالجيم ، تحريف . والأخثم بالخاء المعجمة : المرتفع الغليظ . وفى قول النابغة :

وإذا لمست لمست أخثم جاثما   متحيزاً بمكانه ملء اليد

(٣) التكملة من نوادر المخطوطات ١ : ٦١ وجمهرة أنساب العرب ١٥١ ، ١٥٢ والإصابة ٦٩٥ من قسم النساء .

(٤) ط : « ينحلها » .

(٥) أى فتصدق . وفى ط : « فتتصدق » .

فلما ابتنَى بها عمر بن الخطاب رضى الله عنـه أولَمَ ، ودعا المهاجرين والأنصار ، فلمَّا دخل علىٌّ بن أبى طالب عليه السلام قَصَد لبيتِ حَجَلتها ، فرفعَ السِّجفَ ونظر إليها فقال :

فأقسمتُ لا تنفكُّ عينى سخينةً عليكَ ولا ينفكُّ جلدىَ أصفرا

فخجلت فأطرقت ، وساء عمرَ رضى الله عنه ما رأى من خجلها وتشوُّرِها[1] عند تعيير علىٍّ إيّاها بنقض ما فارقت عليه زوجَها ، فقال : يا أبا الحسن ، رحمك الله ، ما أردتَ إلى هذا ؟ فقال : حاجةٌ فى نفسى قضيتُها .

هذا . وأنتم تروون أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان أغيَرَ الناس ، وأنَّ النبىَّ صلى الله عليه وسلم قال له : « إنى رأيت قصراً فى الجنة فسألت : لمن هـــذا القصر ؟ فقيل : لعمر بن الخطاب . فلم يمنعنى من دخوله إلّا لمعرفتى بغيرتك » . فقال عمر رضى الله عنه : وعليك يُغَارُ يا نبىَّ الله !

فلو كان النظرُ والحديث والدُّعابة يُغار منها ، لـكان عمر المقـــدَّمَ فى إنـكاره ؛ لتقدُّمه فى شدَّة الغيرة . ولو كان حرامًا لمنعَ منه ؛ إذ لا شكَّ فى زهده وورعه وعلمه وتفقُّهه .

وكان الحسن بن على عليهما السلامُ تزوَّج حفصةَ ابنة عبد الرحمن[2] ، وكان المنذر بن الزُّبير يهواها[3] ، فبلغ الحسنَ عنها شىء فطلَّقها ، فخطبها المنذر فأبت أن تتزوَّجه وقالت : شَهَّرنى ! . وخطبها عاصم بن عمر بن الخطاب

(١) التشور : الخجل . وفى الأصل : « نشوزها » .
(٢) حفصة ابنة عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق . جمهرة ابن حزم ١٢٣ .
(٣) المنذر بن الزبير بن العوام . الجمهرة ١٢٣ .

رضى الله عنها فتزوَّجها ، فرقَّ[1] المنذرُ عنها شيئاً فطلّقها ، وخطبها المنذر فقيل لها : تزوَّجيه ليعلمَ الناسُ أنه كان يعضَهُك[2] . فتزوَّجْته فعلم الناس أنه كذَب عليها ، فقال الحسن لعاصم : لنستأذنْ[3] عليها المنذرَ فندخلَ إليها فنَتحدَّثَ عندها[4] ، فاستأذناه ؛ فشاور أخاه عبد الله بنَ الزُّبير فقال : دعهما يدخلان . فدخلا فكانت إلى عاصمٍ أكثر نظَراً منها إلى الحسن ، وكان أبسطَ للحديث . فقال الحسن للمنذر : خذ بيد امرأتك . فأخذَ بيدها وقام الحسن وعاصمٌ فخرجا . وكان الحسن يهواها وإنَّما طلَّقها لما رقَّى إليه المنذر[5] .

١٨٠ ظ

وقال الحسن يومًا لابن أبى عَتيق : هل لك فى العقيق[6] ؟ فخرجا فعدل الحسن إلى منزل حَفْصة فدخل إليها فتحدَّثا طويلا ثم خرج ، ثم قال لابن أبى عتيق : هل لك فى العقيق ؟ قال : نعم . فنزل بمنزل حفصة ودخَل ، فقال له مرَّة أخرى : هل لك فى العقيق ؟ فقال : يا ابن أُمِّ ، ألا تقول : هل لك فى حفصة ! !

وكان الحسن فى ذلك العصر أفضلَ أهلِ دهره . فلو كان محادثةُ النساء

---

(١) يقال رقى فلان علىَّ الباطل ترقية ، إذا تقول مالم يكن وزاد فيه . وفى الأصل : « رقا » . ، صواب كتابته من ط

(٢) عضهه عضها : قال فيه مالم يكن .

(٣) ط : « استأذن »

(٤) فى الأصل : فيدخل إليها فيتحدث عنها » ، وصوابه فى ط .

(٥) فى الأصل : « رقا » . وانظر ما سبق .

(٦) العقيق : واد عليه أموال أهل المدينة فيه عيون ونخل .

والنَّظرُ إليهنّ حرامًا وعارًا لم يفعلْه ولم يأذن فيه المنذر بن الزُّبير ، ولم يُشِرْ به عبد الله بن الزُّبير .

وهذا الحديث وما قبله يُبطلان ماروت الُحشويّة من أنّ النظَر الأوَّلَ حرام والثانىَ حرام ؛ لأنَّه لا تـكون محادثةٌ إلَّا ومعها ما لا يُحصى عددُه من النَّظرِ . إلَّا أن يكون عنَى بالنظرةِ المحرَّمَةِ النَّظَرَ إلى الشعَر والجاسِد[1] ، وما تخفيه الجلابيبُ ممـا يحِلُّ للزّوج والولىِّ ويحرُم على غيرهما .

ودعا مصعبُ بن الزُّبير الشَّعبىَّ ، وهو فى قُبّةٍ له مجلَّلةٍ بوشى ، معه فيها امرأتُه[2] ، فقال : يا شعبىُّ ، مَن معى فى هذه القبّة ؟ فقال : لا أعلم أصلح الله الأمير ! فرفع السَّجفَ ، فإذا هو بعائشة ابنة طلحة .

والشعبىُّ فقيه أهلِ العراق وعالمُهم ، ولم يكن يستحلُّ أن ينظر إن كان النَّظرُ حرامًا .

ورأى معاوية كاتبًا له يكلِّمُ جاريةً لامرأته فاختـةَ بنتِ قَرَظة[3] ، فى بعض طُرق داره ، ثم خطب ذلك الـكاتبُ تلك الجارية فزوَّجها منه ، فدخل معاوية إلى فاختة وهى متحشِّدة[4] فى تعبئة عِطر لعُرس جاريتها ، فقال : هوِّنى عليك يا ابنةَ قَرَظة ، فإنى أحسب الابتناء قد كان منذُ حين ! ١٨١ و

---

(١) المجاسد : جمع مجسد كمنبر ومصحف ، وهو القميص الذى يلى الجسد . وفى الأصل وط : « والنظر إلى الشعر والمجاسد » .

(٢) ط : « معه امرأته فيها » .

(٣) فاختة بنت قرظة بن عبد عمرو بن نوفل . جمهرة أنساب العرب ١١٦ .

(٤) التحشد : التجمع .

ومعاوية أحد الأئمة ، فلما لم يقع عنده ما رأى من الكلام موقعَ يقينٍ ، وإنّما حلَّ محلَّ ظنٍّ وحِسبان[1] ، لم يقضِ به ولم يوجبْه ، ولو أوجبَه لحَدَّ عليه .

وكان معاوية يؤتى بالجارية فيجرِّدها من ثيابها بحضرة جلسائه ، ويَضَع القضيبَ على رَكَبها ، ثم يقول : إنَّه لمتاعٌ لو وجَدَ متاعًا ! ثم يقول لصعصعة ابن صُوحان : خذْها لبعض ولدك ، فإنّها لا تحلُّ ليزيد بعد أن فعلتُ بها ما فعلتُ .

ولم يكن يُعدَم مِن الخليفة ومَن بمنزلته فى القُدرة والتأتِّى[2] أن تقف على رأسه جارية تذبُّ عنه وتروِّحه ، وتعاطيه أخرى فى مجلسٍ عامٍّ بحضرة الرجال .

فمن ذلك حديث الوصيفة التى اطَّلعت فى كتاب عبد الملك بن مَرْوانَ إلى الحجّاج وكان يُسِرُّه[3] ، فلما فشا مافيه رجَع على الحجّاج باللّوم وتمثَّل :

ألم ترَ أنَّ وشاة الرجا ... ل لا يتركون أديمًا صحيحا[4]

فلا تُفشِ سرَّكَ إلّا إليك ... فإنَّ لكلِّ نصيحٍ نصيحا

ثم نظر فوجد الجارية كانت تقرأ فنمَّت عليه .

ومن ذلك حديثُه حين نعَس فقال للفرزدق وجرير والأخطل : مَن

---

(١) الحسبان ، بالكسر : الظن . وبضم الحاء بمعنى الحساب والعد .

(٢) ط : « التأنى » . والكلمة مهملة فى الأصل . والتأتى : من قولهم تأتى له الشىء ، أى تهيأ ، كما يقال تأتى لفلان أمره .

(٣) من الإسرار والإخفاء . وفى الأصل : « يستره » ، والوجه ما أثبت من ط .

(٤) انظر حواشى الحيوان ٥ : ١٨١ . وقد سبق فى كتاب كتمان السر .

وصَفَ نُعاسًا بشعرٍ وبمَثَلٍ يُصيب فيه[١] ويُحسن التمثيلَ ، فهذه الوصيفةُ له .
فقال الفرزدق :

رماه الكرى فى الرأس حتَّى كأنَّه
أميمُ جَلاميدٍ تَركنَ به وَقْرا[٢]

فقال : شدختَنى ويلكَ يافرزدق ! فقال جرير :

رماهُ الكرى فى الرأس حتَّى كأنَّه
يَرَى فى سواد الليل قُنبرة سَقْرا[٣]

فقال : ويلك تركتَنى مجنوناً ! ثم قال : ياأخطلُ فقل . قال :

رماه الكرى فى الرأس حتَّى كأنَّه
نديمٌ تَرَوَّى بين ندمانه خَمرا[٤]

قال : أحسنتَ ، خُذْ إليك الجارية .

١٨١ ظ ثم لم يزل للملوك والأشراف إماء يختلفن فى الحوائج ، ويدخلن فى الدواوين ، ونساء يَجْلِسْنَ للناس ، مثل خالصة جارية الخيزُران ، وعُتْبة جارية ريطة[٥] ابنة أبى العباس ، وسُكَّر وتركيَّة جاريتى أمِّ جعفر ، ودُقاق جارية العبَّاسة[٦] ، وظَلُوم وقُسطنطينَة جاريتى أم حبيب ، وامرأة

---

(١) ط : « وتمثل نصيبا فيه » وما هنا صوابه .
(٢) الأميم : الذى أصيب فى أم رأسه .
(٣) فى الأصل وط : « فسله » وأثبت ما فى العقد ٥ : ٣٧٤ . والسقر : لغة الصقر . وفى ط : « سفرا » ، وفى العقد : « صفرا » ، أى صفراء .
(٤) الندمان ، بالفتح : النديم على الشراب ، يقال للواحد والجمع .
(٥) فى الأصل : « رابطة » ، صوابه فى ط وجمهرة أنساب العرب ٢٢ ، ٣٥ .
(٦) العباسة بنت المهدى . وفى الأصل « العباسية » ، صوابه فى ط .

هارون بن جعبويه[١] ، وحَمْدونة أَمَةُ نصر بن السِّنديّ بن شاهَك[٢] . ثمّ كنّ يبرزْن للناس أحسنَ ما كنّ وأشبَهَ ما يتزيَّنّ به ، فما أنكر ذلك منكرٌ ولا عابَه عائب .

ولقد نظر المأمونُ إلى سُكَّرَ فقال : أحُرَّةٌ أنت أم مملوكة ؟ قالت : لا أدرى ، إذا غضِبَتْ علىَّ أمُّ جعفر قالت : أنت مملوكة ، وإذا رضِيَتْ قالت : أنتِ حُرَّة . قال : فاكتبى إليها السَّاعةَ فاسأليها عن ذلك . فكتبَتْ كتاباً وَصلَتْه بجناح طائرٍ من الهُدَّى[٣] كان مَعها ، أرسلتْه تعلِم أمَّ جعفرٍ ذلك ، فعلمت أمُّ جعفرٍ ما أراد فكتبتْ إليها : « أنتِ حُرَّة » . فتزوّجها على عشرة آلاف درهم ، ثم خلا بها من ساعتها فواقَعَها وخلَّى سبيلَها ، وأمر بدفْع المال إليها .

والدَّليل على أنّ النَّظرَ إلى النساء كلِّهنّ ليس بحرام ، أنّ المرأة المعنَّسة[٤] تبرزُ للرِّجال فلا تحتشم من ذلك . فلو كان حرامًا وهى شابّةٌ لم يحلَّ إذا عُنِّستْ ، ولكنَّه أمرٌ أفرَط فيه المتعدُّونَ حَدَّ الغَيرة إلى سُوء الخُلق وضِيق العَطَن[٥] ، فصار عندهم كالحقّ الواجب .

---

(١) ط : « معبوبة » .

(٢) انظر البيان ٣ : ٣٦٧ .

(٣) الهدى : جمع هاد ، وهو الحمام للدرب الذى يسمى حمام الزاجل . انظر حواشى الحيوان ٢ : ٧٩ والحيوان ٣ : ٢١٣ ، ٢١٧ . وفى ط : « الهوى » تحريف .

(٤) المعنسة بفتح النون المشددة على الأصح ، ويقال بكسرها أيضا ، وهى التى بقيت زمانا بعد أن تدرك لا تتزوج .

(٥) فى الأصل وط : « وضيق الفطنة » ، والتصحيح لناشر ط .

وكذلك كانوا لا يرون بأساً أن تنتقل المرأة إلى عدّة أزواج لا ينقلها عن ذلك إلاّ الموت ما دام الرجال يريدونها . وهم اليومَ يكرهون هذا ويستسمجونه فى بعض ، ويعافون المرأة الحرّةَ إذا كانت قد نكحت زوجاً واحداً ، ويلزمون مَن خطَبَها العارَ ويُلحقون به اللّومَ ، ويعيِّرونها بذلك ، ويتحظَّون الأمَة[1] وقد تداولها من لا يُحصَى عدده من الموالى . فمَنْ حَسَّن هذا فى الإماء وقبّحه فى الحرائر ! ولمَ [لَمْ[2]] يَغاروا فى الإماء وهنَّ أمّهاتُ الأولاد وحظايا الملوك ، وغارُوا على الحرائر . ألا ترى أنَّ الغَيرةَ إذا جاوزَتْ ما حرّم اللهُ فهى باطلٌ ، وأنَّها بالنِّساء لضعفهنَّ أولَع ، حتى يغَرْنَ على الظّنّ والحُلْم فى النَّوم . وتغار المرأة على أبيها ، وتعادِى امرأتَه وسُرِّيّتَه .

١٨٢ و

ولم تزل القيان عند الملوك من العرب والعجم على وجه الدّهر . وكانت فارس تَعُدُّ الغناء أدباً والرُّومُ فلسفةً .

وكانت فى الجاهليّة الجرادتان لعبد الله بن جُدعان[3] .

---

(١) هذا الفعل لم يرد فى المعاجم المتداولة ، وهو من الحظوة بمعنى قرب المكانة . وقالوا : امرأة حظية : مفضلة على غيرها فى المحبة .

(٢) التكملة من ط .

(٣) فى العقـــد ٦ : ٢٨ أنهما كانتا قينتين لعاد . وفى جنى الجنتين ٣٣ أن الجرادتين قينتا معاوية بن بكر أحد العماليق . وكذا فى أمثال الميدانى (ألحن من جرادتين) . وفى اللسان والقاموس (جرد) أنهما مغنيتان للنعمان . لكن ما فى الأغانى ٨ : ٢ ـ ٣ مطابق لما ذكر الجاحظ هنا فى قصة طويلة . وفيهما يقول أمية بن أبى الصلت حين أحداها إليه عبد الله بن جدعان :

عطاؤك زين لامرئ إن حبوته ببذل وما كل العطاء يزين
وليس بشين لامرئ بذل وجهه إليك كما بعض السؤال يشين

وكان لعبد الله بن جعفر الطّيار[١] جوارٍ يتغنَّيْن، وغلامٌ يقال له « بديع » يتغنَّى ، فعابَه بذلك الحكم بن مروان ، فقال : وما علىَّ أن آخُذَ الجيِّدَ من أشعار العرب وأُلقيَه إلى الجوارى فيترنَّمن به ويشذِّرنَه[٢] بحلوقهنَّ ونغمهنَّ !

وسمع يزيد بن معاويةَ الغناء .

واتَّخذ يزيد بن عبد الملك حَبَابة وسَلاَّمة[٣] ، وأدخل الرجال عليهنَّ للسَّماع ، فقال الشاعر فى حَبَابة :

إذا ما حَنَّ مِزهرُها إليها ... وحنَّتْ دونه أُذنُ الكرامِ

وأصغَوْا نحوَهُ الآذانَ حتَّى ... كأنَّهمُ وما ناموا نيامُ[٤]

وقال فى سَلاَّمة :

ألم ترَها ، واللهُ يكفيك شرَّها ، ... إذا طرَّبتْ فى صوتها كيف تصنعُ

تردُّ نظامَ القول حتَّى تردَّه ... إلى صُلصُلٍ من حلقها يترجَّعُ

وكان يسمع فإذا طرِبَ شقَّ بُرْدَه ثم يقول : أطير ! فتقول حبابة : لا تطير[٥] ؛ فإنَّ بنا إليك حاجة .

---

(١) هو عبد الله بن جعفر بن أبى طالب . والطيار لقب لجعفر . وفى الحيوان ٣ : ٢٣٣ : « ونحن نؤمن بأن جعفراً الطيار بن أبى طالب ، له جناحان يطير بهما فى الجنة ، جعلا له عوضا من يديه اللتين قطعتا على لواء المسلمين فى يوم مؤتة » . وانظر جمهرة ابن حزم ٦٨ — ٦٩ .

(٢) هو من قولهم : شذر النظم : فصله بالخرز ونحوه. وفى ط : « وينشدنه» .

(٣) حبابة بتخفيف الباء الموحدة ، وسلامة بتشديد اللام كما نص ابن الأثير فى الكامل ٥ : ٥٠ ومما يؤيد ضبط حبابة بالتخفيف ما ورد فى الأغانى ١٣ : ١٥٤ :

أبلغ حبابة أسقى ربعها المطر ... ما للفؤاد سوى ذكراكم وطر

(٤) فى البيت إقواء ظاهر .

(٥) أى لا تطر . وفى ط : « لا تطر » بالنهى الصريح .

ثم كان الوليد بن يزيد المتقدِّمَ فى اللَّهو والغزل ، والملوك بعد ذلك يسلكون على هذا المنهاج وعلى هذا السبيلِ الأوّل .

وكان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، قبل أن تنالَه الخلافةُ يتغنَّى . فممّا يُعرَف من غنائه :

أَلِمَّا صاحبيَّ نزُرْ سعادا لقُرب مَزارِها ودعَا البِعادا[1]

وله :

عاودَ القلبُ سعادَا فَقَلاَ الطَّرفُ السُّهادا[2]

ولا نرى بالغناء بأساً إذا كان أصله شعراً مكسوًّا نغماً : فما كان منه صدقاً فحسَنٌ ، وما كان منه كذباً فقبيح .

وقد قال النبي عليه السلام : « إنَّ من الشِّعر لحِكمةً » .

وقال عمر بن الخطّاب رضى الله عنه : « الشعر كلامٌ ، فحَسَنُه حسنٌ ، وقبيحه قبيح » .

ولا نرى وزن الشعر أزالَ الكلامَ عن جهته ، فقد يوجد ولا يضرُّه ذلك ، ولا يزيل منزلته من الحكمة .

فإذا وَجَب أنّ الكلام غير محرَّم فإنّ وزنه وتقفيته لا يوجبان تحريماً لعلّة من العلل . وإنّ الترجيع له أيضاً لا يخرج إلى حرام . وإنّ وزنَ الشعر من جنس وزن الغناء ، وكتاب العروض من كتاب الموسيقى ، وهو من

(١) فى الأغانى ٨ : ١٤٥ : « لو شك فراقها وذرا البعادا » .

(٢) فى الأصل و ط : « فعلا » ، وجعلها فنكل « فقلى » ، وما أثبت أقرب تصحيح . يقال قلاه يقلوه وقلاه يقليه : أبغضه .

كتاب حدّ النُّفوس ، تحدُّه الألسنُ بحدٍّ مقْنِـع ، وقد يعرف بالمهاجس كما يعرف بالإحصاء والوزن . فلا وجهَ لتحريمه ، ولا أصلَ لذلك فى كتاب الله تعالى ولا سنّة نبيّه عليه السلام .

فإن كان إنّما يحرِّمه لأنه يُلهِى عن ذكر الله فقد نجد كثيراً من الأحاديث والمطاعم والمشـارب والنَّظر إلى الجِنان والرَّياحين ، واقتناص الصيد ، والتشاغل بالجماع وسائر اللذّات ، تصدُّ وتُلهى عن ذكر الله . ونعلم أنّ قَطعَ الدَّهر بذكر الله لِمَنْ أمكنه أفضل ، إلاّ أنّه إذا أدَّى الرجلُ الفرضَ فهذه الأمور كلُّها له مباحة ، وإذا قصَّر عنه لزمه المأثم .

ولو سلم من اللَّهو عن ذكر الله أحدٌ لسَلِمَ الأنبياء عليهم السلام . هذا سليمانُ بن داودَ عليهما السلامُ ، ألهاه عَرضُ الخيل عن الصَّلاة حتّى غابت الشّمس ، فعرقَبَها وقطعَ رقابها .

وبعد فإنَّ الرقيق تجارةٌ من التجارات تقع عليه المساوماتُ[1] والمشاراة بالثَّمن ، ويحتاج البـائع والمبتاع إلى أن يَستشِفَّا العِلْق[2] ويتأمّلاه تأمُّلا بيّنًا يجب فيه خيار الرؤية المشترطُ فى جميع البِياعات[3] . وإن كان لا يُعرَف مبلغهُ بكيلٍ ولا وزنٍ ولا عددٍ ولا مساحة ؛ فقد يُعرف بالُحسن والقبح .

---

(١) ط : « المساومة » .

(٢) فى أصل ط : « ينشفا » ، وجعلها فنكل « ينتقيا » . وما أثبت من الأصل واضح صحيح .

(٣) فى الأصل : « المشـترطة من جميع البياعات » ، وأثبت ما فى ط . والبياعات ، بكسر الباء : جمع بياعة ، وهى السلعة .

ولا يقف على ذلك أيضاً إلاّ الثاقب فى نظره ، الماهر فى بَصره ، الطَّبُّ
١٨٣ و بصناعته ؛ فإنّ أمرَ الحسن أدقُّ وأرقُّ من أن يدركه كلُّ من أبصره .

وكذلك الأمور الوهميّة ، لا يُقضَى عليها بشهادة إبصار الأعين ، ولو قُضِيَ عليها بها كان كلُّ مَن رآها يَقضى ، حتّى النَّعَمُ والحميرُ ، يحكم فيها لكلٍّ بصير العين يكون فيها شاهداً وبَصيراً للقلب ، ومؤدِّياً إلى العقل ، ثم يقع الحكم من العقل عليها .

وأنا مبيِّن لك الُحسن . هو التَّمامُ والاعتدال . ولست أعنى بالتمام تجاوُزَ مقدار الاعتدال كالزيادة فى طول القامة ، وكدقّة الجسم أو عِظَم الجارحة من الجوارح ، أو سَعَة العين أو الفم ، مما يتجاوز مثلَه من الناس المعتدلين فى الخلق ؛ فإنّ هذه الزيادةَ متى كانت فهى نُقصانٌ من الحسن ، وإن عُدَّت زيادةً فى الجسم .

والحدودُ حاصرةٌ لأمور العالَم ، ومحيطة بمقاديرها الموقوتة لها[1] ، فكلُّ شىء خرجَ عن الحدِّ فى خُلُق ، حتى فى الدِّين والحكمة اللَّذَين هما أفضلُ الأمور ، فهو قبيحٌ مذموم .

وأمّا الاعتدالُ فهو وزن الشىء لا الكمّيّة[2] ، والكونُ كونُ الأرض لا استواؤها[3] .

ووزن النفوس فى أشباه أقسامها . فوزن خِلقة الإنسان اعتدالُ محاسنه وألاّ يفوتَ شىء منها شيئاً ، كالعين الواسعة لصاحب الأنف الصغير

---

(١) الموقوتة : المقدّرة : وفى الأصل : « الموقوفة » .

(٢) فى الأصل : « لا للكية » ، صوابه فى ط .

(٣) فى الأصل : « ولكن كون الأرض لاستوائها » . صوابه فى ط .

الأفطس ، والأنف العظيم لصاحب العين الضيِّقة ، والذَّقن الناقص والرأس الضخم والوجه الفَخْم لصاحب البدن المجدَّع النِّضو[١] ، والظَّهرِ الطويل لصاحب الفخذين القصيرتين[٢] ، والظَّهر القصيرِ لصاحب الفخذين الطويلتين ، وكسَعَة الجبين بأكثر من مقدار أسفل الوجه .

ثم هذا أيضاً وزنُ الآنية وأصنافِ الفُرُش والوشْي واللباس ، ووزنُ القَنَوات التي تجري فيها المياه .

وإنّما نعني بالوزن الاستواءَ في الخرط والتركيب .

فلا بدَّ ممّا[٣] لا يمنع الناظر من النظر إلى الزَّرع والغرس والتفسُّح في خضرته[٤] والاستنشاق من روائحه . ويسمّى ذلك كلُّه له حلاًّ[٥] ما لم يمد له يداً . فإذا مدّ يداً إلى مثقالِ حبّةٍ من خردل بغير حقِّها فعلَ ما لا يحلُّ ، وأكلَ ما يحرُم عليه .

١٨٣ ظ

وكذلك مكالمة القيان ومفاكهتهنّ ، ومغازلتهنّ ومصافحتهنّ للسّلام ، ووضعُ اليد عليهنّ للتَّقليب والنظر ، حلالٌ ما لم يَشُبْ ذلك ما يَحرُم .

---

(١) المجدع عنى به المنقوص الخلق . وأصله المجدع من النبات ، وهو ما قطع من أعلاه ونواحيه . والنضو ، بالكسر : المهزول .

(٢) في الأصل وط : « القصيرتين » ، و « الطويلتين » فيما سيأتي ، صوابه ما أثبت والفخذ مؤنثة .

(٣) في الأصل و ط : « فلا بد لما » .

(٤) ط : « والفرش والبنفسج » ، وما هنا صوابه .

(٥) في الأصل و ط : « حل » ، تحريف .

وقد استثنى الله تباركَ وتعالى اللَّمَمَ فقال : ﴿ الذينَ يجتنبونَ كبائرَ الإثم والفواحشَ إلاَّ اللَّممَ إنّ ربَّك واسعُ المغفرة[1] ﴾ . قال عبد الله بن مسعود ، وسُئل عن تأويل هذه الآية فقال : إذا دنا الرجلُ من المرأة فإنْ تقدَّم ففاحشة ، وإنْ تأخَّرَ فلممٌ . وقال غيره من الصَّحابة : القُبلة واللَّمْس . وقال آخرون : الإتيان فيما دون الفرج .

وكذلك قال الأعرابيّ حين سئل عمّا نال مِن عشيقتِه ، فقال : ما أقربَ ما أحلَ اللهُ مما حرَّم الله !

فإن قال قائل : فيما روى من الحديث : « فرِّقوا بين أنفاس الرجال والنِّساء » ، وقال : « لا يَخلُ رجلٌ بامرأة في بيتٍ وإن قِيلَ حَمْوُها ، ألاَ إنَّ حَمْوَها الموت[2] » وإنّ في الجمع بين الرِّجال والقيان ما دعا إلى الفسق والارتباط والعشق ، مع ما ينزل بصاحبه من الغُلمة التي تَضطرُّ إلى الفجور وتَحمِل على الفاحشة ؛ وأنَّ أكثر من يحضُر منازل القيان إنّما يحضُر لذلك لا لسماع ولا ابتياع .

قلنا : إن الأحكام إنّما تقع على ظاهر الأمور ، ولم يكلِّف الله العبادَ الحكمَ على الباطن ، والعملُ على النيّات ، فيُقضَى للرجل بالإسلام بما يظهر

(١) الآية ٣٢ من سورة النجم . وفى الأصل و ط : « والذين يجتنبون » وسبب هذا التحريف اشتباه بالآية ٣٧ من سورة الشورى .

(٢) الحمو ، بالفتح : لغة فى حم المرأة ، إذ فيه ست لغات ذكرها الأشمونى فى ١ : ٧١ . وانظر صحيح مسلم ١٧١١ . وفى اللسان (حما) : « ألا حَمُوها الموت » بدون « إن » . وهذا على لغة من يعرب الحم بالحروف الثلاثة .

منه ولعلَّه ملحدٌ فيه ، ويُقضَى أنّه لأبيه ولعلّه لم يلدْهُ الأبُ الذى ادَّعى إليه قطّ ، إلاَّ أنّه مولود على فراشه ، مشهورٌ بالانتماء إليه . ولو كُلِّف من يشهد لرجلٍ بواحدٍ من هذين المعنَيين على الحقيقة لم تَقُم عليه شهادَة . ومن يحضر مجالسنا لا يظهر نسباً مما ينسبونه إليه ، ولو أظهرَ ثُمَّ أغضينا له عليه لم يلحقْنا فى ذلك إثم .

والحسب والنَّسب الذى بَلَغ به القيانُ الأثمانَ الرغيبة إنما هو الهَوَى[1] . ولو اشترى على مثل شِرَى الرَّقيق لم تجـاوز الواحدةُ منهنَّ ثمنَ الرأس السـاذَج . فأَكثر مَن بالَغ فى ثمنِ جاريةٍ فبالعشقِ ولعله كان ينوى فى أمرها الرِّيبةَ ، ويجدُ هذا أسهلَ سبيلاً إلى شِفاء غليله[2] ثم تعذَّر ذلك عليه فصار إلى الحلال وإن لم ينْوِه ويعرفْ فضلَه[3] ، فباع المتاعَ وحَلَّ العُقَد[4] وأثقل ظهره بالعُبِّيَّة[5] حتى ابتاع الجارية . ١٨٤ و

ولا يعمل عملاً ينتج خيراً غير إغرائه[6] بالقيان وقيادته عليهنّ ؛ فإنّه لا ينجم[7] الأمرُ إلاّ وغايته فيهنّ العشق ، فيعوق[8] عن ذلك ضبط الموالى

---

(١) فى الأصل و ط : « لهواء » .

(٢) فى الأصل وط : « إلى إشفاء غليله » .

(٣) فى ط : « وتعرف فضله » ، وما هنا صوابه .

(٤) العقد : جمع عقدة ، وهى الضيعة . واعتقدها : اشتراها .

(٥) العبية بكسر العين وضمها وتشديد كل من الباء المكسورة والياء المفتوحة : الكبر والفخر . وفى ط : « بالعبية » .

(٦) ط : « إغرابه » .

(٧) ط : « لا يتحمل » .

(٨) فى الأصل : « فيفرق » .

ومراعاة الرقباء وشدَّة الحجاب ، فيُضطر العاشق إلى الشراء ، ويحلّ به الفرج[(١)] ، ويكون الشيطان المدحور .

والعِشقُ داءٌ لا يُملَك دفعه ، كما لا يستطاع دفعُ عوارض الأدواء إلاّ بالحِمية ، ولا يكاد يُنتَفع بالحِمية مع ما تولَّد الأغذية وتزيد فى الطبائع بالازدياد فى الطُّعم .

ولو أمكن أحداً أن يحتمىَ من كلّ ضرر ويقفَ عنْ كل غذاء ، للزمَ ذلك المتطبِّبَ فى آفات صحته[(٢)] ، ونَحَل جسمُه وضَوِىَ لحمُه ، حتَّى يؤمر بالتخليط ، ويشار عليه بالعناية فى الطَّيبات . ولو ملك أيضاً صرفَ الأغذية واحترس بالحمية ، لم يملك ضرر تغيرُّ الهواء ولا اختلاف الماء .

وأنا واصفٌ لك حدَّ العشق لتعرف حدَّه :

هو داءٌ يُصيب الرُّوح ويشتمل على الجسم بالمجاورة ، كما ينال الروحَ الضعفُ فى البطش والوهنُ فى المرء ينهكه . وداء العشق وعمومه فى جميع البدن بحسب منزلة القلب من أعضاء الجسم . وصعوبة دوائه تأتى من قبل اختلاف عِلله ، وأنّه يتركب من وجوهٍ شتَّى ، كالحمَّى التى تَعرِض مركَّبَةً[(٣)] من البرد والبلغم . فمن قصدَ لعلاج أحد الخلطين كان ناقصاً من دائه[(٤)] زائداً فى داء الخلط الآخر ، وعلى حسب قوّة أركانه يكون ثبوتُه وإبطاؤه

(١) ط : « الفرح » .

(٢) فى الأصل : فى أوقات صحته » ، صوابه فى ط .

(٣) فى الأصل : « للركبة » ، وصوابه فى ط .

(٤) فى الأصل و ط : « دوائه » ، صوابه ما أثبت .

فى الانحلال . فالعشق يتركّب من الحبّ والهوَى ، والمشاكلة والإلف ، وله ابتداءٌ فى المصاعدة ، ووقوف على غاية ، وهبوطٌ فى التوليد إلى غاية الانحلال ووقف الملال .

١٨٤ ظ

والحبّ اسمٌ واقع على المعنى الذى رُسم به ، لا تفسير له غيره[١] ؛ لأنه قد يقال : إن المرء يحبُّ الله ، وإنّ الله جلّ وعزّ يحبّ المؤمن ، وإن الرجل يحبُّ ولده ، والولد يحبّ والدَه ويحبُّ صديقَه وبلدَه وقومه ، ويحبُّ على أى جهةٍ يريد ولا يسمَّى ذلك عشقاً . فيُعلم[٢] حينئذ أن اسم الحبّ لا يُكتفى به فى معنى العشق حتّى تُضاف إليه العللُ الأُخر[٣] إلاّ أنه ابتداء العشق ، ثم يتبعه حبُّ الهوى[٤] فربّما وافق الحقّ والاختيار[٥] ، وربّما عَدَل عنهما . وهذه سبيل الهوى فى الأديان والبُلدان وسائر الأمور . ولا يميل صاحبُه عن حجّته واختياره فيما يهوى . ولذلك قيل : « عَين الهوى لا تصدُق » ، وقيل : « حبُّك الشىء يُعمى ويُصمّ[٦] » . يتخذون أديانهم أرباباً لاهوائهم . وذلك أنّ العاشق كثيراً ما يعشق غير النّهاية فى الجمال ، ولا الغاية فى الكمال ، ولا الموصوف بالبراعة والرشاقة ، ثم إن سئل عن حجّته فى ذلك لم تقم له حجّة .

---

(١) ط : « لا يعتبر له غير » .
(٢) ط : « فتعلم » .
(٣) ط : « الأخرى » .
(٤) ط : « ثم يتبعه الهوى » .
(٥) ط : « والاختيار » .
(٦) أمثال الميدانى ١ : ١٧٩ وانظر الحيوان ٤ : ٣٨٦ .

ثم قد يجتمع الحبُّ والهوى ولا يسمَّيان عشقاً ، فيكون ذلك فى الولد والصديق والبلد ، والصِّنف من اللِّباس والفُرش والدوابّ . فلم نر أحداً منهم يسقم بدنه ولا تتلف روحُه من حبّ بلده ولا ولده ، وإن كان قد يصيبه عند الفراق لوعةٌ واحتراق .

وقد رأينا وبلغَنا عن كثير ممن قد تَلِفَ وطال جُهده وضَناه بداء العشق .

فعلم أنّه إذا أضيف إلى الحبّ والهوى المشاكلةُ[1] ، أعنى مشاكلةَ الطبيعة ، أى[2] حبّ الرجالِ النساءَ وحبَّ النساءِ الرجالَ ، المركَّبَ فى جميع الفحول والإناث من الحيوان ، صار ذلك عشقاً صحيحاً . وإن كان ذلك عشقاً[3] من ذكر لذكرٍ فليس إلا مشتقًّا من هذه الشهوة ، وإلاّ لم يسمَّ عشقاً إذا فارقَت الشهوةُ .

ثم لم نره ليكونَ مستحكماً عند أوّل لُقياه حتّى يَعقِد ذلك الإلفُ ، وتغرِسَه المواظبةُ فى القلب ، فينبت كما تنبت الحَبّة فى الأرض حتّى تستحكم وتشتد وتثمر ، وربّما صار لها كالجذع السَّحوق والعمودِ الصُّلب الشديد . ١٨٥ و وربما انعقف فصار فيه[4] بَوار الأصل . فإذا اشتمل على هذه العلل صار عشقاً تاماً .

---

(١) فى الأصل : « والمشاكلة » والوجه حذف الواو كما فى ط .

(٢) فى الأصل : « أن » ، صوابه فى ط .

(٣) فى الأصل : « وإن ذلك كان عشق » .

(٤) فى الأصل : « فيها » ، صوابه من ط .

ثم صارت قلّة العِيان تزيد فيه وتُوقِد نارَه ، والانقطاعُ يسعِّره حتى يُذْهَل العقلُ ويُنهَك البدن ، ويشتغل القلبُ عن كلّ نافعة ، ويكون خيال المعشوق نُصبَ عين العاشق والغالبَ على فكرته ، والخاطرَ فى كلّ حالة على قلبه .

وإذا طال العهدُ واستمرّت الأيام نقص[(١)] على الفرقة ، واضمحلّ على المطاولة ، وإن كانت كلومُه وندوُبه لا تكاد تعفو آثارُها ولا تدرس رسومُها .

فكذلك الظَّفَر بالمعشوق يُسرع فى حَلّ عِشقه . والعلّة فى ذلك أنّ بعض الناس أسرعُ إلى العشق من بعض ؛ لاختلاف طبائع القلوب فى الرِّقّة والقسوة ، وسرعة الإلف وإبطائه ، وقلّة الشّهوة وضعفها .

وقلّ ما يظهر[(٢)] المعشوق عِشقاً[(٣)] إلاّ عداه بدائه ، ونكت فى صدره وشَغف فُؤادَه . وذلك من المشاكلة ، وإجابة بعض الطبائع بعضاً ، وتَوَقان بعض الأنفس إلى بعض ، وتقارُب الأرواح . كالنائم يرى آخَر ينام ولا نومَ به فينعَس ، وكالمتثائب يراه من لا تثاؤب به فيفعل مثلَ فعله ، قسراً من الطبيعة .

وقلّ ما يكون عشقٌ[(٤)] بين اثنين يتساويان فيه إلّا عن مناسبةٍ بينهما

---

(١) فى الأصل : « تنقص » ، صوابه فى ط . وتنقص لم ترد إلا متعدية .

(٢) فى الأصل : « بأقل مما يظهر » . وفى ط : « فما يظهر » بإسقاط « بأقل » ، وأرى الصواب فيما أثبت . وانظر ما سيأتى فى الفقرة التالية .

(٣) ط : « عشقه » .

(٤) فى الأصل : « عشقا » ، صوابه ط .

فى الشَّبَه فى الخَلْق والخُلُق وفى الظَّرف[١] ، أو فى الهوى أو الطِّباع . ولذلك ما نرى الحسن يعشق القبيح ، والقبيح يحبُّ الحسن ويختار الأقبح على الأحسن ، وليس يرى الاختيار فى غير ذلك فيتوهّم الغلط عليه ، لكنّه لتعارف الأرواح وازدواج القلوب .

ومن الآفة عشق القِيان على كثرة فضائلهن ، وسكون النفوس إليهنَّ ، وأنّهنّ[٢] يجمعن للإنسان من اللذَّات ما لا يجتمع فى شىء على وجه الأرض . ١٨٥ ظ

واللذّاتُ كلُّها إنّما تكون بالحواسّ ، والمأكول والمشروب حظٌّ لحاسّة الذَّوق[٣] لا يشركها فيه غيرها . فلو[٤] أكلَ الإنسانُ المسكَ الذى هو حظُّ الأنف وجدَه بشِعًا واستقذَره ، إذْ كان دمًا جامداً . ولو تنسَّمَ أرواحَ الأطعمة الطيّبة[٥] كالفواكه وما أشبهها عند انقطاع الشهوة ، أو ألحَّ بالنَّظر إلى شىء من ذلك ، عاد ضرراً . ولو أدنى من سمعه كل طيّب وطِيب لم يجد له لذّة .

فإذا جاء باب القيان اشترك فيه ثلاثة[٦] من الحواسِّ ، وصارُ القلب لها رابعًا . فللعين النَّظر إلى القينة الحسناء والمشهّية[٧] إذْ كان الحذق والجمال

---

(١) فى الأصل : « والخلق فى الظرف » ، وإثبات الواو من ط .

(٢) ط : « ولأنهن » .

(٣) ط : « حظ حاسة الذوق » .

(٤) فى الأصل : « لو » ، وأثبت ما فى ط .

(٥) فى الأصل وط : « غير الطيبة » .

(٦) ط : « ثلاث » . وكلاهما جائز .

(٧) فى الأصل : « المشبهة » ، صوابه فى ط .

لايكادانِ يجتمعانِ لمُستَمتَع ومَرْتَع ، وللسّمعِ منها حظٌّ الذى لا مؤونة عليه ، ولا تطرب آلتُه[١] إلا إليه .

وللَّمس فيها الشَّهوة والحنينُ إلى الباه . والحواسُّ كلُّها رُوّاد للقلب ، وشهودٌ عنده .

وإذا رفعت القينة عقيرةَ حَلْقِها تغنّى حَدَّق إليها الطَّرْفُ ، وأصغى نحوها السّمع ، وألقى القلبُ[٢] إليها المِلْك ، فاستبقَ السّمعُ والبصرُ أيُّهما يؤدِّى إلى القلب ما أفاد منها قَبل صاحبِه ، فيتوافيان عند حبّة القلب فيُفرِغان ما وَعَياه ، فيتولّد منه مع السُّرور حاسّة اللمس ، فيجتمع له فى وقتٍ واحد ثلاث لذات لا تجتمع له فى شىء قطّ ، ولم تؤدِّ إليه الحواسُّ مثلَها . فيكون فى مجالسته للقَينة أعظمُ الفِتنة ؛ لأنه روى فى الأثر : « إياكم والنَّظرة فإنّها تَزْرَع فى القلب الشَّهوة » . وكفى بها لصاحبها فتنةً ، فكيف بالنَّظر والشهوة إذا صاحبَهما السّماع ، وتكانفتهما المغازَلة .

إنَّ القينةَ لا تكاد تُخالِص فى عشقها ، ولا تُناصِح فى ودِّها ؛ لأنّها مكتسِبة ومجبولةٌ على نَصب الحِبالة والشَّرَك للمتربِّطين ، ليقتحموا فى أُنشوطتها ، فإذا شاهدها المشاهدُ رامته باللحظ ، وداعبتْه بالتبسُّم ، وغازلتْه فى أشعار الغناء ، ولهجت باقتراحاته ، ونشِطت للشُّرب عند شربه ، وأظهرت الشَّوق إلى طول مكثه ، والصَّبابةَ لسرعة عودته ، والحُزنَ لفراقه . فإذا أحسّت بأنَّ سحرها ١٨٦ و

---

(١) فى الأصل : « ولا نطرب اله » بهذا الإهمال ، وأثبت ما فى ط .

(٢) ط : « والقلب القلب » ، وما هنا صوابه .

قد نفذ فيه[١] ، وأنّه قد تعقّل فى الشَّرَك ، تزيّدت فيما كانت قد شرعَتْ فيه ، وأوهمتْه أنَّ الذى بها أكثر مما به منها ، ثم كاتبتْه تشكو إليه هواه[٢] ، وتُقسم له أنَّها مَدَّت الدواةَ بدَمْعَتِها ، وبلَّت السِّحاءة بِرِيقِها[٣] ، وأنه شَجَنُها وشَجْوها فى فكرتها وضميرها ، فى ليلها ونهارها ، وأنَّها لا تريد سواه ، ولا تُؤْثر أحداً على هواه ، ولا تنوى انحرافاً عنه ، ولا تريده لماله بَلْ لنفسِه ؛ ثم جعلَتِ الكتاب فى سُدْسِ طُومار ، وختَمَتْه بزعفران ، وشدَّته بقطعة زِير[٤] ، وأظهرت سَتْرَه عن مواليها[٥] ، ليكون المغرور أوثقَ بها . وألَحتْ فى اقتضاء جوابه ، فإن أجيبت عنه ادّعت أنها قد صيَّرت الجوابَ سَلوتَها ، وأقامت الكتاب مقام رؤيته ، وأنشدت :

وصَحيفةٍ تحكى الضَّمِيـ ... ـرَ مليحةٍ نغماتُها
جاءت وقد قَرِح الفؤا ... دُ لطول ما استبْطاتُها[٦]
فضحكت حين رأيتُها ... وبكيت حينَ قَرَاتُها
عَينى رأت ما أنكرتْ ... فتبادرت عَبَرَاتُها
أظَلومُ ، نفسى فى يديـ ... ـكِ : حياتُها ووفاتُها

---

(١) ط : « قد تقلب فيه » .

(٢) ط : « هواها » وكلاهما متجه . وانظر ما سيأتى من قوله : «على هواه» .

(٣) السحاءة ، بالكسر : ما يشد به الكتاب من قشرة قرطاسه .

(٤) الزير : وتر من أوتار العود .

(٥) ط : « دسره عند مواليها » .

(٦) يقال قرح قلبه من الحزن ، كأنه جرح . وفى ط : «فرح» ، وكلاهما متجه .

ثم تغنَّتْ حينئذ :

بات كتاب الحبيب نَدمانى محـدِّثى تارةً وريحانى(١)

أضحكنى فى الـكتاب أوَّلُه ثم تمـــادَى به فأبكانى

ثم تجنَّتْ عليه الذُّنوبَ ، وتغايرتْ على أهله ، وحَمَتْـه النظرَ إلى صَواحباتِها ، وسَقَتْه أنصافَ أقداحها ، وجَمَّشته بعَضوض تفاحها(٢) ، وتحيَّةٍ من رِيحانها ، وزوّدته عند انصرافه خُصْلةً من شعرها ، وقِطعةً من مِرطها ، وشَظِيَّةً من مِضرابها(٣) ، وأهدت إليه فى النَّيروز(٤) تِـكَّةً وسُـكَّرًا ، وفى المِهرجانِ خاتَمًا وتُفَّاحة ، ونقشت على خاتَمها اسمَه ، وأبدت عند العثرة اسمَه(٥) ، وغنَّته إذا رأته :

١٨٦ ظ

نظرُ المحبِّ إلى الحبيب نعيمُ وصـدودُه خطرٌ عليكَ عظيمُ

---

(١) الندمان ، بالفتح : النديم . ط : « إن كتاب » .

(٢) الجمش والتجميش : المغازلة . والعضوض : ما يعض عليه فيؤكل ، كما فى القاموس .

(٣) المضراب : ما يضرب به العود .

(٤) انظر لما كتبت فى تحقيق النيروز والمهرجان نوادر المخطوطات ٢ : ٤ — ١٤ .

(٥) من مذاهب العرب أن الرجل منهم كان إذا خدرت رجله ذكر من يحب أو دعاه فيذهب خدرها . قال جميل :

وأنت لعينى قرة حين تلتقى وذكرك يشفينى إذا خدرت رجلى

وقال الموصلى :

والله ماخدرت رجلى وماعثرت إلا ذكرتك حتى يذهب الخدَر

انظر بلوغ الأرب ٢ : ٣٢٠ — ٣٢١ .

ثم أخبرتْه أنّها لا تنام شوقًا إليه ، ولا تتهنّأ بالطعام وجداً به ، ولا تملّ ـ إذا غاب ـ الدُّموعَ فيه ، ولا ذكرتْه إلا تنغّصت ، ولا هتفتْ باسمه إلّا ارتاعت ، وأنّها قد جَمعتْ قنّينةً من دُموعها من البكاء عليه ، وتنشد عند موافاة اسمِه بيتَ المجنون :

وأهوى من الأسماء ما وافق اسمَها وَأَشبَهَه ، أو كانَ منه مُدانيا[١]

وعند الدُّعاء به قوله :

وداعٍ دعا إذْ نحن بالخيف من مِنًى
فهيَّج أحزانَ الفؤادِ وما يدرى[٢]
دعا باسم ليلَى غيرَها فكأنّما
أطارَ بليلَى طائراً كان فى صدرى

وربّما قادها التّمويه إلى التصحيح ، وربّما شاركت صاحبَها فى البلوى حتّى تأتى إلى بيته فتمكّنه من القبلة فما فوقها ، وتُفرِشه نفسَها إن استحلّ ذلك منها ، وربّما جحدت الصناعة لترحض عليه[٣] ، وأظهرت العلّة والتاثت على الموالى ، واستباعت من السادة ، وادّعت الحريّة احتيالًا لأن يملكها ، وإشفاقاً أن يجتاحه كثرةُ ثمنها ، ولا سيّما إذا صادفتْه حلوَ الشمائل ، رشيقَ الإشارة ، عذبَ اللّفظ ، دقيق الفهم ، لطيفَ الحسّ ، خفيفَ الرُّوح . فإن كان يقول الشعر ويتمثّل به أو يترنّم كان أحظى له عندها .

---

(١) فى الأغانى ٢ : ٦ : « أحب من الأسماء » .
(٢) فى الأغانى ١ : ١٦٧ : « فهيج أطراب » .
(٣) كذا . وفى ط : « لترخص عليه » .

١٨٧ و

وأكثر أمرها قلّة المناصحة ، واستعمال الغَدر والحيلة فى استنطاف ما يحويه المربوط والانتقال عنه . وربّما اجتمع عندها من مربوطيها ثلاثة أو أربعة على أنَّهم يتحامَون من الاجتماع ، ويتغايَرُون عند الالتقاء ، فتبكى لواحدٍ بعين ، وتضحك للآخر بالأخرى ، وتغمز هذا بذاك ، وتعطى واحداً سرَّها والآخر علانيَتَها ، وتُوهمه أنَّها له دونَ الآخر ، وأنَّ الذى تُظهِر خلافُ ضميرها . وتكتب إليهم عند الانصراف كتبًا على نسخة واحدة ، تذكر لكلٍّ واحدٍ منهم تبرُّمَها بالباقين وحرصَها على الخلوة به دونهم .

فلو لم يكن لإبليس شَرَكٌ يقتل به ، ولا عَلَم يدعو إليه ، ولا فِتنةٌ يستهوى بها إلّا القيانُ ، لكفاه .

وليس هذا بذمٍّ لهنَّ ، ولكنَّه من فرط المدح . وقد[1] جاء فى الأثر : « خير نسائكم السَّواحر الخلّابات » .

وليس يُحسن هاروتُ وماروت ، وعصا موسى ، وسَحَرة فرعون ، إلَّا دونَ ما يُحسِنه القيان .

ثم إذا منعهنَّ الزِّنى غَلبه عليهنَّ مخارجُ بيوت الكشاخنة ترميهنَّ فى حُجور الزُّناة[2] . ثم هنَّ أمَّهاتُ أولادٍ من قد بلغ بالحبِّ لهنَّ أنْ غفروا[3]

(١) فى الأصل و ط : « وإن » ، والتصحيح لفنكل .

(٢) فى الأصل : « ثم هذا منعهن الزنى أغلبه عليهن ومخارج بيوت الكشاخنة تربيتهن فى حجور الزناة » ، صوابه فى ط . والكشاخنة : جمع كشخان ، والكشخان : الديوث ، وهو القواد على أهله .

(٣) فى الأصل : « أمهات أولادهن » وفيها أيضاً زيادة « على » قبل « أن غفروا » ، وأثبت ما فى ط . وإفراد الضمير العائد على « من » ثم جمعه بعد ذلك مألوف فى كلام العرب ، ومنه قراءة : « لمن أراد أن يتموا الرضاعة » .

لهنّ كلَّ ذنب ، وأغضَوْا منهنّ على كلّ عيب .

وإذا كنّ فى منزل رجلٍ من السُّوقة عَذَرتهنّ[1] ، وإذا انتقلن إلى منازل الملوك زال العُذْر . والسببُ فيه واحد ، والعِلّة سواء .

وكيف تَسلم القَينةُ من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفةً ، وإنّما تُكتسب الأهواء ، وتُتعلَّم الألسنُ والأخلاقُ بالمنشأ ، وهى تنشأ من لَدُن مولدِها إلى أوانِ وفاتها بما يصدُّ عن ذكر الله من لهو الحديث ، وصنوف اللعب والأخانيث ، وبين الخُلَعاء والمُجّان ، ومن لا يُسمع منه كلمةُ جِدٍّ ولا يُرجَع منه إلى ثقةٍ ولا دينٍ ولا صيانة مروّة .

وتروِى الحاذقةُ منهن أربعةَ آلافِ صوتٍ فصاعداً ، يكون الصّوتُ فيما بين البيتين[2] إلى أربعة أبيات ، عددُ ما يدخل فى ذلك من الشِّعر إذا ضُرِب بعضه ببعض عشرةُ آلاف بيتٍ ، ليس فيها ذِكرُ الله إلّا عن غفلة ولا ترهيب [مِنْ] عقاب ، ولا ترغيبٌ فى ثواب ؛ وإنما بُنيتْ كلُّها على ذكر الزِّنى والقيادة ، والعِشق والصَّبوة ، والشّوق والغُلْمة .

١٨٧ ظ

ثم لا تنفكُّ من الدراسة لصناعتها منكبّةً عليها[3] ، تأخذ من المُطارِحين الذين طَرْحُهم كلُّه تجميشٌ وإنشادُهم مراودة[4] . وهى مضطرَّةٌ إلى ذلك فى صناعتها ؛ لأنّها إن جَفَتْها تفلّتت ، وإنْ أهملتْها نقصَتْ ، وإن لم تَستفِد

---

(١) فى الأصل : « عيرهن » ، صوابه فى ط .

(٢) كلمة « بين » ساقطة من الأصل ثابتة فى ط .

(٣) فى الأصل : « ومنسكبة عليها » ، والوجه إسقاط الواو كما فى ط .

(٤) التجميش : المغازلة . وفى الأصل : « وأشدهم مرواده » ، صوابه من ط .

منها وقفتْ . وكلٌّ واقف فإلى نقصانٍ أقرب . وإنَّما فَرق بين أصحاب الصناعات وبين من لا يُحسنُها التزيُّدُ فيها ، والمواظبةُ عليها . فهى لو أرادت الهُدى لم تعرفْه ، ولو بَغت الغفلة لم تقدر عليها ، وإنْ ثَبَتت حُجّة أبى الهُذَيل[1] فيما يجب على المتفكِّر زالت عنها خاصّته ؛ لأنّ فكرها وقلبها ولسانها وبدنها ، مشاغيلُ بما هى فيه ، وعلى حسب ما اجتمع عليها من ذلك فى نفسها لمن يلى مجالستها عليه وعليها .

ومن فضائل الرجل منّا أنّ الناس يقصدونه فى رَحلِهِ بالرَّغبة كما يُقصَد بها للخلفاء والعظماء ، فيُزار ولا يُكلَّف الزيارة ، ويُوصَل ولا يُحمَل على الصِّلة ، ويُهدَى له ولا تُقتَضى منه الهديَّة ، وتبيت العيون ساهرةً والعيون ساجمة ، والقلوب واجفة ، والأكباد متصدِّعة ، والأمانى واقفة ، على ما يحويه مِلكه وتضمُّه يده ، ممـا ليس فى جميع ما يباع ويُشتَرى[2] ، ويستفاد ويُقتَنى ، بعد العُقَد النَّفيسة . فمن يبلغُ شيئاً من الثمن ما بلغت حبشيّةُ جاريةُ عَوْن ، مائةَ ألفِ دينار وعشرون[3] ألفَ دينار .

ويرسلون إلى بيت مالكها بصنوف الهدايا من الأطعمة والأشربة ، فإذا جاءوا حَصَلوا على النظر وانصرفوا بالحسرة ، ويجتنى مَولاها ثمرةَ ما غرسوا ، ويتملَّى به دونهم ، ويُكفَى مَؤونةَ جواريه .

---

(١) أبو الهذيل محمد بن الهذيل المعروف بالعلاف المعتزلى . انظر الفرق بين الفرق ١٠٢ والملل ١ : ٦٢ والمواقف ٦٢١ ومفاتيح العلوم ١٨ .

(٢) فى الأصل : « ولا يشترى » ، والوجه ما أثبت من ط .

(٣) ط : « وعشرين » .

١٨٨ و

فالذى يقاسيه الناسُ من عَيلة العِيال ، ويفكِّرون فيه من كثرة عددهم وعظيم مؤونتهم ، وصعوبة خدمتهم ، [هو][1] عنه بمعزلٍ : لا يهتمُّ بغَلاء الدقيق ، ولا عَوَز السَّويق ، ولا عِزَّة الزيت ، ولا فَساد النبيذ ؛ قد كُفِىَ حَسرَتَه إذا نَزَر ، والمصيبةَ فيه إذا حَمَض ، والفجيعةَ به إذا انكسر .

ثم يَستقرض إذا أعسَرَ ولا يُرَدُّ ، ويَسأل الحوائجَ فلا يُمنَع ، ويُلقَى أبدًا بالإعظام ، ويكَنَّى إذا نودىَ ، ويُفدَّى إذا دُعى ، ويُحَيَّا بطرائف الأخبار[2] ، ويُطلع على مكنون الأسرار ، ويتغاير الرُّبطاء عليه ، ويتبادرون فى برِّه ، ويتشاحُّون فى ودّه ، ويتفاخرون بإيثاره .

ولا نعلم هذه الصِّفة إلّا للخلفاء : يُعطَون فوق ما يأخذون ، وتحصَّل بهم الرغائب ، ويُدرَك منهم الغنى .

والمقيِّن يأخذ الجوهر ويُعطى العَرَض ، ويفوز بالعين ويعطى الأثَر ، ويَبيع الرِّيح الهابَّةَ بالذَّهب الجامد ، وفِلَذ اللُّجين والعسجد . وبين المرابطين وبين ما يريدون منه خَرطُ القَتاد ؛ لأنَّ صاحب القيان لو لم يترك إعطاء المربوط سُؤْلَه عِفَّةً ونَزاهة ، لَتَركه حذقًا واختيارًا ، وشُحًّا على صناعته ، ودفعًا عن حريم ضيعته ؛ لأن العاشق متى ظفر بالمعشوق مرَّةً واحدة نقص تسعةُ أعشار

(١) ليست فى الأصل ، وزادها فنكل .

(٢) ط : « بطريف الأخبار » .

عشقه ، ونَقص من برِّه ورفده بقدر ما نقص من عشقه . فما الذى يَحمل المقيِّنَ على أنْ يهبَك جاريتَه ، ويكسِرَ وجهه ويصرف الرَّغبة عنه .

ولولا أنّه مثَلٌ فى هذه الصناعة الكريمة الشريفة لِمَ يُسْقِطُ الغَيرةَ عن جواريه ويعنى بأخبار الرُّقباء[1] ، ويأخذ أجرة المَبيت ويتنادم قبل العِشاء ، ويُعرِض عن الغَمْزة ، ويَغفِر القبلة ، ويتغافل عن الإشارة ، ويتعامى عن المكاتَبة ، ويتناسى الجارية يومَ الزِّيارة ، ولا يُعاتبها على المبيت ، ولا يفضُّ ختام سِرِّها ، ولا يسألها عن خَبَرها فى ليلها ، ولا يَعبأ بأن تُقفَل الأبوابُ ، وتُشَدَّدَ الحِجاب ، ويُعِدّ لكلّ مربوطٍ عُدَّةً[2] على حِدَة ، ويَعرِف ما يَصلح لكلٍّ واحدٍ منهم[3] ، كما يميّز التاجرُ أصنافَ تجارته فيسعِّرها على مقاديرها . ١٨٨ ظ

ويعرف صاحب الضياع أراضيه لمزارع الخَضِر[4] والحِنطة والشعير . فمن كان ذا جاهٍ من الرُّبطاء اعتمدَ على جاهه وسأله الحوائج . ومن كان ذا مالٍ ولا جاهَ له استقرَض منه بلا عِينَة[5] . ومن كان من السُّلطان بسببٍ كُفِيت به عاديةُ الشُّرَط والأعوان ، وأُعلِنت فى زيارته الطبول والسَّرَانىّ[6] ، مثل سلمة

---

(١) فى الأصل : « ويسنى اختيار الرقباء » ، وأثبت ما فى ط .

(٢) فى الأصل و ط : « علة » ، صوابه فى ط .

(٣) فى الأصل و ط : « كل واحد منهم » ، والوجه ما أثبت .

(٤) الخضر : جمع خَضِرة ، وهى الخضراء من النبات .

(٥) العينة ، بالكسر : الربا .

(٦) السرانى : جمع سرناى . والسرناى بضم السين ، كلمة فارسية معناها البوق الذى ينفخ فيه ويزمر . معجم استينجاس ٦٧٨ والبيان والتبيين ١ : ٢٠٨ .

الفُقّاعى[1] ، وحَمْدون الصِّحنائى[2] ، وعلىّ الفامىّ[3] ، وحَجَر التَّور[4] ، وفَقْحة ، وابن دَجاجة ، وحَفْصَويه ، وأحمد شَغْرة ، وابن المجوسىّ ، وإبراهيم الفلام[5] .

فأىُّ صناعة فى الأرض أشرف منها !

ولو يَعْلمُ هؤلاء المسمَّونَ فرقَ ما بين الحلال والحرام لم ينسُبوا إلى الكَشْخ[6] أهلها ؛ لأنه قد يجوز أن تباع الجارية من المَلِىءِ فيصيبُ منها وهو فى ذلك ثقةٌ ، ثم يرتجعُها صاحبُها بأقلَّ مما باعَها به فيحصُل له الرِّبح ، أو تُزَوَّجَ ممن يثق به ويكون قصدُه للمتعة .

فهل على مزوِّجة من حَرَج ، وهل يفرُّ أحدٌ من سعة الحلال إلّا[7] الحائن الجاهل[8] ، وهل قامت الشهادة بزناء[9] قطُّ فى الإسلام على هذه الجهة .

* * *

---

(١) الفُقّاعى : نسبة الفقاع ، كرمان ، وهو شراب يتخذ من الشعير .

(٢) الصحنائى : نسبة إلى الصحناء ، بالكسر ، وهو إدام يتخذ من السمك ، فارسية ، والعرب تسميها الصير . ط : « الصحناوى » .

(٣) الفامى : نسبة إلى « فامية » مدينة كبيرة وكورة من سواحل حمص ، ويقال لها أيضاً « أفامية » . ط : « الفامى » ، تحريف .

(٤) أصل التور إناء من صفر أو حجارة كالإجانة . ط : « حجر النور » .

(٥) ط : « إبراهيم العلام » .

(٦) الكشخ ، من قولهم للشاتم : لا تكشخ فلانا ، أى لا تقل له يا كشخان . والكشخان : الديوث ، كما سبق فى ص ١٧٥ .

(٧) فى الأصل : « إلى » ، ووجهه من ط .

(٨) الحائن : الهالك . ط : « الخائن » .

(٩) كذا فى الأصل ، وهى صحيحة وفى ط : « الزنا » . والزنى يمد ويقصر فإن =

هذه الرسالة التي كتبناها من الرواة منسوبة إلى من سمَّيناها في صدرها .

فإن كانت صحيحةً فقد أدّينا منها حقَّ الرواية[1] ، والذين كتبوها أولى بما قد تقلَّدوا من الحجّة منها . وإن كانت منحولة فمن قِبَل الطُّفيليِّين ؛ إذْ كانوا قد أقاموا الحجّة في اطِّراح الحشمة ، والمرتبطين[2] ليسهِّلوا على القيِّنين ما صنعه المقترفون[3] .

فإن قال قائل : إنَّ لما في كل صنفٍ من هذه الثلاثة الأصناف حظًّا وسببًا فقد صدَق . وبالله سبحانه التوفيق[4] .

* * *

= قصر كتب بالياء لأن أصله يائي . قال الجعدي :

كانت فريضة ما تقــول كما كان الزناء فريضة الرجم

وهذا على القلب ، أي كما كان الرجم فريضة الزناء .

(١) ط : « منها الرواية » ، بإسقاط « حق » .

(٢) في الأصل : « والمرتبكين » ، وفي ط : « والمرتــكبين » وانظر ما سبق .

(٣) ط : « المقرفون » .

(٤) بعده في ط : « ومنه الهداية إلى الطريق ، والحمد لله وحده وكفى » .

١٧٩ و تمت الرسالة فى القيان ، من كلام أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، بعون الله تعالى ومنّه وتوفيقه ، وتأييده ومشيئته .

والله سبحانه المسئول فى التجاوز عن الخطأ واللغو فى نقل ذلك[1] ، والمرتجى عفوُه ومغفرتُه برحمته .

يتلوه إن شاء الله : (كتاب ذمّ أخلاق الكُتّاب) من كلامه أيضاً ، والله الموفِّق للصواب .

والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين وسلامُه ، وهو حسبى ونعم الوكيل .

---

(١) إلى هنا ينتهى ختام النسخة فى ط .

١٥

كِتَابُ

ذَمّ أخلاق الكُتّاب

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذه هى الرسالة الخامسة عشرة من رسائل الجاحظ فى مجموعة داماد ، وعنوانها :

« كتاب ذم أخلاق الكتّاب »

وجاء ذكره فى معجم الأدباء ١٦: ١٠٩ برسم « كتاب رسالته فى ذم الكتاب » كما ذكر ياقوت أيضاً « كتاب رسالته فى مدح الكتاب » .

ومن هذه الرسالة نسختان :

الأولى : نسخة الأصل ، وهى نسخة مكتبة داماد .

والثانية : النسخة التى نشرها « يوشع فنكل » فى المطبعة السلفية سنة ١٣٤٤ هـ فى مجموع ثلاث رسائل ، كما سبق القول فى تقديم الرسالة الرابعة عشرة . وقد رمزت لها بالرمز « ط » .

ونص الرسالة فى نشرة « فنكل » يستوعب ما بين ص ٤٠ إلى ص ٥٠ .

بسم الله الرحمن الرحيم

حفظك الله وأبقاكَ وامتعَ بك . ‏١٩٠ ظ

قد قرأت كتابك ومدحتَك أخلاقَ الكتّاب وأفعالَهم[١] ، ووصفَك فضائلَهم وأيّامَهم ، وفهمتُه .

ومتى وقَع الوصفُ من القائل تقصّياً ، والنَّعت من الواصف تألُّفاً ، قَلّ شُهداؤه وكثُر خُصماؤه ، وخفّت المَؤُونة على مجاوبيه فى دَعواه ، وسُهلتْ مُناسَبة الأدْنياءِ له فى مَعناه . لأنّ أغلظ المِحَن ما عُرِض على المشهود فأزالَه ، وتصفّحه المعقولُ فأحاله .

وأضعَفُ العلل ما التُمِس بعد المعلول ، ونصبتَ له علماً على الموجود بعد الوجود . وإذا تقدَّم المعلولَ عِلّته[٢] والمخبر عنه خبره ، استُغنِى عن الحاكم ، وظهر عُوار الشّاهد .

فقد رأيتكَ أطنبتَ بإحماد هذا الصِّنف من الناس ، وحكمتَ بفضيلة هذه الطبقة من الخَلق ، فعلمتُ أنّ فرطَ الإعجاب من القائل متى وافقَ صناعة المادح رسَخ فى التركيب هواه ، ورسَبَتْ[٣] فى القلوب أوتادُه ، واشتدَّ على

---

(١) ط : « فعالهم » . والفعال بالفتح : العمل الحميد . لكن اتفقت النسختان فيما سيأتى فى أن تكون الكلمة « أفعالهم » .

(٢) فى الأصل : « عنه » .

(٣) كذا فى الأصل وط . وهى صحيحة . يقال : رسب : ذهب سفلا . وجبل راسب : ثابت .

المُناظِر[١] إفهامه ، وعلى المخاصم بالحقّ توقيفه ، وكان حكمُه فى صعوبة فَسْخه وتعذُّر دفعِه حكمَ الإجماع إذا لاقَى محكمَ التنزيل .

ولستُ أدعُ مع ذلك توقيفك على موضع زَللك[٢] فى الاحتجاج ، وتنبيهَك على النكتة من غَلطك فى الاعتلال ، بما لا يمكن[٣] السامعَ إنكارُه ولا ينسَاغُ[٤] له إبطاله . وأبيِّن مع ذلك رداءة مذاهب الكتّاب وأفعالهم[٥] ، ولؤم طبائعهم وأخلاقهم بما تعلم أنت والناظرُ فى كتابى هذا : أنّى لم أقل إلاّ بعد الحجّة ، ولم أحتجَّ إلاّ معَ ظُهور العِلّة ، ثم أستشهِدُ مع ذلك الأضدادَ تبياناً[٦] ، وأجمع عليه الأعداء إنصافا[٧] ، إذ كان فى ذلك من التبيان ما يبهرهم ، ومن القول ما يسكتهم .

ثم أقول : ما ظنُّك بقوم منهم أوّل مرتدٍّ كان فى الإسلام ، كَتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فخالف فى كتابه إملاءه ، فأنزل الله فيه آياتٍ من القرآن نَهَى فيه عن اتخاذه كاتباً ، فهربَ حتّى ماتَ بجزيرة العرب كافراً ، وهو عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح[٨] . ١٩١ و

---

(١) ط : « الناظر » ، وما هنا صوابه .

(٢) فى الأصل : « ذلك » ، صوابه فى ط . والزلل : الخطأ .

(٣) فى الأصل : « ينكر » ، صوابه فى ط .

(٤) الكلمة غير واضحة فى الصورة ، وقراءتها من ط .

(٥) انظر ماسبق أول الرسالة .

(٦) فى الأصل : « فلا تبيانا » ، صوابه فى ط .

(٧) فى الأصل : « فصافا » ، صوابه من ط .

(٨) فى الإصابة ٤٧٠٢ فى ترجمته : « فأزله الشيطان فلحق بالكفار ، فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقتل ـ يعنى يوم الفتح ـ فاستجار له عثمان فأجاره =

ثم استكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده معاويةَ بنَ أبي سفيان ، فكان أوّل من غَدر في الإسلام بإمامه ، وحاول نَقضَ عُرَى الإيمان بأثامه .

وكتب عثمان بن عفّان لأبي بكر رضوانُ الله عليهما ـ مع طهارة أخلاقه وفضائل أيّامه ـ فلم يمتْ حتى أدّاه عِرقُ الكتابة إلى ذمِّ من ذمَّه من أوليائه .

ثم كتب لعمر بن الخطّاب رضي الله عنه زيادُ بن أبيه ، فانعكسَ شرٌّ ناشئٌ في الإسلام ، نُقِضت بدعوته السُّنّة ، وظهرت في أيّام ولايته بالعراق الجَبْرية .

ثم كتب لعثمان بن عفان رضي الله عنه مَروانُ بن الحكم ، فخانَه في خاتَمه ، وأشعلَ الرَّعيّة حرباً عليه في مُلكه .

ثم أفضى الأمر إلى علي بن أبي طالب رضوان الله عنه ، فتبيّن من البصيرة في الكتّاب ما لم يَرَ[1] التنويه بذكرِ كاتبٍ حتّى مات .

ولو كانت الكتابة شريفةً والخطُّ فضيلة كانَ أحقَّ الخلْق بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أُولى الناس ببلوغ الغاية فيها ساداتُهم

= النبي صلى الله عليه وسلم » . وذكر بعد ذلك أن عثمان أقره على مصر ؛ وكان محموداً في ولايته . وأنه قال : « اللهم اجعل آخر عملي الصبح » فتوضأ ثم صلى فسلم عن يمينه ثم ذهب يسلم عن يساره فقبض الله روحه سنة ٥٩ في آخر عهد معاوية . فالقول بأنه مات كافرا موضع شك شديد . ونحو ذلك في الاستيعاب ١٥٥٣ وفيه أيضاً أنه أسلم أيام الفتح ، فحسن إسلامه فلم يظهر منه شيء ينكر عليه بعد ذلك وانظر جمهرة ابن حزم ١٧٠ .

(١) في الأصل : « ترى » ، صوابه في ط .

وذوُو القدر والشرف فيهم . ولكنَّ الله منعَ نبيَّه صلى الله عليه وسلم ذلك ، وجعل الخطَّ فيه دَنِيَّة ، وصَدَّ العِلْمِ به عن النبوّة[١] . ثم صيَّر المَلِكَ في مُلكه ، والشَّريفَ في قومه يتبجَّح[٢] برداءة الخط ، وينُبل بشَنَجِ الكتَاب[٣] . وإنَّ بعضهم كانَ يقصد[٤] لتقبيح خطِّه وإنْ كان حُلوا ، ويرتفع عن الكِتابِ بيده – وإن كان ماهراً – وكان ذلك عليه سهلاً – فيكلِّفه تابعَه ، ويحتشم من تقليده الخطيرَ من جلسائه[٥] .

وكتب أحمد بن يوسف يوماً بين يدى المأمون خطًّا أعجبه فقال : وددتُ والله أنِّى كتبتُ مثلَه وأنِّى مُغرَّمٌ[٦] ألفَ ألف . فقال له أحمد بن يوسف : لا تأسَ عليه يا أمير المؤمنين ، فإنَّه لو كان حَظًّا ما حُرِمَه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم .

١٩١ظ ومع ذلك إنَّ سِنخ[٧] الكتابة بُنِى على أنّه لا يتقلَّدها إلاَّ تابع ، ولا يتولاَّها إلاَّ من هو فى معنى الخادم . ولم نر عظيماً قطُّ تولَّى كفاية نفسه[٨] ،

---

(١) فى الأصل : « على النبوة » ، وفى ط : « وسد العلم به على النبوة » .

(٢) التبجح : الفخر والتباهى . ط : « ينجح » ، تحريف .

(٣) الشنج : التقبض والتقلص ، وفى الأصل : « بشتح » . وفى ط : « بقبح » .

(٤) فى الأصل : « كان أن بعضهم كان يقصد » ، وأثبت ما فى ط .

(٥) أى أن يقلد القيام بالخط رجلا خطيراً من جلسائه فيكله إلى تابعه غير الخطير ، أو من هو فى معنى الخادم كما سيأتى .

(٦) فى الأصل : « مغرما » ، صوابه فى ط .

(٧) السنخ ، بالكسر : الأصل . وفى ط : « قبح » ، وما هنا صوابه .

(٨) كتبت « تولى » فى الأصل برسم « تولا » وفى ط : « تولاها بنفسه » .

أو شاركَ كاتبَه فى عمله . وكلٌّ كاتب فمحكومٌ عليه بالوفاء ، ومطلوبٌ منه الصَّبر على اللأواء . وتلك شروطٌ متنوّعة عليه ، ومِحنةٌ مستكملة لديه .

وليس للكاتب اشتراط شىء من ذلك ، بل يناله الاستبطاء عند أول الزَّلَّة وإن أكدَى ، ويُدركه العَذْل[١] بأوّل هفوةٍ وإن لم يرضَ[٢] .

يجب للعبد استزادةُ السيِّد بالشكوى ، والاستبدال به إذا اشتهى . وليس للكاتب تقاضى فائتِه إذا أبطأ ، ولا التحوُّل عن صاحبه إذا التوى . فأحكامُه أحكام الأرِقّاء ، ومحلُّه من الخِدمة محل الأغبياء .

ثم هو مع ذلك فى الذِّروة القصوى من الصَّلَف ، والسَّنامِ الأعلى من البَذَخ ، وفى البحر الطامى من التِّيه والسَّرف[٣] . يتوهَّم الواحد منهم إذا عرَّض جبَّتَه[٤] وطوّلَ ذيلَه ، وعقَص على خدِّه صُدغَه ، وتحذف الشابورتين[٥] على وجهه ، أنَّه المتبوع ليس التابعَ ، والمليك فوق المالك .

ثم الناشئُ فيهم إذا وطِئ مقعد الرياسة ، وتورَّكَ مشورة الخلافة ، وحُجزت السَّلَّةُ دونه[٦] ، وصارت الدواةُ أمامَه ، وحَفِظ من الكلام فَتِيقَه[٧] ، ومن العلم مُلَحَه ، ورَوى لبُزُرْجِمْهَرَ أمثالَه ، ولأردَشِير عَهْده ،

(١) ط : «العدل» ، وما هنا صوابه .

(٢) فى الأصل : « يرضى » .

(٣) فى الأصل : « والسرف » ، صوابه فى ط .

(٤) فى الأصل : « جبينه » ، صوابه فى ط .

(٥) وفى ط : « وتحذف الشابورتين » ولم يتضح لى وجه العبارة .

(٦) لعلة يعنى سلة الشكاوى والرقاع .

(٧) الفتيق : الفصيح المنفتح . والكلمة مهملة النقط فى الأصل .

ولعبد الحميد رسائلَه ، ولابن المقفَّع أدبَه ، وصيَّر كتاب مَزْدَك[١] معدِنَ علمه ، ودفترَ كليلةَ ودمنة كنزَ حِكمته ــ [ظنَّ[٢]] أنَّه الفاروق الأكبر فى التدبير ، وابنُ عبّاسٍ فى العلم بالتأويل ، ومُعاذ بن جَبَلٍ فى العلم بالحلال والحرام ، وعلىُّ ابن أبى طالب فى الجرأة على القضاء والأحكام ، وأبو الهُذَيل العلّاف[٣] فى الُجزْء والطَّفرة[٤] ، وإبراهيم بن سيار النظّام فى المكامنات والمجانسات[٥] ، وحسينٌ النَّجّار فى العبارات[٦] والقول بالإثبات ، والأصمعىُّ وأبو عبيدة فى معرفة اللغات والعِلم بالأنساب . فيكون أوّل بَدْوِه الطعنَ على القرآن فى تأليفه ، والقَضاءَ عليه بتناقضه . ثم يُظهِر ظَرفه بتكذيب الأخبار ، وتهجين مَن نَقَل الآثار . فإن استرجَحَ أحدٌ عنده أصحابَ الرسول صلى الله عليه وسلم فَتَل عند ذِكرهم شِدقه[٧] ، ولوى عند محاسِنهم كَشحَه . وإن ذُكر عنده

١٩٢ و

(١) فى الأصل : « مروك » ، صوابه فى ط . وانظر حواشى البيان ٣ : ٣٥٠ .

(٢) بها أو بمثلها يلتئم الكلام .

(٣) هو أبو الهذيل محمد بن الهذيل العلاف المعتزلى . الفرق بين الفرق ١٠٢ والملل ١ : ٦٢ والمواقف ٦٢١ .

(٤) الجزء ، يعنى الجزء الذى لا يتجزأ . انظر حواشى الحيوان ٣ : ٣٨ ، والفرق بين الفرق ١١٣ . وفى الأصل وط : « الجر » ، تحريف . وانظر الكلام على الطفرة الحيوان ٤ : ٢٠٨ .

(٥) المكامنات ، يعنى بها الكمون ، وهو مذهب كلامى ، يزعم أصحابه أن النار كامنة فى الحجر ، وفى دهن السراج ، كما يكمن الدم فى الإنسان . وانظر حواشى الحيوان . والمجانسات ، يعنى بها أن الحيوان . كله جنس واحد ، وأن أفعاله كلها من جنس واحد . انظر الفرق بين الفرق ١٢٠ — ١٢١ .

(٦) ط : « العبادات » . وانظر الفرق بين الفرق ١٩٥ — ١٩٨ .

(٧) فتل شدقه : لواه استنكاراً .

شُرَيْح[1] جرّحه ، وإن نُعِتَ له الحَسَنُ استثقله ، وإن وُصف له الشعبيُّ استحمقه ، وإن قيل له ابنُ جُبَير[2] استجهله ، وإن قدِّم عنده النَّخَعيُّ[3] استصغره .

ثم يقطع ذلك من مجلسه سياسةُ[4] أردَشِير بابَكان[5] ، وتدبير أنو شِروان ، واستقامة البلاد لآل ساسان .

---

(١) هو أبو أمية شريح بن الحارث بن قيس الكندي الكوفي القاضي ، كان من أبناء الفرس الذين كانوا باليمن ، واستقضاه عمر على الكوفة ، ثم عثمان ، وأقره علي وكان يقول له : أنت أقضى العرب . وولاه زياد قضاء البصرة . توفي سنة ٧٢ . الإصابة ٣٨٧٥ وتهذيب التهذيب وصفة الصفوة ٣ وابن خلكان والمعارف ١٩١ .

(٢) هو سعيد بن جبير بن هشام الأسدي الكوفي ، وكان مولى أسود لبني والبة من بني أسد ، وكان كاتباً لعبد الله بن عتبة بن مسعود حين كان على قضاء الكوفة ، ثم كتب لأبي بردة بن أبي موسى ، ثم خرج مع ابن الأشعث في جملة القراء . وقتل سنة ٩٥ . وكان فقيها عابداً . تهذيب التهذيب وصفة الصفوة ٣ : ٤٢ والمعارف ١٩٧ .

(٣) هو أبو عمران إبراهيم بن يزيد بن قيس النخعي الكوفي الفقيه . روى عن مسروق ، وعلقمة ، وشريح ، وروى عنه الأعمش ومنصور وحماد بن سليمان . ولد سنة ٥٠ وتوفي سنة ٩٦ . تهذيب التهذيب وصفة الصفوة ٣ : ٤٧ . وفي عيون الأخبار ١ : ٢٣٠ : «وحمل الناس عن إبراهيم النخعي وهو ابن ثماني عشرة سنة» . ومثله في المعارف ٢٠٤ .

(٤) ط : « بسياسته » .

(٥) هو أردشير بن بابك ، أول ملوك الفرس الساسانية ، وهو الذي أزال ملوك الطوائف . مروج الذهب ١ : ٢٤٣ والتنبيه والإشراف ٨٧ والحيوان ١ : ٧٢ ، ١٣٩ .

فإنْ حذِر العيون وتفقَّده المسلمون ، رجع بذكر السُّنن إلى المعقول ، ومحكَمِ القرآنِ إلى المنسوخ ، ونَفَى ما لا يُدْرَكُ بالعِيان ، وشَبَّهَ بالشاهد[1] الغائبَ . لا يرتضى من الكتُب إلَّا المنطق ، ولا يحمد إلَّا الواقف ، ولا يستجيد منها إلا السَّائر .

هذا هو المشهور من أفعالهم ، والموصوف من أخلاقهم .

ومن الدليل على ذلك ، أنه لم يُرَ كاتبٌ قطُّ جعل القرآن سميره ، ولا علمَه تفسيرَه ، ولا التفقُّه فى الدِّين شعارَه ، ولا الحِفظ للسُّنن والآثار عماده ، فإن وُجِد الواحدُ منهم ذَاكراً شيئاً من ذلك لم يكن لدوران فكِّيه به طَلاقة ، ولا لمجيئه[2] منه حلاوة . وإن آثر الفردُ منهم السَّعْىَ فى طلب الحديث ، والتشاغُلَ بذكر كتب المتفقِّهين، استثقله أقرانُه ،واستوخَمَهُ أُلَّافُه ، وقضَوا عليه بالإدبار فى معيشته ، والحِرفة فى صناعته ، حين حاولَ ما ليس من طَبعه ، ورامَ ما ليس من شكله .

قال الزُّهرىّ لرجل : أيُعجبك الحديث ؟ قال : نعم . قال : أمَا إنّه لا يعجب إلَّا الفحولَ من الرِّجال ، ولا يُبغِضه إلَّا إناثهم !

ولئن وافقَ هــذا القولُ من الزُّهرى فيهم مذهبًا ، إنَّ ذلك لَبَيِّنٌ فى شمائلهم ، مفهوم فى إشاراتهم .

---

(١) الشاهد : الحاضر . ومنه : « وذلك يوم مشهود » ، أى يحضره أهل السماء والأرض .

(٢) ط : « ولا المحبة » ، وما هنا صوابه .

وسئل ثُمامة بن أشرسَ يومًا ، وقد خرج من عند عَمرو بن مَسْعَدة[1] ، فقيل له : يا أبا معن ، ما رأيتَ من معرفةِ هذا الرّجُل وبلوتَ من فَهمِه ؟ قال : ما رأيتُ قومًا نفرَتْ طبائعُهم عن قَبول العلوم ، وصغُرت هِمَمُهم عن احتمال لطائف التميز ـ فصار العلمُ سببَ جهلهم ، والبيانُ عَلَم ضلالتهم ، والفَحْصُ والنظر قائدَ غيِّهم[2] ، والحكمةُ مَعْدِنَ شُبَهِهم ـ [أكثر[3]] من الكُتّاب . ١٩٢ ظ

وذكر أبو بكرٍ الأصمُّ[4] ابنَ المقفَّع فقال : ما رأيتُ شيئًا إلّا وقليلُه أخفُّ من كثيره إلّا العلم ، فإنّه كلّما كثُر خفَّ مَحمِله . ولقد رأيتُ عبد الله ابن المقفَّع هذا فى غزارة علمه وكثرة روايته ، كما قال الله عزّ ذكره : ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا[5] ﴾ . قد أوهنَه علمُه ، وأذهلَه حلمُه ، وأعمتْه حكمتُه ، وحيّرَتْهُ بصيرته .

---

(١) هو عمرو بن مسعدة بن سعيد بن صول ، أحد الكتاب فى زمان المأمون . ذكر الخطيب فى تاريخ بغداد ١٢ : ٢٠٣ أنه ابن عم إبراهيم بن عباس الصولى . ومسعدة ، بفتح الميم والعين كما ضبطه ابن خلكان . توفى سنة ٢١٧ .

(٢) فى الأصل : « قائد عيهم » ، وفى ط : « حايد عنهم » ، تحريف .

(٣) ليست فى الأصل ولا فى ط .

(٤) اسمه عبد الرحمن بن كيسان ، كان من أئمة المعتزلة ، ذكره عبد الجبار الهمدانى فى طبقات المعتزلة وقال : كان من أفصح الناس وأورعهم وأفقههم ، وله تفسير عجيب . وهو من طبقة أبى الهذيل العلاف وأقدم منه . لسان الميزان ٣ : ٤٢٧ .

(٥) الآية ٥ من سورة الجمعة .

وكنّا فى مجلس بشرِ بن المعتمر يومًا وعندهُ المُرْدار[١] ، وثُمامة[٢] ، والعَلّاف[٣] ، فى جماعةٍ من المعتزلة وأصحاب الكلام ، فتذاكروا العوامَّ واستحواذَ الفتنة عليهم فى التقليد ، واستغلاقَ قلوبِهم بكثيرٍ مما ليس فى طبعهم[٤] ، فتعظُّمهم[٥] وتقضى لكلٍّ من نبُل مِنهم بالصَّواب فى قوله وإنْ لم يعلموا[٦] . لا يَدِينون بالحقيقة ، ولا يَحمَدون إلا ظاهر الحِلْية .

---

(١) المردار ، هو أبو موسى عيسى بن صبيح ، تلميذ بشر بن المعتمر ، كما ذكر الرازى . وقال البغدادى فى الفرق ١٥١ : « وكان يقال له راهب المعتزلة ، وهذا اللقب لائق به إن كان المراد به مأخوذا من رهبانية النصارى . ولقبه بالمردار لائق به أيضاً ، وهو كما قيل :

وقلما أبصرت عيناك من رجل   إلا ومعناه إن فكرت فى لقبه

يشير البغدادى بهذا إلى أن « مردار » بالفارسية معناه القذر أو الجيفة . انظر استينجاس ١٢١٢ . وهو بضم الميم بعدها راء ساكنة . وفى الأصل : « المردان » وفى ط : « المدكان » صوابهما ما أثبت . وانظر الملل والنحل ١ : ٨٨ والمواقف ٦٢٢ واعتقادات الرازى ٤٢ . ويقع محرفاً أيضا بالمزدار .

(٢) ثمامة بن أشرس المعتزلى البصرى ، ورد بغداد واتصل بهارون وغيره من الخلفاء . وله أخبار ونوادر يحكيها عنه أبو عثمان الجاحظ وغير واحد . تاريخ بغداد ٧ : ١٤٥ — ١٤٨ .

(٣) العلاف ، هو أبو الهذيل محمد بن الهذيل المعتزلى الذى تنسب إليه الهذيلية . وقد سبقت ترجمته فى ص ١٧٧، ١٩٢ وفى الأصل : «والقلال» . وفى ط : «الغلال» بدون واو قبلها . والوجه ما أثبت .

(٤) فى الأصل : « ما ليس » ، صوابه فى ط . وفى ط بعده : « من طبعهم » .

(٥) فى الأصل : « فتعظمه » ، ووجهه من ط . والمراد : فتعظم العوام من يقلدونهم . وكأن فى العبارة نقصا .

(٦) فى الأصل : « وإن لم يعلمه » ، صوابه فى ط .

ومن الدليل على نَذَالة طبعهم ، والعلم بفَسَالة رأيهم[١] ، تقديمهم بالفضل لمن لا يفهمونه[٢] ، وقضاؤهم بالعلم لمن لا يعرفونه ، حتّى إنهم يضربون بالكاتب فيما بينهم المثل ، ويحكمون له بالبصيرة فى الأدب ، على غير مُعاشرةٍ جرتْ بينهم ، ولا محبّةٍ ظهرت له منهم . ليس إلّا أنّ هممهم صَغُرت عنهم ، وامتلأت قلوبهم منهم ، فصار المحفوظُ من أقوالهم ، والذى يدينون به من مذاهبهم : كيف لا يأمن فلانٌ الخطأَ مع جلالته ، وكيف ينساغ لأحدٍ تجهيلُه مع نبله . فإنْ وُقفوا على تمييزه هابوه ، وإن دُعوا إلى تفهُّمه أكبروه ، وقالوا : لم يُنْصَب هذا بموضعه إلّا لخاصّةٍ فيه وإن جَهِلْناها ، وفضيلةٍ موسومة وإن قَصُرَ عِلْمُنا عنهم . ولعلَّهُ عُمَرَ بن فَرَجٍ[٣] فى السَّفَه والمباهَتة ، وإبراهيم ابن العبَّاس فى الشَّرَه والرَّقاعة ، ونَجَاح بن سَلَمَة[٤] فى الطَّيش والسخافة ، وأحمد بنُ الخصيب[٥] فى اللُّؤم والجَهَالة ، وآلُ وهب فى النَّهَم والنَّذالة ، ١٩٣ و

---

(١) الفسالة : الضعف . وفى الأصل : «بغسالة» ، وفى ط : «بسفالة» ، كلاهما محرف عما أثبت .

(٢) فى الأصل : « لا يفهموه » ، ووجهه من ط .

(٣) فى معجم البلدان عند الكلام على « رخج » ، كسكر ، وهى كورة ومدينة من نواحى كابل: « وينسب إلى الرخج فرج ، وابنه عمر بن فرج ، وكانا من أعيان الكتاب فى أيام المأمون إلى أيام المتوكل ، شبيها بالوزراء وذوى الدواوين الجليلة . وله أخبار فى الأغانى ٩ : ١٠٩ و ١٩ : ١٤١ وإعتاب الكتاب ١٤٥ .

(٤) سبقت ترجمته فى ١ : ٣٢٣ .

(٥) كان أحمد بن الخصيب كاتبا للواثق ، ثم نكبه حينا عمل محمد بن عبد الملك الزيات قصيدة وأوصلها إليه على أنها لبعض أهل العسكر . وفيها :

وابن الخصيب الذى ملكت راحته ... خلافة الشام والنازين والقفل

فنيل مصر وبحر الشام قد جريا ... بما أراد من الأموال والحلل =

ويحيى بن خاقان[1] فى الذلّ والفاقة، وموسى بن عبد الملك فى الوَخَم والبلادَة، وابن المدبّر فى الخِبّ والمكابرة[2]، والفَضْل بن مروان فى القَدَامة مقصورةً[3].

وفى عمر بن فرج يقول الشاعر :

لا تطلبِ الخيرَ من بنى فَرَجِ لا باركَ اللهُ فى بنى فَرَجِ

والعَنْ إذا ما لقيتَه عُمَرًا لَعنًا يقينًا بأعظم الهَرَجِ

فلعنةٌ إنْ لَعَنْتَها عُمَرًا تَعْدِلُ مقبولةً من الحِجَجِ

ليس على المفترِى على عُمَرٍ من ضَرْبِ حَدٍّ يُخْشَى ولا حرجِ

وخُبِّرْت أنَّ أبا العتاهية أتى يحيى بن خاقان يومًا ليسلّمَ عليه، فلم يأذنْ له حاجبُه فانصرفَ، وأتاه يومًا آخرَ فصادفَه حينَ نزل فسلَّمَ عليه، ودخل يحيى إلى منزله ولم يأذَنْ له، فكتب إليه أبو العتاهية من ساعته رُقْعَةً فيها :

= وانظر إعتاب الكتاب ١٣٨ وجمع الجواهر ١٦٨–١٧٢ . وقد سرد الحصرى كثيراً من هجاء الأدباء له، كما ذكر أنه كان القائم بأمر المنتصر بعد قتله أباه المتوكل واستيلائه على الخلافة، فلما مات المنتصر أقره المستعين أحمد بن المعتصم على ما كان .

(١) يحيى بن خاقان : والد عبيد الله بن يحيى، من كتاب الحسن بن سهل . انظر كتاب بغداد لابن طيفور ١٦٠ . وانظر كذلك التنبيه والإشراف ٣١٤ والوزراء والكتاب للجهشيارى ١٨٣، ١٨٦ والأغانى ٣ : ١٦٣، ١٨ : ٣٥ و ٢٠ : ٤٩ .

(٢) كذا فى الأصل و ط، ولعلها : « المكايدة » .

(٣) فى الأصل و ط : « مقصودة »، والوجه ما أثبت، أى مقصورة عليه .

أراكَ تُراعُ حين تَرَى خيالى فما هذا يَرُوعُك من خيالى[1]

لعلك خائف منِّى سؤالًا ألَا فلكَ الأمانُ من السُّؤالِ

كفيتُكَ إنَّ حالَكَ لم تَمِل بى لأطلبَ مثلَها بدلًا بحالِى[2]

وإنَّ العُسْرَ مثل اليُسر عندى بأيِّهما مُنِيتُ فما أبالى

فلما قرأ يحيى بن خاقان رُقْعَتَهُ ووثق بأمانِه من السُّؤال أذِنَ له ، فخرج الحاجب فوجَده قد انصرف ، ولم يَعُدْ إليه ، ولا التقيا بعد ذلك .

وَجَلَسَ الجاحظ[3] يومًا فى بعض الدواوين ، فتأمَّل الكُتَّاب فقال : خَلْقٌ حُلوة ، وشمائلُ معشوقة ، وتظرُّف أهل الفهم ، ووقار أهلِ العلم ، فإن ألقيت عليهم الإخلاصَ وجدتَهم كالزَّبد يَذْهب جُفاء ، وكَنِبْتة الرَّبيع يُحرقها الهَيْف من الرياح[4] ؛ لا يستندون من العلم إلى وثيقةٍ ، ولا يدينون بحقيقةٍ ؛ أخفرُ الخلق لأماناتهم ، وأشراهم بالثمن الخسيس لعهودهم ؛ الويلُ لهم مما كتبت أيديهم وويلٌ لهم مما يكسبون .

١٩٣ ظ

ثم وَصَفَ أصحاب الصناعات ، وذكر تعاطف أهلها على نظرائهم ، وتعصُّب رجالها على غيرهم فقال :

---

(١) أى فما ذا يروعك . والخبر فى الأغانى ٣ : ١٦٣ .

(٢) فى الأصل : « بحال » ، صوابه فى ط والأغانى .

(٣) فى الأصل : « وحبس الجاحظ » ، والوجه ما أثبت من ط . على أن الخبر التالى يبدو أنه دخيل على الكتاب .

(٤) الهيف ، بالفتح : ريح حارة تأتى من قبل اليمن ، وهى النكباء التى تجرى بين الجنوب والدبور .

لا أعلم أهل صناعة إلا وهم يَجْرُون فى ذلك إلى غاية محمودة ، ويأتُون معه آيةً مذكورة ، إلا الكُتَّاب ، فإنَّ أحدهم يتحاذق عند نظرائه بالاستقصاء على مثله ، ويسترجح رأيه إذا بلغ فى نكايه رجلٍ من أهل صناعته .

ثم ضرب لهم فى ذلك مثلا ، ثم قال : هم كالهرِمة[1] من الكلاب فى مرابضها ، يمرُّ بها أصناف الناس فلا تَحَرَّكُ[2] ، وإن مرَّ بها كلبٌ مثلها نهضَتْ إليه بأجمعها حتّى تقتلَه .

وحدّثنى عُمَر بن سيف ، أنه حضر مجلس أبى عبّاد ثابت بن يحيى[3] يومًا فى منزله ، وعنده جماعة من الكتاب ، فذكر ما هم عليه من ملائم الأخلاق ومدانس الأفعال ، قال : ووصف تقاطعهم عند الاحتياج ، و [عدم] تعاطفهم عند الاختلال[4] ، وزُهدَهم فى المواصلة فقال :

معاشر الكتاب ، ما أعلم أهل صناعة أملأ لقلوبِ العامّة منكم ، ولا النعمُ على قومٍ أظهر منها عليكم . ثم إنّكم فى غاية التقاطع عند الاحتياج ، وفى ذِروة الزُّهد فى التعاطف عند الاختلال . وإنّه ليبلغنى أنّ رجلًا من القصابين يكون

---

(١) فى الأصل : « كالهرهة » . وفى ط : « كالهرهرة » .

(٢) أى تتحرك ، بحذف إحدى التاءين . وفى ط : « تتحرك » .

(٣) كان أبو عباد ثابت بن يحيى من كتاب المأمون ثم من وزرائه . انظر التنبيه والإشراف ٣٠٤ ومختصر تاريخ ابن عساكر ٣ : ٣٧٢ .

(٤) الاختلال : الفقر والإعدام . وكلمة : « عدم » من مقترحات « فنكل » لاستقامة الكلام .

فى سُوقِهِ ، فيتلَف ما فى يديه ، فيخلِّى له القصَّابون سُوقَهم يومًا ، ويجعلون له أرباحَهم ، فيكون بربحِها منفرداً ، وبالبيع مُفرَدا ، فيسدُّون بذلك خَلَّته ، ويَجبُرون منه كسرَه . وإنكم لَتَنا كرون عند الاجتماع والتعارُف ، تناكُر الضِّباب والسَّلاحف ، ثم مع استحواذكم على صناعتكم ، وقلَّة ملابسة أهل الصناعاتِ لها معكم ، لم أر[1] صناعة من الصناعات إلّا وقد يجمع أهلُها غيرَها إليها فيعانونها[2] جميعاً ، وينزلون[3] لضربٍ من التجاراتِ معاً ، إلّا صناعتكم هذه ؛ فإنَّ المتعاطىَ لها منكم ، والمتسمِّىَ بها من نظرائكم ، لا يليق به ملابسةُ سِواها ، ولا ينساغ له التَّشاغل بغيرها . ثم كأنكم أولاد عَلّاتٍ ، وضرائر أُمَّهات ، فى عداوةِ بعضكم بعضا ، وحَنَقِ بعضِكم على بَعض . أُفٍّ لكم ولأخلاقكم !

إنَّ للكُتّابِ طبائع لئيمة ، ولولا ذلك لم يكن سائرُ أهلِ التجاراتِ والمكاسب بنظرائهم بَرَرةً ، ومن وَرائهم لهم حَفَظَة ، وأنتم لأشكالكم مُذِلُّون ، ولأهل صنائعكم قالُون . قَبحَ اللهُ الذى يقول قضَينا فى الأمور بالأغلب.

وعرفنا علل الناس فى مكاسبهم[4] وتَعامُلهم ، فمن كانت علَّتُه أكرمَ كان كرمُ فَعاله أعمَّ .

ولستُ أعلَمُ عِلَّةً فى مكتسبٍ أنبلَ عند الخاصَّة من مكسبكم .

١٩٤ و

---

(١) فى الأصل : « ولم أر » ، والوجه حذف الواو كما فى ط .

(٢) فى الأصل وط : « فيعاونونها » ، صوابه فى ط من تصحيح « فنكل » .

(٣) فى الأصل وط : « ويتركون » . وهذا من تصحيح « فنكل » .

(٤) ط : « تكاسبهم » .

ثمَّ وَصَف مَن سلف من هذه الطَّبقة يومًا فقال : كتب سالمٌ[1] لهشام ابن عبد الملك ، وكان أشدَّ الناسِ غَلَطًا ، وأضعفَهم رأياً ، وكان هشامٌ يُحضِره فيَسمع من ضَعْفه ويستميحه الرأيَ ، يهزأ به .

ثم كتب لهم مَسْعَدة[2] وكان مؤدِّباً ، وكانت ضَعْفة المؤدِّبين فيه[3]

ثم كتب لهم عبدُ الحميد[4] وكان معلِّما ، وبتحامله على نصر بن سيار انتقضت خراسانُ ، وزال ملك بنى مَرْوان .

ثم كتب لبنى العباس عبد الله بن المقفَّع ، فأغرى بهم عبد الله بن على[5] ، ففُطِن له وقُتل وهُدم البيتُ على صاحبه .

ثم كتب لهم يونس بن أبى فروة[6] ، وكان زنديقاً ، فطُلب فاختفى

---

(١) كان سالم هذا مولى لسعيد بن عبد الملك ، وكتب لهشام كما فى التنبيه والإشراف ٢٧٩ . وكتب أيضاً للوليد بن يزيد كما فى الجهشيارى ٦٨ .

(٢) مسعدة الكاتب هذا ، والد عمرو بن مسعدة الذى سبقت ترجمته فى ص ١٩٥ . وكان مسعدة مولى لخالد القسرى ، وكان فى ديوان الرسائل بواسط ، كما فى عيون الأخبار ٣ : ١٧٣ .

(٣) الضعفة : ضعف الفؤاد وقلة الفطنة ، كما فى المعجم الوسيط .

(٤) هو أبو غالب عبد الحميد بن يحيى بن سعد ، وكان من أهل الشام ، وكتب لمروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، وقتل معه فى مدينة بوصير بمصر سنة ١٣٢ . وفيات الأعيان وسرح العيون ١ : ٢٥٦

(٥) انظر ابن خلكان ١ : ١٥٠ فى ترجمة الحسين بن منصور الحلاج

(٦) ويقال له أيضاً يونس بن فروة ، كما فى الحيوان ٤ : ٤٤٦ حيث أورد الجاحظ شعرا يؤيد هذه التسمية . وكذا ورد بها فى جمع الجواهر ٢٠٩ والعمدة ٢ : ١٨٥ . والمعروف « ابن أبى فروة » كما فى لسان الميزان ٢ : ١٨٥ و ٦ : ٣٣٥ =

بالكوفة والنِّيل[1] حتّى هَلَك .

واستكتب الرشيدُ أَزدَانقاذار[2] على ديوان الخراج، وكان ثَنَويًّا . ١٩٤ ظ

ثم لم ينوِّهوا بذكر كاتبٍ حتّى ولىَ المأمون ، فقدِم معه ابن أبى العباس الطُّوسى ، فبه انتشرت السِّعاية بالعراق .

واستكتب أبا عبّاد[3] ، وكان بالرَّىّ مؤدِّبًا ، وكان سخيفا حديدا ، ولم يزل بمكانه فى ديوانه قيِّمًا لابن أبى خالد الأحول[4] والاسمُ له .

ثم كتب له[5] رجاء بن أبى الضحَّاك[6] ، وكان أظلمهم وأغشمهم ، واستخلف حفصويه على ديوان الخراج ، وكان ركيكا لسعايته .

= وأمالى المرتضى ١ : ١٣١ نقلا من كل منهما عن الحيوان، والوزراء للجهشيارى ١٣٠ . وذكرهو وصاحب لسان الميزان أنه كان كاتبا لعيسى بن موسى. وهو من أجداد الفضل بن الربيع بن يونس بن محمد بن عبد الله بن أبى فروة — واسم أبى فروة كيسان — مولى الحارث الحفار . وإنما قيل له أبو فروة لأنه أدخل المدينة وعليه فروة ، فاشتراه عثمان وأعتقه وجعل يحفر القبور .

(١) النيل : بليدة فى سواد الكوفة . ط : « واكتبل » ، تحريف .

(٢) فى الأصل وط : « يزدا بعادان » ، تحريف ما أثبت . وانظر البيان ١ : ٧٢ والجهشيارى ١٦٩ .

(٣) اسمه ثابت بن يحيى ، كما فى التنبيه والإشراف ٣٠٤ . وكان مع ذلك من خواص المأمون ، كما فى مروج الذهب ٤ : ١٨ .

(٤) هو أحمد بن أبى خالد الأحول ، كما فى التنبيه والإشراف ٣٠٤ . وانظر نوادر المخطوطات ٢ : ١٩٩ والجهشيارى ٣١٨ .

(٥) فى الأصل : « لهم » ، صوابه فى ط .

(٦) له خبر فى العقد ٢ : ١٥٥ . وهو والد الحسن بن رجاء . وكان شاعراً . الفهرست ٢٣٦ . وكان على الخراج فى خلافة المعتصم . الطبرى (حوادث ٢٢٦) ، وتهذيب ابن عساكر ٥ : ٣١٦ .

ثم كتب لهم ابن يزداد[١] ، وكان أشقاهم ، حتّى هلك .

وكتب لهم عمرو بن مسعدة ، وكان رسائليا فقط .

واسترجح المأمون وهو بخراسان قبل مقدمه من كتاب العراق على غير بَلْوَى[٢] إبراهيم بن إسماعيل بن داود ، وأحمد بن يوسف ، فلما قدِم امتحنهما فتعنَّتا[٣] ، فاستنهضهما فى الأعمال ففشلا ، فلم يعملا على شىء حتّى هلكا .

وكان إبراهيم شُعوبيا ، وكان يتهم بالثَّنوية . فإن كان ذلك صحيحاً فقد كانت صَبابتُه بها على جهة التقليد فيها ، لا على جهة التفتيش والاحتجاج فيها . وهذه علة المرتدّ من سائر الكتَّاب .

وقد قال أهل الفطن : إنّ محض العمى التقليد فى الزندقة ؛ لأنَّها إذا رسخَتْ فى قلبِ امرئٍ تقليداً أطالت جرأته ، واستغلق على أهل الجدل إفهامه .

وكان أحمد بن يوسف مأفونا ، وهو أول من قُرِف بالآفةِ المخالفة لطبع الكتَّاب .

واستَقضَى على ديوان الخراج والجند إبراهيمَ الحاسب ، والحسنَ ابن أبى المشرف . فلقِن إبراهيم من سائر الآداب والعلوم علمَ الحساب فقط ، ولم يُفزَع إليه فى قضيةٍ ولا رأيٍ حتّى هلَك ، فكان الذى وضعه وأدناه شرهُه ، وهى علّة قائمة فى كتّاب الجند خاصة .

---

(١) اسمه محمد بن يزداد بن سويد . وقد توفى المأمون وهو على وزارته . التنبيه والإشراف ٣٠٤ .

(٢) البلوى : الاختبار .

(٣) ط : « فنعسا » .

واستضعف ولاةُ الدواوين الحسنَ بن أبي المشرف عند قول الفضل مروان له وهو على الوزارة[1] : « يا حسَنُ ، احتجنا إلى رجلٍ جزلٍ في رأيه ، متوفّر لأمانته ، متصرِّف في الأمور بتجربته ، مستقدَرٍ على الأعمال بعلمه ، تصف لنا مكانَه ، وتُشير علينا به ، فنقلِّده جسيماً من عملنا » . فأجابه سريعاً قال : وجدتُه لك ـ أصلحكَ الله ـ كذلك . قال : من هو ؟ قال : أنا . وألحَّ عليه في قوله ، فتبسَّم الفضل وقال : هذا مِن غَيرك فيك أحسنُ منك بلسانك لك ، نَعُود وننظر إن شاء الله !

١٩٥ و

وحسبُك بقومٍ أنبلُهم أخسُّهم[2] في الرِّزق مرتبة ، وأعظمهم غَناء أقلُّهم عند السُّلطان عقلاً . يُرزَق صاحب ديوان الرسائل ـ وبلسانه يخاطَب الخلق ـ العُشرَ من رزقِ صاحب الخراج . ويرزق المحرِّر ـ وبخطِّه يكون جمالُ كتبِ الخليفة ـ الجُزء من رزق صاحب النَّسخ في ديوان الخراج . لا يَحضر كاتب الرسائل لنائبةٍ ، ولا يُفزَع إليه في حادثة . فإذا أبرمَ الوُزراء التدبيرَ ، ووقفوا منها على التقدير ، طُرحت إليه رقعةٌ بمعاني الأمر لينسِّقَ فيه القولَ ، فإذا فَرَغ من نظامه واستوى له كلامُه ، أحضر له محرِّرَه[3] فجلس في أقرب المواطن من الخليفة ، وأمنع المنازل من المختلفة[4] ، فإذا تقضَّى[5] ذلك فَهُما والعوامّ سواء .

---

(١) وزارته للمعتصم ، وكان الفضل هذا كاتباً للمعتصم قبل الخلافة ، فلما استخلف استوزره . التنبيه والإشراف ٣٠٨ .

(٢) في الأصل : « أحسنهم » ، صوابه في ط .

(٣) ط : « محررا » .

(٤) المختلفة : الذين يختلفون إليه ، أي يترددون . ط : «وأمتع المنازل» بالتاء .

(٥) ط : « انقضى » .

هذا وليست صناعتهما بفاشيةٍ فى الكُتَّاب ، ولا بموجودة فى العوامّ ؛ فأغزرهم علماً أمهنهم ، وأقربهم من الخليفة أهوَنُهم . فكيف بكاتب الخراج الذى علمه ليس بمحظور ، وإشراكُ الناس فيه ليسَ بممنوع ، يصلح لموضعه كلٌّ من عَمِل وعُمِل عليه ، أحمد أحواله عند نفسه التعقُّد على الخصوم ، وأسعد أموره التى يرجو بها البلوغَ الشَّرهُ ومنعُ الحقوق . وأحذق ما يكون بصناعته عند نفسه حين يأخذ بإبطال السُّنن ، ويعمل بفلتات الدفوع .

ولذلك ما ذكر أنَّ بعضَ رجال الشَّعبيِّ قال له : يا أبا عَمرو ، الكُتَّاب شرار خلق الله ! فقال[1] : لا تفعل[2] .

ولكنَّ الشعبيَّ كان لسلطانه مُدارِياً .

١٩٥ ظ ومن كتاب الجند : محمود بن عبد الكريم ، كان حُمَيد بن عبد الحميد عند دخول المأمون مدينة السلام وبعد سكون الهَيْج وخمود النَّائرة[3] ، رفع إلى المأمون يذكر أن فى الجند دغلا كثيراً[4] ممن دخل فيهم بسبب تلك الحروب فى أيام الأجناد ـ [وهم[5]] قومٌ من غير أهل خراسان ممَّن تشبَّه بهم وادّعى إليهم من الأعراب والدُّعَّار[6] ، وممن لا يستحقُّ الدِّيوان ،

---

(١) هذه الكلمة ساقطة من ط .

(٢) أى لاتقل ذاك .

(٣) النائرة : الفتنة الحادثة والشر والهيج . ط : « الثائرة » .

(٤) فى الأصل : « دغل كثير » ، صوابه فى ط .

(٥) ليست فى الأصل .

(٦) ط : « والدعاة » .

وقومٌ من أهل خراسان صارت لهم الخواصُ السَّنِيَّة ، [و] لم يكن لهم من الغَناء ما يستحقُّون به مثلَها ــ وذكر أنَّ بيت المال لا يحتمل ذلك ، وسأل المأمونَ أن يولِّيَه تصنيفَ الجند . ولم يكن مذهب حُميدٍ فى ذلك التوفير على المأمون ، ولا الشفقةَ على بيتِ مال المسلمين ، ولكنه تعصَّب على أبناء أهل خراسان ، واضطغن عليهم محاربتَهم إياه أيَّام الحسن بن سهل مع ولَدِ محمد ابن أبى خالد[١] وغيرهم ، وما كانوا قد انتحَوْهُ به[٢] من تلك الوقائع والهزائم ، وما ذهبَ له من الأموال بذلك السَّبب .

فولّاه المأمونُ التصنيف ، وأَمَر للجند برزق شهرين ، فولَّى حُميدٌ العطاء والتصنيفَ محمودَ بن عبد الكريم الكاتب ، وعرف محمود ما غزَا حُميدٌ[٣] ، فتحاملَ على الناس واستعمل فيهم الأحقاد والدِّمن ، نخفض الأرزاق[٤] ، وأسقَطَ الخواصَّ ، وبعث فى الكُوَر وأنحى على أهل الشَّرف والبُيوتات ، حسداً لهم وإشفاءً لغليل صاحبه منهم[٥] ، فقصَد لهم بالمكروه والتعنُّت ،

---

(١) انظر الجهشيارى ٣٠٢ . وقد ذكر أن محمداً غلب على بغداد وحارب الحسن ابن سهل ، وذكر الطبرى فى حوادث سنة ٢٠١ أن ولده عيسى بن محمد بن أبى خالد وإخوته أبناء محمد قاموا مقام أبيهم فى تلك الحرب . وأن حميداً الطوسى جاء فى طلب بنى محمد حتى انتهى إلى المدائن . ط : « ولده محمد بن أبى خالد » ، تحريف .

(٢) أى قصدوه به .

(٣) غزا ، أى قصد وأراد . وفى الأصل وط : « عزا » ، ووجهه ما أثبت .

(٤) فى الأصل : « لحفظ الأرزاق » ، وفى أصل ط : « وحفظ الأرزاق » ، وقد جعلها « فنكل » : « وخفض » .

(٥) يقال أشفى المريض إشفاء : وصف له الدواء الشافى . وفى أصل ط : « وأشفى لغليل صاحبه منه » . وقد جعلها فنكل : « وشفاء لغليل صاحبه منهم » .

فامتنعت طائفة من الناس من التقدُّم إلى العطاء وتركوا أسماءهم ، وطائفة انتدبوا مع طاهر بن الحسين بخراسان ، فسقط بذلك السبب بشرٌ كثير .

ثم إنّ المأمون أمر للناس بتمام عطاياهم[١]، واكتسب محمود بن عبد الكريم المذَمّة ، وصار مَلعنةً فى محالّ بغداد وفى مجالسها وطُرقها .

ومنهم : زيد بن أيوب الكاتب ، عمل فى ديوان الجند أربعين سنة ، ثم صار فى آخر عُمره قَوّادًا ليحيى بن أكثم القاضى[٢] . وذلك أن المأمون أمرَ له بفَرض ، فصيَّر يحيى بن أكثم أمرَ ذلك الفرضِ إلى زيد بن أيوب ، وأمره ألاّ يَفرضَ إلاَّ لأمردَ بارع الجمال ، حسنِ القَدِّ والصُّورة . فكان أمر ذلك الفرض مشهوراً مُتعالَمًا . ففى ذلك يقول الحسن بن على الحِرمازىّ لزيد ابن أيوب :

١٩٦ و

يا زيد يا كاتب فَرضِ الفِراشْ أكلُّ هذا طلبٌ للمعــــاشْ
مالى أرى فرضَك حُمــــلانهم يثبُتُ فى القَرنينِ قَبلَ الكِباشْ[٣]

---

(١) ط : « أعطياتهم » ، وهى أمثل .

(٢) يحيى بن أكثم بن محمد بن قطن ، من ولد أكثم بن صيفى ، وكان فقيها عالماً ، روى عنه الترمذى والبخارى فى غير الجامع ، وغلب على المأمون فولاه قضاء القضاء وتدبير أهل مملكته ، فكانت الوزراء لا تعمل شيئاً فى تدبير الملك إلا بعد مطالعة يحيى بن أكثم . وفى أيام المتوكل عزل القاضى محمد بن أحمد ابن أبى دُواد وفوض إليه ولاية القضاء ، ثم عزله المتوكل سنة ٢٤٠ وأخذ أمواله . وتوفى سنة ٢٤٦ وله ثلاث وثمانون سنة . تاريخ بغداد ١٤ : ١٩١ – ٢٠٤ ووفيات الأعيان ٢ : ٢١٧ – ٢٢٤ وثمار القلوب ١٢٢ – ١٢٤ وتهذيب التهذيب .

(٣) كذا ورد البيت .

وعلى ذلك فإنَّه لم يبلغْنى أنَّه كان فى ولاةِ ديوان الجند ولا فى كتَّابهم مثل المعلَّى بن أيوب فى نُبله وارتفاع همته ، وكرم صُحبته ، وعفافه ، وجميل مَذْهبه ، وشدة محاماته عمن صحبَه وتحرَّمَ به . فكان المأمون يعرف له ذلك ومَن بعده من الخلفاء ، فثبتت وطأته ، ودامت ولايتهُ ، وحُمِد أثره .

* * *

قد أتينا على بعض ما أردنا فيما له قصَدْنا ، ولم نستعمل الانتزاعات فيما ذكرنا ، وأعرضْنا عن التأويلات فيما وصفنا ، وقَصَدنا إلى المأثور فحكيناه ، وإلى المذكور فى الأزمنة فأجريناه ، لئلا يجدَ الطاعنُ فيما وصفنا مَقالا ، والمنكِر لذمّ ما ذممنا مَساغا ، وعَلِمْنا أنَّ من عاندَ مع ذلك فقد دَفع عِياناً وأنكر كائنا مذكوراً . وفى ذلك دليلٌ باهر على اضمحلاله ، وشاهدٌ عدلٌ لأضداده .

ولو حكينا كلَّ ما فى هذا الجنسِ من الأقوال ، وما يدخله من القايسات والأشكال ، لطالَ الكتاب ، ولملَّه الناظر المعجاب ، فاكتفينا بالجزء[1] من الكتاب ، والبعضِ دون التمام ، وعلمنا أنَّ الناظر فيه إنْ كان فطناً أقنعَه القليلُ فقضَى ، وإن كان بليداً جهولا لم يزده الإكثارُ إلاَّ عِيًّا ، ومن العلم بما له قصَدْنا إلاَّ بعداً . وبالله الكفاية والتوفيق .

* * *

تمَّ كتاب « ذم أخلاق الكتّاب » بعون الله ومنِّه ومشيئته وتوفيقه ، والله تعالى الموفّق للصواب . والحمد لله أولا وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وأصحابه الطيبين الطاهرين[2] وسلامه ، وهو حسبنا ونعم الوكيل . ١٩٦ ظ

(١) ط : « بالجبر » . (٢) إلى هنا ينتهى اتفاق الخاتمة فى نسخة الأصل وط . وما بعده ليس فى ط . وبدله فيها : «وهوحسبنا ونعم الوكيل . فرغ من تنميقه صبيحة يوم السبت لثمان وعشرين من شهر ربيع الأول من سنة ست وثمانين وألف » .

١٦

كِتَابُ

البِغَال

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذا هو الكتاب السادس عشر من مجموعة رسائل الجاحظ ، وله أصل واحد هو نسخة مكتبة داماد ، وعنوانه فيها :

كتاب « القول فى البغال »

وقد ذكر الدكتور داود الجلبي فى « مخطوطات الموصل ص ٢٦٤ — ٢٦٥ » فى مجموعة رسائل الجاحظ التى كانت محفوظة فى مكتبة أمين بن أيوب الجليلى بالموصل نسخة أخرى من هذا الكتاب عنوانها : كتاب « البغال ومنافعها » . ولكن من المؤسف أن تلك المجموعة قد فقدت بعد وفاة صاحبها ولم نهتد إلى الآن إلى موضعها .

ولم يذكر هذا الكتاب أحد ممن ترجم للجاحظ ، ولا أجرى هو له ذكرا فيما سلف من كتبه . ولكن الكتاب ينطق بلا ريب أنه من تأليف الجاحظ ، ينطق أسلوبه ومنهجه ، وتنطق رجاله وحوادثه بأنه للجاحظ ، لاريب عندى فى ذلك .

وقد نشره عن نسخة داماد للمرة الأولى المستشرق : « شارل بلا » فى مطبعة الحلبي سنة ١٣٧٥ وعلق عليه تعليقات مفيدة ، ولكنه وهم كثيراً من الوهم فى قراءة نسخة داماد . وقد كتبت فى ذلك بعض تصحيحات نشرتها فى مجلة معهد المخطوطات العربية (عدد شوال سنة ١٣٧٥) فى الجزء الأول من المجلد الثانى ، فليرجع إليه .

وقد أمكننى أن أستدرك فى نشرتى هذه أضعاف ما نشرته من قبل فى مجلة المعهد ورمزت إلى نشرته هذه بالرمز «ط» .

ويفهم من مقدمة الجاحظ لهذا الكتاب أنه ألفه بعد كتاب الحيوان[1] أى أنه ألفه وهو مفلوج أيضاً .

وقد جريت فى إضافة عنوانات لهذا الكتاب كما جريت على ذلك فى كتاب الحيوان ، وذلك حرصاً منى على بيان معالمه المتفرقة ، وتوضيح فصوله ؛ وميزتها عن الأصل بجعلها بين علامتى الزيادة [ ]

وإليك نص الكتاب :

---

(١) انظر ما كتبت لتأريخ كتاب الحيوان فى تقديم كتاب الحيوان ص ٢٤-٢٧ من الجزء الأول .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وعلى اسم الله ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله ، وصلى الله على سيدنا محمد خاصة ، وعلى أنبيائه عامة .

[مقـــدمة]

- كان وجه التدبير فى جملة القول فى البِغال ، أن يكون مضموما إلى جملة القول فى الحافر كله ، فيصيرَ الجميع مُصْحَفًا تامًّا ، كسائر مَصاحف « كتاب الحيوان » . والله المقدِّر والكافى .

وقد منع من ذلك ما حدَث من الهمّ الشاغل ، وعَرَضَ من الزَّمانة ، ومن تخاذُل الأعضاء ، وفساد الأخلاط ، وما خالط اللسان من سوء التِّبيان ، والعجزِ عن الإفصاح ، ولن تجتمعَ هــذه العِلَلُ فى إنسانٍ واحد ، فيسلَمَ معها العقلُ سلامةً تامّة .

وإذا اجتمع على الناسخ سوء إفهام المُملِى ، مع سوء تفهُّم المُستملِى ، كان تركُ التكلُّف لتأليف ذلك الكتاب أسلَمَ لصاحبه من تكلُّف نظمه على جمع كلِّ البال ، واستفراغ كلِّ القُوَى .

فأمّا الهمّة[1] وتشعُّب الخواطر المانعة من صحة الفِكر ، واجتماع البال ، فهذا مالا بُدَّ من وقوعه .

فليكنِ العذرُ منك على حسب الحال ، والخِيَرة فيما صنَعَ الله . وقد علمنا أن الخِيَرة مقرونة بالكُرْه ، وبالله التوفيق .

---

(١) كذا بالأصل ، ولعله : « فأما فتور الهمة » ، أو نحو ذلك .

[عناية الأشراف بالبغال]

نبدأ إن شاء الله ، بما وَصَف الأشرافُ من شأن البغلة ، فى حُسن سيرتها ، وتمام خَلقها ، والأمور الدالّة على السرّ الذى فى جَوْهَرها ، وعلى وجوه الارتفاق بها ، وعلى تصرُّفها فى منافعها ، وعلى خِفّة مئونتها فى التنقّل فى أمكنتها وأزمنتها ، ولِمَ كَلِف الأشرافُ بارتباطها ، مع كثرة ما يزعمون من عيوبها ؟ ولِمَ آثروها على ما هو أدْومُ طهارةَ خُلُقٍ منها ؟ وكيف ظهر فضلُها مع النقص الذى هو فيها ؟ وكيف اغتفروا مكروهَ ما فيها ، لِمَا وجدوا من خصال المحبوب فيها ؟ حتى صار الرجل منهم يُنشد العُذّالَ فيها كقول السَّعدىّ[1] :

أَخٌ لِى كَأَيَّامِ الحَيَـاةِ إِخَاؤُهُ تَلَوَّنُ أَلْوَانًا عَلَىَّ خُطُوبُهَـا
إِذَا عِبْتُ مِنهُ خَصلَةً فَهَجَرْتُهُ دَعَتْنِى إِلَيهِ خَصْلَةٌ لَا أَعِيبُهَا[2] ١٩٨ و

ولقد كَلِف بارتباطها الأشراف ، حتى لُقِّبَ بعضُهم من أجل استهتاره بها بـ « رَوَّاض البغال[2] » ، ولقَّبوا آخر : بـ « عاشق البغل » ؛ هذا مع طِيب مَغارسهم ، وكرَم نصابهم ، ولذلك قال الشاعر :

وتَثَعْلَبَ الرَّوَّاضُ بَعْدَ مِرَاحِهِ وأُنْسَلَّ بَيْنَ غِرَارَتَيْهِ الأَعْوَرُ

وهجاه أيضاً الفَرَزْدق[3] بأمر الحجَّاج ، ففحُش[4] عليه ، حتى قال :

وأَفْلَتَ رَوَّاضُ الْبِغَـالِ ولَمْ تَدَعْ لَهُ الْخَيْلُ مِنْ أَحْرَاحِ زَوجَتِهِ مَعْشَرَا[5]

(١) هو حريش السعدى ، كما سبق فى ١ : ٣٧ . وقد ورد البيتان بدون نسبة فى عيون الأخبار ٣ : ١٧ وغرر الخصائص ٣٠١ .

(٢) انظر ما سيأتى فى ص ٢١٨ (٣) ديوان الفرزدق ٢٩٧ .

(٤) كذا ضبطت الحاء بالضم فى الأصل . يقال فَحَش وفحُش وأفحش .

(٥) فى الأصل : « زوجته شعرا » ، صوابه من الديوان . وكان عبد الرحمن =

وقال لشريف آخر :

مازِلْتُ فِي الحَلَبَاتِ أَسْبِقُ ثَانِياً حَتَّى رُمِيتُ بِعَاشِقِ البَغْـــلِ
لَوْ كَانَ شَاوَرُ مَا عَبَـــأْتُ بِهِ يَوْمَ الرِّهَانِ وساعَةَ الحَفْـــلِ

وشاوَرُ هـذا : رائضٌ كان ببغداد ، والشاعر رجلٌ من بنى هاشم ؛ ولم يَعْنِ بقوله « ما زلتُ فى الحَلَبات أسبق ثانيا » : أنه جاء ثانىَ اثنين ، وإنما ذهب إلى أنه جاء متمهِّلا ، وقد ثَنَى من عِنانه .

وكتب رَوْح بن عبد الملك بن مروان إلى وكيلٍ له : « أبغِنى بغلةً حَصَّاء الذَّنَبِ[1] ، عظيمة المَحْزِم ، طويلة العُنق ، سَوْطُها عنانُها ، وهَواها أمامها[2] » .

وكان مَسْلَمة بن عبد الملك يقول : « ما ركب الناسُ مثلَ بغـلةٍ قصيرة العِذَار ، طويلةِ العِنان[3] » .

= ابن العباس ، قد انهزم فأخذت جاريتاه يوم الزاوية ، كما فى شرح الديوان نقلا عن ابن حبيب .

(١) الحصاء : مؤنث الأحص ، وهو القليل شعر الثنية والذنب .

(٢) مثل قول عروة بن حزام :

هواى أمامى ليس خلفى معـــرج وشوق قلوصى فى الغـــدو يمان

(٣) أورد هذا الخبر صاحب العقد ٦ : ٢٢٩ مختلطا بسابقه .

وقال صَفوان بن عبد الله بن الأهتَم ، لعبد الرحمن بن عَبّاس[١] بن ربيعة ابن الحارث بن المُطّلب ، وكان ركّاباً للبغلة : « مالك وهذا المركَب الذى لا تُدْرِكُ عليه الثار ، ولا يُنجيك يومَ الفِرار » ؟ قال : « إنها نزلت عن خُيَلاء الخيل ، وارتفعت عن ذِلّة العَيْر ، وخير الأمور أوساطها » . فقال صفوان : « إنّا نُعلِّمكم ، فإذا عَلِمتم تعلّمنا منكم ! » .

١٩٨ ظ

وهو الذى كان يُلقَّب : « روّاض البغال » ؛ لِحذقه بركوبها ، ولشَغَفه بها ، وحُسن قيامه عليها . وكان يقول : « أريدها واسعةَ الجُفرة[٢] ، مُنْدَحَّةَ السُّرَّة[٣] ، شديدةَ العُكْوة[٤] ، بعيدةَ الخطوة ، ليِّنة الظهر ، مُكْرَبَةَ الرُّسْغ[٥] ، سَفْواءَ جَرْداءَ عَنقاء[٦] ، طويلةَ الأنقاء[٧] » .

وقال ابن كُناسة[٨] : سمعتُ رجلاً يقول : « إذا اشتريتَ بغلةً فاشترها

---

(١) فى الأصل : « بن عياش » ، تحريف ، صوابه فى جمهرة ابن حزم ٧٠-٧١ ونسب قريش للزبيرى ٨٨ .

(٢) جفرة الفرس : وسطه .

(٣) يقال اندح بطنه اندحاحا : اتسع ، وكذلك السرة .

(٤) العكوة بضم العين وفتحها : أصل الذنب .

(٥) المكرب : الشديد .

(٦) السفواء : الخفيفة شعر الناصية . والجرداء : القصيرة الشعر . والعنقاء : الطويلة العنق .

(٧) الأنقاء : جمع نقى ونقو . بكسر أولها ، وهو كل عظم فيه مخ .

(٨) هو أبو يحيى محمد بن عبد الله بن عبد الأعلى الأسدى ، وكناسة لقب أبيه عبد الله . وكان محمد شاعراً من شعراء العباسية ، كوفى المولد والنشأة ، قد حمل عنه شىء =

طويلة العُنق ، نَجْدةً فى نَجائها[١] مُشرِفة الهادى[٢] ، نَجْدةً فى طِباعها ، ضَخْمة الجَوْف ، نجدةً فى صبرها » .

والعرب تصف الفرس بسَعَة الجوف . قال الراجز :

غَشَمْشَمٌ يَعْلُو الشَّجَرْ[٣] ببَطْنِه يَعْدُو الذَّكَــرْ

قال الأصمعىّ : لم يسبِق الحَلْبَةَ قطُّ أهضم[٤] .

وقال يونُس : كان نابغةُ الجَعْدِىُّ[٥] أوصفَ النَّاس لِفرس ، قال : فأنشدت رُؤْبَةَ قوله :

=من الحديث . وهو صاحب الجارية الشاعرة المغنية « دنانير » . ولد سنة ١٢٣ . وتوفى سنة ٢٠٧ . فهرست ابن النديم ١٠٥ والأغانى ١٢ : ١٠٥ — ١١٠ والورقة لابن الجراح ٨١—٨٣ .

(١) النجاء : السرعة . (٢) الهادى : العنق ، جمعه هواد .

(٣) فى أمثال الميدانى ٢ : ٣ عند قولهم « غشمشم يغشى الشجر » : « يراد به السيل لأنه يركب الشجر فيدقه ويقلعه ويراد أيضاً الجمل الهائج » .

(٤) الأهضم : المنضم الجنبين الخميص البطن . وانظر الحيوان ٣:٢٥٢ واللسان (هضم) .

(٥) هو عبد الله بن قيس ، وقيل قيس بن عبد الله ، من جعدة بن كعب بن ربيعة . وكان معمراً نادم المنذر أبا النعمان ، فيقال إنه كان أقدم من النابغة الذبيانى . وأدرك الإسلام ولقى الرسول فأسلم . الاستيعاب ١٥١٤ وأسد الغابة ٥ : ٢ — ٤ والإصابة ٦ : ٢١٨ والمعمرين ٦٤ وابن سلام ١٠٣ والأغانى ٤ : ١٢٧ والخزانة ١ : ٥١٢ والمؤتلف ١٩١ والمرزبانى ٣٢١ والشعراء ٢٤٧ . والخبر فى ابن سلام ١٠٧ . ويقال « نابغة » « والنابغة » بأل . وأنشد فى اللسان (نبغ) مطابقاً لما فى كتاب سيبويه ٢ : ٢٤ :

ونابغة الجعدى بالرمل بيته عليه صفيح من تراب موضع

فإنْ صَدَقُوا قَالُوا : جَوَادٌ مُجَرَّبٌ ضَلِيعٌ ، ومِنْ خَيْرِ الجِيَادِ ضَلِيعُها

فقال : ما كنتُ أظنُّ المرْهَف منها إلا أسرع[١] .

قالوا : ولم يكن رؤبة وأبوه صاحبَيْ خيل[٢] .

وقال سليمان بن عليّ لخالد بن صَفْوان ، ورآه على حِمار : ما هذا يا أبا صفوان ؟ قال : أصلح اللهُ الأمير ، ألا أُخبرك عن المَطايا ؟ قال : بَلَى . قال : « الإبل للحمْل والزَّمْل[٣] ، والبغال للأسفار والأثقال ، والخيل للطَّلَب والهرب ، والبَراذين للجَمال والوطاءة[٤] ، وأما الحمير فللدَّبيب والمَرْفَق » .

قالوا : وكانت للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بغلة تسمَّى «دُلْدُل[٥]» ، وحمار يُسَمَّى «يَعْفور[٦]» ، وفرس يُسمَّى «السَّكْب[٧]» ، وله ناقتان : «العَضْباء» ، «والقَصْواء[٨]» .

---

(١) المرهف : الخميص البطن المتقارب الضلوع .

(٢) بعده عند ابن سلام : « ولكن كانا صاحبي إبل ونعتها » .

(٣) يقال زملت الرجل على البعير ، إذا جعلته زميلا يردفك أو يعادلك .

(٤) الوطاءة : السهولة والمواتاة . وفى الأصل : « والوطا » .

(٥) أهداها إليه المقوقس مع حمار يقال له عفير . سيرة ابن سيد الناس ٢ : ٣٢٢

(٦) أهداه إليه فروة بن عمرو الجذامى ، مع بغلة يقال لها : « فضة » . ابن سيد الناس .

(٧) أفراس الرسول عدها ابن سيد الناس ٢ : ٣٢٠ — ٣٢١ سبعة أفراس اتفق عليها ، وقيل خمسة عشر . وعدها ابن الكلبى فى نسب الخيل ٨ خمسة وابن الأعرابى فى أسماء خيل العرب ٥١ خمسة أيضاً .

(٨) الحيوان ١ : ١٦٠ . وعد ابن سيد الناس ٢ : ٣٢٢ ناقة ثالثة ، تسمى : « الجدعاء » .

قالوا : وكان عليّ بن أبي طالب ، رضوان الله عليه ، يُكثر ركوب بغلة عبد الله بن وَهْب[1] الشهباء ، التي غَنِمها يوم النَّهْرَوَان . هذا في قول الشيعة ، وأما غيرهم فينكرون أن يكون عليّ ، كرَّم الله وجهَه ، يرى أن يغنمَ شيئاً من أموال أهل الصلاة ، كما لم يغنم من أموال أصحاب الجَمل .

قال البُقْطُرِيّ[2] ، ويُكنى أبا عثمان ، واسمه فَهدان :

١٩٩ و

لقي رجلٌ بكرَ بنَ عبد الله المُزَنيّ[3] ، فقال له : رأيتُك على فرس كريم ، ثم رأيتك على عَيْرٍ لئيم ، ثم رأيتك قد أدْمَنْتَ ركوب هذه البغلة ! قال : البغال أعدل ، وسيرُها أقصد .

عليّ بن المَدِينيّ[4] قال : حدَّثنا يعقوب بن إبراهيم[5] قال :

---

(١) عبد الله بن وهب الراسبي : نسبة إلى راسب بن ميدعان . وكان مع علي في حروبه ، ثم خرج عليه في أربعة آلاف ، وبايعه الخوارج سنة ٣٧ ، وقتل يوم النهروان سنة ٣٨ . انظر الطبري ٦ : ٤٢ والتنبيه والإشراف ٢٥٦ والكامل ٥٢٧ ، ٥٥٩ والاشتقاق ٥١٥ وجمهرة أنساب العرب ٣٨٦ .

(٢) في القاموس : « وكعصفر : رجل » ، فلعله منسوب إلى جده . أو لعله منسوب إلى بقطر بفتح الباء أو ضم الباء والقاف . ولم يصرح الجاحظ باسمه إلا في هذا الموضع . ويأتي أحياناً برسم « اليقطري » بالياء . انظر فهارس الحيوان والبيان .

(٣) انظر ترجمته في البيان ١ : ١٠٠ .

(٤) أبو الحسن علي بن عبد الله بن جعفر بن نجيح السعدي، المعروف بابن المديني. روى عنه البخاري وأبو داود ، وروى أكثر من مائة ألف حديث . ولد بالبصرة سنة ١٦١ وتوفي سنة ٢٣٤ . السمعاني ٥١٦ وتهذيب التهذيب ٧ : ٣٤٩ — ٣٦٧ .

(٥) هو أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن سعد الزهري ، من أهل المدينة . روى عنه أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين ، وعلي بن المديني وغيرهم. توفي سنة ٢٠٨ . تاريخ بغداد ١٤ : ٢٦٨ وتهذيب التهذيب ١١ : ٣٨٠ .

حدَّثني أبي عن أبي إسحاق ، قال : حدثني حَكيم بن حَكيم[1] ، عن مسعود بن الحَكَم[2] ، عن أمه[3] ، قالت : كأني أنظر إلى عليّ بن أبي طالب ، رضوان الله عليه ، على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم الشهباء[4] ، في شِعْب الأنصار » .

ويروى عن عبد الرحمن بن سَعْد ، قال : رأيت عثمان بن عفّان رضي الله عنه ، على بغلة بيضاء ، يَصْفِر لحيته[5] .

ومن حديث الزُّهْريّ وغيره ، عن كَثِير بن العبّاس[6] ، عن أبيه ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يومَ حُنَيْن على بغلته الشَّهْباء » في حديث طويل في المغازي .

وفي هذا الحديث : فخضَّهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : « الآن حَمِيَ الوطيس » . وهذه كلمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يسبقْه

---

(١) حكيم بن حكيم بن عباد بن حنيف الأنصاري الأوسي . روى عن مسعود ابن الحكم . تهذيب التهذيب ٢ : ٤٤٨ . وحكيم بفتح الحاء وكسر الكاف اسمه واسم والده ، وعباد بتشديد الباء ، وحنيف بالتصغير .

(٢) مسعود بن الحكم بن الربيع بن عامر بن خالد الزرقي الأنصاري. روى عن أمه وكانت صحابية ، كما روى عن عمر وعثمان وعلي ، وممن روى عنه حكيم بن حكيم. تهذيب التهذيب ١٠ : ١١٦ .

(٣) يقال اسمها اسماء ، ويقال هي حبيبة بنت شويق الإصابة ١٤٩٠ من قسم النساء.

(٤) في الإصابة في ترجمة أم مسعود : « البيضاء » . وذكر ابن سيد الناس ٢: ٣٢٢ أن بغلته الشهباء كان يقال لها « دلدل » ، أهداها له المقوقس .

(٥) في الأصل : « يصفر لحيته » .

(٦) كثير بن العباس بن عبد المطلب. جمهرة ابن حزم ١٨ ، ٣٨ والمعارف ٥٣ وتهذيب التهذيب ٨ : ٤١٠ والإصابة ٧٤٧٤ وهو بفتح الكاف وكسر الثاء .

إليها أحد ، وكذلك قوله : « مات حَتْفَ أنْفِه » ، وكذلك قوله : « كلّ الصيد فى جَوْف الفَرَا » ، وكذلك قوله : « هُدْنَةٌ على دَخَن » ، وكذلك قوله : « لا يُلْسَع المؤمن من جُحْرٍ مرّتَيْن » . فصارت كلها أمثالاً[1] .

قالوا : وكان ابن أبى عَتِيق يركب البغال ، وكذلك ابن أبى رَبيعة . وكان هِشام بن عبد الملك أكثرَ الناس ركوباً لها .

وعن أبى الأشهب ، عن الحسَن قال : قال قوم وعُثمان رضى الله عنه محصور : « لو بعثتم إلى أمّ المؤمنين رضى الله عنها فركبت ، فلعلّهم أن يكفّوا » . فأرسلوا إلى أمّ حَبيبة بنت أبى سفيان ، واسمها رَمْلة[2] ، فجاءت على بغلة شهباء فى مِحَفَّة . قالوا : مَن هذه ؟ قالوا : أمّ المؤمنين ، أمّ حَبيبة . قالوا : لا ــ والله ــ لا تدخل ، فردُّوها .

وقالوا : وقع بين حَيَّيْن من قُرَيش مُنازَعة ، فخرجت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها على بغلة ، فلقيها ابن أبى عَتيق ، فقال : إلى أين ــ جُعِلْتُ فِداكِ ؟ قالت : أُصلِح بين هذين الحيَّين . قال : واللهِ ما غَسَلنا رُءوسَنا من يوم الجَمَل ، فكيف إذا قيل : يوم البغل ! فضحكتْ وانصرفت .

١٩٩ ظ

هذا ــ حفظك الله ــ حديثٌ مصنوع ، ومن توليد الرّوافِض ، فظنّ الذى ولّد هذا الحديث ، أنه إذا أضافه إلى ابن أبى عَتيق ، وجعله نادرةً

---

(١) انظر البيان ٢ : ١٥ ــ ١٦ والحيوان ١ : ٣٣٥ .

(٢) وقيل اسمها هند ، ورملة أصح . الإصابة ٤٣٢ من قسم النساء . وانظر جمهرة ابن حزم ١١١ ، ١٩١ ونسب قريش ١٢٤ .

ومُلحة ، أنه سيشيع ، ويجرى عند الناس مَجْرَى الخبر عن أمّ حَبيبة وصفيَّة .
ولو عرف الذى اخترع هذا الحديثَ طاعةَ الناس لعائشة ـ رضى الله عنها ـ
لما طمِع فى جَواز هذا عنه .

وقال علىّ بن أبى طالب ـ كرّم الله وجهه ـ : « مُنِيتُ بأربعة : مُنِيت
بأشجع الناس ، يعنى الزُّبَيْر ؛ وأجودِ الناس ، يعنى طَلْحَة ؛ وأنضّ الناس[1] ،
يعنى يَعْلَى بن مُنْيَة[2] ؛ وأطوَعِ الناس فى الناس ، يعنى عائشة » .

ومن بعدِ هذا ، فأىُّ رئيس قبيلٍ من قبائل قُرَيش كانت تَبعث إليه
عائشة ـ رضى الله عنها ـ رَسولاً فلا يُسارع ، أو تأمره فلا يُطيع ، حتى احتاجت
أن تركب بنفسها ؟ وأىّ شىء كان قبل الركوب من المُراسلة والمُراوضة
والمُدافعة والتقديم والتأخير ، حتى اضطرّها الأمر إلى الرُّكوب بنفسها ؟
وإنّ شرًّا يكون بين حَيَّيْن من أحياء قُريش ، تَفاقَم فيه الأمرُ ، حتى
احتاجت عائشة ـ رضى الله عنها ـ إلى الركوب فيه ، لَعظِيمُ الخطَر ، مُستَفيضُ
الذِّكر ؛ فمَن هذا القبيلان ؟ ومن أىّ ضربٍ كان هذا الشرّ ؟ وفى أىّ
شىء كان ؟ وما سببُه ؟ ومَن نطَق من جميع رجالاتِ قُرَيش فعصَوْه وردُّوا
قولَه ، حتى احتاجت عائشةُ فيه إلى الركوب ؟ ولقد ضربوا قواديم الجمل ،
فلما بَرَكَ ومال الهَوْدَجُ صاح الفريقان : « أمَّكم ! أمَّكم » .

(١) أى أجودهم وأسخاهم ، من قولهم : نض إليه من معروفه شىء ينض نضاً ونضيضاً ، أى سال . وقد شارك فى وقعة الجمل مع عائشة بستمائة بعير وستمائة ألف درهم . الطبرى ٥ : ١٦٦ . كما اشترى لها الجمل الذى ركبت عليه بمائتى دينار ، واسم الجمل « عسكر » . الطبرى ٥ : ٢٠٣ .

(٢) منية : اسم أمه وقيل اسم أبيه . الإصابة ٩٣٦ وجمهرة ابن حزم ٢١٣ ، ٢٢٩ . وفى الأصل : « منبه » ، تحريف . واسم أبيه أمية بن أبى عبيدة بن همام .

فأمْرُ عائشة أعظمُ ، وشأنها أجلّ ، عند مَن يعرف أقدار الرجال والنساء ، من أن يُجَوِّز مثلَ هذا الحديث المولَّد ، والشرّ المجهول ، والقبيلتين اللتين لا تُعْرَفان .

والحديث ليس له إسناد ؛ وكيف وابن أبى عَتِيق شاهِدٌ بالمدينة ، ولم يعلم بركوبها ، ولا بهذا الشرّ المتفاقِم بين هذين القبيلين ؟ ثم ركبت وحدها ، ولو ركبت عائشة لما بقىَ مُهاجرىّ ولا أنصارىّ ، ولا أمير ولا قاضٍ إلّا ركب ؟ فما ظَنُّكَ بالسُّوقة والحُشْوة ، وبالدَّهماء والعامّة .

٢٠٠ و

[رواة الأخبار]

وما هو إلّا أن ولّد أبو مِخْنَف[١] حديثاً ، أو الشَّرْقِىّ بن القُطامىّ[٢] ، أو الكلبىّ[٣] ، أو ابن الكلبىّ[٤] ، أو لَقِيط المُحَارِبىّ[٥] ، أو شَوْكَر[٦]

(١) أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدى انظر حواشى البيان ١ : ١١٨ ، ٣٦١ .
(٢) انظر لترجمته حواشى البيان ١ : ٣٦٠ .
(٣) الكلبى هو أبو النضر محمد بن السائب الكلبى ، صاحب التفسير ، الكوفى المتوفى سنة ١٤٦ . انظر الفهرست ١٣٩ — ١٤٠ والسمعانى ٤٨٥ .
(٤) هو أبو المنذر هشام بن محمد ، النسابة المتوفى سنة ٢٠٤ . الفهرست ١٤٠ — ١٤٣ والسمعانى ٤٨٥ — ٤٨٦ ونزهة الألباء ١١٦ .
(٥) هو أبو هلال لقيط بن بكر المحاربى الكوفى . المتوفى سنة ١٩٠ . فهرست ابن النديم ١٣٨ . وقد روى له الجاحظ فى البيان ٢ : ١٦٢ .
(٦) وكذا ورد اسمه مجرداً عن النسبة فى الحيوان ٥ : ٣٠٢ . وترجم له فى لسان الميزان ٣ : ١٥٨ وذكر أنه أخبارى مؤرخ ، شيعى ، كان فى المائة الثانية . وذكره عمر بن شبة فى أهل البصرة وقال: كان يضع الأخبار والأشعار . وفيه يقول خلف الأحمر :

أحاديث ألفها شوكر وأخرى مؤلفة لابن داب =

أو عَطَاء المِلْط[١] ، أو ابن دَأْب[٢] ، أو أبو الحَسَن المدائنىّ[٣] ثم صوَّره فى كِتاب ، وألقاه فى الورَّاقين ، إلّا رواه مَن لا يحصِّل ولا يتثبَّت ولا يتوقّف . وهؤلاء كلّهم يتشيَّعون .

وكان يونُس بن حَبيب يقول : « ياعجبًا للناس ، كيف يكتبون عن حَمّاد وهو يصحِّف ويكذب ويلحَن ويكسِر » !

ومن أراد الأخبار فليأخذْها عن مثل قَتَادة[٤] ، وأبى عمرو بن العَلاء

=وذكر فى لسان الميزان ٤ : ٤٠٩ أنه كان يضع الحديث بالسند كما كان يضعه ابن داب بالمدينة . ففيه نص على أنه رحل إلى السند . وانظر تاريخ بغداد ١١ : ١٥٢ .

(١) كان عطاء الملط شاعراً معاصراً لبشار ، وله معه خبر فى الأغانى ٣ : ٥٩ — ٦٠ . وله خبر آخر مشهور مع قُريب والد الأصمعى فى الأغانى ٥ : ١٠٢ وأشير إليه فى مجالس العلماء للزجاجى ٧٢ — ٧٣ . وفى الأغانى ١٥ : ٤٠ رواية منسوبة إليه . وورد فى الخامس من الأغانى برسم « عطاء الملك » محرفا . وأصل معنى الملط ، بالكسر ، هو الخبيث .

(٢) هو عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب النسابة الأخبارى . وكان صاحب حظوة عند الهادى ، وروى عنه شبابة بن سوار ، ومحمد بن سلام الجمحى . انظر لسان الميزان ٤ : ٤٠٨ والمعارف ٢٣٤ وتاريخ بغداد ١١ : ١٤٨ وروى الخطيب عن خلف الأحمر أنه قال: آفتنا بين المشرق والمغرب : ابن دأب يضع الحديث بالمدينة ، وابن شوكر يضع الحديث بالسند . صوابه « وشوكر » .

(٣) هو أبو الحسن على بن محمد المدائنى صاحب الأخبار والتصانيف الكثيرة ، المتوفى سنة ٢١٥ . الفهرست ١٤٧ — ١٥٢ ولسان الميزان ٤ : ٢٥٣ ونوادر المخطوطات ١ : ٥٨ — ٥٩ .

(٤) قتادة بن دعامة السدوسى ، سبقت ترجمته فى ص ٥٧ .

وابن جُعْدُبة[١] ، ويونُس بن حَبيب ، وأبي عُبَيْدَة ، ومَسْلَمَة بن مُحَارِب[٢] ، وأبي عاصم النَّبيل[٣] ، وأبي عُمَر الضَّرير[٤] ، وخَلَّاد بن يَزيد الأرقط[٥] ، ومحمد بن حَفْص – وهو ابن عائشة الأكبر ، وعُبَيْد الله بن محمد – وهو ابن عائشة الأصغر[٦] ، ويأخذها عن أبي اليَقْظَان سُحَيْم بن قادم[٧] . فإنَّ

---

(١) هو يزيد بن عياض بن يزيد بن جعدبة الليثي المدني ، حجازي انتقل إلى البصرة فسكنها ، وقدم بغداد فحدث بها عن عبد الرحمن الأعرج ، ومحمد بن المنكدر وابن شهاب الزهري وغيرهم . ومات بالبصرة في زمان المهدي . تاريخ بغداد ١٤ : ٣٢٩ – ٣٣٢ ولسان الميزان ٦ : ٧٧٤ والخلاصة ٤٠٨ . ويأتي محرفاً باسم « ابن جعدية » .

(٢) هو مسلمة بن عبد الله بن محارب الفهري البصري النحوي المقرئ ، ترجم له في لسان الميزان ٦ : ٣٤ وقال : « كان صاحب فصاحة » .

(٣) هو أبو عاصم الضحاك بن مخلد الشيباني البصري . كان فقيها ثقة كثير الحديث ، وكان فيه مزاح . ولد سنة ١٢٢ وتوفي سنة ٢١٣ . تهذيب التهذيب وتذكرة الحفاظ ١ : ٣٣٣ وتهذيب الأسماء ٧٣٧ .

(٤) من يقال له أبو عمر الضرير كثير ، منهم حفص بن عمر بن عبد العزيز الدوري المقرئ الضرير الأصغر ، ومنهم حفص بن عمر الضرير الأكبر ، وثلاثة غيرها . انظر تهذيب التهذيب ٢ : ٤٠٨ – ٤١٣ ونكت الهميان ١٤٦ والخلاصة ٧٤ – ٧٥ .

(٥) خلاد بن يزيد الأرقط الباهلي : أحد رواة الأشعار ، والعارفين بأخبار القبائل . وهو صهر يونس بن حبيب البصري ، روى عن سفيان الثوري ، وعنه عمر ابن شبة . وكان يقول فيه : « كان من الجبال الرواسي نبلا » . توفي سنة ٢٢٠ . فهرست ابن النديم ١٥٦ وتهذيب التهذيب ٣ : ١٧٦ .

(٦) انظر حواشي الحيوان ٢ : ١٢ .

(٧) المعروف في اسمه « سحيم بن حفص » . قال ابن النديم : كان عالما بالأخبار والأنساب ، ثقة فيما يرويه ، وتوفي سنة ١٩٠ . الفهرست ١٣٨ .

هؤلاء وأشباههم مأمونون ، وأصحاب تَوَقٍّ وخَوْف من الزوائد ، وصَوْن لِمَا فى أيديهم ، وإشفاق على عَدالتهم .

[الحاجة إلى البغال]

ولما خرج قَطَرِىّ بن الفُجَاءة ، أحبَّ أن يجمع إلى رأيه رأىَ غيره ، فدسَّ إلى الأَحْنَف بن قَيْس رجُلاً ، ليُجرىَ ذكرَه فى مجلسه ، ويحفظ عنه ما يقول . فلما فعل قال الأحنف : « أمَا إنّهم إنْ جَنَبوا بناتِ الصَّهّال[1] ، وركبوا بناتِ النَّهّاق ، وأمسَوْا بأرضٍ وأصبحوا بأرضٍ ، طال أمرهم » .

قالوا : فلا نرى صاحبَ الحرب يستغنى عن البغال ، كما لا نرى صاحب السِّلْم يستغنى عنها ، ونرى صاحب السَّفَر فيها كصاحب الحَضَر .

قال الأصمعىّ عن جَرير بن حازِم عن الزُّبَير بن الخِرِّيت[2] ، عن أبى لَبيد ـ واسمه لِمَازَة بن زَبَّار[3] ـ قال : مرّ بنا زِياد فى سِكَّتنا هذه ، وهو على بغلةٍ قد لوى رَسَنها على عُنقها تحت اللِّجَام ، ومعه رجُل أو رجُلان .

---

(١) انظر ما سبق من التعليق فى ١ : ٤٢ .

(٢) الزبير بن الخريت البصرى ، روى عن السائب بن يزيد ، وأبى لبيد ، وعكرمة ومحمد بن سيرين ، والفرزدق الشاعر . وعنه جرير بن حازم وأخوه الحريش بن الخريت وحمادة بن زيد وجماعة . تهذيب التهذيب ٣ : ٣١٤ . والخريت ، بكسر المعجمة وتشديد الراء المهملة المكسورة ، كما فى التقريب .

(٣) لمازة بن زبار الأزدى الجهضمى البصرى ، روى عن عمر وعلى وأنس وغيرهم . وعنه الزبير هذا ، ويعلى بن حكيم ، ومحمد بن ذكوان وغيرهم . تهذيب التهذيب ٨ : ٤٥٧ ـ ٤٥٨ . و« لمازة » بكسر اللام وتخفيف الميم بالزاى . وزبار ، بفتح الزاى وتثقيل الموحدة وآخره راء ، كما فى التقريب . وفى الأصل : « لماذة بن زياد » تحريف .

هذا وزياد على العراقِ أجمع .

قال : وتهيَّأَ الناسُ لخالد بن عبد الله[1] مَقْدَمَه من الشأم ، وركب ابن هُبَيْرة[2] بغلته ، ووقف له فى المَضِيق . فلما طلع خالد غَمَزَ ابن هُبَيْرَةَ بغلتَه غمزةً فإذا ابنُ هبيرة بينه وبين الذى كان يُسايِره ، فقال : كيف أنت يا أبا الهيثم ؟ وَلِيتَ مِنَّا أمرًا تولَّى الله أحسنه ، ولك منا المكافأة ! فقال له خالد : فَرَرْتَ منّى فِرارَ العبد ! فقال عمر : حين نِمْتَ عن حفظى نومَ الأَمَة ! فانتهى الخبر إلى هشام ، فقال : « قاتلهُ الله » !

٢٠٠ ظ

[حمل البغال للهدايا]

قالوا : والهدَايا النفيسة ، والطُّرَف العجيبة ، والكَرَامات الثمينة ، التى أهدتْها بِلْقِيس بنت ذى شَرْح[3] إلى سليمان بن داود ، هى الهدايا التى أخبر

---

(١) خالد بن عبد الله القسرى : أمير العراقين (الكوفة والبصرة) من قبل هشام بن عبد الملك الأموى . أقام بالكوفة زماناً إلى أن عزله هشام سنة ١٢٠ وولى مكانه يوسف بن عمر ، وأمره أن يحاسبه ، فسجنه يوسف وعذبه ثم قتله بالحيرة فى أيام الوليد بن يزيد سنة ١٢٦ . الطبرى ٩ : ١٧ والمعارف ١٧٤ ووفيات الأعيان ١ : ١٦٩ — ١٧٠ .

(٢) هو عمر بن هبيرة الفزارى ، كان والياً على العراقين ليزيد بن عبد الملك معظم مدة خلافته من سنة ١٠٢ إلى سنة ١٠٥ حين تولى الخلافة بعده هشام ، فعزل عمر واستعمل خالد بن عبد الله القسرى . الطبرى ٨ : ١٦٧ والمعارف ١٥٩ والاشتقاق ٥١٨ .

(٣) فى الأصل : « شرج » ، تصحيف . وذو شرح هو ابن ذى جدن بن أيلى شرح بن الحارث بن قيس بن صيفى بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . وانظر الإكليل للهمدانى ٨ : ١٧ ، ٣٠ . وفى الطبرى ١ : ٢٥٤ أن بلقيس هى بلقمة بنت اليشرح ، ويقول بعضهم : ابنة إيلى شرح ، ويقول بعضهم : ابنة ذى شرح =

الله عن سليمان بن داود ــ عليهما السلام ــ أنه قال : ﴿ بَلْ أَنتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ[1] ﴾ . ولم تكن الملكة تبتهج بتلك الهدايا ــ وهى إلى سليمان ، وسليمان هو الذى أعطاه الله مُلكاً لا ينبغى لأحدٍ من بعده ــ إلاّ وهى هدايا شريفة .

قالوا : فهذه الهدايا الشريفة إنّما كانت على البغال الشُّهب .

[إيثار البغال فى الركوب]

وكان ممن يركبها كثيراً إسماعيلُ بن الأشعث[2] ، وعبد الرحمن ابن محمد بن الأشعث[3] .

قال : وقال حَوْشَب بن يزيد بن رُوَيْم[4] لعبد الرحمن بن محمد

= ابن ذى جدن بن إيلى شرح بن الحارث بن قيس بن صيفى بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . وفى الإكليل ٨ : ٢٤٢ أنها بنت الهدهاد بن شرحبيل . وفى جمهرة أنساب العرب ٤٣٩ بلقيس بنت إيلى أشرح بن ذى جدن بن إيلى أشرح بن الحارث ابن قيس بن صيفى .

(١) سورة النمل ٣٦ .

(٢) فى بعض نسخ البيان ٣ : ٢٥٧ : « إسماعيل بن محمد بن الأشعث » .

(٣) هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس بن معديكرب الكندى ، القائد الأموى الخارج على عبد الملك والحجاج . جمهرة أنساب العرب ٤٢٥ وكان لابن الأشعث هذا مع عبد الملك أربع وقعات ما بين سنتى ٨٢ ، ٨٣ . المعارف ١٥٦ والطبرى ٧ : ٣ — ٤٢ . وكانت وفاته سنة ٨٥ .

(٤) فى جمهرة ابن حزم ٣٢٥ : « حوشب بن زيد بن الحارث بن رويم » . وذكر أنه ولى شرطة الحجاج . وفى الأغانى ٢٠ : ١٨ « حوشب بن يزيد بن الحارث بن الحويرث ابن رويم الشيبانى »

ابن الأشعث : دَعْني أهيِّج عليك عمَّك أبا الفضل إسماعيل بن الأشعث .
قال : لا تعرِّضْني له ، فإنه ضعيف ، فأشفِقْ[١] عليه . فقال : يا أبا الفضل ،
إنّ ابن أخيك زعم أنّ بغلتك جَلَّالة . قال : لكنّ بغلته لو أفلتَت ما تركتْ
بيتَ زانية ولا بيتَ خمّار ، إلّا وقفتْ عليه ! قال عبد الرحمن : ما كان أغنانا
عمَّا أظهرتَ لنا من ضَعْف شيخنا !

ولمّا وفدتْ عائشةُ بنت طَلْحة[٢] على عبدِ الملك بن مروان ، وأرادت
الحجّ ، حَمَلها وأحشامَها[٣] على ستّين بغلاً من بغال الملوك ؛ فقال عُرْوَة
ابن الزُّبَير :

يا عَيْشُ يا ذاتَ البغالِ السِّتّينْ   أَكُلَّ عامٍ هكذا تَحُجّينْ[٤]

---

(١) لم يظهر من هذه الكلمة فى الأصل إلا « فا » .

(٢) عائشة بنت طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم ابن مرة . وطلحة هذا من المهاجرين الأولين ، ومن العشرة المسمين للجنة . المعارف ١٠٠ — ١٠٣ ونوادر المخطوطات ١ : ٧٠ — ٧٣ والأغانى ١٠ : ٥١ — ٥٧ والإصابة ٤٣٥٩ والرياض النضرة ٢ : ٢٦٢ .

(٣) الحشم : الأتباع والمماليك والخدم . وفى القاموس : « وحشمة الرجل وحشمه ، محركتين ، وأحشامه : خاصته الذين يغضبون له من أهل وعبيد أو جيرة » .

(٤) نوادر المخطوطات والأغانى ١٠ : ٥٦ . وبعده فى الأغانى : « فأرسلت إليه : نعم يا عُرَيّة ، فتقدم إن شئت . فكف عنها ولم تتزوج حتى ماتت » . وكانت قد تزوجت من قبلُ عبد الرحمن بن أبى بكر ، ثم مصعب بن الزبير ، ثم عمر ابن عبيد الله بن معمر .

وكان مروان أبو السِّمط[1] يركب بغلةً له بالبصرة ، لا يكاد يُفارقها .
فقال الجَمَّازُ[2] وهو يهجوه :

٢٠١ و اجْتَمَعَ النَّاسُ وصَاحُوا : الحَرِيقْ ببَابِ عُثْمَانَ وسُوقِ الرَّقِيقْ
فَجَاءَ مَرْوَانُ عَلَى بَغْلَةٍ فَأَنْشَدَ الشِّعْرَ فَأَطْفَأَ الحَرِيقْ

يَرمِي شعرَه بالبرْد . وكان حَسَدَه حين سمع قائلاً يقول : لم يُصِبْ شاعرٌ قطُّ ما أصاب أبو السِّمط ، ولا أصاب حجَّامٌ ما أصاب أبو حرملة .

وقد هجاه أيضاً فقال :

يا أَبَا السِّمْطِ ، حَزِيرَا نُ وتَمُّوزُ وآبُ
كُنْ لَنَا منها مُجِيرًا لَكَ فى ذَاكَ ثَوَابُ
بِشُعَيْرٍ يُذْهِبُ الحَرَّ ويَهْنِينَا الشَّرَابُ[3]

---

(١) هو أبو السمط مروان بن أبي الجنوب بن مروان بن أبي حفصة ، وكان شاعراً ساقط الشعر بارده ، عاصر الواثق والمتوكل ، وله فى المتوكل وأحمد بن أبي دواد قصائد عدة ، كما كانت له مساجلات مع على بن الجهم . تاريخ بغداد ١٣ : ١٥٣ ، وطبقات ابن المعتز ٣٩٢ والأغانى ١١ : ٢ . أما مروان بن أبي حفصة الأكبر جده فله ترجمة فى الشعر والشعراء ٧٣٩ ومعجم المرزبانى ٣٩٦ وابن خلكان ٢ : ٨٩ ، وطبقات ابن المعتز ٤٢ وتاريخ بغداد ١٣ : ١٤٢ . ومما جعل المؤرخين يخلطون بينهما أن كلا منهما يكنى « أبا السمط » . والأصح أن الأكبر منهما يكنى « أبا الهيذام » . لكن جرى الجاحظ فى البيان ١ : ٦٣ على تكنية الأصغر منهما بأبى السمط .

(٢) الجماز لقب له ، ومعناه الوثاب . وهو محمد بن عمرو بن عطاء بن ريسان . شاعر أديب بصرى ، وكان ماجناً خبيث اللسان ، معاصراً لأبى نواس ، وكان أكبر منه سناً . دخل بغداد فى أيام الرشيد والمتوكل ، وأعجب به المتوكل يوماً ، فأمر له بعشرة آلاف درهم ، فأخذها وانحدر فمات فرحاً بها . تاريخ بغداد ٣ : ١٢٥ ، وابن خلكان فى ترجمة يوسف بن عبد البر .

(٣) الشعير هنا : مصغر الشعر .

وقال ابن سِيرينَ لرجلٍ : ما فعلتْ بغلتُك ؟ قال : بِعْتُها . قال : ولِمَ ؟ قال : لمَؤُونتها . قال : أفتراها خلَّفت رزقَها عندك ؟

وذكر يوسُف بن خالد السَّمْتِيُّ[١] ، عن مُجالد[٢] ، فيما أحسِبُ ، قال : بال بغلى فتنحَّيْتُ . فقال الشَّعْبيّ : ما عليك لو أصابك .

قال : وكانت لابن سِيرين بغلتان : بغلة لخاصّة نفسه ، وبغلة للعاريَّة[٣] .

وكتب سليمان بن هِشام إلى أبيه : إنَّ بغلتى قد عَجَزت ، فإن رأيتَ أن تأمُرَ لى بدابّة فافعل . فكتب إليه : « قد فهمتُ كتابك ، وما ذكرتَ مِن ضَعف بغلتك ، وما ذاك إلاّ لِقِلة تعهُّدك ، فتفقَّدْها ، وأَحْسِنِ القيام عليها . ويرى أمير المؤمنين فى ذلك رأيَه » .

---

(١) هو أبو خالد يوسف بن خالد بن عمير السمتى الليثى . والسمتى : نسبة إلى السمت ، أى الهيئة ، كما فى الأنساب وتهذيب التهذيب . وكان له بصر بالرأى والفتوى ، وهو أول من جلب رأى أبى حنيفة إلى البصرة ، وأول من وضع كتاباً فى الشروط ، وهو علم يتناول أدب القضاء والشروط والمواثيق . وكان أحد رجال الجهمية . توفى سنة ١٩٠ . تهذيب التهذيب والسمعانى ٣٠٦ وكشف الظنون (علم الشروط والسجلات) .

(٢) هو أبو عمرو مجالد بن سعيد بن عمير بن بسطام الكوفى ، من رواة الشعبى ، وروى عنه جرير بن حازم ، وشعبة ، والسفيانان ، وابن المبارك وغيرهم . تهذيب التهذيب .

(٣) العارية والإعارة : الاستعارة ، منسوبة إلى العارة ، يقال أعرته الشىء أعيره إعارة وعارة ، كما يقال أطعته إطاعة وطاعة . وقال الجوهرى : كأنها منسوبة إلى العار ، لأن طلبها عار وعيب .

[نوادر وأخبار فى البغال]

ومن النوادر ، قال : ادَّعى رجل على الهَيْثَم بن مُطَهَّر الفَأفاء[1] أنه سرَق بغلا ؛ فقال له الوالى : ما يقولُ ؟ قال : ما أعرفُ مما يقول شيئاً ! قال : أصلحك اللهُ ، إنه سَكْران فاستنكِهْهُ . قال : لأىّ شىء يَستنكهنى ؟ آ كَلْتُ البغل ؟

وقال آخر يهجو رجلاً :

يَا حابِسَ الرَّوْثِ فى أعْفَاجِ بَغْلَتِهِ ... شُحًّا عَلَى الحَبِّ مِنْ لَقْطِ العَصافِيرِ

وهذا شبيه بقول الشاعر[2] :

رَأَيْتُ الخُبْزَ عَزَّ لَدَيْكَ حَتَّى ... حَسِبْتُ الخُبْزَ فِى جَوِّ السَّحَابِ

وما رَوَّحْتَنَا لِتَذُبَّ عَنَّا ... ولٰكِنْ خِفْتَ مَرْزِئَةَ الذُّبَابِ

٢٠١ ظ

وهذا ليس من الهجاء الموجِع ، وإنما الهجاء ما يكون فى الناس مُثْلَة .

قالوا لحَمدانَ أبى سَهْل اللِّحْيَانىّ : علمتَ أن بِرْذَون صاحبِ الحبْس

---

(١) الهيثم بن مطهر ، ذكره الجاحظ فى البيان ٢ : ٢٦٩ وابن قتيبة فى عيون الأخبار ١ : ١٦٠ . وكان فى أيام المهدى ، وهو من أصحاب النوادر ، وكان من العُرجان

(٢) البيتان بدون نسبة فى الحيوان ٣ : ٣١٧ والعقد ٦ : ١٩١ . وهما لأبى الشمقمق كما فى عيون الأخبار ٢ : ٣٦ ، ٣ : ٣٤٧ . وجاء فى البخلاء ٦٤ : « وكان أبو الشمقمق يعيب فى طعام جعفر بن أبى زهير ، وكان له ضيفاً ، وهو مع ذلك يقول » كما أعادها فى ١١٤ بدون نسبة . وقد نسب البيت الثانى مع سابق له غير المروى هنا إلى أبى الشيص فى محاضرات الراغب ١ : ٣١٨ ، وإلى أبى نواس فى المحاسن والأضداد ٥٠ والمحاسن والمساوى ٢ : ٢٠٣ .

نَفَقَ ؟ قال : وَا لَهفَاهُ ! كنتُ أرجو أن يكسدَ فيخسَرَ ، فإذا هو قد باع وربح . فظنَّ أنّ قوله : قد نَفَقَ ، من نَفاق السِّلْعَة .

ومثل هـذا وليس من ذكر البغال فى شىء ، ما سمع رجلٌ رجلا يُنشد قوله :

وكانَ أخِلاَّئِى يقُولُونَ مَرْحَبًا فَلَمَّا رَأوْنِى مُعْدِمًا مَاتَ مَرْحَبُ

فقال : مَرْحَبٌ[1] لم يمُتْ ، قتله على بن أبى طالب عليه السلام !

ونظر أبو الحارث جُمَيْن[2] إلى أتانِ وحْش يُنْزَى عليها حِمارٌ أهلىٌّ ، فأنشد :

لَوْ بِأبَانَيْنِ جَاءَ يَخْطُبُهَا رُمِّل ما أنْفُ خَاطِبٍ بِدَمِ[3]

(١) هو مرحب اليهودى ، قتله على بن أبى طالب فى غزوة خيبر ، وكان خرج إليه محمد بن مسلمة فضربه فقطع رجليه وسقط ، ثم مر به على فضرب عنقه . إمتاع الأسماع ٣١٥ . وفى السيرة ٧٦١ أن الذى قتله هو محمد بن مسلمة .

(٢) أبو الحارث جمين ، أو جميز ، أحد أصحاب الفكاهة من معاصرى الجاحظ ودعبل بن على ، وسيابة . انظر بعض أخباره فى الأغانى ١ : ٣٧ و ١١ : ٦ و ١٧ : ٤٤ وجمع الجواهر للحصرى ٦٣ ، ٦٤ . وذهب صاحب القاموس إلى أن لفظ « جمين » خطأ ، والصواب « جميز » ، قال فى مادة (جمن) : « ضبطه المحدثون بالنون ، والصواب بالزاى المعجمة . أنشد أبو بكر بن مقسم :

إن أبا الحارث جميزا قد أوتى الحكمة والميزا » .

(٣) البيت لمهلهل فى اللسان (أبن) ومعجم مااستعجم ومعجم البلدان (أبانان) حيث وردت قصة البيت . ورمل بالدم : لطخ به وفى الأصل : « زمل » تحريف ، صوابه فى اللسان . ويروى : « ضرج » كما فى معجم البلدان ومعجم ما استعجم . و « ما » بعده زائدة . أراد : ضرج أنف خاطب .

ونظر إلى بِرْذَوْنٍ يُسْتَقَى عليه الماء ، فأنشد :

وَمَا المَرْءُ إلاَّ حَيْثُ يَجْعَلُ نَفْسَهُ   فَفِي صَالِحِ الأعْمَالِ نفسَكَ فَاجْعَلِ[١]

هذا لو هَمْلَجَ لمْ يُصِبْه ما أصابه[٢] .

قالوا : وكان لأبي الحارث بغلٌ قَطُوف[٣] ، فلما أعياه استقى عليه الماء ؛ فرآه يوماً في الطريق ، وعليه مَزادة ثقيلة ، وهو يمشي تحتها مشيًا وطيئًا ؛ فقال : لو مشى تحت الخفيف كما يمشي تحت الثقيل ، وكان الإنسان أحبَّ إليه من الرَّاوِيَةَ[٤] ، ربح هو الكرامةَ ، وربحت أنا الوَطاءَةَ[٥] !

قال : ونظر أعرابيٌّ إلى بغلِ سَقَّاء ، وقد تفاجَّ ليبول ، فاستحثَّه بالمِقْرَعة ، وقطَعَ عليه البول . فقال الأعرابيّ : إنّها إحدى الغوائل ، قطَعَ اللهُ منك الوتين[٦] !

قال إبراهيم بن داحة[٧] : كان في طريق المَوْصِلِ سِكَّةُ بَرِيد[٨] ، وبقرب السكّة مسجد ومُستراحٌ للمُسافر ، وفي تلك السكّة بغل لا يُرام

---

(١) البيت لمنقر بن فروة المنقرى ، كما فى البيان ٣ : ٢٢٨ . وتمثل به أبو الحارث كما فى البيان ٢ : ١٠٣ و ٣ : ٢٢٨ . وفى الأصل : « فاجعلا » ، تحريف .

(٢) هملج : سار سيرا حسنا فى سرعة وبخترة .

(٣) القطوف : السيء السير البطيء .

(٤) الراوية : المزادة فيها الماء .

(٥) الوطاءة : اللين والسهولة . وفى الأصل : « الوطا » .

(٦) الوتين : عرق فى القلب .

(٧) ذكره الجاحظ فى البيان ١ : ٨٤ فى جماعة من مشايخ الشيع .

(٨) فى الأصل : « مريد » .

ولا يمانع ، وكان إذا انفلتَ من قَيده وسِلْسِلته ، وقد عاين بِرْذَوْنًا أو بغلاً أو فرسًا ، اغتصبه نفسَه ، واقتسره اقتسارا ، فلا ينزِع عنه حتى يَـكُومَه ، وربما قتله ، لِعِظَم جُرْدانه ، وإن كان عليه راكبُه صَرَعَه ، وربما قَتَله ، ٢٠٢ و
حتى جاء شيخٌ أعرابىّ على فرس له أعرابىّ أعجَفَ بادى الحراقيف[1] ، حتى نزل عن فرسه على دُكّان ذلك المسجد ، وعلّق المِخْلاة فى رأسه ، وحلّ حزامَه ، وترك عليه سَرْجَه ، وأخذ مِخْلاَتَه ، وجاء البغـل قد أدلَى ، يُريد أن يركب فرسَ الأعرابىّ ، فجمع رجليْه ، فواتَرَ على جَبهة البغل ، وعلى حِجَاج عينيه ، فرمَحَه خمسَ رمَحاتٍ أو ستًّا مُتواليات ، كلّها يقع حافرَا رجليْهِ معًا ، فنكصَ البغل شيئًا يسيرًا[2] ، ثم عاوَده ، فنثر على وجهه وحِجاج عينيه مثلَ ذلك العدد ، فى أسرعَ من اللَّحظ ، وفرسُ الأعرابىّ فى ذلك كلِّه واقفٌ لا يتحلحَـل ، والأعرابىّ قد ضحك حتى استلقى ، فولّى البغل يريد السكّة ، فشدّ عليه فرسُ الأعرابىّ من بين يديه ، فلحقه الفرس فعضَّضه ، وكامه الفرسُ ، ورجع الفرسُ إلى موضعه ، ودخل البغل السكَّة ، فـكبَّروا عليه ، ونثروا عليه الرّوث اليابس ، وشَمِتَ به جميع الشّامتة ، وافترّوا عليه[3] ، فترك البغلُ ذلك الخُلُق . وقال الأعرابىّ وكأنه يُخاطب البغل :

ظَنَنْتَ فُرَيْسَ الشَّيخِ يا بَغْلُ نُهْزَةً
فَجِئْتَ مُدِلاًّ كالهِزَبْرِ تُطَاوِلُهْ

---

(١) الحرقفة : عظم رأس الورك ، وجمعها حراقف . وزيادة الياء فى مثل هذا جائز فى مذهب الكوفيين .

(٢) نكص : رجع .

(٣) افتر افترارآ : ضحك وأبدى أسنانه .

فَوَلَّيْتَ مَغلولًا وطَابَقْتَ مُذْعِنًا
كما طَابَقَتْ لِلبغلِ يومًا حَلَائِلُه[١]

قال : وقدَّموا إلى سُليمان بن عبد المَلِك جَدْياً سمينًا ، فقال لأبي السَّرايَا[٢] — وكان من مَجانين الأعراب — كُلْ منْ شَحْمِ كُلْيَته ، فإنه يَزيد فى الدِّماغ . قال : لو كان الأكل من كُلَى الجدى يزيد فى الدِّماغ ، كان رأسُ الأمير أعظمَ من رأس البغل !

وإنما قال « الأمير » ، لأن سليمان كان يومئذٍ ولىَّ عهْد .

وقد غَلِط مَن زعم أنّهم كانوا وضعوا قُدّام سليمان جَدْيا ، وإنما كان يأكل ملوكُهم الُحملان ، لأنّها هناك أطيب ويسمّونها : « العَمَارِيس » .

٢٠٢ ظ

ولمّا قدِم عبد الملك بالكوفة ، وضعوا بين يديه جديًا ، قال : فهلاّ جعلتموه عُمْرُوسًا ؟ قالوا : يا أمير المؤمنين ، تلك عماريس الشام ؛ فأمّا العِراقُ[٣] فجِداؤها أطيب وأكرَم[٤] .

وتفاخر ناس بكِبَر الأيور ، وشيخٌ جالسٌ لا يخُوض معهم ؛ فلما أكثروا قال الشيخ : لو كان كِبر الأيورِ مَجدًا كان البغل من بنى هاشم !

---

(١) البعل : الزوج وودرت فى ط : « للبغل » ، تحريف . والحلائل : جمع حليلة ، وهى الزوجة . طابقت له : انقادت له ووافقته وأذعنت .

(٢) فى الأصل : « لأبى السربال » ، صوابه من البيان ٢ : ٢٣٨ حيث الخبر .

(٣) قرأها ناشر ط سهوا « الشام » ، وقال : « لعل الصواب العراق » مع وضوح كلمة « العراق » فى الأصل .

(٤) بدله فى الحيوان ٥ : ٤٦٢ : « فأين أنتم عن العماريس ؟ فقيل له : عماريس الشام أطيب » .

وشهد مُزَبِّد المَدِينى[1] عند قاضى المدينة بشهادة ؛ وكان ذلك القاضى مُفْرِطَ الحِدَّة ، شديدَ البَطْش ، سريعَ الطِّيَرة ، فقال له القاضى : أعَلَىَّ تجترئُ وعندى تشهد ؟ ! جُرَّا برجليه وألقِيَاه تحت البغلة ! فلما أمعنَا به نحوَ البغلة ، التفتَ إلى القاضى فقال : أصلحك الله ، كيف خُلُقُها ؟ فضحك وخَلَّى سبيلَه .

وكان نُمَيْلة بن عُكَّاشة النُّمَيرى[2] مُتَكايِسًا ؛ فدخل دار بِلال ابن أبى بُرْدة ، فرأى ثورًا مجلَّلًا ،فقال : سبحان الله ! ما أفرهَها مِن بغلة لولا[3] أنّ حوافرَها مشقوقة !

قالوا : ورأى الطائفُ بالليل شخصًا عظيما قد انخنس[4] عنه ، فشدّ نحوه ، فإذا حَمْدُوَيْةُ المخنَّث قد جلس كأنه يخْرأ ، ولم يكن به خِراء ، وكان قد جلس على رَوْث ؛ فقال له : أنت أىَّ شىء تصنعُ ها هنا هذه الساعةَ ؟ قال : خرجتُ أخرأ . فنظروا فإذا تحته رَوْثة ، قالوا : مالكَ ، صرتَ بغلًا ؟ قال : هذا زيادة عليكم ، كل إنسان يخرأ ما يشاء !

قال أبو الحسن[5] : نظر جُحَا[6] إلى رجل بين يديه يسير على بغلة ،

---

(١) مزبد المدينى ، من مشهورى أصحاب النوادر والفكاهة . ويقع التحريف فى اسمه كثيرا فيقال : « مزيد » . وانظر تحقيق ضبط اسمه والإشارة إلى ترجمته فى حواشى البيان ٢ : ١٠٢ .

(٢) وردت فى ط « النهدى » ، خلافا لما فى الأصل .

(٣) فى الأصل : « لو » والوجه ما أثبت .

(٤) انخنس : رجع وتأخر .

(٥) أبو الحسن على بن محمد المدائنى المتوفى سنة ٢١٥ . ترجمته فى البيان ٢ : ١٨٠

(٦) هذا دليل على قدم هذا الشخص . وقد أجرى له ابن النديم المتوفى سنة =

فقال للرجل : الطريقَ يا حِمْصِىّ ! فقال الرجل : ما يُدْرِيك أنى حمصىّ ؟ قال : رأيتُ حِرَ بغلتك ، فإذا هو يُشبه الحاء ، ورأيت فَقْحَتَها فرأيتها تُشبه الميم ، ورأيتُ ذَنَبها فإذا هو يشبه الصاد ، فقلتُ : إنَّك حمصىّ !

قالوا : وابتاع عِبَادىٌّ بغلًا ، فمرّ بالحىّ ، فقالوا : بارك الله لك ! قال : لاتقولوا هكذا . فكيف نقول ؟ قال : قولوا : لا بارك الله لك فيه ! قالوا : سبحان الله ! أيقول هذا أحدٌ لأحدٍ له فيه رأى ؟ قال : قولوا كما أقول لكم ! قالوا : لا بارك الله لك فيه ! قال : وقولوا : وأعَضَّك بِبَظْر أمّك[1] ! قالوا : نعم ، قال : إنْ أنا أعرتُكُموهُ أبداً ! ٢٠٣ و

وهذا يُشبه حديث سِنْدِيَّةَ الطحَّانة ، وكانت تطحن بالنهار ، وتؤدّى الغلّة وتخدم أهلَها بالليل ، فانكسفت الشمس يوماً ، فقالت لها مَوْلاتها : اذهبى يا شَهدة[2] ، أنتِ حُرّة لوجه الله ! قالت : أليس قد صرتُ حُرّة ! ثم عدَتْ

= ٣٨٥ ذكرا فى الفهرست ص ٤٣٥ إذ ذكر كتاب « نوادر جحا » بين أسماء الكتب التى ألفت فى نوادر المغفلين . وفى القاموس : « وجحاً كهدى : لقب أبى الغصين دجين بن ثابت ، ووهم الجوهرى » . قال الشارح : « أى فى قوله إن جحا اسمه » . ونقل عن كتاب المنهج المطهر القلب للشعرانى : « عبد الله جحا تابعى كما رأيته بخط الجلال السيوطى . قال : وكانت أمه خادمة لأم أنس بن مالك ، فلا ينبغى لأحد أن يسخر به إذا سمع ما يضاف إليه من الحكايات المضحكة » . وفى اللسان : « وجحا اسم رجل ، قال الأخفش : لا ينصرف لأنه مثل عمر ، قال الأزهرى : إذا سميت رجلا بجحا فألحقه بباب زفر » .

وانظر القاموس (دجن ، غصن) .

(١) أعضه : قال له اعضض به . وقد وقع ناشر ط هنا فى تحريف وتخريج نبهت عليه فى مجلة معهد المخطوطات .

(٢) كذا . وسبق أن اسمها « سندية » .

من بين يديها[1] ، فقامت على باب الدار رافعةً صوتها تقول : مَن قال لى زانية فهى زانية ، من قال لى لِصّة فهى لصة ، من قال لى قوّادة فهى قوادة . هاتى الآنَ رَحًى لك[2] !

وأخبرنى أبو الزُّبير[3] كاتب محمد بن حسّان[4] ــ ، قال : وقف الهيثم بن مُطَهّر الفأفاء[5] على باب الخيزُران[6] ينتظر رجلاً يخرج من عندها ، فبعث إليه عمر الكَلْوَذانى[7] : قد نُهينا أن نجعل ظهور دوابّنا

(١) فى ط : « عادت من بين يديها » ، خلافاً لما فى الأصل .

(٢) فى الأصل : « هات الآن رحالك » . وإنما تقول لمولاتها : قد أصبحت الآن فى حاجة إلى رحى تطحنين بها بعد أن صرتُ أنا حرة .

(٣) فى الأصل : « أبو الزبرقان » . وانظر البيان ١ : ٨٨ .

(٤) انظر البيان ١ : ٨٨ . (٥) انظر ما سبق فى ص ٢٣٤

(٦) هى الخيزران ابنة عطاء ، مولدة من جرش باليمن ، وكانت أم ولد للمهدى ، وهى أم موسى الهادى وهارون الرشيد . وكان لها شأن فى الدولة العباسية . توفيت سنة ١٧٤ فى خلافة الرشيد . انظر التنبيه والإشراف ٢٩٧ والجهشيارى ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٣٦ ، ١٥٧ ، ١٧٨ ، ٢٢١ والطبرى فى حوادث سنة ١٧٠ ، ١٧٤ والبيان ٢ : ٢٦٩ .

(٧) ذكر الطبرى فى حوادث سنة ١٦٧ أن المهدى جد فى طلب الزنادقة والبحث عنهم فى الآفاق وقتلهم ، وولى أمرهم عمر الكلواذى . وفى الجهشيارى ١٥٦ : « وجدّ المهدى فى طلب الزنادقة ، وقلد عمر الكلواذانى طلبهم فظفر بجماعة منهم ، وظفر فيهم بيزيد بن الفيض كاتب المنصور ، فأقر بالزندقة فحبس وهرب من الحبس » . والكلواذى والكلواذانى : نسبة إلى كلواذى ، من قرى بغداد على خمس فراسخ منها . وقد وردت هنا « الكلوذانى » ويبدو أنها نسبة ثالثة . انظر السمعانى ٤٨٦ . ويقال فى النسبة إليها أيضاً « كلوذى » كما فى معجم البلدان ، نسبة رابعة . وفى كلواذى يقول أبو نواس :

أحين ودعنا يحيى لرحلته وخلف الفرك واستعلى لكلواذى

مجالسَ[١] ، فانزل عن ظهر دابّتك ؛ فالأرض أحملُ لِثِقْلِك . فقال للرسول : إنى أنتظر رجلا قد حانَ خروجُه ، فبعث إليه : أن انزلْ عن دابتك ، فإذا خرج صاحبُك فاركبْ والحق به . فقال للرسول : أَعْلِمْهُ أنّى أعرج ، وأنا مع هذا رجُل مُثقَل باللحم ، ولا آمَن أن يسبقَنى الرجل سبقاً بَعيداً ، فلا ألحقَه . فردّ الرسول ، فقال : يقول لك : إنْ أنت نزلتَ ، وإلّا أنزلناك صاغراً . فقال الهيثم : قُلْ له : إن كنتَ إنّما تنظر للبغل ، فهو حبيسٌ[٢] فى سبيل الله ؛ إنْ أنزلتنى عنه ، إنْ أقضمتُه حبّةَ شعيرٍ شهراً ، فسَلْه الآن : أيُّما أحبُّ إليه : ركوبى له ساعةً ، أو حِرْمان الشعير شهراً ! فلما جاءته الرسالة قال : ويْلَكم ! هذا شيطان ! دَعوه فى لعنة الله .

قال : ونظر إليه جعفر والفضل ابنا يحيى[٣] ، وهو واقف فى ظلّ قصر من قصور الشّمّاسيّة[٤] ، فنظر إلى شيخ عجيب الخِلْقة ، وإذا تحته بغلٌ أعجف ، يكاد يسقط هُزالًا وضَعفا ؛ فقالا له : ياشيخ ، لَولا تعالجُ بغلَك هذا حتّى يَعودَ سمينًا فارهًا فى أيّامٍ يسيرة ، بأيسر مئُونة ؟ قال : بأىِّ شىء أُعالجه ؟ قال : ٢٠٣ ظ

---

(١) إشارة إلى حديث : « لا تجعلوا ظهور دوابكم مجالس » .

(٢) فى بعض نسخ البيان ٢ : ٢٦٩ « حبس » حيث أورد الخبر مختصراً هناك .

(٣) هو يحيى بن خالد البرمكى ، وزير هارون الرشيد ، وهو الذى نشأ هارون ورباه . وكان يقول له : يا أبى ، إلى أن نكب البرامكة فغضب عليه وحبسه فمات فى الحبس سنة ١٩٠ . وكان له من الأبناء : جعفر ، والفضل ، ومحمد ، وموسى . وفيهم يقول القائل :

أولاد يحيى أربع كأربع الطبائع

انظر ابن خلكان ٢ : ٢٤٢ — ٢٤٦ .

(٤) الشماسية : موضع مجاور لدار الروم التى فى أعلى مدينة بغداد .

تأخذ عشرة أمناء مِسْك وعَنْبَر[١]، وتعجنها بعشرة أمْناء من بانِ الغاليَة، وتَطْليه به طَلْيةً واحدة. فتجافى عن سرجه فولّى[٢] وجوهَهما ظهرَه، ثم ضرط ضرطةً صُلْبة؛ قالا: ماهذا؟ قال: هذا لكما على الصِّفة، ولو قد أنْجَعَ الدَّوَاء خَرِينا عليكم!

وحدَّثونا عن هِشام بن حسّان[٣]، عن محمّد بن سِيرين، قال: كان رجلٌ عيّاب، فأبصر بَغْلةً تحت شُرَيح[٤]، فقال: أبا أميَّة، إنَّ بغلتك لَفارهة! قال: إنها إذا رَبَضَتْ لم تَقُمْ حتى تُبْعَث. قال: لا خير فيها إذَنْ!

قال أبو الحسن: كان هشامُ بن عبد الملك يوماً على باب يزيد بن عبد الملك ينظر إلى بغالٍ تُعْرَض، فنظر إلى بغلٍ منها لم يَرَ الناسُ مثلَه فى تمام خَلْق، وطَهارة خُلُق، ولِين سيرة، وحُسْن صورة، فقال: ما يصنع أميرُ المؤمنين بهذه الدوابِّ كلِّها؟ لو أن رجلا اجتزأ بهذا البغل وحده، لكان مكتفياً.

قال: فلمّا وَلِيَ هشام، اتَّخذ البراذين البُخَاريّة، والبغال الفُرْهَة[٥]؛

---

(١) الأمناء: جمع مَناً، وهو ميزان يوزن به، وقدره رطلان، كما فى المصباح.

(٢) فى الأصل: «مولى».

(٣) توفى سنة ١٤٦. وانظر ترجمته ومراجعها فى حواشى البيان ١: ٢٩١.

(٤) هو أبو أمية شريح بن الحارث بن قيس الكندى الكوفى القاضى. استقضاه عمر على الكوفة، ثم عثمان، وأقره على، وكان يقول له: أنت أقضى العرب! وولاه زياد قضاء البصرة. توفى سنة ٧٢. المعارف ١٩١ والإصابة ٣٨٧٥ وتهذيب التهذيب وصفة الصفوة ٣: ٢٠ وابن خلكان.

(٥) الفاره: النشيط الحاد القوى. ويجمع على فواره. ويجمع نادراً على فره وفره، بضمتين وبضمة واحدة، كما يجمع على فرهة مثل صاحب وصحبة، وسيبويه يرى الأخير اسم جمع وليس بجمع.

فأذْكره رجلٌ ذلك الكلام ، فقال : وأنا على الرأى الأول ، ولكن تأتينا أشياء نحسُد الناس عليها .

[ما قيل من الشعر فى البغال]

قال : وكان عند محمد بن سليمان(١) رجل مُغَفَّل ؛ فأنشد رجلٌ رجزاً قيل فى عُمَر بن هُبَيْرة :

جاءَتْ بِهِ مُعْتَجِراً بِبُرْدِهِ سَفْوَاءُ تَرْدِى بِنَسِيجِ وَحْدِهِ(٢)
تَقْدَحُ قَيْسٌ كُلُّها بِزَنْدِهِ

فقال الشيخ : بأبى هو وأمّى ـ صلى الله عليه وسلم ! لأنّه ظنَّ حين سمع بذكر البُرْد والبغلة ، أنه النبىّ صلى الله عليه وسلم .

وإنما هذا كقول أبى دَهْبَل(٣) :

---

(١) محمد بن سليمان بن على بن عبد الله بن عباس العباسى ، والى البصرة ثم الكوفة فى عهد المنصور . ثم ولاه المهدى ثم عزله ، ثم أعاده الهادى وأقره الرشيد . ثم نقم عليه واستصفى أمواله . وتوفى سنة ١٧٣ . لسان الميزان ٥ : ١٨٨ وتاريخ بغداد ١٧٩٥ وجمهرة ابن حزم ٢٢ ، ١٤٦ ، ٢١٦ ، ٣١٦ .

(٢) الرجز لدكين بن رجاء الفقيمى ، كما فى اللسان (وحد ، عجر ، سفا) .

(٣) اسمه وهب بن زمعة الجمحى ، من بنى جمح ، وأكثر أشعاره فى عبد الله ابن عبد الرحمن الأزرق والى اليمن ، وفيه يقول القصيدة التى منها البيت التالى . وهو من شعراء الدولة الأموية ، وكان له غزل فى عاتكة بنت معاوية بن أبى سفيان ، وفيها يقول :

ثم خاصرتها إلى القبة الخضـ ـراء تمشى فى مرمر مسنون

ودهبل ، بفتح الدال والباء . الشعر والشعراء ٥٩٦ والأغانى ٦ : ١٤٩ والمؤتلف ١١٧ والاشتقاق ١٢٩ .

تَحمِلُهُ النَّاقةُ الأَدْمَاء مُعْتَجِرًا بِالبُرْدِ، كالبَدْرِ جَلَّى لَيلةَ الظُّلَمِ[1]

ومثل قول ابن المَوْلَى[2] لجعفر بن سليمان :

أَوْحَشَتِ الجَمّاء مِنْ جَعْفَرِ فَجَانِبَا عَيْنِ أبى مشعرِ[3] ٢٠٤ و

لَمَّا غَدَا تَحْمِلُهُ بَغْلَةٌ مُعْتَجِرًا كَالقَمَرِ الأَزْهَرِ

ولمّا قال المَدينىّ[4] وهو بالحجاز ، وذَكَر أبا البَخْتَرِىّ[5] وهو قاضٍ

---

(١) معتجراً : معتما . والاعتجار : لى الثوب على الرأس من غير إدارة تحت الحنك .

(٢) هو محمد بن عبد الله بن مسلم بن المولى ، مولى الأنصار ، من مخضرمى الدولتين . الأغانى ٣ : ٨٥ — ٩٣ .

(٣) الجماء : موضع من ضواحى المدينة ، وكان جعفر والياً على المدينة وله بها قصور ، ثم عزل عنها ، كما فى معجم البلدان ومعجم ما استعجم . وعين أبى مشعر ، لم أجدها فى كتب البلدان .

(٤) فى الأغانى ٧ : ١٥٠ : « دعى رجل من أهل الأدب إلى بعض المواضع فسقوه نبيذاً غير الذى كانوا يشربون منه ، فقال فيهم :

نبيذان فى مجلس واحد لإيثار مثر على مقتر

فلو كان فعلك ذا فى الطعام لزمتَ قياسك فى المسكر

وبعدها البيتان . فبلغت الأبيات أبا البخترى فبعث إليه بثلثمائة دينار » . وفى تاريخ بغداد ١٣ : ٤٨٢ أن الشعر للعطوى .

(٥) هو وهب بن وهب بن كثير بن عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب . أبو البخترى القرشى المدنى ، وكان قد انتقل عن المدينة إلى بغداد فسكنها . وولاه هارون الرشيد القضاء بعسكر المهدى ، ثم عزله فولاه المدينة ، ثم عزل فقدم بغداد وأقام بها حتى مات . وكان جواداً سخياً . توفى سنة ٢٠٠ . تاريخ بغداد ١٣ : ٤٨١ — ٤٨٧ ولسان الميزان ٦ : ٢٣١ — ٢٣٤ والأغانى ٧ : ١٥٠ . والبخترى ، بفتح الباء وسكون الخاء المعجمة وفتح التاء .

ببغداد ، وإنما ضَرَب به المَثَل ، ولم تكن قصيدته موجَّهة إليه ، فلما سمع قوله أبو البَخْتَرِى :

لَوْ كُنْتَ تَطْلُبُ شَأْوَ الكِرَامِ   فَعَلْتَ فَعَالَ أَبِى البَخْتَرِى[1]

تَتَبَّعَ إِخْوَانَهُ فى البِلَادِ   فَأَغْنَى المُقِلَّ عَنِ المُكْثِرِ

قال : يا غلام ، علىَّ بأربعمائة درهم ، وتَخْتٍ فيه أربعون ثوباً ، وبغلة ناجية[2] . فأعطاه ، أو فبعثَ بها إليه .

وقال بعض المُحَارَفِينَ[3] الفقراء ، أو الطَّيَّاب[4] الشعراء :

أَتُرَانِى أَقُولُ يَوْمًا مِنَ الدَّهْـرِ لِبَعْضِ التِّجَارِ أَفْسَدْتَ مَالِى

أَوْ تُرَانِى أَقُولُ : مِنْ أَيْنَ جَاءَتْ   لِدَوَابِى بِذَا الشَّعِيرِ جِمَالِى[5]

أَوْ تُرَانِى أَقُولُ : يَا قَهْرَمَانِى   سَلْ غُلَامِى مُوَفَّقًا عَنْ بِغَالِى

أَوْ تُرَانِى أَمُرُّ فَوْقَ رِوَاقٍ   لِىَ عَالٍ فى مَجْلِسٍ لِىَ عَالِى

أَسْرِجُوا لِى ، فَيُسْرِجُونَ دَوَابِى   فَأَقُولُ : أَنْزِعُوا السُّرُوجَ ، بَدَا لِى[6]

---

(١) ورد البيت بالخرم فى أوله . وفى الأغانى : « ولو كنت » و : « صنعت صنيع » ، وفى هامش الأصل : « كفعل » عن نسخة ، أى فعلت كفعل .

(٢) التخت : وعاء تصان فيه الثياب . والناجية : السريعة .

(٣) المحارف ، بفتح الراء : المحدود المحروم الذى لا يصيب خيراً من وجه توجه له .

(٤) الطياب : جمع طيب ، مثل جيد وجياد . والطيب : الفكه المزاح . انظر الحيوان ٣ : ٢٧ والبيان ٣ : ١١٥ ، ١٥٢ وسيبويه ٢ : ٢١١ .

(٥) خفف باء الدواب للضرورة .

(٦) انظر الحاشية السابقة . وبدا لى : أى تغير رأيى على ما كان عليه . ومنه قوله :

لعلك والموعود حق لقاؤه   بدا لك فى تلك القلوص بداء

هَذَيَانًا كَمَا تَرَى وفُضُـــولًا دَائِمَ النُّوكِ مِنْ عَظِيمِ المِحَالِ[١]

ومن هذا الباب قول الآخر[٢] :

أُخَيَّ قَدْ أَوَّبَ الحَجِيجِ ومَا أَمْلِكُ لاَ بَغْـلَةً وَلاَ فَرَسَا[٣]

اللهُ بَيْنِي وَبَيْنَ كلِّ أَخٍ يَقُولُ: اِجْدَمْ وقَائِلٍ : عَدَسَا[٤]

وقال رجل من بنى شَيْبان ، واقترض ، فندِمَ بعد أن ركب البغال المقصَّصة[٥] بدَلًا من النجائب والخيل :

بُدِّلْتُ بَعْدَ نَجَائِبِي ورَكَائِبِي أَعْوَادَ سَرْجِ مُقَصَّصٍ هِمْلَاجِ

ووَقَعْتُ فى عَدَسٍ كأَنّى لَم أَزَلْ شَنِقًا لِقَوْلِى لِلنّجَائِبِ : عاجِ[٦]

واللهِ لَوْلاَ أَنْ أُضَيِّعَ غَزْوَتِى لَرَجَعْتُ مُنْقَلِبًا لَها أَدْرَاجِى[٧]

٢٠٤ ظ

---

(١) المحال ، بالكسر : المكر ، وبالضم : المستحيل .

(٢) هو بشر بن سفيان الراسبي ، كما فى اللسان (عدس) .

(٣) يقال أوب وتأوب وأيب ، كله بمعنى رجع .

(٤) اجدم : زجر للخيـل . وعدس : زجر للبغل . وعدس ، بالبناء على السكون ، وأعربه الشاعر للضرورة كما فى اللسان (عدس) .

(٥) عنى بالمقصص المقصوص الذنب ، ويقال لها أيضـا « المحذفة » . وانظر ما سيأتى فى ٢٠٩ ظ .

(٦) شنق شنقاً : هوى شيئاً فصار كأنه معلق به . ورجل شنق : معلق القلب . وعاج : زجر للناقة ، يقال بالتنوين وعدمه .

(٧) يقال رجع درجه ، بالتحريك ، وأدراجه ، أى رجع فى طريقه الذى جاء فيه .

وقال الحسَن بن هانئ :

غَنِيتُ بِمَرْكَبِ البِرْذَوْنِ حَتَّى أَطَاحَ الـكِيسَ إِغْلَاءُ الشَّعِيرِ[١]

فَحُلْتُ إِلَى الْبِغَالِ فَأَعْوَزَتْنِى وحُلْتُ مِنَ الْبِغَالِ إِلَى الْحَمِيرِ

فَأَعْيَتْنِى الحَمِيرُ فَصِرْتُ أَمْشِى أُزَجِّى المَشْىَ كالرَّجُلِ الْكَسِيرِ[٢]

ومَا بِى ، والحَمِيدُ اللهُ ، كَسْرٌ ولَـكِنْ فَقْدُ حُمْـلَانِ الْأَمِيرِ[٣]

وقال رَبيعة الرَّقِّىّ[٤] :

وبَــــلَائِى أَنَّ أُمِّى أَثْقَلَتْنِى بِإِزَارِى

فإِذَا مَا قُمْتُ أَمْشِى هَمَّ خَصْرِى بِانْبِتَارِ

كلَّ ذَا أَحْمِلُ وَحْدِى أَيْنَ مِنْ أُمِّى فِرَارِى

أُمَّتَا هٰـذَا ورَبِّى حِمْـلُ بِرْذَوْنٍ بُخَارِى

أُمَّتَا لَسْتُ بِبِرْذَوْ نٍ وَلَا بَغْلِ مُـكَارِى

---

(١) ط: «عنيت» بالعين المهملة خلافاً للأصل . وفى الديوان: «أضر الـكيس» .

(٢) فى الديوان : « أزجى الرجـل » . والتزجية : الدفع بالرفق ، والسوق اللين .

(٣) الحملان ، بالضم : مصدر حمل يحمل حملانا ، ثم يطلق على ما يحمل عليه من الدواب فى الهبة خاصة .

(٤) هو أبو شبابة أو أبو ثابت ، ربيعة بن ثابت بن لجأ بن العيزار بن لجأ الأسدى الرقى ، من شعراء الدولة العباسية ولد بالرقة وبها نشأ ، فأشخصه المهدى إليه فمدحه ، وكان ضريراً . وهو القائل :

لشتان ما بين اليزيدين فى الندى يزيد سليم والأغر ابن حاتم

معجم الأدباء ١١ : ١٣٤ — ٢٣٦ ونكت الهميان ١٥١ — ١٥٢ وطبقات ابن المعتز ١٥٧ — ١٧٠ والأغانى ١٥ : ٣٧ — ٤٢ .

وقال الحكم بن عَبْدَلٍ(١) :

مَرَرْتَ عَلَى بَغْلٍ تَزُفُّكَ تِسْعَةٌ ... كأنَّكَ دِيكٌ مائلُ الرَّأْسِ أَعْوَرُ(٢)

تَخَايَلْتَ فى جِنِّيَّةٍ لِتَرُوعَنَا ... وأَنْتَ إلَى وَجْهٍ يَزِينُكَ أَفْقَرُ(٣)

وقال حَنْظلة بن عَرادة(٤) :

تَخَيَّرَتُ المُلُوكَ فَحُطَّ رَحْلِى ... إلَى سَلْمٍ ولَمْ يُخْطِ اخْتِيَارِى(٥)

يَقُولُونَ اعْتَذِرْ مِنْ حُبِّ سَلْمَى ... إذنْ لَا يَقْبَلُ اللهُ اعْتِذَارِى

إذَا مَرَّتْ بِجِسْرِكُمُ بِغَالِى ... فَقُومُوا فَانْظُرُوا فى شَأْنِ دَارِى

وقُومُوا ظالمِينَ فَهَدِّمُوهَا ... وأَلْقُوا مِنْ صَحِيفَتِكُمْ صِغَارِى

وحمل أبو دُفافة بن سعيد بن سَلْم(٦) دِعْبِلاً الشاعر على بغل، فوجده ٢٠٥ و
ـ زعم ـ ذا عيوبٍ فكتب إليه :

---

(١) الحكم بن عبدل بن جبلة الأسدى من شعراء الدولة الأموية . وكان أعرج أحدب هجاء خبيث اللسان ، منزله ومنشؤه الكوفة . الأغانى ٢ : ١٤٤ — ١٥٣ .

(٢) وكذا فى الحيوان ٢ : ٣٠٥ . وفى اللسان (زين) : « مائل الزين » . والزين : العرف .

(٣) فى الحيوان : « تخيرت أثواباً لزينة منظر » .

(٤) حنظلة بن عرادة ، من شعراء الدولة الأموية ، وكان صاحب سلم بن زياد والى خراسان فى أيام يزيد بن معاوية . انظر الحيوان ١ : ٢٣٦ والجهشيارى ٢٦٢ ونوادر المخطوطات ٢ : ٣٥٥ والاشتقاق ٢٤٧

(٥) يعنى سلم بن زياد .

(٦) فى الأغانى ١٨ : ٣٥ أن دعبلا قال : « مدحت عبد الرحمن بن خاقان وطلبت منه برذونا فحمله إلى غامزاً (أى به غمز ، وهو الظلع . وفى الأصل : غامرا) فكتبت إليه » . وأنشد البيتين . ثم قال : « فبعث إلى ببرذون غيره فاره ، بسرجه ولجامه وألفى درهم » .

حُمِلْتُ عَلَى أَعْوَجٍ حَارِنٍ فَلاَ لِلرُّكُوبِ وَلا لِلثَّمَنْ[١]

حَمَلتَ عَلَى زَمِنٍ شَـــاعِرًا فَسَوْفَ تُـكَافَا بِشُـكْرٍ زَمِنْ[٢]

وخرج أبو هَرْمَة الفَزَارِىّ من منزله على بغلةٍ فارهة ، فشرب بكلّ ما معه واحتاج ، فبادل بالبغلة حمارةً ، وقال :

خَرَجْتُ بِبَغْلَةٍ مِن عِنْـدِ أَهْلِي فَجِئْتُ بِها وقَدْ صارَتْ حِمَارَهْ

فَمَنْ يَكُ سَـــائِلاً عَنِّى فإِنِّى أَنَا الغَـاوِى خَلِيعُ بَنِى فَزارَهْ

وبادلَ محمد بن الحارث[٣] قَيْنةً ببرذون ؛ فألقاه صديقٌ له صلاةَ الغَداة وقد ركبه ، فقال :

عُجْتُ بالسَّابَاطِ يَوْمًا فإِذَا القَيْنَةُ تُلْجَمْ

قَيْنَةٌ كَانَتْ تُغَنِّى مُسِخَتْ بِرْذَوْنًا أَدْهَمْ

وقال الآخر :

يَا فَتْحُ لَوْ كُنْتُ ذَاخَزٍّ أُجَـــرِّرُهُ

تَحْتِي بَسِلِيمُ الشَّظَا مِنْ نَسْلِ حَلاَّبِ[٤]

(١) الحارن : ذو الحران ، وهو الذى لاينقاد ، إذا اشتد به الجرى وقف . وفى الأغانى : « غامر » . صوابه « غامز » وقد سبق تفسيره

(٢) الزمانة : العاهة . وفى الأغانى : « على زمن غامر » صوابه « غامز »

(٣) فى معجم المرزبانى ٤٣٤ : « محمد بن أبى الحارث الكوفى . ذكر دعبل أن له أشعاراً كثيرة حساناً ، وكان لبعض إخوانه جارية مغنية فباعها وأخذ بثمنها برذوناً فقال محمد . . . » . وأنشد البيتين مع تقديم الثانى منهما على الأول

(٤) فى الأصل و ط : « جلاب » ، صوابه بالحاء المعجمة . وهو فرس لبنى تغلب من نتاج أعوج انظر القاموس واللسان (حلب) والخيل لابن الكلبى ١٤ ولأبى عبيدة ٦٧ ونهاية الأرب ١٠ : ٤٠ والعمدة ٢ : ١٨٢ .

أَوْ كُنْتُ ذَا بَغْلَةٍ سَفْوَاءَ نَاجِيَةٍ
وشَاكِرِيَّيْنِ لَمْ أُحْبَسْ عَنِ البَابِ[1]

أَزْرَى بِنَا أَنَّنَا قَلَّتْ دَرَاهِمُنَا
والفقرُ يُزْرِى بآدابٍ وأَحْسَابِ

وقال أبو العتاهية فى عبد الله بن مَعْن بن زائدة :

أُخْتُ بَنِى شَيْبَانَ مَرَّتْ بِنَا مَمْشُوطَةً كَوْرًا عَلَى بَغْلِ[2]
تُكْنَى أَبَا الفَضْلِ فَيَا مَنْ رَأَى جَارِيَةً تُكْنَى أَبَا الفَضْلِ

وأشعار ذكروا فيها البغال بالتهجين، ولم يقصدوا إلى أعضائها بشىء، ومنها ما أرادوا بها من تحياز ركوبها[3]، قال بعضهم فى هجاء الموالى :

٢٠٥ ظ

تَأَمَّلْتُ أَسْوَاقَ الْعِرَاقِ فَلَمْ أَجِدْ دَكَاكِينَهَا إِلَّا عليها الْمَوَالِيَا
جُلُوسًا عليها يَنْفُضُونَ لِحَاهُمُ كَمَا نَفَضَتْ عُجْفُ الْبِغَالِ الْمَخَالِيَا

وقال طارق بن أثال الطائى :

مَا إِنْ يَزَالُ بِبَغْدَادٍ يُزَاحِمُنَا عَلَى البَرَاذِينِ أَمْثَالُ البَرَاذِينِ[4]

---

(١) الشاكرى : الأجير المستخدم ، معرب چاكر ، كما فى القاموس . وانظر حواشى الحيوان ١ : ١٣٠ .

(٢) ممشوطة ، أى ممشوطة الشعر . وفى الأصل : « متشوطة » ، وأثبت ما فى الأغانى . والكور ، أصله من إدارة العمامة على الرأس ، والمراد إدارة شعرها كما تدار العمامة .

(٣) كذا وردت هذه العبارة . وجعلت فى ط : « بها غياز ركوبها » ! .

(٤) أنشد الشعر فى البيان ١ : ٢٢٧ و ٣ : ٢٢٧ . وهو فى مجالس ثعلب ١٧٨ بدون نسبة .

أعطاهُمُ اللهُ أمـوَالًا ومَنْزِلَةً مِنَ المُلُوكِ بِلاَ عقْـلٍ ولاَ دِينِ

ما شِئْتَ مِنْ بَغْلَةٍ سَفْوَاءَ ناجِيَةٍ وَمِنْ ثيابٍ وقَوْلٍ غَيْرِ مَوْزُونِ(١)

وقال بعضهم فى تشبيه الشىء بالشىء، وهذا شعر ينبغى أن يُحفظ :

وهَيَّجَ صَوْتُ النَّـاعجات عَشِيَّةً

نَوَائِحَ أمْثالَ البِغالِ النَّـوَافِرِ(٢)

يُمَخِّطْنَ أطْـرَافَ الأُنُوفِ حَـوَاسِراً

يُظاهِرْنَ بالسَّـوْءاتِ هُدْلَ المَشافِرِ

بَـكَى الشَّجْوَ مَا دُون اللَّهَى مِنْ حُلُوقِها

ولَمْ يَبْـكِ شَجْوًا ما وَرَاءَ الحَنَـاجِرِ

وما سمعنا فى صفة النوائح المستأجَرات، وفى اللواتى ينتحلن الحُزْنَ وهُنَّ خليّاتُ بالٍ، بأحسنَ من هذا الشعر .

وها هنا باب من الشعر حَسَن، وليس من هذا بعينه، ولـكنه قد يُشا كله من باب . قال الشاعر :

أَلاَ لاَ يُبَالِى البُرْدُ مَنْ جرَّ فَضْلَهُ كما لاَ تُبَالِى مُهْرَةٌ مَنْ يَقُودُهَا(٣)

وقال آخر :

لاَ يَحْفِلُ البُرْدُ مَنْ أَبْلى حَوَاشِيَهُ ولاتُبَالِى عَلَى مَنْ راحَتِ الإبلُ(٤)

---

(١) فى البيان : « ومن أثاث »، وفى مجالس ثعلب : « ومن فعال » .

(٢) الناعجات : الإبل السراع، أو البيض الكريمة . وجعلت فى ط : « النائحات » خلافاً لما فى الأصل .

(٣) البيت فى البيان ٣ : ٨٢ .

(٤) فى البيان ٣ : ٨٢ : « من يلى حواشيه » .

وقال آخر :

أَهِينُوا مَطَايَاكُمْ فَإِنِّى رَأَيْتُهُ
يَهُونُ عَلَى البِرْذَوْنِ مَوْتُ الفَتَى النَّدْبِ[١]

وقال آخر[٢] :

وإنِّى لَأَرْثِى لِلْكَرِيمِ إِذَا غَدَا إِلَى طَمَعٍ عِنْدَ اللَّئِيمِ يُطَالِبُهْ[٣]
وأَرْثِى لَهُ مِنْ مَجْلِسٍ عِنْدَ بَابِهِ ٢٠٦ و
كَمَرْثِيَتِى لِلطِّرْفِ والعِلْجُ رَاكِبُهْ[٤]

وقال مُسلم بن الوليد فى برذون ابن أبى أُمَيَّة[٥] :

قُلْ لِابْنِ أُمَيٍّ : لَا تَكُنْ جَازِعًا لَا يَرْجِعُ البِرْذَوْنُ بِاللَّيْتِ[٦]

---

(١) فى البيان ٣ : ٨٢ : « فإنى وجدته » . الندب : الخفيف فى الحاجة الظريف ، لأنه إذا ندب لحاجة خف لقضائها .

(٢) هو عبيد الله بن عكراش ، كما فى عيون الأخبار ١ : ٨٩ وأنشده بدون نسبة فى البيان ٣ : ٢٠٨

(٣) فى البيان : « على حاجة » ، وفى عيون الأخبار « على طمع » .

(٤) مجلس ، أى جلوس . والطرف ، بالكسر : الفرس الكريم الطرفين ، أى الأبوين . والعلج : الرجل من كفار العجم .

(٥) هو محمد بن أمية بن أبى أمية ، ويقال محمد بن أبى أمية ، كاتب شاعر ظريف غزل ، كان ينادم إبراهيم بن المهدى . وهو من أهل بيت كثر فيهم الشعراء ، لذلك اختلطت أشعارهم واختلفت الروايات أيضاً فى أنسابهم . تاريخ بغداد ٢ : ٨٥ والأغانى ١١ : ٣٠ — ٣٥ وطبقات ابن المعتز ٣٣٢ فى ترجمة عبد الله بن أبى أمية .

(٦) أنشد هذه الأبيات فى الأغانى ١١ : ٣٢ . قال : « وكان لمحمد بن أمية =

طَأْمَنَ مِنْ جَأْشِكَ فِقْدَانُهُ وكُنْتَ فِيهِ عَالِيَ الصَّوْتِ[1]

وكُنْتَ لاَ تَنْزِلُ عَنْ ظَهْرِهِ ولَوْ مِنَ الْحُشِّ إلى الْبَيْتِ[2]

ما مَاتَ مِنْ سُقْمٍ ولٰكِنَّهُ ماتَ مِنَ الشَّوْقِ إلى الْمَوْتِ[3]

وأنشد :

بَكَتْ عَيْنِي لِبِرْذَوْنِي السَّمَنْدِى بُكَاءَ أَخِي مُحَافَظَةٍ وودٍّ[4]

وكانَ لَنَا حَمُولَةَ كُلِّ زِقٍّ وكانَ لِكُلِّ سكبان مؤدِّى[5]

= برذون يركبه ، فنفق فلقيه مسلم وهو راجل ، فقال : ما فعل برذونك ؟ قال : نفق . قال : الحمد لله، فنجازيك إذاً على ما كان منك إلينا » . ثم أنشد هذا الشعر .

وفى الأصل : « قل لابن مى » ، وهو مع استقامة وزنه عسر التخريج ، وأثبت ما فى الأغانى وديوان مسلم ٢١٥ . وتخرج هذه الرواية على الخزم ، بالزاى ، وهو زيادة حرف فى أول البيت . وربما جاء بالحرفين والثلاثة ، ولم يأتوا بأكثر من أربعة . وليس الخزم عندهم بعيب . انظر العمدة ١ : ٩٢ . والليت ، أراد به قول « ليت » : ونحوه قول القائل (اللسان لهف) :

فلست بمدرك ما فات منى بلهف ولا بليت ولا لوانى

(١) فى الديوان : « طأطأ من تيهك » . وفى الأغانى : « طامن أحشاءك » .

(٢) الحش : المتوضأ ، ومكان قضاء الحاجة .

(٣) فى الديوان والأغانى : « ما مات من حتف » .

(٤) السمندى ، يعنى به الشبيه بالسمند ، وهو الفرس بالفارسية . أو المنسوب إلى سمندو . وهى قلعة بالروم .

(٥) كذا ورد فى الأصل

[طبائع البغال وما قيل فيها]

قال : ركب صَخْر بن عُثمان[١] بغلاً ، ليبكِّر عليه فى حاجة ، فقال له عثمان بن الحكَم[٢] ، وهو سيِّد ثقيف فى عصره : إن كنتَ تركبه على أنه غدوٌ فاركبه ، وإلا فدعْه .

وقال أبو الحُسَيْن النَّخّاس ـ واسمُه الحارث[٣] ، وهو الذى يقال له مؤمنُ آل فِرْعَوْن ـ إنما يَجمَح البرذون[٤] ليصرعَ[٥] راكبه فقط ، ألَا تراه إذا سقط عنه ، أو رمى بنفسه عن ظهره ، وقف البرذون ؛ إلّا برذوناً واحداً ، فأنّى رأيتُه شدَّ عليه بعد أن ألقاه ، يكدِمُه ويرمَحُه ، وكان الناس يُشدُّون عليه ، فيتنحّى عنه ويشُدّ عليهم ، فإذا أجفلوا من بين يديه رجع إليه يكدِمه ويرمَحُه .

وقال مَن يذمّ البغال : البغل كثير التلوُّن ، به يُضْرَب المثل ، وهو مع هذا قتّالٌ لصاحبه . قال ابن حازم الباهلىّ[٦] :

---

(١) لعله ولد التالى .

(٢) هو عثمان بن الحكم بن صخر الثقفى ، أورد له أبو الفرج خبرين فى الأغانى ٦ : ٢٣ و ١٧ : ١٧ كما روى له الجاحظ خبراً فى ١ : ١٠٤ والبيان ٢ : ٢٣٥ .

(٣) انظر البيان ٢ : ١٧٦ .

(٤) البرذون : ضرب من الدواب يخالف الخيل العراب ، عظيم الخلقة ، غليظ الأعضاء . ويقال برذن الرجل : سافر بالبراذين ، كما فى تثقيف اللسان .

(٥) ط : « ليتمرغ » خلافاً لما هو واضح فى الأصل .

(٦) هو أبو جعفر محمد بن حازم بن عمرو الباهلى ، مولده ومنشؤه بالبصرة ، وسكن بغداد . وهو شاعر مطبوع من شعراء الدولة العباسية ، إلا أنه كان كثير الهجاء للناس فاطرح، ولم يمدح من الخلفاء إلا المأمون . تاريخ بغداد ٧٨١ ومعجم المرزبانى ٤٢٩ والأغانى ١٢ : ١٥١ — ١٦٠ والورقة ١٠٩ — ١١٢ وطبقات ابن المعتز ٣٠٧ — ٣١٠ .

مَالِي رَأَيْتُكَ لَا تَدُو مُ عَلَى المَوَدَّةِ لِلرِّجَالِ[١]
مُتَبَرِّماً أَبَدًا بِمَنْ آخَيْتَ، وُدُّكَ فِي سَفَالِ[٢]
خُلُق جَدِيدٌ كُلَّ يَوْ مٍ مِثْلُ أَخْلَاقِ البِغَالِ ٢٠٦ ظ

وقال آخر فى تلوُّن أخلافه :

وَمَتَى سَبَرْتَ أَبَا العَلَاءِ وَجَدْتَهُ مُتَلَوِّنًا كَتَلَوُّنِ البَغْلِ

قال آخر :

يَزِيدُ تُزْرِى به عِنْدِى سَجِيَّتُهُ كَالبَغْلِ لاشاعِرٌ فَحْلٌ ولا راوِى

وقال عثمان بن الحكم[٣] : كان عندنا فى الحىّ فتًى ولدتْهُ امرأة مذكَّرة، لرجل مؤنَّث : فما رأيتُ ولا سمعت بخُلق ردىٍّ من أخلاق البغال، إلّا وقد رأيته فيه[٤] .

وقال آخر[٥] :

الشُّؤْمُ مِنْهَا فى ذَوَاتِ الحِجْلِ[٦] وغُرَّةٍ تَصْدَعُ جَمْعَ الشَّمْلِ

---

(١) هذا البيت أحد ستة أبيات من هذه المقطوعة فى الأغانى ١٢ : ١٥٧ قالها لصديق قديم له نال مرتبة من السلطان وعلا قدره، فجفا محمداً وتغير له .

(٢) السفال، كسحاب : نقيض العلاء . والبيت وتاليه لم يروهما أبو الفرج

(٣) سبقت ترجمته قريباً .

(٤) نحو هذا المعنى فى الحيوان ١ : ١٠٣ إذ يقول أن ابن المذكرة من النساء والمؤنث من الرجال يكون أخبث نتاجاً من البغل

(٥) هو العكلى الراجز، كما سيأتى فى (٢٢٥ و) . وهو أبو حزام غالب ابن الحارث . وكان أعرابياً فصيحاً يفد على أبى عبيد الله وزير المهدى . قال الخوارزمى : « وشعره عويص لأنه أكثر فيه من الغريب فلا يقف عليه إلا العلماء . وكان يؤخذ عنه اللغة، أدركه الكسائى واستشهد ببعض شعره » . انظر شروح سقط الزند ١٤٦٥ — ١٤٦٧ وله ثلاث أراجيز فى الجزء الأول من مجموع أشعار العرب ١ : ٧٥—٧٨ .

(٦) سيرد هذا الشطر والأشطار الخمسة بعد فى (٢٢٥ ظ) .

وهْوَ خِلافُ الفَرَسِ الهِبَلِّ[1] وكُلُّ طِرْفٍ ذائلٍ رِفَلِّ[2]

قَدْ حَذِرَ النّــاسُ أذاهُ قَبْلِي وعَدَّدُوا كُلَّ قَتِيــلِ بَغْلِ

مِنْ ناشئٍ غِرٍّ وكَهْلٍ جَزْلِ وســائِسٍ ورائِضٍ مُدِلِّ

وكُلُّهُمْ قالَ بِقَوْلِ عَــدْلِ ولَيْسَ يُحْصِي عَيْبَهُ ذُو عَقْلِ

إلّا الّذِي يَعْــلَمُ عَدَّ الرَّمْلِ مِنهم أبُو الفَضْلِ أخِي وشَكْلِي

مُجَرَّحُ الوَجْهِ كَسِيرُ الرِّجْلِ ومَزْيَدٌ وجابِرُ المُسْـــتَمْلِي

كان مَعْبدُ بن أخضر المازنيّ ـ وهو أخو عبَّاد بن أخضر[3] قاتلِ أبي بلال الخارجي[4] ـ عند سعيد بن عبد الرحمن بن عَتَّاب[5] ، فخرج

---

(١) الهبل : الطويل العظيم .

(٢) الطرف ، بالكسر : الكريم الطرفين ، أى الأبوين . والذائل : الطويل الذيل وكذلك الرفل .

(٣) عباد بن أخضر نسبة إلى زوج أمه ، كما فى جمهرة ابن حزم ٢١١ إذ يقول : «وأخضر الذى نسب إليه هو زوج أمه» . وبهذه النسبة ورد فى الطبرى ٦ : ٢٧١ . وهو عباد بن علقمة بن عباد بن جعفر التميمى .

(٤) هو أبو بلال مرداس بن أدية ـ بهيئة التصغير ـ أحد الخوارج ، خرج فى أيام يزيد بن معاوية بناحية البصرة على عبيد الله بن زياد ، فبعث إليه زرعة بن مسلم العامرى فهزم زرعة ، ثم وجه إليه عباد بن الأخضر فهزمه وقتله سنة ٦١ وهى سنة مقتل الحسين . الطبرى ٦ : ٢٧١ ولسان الميزان ٦ : ١٤ وجمهرة ابن حزم ٢١١ .

(٥) سعيد بن عبد الرحمن بن عتاب بن أَسيد الأموى ، كان سيداً ممدحاً ، تزوج الحجاج ابنته ، وتزوج بنت عبيد الله بن زياد . فولدت له عتاب بن سعيد . جمهرة أنساب العرب ١١٣ والاشتقاق ٧٨ ونسب قريش ١٩٦ . ومدحه الراعى . انظر الأغانى ٢٠ : ١٦٨ .

من عنده يوماً على بغل فصرعه ، وكسر سرجَه ، فركبه عُرْياً ، وانصرف إلى أهله ، فقال :

أَمَا واللهِ يَا بْنَ أَبِي سَعِيدٍ جَزَاكَ اللهُ شَرًّا مِنْ عَمِيدِ
فَلَوْ فِي دَارِ طَلْحَةَ دُقَّ سَرْجِي لَأَدَّانِي عَلَى سَرْجٍ جَدِيدِ[1]

فبعثَ إليه طلحة بسَرجٍ .

٢٠٧ و وأما ربيعة بن أبى الصَّلْت[2] ، فقتله بغلٌ على باب عبد الله بن عبَّاس . ومن وَلَده كَلَدَة بن ربيعة ، وكان شريفاً شاعراً .

وممَّن قتلتْه بغلته ، خالد بن عثمان بن عفّان ، رضى الله عنه ؛ وذاك أن

---

(١) هو طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعى ، الذى يقول له الشاعر :

نضر الله أعظماً دفنوها بسجستان طلحة الطلحات

انظر العقد ١ : ٣٤٠ إذ جعله أحد خمسة أجواد بالبصرة ، على حين عدهم صاحب الأمالى ٣ : ٢٠ ثلاثة أجواد . وانظر جمهرة أنساب العرب ٢٠٥ ، ٢٣٨ . وولاه زياد بن مسلمة على سجستان فتوفى وهو وال بها نحو سنة ٦٥ . وانظر الشعور بالعور للصفدى ١٦٣ – ١٦٤ مخطوطة دار الكتب .

(٢) هو ربيعة بن أمية بن أبى الصلت الثقفى ، ولى بعض الولايات بالإسلام ، كما فى جمهرة أنساب العرب ٢٦٩ . وكان لأمية بن أبى الصلت أربعة بنين : عمرو ، وربيعة ، ووهب ، والقاسم . وكان القاسم وربيعة شاعرين أيضاً . وربيعة هو القائل :

وإن يك حياً من إياد فإننا وقيساً سواء ما بقينا وما بقوا
ونحن خيار الناس طراً بطانة لقيس ، وهم خير لنا إن هم بقوا

الأغانى ٣ : ١٧٩ — ١٨٠ والإصابة ٢ : ١٩٧ والاشتقاق ٣٠٤ . وقال ابن دريد عند الكلام على ثقيف : « ومن رجالهم ربيعة بن أبى الصلت ، صاحب ربيعتان : نهر بقرب الأبلة . ومن ولده كلدة بن ربيعة » .

خالداً كان بالسُّقْيا[١]، فقال: هذا يوم الجمعة، لئن لم أُجَمِّع[٢] مع أمير المؤمنين إنها لَلسَّوْءَة السَّوْءى! فركب بغلةً له لا تُسايَر، فسار سبعين مِيلاً، فأتى المدينة فى وقت الصلاة: فخرَّ ميِّتًا، ونجتِ البغلة.

وممن قتلته البغال، المُنذِر بن الزُّبَير[٣]، وكان يُكنى أبا عثمان؛ حَمَل على أهل الشام وهو على بغلةٍ وَرْدةٍ[٤]، بعد أن ألحَّ عليه عبد الله بن الزُّبير يَذْمُره[٥]؛ فلما سمعت البغلةُ قَعْقَعة السِّلاح نفرت، فتوقَّلتْ به فى الجَبَل[٦]، حتى أخرجتْه من حدود أصحابه؛ فاتَّبعه أهل الشام؛ فناداه عبد الله: انجُ أبا عثمان، فِداك أبى وأمِّى! فعثَرت البغلة، ولحِقه أهلُ الشام، فقتلوه.

---

(١) السقيا: موضع بين مكة والمدينة.

(٢) جمع الناس تجميعاً: شهدوا الجمعة وقضوا الصلاة. وكذا ضبطت فى الأصل بتشديد الميم، وضبطت فى ط بفتح الهمزة وسكون الجيم خطأ.

(٣) هو أبو عثمان المنذر بن الزبير بن العوام، أخو عبدالله بن الزبير، وقتل معه. جمهرة ابن حزم ١٢٢، ١٢٣. وكان مقتل أخيه عبد الله سنة ٧٣ فى حربه مع الحجاج سنة ٧٣ كما فى الطبرى ٧: ٢٠٢.

(٤) الوردة بالفتح: ما لونها الوردة بالضم، وهى حمرة تضرب إلى صفرة. يقال فرس وَرد، والأنثى وَردة. ويقال عشية وردة: قد احمر أفقها. وفى الأصل: «ورد»، تحريف.

(٥) ذمره ذمرا: حثه مع لوم واستبطاء. ويقال ذمره تذميرا: حضه وشجعه.

(٦) توقلت توقلا: أسرعت فى الصعود.

ولذلك قال يزيد بن مُفَرِّغ في هجائه لعبيد الله بن زياد[(١)] :

لَابْنُ الزُّبَيْرِ غَدَاةَ يَذْمُرُ مُنْذِرًا   أَولَى بِغَايَةِ كُلِّ يَوْمِ دِفَاعِ
وأَحَقُّ بِالصَّبْرِ الجَمِيلِ مِنِ امْرِئٍ   كَزٍّ أَنَامِلُهُ قَصِــيرِ البَاعِ[(٢)]

قال : وأردف عبّاسًا المَشُوقَ الشاعر[(٣)] ، بعضُ الفتيان خلفَه على بغلة له ، ووعده أن يَهبَ له ويكسُوَه ، وحَرَن البغل ، فسقط الرجلُ فاندقَّت فخِذاه ، فقال المَشُوق :

لَيْتَ مَا أَمْسَى بِرِجْلَيْـــكَ بِرِجْلِي وبِكَفِّي
لَيسَ لِلبغْــلةِ ذَنْبٌ   إِنَّما الذَّنْبُ لِحُرْفِي[(٤)]

وممن صرعتْه بغلته : البَرْدَخْت[(٥)] الشاعر ، واسمه عليّ بن خالد ـ

---

(١) لم يظهر من هذه الكلمة في الأصل إلا اللام تليها ضمة وياء ساكنة ودال . وهو عبيد الله بن زياد بن ظبيان ، المترجم في حواشي البيان ١ : ٣٢٥ وهو غير عبيد الله بن زياد بن أبيه .

(٢) كز اليدين : بخيل . والكزازة : اليبس والانقباض .

(٣) كان معاصراً لإبراهيم بن السرى الزجاج ، كما في مجالس العلماء ص ٣١٠ . وفي المصون للعسكري ص ٨٠ : « وسمى المشوق بقوله :

* كأن سماءه عين المشوق * »

وصدر هذا البيت كما في المصون :

* حمى فيها الكرى عيني بيتٌ *

(٤) الحرف ، بالضم : الحرمان . وفي اللسان : « والحرف : الاسم من قولك : رجل محارف ، أى منقوص الحظ لا ينمو له مال» . وفي الأصل : « ليت للبغلة ذنب » ، صوابه ما أثبت . وقد جعلت في ط : « ليت للبغلة ذنبا » .

(٥) البردخت : لقب له ، واسمه على بن خالد الضبي . ومن الظاهر أنه كان معاصراً لجرير . ذكره المرزباني في معجمه ٢٨٠ — ٢٨١ . وانظر الشعراء ٦٩٢ — ٦٩٣ والأمالي ٣ : ٧٩ وذيل اللآلئ ٣٩ .

وهو الذى كان هجا جَرير بن عطيّة ، فقال جرير : مَن هذا الهاجى ؟ قالوا : البَردخت . قال : وأىّ شىء البردخت[1] ؟ قالوا : الفارغ . قال : فلستُ أوّل مَن صيَّر لهذا شُغْلاً[2] .

٢٠٧ ظ

وكان زَيدٌ الضبّىّ[3] هو الذى حمله على ذلك البغل الذى صرعه ، فقال :

أقولُ لِلبغْلِ لَمَّا كادَ يَقْتُلُنى لا بَارَكَ اللهُ فى زَيْدٍ وما وَهَبَا

أعْطَانِىَ الحَتْفَ لمّا جِئْتُ سَائِلَهُ وأمْسَكَ الفِضَّةَ البَيضَاء والذَّهَبَا

وهو الذى كان هجا زيداً بأنه حديث الغِنَى ، وأتاه وهو أمير فى يوم حَفْله ، فقال[4] :

ولَسْتُ مُسَـلِّماً مَا دُمْتُ حَيًّا على زَيْدٍ بِتَسْـلِيمِ الأَمِـيرِ

فقال زيد : لا أُبالى والله ! فقال هو :

أتَذْكُرُ إذْ لِحَافُكَ جِلْدُ شَاةٍ وإذْ نَعْلاكَ مِنْ جِـلْدِ البَعِيرِ

قال : إى والله ! قال :

فَسُبْحَانَ الَّذِى أعْطَاكَ مُلْـكاً وعَلَّمَكَ الجُلُوسَ عَلَى السَّرِيرِ

قال زيد : نعم ، سبحانه ! فخرج وعليه فَضْل .

قالوا : ونَفَر بغلٌ كان تحت محمد بن هارون ، أخى سهل بن هارون

---

(١) لفظه فى الفارسية « بَرداخَتْ » . انظر معجم استينجاس ٢٤٠ .

(٢) فى الشعر والشعراء : « ما كنت لأشغل نفسى بفراغك » .

(٣) هو أبو حصين زيد بن حصين بن زهير الضبى ، أحد بنى السيد ، كان والياً على أصبهان . جمهرة أنساب العرب ٢٠٤ وأمالى القالى ٣ : ٧٩ .

(٤) الأبيات التالية بدون نسبة ومع خلاف فى الرواية ، فى البيان ٤ : ٥١ .

البليغ الكاتبُ الشاعر . قالوا : وإنما كان البغل ارتدَّ فزعاً ، فقُطِع من جوفه بعضُ العلائق ، فمات على ظهره ، فى وسط مُرَبَّعة باب عثمان نهارًا .

وقد تَصْدم الدابّةُ الدابةَ ، فيموت الراكبان والمركوبان .

[الوقوع على البغال]

وخبّرنى سعيد بن أبى مالك[1] أن غلاماً كان لبعض أهل القطيعة[2] ينيك بغلةً لمولاه ؛ وأنها فى بعض الأيام وقد أدعم[3] فيها ، فاستزادته ، فتأخَّرت وتأخَّر ، حتى أسندتْه إلى زاوية من الإصْطَبل ، فضغطته حتى مات . ودخل بعضُ الغلمان لبعض الحوائج ، فرأى الباب عليهما مُغلقاً ، فنادى باسم الغلام فلم يُجِبْه ؛ فقلع الباب ، فإذا الغلام مُسْنَد إلى الزاوية وقد مات ، وهى تضغطه ، فصاح فتنحَّتْ وسقط الغلام ميِّتًا .

ويقولون : إنها تفضح السائس الذى يكُومُها ، لأنها تتلمَّظ إذا عاينتْه ، ولا تفعل ذلك بغيره ، فهى إمّا أن تَقْتُل ، وإمّا أن تفضَح .

٢٠٨ و وأنشدوا لقيس بن يزيد ، فى هجائه ابنَ أبى سَبْرة[4] حين رماه بِنَيْك بغلته ، قال :

---

(١) فى الأصل : « سعد بن أبى ملك » اتباعاً للرسم القديم . وانظر البيان ٢ : ٢٣٩ .

(٢) هى قطيعة الربيع ، منسوبة إلى الربيع بن يونس حاجب المنصور ، بالقرب من كرخ البصرة . انظر الحيوان ١ : ١٧٢ و ٣ : ٢٠٣ .

(٣) المعروف فى هذا الفعل « دعم » الثلاثى .

(٤) هو أبو نوفل الجارود بن أبى سبرة سالم بن سلمة الهذلى البصرى . روى عن أبى ، وطلحة بن عبيد الله ، وأنس ، وروى عنه قتادة وثابت البنانى . وكان من رجال الشيعة شاعراً خطيباً ، توفى سنة ١٢٠ . تهذيب التهذيب .

نُبِّئْتُ بَغْلَتَكَ الَّتِي أَتْلَدْتَهَا   لا تَسْتَقِرُّ لَدَيْكَ مَا لَمْ تُسْفَدِ[١]

تَدْنُو بِمُؤْخِرِهَا إِلَيْكَ إِذَا رَأَتْ   أَنْ قَدْ عَلَوْتَ لها جِدَارَ المِذْوَدِ

قالوا : ولما أخذ فِتْيانٌ من فتيان بنى كُلَيْبٍ الفرزدقَ ، وأتوه بأتانٍ ، وقالوا : والله لتنزُوَنَّ عليها ، كما رُميتَ بذلك عطيّة بن الخَطَفَى[٢] ، أو لنقتلنَّك ! قال : إن كان فهاتوا الصخرة التى كان يقوم عليها إذا ناكها ، حتى أنالها ! فضحكوا جميعًا من ظَرْفه ، وخلَّوْا سبيله .

[من قتلته البغال]

ومن قتلته البغال : زيد بن حُلْق[٣] الرَّائض ، ووَلَد حُلْق معروفون عندنا بالبصرة .

ومن قتلتِ البغال[٤] : محمد بن سعيد بن حازم المازنىّ ، وعمرو ابن هَدّاب[٥] أحدُ عمومته ، قتله بغلٌ بتُسْتَر .

ومات المهلَّب بن أبى صُفْرة على ظهر دابّته بالطَّالَقان[٦] .

---

(١) المتلد والتلاد : المال القديم من حيوان وغيره يورث عن الآباء . يقال تلد المالُ وأتلده هو .

(٢) هو والد جرير بن عطية .

(٣) كذا بوضع علامة الإهمال تحت الحاء المضمومة فى الأصل .

(٤) جعلت فى ط : « قتلته البغال » ، خلافاً للأصل .

(٥) هو عمرو بن هداب بن سعيد بن مسعود المازنى ، ولى فارس لمنصور ابن زياد . جمهرة ابن حزم ٢١٢ . وذكر فى الحيوان ٣ : ٣٥ أنه كف بصره .

(٦) الطالقان ، بفتح اللام : بلدتان إحداهما بخراسان ، والأخرى بين قزوين وأبهر .

ومات إيَاس بن هُبَيْرَةَ العَبْشَمِىّ صاحب الحَمَالة ، على ظهر حمار .

ولم يمتْ على ظهر حمارٍ كريمٌ .

[صرع البغال]

وكانت بغلة أعْيَنَ المتطبّب[1] تُصْرَع ، وكان أعين يُصْرَع ، فصُرِعَا مرَّةً معًا قُبَالةَ دُور بنى السَّمْهَرِىّ ، فقام رجالٌ منهم فأدخلوه الدار ، فنوَّموه على فِراش ، ووكَّلوا بالبغلة مَن أدخلها الإصطبل ، فلمَّا أفاق وفتح عينيه أنكر موضعَه ، فقالوا : إنما أنت فى دار بنى السَّمْهَرِىّ ، وهم إخوتُك وأهلك . فقال : كيف أشكركم وأنتم أعَدُّ وأيسر ؟ ولكن أُعَلِّمكم بعضَ ما لا غِنَى بكم عنه : إذا أَتَى أحدُكم الغائطَ فليمتسحْ بِشِقَق القَصَب ، فإنّه إن كان هناك شىء من هذه الأورام[2] حلَقَه واستأصله على الأيام ، وإن لم يكن هناك شىء لم تعرض له هذه العِلّة ما دام يستعمل القصب . وإن خرجتْ على أحدٍ منكم بَثْرة فلا يحكّها ، وإن دَغْدَغَه ووجدَ فيها أُكالًا ، فإنَّ ذلك الحكَّ ربّما أنغر ذلك المكان ، وجذب إلى مكانه من الفساد ما يصير به بَثْرة ، فإنْ حكّ البثرة فربّما صارت خُرَاجًا .

٢٠٨ ظ

وقال لى كَمْ شئت[3] من أصحاب القَصَب والبَوَارى : نحن لا تعترينا البواسير ؛ لطول قعودنا على القَصَب والبوارى .

(١) ذكره الجاحظ فى الحيوان ٢ : ٢٢٣ وذكر أنه كان له بغل يصرع ، فكان ربما اتفق أن يصرعا جميعا . ثم قال : « وقد رأى ذلك كثير من أصحابنا البصريين » . فهو معاصر للجاحظ أو قريب من عصره .

(٢) فى الأصل : « الأرواح » . وانظر ما سيأتى .

(٣) عبارة يكثر الجاحظ من تردادها ، وكأنها من لوازمه ، يريد بها الكثير من الناس . انظر الحيوان ٣ : ١٧٨ ، ٢٣١ و ٤ : ٤٦ و ٥ : ٣٧٤ .

ذكر الانتفاع بالبغال فى البرد

فى الجاهليّة والإسلام ، وتعرُّف حقائق الأخبار ، وأنّها آلة من آلات السلطان عظيمة ، ولا بدَّ للسلطان والملوك من تعرُّف الأخبار

قيل لشيخ ذى تجربة : ما أذهب مُلْكَ بنى مروان ؟ قال : ما زال ملكهم قائما حتى عَمِيَتْ عليهم الأخبار . وذلك أن نَصْرَ بن سَيّار ، كان صاحبَ خُرَاسان ، قبل خروج أبى مُسْلِم وقوّةِ أمره ، إلى أن قَوِىَ عليه حتى هرب منه . وذلك أنه ، وإن كان واليًا لأربعة خلفاء[1] ، فإنه كان مأموراً بمكاتبة صاحب العراق ، وإن كان صاحب العراق لا يقدر على عَزْله ، وقد كان يزيد ابن عُمَر[2] يخاف أن يُوَلّى مكانَه نصرُ بن سيّار ، أو مِسْوَرُ بن عمرو ابن عباد[3] ، فاحتال لِمِسْوَر ، ولم تمكنْه الحيلة فى نصر ، فكان إذا كتب

(١) ولى نصر بن سيار لهشام بن عبد الملك سنة ١٢٠ ، ثم الوليد بن يزيد ، ثم يزيد بن الوليد ، وإبراهيم بن الوليد ، ومروان بن محمد ، كما فى كتب التاريخ . فكأن الجاحظ لم يعتد بولايته لإبراهيم بن الوليد ، فإنه كما ذكر الطبرى ٩ : ٤٦ فى حوادث سنة ١٢٧ « لم يتم له أمر » قال : « وكان يسلم عليه جمعة بالخلافة وجمعة بالإمرة ، وجمعة لا يسلمون عليه لا بالخلافة ولا بالإمرة ، فكان على ذلك أمره حتى قدم مروان بن محمد فخلعه » .

(٢) يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى ، من قواد الأمويين ، ولى قنسرين ، للوليد بن يزيد ، ثم العراقين فى أيام مروان بن محمد . ولما قامت الدولة العباسية أرسل السفاح إليه أخاه المنصور لحربه ، فأعياه أمره ، فبعث إليه السفاح من قتله بقصر واسط سنة ١٣٢ . وكان جوادا نبيلا جميل المرآة . ابن خلكان والمعارف ١٧٩ وجمهرة ابن حزم ٢٥٥ والاشتقاق ٢٨٤ . قال ابن دريد : وكان من رجال أهل الشام عقلا ولسانا .

(٣) المسور بن عمرو بن عباد بن الحصين التميمى . كان من سادات أهل =

إليه بالرأى الذى يحسم به من أسباب قوّة المسوِّدة[1] ، كتب بذلك إلى يزيدَ ، فكان يزيد لا يرفع خبره ولا يُمدّه بالرجال ، طَمَعًا فى أن يُهْزَم أو يُقْتَل ، ونَسِيَ يزيدَ أن غَلَبة أبى مُسْلِم على خُراسان ، سببٌ لغلبته على الجبال ، وإذا استحكم له ذلك ، لم يكن له هِمّة إلا صاحب العراق . فلما طوى أخبار نصر ، سدَّ وجهَ الرأى والتدبير على مروان ، حتى كان الذى كان .

قالوا : ولما بلغ المأمونَ اختلاطٌ من حال البريد ، وجّه ثُمَامَةَ بن أَشْرَس[2] ، ليتعرَّف له ذلك . فلما رجع إليه وسأله ، قال : يا أمير المؤمنين ، تركتُ بغلًا على مِعْلَف كذا وكذا وهو يقرأ: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ .

٢٠٩ و

ومررتُ بِسكّة أُخرى ، فإذا بغلٌ قد عَدَا على رجل عليه طَيْلَسانٌ أخضر ، يظنّه حُزْمَةَ عَلَف ، فعدا الرجل وعدا خلفَه البغل ، فصحتُ بالرجل : اطرح الطيلسان ! فلما طرحه وقف البغل يشمّه .

ومررتُ بسكّة أخرى ، وإذا على المِعْلَف بغلٌ ، وإذا هو يغنّى :

ولَقَدْ أَبِيتُ عَلَى الطَّوَى وأَظَلُّهُ ... حَتَّى أَنَالَ بِهِ كَرِيمَ المَأْكَلِ[3]

= البصرة . جمهرة ابن حزم ٢٠٧ . وفى المعارف ١٨٢ أنه كان « سيد بنى تميم فى زمانه ورأسهم فى فتنة ابن سهيل » . وفيه يقول الراجز :

أنت لها يا مسور بن عباد ... إذا انتضين من جفون الأغماد

(١) المسودة : رجال الدعوة العباسية .

(٢) انظر حواشى البيان ١ : ١٠٥ .

(٣) البيت لعنترة فى ديوانه ١٨١ واللسان (ظلل) والمقصور والممدود ٦٨ والأغانى ٧ : ١٤٣ ، ١٤٤ . وفى الموضع الأخير أن النبى صلى الله عليه وسلم أنشد هذا البيت فقال : « ما وصف لى أعرابى قط فأحببت أن أراه إلا عنترة » .

[ما قيل فى البريد وبغاله

ومما قالوا فى شأن البريد وأصحابه ، قول ابن أبى أُمَيَّة[١] :

إِنَّ ابنَ شَاهَكَ قَدْ وَلَّيْتَهُ عَمَــــلًا
أَضْحَى وحقِّكَ عَنهُ وهْــوَ مَشْغُولُ[٢]
بِسِكَّةٍ أُحْــــدِثَتْ لَيْسَتْ بِشَارِعَةٍ
مِنْ دُونِهَا غَيْضَةٌ فِي وَسْطِهَا غِيلُ[٣]
تَرَى فُرَانِقَهَا فِي الرَّكْضِ مُنْدَفِعا
تَجْرِى خَرِيطَتَهُ والبَغْـلُ مَشْكُولُ[٤]

وقال دِعْبِلٌ فى بعض رجال العَسْكَر ، ممن كان ولِىَ البريد :

أَلَا أَبْلِغَا عَــنِّى الْإِمَامَ رِسالَةً رِسالَةَ ناءٍ عَنْ جَنَابِكَ شاحِطِ
بِأَنَّ ابْنَ زَيْدٍ حِينَ يَشْحَجُ شاحِجٌ يُمِرُّ عَلَى القِرْطاسِ أَقْلامَ غالِطِ
أَحَبَّ بِغالَ البُرْدِ حُبًّا مُداخِلًا يُــكَلِّفُهُ إِثْبَاتَهَا فِي الشَّرَائِطِ
ولَوْلَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لَأَصْبَحَتْ أُيُورُ بِغَالِ البُرْدِ حَشْوَ الخرائِطِ

وقال دِعْبِلٌ أيضاً :

مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّى إِمَامَ الهُدَى قافِيَـــــةً لِلعِرْضِ هَتَّاكَهْ

---

(١) سبقت ترجمته فى ص ٢٥٣ .

(٢) ابن شاهك ، بفتح الهاء، هو السندى بن شاهك . وكان ذا منزلة عند الرشيد والمأمون . المعارف ١٦٩ والتنبيه والإشراف ٣٠٢ والجهشيارى ٢٣٦ — ٢٣٧ .

(٣) الغيضة : مغيض الماء . والغيل : الشجر الملتف . وفى الأصل : « ميل » ، تحريف .

(٤) الفرانق ، بضم الفاء : الدليل يكون أمام البريد ، معرب « پروانه » بالفارسية . و « تجرى » جعلت فى ط : « يجرى » مع وضوحها فى الأصل .

هَـــذَا جَنَاحُ الْمُسْلِمِينَ الَّذِى قَدْ قَصَّـــهُ بِوَلْيِكَ الحَاكَهْ
أَضْحَتْ بِغَالُ الـــبُرْدِ مَنْظُومَةً إِلَى ابْنِ زَيْدٍ تَحْمِـــلُ النَّاكَهْ

وذكر الفرزدق فى مرثيةِ وَكِيع بن أبى سُود[1] البُردَ ، فقال :

لِتَبْكِ وَكِيعًا خَيْلُ لَيْـــلٍ مُغِيرَةٌ
تَسَاقَى الْمَنَايَا بِالرُّدَيْنِيَّةِ السُّـــمْرِ[2]
لَقُوا مِثْلَهُـــمْ فَاسْتَهْزَمُوهُمْ بِدَعْوَةٍ
دَعَوْهَا وَكِيعًا وَالجِيَادُ بِهِـــمْ تَجْرِى
وَبَيْنَ الَّذِى يَدْعُو وَكِيعًا وَبَيْنَـــهُ ٢٠٩ ظ
مَسِيرَةُ شَهْرٍ لِلْمُقَصَّصَةِ البُـــتْرِ[3]

وقال ابن الْمُعَذَّل[4] فى جاريةٍ لبعض وَلَد سعيد بن سَلْم ، وقد وَلِىَ البريد :

---

(١) هو أبو مطرف وكيع بن حسان بن قيس بن أبى سود الغدانى التميمى ، غلب على خراسان فى أيام سليمان بن عبد الملك ، وظل بها تسعة أشهر بعد قتله قتيبة بن مسلم حتى وليها يزيد بن المهلب سنة ٩٧ . المعارف ٨٣ والجمهرة ٢٢٦ والطبرى ٨ : ١١٦ .

(٢) ديوان الفـــرزدق ٢٤٦ والحيوان ٣ . ٩٥ — ٩٦ والـكامل ٧٦٥ ليبسك .

(٣) انظر ما سبق فى ص ٢٤٧ .

(٤) هو أبو القاسم عبد الصمد بن المعذل بن غيلان ، شاعر من شعراء الدولة العباسية بصرى المولد والمنشأ . توفى فى حدود سنة ٢٤٠ . وكان هجاء خبيث اللسان . وكان هو وأبوه وجده وأخوه أحمد بن المعذل شعراء . الأغانى ١٢ : ٥٤ وفوات الوفيات ١ : ٣٥٣ وطبقات ابن المعتز ٣٦٨ .

دَهَتْكَ بِعِلَّةِ الحَمَّامِ فَوزٌ ومالَ بها الرَّسُولُ إلى سَعِيدِ

أَرَى أَخْبَارَ دَارِكَ عَنْكَ تَخْفَى فَكَيْفَ وَلِيتَ أَخْبَارَ البَرِيدِ

ولمّا فخّم ابنُ غَسطَة[1] عظيمُ الروم شأنَ مُلكه ، ثم قال للرسول : هل عندكم بعض ما تُعارضونِى[1] به ؟ قال : نعم ، لملكنا أربعون ألف بغل موقوفة على إبلاغ رسائله وأخباره ، من واسطة مُلكه إلى أقطار سلطانه . فأفحمه .

يعنى بغال البريد . قال هذا وحال البُرُد على غير هذه الحال ، ولم يعرفوا توجيه الخرائط فى الماء[2] ، وعلى أيدى الرجال .

وابن غسطَة هو الذى ذكره سَلْم الخاسِر[3] فى قصيدته التى مدح فيها الرَّشيد ، قال :

---

(١) فى الأصل : « غطسة » فى هذا الموضع وتاليه . وانظر ص ٢٧٠ .

(٢) كذا فى الأصل . وهو وجه جائز فى العربية ، إذا اجتمعت نون الرفع مع نون الوقاية جاز حذف إحداهما ، وإثباتهما مع الإدغام . وفى المغنى ٢ : ٢٥ : « ونحو تأمرونى يجوز فيه الفك ، والإدغام ، والنطق بنون واحدة . وقد قرئ بهن فى السبعة . وعلى الأخيرة فقيل النون الباقية نون الرفع ، وقيل نون الوقاية » .

(٣) الخريطة : هنة مثل الكيس تكون من الخرق والأدم تشرج على ما فيها . ومنه خرائط كتب السلطان وعماله . وهذا النص من الجاحظ يدل على تعدد طرق إرسال البريد . والمراد بتوجيهها فى الماء أن تحمل فى السفن أو أن يحملها السباحون.

(٤) هو سلم بن عمرو بن حماد بن عطاء . وسمى الخاسر لكونه باع مصحفاً واشترى به طنبوراً . ومدح المهدى ، وهارون ، وابنه محمد بن زبيدة . وهو راوية بشار بن برد وتلميذه ، وعنه أخذ . ومن بحره اغترف ، وعلى مذهبه ونمطه قال الشعر ، كما ذكر أبو الفرج . ومات أيام الرشيد سنة ١٨٦ . ابن خلكان ١ : ١٩٨ ومعجم الأدباء ١١ : ٢٣٦ وتاريخ بغداد ٩ : ١٣٦ وطبقات ابن المعتز ٩٩ =

مَنَعَ ابنُ غسطة رأْسَهُ بخَرَاجِه ولقد يكُونُ وما عليهِ خَرَاجُ[١]

قالوا : ولمّا رأى نصرٌ أنّ يزيد بن عُمَر[٢] يُميتُ أخباره ، ليموت ذِكره عند الخليفةِ كتب إليه[٣] :

أَبْلِغْ يَزِيدَ وخَيْرُ القَوْلِ أَصْدَقُهُ وقَدْ عَلِمتَ بأَنْ لاَ خَيْرَ في الـكَذِبِ

= والأغاني ٢١ : ٧٣ . ومن عجب أن يسميه ابن خلكان « سالم بن عمرو » مع أنه يروى فى ترجمته قول أبى العتاهية فى هجائه :

تعالى الله ياسلم بن عمرو أذل الحرص أعناق الرجال

(١) فى الأصل : « ابن غطسة » تحريف . وجعلها « غسطة » للشعر ، وإنما هى « أغسطة » كما فى الطبرى ٩ : ٧٠ ، ١٠ : ٧٠ والتنبيه والإشراف ١٤٢ . وفى هذا الأخير : « رينى امرأة أليون بن قسطنطين ، وتفسير رينى : صلاح . ثم لقبت بعد ذلك أغسطة ، وملك معها ابنها قسطنطين بن أليون ، فلم يزالا ملكين بقية أيام المهدى وأيام الهادى وصدرا من خلافة الرشيد » . فقسطنطين هذا هو الذى يعنيه بابن غسطة ، وذكر الطبرى فى سنة ١٨٢ : « وفيها سملت الروم عينى ملكهم قسطنطين بن أليون ، واقروا أمه رينى ، وتلقب أغسطة » . وذلك فى أيام الرشيد.

(٢) سبقت ترجمته وترجمة نصر فى ص ٢٦٥ .

(٣) فى الطبرى ٩ : ٦٢ أن نصر بن سيار كتب إلى مروان بن محمد يعلمه بحال أبى مسلم وخروجه ، وكثرة من معه ومن تبعه ، وأنه يدعو إلى إبراهيم بن محمد ، وكتب إليه بأبيات شعر أولها :

أرى بين الرماد وميض جمر فأحج بأن يكون له ضرام

فكتب إليه : « الشاهد يرى مالا يرى الغائب ، فاحسم الثؤلول قبلك » . فقال نصر : « أما صاحبكم فقد أعلمكم ألا نصر عنده » . فكتب إلى يزيد بن عمر يستمده :

أبلغ يزيد وخير القول أصدقه وقد تبينت ألا خير فى الكذب

أن خراسان أرض قد رأيت بها بيضا لو افرخ قد حدثت بالعجب =

وكتب إليه[1] :

أرَى تحتَ الرَّمادِ وَمِيضَ نارٍ   فيُوشِكُ أنْ يكونَ لها ضِرَامُ[2]
فإنَّ النَّارَ بِالْعُودَيْنِ تُذْكَى   وإنَّ الحَرْبَ أوَّلُها الكلاَمُ
فَقُلتُ تَعَجُّبًا : يَالَيتَ شِعْرِى   أأيقاظٌ أُمَيَّةُ أَمْ نِيَامُ

حدثني علىّ بن المدينى[3] ، قال : كان يزيد بن زُرَيْع[4] إذا سمع

= فراخ عامين إلا أنها كبرت   لما يطرن وقد سربلن بالزغب
فإن يطرن ولم يحتل لهن بها   يلهبن نيران حرب أيما لهب

فقال يزيد : « لا غلبة إلا بكثرة ، وليس عندى رجل » .

وانظر العقد ٤ : ٢١٠ حيث ذكر رد نصر بن سيار يقول له : « الثؤلول قد امتدت أغصانه، وعظمت نكايته» . فوقع عليه مروان : «يداك أوكتاوفوك نفخ ».

(١) أى إلى يزيد بن عمر بن هبيرة . وكذا فى البيان ١ : ١٥٨ . لكن ذكر الطبرى وصاحب العقد ٤ : ٢١٠ أنه كتب بهذا الشعر إلى مروان بن محمد . كما سبق القول . وذكر صاحب العقد فى ٤ : ٤٧٧ أنه كتب به إلى هشام بن عبد الملك . وصاحب العقد ٤ : ٢١٠ .

(٢) انظر رواية الأبيات فى الطبرى ٩ : ٩٢ والبيان ١:١٥٨ وعيون الأخبار ١ : ١٢٨ والعقد ١ : ٩٤ و٤ : ٢١٠ ، ٤٧٨ .

(٣) سبقت ترجمته فى ص ٢٢١ .

(٤) هو أبو معاوية يزيد بن زريع التيمى البصرى الحافظ . روى عن شعبة والثورى وسعيد بن أبى عروبة وغيرهم ، وروى عنه ابن المدينى ، وابن المبارك ، وابن مهدى وغيرهم . وفيه يقول ابن حنبل : « كان ريحانة البصرة ، ما أتقنه وما أحفظه ! » . ولد سنة ١٠١ وتوفى سنة ١٨٢ . تهذيب التهذيب ١١ : ٣٢٥ وتذكرة الحفاظ ١ : ٢٣٦ وصفة الصفوة ٣ : ٢٧٦

أصحابَ الحديث يخوضون فى أبى حَنيفة ، وفى كيف عظُم شأنه بعد خموله ، قال : هيهات ! طارت بفُتْياهُ البغالُ الشُّهب !

٢١٠ و قالوا : ووَجَّه معاوية لما كلّموه فى يزيدَ بن ربيعة بن مفرِّغ[1] رجلا مجرَّدًا[2] ، لإخراجه من السجن ، فخرج حتى أتى سِجِسْتانَ فأخرجَه ، فبلغ ذلك عبَّاد بن زياد[3] ، فأرسل إلى خَمْخَام[4] ، فلما رأى عهد معاوية كفَّ ، وأقبل خَمْخام بابن مفرِّغ على بغلةٍ من بغال البريد ، وأنشأ ابن مفرِّغ يقول :

---

(١) انظر حواشى البيان ١ : ١٤٣ و ٣ : ٣٦ .

(٢) كذا . ولعلها « مُبْردا » أى بريداً . وفى الأغانى ١١ : ٦٠ : « وجه رجلا من بنى أسد يقال له خمخام ، ويقال جهنام ، بريداً إلى عباد » . وفى اللسان (عدس) أن خمخاما كان مولاه على البريد .

(٣) هو أبو حرب عباد بن زياد بن أبى سفيان ، ولى لمعاوية سجستان سبع سنين . وفيه يقول ابن مفرغ :

* سبق عباد وصلت لحيته *

وكان هجاء ابن مفرغ له سبباً فى أن يسجنه أخوه عبيد الله بن زياد وكان والى خراسان ، ثم إن عبيد الله بن زياد أمر بابن مفرغ فحمل إلى سجستان إلى عباد وابن زياد فحبس بها ، فلما طال حبسه بعث رجلا بالشعر إلى معاوية وشفع له اليمن عند معاوية ، فأمر باطلاقه على النحو الذى رواه الجاحظ ، انظر الشعر والشعراء ٣١٩ — ٣٢٤ واللسان (عدس) ، ولترجمة عباد المعارف ١٥١ — ١٥٢ والخزانة ٢ : ٥١٧ . وفى النجوم الزاهرة ١ : ١٤٤ أن بدء ولاية عباد لخراسان كان سنة ٥٣ .

(٤) وكذا فى الشعر والشعراء ٣٢٤ . وفى الخزانة ٢ : ٢١٦ والأغانى ١٧ : ٦٤ ، ٦٨ ولسان العرب (عدس) : « حمخام » بحاءين . وفى الأغانى ١٧ : ٦٠ أنه يقال له أيضاً « جهنام » .

عَـــدَسْ ما لِعَبَّادٍ عَلَيْكِ إِمَارَةٌ
نَجَوْتِ وهٰــذَا تَحْمِلِينَ طَلِيقُ[1]

طَلِيقُ الَّذِى نَجَّى مِنَ الـكَرْبِ بَعْدَما *
تلَاحَمَ فى دَرْبٍ عليــكِ مَضِيقُ[2]

[قولهم للبغلة : عدس]

قوله : «عَدَسْ ما لعبّاد عليكِ إمارة» ، فزعم ناس أن « عدس » اسم لـكلّ بغلة كمن[3] ، وذهبوا إلى قول الشاعر :

إِذَا حَمَلْتُ بِزَّتِى عَلَى عَدَسْ عَلَى الَّتِى بَيْنَ الحِمارِ والفَرَسْ[4]
فَمَا أُبَالِى مَنْ غزَا ومَنْ جَلَسْ

قالوا : وإنما قوله « عَدَسْ » على مثل قول خالد بن صَفْوان حين فاخر اليمانيةَ ، وقال : «والله ما منهم إلاّ ناسِجُ بُرد ، أو سائس قِرْد ، أو دابغ جِلد ، أو راكبُ عَرْد[5] ، غرّقتهم فأرة ، وملـكتهم امرأة ، ودلَّ عليهم هُدْهُد » .

---

(١) البيت من شواهد النحو . انظر الخزانة ٢ : ٥١٤ وشرح شواهد المغنى للسيوطى ٢٩١ . يجعلونه شاهداً لورود « هذا » بمعنى « الذى » .

(٢) أى طليق للذى خلصه من الحبس . وفى الأصل : « فى رزب » صوابه من المراجع المتقدمة .

(٣) كذا وردت هذه الـكلمة فى الأصل ، و هى مقحمة . وانظر الخزانة ٢ : ٥١٧ س ٨ .

(٤) الرجز فى اللسان والصحاح (عدس) والمخصص ٦ : ١٨٣ والمقاييس (عدس ، طفو) .

(٥) العرد ، بالفتح : الحمار . ذكر هذا المعنى صاحب القاموس ولم يذكره ابن منظور . وانظر هذا الخبر والقول فيه بتفصيل وتحقيق فى الحيوان ٦ : ٢٥٢ والبيان ١ : ٣٣٩ .

وقال آخرون : قولهم : « عَدَس » للبغلة مثل قولهم : « سَأْسَأْ » للحمار ، و « حا[1] » للجَمَل ، و « حَلْ[2] » للناقة . ألا تراه حين سَخِرَ الأعرابيّ من صاحبه ، وحين جهّله قال :

يَقُولُ لِلنَّاقَةِ قَوْلاً لِلجَمَلْ ... يَقُولُ حَا ثُمَّ يُثَنِّيهِ بِحَلْ[3]

قالوا : ألا ترون أنّ الفرزدق لما خلع لجام بغلته ، وأشرعها فى ثِغاب مسجد بنى أُسَيِّد[4] ، قال له جَرنَفَشُ المجنون[5] : نَحِّ بغلتَك ، جَدَّ الله ساقَيْكَ[6] ! قال الفرزدَق : ولِمَ عافاك الله ؟ قال : لأنك زانى الـكَمَرة[7] ،

---

(١) كذا ورد فى الأصل بالحاء مع القصر ، وهى صحيحة ، كما فى اللسان (حا ٣٣٣) ، وشرح الرضى للكافية ٢ : ٧٧ حيث نصا على جواز القصر فى حاء التى يجوز فيها مع الهمز التنوين وعدمه . وسبق فى رسائل الجاحظ ١ : ٤٨ « جاه » مطابقاً للحيوان ٧ : ٤٤ واللسان (جوه) والمخصص ٧ : ٨٠. وهذه مبنية على كسر الهاء وربما سكنت كما فى المخصص ، وربما قالوا جاه بالتنوين . وأنشد فى اللسان :

إذا قلت حاهٍ لج حتى ترده ... قوى أدم أطرافها فى السلاسل

(٢) يقال بسكون اللام وبكسرها منونة ، كما يقال حلى . وانظر ما سبق فى ١ : ٤٨ .

(٣) انظر الحيوان ٧ : ٤٤ .

(٤) الثغاب : جمع ثغب ، وهو مجرى الماء . وفى الأصل : « ثغار » . وفى البيان ٢ : ٢٣٠ : « وأدنى رأسها من الماء » . وفى العقد ٦ : ١٥٥ : « ولما قرب الفرزدق رأس بغلته من الماء » . وبنو أسيد ، هم بنو أسيد بن عمرو بن تميم وأسيد بهيئة التصغير.

(٥) فى الأصل : « جز نبذ » ، صوابه من البيان والعقد حيث ورد بلفظ « الجرنفش » . وأصل معنى الجرنفش العظيم الجسم من الرجال . والجرنفش هذا من بنى سدوس . انظر ما سيأتى من تعليق .

(٦) الجد : القطع . وفى البيان : « حلق الله ساقيك » . والحلق كناية عن الشؤم والإهلاك والقتل . وفى العقد وبعض أصول نسخ البيان : « حلق الله شأفتك ».

(٧) الـكمرة : رأس الذكر .

كَذوب اللسان[1] . فلما سمع ذلك منه ركب بغلته ، وقال : عَدَس[2] ، كما يقال للفرس « اِجْدَم[3] » ، وللثور : « وَحْ[4] » .

[أشعار فى البريد]

وقد ذكر امرؤ القيس البريد ، فقال :

وناَدَمْتُ قَيْصَرَ فى مُلْكِهِ ... فأَوْجَهَنِى ورَكِبْتُ البَرِيدَا[5]

إذَا مَا ازْدَحَمْنَـا عَلَى سِكَّةٍ ... سَبقْتُ الفُرَانِقَ سَبْقًا بَعِيدَا

٢١٠ ظ

ومما قالوا فى البريد ، قول الوليد بن يزيد بن عبد الملك :

طالَ لَيْلِى وبِتُّ أُسْقَى المُدَاما ... إذْ أَتَانِى البَرِيدُ يَنْعَى هِشاما[6]

---

(١) فى البيان : « كذوب الحنجرة » ، وفى العقد : « الحجرة » ، تحريف .

(٢) فى البيان والعقد أن الجرنفش لما قال له الفرزدق ما قال نادى : يا بنى سدوس! فلما اجتمعوا عليه قال : سودوا الجرنفش عليكم فإنى لم أر فيكم أعقل منه .

(٣) اِجدم وهجدم على البدل من الهمزة ، كلاهما من زجر الخيل . وفى القاموس بوصل الهمزة . وفى اللسان مرة بوصلها ومرة بقطعها . وانظر ما سبق فى الرسائل ١ : ٤٨ .

(٤) فى الأصل : « روح » ، تحريف ، صوابه من اللسان (وحح) وشرح الأشمونى للألفية ٤ : ٢٠٩ . قال فى اللسان : « وإذا طردت الثور قلت له قع قع ، وإذا زجرته قلت له وح وح » .

(٥) ديوان امرئ القيس ٢٦٢ ملحق الطوسى واللسان (وجه) والشعر والشعراء ٦٧ . أوجهه : جعل له وجهاً عند الناس وقدراً .

(٦) قال هذا الشعر حينما أتاه نعى عمه هشام بن عبد الملك وأوشك أن يبايع بالخلافة . الأغانى ١٦ : ١٠٧ . وفى الأغانى ٦ : ١٠٥ أيضاً أنه لما نعى هشام قال : والله لأتلقين هذه النعمة بسكرة قبل الظهر . ثم أنشأ يقول : =

وأَتَانِي بِحُلَّةٍ وقَضِيبٍ وأَتَانِي بِخَاتَمٍ ثُمَّ قَامَا[١]

وذكر البريدَ الكُمَيْتُ فى مديح أسماء بن خارجة[٢]، فقال :

إِذَا مَامَاتَ أَسْماءُ بْنُ حِصْنٍ فلاَ مطَرَتْ عَلَى الْأَرْضِ السَّماءُ[٣]

ولاَ قَامَ البَرِيدُ بِغُنْمِ جَيْشٍ ولاَ حَمَلَتْ عَلَى الطُّهرِ النِّسَاءُ[٤]

فَيَوْمٌ مِنْكَ خَيْرٌ مِنْ رِجَالٍ يَرُوحُ عَلَيْهِمُ نَعَمٌ وشَاءُ

= طاب يومى ولذ شراب السلافه إذ أتانى نعى من بالرصافه

وأتانا البريد ينعى هشاما وأتانا بخاتم للخلافه

فاصطبحنا من خمر عانة صرفا ولهونا بقينة عزافه

ثم حلف لا يبرح موضعه حتى يغنى فى هذا الشعر ويشرب عليه .

(١) بعدها فى الأغانى :

فجعلت الولى من بعد فقدى يفضل الناس ناشئاً وغلاما

ذلك ابنى وذاك قرم قريش يفضل الناس ناشئاً وغلاما

ولكنه لم يهنأ بولديه وليي عهده : الحكم وعثمان ، إذ قتلا بعد أن وثب عليه يزيد بن الوليد بن عبد الملك بالخلافة ، فخلعه وقتله سنة ١٢٦ . وأقام هذا فى خلافته ستة أشهر وتوفى سنة ١٢٧ . انظر التنبيه والإشراف ٢٨٠ ــ ٢٨١ وتاريخ الطبرى وجمهرة أنساب العرب ٨٩ ــ ٩١ .

(٢) ترجم فى البيان ٢ : ٧٢ .

(٣) لم ينسبها أبو الفرج فى الأغانى إلى الكميت . ونسبها فى ١٣ : ٤٠ إلى عبد الله بن الزبير الأسدى . وفى ١٧ : ١٠٨ إلى عويف القوافى . وسماه الشاعر أسماء بن حصن لأنه أسماء بن خارجة بن حصن بن حذيفة . وفى الموضع الأول من الأغانى : «إذا مات ابن خارجة بن حصن» . وفى الثانى : «إذا ما جاء يومك يا ابن عوف» !!

(٤) فى الموضع الأول من الأغانى : «ولا رجع الوفود» ، وفى الثانى : «ولا سار الخميس» .

وقال أَيْمَنُ بن خُرَيْمٍ الأَسَدِىّ[1] :

رَكِبْتُ مِنَ الْمُقَطَّمِ فى جُمَادَى إِلَى بِشْرِ بنِ مَرْوَانَ البَرِيدَا[2]

فَلَوْ أَعْطَاكَ بِشْرٌ أَلْفَ أَلْفٍ رأى حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَزِيدَا

وقال آخر :

إِذَا مَا بَرِيدُ الشَّامِ أَقْبَلَ نَحْوَنَا

بِبَعْضِ دَوَاهِى الدَّهْرِ سَارَ فَأَسْرَعَا[3]

فَإِنْ كَانَ شَرًّا سَارَ يَوْمًا وَلَيْلَةً

وإِنْ كَانَ خَيْرًا قَصَّدَ السَّيْرَ أَرْبَعَا[4]

---

(١) هو أيمن بن خريم بن الأخرم بن عمرو بن فاتك الأسدى. كان يسمى خليل الخلفاء لإعجابهم به فى تحديثه ، لفصاحته وعلمه . وهو من شعراء الدولة الأموية . ولأبيه صحبة برسول الله ورواية عنه ، واختلف فى صحبته هو . وقد جعله أبو الفرج فى الأغانى ٢١ : ٥ شيعياً ، على حين عده المسعودى فى التنبيه والإشراف ٢٥٣ عثمانيا . فهو قد اضطرب بين تيارين . وانظر الإصابة ١ : ٩٤ وتهذيب ابن عساكر ٣ : ١٨٧ والشعراء ٥٢٦ .

(٢) البيتان فى معجم البلدان ٧ : ١٢٧ ورواهما صاحب الأغانى ١ : ١٢٧ و ٢١ : ٨ من أبيات فى قصة مع عبد العزيز بن مروان الذى غضب عليه لنفاسته على نصيب الشاعر ، فاستأذنه بعد ذلك فى الانصراف ، فمضى لوجهه حتى لحق ببشر ابن مروان فى العراق .

(٣) البيتان بدون نسبة أيضاً فى البيان ٣ : ٢٣٠ . وفيه : « ببعض الدواهى المفظعات » .

(٤) قصّد السير : فصله ، كما يقال قصد العظم : كسره وفصله . وفى الأصل : « قصر » ، صوابه مما اتفقت عليه نسخ البيان . و « قصر » بالراء لا يستقيم بها المعنى ، إذ المعنى هنا على البطء لا على تقصير السير والإسراع فيه .

[رؤيا البغال وتأويلها]

سمعت أبا شُعْبة الأعمى المُعبِّر ، ونحن بالنَّهْرَوان ، سنةَ قدم الحسنُ ابن سَهْل ، وهو يقول لمُوَيْس بن عِمْران[١] : اذكرْ لإخوانك هؤلاء رُؤياك ، وتعبيري لها . قال : نعم ، قلتُ لك : رأيتُ فيما يرى النائم كأنِّي على بغلٍ بريدٍ ، فقلتَ لي : تُحَمُّ يومين وثُلُثَيْ يوم ، فكان كما قلتَ ؛ فسألتُك عن العلّة ، فقلتَ : لأن تشريف ذَنَب البغلة تشريفتان وثُلُثا تشريفة[٢] .

وقال الأصمعيّ : أرسل الحجّاج إلى الجَرْميّ المعبِّر ، يسأله عن رجل رأى كأنّه على بغلة ، وكأنه على شَرَف[٣] ، وكأنه يستفُّ تُرابًا ، فقال له : أما البغلُ فطول عُمُر ، وأما الشرف فشَرَفٌ من شرف الدنيا ، وأما التُّرابُ فَفَيْءٌ تأكله .

وقالوا : وسأل بعض المِصريِّين القرّاء المعبِّر ، فقال : رأيتُ كأنَّ معي درهمًا بَغْليًّا[٤] . قال : لستَ تُمْسي حتى تأكلَ شيئًا طيِّبًا . فكان كذلك .

---

(١) مويس بن عمران : معاصر للجاحظ ، ومن أصحاب النظام . واتهمه أبو شعيب القلال بالبخل واحتج لذلك ، مع أن الجاحظ ينوه في كتابه البخلاء ٦٣ بسخائه . وينوه أيضا بصدقه في كتاب الحيوان ٥ : ٤٦٨ ، قال فيه : « كان هو والكذب لا يأخذان في طريق » .

(٢) المراد بالتشريف رفع بعض أجزاء الذنب للزينة ونحوها .

(٣) الشرف : الموضع المرتفع .

(٤) كتب الأب أنستاس ماري تحقيقاً في حواشي النقود العربية ص ٢٢ : أنقله هنا لنفاسته : « البغلية : نسبة إلى بغل ، وهو اسم يهودي ضرب تلك =

٢١١ و

ثم أتاه بعد أيّام ، فقال : رأيتُ فيما يَرى النائم كأنّ معى درهماً بَخِيًّا[1] .
قال : لستَ تُمسِى حتى تُضرَب ضرباً وجيعاً ! فكان كذلك . فسأله عن
العلّة ، فقال : الدرهم البغلىّ مكتوب عليه بالفارسيّة : « خُشْ بخُرْ[2] » ترجمة

= الدراهم، وكان يعرف برأس البغل. قاله صاحب البرهان القاطع . وقال صاحب البرهان في مادة (درخش) : درخش اسم بيت ناز ، بناه رأس اليهود المعروف برأس البغل، وهو الذى ضرب بعد ذلك الدراهم البغلية فسميت باسمه ، وذلك فى مدينة أرمية التى بنى فيها ذلك البيت بيت النار ، وهو الذى بنى شيراز أيضا .

وجاء فى مجمع البحرين : الدرهمُ البغلى ، بسكون الغين وتخفيف اللام : منسوب إلى ضراب مشهور باسم رأس البغل . وقيل هو بفتح الغين وتشديد الياء ، [أى بَغَلِىّ] بلدة قريبة من الحلة ، وهى بلدة مشهورة بالعراق . والأول أشهر على ماذكره بعض العارفين ، وقدرت سعته بسعة الراحة ، وبعقد الإبهام وهو الدرهم الشرعى دون البغلى. عرف ذلك بالاختبار » . اهـ .

قلت : ومن النصوص التى ورد فيها ماجاء فى كتاب الديارات للشابشتى ص ١٢٤ لمصعب الكاتب فيه :

واخشع فى مشي وأصرف ناظرى وسجادتى فى الوجه كالدرهم البغلى

وإكمالا لبحثه كذلك أذكر ماجاء فى حياة الحيوان للدميرى ١ : ٩٣ فى ترجمة عبد الملك بن مروان : « وكانت الدراهم فى ذلك الوقت إنما هى الكسروية التى يقال لها اليوم البغلية ، لأن رأس البغل ضربها لعمر رضى الله عنه بسكة كسروية فى الإسلام ، مكتوب عليها صورة الملك، وتحت الكرسى مكتوب بالفارسية :نوش خور ، أى كل هنيئاً » .

(١) لم يذكره أنستاس ، لكن جاء فى القاموس : « ودرهم بخى ، وقد تشدد الخاء : كتب عليه : بخ . ومعمعى : كتب عليه : مع » .

(٢) خُش ، هى خوش ، وهى بمعنى اللذيذ الحسن الطيب . وخر ، هى فى الكتابة الفارسية « خور » بمعنى كل والباء تزاد أحيانا قبل الأمر فى الفارسية . وعند الدميرى ١ : ٩٣ : « نوش خور » ، تحريف .

هذه الكلمة : « كُلْ طَيِّبًا » . والدِّرهم البخيّ مكتوب عليه : « ضُرِب هذا الدرهم » . وهما مختلفان .

وأنشد الحَكَمُ بن عَبْدَلٍ[1] أسماء بن خارجة[2] شعراً ذكر [فيه] أنه رآه فى المَنام[3] ، فقال :

أَغْفَيْتُ قَبْلَ الصُّبحِ نَوْمَ مُسَهَّدٍ فى سَاعَةٍ مَاكُنْتُ قَبْلُ أَنَامُهَا
فرَأَيْتُ أَنَّكَ رُعْتَنِى بِوَلِيدَةٍ مَغْنُوجَةٍ حَسَنٍ عَلَىَّ قِيَامُهَا[4]
وبِبَدْرَةٍ حُمِلَتْ إِلَىَّ وبَغْلَةٍ شَهْبَاءَ نَاجِيَةٍ يَصِلُّ لِجَامُهَا[5]
فَدَعَوْتُ رَبِّى أَنْ يُثِيبَكَ جَنَّةً عِوَضًا يُصِيبُكَ بَرْدُهَا وسَلَامُهَا

قال أسماء : كلّ مارأيتَه فى النوم فهو عندنا كما رأيتَ ، إلّا البغلة فإنّها دَهماء ! قال : أعتق ما أملك إن كان رآها إلاّ دهماء[6] ، ولكنّه غلِطَ .

---

(١) سبقت ترجمته فى ص ٢٤٩ . (٢) سبقت الإشارة إليه فى ص ٢٧٦ .

(٣) قصة الأبيات فى الأغانى ٢ : ١٤٦ مخالفة لما هنا . فقد ذكر أبو الفرج أنه كانت لابن عبدل الأسدى حاجة إلى عبد الملك بن مروان ، فجعل يدخل عليه ولا يتهيأ له الكلام ، حتى جاءه رجل فقال : إنى رأيت لك رؤيا . فقال : هاتها . فقصها عليه ، فقال ابن عبدل : وأنا قد رأيت أيضا . قال : هات ما رأيت ، فقال . . » . وأنشد الأبيات .

(٤) فى الأغانى : « فحبوتنى فيما أرى بوليدة » . والمغنوجة ، لم أجدها فى المعاجم . وإنما ذكروا الغناج والغنجة . والغُنْج : حسن الدل ، والتكسر والتدلل .

(٥) بدله فى الأغانى ٢ : ١٤٦ :

ليت المنابر يا ابن بشر أصبحت ترقى وأنت خطيبها وإمامها

(٦) هذا شاهد على أن الاحتراز فى حكاية أيمان الطلاق والعتاق كان من =

[استطراد لغوى يتعلق بالبغال]

ومما اشتُقَّ من اسم البغل : « الدرهم البغلىّ[١] » . وفى بنى تَغْلِب[٢] « رأس البغل » وهو رئيس من رؤسائهم[٣] ، وهو الذى كان إبراهيم ابن هانئ الخليع[٤] نُسِب إليه .

وإذا كان الإنسان عظيم الرأس لقَّبوه : « رأس البغل » .

والبَغلات : جَوارٍ من رقيق مصر ، نِتاج ما بين الصَّقالبة وجنس آخر[٥] ، والواحدة منهنَّ يقال لها : « بَغلة » ، ولهنَّ أبدان ووَثارة وحَدارة[٦] .

= منهج القدماء . فعدل عن حكاية قوله «إن كنت رأيتها إلا دهماء» إلى هذا الأسلوب . ونحوه فى الأغانى : « قال : هى هى وإلا فعليه وعليه » بدل أن يقول : « فعلىّ وعلىّ » .

(١) سبق الكلام عليه فى ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٢) فى شفاء الغليل ٤٤ عند الكلام على (بغل) : « وفى بنى ثعلب » .

(٣) فى شفاء الغليل : « رئيس معروف » .

(٤) إبراهيم بن هانئ : « أحد معاصرى الجاحظ ، قال فيه : وكان ماجنا خليعاً كثير العبث متمرداً » . البيان ١ : ٩٣ . وروى عنه خبراً فى البخلاء ١١٤ . وانظر الحيوان ٣ : ١١٠ ، ٤ : ١٥٣ و ٥ : ٣٨١ ولسان الميزان ١ : ١١٨ .

(٥) فى شفاء الغليل ٤٤ نقلا عن كتاب البغال : « نتج بين الصقالبة وجنس آخر » .

(٦) الوثارة : السمن وكثرة الشحم . والحدارة ، بالحاء المهملة : الامتلاء باللحم والشحم ، يقال حدُر يحدر حدارة . وجعلت فى ط : « جدارة » خطأ وخلافاً لما هو واضح فى الأصل .

[معنى البغلة عند المصريين]

ويُروَى عن بعض العِراقيِّين ، قال : كنتُ عندَ قاضى مصر ، وهو يقول لبعض جُلسائه : عندى جارية أَطَؤُها منذ حين ، وقد اعترانى شَبَق ، وأنا على أن أشتريَ بغلة . قلت : وما تصنع ببغلة ؟ قال : أطؤها ، وأُصيبُ منها . فقلتُ فى نفسى : هذا أَمْجَن الناس وأحمقهم ، يتكلّم بهذا وهو قاضٍ ؟ ! ثم حكيتُ ذلك عند رجل من أهل مصر ، فقال : عافاك الله ، ما منّا من أحدٍ إلّا وعنده بَغَلات ينيكهنّ ! فتعجَّبتُ ، فلما رأى إنكارى ذلك ، فسَّرَ لى معنى البغلة عندهم .

٢١١ ظ

[ما قيل من الأمثال فى البغال]

قالوا : وإذا عظمت المرأة ، وعظُم بطنها ، قالوا : « ما هى إلّا بغلة » ، وما رأسُ فلان إلّا رأس بغل ، وما أيره إلّا أير بغل ، وما خُلُقه إلّا من أخلاق البغال .

[بعض ما أضيف إلى الرأس]

والمثل السائر : « كأنه جاء برأس خاقان[1] » ، « ورأسُ الجالوت[2] » ،

---

(١) مجمع الأمثال فى قولهم : « جاء برأس خاقان » وفى « أباى ممن جاء برأس خاقان » قال الميدانى فى الموضع الثانى : « قال حمزة : هذا مثل مولد حكاه المفضل بن سلمة فى كتابه المترجم بالكتاب الفاخر فى الأمثال . قال : والعامة تقول : كأنه جاء برأس خاقان . وخاقان هذا كان ملكا من ملوك الروم خرج من ناحية باب الأبواب وظهر على إرمينية ، وقتل الجراح بن عبدالله عامل هشام بن عبد الملك عليها ، وغلظت نكايته فى تلك البلاد ، فبعث هشام إليه سعيد بن عمرو الحرشى وكان مسلمة صاحب الجيش ، فأوقع سعيد بخاقان ففض جمعه واحتز رأسه وبعث به إلى هشام ، فعظم أثره فى المسلمين وفخم أمره ، ففخر بذلك حتى ضرب به المثل » . وانظر الفاخر ص ٩٨ والاقتضاب ٤٩ .

(٢) فى ثمار القلوب ٢٥٧ : « رأس الجالوت : رئيس اليهود ، كما أن الأسقف =

و« رأسُ الفاعوس[١] »، و« رأسُ الكتيبة والقبيلة » . فلذلك قال عمرو بن كُلثوم :

بِرَأْسٍ مِنْ بَنِي جُشَمَ بْنِ بَكْرٍ نَدُقُّ بِهِ السُّهُولَةَ وَالحُزُونَا[٢]

وقال أبو المهوِّش الأسدِىّ[٣] :

تَرَاهُ يُطَوِّفُ الآفَاقَ حِرْصًا لِيَأْكُلَ رَأْسَ لُقْمَانَ بْنِ عادِ[٤]

ورأس بن أبي الرأس القائد، مشهورٌ معروف .

ويقولون : « هذا على رأس الثُّمام[٥] » .

= رئيس النصارى ، والموبذ رئيس المجوس » . وجاء فى مفاتيح العلوم للخوارزمى ٢٤ : « والجالوت الجالية أعنى الذى جلوا عن أوطانهم ببيت المقدس . ويكون رأس الجالوت من ولد داود عليه السلام . وتزعم عامتهم أنه لا يرأس حتى يكون طويل البـــاع ، تبلغ أنامل يديه ركبتيه إذا مدهما » .

قلت : وهو بالعـــبرية « رُوش جالويُوت » .

(١) الفاعوس : الأفعى .

(٢) البيت من معلقته المشهورة .

(٣) هو حوط بن رئاب ، أو ربيعة بن وثاب ، من المخضرمين الذين أدركوا الرسول ولم يروه . الإصابة ٢٠١٩ والخزانة ٣ : ٨٦ ، ١٤٢ والشعراء ٢٢ وسمط اللآلى ٨٦٣ والبخلاء ٢١٦ والبيان ١ : ٢٠٧ و ٣ : ٣٢١ .

(٤) البيان ١ : ١٩٩ ، ٣ : ٣٢١ وثمار القلوب ٢٥٧ والاقتضاب ٤٩ والعقد ٢ : ٤٦٢ وأخبار الظراف ٢٤ . وروى : « يطوف فى الآفاق » . والبيت يروى أيضاً ليزيد بن الصعق ، كما فى معجم المرزبانى ٤٩٤ وكنايات الجرجانى ٧٣ والاقتضاب ٣٨٨ .

(٥) ويقال أيضا « على طرف الثمام » ، كما فى اللسان . قال : « وذلك أن الثمام لا يطول فيشق تناوله » . والثمام : نبت ضعيف له خوص أو شبيه بالخوص ، وربما حشى به وسد به خصاص البيوت .

وبالشَّام موضع يقال له : « بيتُ رأسٍ » تُباع فيه الخمر ؛ ولذلك قال الشاعر[١] :

* مُجَاجَةَ كَرْمَةٍ مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ[٢] *

وبيت رأس بالشام مثل . . . . أبيات[٣] ، وبيت لِهْيا[٤] .

ويقال : فلان رأس من الرءوس .

والرأس : رئيسُ السُّوَّاس .

[التبغيل]

ومن سَيْر الإبل سيرٌ يُسَمَّى : « التبغيل[٥] » ، قال الراعى :

وإِذَا تَرَقَّصَتِ المَفَاوِزُ غَادَرَتْ رَبِذًا يُبَغِّلُ خَلْفَهَا تَبْغِيلَا[٦]

---

(١) هو أبو نواس كما فى معجم البلدان (بيت رأس) .

(٢) ويروى : « مجاج سلافة » . وصدره :

* وتبسم عن أغر كأن فيه *

(٣) كذا وردت الكلمة مع انطماس الكلمة التى قبلها . ولعلها « بيت النار » وهى قرية كبيرة من قرى إربل . ذكره ياقوت .

(٤) لهيا ، بكسر اللام كما فى معجمى ياقوت والبكرى ، وبفتحها فى القاموس وتاج العروس . قال ياقوت : « كذا يتلفظ به ، والصحيح بيت الإلَٰهة ، وهى قرية مشهورة بغوطة دمشق .

(٥) التبغيل : مشى فيه سعة ، وقيل هو مشى فيه اختلاف واختلاط بين الهملجة والعنق .

(٦) جمهرة أشعار العرب ١٧٣ وشرح السبع الطوال ٥٧٢ واللسان (بغل ، رقص) ، وانظر لقصيدة الراعى الجمهرة والخزانة ١ : ٥٠٢ وشرح شواهد المغنى للسيوطى ٢٥١ .

[البغيلة]

والبُغَيْلة : اسم ناقةٍ كانت لجميل بن معمر ، ولذلك قال :

أضَرَّ بأخفافِ البُغَيلةِ أنَّها حِذَارَ ابْنِ رِبْعِىَ بهنَّ تَحُومُ[1]

ولذلك قال الرَّقَاشىّ[2] فى صفة ناقةٍ له تسمَّى « سَرْوة » :

لَعَمْرُكَ مَا البُغَيْـلةُ حِينَ تَغْدُو
وصَيْدَحُ حِينَ تَسْرَحُ فى الرِّحابِ[3]
كسَرْوَةَ حِينَ تَذْرَعُ عَرْضَ خَرْقٍ
بَعِيـدِ الآلِ مُشْتبِهِ الظِّرابِ[4]

---

(١) ابن ربعى هذا هو عامر بن ربعى بن دجاجة ، وكان والياً على بلاد عذرة كما فى الأغانى ٧ : ٨٨ . وذكر أن رهط بثينة استعدوا عليه عامر بن ربعى ، وذكروا أنه يهجوهم ويغشى بيوتهم ، ويشبب بنسائهم ،فأباح دمه وطلبه وفى الأغانى : « بهن رجوم » .

(٢) هو الفضل بن عبد الصمد الرقاشى ، أحد شعراء الدولة العباسية وممن مدح هارون والأمين والبرامكة ، وكان هو وأبو نواس يتهاجيان . انظر ترجمته فى الأغانى ١٥ : ٣٤ — ٣٥ وتاريخ بغداد ١٢ : ٢٤٥ — ٢٤٦ وما كتبت فى حواشى الحيوان ٢ : ٦١ .

(٣) صيدح : ناقة ذى الرمة ، التى يقول فيها :

سمعت الناس ينتجعون غيثاً فقلت لصيدح : انتجعى بلالا

ديوانه ٤٤٢ . وانظر الديوان أيضاً ص ٨٧ ، ١٥٤ ، ٣٢٤ .

(٤) ط : « بسروة » خلافا لما هو واضح فى الأصل . والظراب : الروابى الصغار ، واحدها ظرب ككتف

[مما قيل فى البريد]

ومما قالوا فى البريد ، قال رجل من الأنصار[١] عند وِلاية عُمَر بن عبد العزيز ، رضى الله عنه :

٢١٢ و

ثُمَّ جاءَ الْبَرِيدُ يُخْبِرُ أَنَّ الْـــقَوْمَ طُرًّا لَمْ يُخْرَمُوا التوْفِيقَا[٢]
مِنْ سُكُونٍ وأُلْفَةٍ وَاجتماعٍ لَمْ يُفَارِقْ مِنْهُمْ فَرِيقٌ فَرِيقَا
قَلَّدُوا الأَمْرَ سَيِّدَ النَّاسِ كلَّ الـــنَّاسِ نَفْسًا وأُسرةً وعُرُوقَا
مَنْ أَبُوهُ عَبْدُ العزيزِ بْنُ مَرْوَا نَ ومَنْ كان جَدُّهُ الفارُوقَا[٣]

وقال ابن أُذَيْنة اللَّيْثىّ[٤] :

---

(١) هو عتبة بن شماس ، كما فى الحيوان ٣ : ٥٢١ والعقد ٣ : ٢٩١ والكامل ٣٩٩ .

(٢) القوم ، كتب فوقها فى الأصل « الناس » .

(٣) هذا البيت مع بيت آخر قبله وبيت آخر بعده فى الحيوان والعقد والكامل فأول الأبيات الثلاثة التى رويت وحدها فى هذه المراجع :

إن أولى بالحق فى كل حق ثم أحرى بأن يكون حقيقا

وآخرها :

رد أموالنا علينا وكانت فى ذرى شاهق يفوت الأنوقا

وفى سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ٨ بدون نسبة أبيات ثلاثة ، هى :

إن أولى بالحق فى كل حق ثم أولى بأن يكون حقيقا
بالتقى والنهى وأخلاقه اللا تى تأبى بغيره أن تليقا
من أبوه عبد العزيز بن مروا ن ومن كان جده الفاروقا

(٤) هو عروة بن أذينة . وأذينة لقب أبيه واسمه يحيى . كان عروة شاعرا مقدما من أهل المدينة كما يعد فى فقهائها ومحدثيها . كذلك ، لكن غلب عليه الشعر =

أتانا البَرِيدُ التَّغْلَبِيُّ فراعَنَا لَهُ خَبَرٌ شَفَّ الفُؤَادَ فَأَنْعَمَا[١]

بِمَوْتِ أبِي حَفْصٍ فلا آبَ رَاكِبٌ

بِمَوْتِ أبِى حَفْصٍ أَخَبَّ وأَرْسَمَا[٢]

وذكر يزيد بن معاوية البريد، فقال:

جَاءَ البَرِيدُ بِقِرْطَاسٍ يَخُبُّ بِهِ

فَأَوْجَسَ القَلْبُ من قِرْطَاسِهِ فَزَعَا[٣]

قُلْنَا: لَكَ الوَيْلُ مَاذَا فِي صَحِيفَتِكُمْ

قَالُوا: الخَلِيفَةُ أَمْسَى مُدْنَفًا وَجِعَا[٤]

فَمَادَتِ الأَرْضُ أَوْ كَادَتْ تَمِيدُ بنا

كَأَنَّ أَغْبَرَ مِن أركانِهَا انقلعا[٥]

= الاغانى ٢١ : ١٠٥ – ١٢١ والشعراء ٥٦٠ والمؤتلف ٥٤ واللآلىء ٢٣٦ . وترجم له ابن خلكان عرضاً فى أثناء ترجمة سكينة بنت الحسين .

(١) ط : «شق» ،خلافا لما هو واضح فى الأصل . وشف الفؤاد: لذعه وأحرقه. وأنعم، أى زاد.

(٢) يقال جاءوا مخبّين: تخب بهم دوابهم . والخبب : ضرب من العدو ويقال أرسم الرجل بعيره : حمله على الرسيم ، وهو من سير الإبل فوق النميل .

(٣) قبله فى الأغانى ١٦ : ٣٣ : « عن الشعبي أن معاوية مات ويزيد بالصائفة، فأتاه البريد بنعْيه ، فأنشأ يقول ». ونحوه فى العقد ٤ : ٣٧٣ . والصائفة : الغزوة بالصيف . وفى ط : « عن قرطاسه » خلافا لما هو واضح فى الأصل . وفى الكتاب العزيز : « فأوجس منهم خيفة » .

(٤) فى الأغانى : « قال : الخليفة أمسى مثبتا » وفى العقد : « قالوا : الخليفة أمسى مثبتا » .

(٥) فى الأغانى : « مادت بنا الأرض » . و « وكأن أغبر » كذا وردت =

[ضروب من البغال]

وقد كان أيضاً بالكوفة [نِتاجٌ[١]] بين الخُراسانيّة والهنديّات ، وكان أملحَ وأحسنَ قدوداً من البَغَلات اللواتى بمصر ؛ وكانت ألوانهنَّ تجىء ذهبيّةً ، لها حَلاوة الهِندية[٢] ، ورَوْعة الخَراسانية .

[جوارى الكوفة والبصرة]

وكذلك مُطَهَّمات جوارى الكوفة ، زُرقًا تجدهنَّ ، إلاّ الواحدةَ بعـــد الواحدة ، وإنّما الثمينات المرتفعات ، والغـــوالى الخطيراتُ بَصْريّاتٌ ، مثل عجوز عُمَير[٣] ، ومُتَيَّم[٤] ، وبَذْل[٥] ، وعَرِيب[٦] ،

= فى الأصل والعقد . والأوفق رواية الأغانى : « كأن ما عـزّ » . وبعد هذا البيت فى الأغانى بيتان ، وفى العقد بعده ستة أبيات ليس منها بيتا الأغانى .

(١) بمثلها يلتئم الكلام ، وهى من اقتراح شارل . (٢) فى الأصل : « الهند » .

(٣) لم أجد لها خبراً . وفى الأغانى ٢٠ : ٤٣ : « كان بالكرخ نخاس يكنى أبا عمير ، وكان له جوار قيان ، لهن ظرف وأدب » .

(٤) هى متيم اللبانة ، بنت عبد الله بن إسماعيل المراكبي . وكانت صفراء مولدة من مولدات البصرة ، وبها نشأت وتأدبت وغنت ، وأخذت عن أسحاق وأبيه من قبله . وكانت من تخريج بذل وتعليمها . وكانت مولاة عريب ثم اشتراها على بن هشام فحظيت عنده حظوة شديدة وتقدمت على جواريه أجمع عنده ، وهى أم ولده كلهم . الأغانى ٧ : ٢٩٠ ــ ٣٥ وانظر طبقات ابن المعتز ٣٢٠ .

(٥) كانت بذل صفراء من مولدات المدينة ، وربيت بالبصرة ، يقال إنها كانت تغنى ثلاثين ألف صوت ، ابتاعها جعفر بن موسى الهادى فأخذها منه الأمين وأعطاه مالا جزيلا ، ثم وقعت إلى المأمون ثم المعتصم ، وعملت لعلى بن هشام كتاباً فى الأغانى يشتمل على اثنى عشر ألف صوت . الأغانى ٧ : ٣١ و ١٥ : ١٣٨ ــ ١٤٠ . وبذل هذه هى بذل الصغيرة المغنية .

(٦) كانت عريب جارية لعبد الله بن إسماعيل المراكبي صاحب مراكب الرشيد =

وبَذْل[١] : جارية المَرَاكبى[١] ، وشاريَة[٢] : جارية إبراهيم بن المَهدى ، وزِرْياب الكُبْرَى[٣] ، وعَساليج[٤] : جارية الأَحْدَب[٥] ، وفضْـل[٦] :

= وهو الذى رباها وأدبها وعلمها الغناء . ويقال إنها بنت جعفر بن يحيى ، وأن البرامكة لما انتهبوا سرقت صغيرة ، ووقعت حينا فى ملك الأمين ، ثم رجعت إلى صاحبها ثم إلى المأمون ثم المعتصم . ولدت سنة ١٨١ وعاشت ستا وتسعين سنة . وقد أسهب أبو الفرج فى نعتها وتقريظها . الأغانى ١٨ : ١٧٥ — ١٩١ .

(١) بذل هذه ، هى بذل الكبيرة ، أو الكبرى . ذكرها أبو الفرج فى الأغانى ٧ : ٣١ و ٩ : ٣٤ و١٧ : ١٣٢ . والمراكبى ، هو عبد الله بن إسماعيل ، وكان صاحب مراكب الرشيد . الأغانى ١٨ : ١٧٧ .

(٢) فى الأصل : « شارى » تحريف . وهى شارية البصرية المولدة ، اشتراها إبراهيم بن المهدى بثمانية آلاف درهم . وذكروا أن المعتصم أعطى بها سبعين ألف دينار فامتنع عن بيعها . الأغانى ١٤ : ١٠٥ — ١١٠ .

(٣) هى زرياب الواثقية ، ذكر أبو الفرج فى الأغانى ٩ : ٣٤ أنها كانت ممن يغير الغناء القديم . وذكر فى ٩ : ١٣٦ أنها غنت فى حضرة عبد الله بن المعتز . وفى المغنين أيضاً « زرياب » وهو عبد أسود كان لإبراهيم الموصلى ، وكان مطبوعا على الغناء ، علمه إبراهيم ، وكان ربما حضر مجلس الرشيد يغنى فيه ، ثم انتقل إلى بنى الأغلب فأخفق وأخرجوه ، فجاز البحر إلى الأندلس ، فكان عند عبد الرحمن ابن الحكم . العقد ٦ : ٣٤ .

(٤) ذكر أبو الفرج فى الأغانى ١٧ : ١٣٢ أنها كانت لرقية بنت الفضل ابن الربيع ، اشترتها من آل يحيى بن معاذ .

(٥) الأحدب القين ، كان من أصحاب القيان ، كما يفهم من الأغانى ١٧ : ١٣٣ وذكر أن عبد الله بن العباس الربيعى كان يعشق مصابيح ، جارية الأحدب القين ، ثم قال : « هكذا ذكر شبية بن هشام من أمر مصابيح ، وهى مشهورة من جوارى آل يحيى بن معاذ . ولعلها كانت لهذا القين قبل أن يملكها آل يحيى وقبل أن تصل إلى رقية بنت الفضل بن الربيع . فلعل هذا النص يفسر ما ذكر الجاحظ أن « عساليج جارية الأحدب » أيضاً .

(٦) كانت فضل شاعرة من أحسن خلق الله خطا ، وأفصحه كلاما ، وأبلغه فى =

جارية العَبدىّ[1] . وقَبل هذا سَلْسَلُ[2] وأشباه سلسل .

[أخبار فى البريد]

وبُرُد كُتُب الملوك كانت تختلف ما بين فَرْغانة القُصْيا[3] إلى السُّوس الأقصى ، وكانت البُرُد منظومة إلى كِسرى ، من أقصى بلاد اليمن إلى بابه ، أيام وَهْرِز[4] ، وأيام قُتل مسروقٌ[5] عظيم الحَبَشة . وكذلك كان عظيم الروم . قال امرؤ القيس :

= مخاطبة . وكانت من مولدات البصرة، ونشأت فى دار رجل من عبد القيس، وباعها بعد أن أدبها وخرجها ، فاشتريت وأهديت إلى المتوكل ، ولم تكن تعرف بعد أن أعتقت إلا بفضل العبدية . الأغانى ١٧ : ٤ - ٨ و ٢١ : ١١٤ - ١٢٠ .

(١) فى الأصل : العباد » . وانظر الحاشية السابقة .

(٢) ط : «وقيل لهذا السلسل» ، خلافا لما أثبته واصحافى الأصل. وسلسل هذه كانت جارية لبعض المغنين بالبصرة ، قال أبو الفرج : كانت من أحسن الناس وجها وغناء . وفيها يقول أبان بن عبد الحميد :

فتنت سلسل قلب ابن قطن ثم ثنت بابن صخر فافتتن
فأتيت اليوم كى أتقدم فإذا نحن جميعا فى قرن

وفى المغنين أيضا « سلسل » وكان مولى لبنى هاشم . الأغانى ٩ : ٢٢ - ٢٣ .

(٣) كذا فى الأصل ، وهى صحيحة ،يقال قصوى وقصيا . وفى اللسان : « أهل الحجاز قالوا : القصوى ، فأظهروا الواو وهو نادر ، وأخرجوه على القياس إذ سكن ماقبل الواو . وتميم وغيرهم يقولون : القصيا » . وجاء فى تفسير الأشمونى لقول ابن مالك :

بالعكس جاء لام فعلى وصفا وكون قصوى نادرا لايخفى

« وأما قول الحجازيين القصوى فشاذ قياسا فصيح استعمالا ، نبه به على الأصل. وتميم يقولون القصيا على القياس » .

(٤) وهرز : أحد قواد كسرى الذين أرسلهم إلى اليمن كما سبق فى ١ : ٢٠١ . وانظر السيرة ٤٣ .

(٥) هو مسروق بن أبرهة الحبشى حاكم اليمن . وفى دهره خرج سيف =

٢١٢ ظ

وَنَادَمْتُ قَيْصَرَ فِي مُلْكِهِ ... فَأَوْجَهَنِي وَرَكِبْتُ البَرِيدَا[1]

إِذَا مَا ازْدَحَمْنَا عَلَى سِكَّةٍ ... سَبَقْتُ الفُرَانِقَ سَبْقًا بَعِيدَا

وكذلك كانت بُرُد كسرى إلى الحيرة: إلى النعمان وإلى آبائه. وكذلك كانت بُرُدُه إلى البحرين: إلى المُكَعْبَر مَرْزُبان الزَّارة[2]، وإلى مشكاب[3]، وإلى المُنذِر بن ساوَى[4]، وكذلك كانت بُرده إلى عُمان، إلى الجُلَنْدَى

= ابن ذى يزن مستغيثاً بقيصر، ثم بكسرى، لينقذا اليمن من ظلم الحبشة، فبعث معه كسرى جيشا يقوده وهرز السالف الذكر. ووهرز هذا الذى قتل مسروقا وأزال ملك الحبشة على اليمن بعد أن تداوله أربعة منهم فى اثنين وسبعين سنة، وهم أرياط، وأبرهة، ويكسوم بن أبرهة، ثم مسروق بن أبرهة، السيرة ٤٢ — ٤٥.

(١) سبق البيتان فى ص ٢٧٥.

(٢) الزارة: قرية كبيرة بالبحرين. وفتحت الزارة فى سنة ١٢ فى أيام أبى بكر الصديق. معجم البلدان، قال: « ومنها مرزبان الزارة، وله ذكر فى الفتوح ». وفى معجم ما استعجم أنها مدينة من مدن فارس، وهى التى بارز البراء بن مالك مرزبانها فصرعه فقطع يديه، فأخذ سواريه ومنطقته ». ثم قال: « وأصل الزارة الأجمة أجمة القصب ». وفى الإصابة ٦١٧ فى ترجمة البراء ابن مالك أنه فى يوم تستر حمل وحمل الناس معه، فقتل مرزبان الزارة من عظماء الفرس وأخذ سلبه، فانهزم الفرس وقتل البراء.

(٣) وردت فى ط: « مسكاب »، وهى فى أصلها بالشين المعجمة.

(٤) فى الأصل: « شارى »، تحريف. وفى جمهرة أنساب العرب ٢٣٢: « ومن بنى عبد الله بن زيد بن عبد الله بن دارم — وهو الأسبذى، نسب إلى الأسبذ، وهى قرية بهجر — المنذر بن ساوى صاحب هجر ». وانظر المحبر ٢٦٥. وفى السيرة ٩٤٥ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث العلاء بن الحضرمى قبل فتح مكة إلى المنذر بن ساوى العبدى، فأسلم فحسن إسلامه، ثم هلك بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ردة أهل البحرين ». وترجم له فى الإصابة ٨٢١٢ وذكر أنه المنذر ابن ساوى بن الأخنس بن بنان بن عمرو بن عمرو بن عبد الله بن زيد بن عبد الله ابن دارم. و« ساوى » ضبطه فى الإصابة ٨٤٦١ بفتح الواو مقصوراً.

ابن المستكبر[١]. فكانت بادية العرب وحاضرتها مغمورتين ببُرُده ، إلّا ما كان من ناحية الشام ؛ فإنّ تلك الناحيةَ من مملكة خَثْعَم وغَسَّان إلى الروم ، إلّا أيّامَ غلبتْ فارسُ على الروم . ولذلك صرنا نرى النواويس بالشّامات إلى قُسطنطينية[٢] .

وهل كانت بُرُد كسرى إلى وَهْـرِزَ[٣] ، وباذَام[٤] ، وفَيْرُوزِ ابن الدَّيْلَمِيِّ[٥] ، وإلى اليَمن ، وإلى المُكَعْبَرِ مَرْزُبان الزارة ، وإلى النُّعمان بالحيرة ، إلّا البغال ؟ وهل وجدُوا شيئاً لذلك أصلحَ منها ؟

---

(١) هو الجلندى بن كركر بن المستكبر بن مسعود . جمهرة أنساب العرب ٣٧٤ . وفى المحبر ٧٧ : « الجلندى بن المستكبر » . وفيه ص ٢٦٥ أن ملوك فارس كانت تستعمل بنى المستكبر على عمان . وفى الإصابة ١٢٩٢ أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث إليه عمرو بن العاص يدعوه إلى الإسلام ، فأسلم وقال :

فيا عمرو قد أسلمت لله جهرة ينادى بها فى الواديين فصيح

(٢) جعلت فى ط : « القسطنطينية » . والنواويس : مقابر النصارى ، جمع ناوس . والشامات : بلاد الشام ، وتشمل الثغور ، وهى المصيصة وطرسوس وأذنة وأنطاكية وجميع العواصم من مرعش والحدث وبغراس إلى غير ذلك . وللجاحظ ولوع بهذه التسمية . انظر الحيوان ١ : ٨٣ و ٣ : ٣١٢ ، ٤٠٤ ، ٤٥٣ .

(٣) انظر ماسبق فى ص ٢٩٠ .

(٤) ويقال أيضاً : « باذان » بالنون . التنبيه والإشراف ٢٤١ والسيرة ٤٦ والإصابة ٧٥٥ والصحاح (نطف) وحواشى الاشتقاق ٢٢٦ وجمهرة أنساب العرب ٥١٢ ومعجم استينجاس ١٤١ وفى القاموس : « وباذان الفارسى من الأبناء ، أسلم فى حياة النبي » . وكان باذان من الأبناء الذين بعثهم كسرى إلى اليمن ، وكان ملك اليمن فى زمانه ، وأسلم باذان لما هلك كسرى وبعث بإسلامه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فاستعمل على بلاده وهو أول من أمر فى الإسلام على اليمن . وكان مصرعه على يد العنسى الكذاب .

(٥) فى الجمهرة ٥١٢ : « ودادويه وفيروز المعروف بابن الديلمى لهما صحبة » . =

[ما قيل من الشعر فى البغال]

ومما ذكروا به شأن البغال فى الشعر وغيره ، قول الشاعر[(١)] :

جَعَـــلَ ابْنُ حَزْمٍ حَاجِبَيْنِ لِبَابِهِ
سُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ ابْنَ حَزْمٍ يُحْجَبُ[(٢)]

وعَجِبْتُ أَنْ رَكِبَ ابْنُ حَزْمٍ بَغْـلَةً
ورُكُوبهُ فَوْقَ المَنَـابِرِ أَعْجَبُ

وقال أَعْشَى هَمْدان ، فى خالد بن عتَّاب بن وَرْقاء[(٣)] ــ وكُنيةُ خالد أبو سليمان ، اكتنى بكنية خالد بن الوليد[(٤)] ، فقال :

= وكان فيروز من أبناء الأساورة من الذين كان كسرى قد بعثهم إلى قتال الحبشة . وقد وفد على رسول الله ثم رجع إلى اليمن فأعان على قتل الأسود العنسى . وهو صحابى روى عنه أبناؤه الضحاك ، وسعيد ، وعبد الله . ويقال له فيروز الديلمى ، وابن الديلمى ، الإصابة ٧٠٠٤ . وفيروز ، بفتح الفاء ، كما فى القاموس . توفى سنة ٥٣ باليمن فى خلافة معاوية .

(١) هو الأحوص بن محمد الأنصارى كما سبق فى كتاب الحجاب ص ٦١ .

(٢) ابن حزم هذا هو أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصارى القاضى ، كان عاملا على المدينة والحج من قبل سليمان بن عبد الملك . الأغانى ٤ : ٤٣ . وترجم له فى تهذيب التهذيب ١٢ : ٣٨ — ٤٠ وذكر أن عمر بن عبد العزيز استعمله على المدينة والقضاء وموسم الحج . واختلف فى سنة وفاته من سنة ١٠٠ إلى سنة ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٠ . وفى كتاب الحجاب تأخير هذا البيت عن لاحقه مع خلاف فى الرواية أيضاً .

(٣) خالد بن عتاب بن ورقاء الرياحى ، كان من عمال الحجاج على الرى ثم غضب عليه وطلبه ، فهرب إلى الشام ، واستجار بزفر بن الحارث الكلابى ، فراجع عبد الملك فى أمره فأجاره وكان له أثر عظيم فى قتال الخوارج . الأغانى ١٦ : ٤١ — ٤٢ والطبرى ٧ : ٢٥٢ — ٢٥٤ والحيوان ٥ : ٥٩٠ .

(٤) إذ كان خالد بن الوليد بن المغيرة ، القائد المشهور ، يكنى أبا سليمان ، وسليمان ولده . انظر جمهرة ابن حزم ص ١٤٧ . كما كان يلقب سيف الله . الإصابة ٢١٩٧ حيث أورد حديث : « نعم عبد الله هذا سيف من سيوف الله » .

تُمَنِّينِي إِمَارَتَهَا تَمِيمٌ وما أُمِّي بِأَمِّ بَنِي تَمِيمِ (١)
وكانَ أبُو سُلَيْمَانٍ خَلِيلِي ولٰكِنَّ الشَّرَاكَ مِنَ الأَدِيمِ (٢)
أَتَيْنَا أَصْبَهَانَ فَهَزَّلَتْنَا وكُنَّا قَبْلَ ذٰلِكَ فِي نَعِيمِ (٣)
أَتَذْكُرُنَا ومُرَّةَ إِذْ غَزَوْنَا وأَنْتَ عَلَى بُغَيْلِكَ ذِي الوُشُومِ (٤)
ويَرْكَبُ رَأْسَهُ فِي كُلِّ وَهْدٍ ويَعْثُرُ فِي الطَّرِيقِ المُسْتَقِيمِ (٥)
وَلَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا طَيْلَسَانٌ نَصِيبِيٌّ وإِلَّا سَحْقُ نِيمِ (٦) ٢١٣ و

---

(١) وكذا فى الأغانى ٥ : ١٤٣ . والأم ، بالفتح: القصد والطريقة . وفى البيان ٤ : ٥٠ : « وما أمرى وأمر بنى تميم » .

(٢) فى الأغانى : « وكان أبو سليمان أخا لى » .

(٣) كان أعشى همدان قد رحل مع خالد بن عتاب إلى أصبهان حين وليها ، وكان من قبل قد منّاه وقال له : متى استعملت فخذ خاتمى واقض فى أمور الناس كيف شئت . فلما وصل إلى عمله جفاه وتناساه .

(٤) كذا فى الأصل والأغانى ونسخة ه من البيان . والأوفق « الوسوم » بالسين ، جمع وسم ، وهو أثر الكى . إذ كثر استعمال الوشم فيما تصنعه المرأة من غرز يدها أو ذراعها بالإبرة ، ثم حشوها بالكحل أو بالنؤور .

(٥) فى الأغانى والبيان : « فى كل وحل » .

(٦) ط : « فليس » ، خلافاً لما فى الأصل والبيان والأغانى . والطيلسان : ضرب من الأوشحة يلبس على الكتف أو يحيط بالبدن ، ليس به تفصيل أو خياطة . فارسى معرب . انظر المعجم الوسيط . نصيبى : نسبة إلى نصيبين من مدن الجزيرة . والسحق : البالى . والنيم : فرو قصير إلى الصدر . ولفظ « نيم » فارسى معناه النصف أو الوسط . وبعد هذا البيت فى الأغانى :

فقد أصبحت فى خز وقز تبختر ما ترى لك من حميم
وتحسب أن تلقاها زمانا كذبت ورب مكة والحطيم

والقصة بقية فى الأغانى .

[بغـلة عكرمة]

وكان عِكْرِمة بن رِبْعىّ التَّيْمِىّ[١] ، الذى يقال له « الفيّاض » ، يُعْجَبُ ببغلة عنده[٢] ، وكان على شُرَط الحجَّاج ، وكان لا يأتى الحجَّاجَ فى مَوْكِبه مع الأشراط والوُجوه إلّا عليها ، وفيها يقول عِكرمة :

لَمْ أَرَ شَيْئًا بَيْنَ شَيْئَيْنِ مِثْـــلَهُ
أَشَدَّ انْتِزَاعًا لِلتَّشَابُهِ فِى الأَصْــلِ[٣]

تقسَّـــمه أطرافُهُ فاســـتزالَهَا
بِقِسمةِ عَدلٍ مِن يَدَىْ حَكَمٍ عَـــدلِ

وأنشد أبو زَيْدٍ النحوىّ :

فَـكَيْفَ بِأَطْرَافِى إِذَا مَاشَتَمْتَنِى وما بَعْدَ شَتْمِ الوَالِدَيْنِ صُلُوحُ[٤]

---

(١) هو عكرمة بن ربعى بن عمير بن صبيح بن لأى بن مـــوألة . كان من أجواد الإسلام ، بل كان واحداً من ثلاثة أجواد بالـكوفة ، ثانيهم عتاب بن ورقاء وثالثهم أسماء بن خارجة . انظر المحبر ١٥٤ والعقد ١ : ٣٤٠ و ٦ : ٩٨ . وكان كاتبا لبشر بن مروان فى الـكوفة ، وقد مدحه الأخطل . الأغانى ٧ : ١٧٨ . ويعد من أبطال ألف ليله وليلة . انظر الليلة ٦٨٣ ، ٦٨٤ .

(٢) ط : « ببغلة عذرة » ، خلافاً لما هو واضح فى الأصل .

(٣) ط: « للنسابة » ، تحريف . وزيدت فيها واو فى البيت ، وليس ما يدعو إليها ؛ فإن الخرم كثير فى شعر العرب .

(٤) أنشده فى اللسان والمقاييس (صلح ، طرف) وإصلاح المنطق ١٢٤ . ونسب فى اللسان (طرف) إلى عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود . أراد بالأطراف أبويه وإخوته وأعمامه وكل قريب محرم له . والصلوح : الصلاح .

[شبه البغل بوالديه]

وقال أصحاب البغال : لا نعلم شيئاً من الحيوان رُكِّبَ بين شيئين نزع إليهما نزعًا سوَاء لايغادر[1] شيئاً غير البغل ، فإنّ شَبَه أبويْه عليه بقسمة عدْل ، وقد ذكر ذلك محمد بن يَسِير[2] فى شعره الذى طلب فيه من مُوَيْس ابن عِمران[3] بغلةً لرحلةٍ[4] ، فقال :

أَضْمُمْ عَلَيَّ مَآرِبًا قَدْ أَصْبَحَتْ ... شَتَّى بَدَادِ شَتِيتَةَ الْأَوْطَانِ[5]

بِزَفُوفِ سَاعَاتِ الـكَلَالِ دَلِيقَةٍ ... سَفْوَاءَ أَبْدَعَ خَلْقَهَا أَبَوَانِ[6]

لَمْ يَعْتَدِلْ فِي الْمَنْصِبَيْنِ كِلَاهُمَا ... عِنْدَ التَّنَاسُبِ مِنْهُمَا الجِنْسَانِ

إِلَّا تَـكُنْ لِأَبٍ أَغَرَّ فَإِنَّهَا ... تَنْمِى إِلَى خَالٍ أَغَـرَّ هِجَانِ

---

(١) ط : « لايقادر » ، تحريف .

*(٢) سبقت ترجمته بتفصيل فى حواشى البيان ١ : ٦٥ .

(٣) مضت ترجمته فى ص ٢٧٨ .

(٤) فى الأصل : « لرجله » ، وجعلت فى ط : « لرحله » ، والوجه ماأثبت .

(٥) المآرب : جمع مأرب ، وهو الحاجة . وفى الأصل : « ماارما » . بَدَادِ ، بالبناء على الكسر : أى متبددة متفرقة .

(٦) أى زفوف فى ساعات الكلال والتعب . والزفوف : السريعة السير . والدليقة ، أراد بها الشديدة الدفعة . وفى اللسان : « وخيل دلق ، أى مندلقة شديدة الدفعة » . والمعروف فى وصف المفرد « دلوق » لا « دليق » . والسفواء ، قال أبو عبيدة : هى الخفيفة الناصية ، وذلك مما تمدح به البغال ، ويستحب السفا فى البغال ويكره فى الخيل . وأنكر هذا الأصمعى وقال : السفواء بمعنى السريعة لاغير .

نَزَعَتْ عَنِ الْخَيْلِ العِتَاقِ نَجَاءَهَا مِنْهَا ، وعِتْقَ سَوَالِفٍ و لَبَانِ(١)

ولَهَا مِنَ الْأَعْيَارِ عِنْدَ مَسِيرِهَا جِدٌّ وطُولُ صَبَارَةٍ ومِرَانِ(٢)

قال ذلك لأن حافرَ العَير أوْقَح الحوافر(٣) ، فأعطاه أبوه من الخصلة التى بَانَ بها من سائر الحوافر .

[الخلق المركب]

قالوا : وليس فى جميع الخلق المركَّب مثل الراعِبِىّ(٤) ، الذى هو من نِتاج ما بين الوَرَشان والحَمام : لم يأخذ من هِداية أمّه شيئاً ، ولم يُعْطِه أبوه من طول عمره شيئاً . ٢١٣ ظ

ومن المركَّب : السِّمع ، والعِسْبار(٥) . وكما تحكى الفلاسِفة والمجرِّبون عن الـكَوْسَج ، واللُّخْم(٦) .

---

(١) النجاء : السرعة . والسوالف : جمع سالفة ، وهى ماتقدم من العنق . واللبان ، كسحاب : ماجرى عليه اللبب من الصدر .

(٢) الذى فى المعاجم « المرانة والمرونة » ، وهى الدربة والقدرة فى العمل .

(٣) الوقاحة : الصلابة .

(٤) انظر الحيوان ١ : ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٣٧ ، ١٣٨ . و ٣ : ١٦٢ ، ١٦٣ ، ٢٠٢ .

(٥) السمع ، بالكسر : ولد الذئب من الضبع فيما تزعم العرب. والعسبار: ولد الضبع من الذئب فى زعمهم. الحيوان ١ : ١٨١ و ٦: ١٥٠ .

(٦) الكوسج : حيوان بحرى يتولد بين اللخم وسمكة أخرى ، كما فى الحيوان ٧ : ١٢٦. وفى ١ : ٣١ أنه ليس له أب يعرف . فاللخم على هذا أمه . واللخم من حيوان البحر الذى يلد ، كما فى الحيوان ٧ : ١٢٦ . ويفهم من الدميرى أن الكوسج واللخم والقرش سواء .

والدَّجاج الخِلاسِيّ ، من بين النَّبَطِيّ والهِنْدِيّ . وإذا كان مثلُ ذلك بين البيضاء والحبشيّ فهو خِلاسيّ ، فإذا كان بين البيضاء والسِّنْدِيّ فهو يَيْسَرِيٌّ . وكذلك الخِلاسِيُّ من الكلاب الذى بين الكُرْدِيّ وبين السَّلُوقِيّ[1] .

ومثل الجَمَّازات التى تجىء بين فَوَالِج البُخْت وقِلاص العِراب[2] ، ومثل البِرْذَوْن الشِّهْرِىّ من الرَّمَكة والفرس العتيق[3] .

قالوا : فليس يعتدل فى شىء من ذلك الشَّبَهُ ، كما يعتدل فى البغل .

ولذلك قال الشاعر السَّوّاق[4] ، وهو إبراهيم مولى المَهَالِبة :

تَسَاهَمَ فِيهِ الخالُ والعَمُّ مِثْلَمَا تَسَاهَمَ فِى البَغْلِ الحِمَارَةُ والطِّرْفُ

فزعم فى هذا الشعر أنّ هذا البغل أبوه فرس ، وأمّه أتانٌ . وهذا خِلاف ما رواه أبو عُبَيْدة . وأنشد أبو عبيدة :

---

(١) انظر الحيوان ١ : ٣١١ - ٣١٢ .

(٢) انظر الحيوان ٥ : ٤٥٩ . وجاء فى ٧ : ٢٤٢ : « وقد تتسع أرحام القلاص العربية لفوالج كرمان ، فتجىء بهذه الجمازات » .

(٣) فى اللسان : « والشهرية : ضرب من البراذين ، وهو بين البرذون والمقرف من الخيل » . والرمكة : أنثى البراذين .

(٤) السواق ، المراد به بائع السويق . انظر المعجم الوسيط . وفى أنساب السمعانى ٣١٦ أن السواق نسبة إلى بيع السويق . ومثله ما ورد فى الأنساب ٣١٨ أنه يقال سويقى وسواق أيضاً لبائع السوق . أقول : فهو كما يقولون بزاز وعطار ، لبائع البز والعطر . ولم أجد خبرا لإبراهيم هذا إلا ما ورد فى العقد ٥ : ٣٧٩ - ٣٨١ حيث روى قصة طريفة له ، وسماه « إبراهيم السويقى » .

وشَارَكَها فِي خِيمِها وَهْوَ رَاغِمٌ
كما شَارَكَتْ فِي البَغْلِ عَيْرًا حُجُورُها[1]

لأنهم[2] يقولون : إذا كانت الأم رَمَكَةً ، خرج البغل وَثِيجًا[3] قويًّا عريضًا ، وإذا كانت الأم حِجْرًا خرج البغل مُسَلَّكًا[4] ، طويل العنق ، وفيه دِقَّة .

وذُكر عن بعض الناس أنّه شتم بعض الأشراف ، فقال : « عجبتُ لقوم إذا قيل لهم : من أبوكم ؟ قالوا : أُمُّنا فرس » .

[رجع إلى ذكر بغلة عكرمة]

ثم رجع القول بنا إلى ذكر بغلة عِكْرِمة بن رِبْعِىّ .

قالوا : فلما ألحّ عِكْرِمة فى ركوب ذلك البغل إلى باب الحجَّاج ، كتب إليه بعضُ بنى عمِّه ، يردُّ عليه امتداحه البغل باستواء الشَّبَه فيه ، ويُخوِّفه بالحجَّاج إن ارتفع إليه فى الخبر أنَّ صاحب أشراطِه يأتى بابَه فى فُرسان أهل العِراق والشام ووجوهِهم ، على بغل .

وقال فى كلمة له :

فَكَيْفَ بِغُرْمُولٍ وعُمْـرٍ سِوَى الّذِى
يَكُونُ لِعَـيْرِ الأَهْلِ والفَرَسِ الفَحلِ

٢١٤ و

(١) الخيم ، بالكسر : الطبيعة والسجية . والحجور : جمع حجر بالكسر ، وهى الفرس الأنثى ، لم يدخلوا فيه الهاء لأنه اسم لا يشركه فيه الذكر .
(٢) فى الأصل : « كأنهم » .
(٣) الوثيج : القوى المكتنز الكثير اللحم .
(٤) فى اللسان : « ورجل مسلك : نحيف . وكذلك الفرس »

ورَأْسٍ يَجُوزُ الخالَ والعَمَّ بَعْدَ مَا
تَحَوَّلَ شَحَّاجًا خِلافًا عَلَى الأَصْلِ
ولَيْسَ شَحِيجُ البَغْلِ مِنْ عَزْفِ نَاهِقٍ
وقَدْ بَاعَدَ اللهُ الشَّحِيجَ مِنَ الصَّهْلِ
مَتَى كَانَ ذُو الأَشْرَاطِ يَرْكَبُ بَغْلَةً
ويَتْرُكُ طِرْفًا ذَا تَمامٍ وذَا نُبْلِ
عَذِيرِى مِنَ الحَجَّاجِ إنْ ذَاكِرٌ نَعَى
علَيْكَ رُكُوبَ البَغْلِ فِى ساعَةِ الحَفْلِ
فَمَا لَكَ تَجْتَابُ الهُوَيْنَى مُهَمْلِجًا
إِلَى بَابِ حَجَّاجٍ عَلَى المَرْكَبِ الرَّذْلِ
أُعِيذُكَ بِالرَّحْمٰنِ مِنْ زِىِّ تَاجِرٍ
شَقِىٍّ لَئِيمِ الكَسْبِ ذِى خُلُقٍ نَذْلِ
بَغِيضٍ إِلَى جَارَاتِهِ وبَنَاتِهِ
وعِرْسٍ لَهُ عَرْجَاءَ بَارِزَةِ الرَّحْلِ[1]
إِذَا زَارَهُ مِنْهُمْ شَقِىٌّ لِحَاجَةٍ
تَوَثَّقَ مِنْ بَابِ الخِزَانَةِ والقُفْلِ[2]

---

(١) رحل الرجل: منزله ومسكنه وبيته. أراد أنها بارزة البيت غير مكنونة. وفى ط: «الرجل» بالجيم، خلافا لما هو واضح مقيد بعلامة الإهمال فى الأصل.

(٢) ط: «يوفق»، تحريف.

وأَنْتَ امْرُؤٌ تَنْـــدَى بَنَانُكَ بِاللُّهَى
إِذَا سَاءَ ظَنُّ النَّاسِ فِي الزَّمَنِ المَحْلِ(١)

بَقِيَّـــــةُ أَشْيَاخٍ كَسَوْكَ ثِيَابَهُمْ
وَأَنْتَ وَلِيُّ القَوْمِ فِي البَأْسِ وَالبَـــذْلِ

[صفة البغال فى الشعر]

ولمّا قال الحَكَم بن قَنْبَر(٢) فى قصيدته فى البغل(٣) ، وفيما يصلُح له ، ويُرْتفَق به منه ، وفيها يقول :

وفِي الرِّدَاغِ ، فَإِنَّ الوَحْـــلَ مَزْلَقَةٌ
وفِي الطَّحِينِ ، وفِي الحَاجَاتِ ، والرَّحَلِ(٤)

وقال مُسلم بن الوليد الأنصاريّ ـ والحكَم بن قَنبر مازِنيّ ، وكان الحكَم قد عظُم شأنه فى بنى تميم ، حتى كان يصلِّى على جنائزهم ، فلما لجَّ فى رأى الشُّعوبيَّة ، وقال فى ذلك الأشعار ، ضربته بنو مازِن ، وهم مواليه ، فلما ألحُّوا عليه فى الضرب ، نادى : يا آل تميم ! فقال أعرابىّ :

يَدعُو تَميمًا ، وتَمِيمٌ تَضرِبُهْ تَلطِمُهُ طَوْرًا ، وطَوْرًا تَرْكَبُهْ

---

(١) اللهى ، بالضم : جمع لهوة ولهية ، بضم اللام فيهما ، وهى العطية ، وقيل أفضل العطايا وأجزلها .

(٢) الحكم بن محمد بن قنبر المازنى البصرى ، من شعراء الدولة الهاشمية . كان يهاجى مسلم بن الوليد مدة ، ثم غلبه مسلم . الأغانى ١٣ : ٨ ــ ١٠ . وانظر أوراق الصولى ١ : ٣٠ ، ٢١٥ حيث أورد له خبراً وشعراً .

(٣) فى الأصل : « البغلة » ، تحريف .

(٤) أى السير فى الرداغ . والرداغ : جمع ردغ ، وهو الماء والطين والوحل .

وقال مُسْلِم بن الوليد :

تَرَكْتَ صِفَاتِ الخَيلِ والخَيلُ مَعقِــلٌ ٢١٤ظ
وأَصبحتَ فِي وَصفِ البِغالِ الـكَوَادِنِ(١)

حَنَنْتَ إِلَيْهَا رَغْبَـــــــةً فِي أُيُورِهَا
فَدُونَكَ أَيْرَ البَغْلِ يَا عَبْـدَ مَازِنِ(٢)

... ...

... ...

وبغلته ودابَّته ، قال بعضُ الشُّعراء(٣) يُخاطب دابَّته :

فَهَبِيهَـــا لَيْــــــلَةً أَدْلَجْتُهَا
فَـكُلِي إِنْ شِئْتِ تِبْنًا أَوْ ذَرِى

قَدْ أَتَى مَوْلَاكِ خُـــبْزٌ يَابِسٌ
فَتَغَذَّىْ وتَعَزَّىْ واصْـــبِرِى(٤)

---

(١) الـكوادن : جمع كودن ، وهو البغل ، والبرذون الهجين .

(٢) بعده بياض فى الأصل بمقدار سطرين ، لعلهما بيت ثالث لمسلم ـ والشعر مع ذلك لم يرد فى ديوانه ـ ثم تعقيب يذكر فيه الجاحظ أنه سيقول فيمن ذكر برذونه وبغلته ودابته .

(٣) هو حمزة بن بيض . كما فى الأغانى ١٥ : ١٦ وكان قد خرج فى سفر فنزل بقوم لم يحسنوا ضيافته ، وأتوه بخبز يابس وألقوا لبغلته تبنا ، فأعرض عنهم وأقبل على بغلته يقول هذا الشعر . وفى الأغانى : « أحنتنا ليلة » .

(٤) فى الأغانى : « قد أتى ربَّك » . وفى الأصل : « فتغرى فتعرى » ، صوابه من الأغانى .

وقال آخر :

بِتُّ ظَمْآنَ وبَاتَتْ بَغْلَتِي تَشْتَكِي الخَلْوَةَ فى بَيْتِ عُمَرْ
صُمْتِ يا بَغْلَةُ مِنْ غَيْرِ تُقًى أَبْشِرِى بِالصَّوْمِ فى شَهْرِ صَفَرْ

وقال آخر :

وَإِنِّى إِذَا مَا المَرْءُ آثَرَ بَغلَهُ عَلَى نفسِهِ آثَرْتُ نفسِى عَلَى بَغْلِى
وأَبْذُلُهُ لِلْمُسْتَعِيرِينَ لَا أَرَى له عِلَّةً ما دَامَ يَنقادُ فِى الحَبْلِ

وقال آخر :

أَيَا مُنْزِلِى مالِى عليكَ كَرامَةٌ إِذَا أَنْتَ لَمْ يَكْرُمْ عليكَ جَوادِى

وقال دِعْبِل :

أَتَيْتُ ابْنَ عِمْرانَ فِى حاجَةٍ هُوَيْنَةِ الخَطْبِ فَأَلْتاثَهَا
تَظَلُّ جِيَادِى عَلَى بَابِهِ تَرُوثُ وتأْكُلُ أَرْوَاثَهَا
غَوَارِثَ تَشْكُو إِلَىَّ الخَلَا أَطَالَ ابْنُ عِمْرَانَ إِغْرَاثَهَا

وقال ابن حازم[1] :

وخَلَّيْتُ بِرْذَوْنِى يَلُوكُ شَكِيمَهُ خَلِيطَاهُ نَغفٌ دَارِسٌ وطُلُولُ   ٢١٥ و

وقال سَهْل بن هارون : بُعِثْتُ وأنا صبىٌّ إلى جارٍ لنا أستعير منه بغلًا ، فزعم أنه مبطون ، فَغَبَرْتُ أَيَّامًا ، ثم كتبتُ إليه[2] :

---

(١) هو محمد بن حازم ، سبقت ترجمته فى ص ٦١ .

(٢) بدله فى الحيوان ٣ : ٦٦ : « قال سهل بن هارون ، وهو يختلف إلى الكتاب ، لجار لهم » .

نُبِّئْتُ بَغْلَكَ مَبْطُـــونًا فَزِعْتُ لَهُ
فَهَلْ تَمَاثَلَ أَوْ نَأْتِيـــهِ عُوَّادَا (١)

[ما قيل فى طول عمر البغل]

قال أهل التجربة : ليس فى جميع الحيوان الذى يُعايش الناس ، أطولُ عمرًا من البغل ، ولا أقصرُ عمرًا من العُصفور ، وظنُّوا أنّ ذلك لكثرة سِفاد العصفور ، وقلّة ذلك من البغل (٢) .

قالوا : ولذلك وجدنا طول الأعمار فى الرُّهبان وأصحاب الصَّوامع خاصّة ، وفى الخصيان عامّة . ولذلك قال الراجز :

أُحِبُّ أَنْ أَصْطَادَ ضَـــبًّا سَحْبَلَا (٣)
وخَرَبًا يَرْعَى رَبيعًا أَرْمَـــــلَا (٤)

فجعله أرمل ، ليكون أقوى له وأسمن (٥) .

قالوا : وقال معاوية : ما رأيتُ رجلا قَطُّ يستكثر من الجماع ، إلّا رأيت ذلك فى مُنّته (٦) .

---

(١) فى الحيوان : « قلقت له » . وفى بعض نسخ الحيـوان : « فرغت » ، وأثبت ما فى الأصل . تماثل : دنا من الشفاء .

(٢) انظر الحيوان ١ : ١٣٧ و ٥ : ٢٠١ ، ٢٢٣ و ٧ : ٢٢١ .

(٣) السحبل : العظيم المسن من الضباب .

(٤) الخرب ، بالتحريك : الذكر من الحبارى . وفى الحيوان : « أوجرذا » وفى اللسان (رمل ، سحبل) : « رعى الربيع والشتاء أرملا » .

(٥) فى الحيوان : « فجعله أرمل لا زوجة له ليكون أسمن له ؛ لأن كثرة السفاد مما يورث الهزال » .

(٦) المنة ، بالضم : القوة . وانظر الحيوان ١ : ١٣١ والبيان ٢ : ٨١ .

وقال معاوية : كلّ خصال الشباب قد كان فيَّ ، إلّا أنّي لم أكن نُكَحةً[١] ، ولا صُرَعَة[٢] ، ولا طُلَعة[٣] ، ولا ضُحَكَة ، ولم أكُ سِبًّا[٤]

قالوا : والبغل أطول عمرًا من كلّ شيء من الحيوان ، ممّا يُعايِش الناس في دُورِهم .

قالوا : وكلّ شيء يُنتَجُ ويولد ويتربّى[٥] في منازل الناس ، من طائر وسَبُع وبهيمة ، إذا تحوّل صاحب الدار ، لم يتحوّل معه منها شيء ، وآثرت الأوطانَ على صاحب الدار ، إلّا الكلبَ ، فإنه يُؤْثِرُه على وطنه ، ويموت دونه ، ويصبِر على جَفائه وإقصائه[٦]

[قصيدة لابن داحة يذكر فيها أعمار الحيوان الذى يعايش الناس]

وأنشد إبراهيم بن داحَة ، لرجل ذهب عنّي اسمه ، قصيدةً وصف فيها أعمار الحيوان التى تعايش الناس ، فقال لأخيه :

عَزَمْتُ عَلَى ذَمِّ البَعِـــــيرِ مُوَفَّقًا
وأَنْ لَيْسَ فِي المَرْكوبِ أَجْمَعُ مِنْ بَغْلِ[٧]

٢١٥ ظ

(١) النكحة ، بضم ففتح : الكثير النكاح . وفى ط : «ملحة» ، تحريف .
(٢) الصرعة : الشديد الصراع ، يصرع الرجال ولا يصرعونه ، وهو أيضاً : الحليم عند الغضب لأن حلمه يصرع غضبه ، وليس هذا المعنى الأخير مرادا .
(٣) الطلعة : الكثير التطلع إلى ما يهوى .
(٤) السب ، بالكسر : الكثير السباب .
(٥) ط : « ويربى » ، خلافا لما فى الأصل .
(٦) انظر الحيوان ٥ : ٣١٤ .
(٧) فى الأصل : « وأن ليس فى البغل كوب » ، والتصحيح هنا لشارل .

وأَنَّ اقْتِنَاءَ الإِبْلِ مُوقٌ وحُــــرْفَةٌ
يَبِيتُ عَلَى يُسْرٍ ويَغْدُو عَلَى ثُــكْلِ[1]

وبَيْنَ المَنَايَا والبَرَاذِينِ نِسْــــبَةٌ
وكُلُّ نِتاجِ النَّاسِ خَيْرٌ مِنَ الإِبْلِ[2]

وقُلْتُ وشَاهَدْتُ البِغَالَ وغَــــيرَهَا
فأَحْمَدْتُها فِي العُمْرِ والهَرَمِ المُبْــــلِي

ولَيْسَ لهَا بَذْخُ الخُيُــــولِ وكِبْرُها
ولَا ذِلَّةُ العَيْرِ الضَّعِيفِ عَنِ الرَّحْلِ[3]

ومُؤْنَتُهُ فِي الصَّيْفِ والشَّتْوِ واحِــــدٌ
ولَا خَيْرَ فِي المُؤْنَاتِ مِنْ حَامِلِ الكَلِّ[4]

ولَا تُرْكَبُ الأَرْمَاكُ والحِجْرُ دُونَهَــا
لَدَى المِصْرِ والبَغْلَاتُ تُرْكَبُ كَالبَغْلِ[5]

وقَدْ فَرَّقَ الرَّحْمَنُ بَيْنَ شُــكُولِها
كَمَا بَيْنَ عَيْرِ الوَحْشِ والآخَرِ الأَهْلِي[6]

---

(١) الموق : الحمق . والحرفة والحرف ، بضم الحاء فيهما : الحرمان والفقر .

(٢) النسبة ، بكسر النون وضمها : القرابة .

(٣) البذخ ، بالتحريك : التكبر . وسكن الذال للشعر .

(٤) الكل ، بالفتح : الثقل .

(٥) جعلت فى ط : « لدى المصد » .

(٦) فى الأصل : « بين شكولهم » .

وفى البَغْــلِ فِي كُلِّ الأُمُورِ مَرَافِق
ومَرْكَبُ قَاضٍ أَوْ شُيُوخٍ ذَوِى فَضْلِ
فَيَرْكَبُها والخَيْــلُ مُحْدِقَةٌ بِهِ
ويُؤْثِرُها يَوْمَ المُباهاةِ والحَفْــلِ
وقَدْ جَاوَزَتْ فِي السَّــوْمِ كُلَّ مُثَمَّنٍ
مِنَ الرَّائِعِ المَنسوبِ والجامِلِ البُزْلِ[1]
يَفُوتُ هَمَالِيجَ البَرَاذِينِ سَــيْرُها
عَلَى قِحَةِ الأَعْيَارِ مِنْ شَبَهِ النَّجْــلِ[2]

[ركوب البغلة والطمع فى القضاء]

ونحن بالبصرة إذا رأينا الرجل يطلب الرأى ، ويركب بغلا ، ويُردف خلفه غُلَامًا ، قضينا بأنه يطمع فى القضاء . قال ابنُ المُمَزَّق[3] :

إِذَا رَكِبَ الشَّيْخُ الشَّرِيفُ بُغَيْــلَةً
ونَاظَرَ أَهْلَ الرَّأْيِ عِنْــدَ هِلَالِ[4]

---

(١) الجامل : القطيع من الإبل . والبزل : جمع بازل ، وهو البعير فى السنة الثامنة أو التاسعة . وفى الأصل : « والحامل البزل » .

(٢) القحة : صلابة الحافر . والنجل : النسل .

(٣) هو عباد بن الممزق الحضرمى ، ويعرف بالمخرق ، وهو القائل :

أنا المخرق أعراض اللئام كما كان الممزق أعراض اللئام أبى

المؤتلف ١٨٦ والحيوان ٥ : ١٦٩ .

(٤) هو هلال بن يحيى بن مسلم البصرى ، وهو هلال الرأى . وفيه يقول بشار (الأغانى ٣ : ٣٤) : =

فَذَاكَ الَّذِى يَبْغِى القَضَاءَ بِسَمْتِهِ ...... [1] الذِّئْبُ أُمَّ غَزَالِ

فَإِنْ أَرْدَفَ العَبْدَ الصَّغِيرَ وَرَاءَهُ فَوَيْلٌ لِأَيْتَامٍ وإِرْثِ رِجَالِ

وَإِنْ رَكِبَ البِرْذَوْنَ واشْـــتَدَّ خَلْفَهُ

فَصَاحِبُ أَشْرَاطٍ وحَمْـــلِ إِلَالِ [2]

وقال ابن مُناذِر[3] فى واحدٍ من هذا الشكل :

رَأَيْتُ أَبَا مُوسَى يَغُرُّ بِسَمْتِهِ وَيَقْسِمُ فِى الجِيرَانِ كُرَّ طَعَامِ[4]

ويَخْدَعُهُــمْ واللهُ غَالِبُ أَمْرِهِ بِقَدٍّ كَقَــدِّ المَشْرَفِيِّ حُسَامِ ٢١٦ و

يُرِيدُ قَضَاءَ المِصْرِ والمِصْرُ مُنْكِرٌ لِـكُلِّ مُرَاءٍ مُهْتَرٍ بِغُــلامِ

بِبِشْرٍ وسمتٍ واكْتِئَابٍ وخَشْعَةٍ وكَثْرَةِ تَسْبِيحٍ ولِينِ كَلامِ

ويَرْكَبُ بَغْلًا ثُمَّ يُرْدِفُ خَلْفَهُ غُلامًا كما أَبْصَرْتَ شِقَّ جِلاَمِ[5]

= إذا ما شئت صبحنى هـــلال وأى الناس أثقل من هلال

وانظر لسان الميزان ٦ : ٢٠٢ - ٢٠٣ . وفى أنساب السمعانى ٢٤٦ فى ترجمة (الرأئى) : « عرف بهذا الاسم هلال بن يحيى بن مسلم ، إنما قيل له الرائى لأنه كان ينتحل مذهب الكوفيين ورأيهم ، فعرف بالرائى» . وفى القاموس : « وهلال الرأى من أعيان الحنفية » .

(١) بياض فى الأصل .

(٢) الإلال : جمع ألة ، وهى الحربة ذات النصل العريض .

(٣) هو محمد بن مناذر .

(٤) الكر : ستون قفيزا ، قال ابن سيده : « يكون بالمصرى أربعين إردبا » اللسان (كرر) . والطعام ، قال الخليل : العالى فى كلام العرب أن الطعام هو البر خاصة . وقال ابن الأثير : الطعام عام فى كل مايقتات من الحنطة والشعير والتمر .

(٥) جِلام ، مع ضبط الجيم بالكسر كما فى الأصل ، هو جمع الجَلَم ، وهو القمر ، والهلال ليلة يهل .

يُرِيدُ هِلَالًا لَا يُحَاوِلُ غَيْرَهُ ... وقِدْمًا سَمَا لِلرَّأْيِ غَيْرَ مُسَامِ[1]

سَوَاءٌ لِذِي الرَّأْيِ الشَّرِيفُ وغَيْرُهُ ... إِذَا كُنْتَ ذَا حِفْظٍ فَلِجْ بِسَلَامِ[2]

بَصِيرٌ فَقِيهًا فِي شُهُورٍ يَسِيرَةٍ ... فَيَالَكَ حِفْظًا لَمْ يُشَبْ بِغَرَامِ

ولَوْ كَانَ خَيْرًا كَدَّ[3] ... كَمَا كَدَّ ذَا الآثَارِ بُعْدُ مَرَامِ

ومَا ضَرَّ سَلْمَانًا[4] وكَعْبًا[5] وبَعْدَهُ ... شُرَيْحًا[6] وسَوَّارًا[7] ورَهْطَ هِشَامِ[8]

---

(١) انظر ما سبق فى ص ٣٠٧ .

(٢) ذو الرأى : لقب هلال بن يحيى . لج : أمر من الولوج ، ولج يلج : دخل .

(٣) بعده بياض فى الأصل .

(٤) أبو عبد الله سلمان بن ربيعة الباهلى ، وهو سلمان الخيل ، لأنه كان يلى الخيول فى زمن عمر ، الذى ولاه قضاء الكوفة ، ثم ولى غزو إرمينية فى زمن عثمان ، فقتل ببلنجر سنة ٢٥ . وهو أول قاض استقضى بالكوفة . تهذيب التهذيب ٤ : ١٣٦ وجمهرة ابن حزم ٢٤٧ والمعارف ١٩١ .

(٥) هو كعب بن سور ، بضم السين كما فى الإصابة ٧٤٨٧ والقاموس . وكان قاضى البصرة لعمر — وهو أول قاض عليها — ولاه حين استحسن حكمه بين المرأة وزوجها ، وحكم لها فى كل أربع ليال بليلة . وخرج مع عائشة يوم الجمل ناشر المصحف يمشى بين الصفين ، فجاءه سهم غرب فقتله . الإصابة والمعارف ١٩٠ ، ٢٤٣ وجمهرة أنساب العرب ٣٨٠ .

(٦) شريح ، سبقت ترجمته فى ص ١٩٣ .

(٧) هو سوار بن عبد الله بن قدامة بن عنزة العنبرى . كان فقيها ولاه أبو جعفر القضاء بالبصرة سنة ١٣٨ ومات وهو أمير البصرة وقاضيها سنة ١٥٦ . تهذيب التهذيب ٤ : ٢٦٩ و جمهرة ابن حزم ٢٠٩ وهو غير حفيده المشهور سوار ابن عبد الله بن سوار بن عبد الله، المترجم فى تهذيب التهذيب ٤: ٢٦٨ وتاريخ بغداد ٩ : ٢١٠ .

(٨) لعله هشام بن المغيرة ، ولى قضاء البصرة والكوفة ما بين سنتى ٦٤ ، ٧٤ كما فى النجوم الزاهرة ١ : ١٦٢ ، ١٨٠ ، ١٨٤ والطبرى ٧ : ٢١٠ .

وَيَاسًا ويَاسًا والغَلاَبِيَّ بَعْدَهُ أُلاَكَ الأُولَى كَانُوا نُجُومَ ظَلاَمِ[1]
ومَا عَرَفُوا النُّعْمَانَ ....[2] ولَا زُفَرَ المَشْقِيَّ صَوْبَ غَمَامِ
لَقَدْ تَابَ مِمَّا أَحْدَثَ القَوْمُ تَوْبَةً لِساعَةِ إِخْلَاصٍ ووقْتِ حِمَامِ

[تشبيه الأسد بالبغل]

قالوا : ويشبِّهون الأسَد بالبغل ، إذا كان الأسدُ تامَّ الخَلْق . قال نَهْشَل ابن حَرِّيّ :

وما سَبَقَ الحَوَادِثَ لَيْثُ غابٍ يَجُرُّ لِعِرْسِهِ جَزَرَ الرِّفَاقِ
كَمُيْتٌ تَعْجِزُ الخُلَعَاءُ عَنْهُ
كَبَغْلِ السَّرْجِ حَطَّ مِنَ الوَثَاقِ[3]

وقال أبو زُبَيْد الطائيّ[4] :

مِنَ الأُسْدِ عاديّ ...[5] بِصَوْتِهِ
رُءوس الجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ ...[5]

(١) ياساو وياسا ، كذا ورد فى الأصل .

(٢) بياض فى الأصل . والنعمان ، هو أبو حنيفة إمام المذهب .

(٣) الخلعاء : جمع خليع ، وهو الصياد . وفى الأصل : « الحلفاء » ، ولا وجه له . حط : أسرع واعتمد فى سيره .

(٤) أبو زيد حرملة بن المنذر بن معديكرب الطائى ، يذكر فى مخضرمى الجاهلية والإسلام ، كما يذكر فى الإسلاميين . وكان نصرانيا مات على دينه . وعرف بنعته للأسد . الأغانى ١١ : ٢٣ والشعر والشعراء ٢٦٠ وابن سلام ٥٠٥ والمعمرين ٨٦ والإصابة ١٩٦٧ والخزانة ٢ : ١٥٥ ومعجم الأدباء ١٠ : ٢٠٠ .

(٥) بياض فى الأصل . ولعل الكلمة الأخيرة « ويعقر » .

٢١٦ ظ

كأنَّ اهتِزَامَ الرَّعْدِ خِيطَ بجَوْفه ... إذَا جُرَّ فِيهِ الخيزُرَانُ المُعَتَّرُ[1]

فَأَبصَرَ رَكْباً رَائِحِينَ عَشِيَّةً ... فَقَالُوا : أَبغْلٌ مَائِلُ الرِّجْلِ أَشْقَرُ

أَمِ اللَّيْثُ ؟ فَاسْتَنْجُوا ....

فَهٰذَا ورَبِّ الرَّاقِصَاتِ المُزَعْفَرُ[2]

ولأبى زُبَيْدٍ مثلُها ، فى قصيدته التى ذكر فيها شأن كلبه ، وشأن الأسد ، فقال[3] :

فَجَالَ أَكْدَرُ مُشْتالاً كعَادتهِ

حتَّى إذَا كَانَ بينَ البِئْرِ والعَطَنِ[4]

لَاقَى لَدَى ثُلَلِ الأَطْوَاءِ دَاهِيَةً

أَسْرَتْ وأَكْدَرَ تَحْتَ اللَّيْلِ فى قَرَنِ

---

(١) خيط بجوفه ، أى احتواه واشتمل عليه ، مثله فى قول النابغة الجعدى فى اللسان (هضم) :

خيط على زفرة فتم ولم ... يرجع إلى دقة ولا هضم

وفى الأصل : « خبط جوفة » ، تحريف . والخيزران ، عنى به الرماح . المعتر ، هو من عتر الرمح يعتر عتراً وعتراناً : اشتد واضطرب واهتز .

(٢) استنجوا : أسرعوا السير . وفى الحديث: «إذا سافرتم فى الجدب فاستنجوا» . وموضع النقط بعدها بياض فى الأصل . الراقصات : الإبل تسير الرقص ، وهو ضرب من الخبب . والمزعفر : الأسد الورد ، لأنه ورد اللون ، وقيل : لما عليه من أثر الدم .

(٣) الأبيات فى الحيوان ٢ : ٢٧٤ — ٢٧٦ والأغانى ١١ : ٢٥ ومعجم الأدباء ١٠ : ٢٠٠ — ٢٠١ .

(٤) انظر الحيوان لمقارنة الروايات فى هذه الأبيات وتفسيرها .

إِلَى مُقَابَلِ خَطْوِ السَّاعِدَيْنِ لَهُ
فَوْقَ السَّرَاةِ كَذِفْرَى الفَالِجِ الغَضِنِ
رِئْبَالُ غَابٍ فَلاَ قَحْمٌ وَلاَ ضَرَعٌ كَالبَغْلِ حَطَّ مِنَ المحلين فى شَطَنِ

[الحمير الأخدرية]

وزعم ناسٌ من العلماء أنّ الحمير الأَخْدَرِيّة[1] ، وهى أعظم حَمير الوحْش وأتمُّها ، زعموا أنَّ أصل ذلك النِّتاج أن خيلاً لكسرى[2] توحَّشت ، وضَرَبتْ فى العانات ، فكان نِتاجها هذه الحميرَ التى لها هذا التمام .

وقال آخرون : الأخدَريّة هى الحُمرُ التى تكون بكاظِمةَ ونواحيها ، فهى كأنها برّيّة بحريّة .

قالوا : ولا يجىء فيما بين الخيل والحمير إلّا البغال ، وليس للبغل نسْل يعيش ، ولا نجل يَبْقى ، فكيف لقِحت هذه الأُتُن من تلك الخيل حميرًا ، ثمّ طبّقت تلك الصحارى بالحُمرُ الخالصة ؟

وقالوا : كان الملك من الأكاسِرَة إذا اصطاد عَيْرًا وسَمَه باسمه ، وبيومِه الذى اصطاده فيه ، وأطلقه ، فإنْ تهيَّأ أن يَصطاد ذلك العَيرَ بعينه ملكٌ من بعده ، وسَمَه مع وسم الملك الذى قبلَه بمثل تلك السِّمَة وخلّاه يذهب ، فكان هذا الصنيعُ بعضَ ما كانوا يعرفون به حَمِير الوحش . فعسى أن تكون هذه الحمير أو بعضُها صار فى ذلك الصُّقع الذى هذا صِفَتُه ، فإنّ للماء والتربة

---

(١) نسبة إلى أخدر ، وهو فرس كان لأردشير بن بابك ، كما فى الحيوان ١ : ١٣٩ . وقيل كان لسليمان بن داود . اللسان (خدر) .

(٢) عيَّنه فى الحيوان ١ : ١٣٩ بأنه أردشير بن بابك ، كما فى الحاشية السابقة .

والهواء فى هذا عملاً ليس يخفَى على أهل التجربة . ٢١٧ و

[و] كلُّ عربىّ تراه بخُراسان أصهبَ السِّبال ، أحمرَ اللون ، مفطوح القفا ، فإنّ الأعرابىّ الذى انتقل إلى ما هناك كان على ضدّ ذلك[١] .

[أثر البيئة فى الحيوان]

وقد رأينا بلاد التُّرْك ، فرأينا كلّ شىء فيها[٢] تركيًّا . ومَن رأى دوابّهم وإبلهم عَلِمَ أنّها تركيّة . وحَرّةَ بنى سُلَيْم التى جميع طيرها ، وسباعها وهوامّها وأهلها كلّهم سُود[٣] . وهذا كثير جدًّا .

وقد نرى جَراد البقْل ودِيدانَه خُضْرًا[٤] ، ونرى قمل رأس الشابّ [الأسود الشعر : أسود[٥]]، و [نراه فى رأس] الشيخ [الأبيض الشعَر : أبيض]، و [نراه فى] رأس الخاضب بالْحُمرة :[أحمر] . نعم حتى إنّك لترى فى القملة شُكْلةً[٦] إذا كان خِضاب الشيخ ناصِلا .

وهكذا طبع الله الأشياء .

---

(١) انظر أثر البيئة فى الحيوان ٤ : ٧٠ — ٧٢ .

(٢) فى الأصل : « فيه » .

(٣) انظر الحيوان ٤ : ٧١ و ٥ : ٣٨٠ وماسبق فى رسائل الجاحظ ١ : ٢١٩ — ٢٢٠ .

(٤) فى الأصل : « خضر » .

(٥) هذه التكملة وما يليها من الحيوان .

(٦) الشكلة ، بالضم : اختلاط البياض بالحمرة .

ضربهم المثل فى أير البغل

قال أبو شُراعة[١] :

[أيْرُ] حِمَارٍ فى حِرِامِّ شِعْرِى وأيْرُ بَغْلٍ فى حِرِامِّ قَدْرِى

لَوْ كُنْتُ ذَا مَالٍ دَعَانِى السِّدْرِى[٢]

وقال أبو فِرعَوْن[٣] :

أيْرُ حِمَارٍ فى حِرِامِّ عَدْنَانْ وأيْرُ بَغْلٍ فى حِرِامِّ قَحْطَانْ

---

(١) هو أحمد بن محمد بن شراعة ، من شعراء البصرة فى عهد الدولة العباسية . قال أبو الفرج : « جيد الشعر جزله ، ليس برقيق الطبع ولا سهل اللفظ ، وهو كالبدوى فى مذهبه » . ثم ذكر أنه كانت به لوثة وهوج . الأغانى ٢٠ : ٣٥ – ٤٢ وطبقات ابن المعتز ٣٧٥ – ٣٧٦ .

(٢) فى الأغانى : « لو كنت ذا وفر » . والسدرى هذا ، هو أبو نبقة محمد ابن هاشم (فى الأصل : هشام) بن أبى خيصة ، كان يصحب الجماز والجاحظ وأدباء البصرة . وكان مولى لبنى عوال فاشترى المتوكل ولاءه بثلاثين ألف درهم . معجم المرزبانى ٤٣١ . وكان راوية للسيد الحميرى. طبقات ابن المعتز ٣٣ ، ٣٦ ، وذكره الجاحظ فى الحيوان ١ : ٢٤٣ و ٣ : ١١١ و ٥ : ٣٩٨ و ٦ : ١٠٩ وروى عنه ، كما ذكره فى البخلاء ٨٨ ، ٨٩ . وانظر ذيل نوادر القالى ص ١٣٠ ومجالس ثعلب ٨٦ ، ١٣٨ ، ٢١٧ ، ٥٠٩

(٣) هو شويس الساسى التميمى العدوى ، من عدى الرباب . أعرابى بدوى قدم البصرة يسأل الناس بها . الورقة لابن الجراح ٥٣ . وذكره البيهقى فى المحاسن والمساوى باسم أبى فرعون الأعرابى الساسى . وفى الفهرست لابن النديم ٢٣٣ : « أبو فرعون الشاسى ثلاثون ورقة » . وفى الإمتاع والمؤانسة ٢ : ٥٣ و ٣ : ٣٤ : « أبو فرعون الشاشى » . وانظر طبقات ابن المعتز ٣٧٦ والحيوان ٦ . ٧٨ و ٧ : ٢٦٢ . وفى تاج العروس (سوس) : « وأبو فرعون الساسى : شاعر قديم قيده ابن الخشاب بخطه » .

ما النَّـــــاسُ إلَّا نَبَطٌ وخُوزَان[١]

كَـكَهْمَسٍ أوْ عُمَرَ بْنِ مِهْـرَانْ[٢]

ضَاقَ جِرابِي عَنْ رَغِيفِ سَـلْمانْ

وأنشد :

وعُظْمُ أيرِ البَغلِ فى رَهْـــزِ فَرَسْ[٣]

وطُولُ دَحسِ جَمَـــــلٍ إذا دَحَسْ[٤]

والمذكور بطول الـكَوْم : الخنزير ، والوَرَل ، والذُّباب ، والجمل .

---

(١) خوزان : جمع الخوز ، على طريقه الجمع فى اللغة الفارسيه ، والخوز : أهل خوزستان .

(٢) كهمس ، ذكر فى طبقات ابن المعتز ٣٧٦ بلفظ أبى كهمس ، وذكر أن أبا فرعون سأله فأعطاه رغيفاً من الخبز الحوارى كبيراً ، فصار إلى حلقة بنى عدى فوقف عليهم وهم مجتمعون، فأخرج الرغيف من جرابه وألقاه فى وسط المجلس وقال: يابنى عدى ، استفحلوا هذا الرغيف ــ أى اتخذوه فحلا ــ فإنه أنبل نتاج على وجه الأرض ! وعمر بن مهران ذكره الجاحظ فى البيان ٣ : ٢٨٠ وابن قتيبة فى عيون الأخبار ٢ : ٢٠٨. وذكر الجهشيارى ٢٢١ أنه كان كاتباً للخيزران . وجعل فى ط : « عمرو بن مهران » خلافاً لما فى الأصل .

(٣) فى الحيوان ٧ : ٢٥٠ :

* فى عظم أير الفيل فى رهز الفرس *

وانظر لذلك الحيوان ٧ : ١١٨ .

(٤) فى الحيوان : « وطول عيس » . والعيس ، بالفتح : ضراب الإبل . والدحس : كناية عنه ، من قولهم دحس الثوب فى الوعاء دحساً : أدخله . والـكوم ، بالفتح : السفاد .

وأنشد :

ومَا الخَنْزِيرُ والوَرَلُ الْمُذَكِّى ولاَ كَوْمُ الذُّبَابِ كَكَوْمِ بِشْرِ [١]

والعصفور وإن كان كثير عَدَدِ السِّفاد ، فإن الإنسان أكثر منه إذا

٢١٧ ظ حُصِّلتِ الأمور ؛ لأنَّ الإنسان إذا كان يَهِيج الليلَ والنهار ، والصَّيفَ والشتاء ، فليس ذلك لشيء غيره [٢] ؛ ويطأ الحبالَى ، ويريدها وتريده [٣] .

وقيل لشيخٍ أعرابيّ [٤] : امرأتك حُبلى ؟ فقال : « لا والذى فى السماء بيته [٥] ، ما لها ذَنَب تشتال به [٦] ، لا أتيتها إلّا وهى ضَبِعة [٧] .

ومن النوادِر فى غير هذا ، قال مَسعَدة : قيل لأبى القاسم بن بحرٍ السَّقّاء [٨] : ويحَك ! متى دخلتَ بامرأتك ، ومتى حبِلت ؟ وإنما كان هذا أمس ! قال : « كان الإناء ضارياً [٩] » .

---

(١) الذكى : المسن . ومنه قولهم : « جرى المذكيات غلاب » .

(٢) انظر الحيوان ٥ : ٢١٨ و ٧ : ١٦ .

(٣) أى بخلاف سائر الحيوان ، فإن الأنثى إذا حملت لم تقبل الذكر .

(٤) فى البيان ٢ : ٨١ : « وقال أبو سليمان الفقعسى لرجل من طيئ : أبامرأتك حمل » .

(٥) فى البيان : « لا وذو بيته فى السماء » ، أى الذى .

(٦) تشتال به ، أراد ترفعه . يقال شالت الناقة بذنبها واشتالته واستشالته : رفعته ليعلم أنها لاقح .

(٧) الضبعة : الشديدة الشهوة . وفى البيان : « وما آتيها إلا وهى ضبعة » .

(٨) ذكره فى البخلاء ١١٢ ، ١١٣ والبيان ٤ : ١٩ ، كما أورد له المبرد فى الكامل ٤١٩ والحصرى فى جمع الجواهر ١٦٠ القصة التى وردت فى البخلاء ، مع اختلاف فى الألفاظ .

(٩) الضارى : الذى ضرّى بالخمر وعودبها ، فإذا جعل فيه العصير صار مسكراً . وهو كناية .

وقيل لحفص مولى البكرات[١] : بامرأتك حمل ؟ قال : شيء ليس بشيء !

وقال [ابنُ] النُّوشَجَانى[٢] : جئتُ من خُرَاسان ، فسِرْتُ فى بعض الصحارى فى غِبِّ مَطَر ، فكنت قد أرى فى الطين الذى قد قَبَّ[٣] آثارَ أرجُل البهائم والسِّباع المِيلَ والمِيلَيْن ، وكنت لا أزال أرى أثر دابّةٍ لها ستّ أرجُل ، فلما طال ذلك علىّ سألتُ الجمّال ـ أو المُكارِىَ ـ فقلت : ويلكَ ، تعرف دابة لها ستُّ أرجُل ؟ وأشرتُ بيدى إلى تلك الآثار . فقال : إنّ الخنزير طويل المكث فى سِفاده ، وربمّا مكث على الخنزيرة طويلاً وهى ترتع ، ويداه على كتفيها ، ورجلاه خَلْفَ رجليها ، فلا يكاد أن يقضىَ وطره إلّا بعد أن يقطع من الأرض شيئاً كثيراً ، فمن هناك ترى ستّ قوائم .

وقال الفرزدق فى هجائه عُمر بن يزيد الأُسَيِّدى[٤] ، وكان طلب منه وِقْرَ بغلٍ رَطْبَةً[٥] ، فلم يفعل ، فقال[٦] :

---

(١) كذا . ولعلها « مولى البكراوى » . والخبر فى البيان ٤ : ١٨. وسنده: « مسعدة بن المبارك قال : قلت للبكراوى » .

(٢) التكملة قبله من الحيوان ٧ : ٢٤٩ حيث ورد الخبر مع خلاف فى اللفظ . والنوشجانى : نسبة إلى نوشجان ، بضم النون وفتح الشين . مدينة بفارس .

(٣) قب : يبس وجف ، يقال قبت الرطبة وقب النبت ، أى يبس .

(٤) فى الأصل : « الأسدى » تحريف . وهو عمر بن يزيد بن عمير الأسيدى ، نسبة إلى أسيد بن عمرو بن تميم. وانظر جمهرة الأنساب ٢١٠ والكامل فى حوادث سنة ١٠٩ . وعمر قائد من قواد الأمويين . وذكر أبو الفرج فى الأغانى ١٩ : ٤٢ أنه أدخل الحبس فأصبح ميتاً ، فسمعوا أنه مص خاتمه وكان فيه سم فمات . وذكر ابن الأثير فى الكامل أن الذى قتله مالك بن المنذر بن الجارود . والخبران لا تناقض بينهما؛ فإن مالكا كان قد أمر به فلويت عنقه قبل أن يدخله السجن .

(٥) الرطبة ، بالفتح : الفصفصة ، وهى نبات كالبرسيم .

(٦) ديوان الفرزدق ٨٧٣ . وفيه : « فسأله أن يبعث إليه بشىء لم يرضه ، فقال » .

يَاعُمَرَ بْنَ يَزِيدٍ إِنِّى رَجُـلٌ   أَكْوِى مِنَ اَلسِّ أَقْفَاءَ اَلمَجَانِينِ
يالَيْتَ رَطْبَتَكَ اَلْمُهْتَزَّ نَاضِرُهَا   كَانَتْ أَيُورَ بِغَالٍ فِي البَسَاتِينِ[١]
حَتَّى تَحَبَّلَ مِنْهَا كُلَّ كَوْسَلَةٍ   قَنْفَاءَ خَارِجَةٍ مِنْ أَوْسَطِ الطِّينِ[٢]

وقال آخر :

عَوَادَ ، إِنْ كُنْتِ تُحِبِّينَ الغَزَلْ   والنَّيْكَ حتَّى تَأْجِمِيهِ والقُبَـلْ[٣]
فَإِنَّ عَمْـرًا قد أَتَاكِ أَو أَظَلّْ   يَحْمِلُ أَيْرًا مِثْلَ جُرْدَانِ الجَمَلْ
لَوْ دُسَّ فِي مَتْنِ صَفَاةٍ لَدَخَـلْ

٢١٨ و

قال : نرى أنّه إنّما أراد الصلابة .

وقالوا : أير الثّور أطول وأصلب .

قال صاحب البغل : ليس بأطول ، ولو كان أطوَل كانت البقرةُ لا تَقِف للثور ، وإنما يكومها وهى تعدو ، وهو لا يُدخل قَضيبه فى حَياء البقرة . والبغلة تقف للبغل ، وتطلب ذلك منه ، لسَوَسٍ شديد[٤] ، وإرادة تامّة .

---

(١) فى الديوان : « أمست » موضع : « كانت » .

(٢) فى الأصل : « حتى تحبلك » ، وأثبت مافى الديوان . وتحبل ، أى تتحبل ، بحذف إحدى التاءين . تحبل الصيد : صاده بالحبالة . والكوسلة : الفيشلة ، وفى الديوان : « كل فيشلة » . والقنفاء : الغليظة .

(٣) أجم الشىء يأجِمه ، وأجمه يأجَمه : مله من الدوامة عليه .

(٤) السوس ، بالتحريك : مصدر سوست الدابة : أصابها السوس ، وهوداء يحدث فى عجزها . وانظر ماسيأتى عند قوله : « وتقول العرب » . . . الخ .

وقال صاحب الثور : إنَّ أصل غُرمول البغل لا ينطبق على ظَبْيَة البغلة[1] كانطباق أيرِ الرجُل على فرج المرأة حتَّى لا يبقى منه قليل ولا كثير ، ويفضُل من أيرِ البغل نحوٌ من نصفه[2] ، وذلك أنَّ مقاديم أيور الحافر فيها الاسترخاء ، وأصولها لا تصير إلى أجواف الإناث ، وإنما يصل من الصُّلب المتوتِّرِ مقدارُ نصفِه فقطْ . والثور أوَّلُ قضيبه وآخره عصب مُدْمَج ، وعَقَب مُصْمَت ، وأنت تُقرّ أنها لو وقفت نَخرقها . والبقرة فى وقت نَزْو الثَّور عليها كأنها تكرهه .

قال صاحب البغل : أليس قد أقررتَ أنَّه وإنْ كان فى غاية الصَّلابة ، أنه إنما يُدخل فيها بعضَ قضيبه ، وهذا الفخر إنما هو للإنسان . قال : رأيتُ ثورًا نزَا على بقرة ، فأخطأ قضيبُه المسلكَ ، فمرت البقرة من بين يديه ، ومرّ قضيبُه على ظهرها ؛ فما كان بين طَرَفه وبين سَناسنِها إلّا القليل[3] . وفى رأسه عُجْرَة ، ودون ذلك تَخَصُّرٌ قد دَقَّ جدًّا .

قال بعض الشعراء ، وهجا معلِّمَ كُتَّاب :

كأنَّهُ أيْرُ بَغْلٍ فِى تَهَكُّمِهِ وفى الصَّرَامَةِ سَيْفٌ صَارِمٌ ذَكَرُ[4]

---

(١) فى الأصل : « طحية البغلة » تحريف . والظبية من الفرس : مشقها ، وهو مسلك الجردان فيها . الأصمعى : يقال لكل ذات خف أو ظلف : الحياء ؛ ولكل ذات حافر : الظبية .

(٢) الكلمة غير واضحة فى الأصل .

(٣) السناسن : حروف فقار الظهر . وفى الأصل : « سنامها » . والسنام إنما يكون للبعير والناقة .

(٤) التهكم : التكبر .

قالوا : وشكت امرأة مُؤَرِّج الأَزْدِيّ[1] عِظَم أير زوجها إلى الوالى ، واسمها خَوْصاء ، [فقالت] :

إنِّى أَعُوذُ بِالأَمِيرِ العَـدْلِ مِنْ مُنْتِنِ الرِّيحِ خَبِيثٍ وَغْلِ
يَحْمِلُ أَيْرًا مِثْـلَ أَيْرِ البَغْلِ

ويقال لأير الإنسان : ذَكَر ، وأَيْر . ٢١٨ ظ

وجُرْدان الحمار والبغل و [غُرْمولهما[2]] ، والجميع : جَرادين وغَراميل .

ويقال : نَضِيّ الفرس ، ومِقْلَم البعير . ووِعاء مِقْلمه يقال له : الثِّيل[3] .

ووعاء الجُردان وجميع الحافر يقال له : القُنْب .

ويقال : قَضِيب التيس ، وقضيب الثور ، وعُقْدة الكلب .

وتقول العرب : صَرَفَت البقرة ، فهى صارِف ؛ وسَوِسَتِ البغلة .

ويقال :هى امرأة هَدْمَى[4] ، وغَلِمة . وقال أكثر العلماء : مايقال مُغْتَلِمة.

وشاة حَرْمَى ، وناقة ضَبِعَة ، وفرس ودِيق ، وكلبَة مُجْعِل .

ويقال : حِرُ المرأة ، والفَرْج ، وظَبْية الفَرَس[5] ، وكذلك من الحافر .

---

(١) هو أبو فيد مؤرج بن عمرو السدوسى البصرى ، كان من أعيان أصحاب الخليل وأبى زيد ، يقال إن الأصمعى كان يحفظ ثلث اللغة ، والخليل ثلثها ، ومؤرج الثلثين ، وكان أبو مالك يحفظ اللغة كلها . توفى سنة ١٩٥ . نزهة الألباء وإرشاد الأريب ، وبغية الوعاة .

(٢) تكملة يقتضيها السياق .

(٣) بكسر الثاء وفتحها .

(٤) كذا فى الأصل ، والمعروف «هدمة» ، وأصله فى الناقة إذا اشتدت ضبعتها .

(٥) انظر ماسبق فى ص ٣١٩ س ١ .

وحَيَاء الشَّاة ، وكذلك من الخُفّ كلّه . وثَفْرُ الكلبة ، وكذلك من السّباع كلّها . وتستعير الشعراء بعض هذه من بعض ، إذا احتاجت إلى إقامة الوزن .

فإذا حملت الشاة فهى : حامل ، والبقرة كذلك . والفرسُ عَقوق ، وكذلك الرَّمَكة . والأتان جامعٌ ، وبغلةٌ جامع . وكلبة مُجِحّ[1] ، وكذلك السّباع .

ويقال : إن أكبر الأيور أير الفيل ، وأصغرها أير الظبى[2] ، وليس فى الأرض حجم أيرٍ ظاهرٌ فى كُلّ حال ، إلّا أير الإنسان والقِرْد والكلب . وأمّا البَطُّ[3] فقضيبه يظهر عند القَمْط . وأطول أيور الناس ما كان ثلاثةَ عشر إصبعا .

ورَوَوْا عن ابنٍ لجعفرِ بن يحيَى كان صَيْرَفِيًّا ، وقد كان ولّاه المأمون طساسيج عِدّة[4] ، أنه خرج من الدنيا وما كام امرأةً قطّ .

وخبَّروا عن أبى زيد الكَتّاف ــ وتأويل الكتّاف أنه كان ينظر فى الأكتاف[5] ، وهو إفريقىّ ــ وكان هَرْثمة[6] قدم به على الرشيد ، يُعَجِّبه

(١) بتقديم الجيم على الحاء .

(٢) انظر الحيوان ٧ : ١١٨ .

(٣) فى الأصل : « والبطة » بالتأنيث وإسقاط « أما » قبله . وانظر الحيوان ٧ : ١١٨ .

(٤) الطسوج : الناحية .

(٥) جمع كتف ، وذلك للفراسة . وفى الحيوان ٥ : ٣٠٣ عند الكلام على الفراسة : « كما ينظر بعضهم فى الخيلان وفى الأكتاف وفى أسرار الكف » .

(٦) هرثمة بن أعين : قائد عباسى ، ولاه الرشيد مصر سنة ١٧٨ ثم إفريقية ، ثم عقد له على خراسان ، ثم قاد الجيوش للمأمون فى أيام الفتنة بينه وبين الأمين ، ثم غدر به المأمون فحبسه حتى مات سنة ٢٠٠ . النجوم الزاهرة والطبرى فى حوادث ١٧٨ ، ٢٠٠ .

من كِبَر خَلقه وعِظَم بدنه ؛ فرأيتُ ناسًا[1] زعموا أنه قال : غَبَرت طولَ عمرى لا أقدر على امرأةٍ تحتمِل ماعندى ، حتّى دُلِلْتُ على امرأة ؛ فلما دخلت بها أدخلتُ من أيرى قدرَ نِصْفه ، وقلتُ فى نفسى : هى وإن احتملت نصف الطُّول فإنها لا تحتمل الغِلَظ ! فلمّا لم أرَها توجَّعت منه زِدتُها ، ثم زدتها حتى أدخلتُه ، ثم قلتُ لها : قد دخل كلّه ، فتأذنين فى إدخاله وإخراجه ؟ قالت : وقد دخل منه شىء بعد ؟ !

وقال أبو السَّرِىّ بكر بن الأشقر[2] : بلغنى أنّها قالت له : سقطتْ بَعوضةٌ على نخلة ، وقالت للنخلة : استَمسكى فإنى أريد أن أطير ! فقالت النخلة : والله ماشَعَرتُ بوقوعكِ ، فكيف أشعر بطيرانك ؟ ! ٢١٩ و

[مما جاء فى ذم البغال]

قال : وذمّ رجل البغلَ ، فقال : لا لَحْم ولا لبَن ، ولا أدَب ولا لقَن ، ولا فَوْتَ ولا طلَب ؛ إن كان فحلًا قتل صاحبه ، وإن كانت أنثى لم تنسِل .

وكُلّ مُرَكَّب من جميع الأجناس له نجْل غيرَه ، كالبُخْت بين العِراب والفوالج ، وكالراعِبِىّ من بين الحمام والوَرَشان ، وكالإبل منها الصَّرْصَرانِىّ[3] والبَهْوَنِىّ[4] ، وهما اللذان أبوهما عربىّ وأمُّهما بُخْتِيَّة ، وهو من أقوى الإبل

---

(١) فى الأصل : « زمانا » .

(٢) فى البيان ٢ : ١٧٧ من يدعى « بكر بن الأشعر » ،وذكر أنه كان سجاناً .

(٣) جاء فى الحيوان ١ : ١٣٨ : « متى ضربت فحول العراب فى إناث البخت جاءت هذه الإبل البهونية والصرصرانية » .

(٤) فى الأصل : « البهودى » ، صوابه من الحيوان . وانظر اللسان والقاموس (بهن) والمخصص ٧ : ١٣٥ .

على الحمل ، وأشدَّها سيرًا ، على قُبح خلقته ، وسَماجة فى مَقاديمه[١] ، وكالشِّهرىّ والهَجين[٢] .

وإذا صرتَ إلى البغال ، صِرتَ إلى سَوَسٍ فى الأُنثى لا يُنادَى وليدُه[٣] ، وإلى غُلمة فى الذَّكَر لا تُوصف ، ثم هى مع هذا لا تتلاقح .

وزعم أهل التجربة أنّ الكَوْم الذى يخلق اللهُ تعالى منه الولدَ من بين الرجل والمرأة ، أنّ سببَ[٤] التلاقُح [ما] يَحْضُرُهما [من] إفراط الشَّهْوَة ، فى ذلك الكَوْم ، فإذا أفرطَت الشَّهوةُ دنَتِ الرحم[٥] وانفتح المَهْبِل ، وهو فَمُ الرَّحم ، فتصير تلك النُّطفة أكثر وأحدَّ ، فيصير زَرْقُ الإحليل ومَجُّه لها أبعدَ غايةً .

وقال أهل التجربة : قلّ ما تلقح منهن امرأة إلّا لرجّةٍ[٦] .

والبغلة والبغل يعتريهما من الشَّبَق ما لا يعترى إناث السنانير ، ثم هى مع ذلك لا تتلاقح ، فإن لَقِحت فى النُّدرة أَخْدَجَت[٧] .

---

(١) فى اللسان : « وقادم الإنسان : رأسه ، والجمع القوادم ، وهى المقادم ، وأكثر ما يتكلم به جمعاً ، وقيل لا يكاد يتكلم بالواحد منه » . وجعلت فى ط : « مقاديره » خطأ .

(٢) فى اللسان : « والشهرية : ضرب من البراذين ، وهو بين البرذون والمقرف من الخيل » . والهجين : الذى أبوه عربى وأمه غير عربية .

(٣) هذا مثل للكثرة . وانظر حواشى الحيوان ٢ : ٧١ .

(٤) لم يظهر من الكلمة فى الأصل إلا فتحتان وبقية الباء .

(٥) لم يبد من هذه الكلمة فى الأصل إلا طرف الميم .

(٦) فى الأصل : « لرحه » .

(٧) أخدجت : جاءت بولدها ناقص الخلق وقد تم وقت حملها .

وقال الشاعر فى سَوَسِ البغلة[١] :

وَقَدْ سَوِسَتْ حَتَّى تَقَاصَرَ دُونَهَا هِيَاجُ سَنَانِيرِ القُرَى فِى الصَّنَابِرِ[٢]

وذلك من عيوبها .

قالوا : ولم تأخذ صَهيلَ الأخوال ، ولا نَهيق الأعمام ، وخرجت مقاديرُ غراميلها عن غراميل أعمامها وأخوالها . فإن زعمتم أنّ أعمارها أطول ، فعيوبها أكثر ، وأيام الانتفاع بها أقلّ ، وباعَتُها أفجر ، والخصومة معهم أفحش ، وخسرانُها يُوفى على أضعاف ربحها ، وشرُّها غامرٌ لخيرها .

ومما تخالف أخلاقَ سائر المركوبات : أنك إذا سِرتَ على الإبل والخيل والحمير والبقر ، فى الأسفار الطِّوال ، فى سواد ليلك ، إلى انتصاف نهارك ، ثم صارت إلى المنزل عند الإعياء والكلال ، طلب جميعُ المركوبات المراعىَ والأَوَارِىّ[٣] ، وأخرجت البغالُ بعقب ذلك التعبِ الطويل ، أيورًا كجعاب القِسِىّ ، تضرب بها بطونَها وصدورَها ، حتّى كأنها تتعالج به من ألَم السَّفَر . وكُلُّ دابة سِواها إذا بلغت لم يكن لها هِمّة إلّا المَراغة[٤] والرُّبوض ، والأكل والشُّرب .

٢١٩ ظ

---

(١) سبق تفسير السوس فى ص ٣١٨ .

(٢) الصنابر : جمع صنبر ، كهزبر ، ويقال أيضاً بتشديد النون مفتوحة أو مكسورة مع كسر الصاد ، وهى الريح الباردة .

(٣) الأوارى : جمع آرى بتشديد الياء ، وهو معلف الدابة ومحبسها .

(٤) المراغة : اسم من مرغه فى التراب : جعله يتقلب فيه . ونظير هذا النص فى الحيوان ٣ : ١٦٠ .

وهى مع ذلك من أغلم الدوابّ ، وأبعدها من العِتق[1] ، ولم نجد عِظَم الأيور فى جميع الحيوان فى أشراف الحيوان إلّا فى القَرْط ، وذلك عامّ فى الزنوج والحُبشان ، وتجده فى الحمير والبغال .

قالوا : وأَير الفيل كبير ، ولم يخرج من مقدار بَدَنه .

ولَعمرى إنّ الرجال ليتمنَّوْن عِظَم الأيور كما تتمنَّى النساء ضِيقَ الأحراح .

قال محمد بن مُناذِر ، وأبو سعيد راوية بشّار ، قالا :

ضحِك بشّارٌ الأعمى يوماً ونحن عنده ، بعد أنْ أطال السكوت ، فقلنا : ما الذى أضحكك يا أبا مُعاذ ؟ قال : أضحكنى أنّه ليس على ظَهْرِها رجلٌ إلّا وَبودِّه أن أيره أكبر ممّا هو عليه ، ولا على ظهرها امرأة إلّا وبودِّها أن حِرَها أضيَق ممّا هو عليه . فلو أعطى الله الرجال سُولَهم[2] فى العِظَم ، وأعطى النساء سُولَهنّ[3] فى الضِّيق ، لَوَقع العجْز ، وبطل التناكُح ، وبطل ببطلان التناكُح التلاقُح . وهذا لُطفٌ من ربِّك .

قالا : وقال لنا يوماً ونحن جماعة : أتدرون أىُّ الرجال يتمنَّوْن ضِيق الأحراح ، وأيّهم يتمنَّى سَعتها ؟ قلنا : لا . قال : إنّما يتمنَّى السَّعة كلُّ ردىّ النَّعْظ ، مُسترخى عَصَب الأير ، وإنّما يتمنَّى الضِّيق كلُّ متوتِّر العَصَب ، شديد النَّعْظ .

---

(١) ط : « العيف » ، خلافاً لما هو واضح فى الأصل .

(٢) السول والسؤل : الأمنية التى سألتها ، وهو بضم السين ، وبالهمز وغير الهمز ، وبهما قرئ قوله تعالى : «قال قد أوتيت سؤلك ياموسى » .

(٣) فى الأصل : « سولهم » .

قال : وذمّ آخرُ البغل ، فقال : عظيم الغُرمول ، كبير الرأس ، عقيم الصُّلب ، قبيح الصوت ، بطيء الحُضْر ، مِهْياف إلى الماء[1] ، متلوِّن الأخلاق ، كثير العِلَل ، فاجِر البائع ، قتّال لراكبه ، شديدُ العداوة لرائضه ، حَرونٌ عند الحاجة . والحِران إليه أسرَع ، ودواؤه أعسر . إن كان أغرَّ[2] كان سَمِجاً ، وإن كان مُحجَّلا كان مَشُوماً[3] . ولم يتواضع الملوك والأشراف بركوبه إلّا لإفراط نذالته ، ولا ركبه الرُّؤساء فى الحرب إلّا لظهور عجزه . وفى الأنبياء راكبُ البعيرِ ، وراكب الحمارِ . وكلٌّ ذى عزمٍ منهم فركّاب خيل ومُرتبِط عتاق[4] ، وليس فيهم راكب بغل ، وإنما كانت بغلة النبى صلى الله عليه وسلم ، هديَّة من المُقَوْقِس[5] ، قَبِلَها على التألُّف ، وعلى مثال ما كان يُعطِى المؤلَّفة قلوبهُم . ولم يجعلْها اللهُ شِرًى[6] ، ولا تِلادًا ولا هديَّةَ سِلْم .

٢٢٠ و

باب

[فى مدح البغال وذمها]

يُروى عن ابن عبَّاس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، أنه نهى أن يُنزَى

---

(١) المهياف والمهيوف : الذى لا يصبر على العطش .

(٢) فى الأصل : « أغم » ، ولا وجه له هنا . والأغر : ذو الغرة ، وهى بياض فى الجبهة .

(٣) التحجيل : بياض يكون فى القوائم .

(٤) ط : « بعتاق » ، خلافاً لما فى الأصل . وارتبط الخيل : ربطها وأعدها .

(٥) كانت تلك البغلة شهباء يقال لها « دلدل » . وفى عيون الأثر ٢ : ٣٢٢ أسماء خمس بغلات أخر غيرها ، فارجع إليه . وانظر ماسبق فى ٢٢٠ ، ٢٢٢ .

(٦) ط : « ولم يخطئ الله شراء » ، خلافاً لما فى الأصل . والشرى ، بالقصر كالشراء بالمد .

حمارٌ على فَرَس ، ونهانا أن نأكل الصَّدَقة ، وأمرنا أن نُسْبِغ الوضوء .

وعن عليّ كرّم الله وجهه قال : نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، أن يُنْزَى الحمارُ على فرس .

وقال الآخر فى عيب البغلة : شديدَةُ السَّوَس[1] ، وذلك ممّا يَنْقُض قُواها ، ويُوهِن أمرها ، وهى فى ذلك أهيَجُ من هِرّة وإن كانت لا تصيح صِياحَها[2] ، ولا تَضْغُو ضُغَاءها ، وإنما ذلك لأنّ الحافر فى هذا الخَلْق خِلاف البُرْثُن . ألَا ترى أنّ الكلب والسِّنَّوْر إذا ضُربا صاحا ، وكذلك الأسد والنَّمر والبَبْر والثعلب والفَهْد وابن آوى وعَناق الأرض . ولو أَخَذْتَ الحافر فقمطتَه ، فرساً كان أو برذوناً أو بغلاً أو حماراً ، ثم ضربتَه أنت بعصاً لم يصِحْ ، وإن كان يجدُ فوق ما يجد غيرُه من الألَم .

والبغلة مع ذلك تَلْقَح ولا تَنْسِل ، فصار حَمْلها بلاء على صاحبها ، لأنَّها إن وضعتْه لم يعِشْ . وكلّ حامل من جميع الإناث ، من شاة أو بقرة أو ناقة أو أتان أو رَمَكة أو حِجْر ، فإنّ حَمْلَها يكون زائداً فى ثمنها ، ولا تُرَدُّ تلك الحوامل بعيب الحمل ؛ إلّا المرأة والبغلة . فأمّا المرأة فلِشِدّة الوِلادة عليها ، ولأنّ حَدَثَ الموتِ من أجْل مَشَقّة الوِلادة عليها من بين جميع الحيوان أسرَع . وأمّا البغلة فلأنها إذا أقربَتْ[3] عجزت عن عَمَلها ، وإذا وضعت لم يُنْتفع بولدها .

٢٢٠ ظ

---

(١) انظر ماسبق فى ص ٣١٨ ، ٣٢٤ .

(٢) فى الأصل : « لا تضبح ضباحها » .

(٣) أقربت الحامل فهى مقرب : دنا ولادها . يقال أقربت الشاة والأتان ، ولا يقال للناقة فى ذلك إلا أدنت فهى مدن .

والبغلة إذا كامها البِرْذَوْن لم يصبِر عنها ، واشتدّ حِرْصُه عليها . فسألت أبا يزيد الإقْلِيدِسِيّ[١] عن ذلك ، فقال : لأنها أطيب خَلْوة ! فلقَّبناه : « خَلْوة البغلة » !

[أكل لحوم الخيل]

وأكْل القدِيد فى الضرورة ردئٌ للحافر كله ، وهو للبغلة أردأ .

وأهل البحريْن يَعلفون دوابَّهم الحشيش ، وقد استمرّت على ذلك .

وقال القعقاع بن خُلَيْدٍ العَبْسِى[٢] :

أَكَلْنَا لُحُومَ الخَيْـــلِ رَطْبًا ويابِساً
وأَكْبَادُنَا مِنْ أَكْلِنَا الخَيْلَ تَقْرَحُ[٣]
ونَجلســــنا حَوْلَ الطُّوَانَةِ جُوَّعًا
ولَيْسَ لَنَا حَوْلَ الطُّوَانَةِ مَسرحُ[٤]

---

(١) ذكر السمعانى فى الأنساب ٤٧ هذه النسبة وقال : لعلها نسبة إلى معرفة كتاب إقليدس أو نسخه . وضبطها بكسر الهمزة وسكون القاف وكسر اللام بعدها الساكنة آخر الحروف وكسر الدال المهملة .

(٢) القعقاع بن خليد بن جزء بن حارث بن زهير العبسى . وكان مع مسلمة ابن عبد الملك بالقسطنطينية ، فكتب إلى الوليد بن عبد الملك هذا الشعر يشكو فيه ما نالهم من الجهد . معجم المرزبانى ٣٢٩ . وقد ورد نسبه كما سبق فى جمهرة ابن حزم ٢٥١ . وجاء اسمه فى الأغانى ١٣ : ١٥٠ ومعجم البلدان (طوانة) حيث روى ياقوت الشعر التالى : « القعقاع بن خالد » .

(٣) أنشد هذا البيت وحده فى معجم المرزبانى . وقبله فى معجم البلدان :

فأبلغ أمــير المؤمنين رسالة سوى ما يقول اللوذعى الصمصمح

(٤) الطوانة : بلد بثغور المصيصة . وفى معجم البلدان : =

وليس تُوافق لحومُ الخيل أُمّةً من الأمم كما توافق الأتراكَ ، وكذلك اللّحم صِرْفاً .

وذكر النَّمِر بن تَوْلَب سوء موافقة أكل اللّحم للخيل ، فقال[1] :

لِلّهِ مِنْ آيَاتِهِ هـٰـذَا الْقَمَرْ والشَّمْسُ واللَّيْلُ وآيَاتٌ أُخَرْ[2]

إنَّا أَتَيْنَاكَ عَلَى بُعْدِ السَّفَرْ نَقُودُ خَيْلاً ضُمَّرًا فِيهَا ضرر[3]

نُطْعِمُهَا اللَّحْمَ إذَا عَزَّ الشَّجَرْ[4] والخَيْلُ فى إطْعَامِهَا اللَّحْمَ عَسَرْ[5]

= ونحسبها حـــول الطوانة طلعاً وليس لها حول الطوانة مسرح

وبعـــده :

فليت الفزارى الذى غش نفسه وغش أمـــير المؤمنين يبرح

يعنى عمر بن هبيرة الفزارى ، وكان القعقاع يصاوله تصاول الفحلين ، كما ذكر المرزبانى .

(١) قال هذا حين وفد على النبي صلى الله عليه وسلم . الإصابة ٨٨٠٣ والأغانى ١٩ : ١٥٩ والشعراء ٢٦٨ . وبعض الأشطار التالية فى الحيوان ٧ : ١٤٥ واللسان (لحم) . وقبلها فى الأغانى والإصابة :

* ياقوم إنى رجل عندى خبر *

(٢) الأغانى والإصابة : « والشمس والشعرى » .

(٣) فى الأغانى : « خيلا رجعا فيها ضرر » . وفى الإصابة : « خيلا وجعا فيها ضرر » . وفى الشعراء : « ضمرا فيها عسر » .

(٤) فى الأغانى عن ابن حبيب : « قال الأصمعى : أطعمها اللحم : أسقيها اللبن . والعرب تقول : اللبن أحد اللحمين » . وهو تفسير عجيب ، نقله المرزوقى فى شرح الحماسة ٧٢٦ . ونقله كذلك صاحب اللسان أيضاً فى (لحم) ثم قال : « وقال ابن الأعرابى : كانوا إذا أجدبوا وقلّ اللبن يبسوا اللحم وحملوه فى أسفارهم وأطعموه الخيل . وأنكر ما قال الأصمعى وقال : إذا لم يكن الشجر لم يكن اللبن » . وفى الأغانى أيضاً عن ابن الأعرابى : « كانت العرب إذا لم تجد العلف دقت اللحم اليابس فأطعمته الخيل » .

(٥) فى الشعراء والحيوان واللسان : « ضرر » .

وقال الآخر :

وخَيْلُكَ بِالْبَحْرَيْنِ تَعْتَلِفُ النَّوى وللتَّمْرُ خَيْرٌ مِنْ حَشِيشٍ وَأَنْفَعُ

[معارف شتى فى ألوان الدواب]

وقال بعض من يمدح البغل : البِرذون إذا كان أسود قالوا : أدهم ، وكذلك الفرس . والحمار إذا كان أسود قالوا : أسود . وألحقوا البغل بالخيل ، فقالوا : بَغْلٌ أدهم .

وقال بعضهم : البغل يؤخِّر سَرجُه كما يؤخِّر سَرْجِ الحمار ، وموضع اللَّبَب من الخيل يكون قُدَّامَ ، وإن رَكِب الغلام البغل عُرْيًا ، ركب فيه على مركب الحمار ، وهو مؤخّره ، فإن ركب الخيل ركب المقاديم .

حدَّثنى بعض أهل العلم ، قال : قال شيخ من الملوك لعبد الله بن المُقَفَّع : إن ابنى فلانًا يتكلّم بكلامٍ لا نعرفه ، فأُحِبّ أن تجالسه ، فإن كانَ كلامُه هذا من غريب كلام العرب ، فهو على حالٍ لم تخرج من هذه اللغة ، وإن كان شيئًا يبتدعه عالجناه بالتقويم . فأتاه ابن المقفَّع ، فسمعه يقول : يا غلامى أَسرِجْ لى بِرْذَوْنى الأسود . فقال : قل ، أصلحك الله : البرذون الأدهَم ، وإيَّاكَ أن تقول : الأسود . قال : لا أقول إلاّ الأسود ؛ لمَ ؟ لأنه ليس بأسود ؟ قال : بَلَى هو أسود ، ولكن لا يقال له أسود . قال : فمكث ساعةً ، ثم قال : ياغلام أَسرجْ لى حمارى الأدهم . قال : قلت : لا تقُل للحمار : أدهم ، إنما يقال له : أسود . قال : فقال لى : لمَ يقال له أسود ؟ قلت : لأنه أسود . قال : قد نهيتَنى أن أقول : برذونٌ أسود ، وهو أسود . قال : قلت له : هكذا تقول العرب . قال :

إمّا أن تكون العرب أَمْوَقَ الخَلْق ، وإما أن تكونوا أنتم أكذبَ الخلق ! قال : فرجعتُ إلى أبيه فقلت له : إن كان عندك علاج فدارِكْه ، وما أظنّ ، والله ، أنّ ذلك عند الجالينوس[1] !

[بغلة أبى دلامة وما قال فيها من شعر]

قال أبو دُلامة[2] فى بغلته . والمَثَل فى البغال بغلة أبى دُلامة[3] . وفى الحمير حمار العِبادىّ[4] ، وفى الغنم شاة مَنيع[5] ، وفى الكلاب كلبةُ

(١) ترجمته فى حواشى البيان ٣ : ٢٧ . وقد ورد هنا بلام التعريف .

(٢) أبو دلامة : زند بن الجون . ويقال « زبد » بالباء ، ويصحف إلى « زيد » بالياء ، من سودان الشعراء ومواليهم ، أدرك آخر أيام بنى أمية ولم يكن له فى أيامهم نباهة ، ثم نبغ فى أيام بنى العباس وانقطع إلى السفاح والمنصور والمهدى ، فكانوا يقدمونه ويستطيبون مجالسته ونوادره . ودلامة بضم الدال ، وكنى أبا دلامة باسم جبل بمكة يقال له أبو دلامة ، كانت قريش تئد فيه البنات فى الجاهلية . توفى سنة ١٦١ . الشعراء ٧٥١ — ٧٥٣ وتاريخ بغداد ٨ : ٤٨٨ — ٤٩٣ والمؤتلف ١٣ والاغانى ٩ : ١١٥ — ١٣٥ ومعجم الأدباء ١١ : ١٦٥ — ١٦٨ ووفيات الأعيان .

(٣) يضرب بها المثل فى كثرة العيوب . ثمار القلوب ٢٨٨ — ٢٩١ .

(٤) الوجه « حمارا العبادى » بالتثنية ، كما فى ثمار القلوب ٢٩٢ والتمثيل والمحاضرة ٣٤٣ وأمثال الميدانى ٢ : ٩٧ إذ يقال فى المثل « كحمارى العبادى » إذا كانا ساقطين . والعبادى : منسوب إلى العباد ، وهم أفناء من العرب نزلوا الحيرة وكانوا نصارى ، منهم عدى بن زيد العبادى ، قالوا : قيل له : أى حماريك شر ؟ قال : هذا ثم هذا ! قال .

رجسان مالهما فى الناس من مثل ... إلا حمارا العبادى الذى وصفا

وقيل للرقاشى : أيما أنذل وأسفل ، الكناس أو الحجام ؟ فأنشد قول الشاعر :

حمارا العبادى الذى سيل فيهما ... وكانا على حال من الشر واحد

سيل ، أى سئل .

(٥) هو منيع البقال ، كما فى الأغانى ١٢ : ١٢٨ . قال : هجمت شاة منيع البقال =

حَوْمل[١] : فقال أبو دُلامة يصف بغلته[٢] :

أَبَعْدَ الخَيْلِ أركَبُها وِرَادًا وشُقْرًا في الرَّعِيلِ إلَى القِتَالِ[٣]
رُزِقْتُ بُغَيْلَةً فِيهـا وِكَالٌ وخَيْرُ خِصَـالِها فَرْطُ الوِكَالِ[٤]
رأيتُ عُيُوبها كَثُرَتْ وعالَتْ ولو أَفْنَيْتُ مُجتهِدًا مقَالِي[٥]
تَقُومُ فَما تَرِيمُ إذَا اَسْتُحِثَّتْ وتَرْمَحُ باليمِينِ وبالشِّمَالِ[٦]

= على دار محمد بن يسير الشاعر وهو غائب ، وكانت له قراطيس فيها أشعار وآداب مجموعة ، فأكلتها كلها ، وقال في ذلك شعرا .

(١) قالوا في أمثالهم : « أجوع من كلبة حومل » . الحيوان ١ : ٢٩١ وثمار القلوب ٣١٥ والتمثيل والمحاضرة ٣٥٥ وللميداني ١ : ١٦٩ — ١٧٠ . وحومل هذه امرأة من العرب ، كانت تجيع كلبة لها وهي تحرسها ، فكانت تربطها بالليل للحراسة وتطردها بالنهار ، وتقول : التمسي لا ملتمس لك . فلما طال ذلك عليها أكلت ذنبها من شدة الجوع . قال الكميت يذكر بني أمية ، ويذكر أن . رعايتهم للأمة كرعاية حومل لكلبتها :

كما رضيت جوعاً وسوء رعاية لكلبتها في سالف الدهر حومل

(٢) أنشدها الثعالبي في ثمار القلوب ٢٨٨ — ٢٩١ والشريشي في شرح المقامات ٢ : ٢٧٣ .

(٣) الوراد : جمع ورد ، بالفتح . والوردة بالضم : حمرة تضرب إلى صفرة حسنة . وفي الثمار : « أركبها كراماً وبعد الغر من خضر البغال » .

(٤) الوكال بكسر الواو وفتحها : الفتور ، كأنها تتكل على صاحبها في العدو ، تحتاج إلى الضرب . الثمار : « رزئت ببغلة » و « ليت ولم يكن غير الوكال » .

(٥) عالت ، بالعين المهملة : زادت كما تعول الفريضة أي تزيد . ط : « غالت » خلافاً لما في الأصل . وفي الثمار : « رأيت عيوبها وعييت فيها » . وبعده في الثمار :

لما وفيتها بالقـول حقاً وخير خصالها شر الخصال
فأهون عيبها أني إذا ما نزلت فقلت أمشي لا تبالي

(٦) ما تريم : ما تبرح . وفي الثمار :

تقوم فما تسير هناك سيراً وترمحني وتأخذ في قتالي
وحين ركبتها آذيت نفسي بضرب باليمين وبالشمال

رِيَاضَــةُ جاهِلٍ وعُلَيجِ سَوْء مِن الأَكرادِ أَحْبَنَ ذِى سُعَالِ[١]

شَتِيمِ الْوَجْهِ هِلْبَاجٍ هِدَانٍ نَعُوسٍ يَوْمَ حَلٍّ وارْتِحَـالِ[٢]

فَأَدَّبَهَـا بِأَخْلاَقٍ سِمَـاجٍ جَزَاهُ اللهُ شَرًّا عَنْ عِيَـالِى

فلمَّا هَدَّنِى ونَفَى رُقَادِى وطَالَ لِذَاكَ هَمِّى وَاشْتِغَالِى

٢٢١ ظ

أَتَيْتُ بِهَا الْكُنَاسَةَ مُسْتَبِيعًا أُفَكِّرُ دَائِبًا كَيْفَ احْتِيَالِى[٣]

لِعُهْدَةِ سِلْعَةٍ رُدَّتْ قَدِيمـاً أطُمُّ بها على الدَّاءِ العُضَالِ[٤]

فَبَيْنَا فِكْرَتى فى القَوْمِ تَسْرِى إذا ما سِمْتُ أَرْخِصُ أَمْ أُغَالِى[٥]

أَتَانِى خَائِبٌ حَمِقٌ شَـقِىٌّ قَدِيمٌ فى الخَسَـارَةِ والضَّلاَلِ

ورَاوَغَنِى لِيَخْلُوَ بِى خِدَاعًا ولاَ يَدْرِى الشَّقِىُّ بِمَنْ يُخَالِى[٦]

فَقُلْتُ: بِأَرْبَعِينَ، فقال: أَحْسِنْ فإنَّ البيع مرتخصٌ وغَالِ

---

(١) عليج: مصغر علج، وهو الضخم القوى من كفار العجم. والأحبن: من عظم بطنه خلقة أو من داء. ط: «أجبن» خطأ ومخالف للأصل.

(٢) الشتيم: الكريه الوجه. والهلباج: الأحمق. والهدان: الأحمق الجافى الوخم. والحل، بالفتح: مصدر حل المكان وبالمكان: نزل به.

(٣) الكناسة، بالضم: محلة بالكوفة. والمستبيع: طالب البيع، يقال استباعه الشىء: سأله أن يبيعه منه. والبيع من الأضداد، يقال للبيع والشراء. وفى الأصل: «مستغثياً»، صوابه من ثمار القلوب.

(٤) العهدة: العيب. والسلعة: شبيه بالغدة.

(٥) فى الأصل: «تسدى». وفى الثمار: «فى السوم تسرى». وسمت، بالبناء للمجهول، أى سامنى المشترى.

(٦) أصل المخالاة المصارعة، كأن كل واحد منهما يخلو بصاحبه، والمراد هنا المخادعة.

فَلَمَّا ابْتَاعَهَــا مِنِّى وبُتَّتْ   لهُ فى البيع غَيْرِ الْمُسْتَقَــالِ

أَخَذْتُ بِثَوْبِهِ وبَرِئْتُ مِمَّا   أُعُدُّ عَلَيْكَ مِنْ شَنِـعِ الخِصَالِ

بَرِئْتُ إِلَيكَ مِن مَشَشٍ قَدِيمٍ   ومِنْ جَرَذٍ وتَخرِيقِ الجِلالِ[(١)]

ومِنْ فَرْطِ الحِرَانِ ومِنْ جِمَاحٍ   ومِنْ ضَعْفِ الأَسَافِلِ والأَعَالِى

ومِن عَقَدِ اللِّسَانِ ومِنْ بَيَاضٍ   بِنَاظِرِها ومِنْ حَلِّ الحِبَــالِ[(٢)]

وعُقَّــالٍ يُلازِمها شَـدِيدٍ   ومِنْ هَدْمِ المَعالِفِ والرِّكَالِ[(٣)]

ومِنْ شَدِّ العِضَاضِ ومِنْ شِبَابٍ   إِذَا ما هَمَّ صَحْبُكَ بِالزِّيَالِ[(٤)]

تَقَطَّعُ جِلْدَها جَرَباً وحَـكًّا   إذا هُزِلَتْ وفى غَـيرِ الهُزَالِ

وأَقْطَفُ من دَبِيبِ الذَّرِّ مَشياً   وتَنْحِطُ من مُتَابَعَةِ السُّـعَالِ[(٥)]

---

(١) المشش : ورم يأخذ فى مقدم عظم الوظيف أو باطن الساق . والجرذ : تزيد وانتفاخ عصب يكون فى عرقوب الدابة . والجلال : جمع جل ، بالضم ، وهو ما تلبسه الدابة لتصان به « وفى الثمار : « ومن بلل المخالى » : جمع مخلاة .

(٢) العقد ، بالتحريك : الاعوجاج والالتواء وفى الثمار :

ومن عض اللسان ومن خراط   إذا ماهم صحبك بارتحال

(٣) العقال ، كرمان : انقباض فى بعض العضلات يمنع الحركة وقتاً . والركال : مصدر راكله ، والركل : الرفس .

(٤) شد ، بالدال كما فى الأصل ، ولا بأس بها وإن كان الأوفق « شر » والشباب ، بالكسر ، هو من الفرس : أن ينشط ويرفع يديه . والزيال : المفارقة . وقد ورد هذا البيت فى الأصل بعد تاليه . ووجه ترتيبه ما أثبت .

(٥) أقطف من القطف والقطاف ، وهو تقارب الخطو وبطؤه . والذر : صغار النمل . تنحط ، من النحيط ، وهو أن تزفر من الجهد .

وتَكسِرُ سَرجَها أبدًا شِماساً ... وتسقُطُ فى الوُحولِ وفى الرِّمالِ(١)

ويُهزِلُهَا الجَمامُ إذَا خَصِبنا ... ويُدْبِرُ ظَهْرَها مَسُّ الجِلاَلِ(٢)

تَظَلُّ لِرَكْبَةٍ مِنها وقِيذًا ... يُخَافُ عليكَ مِنْ ورمِ الطِّحالِ(٣)

وتَضْرِطُ أرْبَعِينَ إذَا وقَفْنَا ... على أهْلِ المَجَالِسِ لِلسُّؤالِ

فتُخرِسُ مَنْطِقِى وتَحُولُ بَيْنِى ... وبَيْنَ كَلَامِهِمْ مِمَّا تُوالِى

وقَدْ أعْيَتْ سِيَاسَتُهَا المُكَارِى ... وبَيْطَارًا يُعَقِّلُ بِالشِّكَالِ(٤)

٢٢٢ و

حَرُونٌ حِينَ تَرْكَبُها لِحُضْرٍ ... جَمُوحٌ حِينَ تَعزِمُ لِلنِّزَالِ

وذِئْبٌ حِينَ تُدْنِيهَا لِسَرْجٍ ... ولَيْثٌ عِنْدَ خَشْخَشَةِ المَخَالِى(٥)

وفَسْلٌ إنْ أرَدْتَ بِهَا بُكُوراً ... خَذُولٌ عِنْدَ حَاجَاتِ الرِّحَالِ

وألْفُ عَصًا وسَوْطٍ أصبَحِىٍّ ... ألَذُّ لها مِنَ الشُّرْبِ الزُّلَالِ(٦)

---

(١) الشماس : نفور الدابة . وفى ط: «وتلق»، خلافاً لما هو واضح فى الأصل .

(٢) الجمام ، كسحاب : الراحة . وفى ط : « الحمام » خلافاً لما فى الأصل وفى الثمار : « الحمام إذا حصينا » . ويدبر ، من الإدبار ، وهو أن يصيبه بالدبر ، وهو القرحة .

(٣) الوقيذ : الشديد المريض الذى أشرف على الموت .

(٤) المكارى ، بضم الميم ، وهو الذى يكرى دابته ، أى يؤجرها .

(٥) المخالى : جمع مخلاة بكسر الميم ، وهى ما يوضع فيها الخلى ، الحشيش الذى يحتش .

(٧) السوط الأصبحى : منسوب إلى ذى أصبح ، وهو ملك من ملوك حمير تنسب إليه السياط .

وتَصْعَقُ مِنْ صُقَاعِ الدِّيكِ شَهْرًا وتُذْعَرُ لِلصَّفِيرِ ولِلْخَيَالِ[١]

إذَا اسْتَعْجَلْتَهَا عَثَرَتْ وبَالَتْ وقَامَتْ سَاعَةً عِنْدَ المَبَالِ

ومِثْفَارٌ تُقَدِّمُ كُلَّ سَرْجٍ تُصَيِّرُ دَفَّتَيْهِ عَلَى القَذَالِ[٢]

وتَحْفَى فى الوُقُوفِ إذَا أَقَمْنَا كَمَا تَحْفَى البِغَالُ مِنَ الكَلَالِ

ولَوْ جَمَّعْتَ مِنْ هَنَّا وهَنَّا مِنَ الأَتْبَانِ أَمْثَالَ الجِبَالِ[٣]

فَإِنَّكَ لَسْتَ عَالِفَهَا ثَلَاثًا وعِنْدَكَ مِنْهُ عُودٌ لِلْخِلَالِ

وكَانَتْ قَارِحًا أَيَّامَ كِسْرَى وتَذْكُرُ تُبَّعًا قَبلَ الفِصَالِ[٤]

وقَدْ قَرِحَتْ ولُقْمَانٌ فَطِيمٌ

وذُو الأَكْتَافِ فى الحِجَجِ الخَوَالِى[٥]

وقَدْ أَبْلِى بِهَا قَرْنٌ وقَرْنٌ وأُخِّرَ يَوْمُهَا لِهَلَاكِ مَالِى[٦]

---

(١) صقع الديك صقعاً وصقاعاً : صاح ورفع صوته .

(٢) المثفار ، بالثاء المثلثة : التى ترمى بسرجها إلى مؤخرها . والثفر : السير الذى فى مؤخر السرج . وفى الأصل : « منفار » بالنون ، تصحيف . والدفتان : الجانبان . والقذال : مؤخر الرأس .

(٣) الأتبان : جمع تبن ، بالكسر ، وهو ماتهشم من سيقانُ القمح ونحوه بعد درسه ، تعلفه الماشية .

(٤) القارح : مااستتم الخامسة . والفصال : الفطام .

(٥) قرحت ، من باب فرح : استتمت الخامسة وسقطت سنها التى تلى الرباعية . وذو الأكتاف : لقب ملك من ملوك فارس ، وهو سابور الثانى .

(٦) فى الثمار :

قد مرت بقرن بعد قرن وآخر عهدها بهلاك مالى

فَأَبْدِلْنِي بِهَا يَارَبِّ بَغْلًا ... يَزِينُ جَمَالُ مَرْكَبِهِ جَمَالِي

كَرِيمًا حِينَ يُنْسَبُ وَالِدَاهُ ... إِلَى كَرَمِ المَنَاسِبِ فِي البِغَالِ

[أشعار أخرى فى البغال]

وأنشد إبراهيم بن داحة لأبى الوزير المعلّم[1] فى ركوب البغال ، لنخّاس الحجّاج بن يوسف ، فى كلمةٍ طويلة لم أحفظ منها إلّا هذه الأبيات :

حَمِدْتُ إِلٰهِي إِذْ رَأَيْتُكَ مُغْرَمًا ... بِكُلِّ كَثِيرِ العَيْبِ جَمٍّ جَرَائِمُهْ

عَلَى كُلِّ شَحَّاجٍ يُضَارِعُ صَوْتُهُ ... شَحِيجَ غُرَابٍ فَاحِمُ اللَّوْنِ قَاتِمُهْ

يُفَزِّعُ مِنْهُ كُلُّ غَادٍ لِطِيَّةٍ ... وَيَهْرُبُ منه فِي الرَّوَاحِ خُتَارِمُهْ[2]

وما لَكَ منه مَرْفَقٌ غَيْرَ أَنَّهُ ... يُقَرِّبُ أَرْحَامَ الحُجُورِ تَفَاقُمُهْ[3]

وَأَنَّكَ غَلَّابٌ لِكُلِّ مُخَاصِمٍ ... تُجَادِلُهُ طَوْرًا وَطَوْرًا تُلَاطِمُهْ

لِفَرْطِ عُيُوبِ البَغْلِ صِرْتَ مُوَقَّحًا ... فَهَمُّكَ خَصْمٌ أَوْ بَذِيٌّ تُشَاتِمُهْ[4]

تُكَذِّبُهُ فِى العَيْبِ وَالعَيْبُ ظَاهِرٌ ... وَيَعْلَمُ كُلُّ النَّاسِ أَنَّكَ ظَالِمُهْ[5]

٢٢٢ ظ

---

(١) ذكره الجاحظ فى البيان ١ : ٢٥٢ وقال : « وما كان عندنا بالبصرة رجلان أروى لصنوف العلم ولا أحسن بيانا من أبى الوزير وأبى عدنان المعلمين » .

(٢) الختارم ، بضم الخاء : الرجل المتطير .

(٣) كلمة « منه » ساقطة من الأصل . والحجور : جمع حجر ، بالكسر ، وهى الأنثى من الخيل . والبيت شديد التحريف فى ط .

(٤) ط : « فيصدر خصم » ، خلافا لما فى الأصل .

(٥) ط : « تلد به فى العيب » ، خلافا لما فى الأصل .

فَصَارَ لِنَخَّاسِ البِغَالِ فَضِيلَةٌ عَلَى كُلِّ نَخَّاسٍ وخَصْمٍ يُصَادِمُهْ

فَلَا زَالَ فَحَّاشًا وَقَاحًا مُلَعَّنًا وآكِلَ سُحْتٍ لا تَجِفُّ مَلَاغِمُهْ[1]

يُلاطِمُ فِي ظَهْرِ الطَّرِيقِ شرِيكَهُ وَتَنْشَقُّ مِنْ فَرْطِ الصِّياحِ غَلَاصِمُهْ

وهذا كقوله :

أَكُولٌ لِأَرْزَاقِ العِيَالِ إِذَا شَتَا صَبُورٌ عَلَى سُوءِ الثَّنَاءِ وَقَاحُ[2]

ومثل قوله[3] :

إِنْ يَغْدِرُوا أَوْ يَفْجُرُوا أَوْ يَبْخَلُوا لَمْ يَحْفِلُوا

وغَدَوْا عَلَيْكَ مُرَطَّلِينَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا[4]

كَأَبِى بَرَاقِشَ كُلَّ يَوْمٍ لَوْنُهُ يَتَبَدَّلُ[5]

---

(١) اللاغم : جمع ملغم ، بفتح الميم ، وهو الفم والأنف وما حولهما .

(٢) البيان ٣ : ٣٣٣ وعيون الأخبار ٢ : ٢٩ . وفى الأخير : « لأرزاق العباد » . والثناء : ما أخبرت به عن الرجل من قبيح أو حسن . والوقاح ، كسحاب : الصلب الوجه القليل الحياء ، والأنثى وقاح أيضاً ، بغير هاء .

(٣) قال أبو عبيدة إنه من الشوارد التى لا أرباب لها . البيان ٣ : ٣٣٣ . وانظر عيون الأخبار ٢ : ٢٩ وديوان المعانى ١ : ٨٢ وأمالى القالى ٣ . وخزانة الأدب ٣ : ٦٦٩ والصناعتين ١٠٣ ومحاضرات الراغب ١ : ١٥٠ .

(٤) ترطيل الشعر : تليينه بالدهن والمسح حتى يلين ويبرق . وجعلت فى ط : « مرجلين » خلافا للأصل ، وإن كان رواية البيان ومعظم المراجع .

(٥) أبو براقش ، بفتح الباء : طائر كالعصفور حسن الصوت طويل الرقبة والرجلين أحمر المنقار ، يتلون فى كل ساعة، يكون أحمر وأزرق وأخضر وأصفر ، ولعل السبب فى هذا ماذكر الأزهرى ، أنه شبيه بالقنفذ: أعلى ريشة أغبر ، وأوسطه أحمر ، وأسفله أسود ، فإذا انتفش تغير ألوانا شتى .

ومثل قوله[(١)] :

لِيَهْنِكَ بُغْضٌ فِى الصَّدِيقِ وظِنَّـــةٌ
وتَحْدِيثُـكَ الشَّىْءَ الَّذِى أَنْتَ كَاذِبُهْ[(٢)]

وأَنَّكَ مَشْـنُوءٌ إِلَى كُلِّ صَاحِبٍ
بَلَاكَ ومِثْـلُ الشَّرِّ يُكْرَهُ جَانِبُهْ[(٣)]

وأَنَّكَ مُهْـــدٍ لِلْخَنَا نَطِفُ الثَّنَا
شَدِيدُ السِّبَابِ رَافِعُ الصَّـوْتِ غَالِبُهْ[(٤)]

أمّا قوله « مُغْرَمًا بكلِّ كثير العيب[(٥)] » ؛ فلأنَّ البغال هى المَثَل فى كثرة العيوب ، وتلوُّن الأخلاق .

وأما قوله « جمٌّ جرائمه » ، فلصَرْعاها وقَتْلَاها .

وأما قوله « على كل شحَّاج » ؛ فلأن الشحيج صوتُ الغُرَاب .

وإنما عارض أبو دُلامة أبا خُنَيْس ببغلته حيث قال : ٢٢٣ و

أَبعِدْتِ مِنْ بَغْـلَةٍ مُواكِلَةٍ تَرْمَحُـنِى تَارَةً وتَقْمِصُ بِى

---

(١) هو حُسيل — أو حسين — بن عرفطة بن نضلة . انظر تحقيق ذلك فى حواشى البيان ٣ : ٢٤٩ وللأبيات البيان والحيوان ٣ : ١٠٢ ، ٤٩٤ .

(٢) ليهنك : ليهنئك ، سهلت همزتها . والكلام تهكم . هنأه الشىء : كان له هنيئاً سائغاً .

(٣) المشنوء : المبغض . بلاك : اختبرك .

(٤) فى البيان والحيوان : « مهداء الخنا » . والخنا : الفحش . والنطف : الملطخ بالعيب» . والثنا ، بتقديم النون على الثاء : ماأخبرت به عن الرجل من خير أو شر .

(٥) انظر البيت الأول من مقطوعة أبى الوزير ص ٣٣٧ .

تَـكادُ عِنْدَ المَسِـيرِ تَقْطَعُنِي ... رَاكِبُهَا رَاكِـبٌ عَلَى قَتَبِ[١]

إنْ قُمْتُ عِنْدَ الإِسْرَاجِ أُثْفِرُهَا ... تَطْرِفُ مِنِّي العَيْنَيْنِ بِالذَّنَبِ[٢]

وعِنْدَ شَدِّ الحِـزَامِ تَنْهَشُنِي ... مَانِعَـةً لِلْجِـامِ واللَّبَبِ[٣]

لَيْسَ لها سِيرَةٌ سِوَى الوَثَبِي ... كَرَقْصِ زَنْجٍ يَنْزُونَ لِلطَّرَبِ

وَهْيَ إذَا مَا عَلَفْتُهَا جَهَـدَتْ ... لَا تَأْتَلِي فِي الجِهَادِ عَنْ حَرَبِ[٤]

قَدْ أَكَلَتْ كُلَّ مَا اشْتَرَيْتُ لها ... مِنْ رِزْقِ شَعْبَانَ أَمْسِ فِي رَجَبِ

تَمُوُّ فِيمَـا نَمَا لِعَلْفَتِهَا ... إنْ لَمْ تُعَلَّلْ بِالشَّوْكِ والقَصَبِ[٥]

وإنما هجاها بكثرة الأكل ، فقدَّمها على كلّ مُعتلِف ، بسوء الرأى فيها ، وبإفراط الشعراء وزياداتهم ، وإنّما الأكل الشديدُ فى البَرَاذين والرَّمَك ، ثم التى معها أفلاؤها .

وقيل لرجل من العرب : أىّ الدوابّ آكَل ؟ قال : بِرْذَوْنة رَغُوث[٦] . لأنهم يقولون : بِرْذَوْن وبِرْذَوْنة . ولا يقولون فَرَس وفرسة ، بل يقولون :

---

(١) أى كالراكب على القتب ، وهو إكاف البعير يكون على قدر سنامه . أراد خشونة مركبها .

(٢) أثفَر الدابة : جعل لها ثفرا ، وهو بالتحريك : السير فى مؤخر السرج .

(٣) اللبب : مايشد على صدر الدابة أو الناقة ، يكون للسرج أو الرحل ، يمنعهما من الاستئخار .

(٤) الحرب ، بالتحريك : النهب والسلب .

(٥) نما ينمو : زاد . وفى الأصل: « نها » .

(٦) الرغوث : المرضعة . والخبر فى الحيوان ١ : ١١٢ والبيان ٣ : ٢١٢ .

فرس للأنثى والذَّكَر ، فإذا أرادوا الفرق والتفسير قالوا : حِجْر وحِصان .
وأنشد :

أَرَيْتَكَ إِنْ جَالَتْ بِكَ الخَيْلُ جَوْلَةً
وأَنْتَ عَلَى بِرْذَوْنَةٍ غَيْرِ طَائِلِ[1]

وأنشدوا :

تَزَحْزَحِي إِلَيْكِ يا بِرْذَوْنَهْ   إِنَّ البَرَاذِينَ إِذَا جَرَيْنَهْ[2]
مَعَ الجِيَادِ سَاعَةً أَعْيَيْنَهْ

والنِّعاج أيضاً قد تُوصف بدوام الأكل ، حتى زعم بعض الناس أنّ النِّساء[3] فى الجملة آكَلُ من الرجال ؛ لأن أكل النساء يكون متفرِّقا ، من غُدْوة إلى الليل ، والرجل أكله فى الدَّفعة أكثر من هذا فى الجملة . ٢٢٣ ط

[بعض ألوان الحيوان]

وقال بعضهم : البغال هى الشُّهب ، والإبل هى الحُمر ، والخيل هى الشُّقْر ، والحمير هى الخُضْر ، والسنانير هى النُّمْر[4] ؛ وإن كان الناس فى الحمار الأسود أرغَب ، وكذلك هُمْ فى ألوان الثيران ، لمكان البغال .

---

(١) أريتك ، أى أرأيتك ، ومعناه أخبرنى . وفى الحيوان ٢ : ١٨٥ : « أريت إذا ماجالت الخيل » . وفى اللسان (برذن) : « رأيتك إذ جالت » . غيرطائل ، يقال للشىء الخسيس الدون : ماهو بطائل ، الذكر والأنثى فيه سواء . وأنشد :

* لقد كلفونى خطة غير طائل *

(٢) الرجز فى الحيوان ٢ : ٢٨٣ .

(٣) جعلت فى ط : « الشاء » فى هذا الموضع وتاليه ، وليس ما يقتضى هذا . وانظر الحيوان ١ : ١١٢ .

(٤) جمع أنمر ونمراء ، وهو ما فيه بقعة بيضاء وبقعة أخرى على أى لون كان .

وقال بعض العرب لبعض الملوك : « هل لكم في النساء الزُّهْر ، والخيل الشُّقْر ، والنُّوق الحُمْر » ؟

وقالت بنت الخُسّ[١] : « الحمراء غَدْرَى ، والصَّهباء سَرْعَى ، والدَّهْماء بُهْمَى » .

وإنما صار الناس يتّخذون السنانير النُّمْر ؛ لأنها أصيَد ، فهي السَّنانير الخُلَّص ، والألوان الأُخَر داخلة على هذه الألوان ، وكذلك ألوان جميع ما ذكرنا ، وأصناف البهائم على ما ذكرنا ؛ وأما ألوان الأُسْد فمتشابهة ، لا اختلاف فيها إلا بالشيء اليسير ، والناس يختلفون في الألوان وكذلك الكلاب والسنانير والخيل والبغال[٢] والحمام والحيّات والطير ؛ فأما أنواع الطير ومغنّياتها ، والبُزاة[٣] والصُّقور والشواهين ، فلا اختلاف بينها .

باب

ما جاء من الشعر في ذم البغل

قال أبو دَهْبَلٍ الجُمَحِيّ[٤] :

حَجَـــرٌ تُقَلِّبُهُ وهلْ ... تُعْطى عَلَى المَدْحِ الحِجَارَهْ

كالبَغْـــلِ يُحْمَدُ قائمًا ... وتَذُمُّ سِيرَتَهُ المَشَارَهْ[٥]

---

(١) هي هند بنت الخس ، بضم الخاء وتشديد السين ، بن حابس بن قريط الإيادية ، وكانت ذات فصاحة وحكمة وجواب عجيب . انظر حواشي البيان ١ : ٣١٢ .

(٢) في الأصل : « والـ » مع انطماس بقية الكلمة وظهور الجزء الأعلى من الألف واللام الأخيرة .

(٣) في الأصل : « والبر » ، مع انطماس بقية الكلمة .

(٤) سبقت ترجمته في ص ٢٤٤ .

(٥) المشارة : مصدر ميمي من شار الدابة ، إذا أجراها ليعرف قوتها وسيرتها . وقد ضبط هذا البيت في ط خطأ .

وقال سهم بن حَنْظَلة الغَنَوِىّ[1] :

فأمَّا كِلَابٌ فَمِثْلُ الكِلَا   بِ لا يُحْسِنُ الكَلْبُ إلّا هَرِيرَا

وأمَّا نُمَيْرٌ فَمِثْلُ البِغَا   لِ : أَشْبَهْنَ آبَاءَهُنَّ الحَمِيرَا[2]

٢٢٤ و

وقال حسّان بن ثابت :

لا بَأْسَ بالقومِ مِنْ طُولٍ ومن عِرَضٍ

جِسْمُ البِغالِ وأحْلامُ العَصافيرِ[3]

وقال آخر :

ولئنْ ناكَحْتُمُونا لَبِمَا   ناكحتْ قَبْلَكُمُ الخَيْلَ الحُمُرْ

وقال ابن الزَّبِير الأسَدِىّ[4] لعبد الرحمن بن أُمّ الحَكَم[5] :

---

(١) هو سهم بن حنظلة بن حاوان بن خويلد ، من غنى بن أعصر ، فارس مشهور شاعر محسن . المؤتلف ١٣٦ وذكر فى الإصابة ٣٧٠٣ عن المرزبانى أنه شاعر شامى مخضرم .

(٢) البيتان فى الحيوان ١ : ٢٥٨. وبعدهما فيه :

وأما هلال فعطارة   تبيع كباء وعطراً كثيرا

(٣) ديوان حسان ٢١٤ من قصيدة يهجو بها رهط الحارث بن كعب المجاشعى وهم قبيل النجاشى الشاعر . وفى ط : « ومن عظم » خلافاً لما فى الأصل ، وإن كان مطابقا لرواية الديوان .

(٤) هو عبد الله بن الزَّبِير — بفتح الزاى — بن الأشيم بن الأعشى بن بجرة ، ينتهى نسبه إلى أسد بن خزيمة ، وهو شاعر كوفى المنشأ والمنزل ، من شعراء الدولة الأموية ، ومن شيعتهم والمتعصبين لهم ، فلما غلب مصعب بن الزبير على الكوفة أتى به أسيرا ، فمن عليه ووصله ، فمدحه وأكثر من مدحه وانقطع إليه ، فلم يزل معه حتى قتل . وعمى بعد ذلك ومات فى خلافة عبد الملك . الأغانى ١٣ : ٣١ — ٤٧ والخزانة ١ : ٣٤٥ ومعاهد التنصيص ١ : ٢٠ . ولم يذكره الصفدى فى نكت الهميان .

(٥) كان عبد الرحمن قد قدم الكوفة فى هيئة رثة ، فلما ولى الكوفة من =

تَنْغَلَبْتَ لَمَّا أَنْ أَتَيْتَ بِلَادَهُمْ   وفِي أَرْضِنَا أَنْتَ الْهُمَامُ الْقَلَمَّسُ[١]

أَلَسْتَ بِبَغْلٍ أُمُّهُ عَرَبِيَّــــةٌ   أَبُوهُ حِمَارٌ أَدْبَرُ الظَّهْرِ يُنْخَسُ[٢]

وقال خالد بن عبَّاد[٣] يهجو أبا بكر بن يزيد بن معاوية[٤] :

سَمِينُ الْبَغْلِ مِنْ مَالِ الْيَتَامَى   رَخِيُّ البـالِ مهزُولُ الصَّدِيقِ

وقال سِنان بن أبى حارِثة[٥] :

تَعَرَّضَ عَبْسٍ دُونَ بَدْرٍ سَفَاهَــــــةً

أَلَا عَجَبُ العجْباء مِنْ صَهَلِ البَغْـــلِ[٦]

= قبل خاله معاوية واكتسب وأثرى ، مدحه عبد الله بن الزبير فلم يثبه شيئاً ، فقال هذا يهجوه .

(١) فى الأغانى : « تنعلت لما أن أتيت بلادكم وفى مصرنا » . والقلمس : السيد العظيم الواسع الخلق .

(٢) فى الأغانى بعد إنشاد البيتين : « كان بنو أمية إذا رأوا عبدالرحمن يلقبونه البغل ، وغلبت عليه حتى كاد يشتم من ذكر بغلا ، يظنه يعرض به » .

(٣) كذا فى الأصل ، وقد سبق فى ص ٢٩٣ : « خالد بن عتاب » .

(٤) ذكره ابن قتيبة فى المعارف ١٥٣ وابن حزم فى الجمهرة ١١٢ فى جماعة ولد يزيد بن معاوية .

(٥) سنان بن أبى حارثة المرى ، أحد ثلاثة نفرهاموا على وجوههم فلم يوجدوا. الحيوان ٣ : ٤٩٠ و ٦ : ٢٠٩ والأغانى ٩ : ١٤٤ . وهو والد هرم ممدوح زهير بن أبى سلمى . وانظر جمهرة ابن حزم ٢٥٢ . وترجم له المرزبانى فى معجمه ٣٨٦ — ٣٨٧ .

(٦) ط : « لأعجب للعجباء » ، خلافا لما فى الأصل .

وقال شَبيب بن البَرْصاء يهجو عَقِيل بن عُلَّفة :

أَلَا أَبْلِـغْ أَبَا الجَرْبَاءِ عَـنِّى بِآيَاتِ التَّبَاغُضِ والتَّقَـالِى[1]
فَلَا تَذْكُرْ أَبَاكَ العَبْدَ وافخَرْ بِأُمٍّ لستَ تَـكْرَهُهَـا وخَالِ[2]
فَهَبْهَا مُهْرَةً لَقِحَتْ لِعَـيْرٍ فَـكَانَ جَنِينُهَا شَرَّ البِغَـالِ[3]

قال أبو عُبَيْدة : كان الفرزدق عَبِث بأبى الحسناء[4] ، وكان مُكارِىَ بغال ، ينزل فى مَقْبرة بنى هِزّان ، يُكرِى إلى الكوفة ، أيامَ كانت الطريق على الظَّهر ، فقال :

لِيَبْكِ أَبَا الحَسْنَاءِ بَغْلٌ وبَغْلَةٌ ومِخْلَاةُ سَوْءٍ بَانَ عَنْهَا شَعِيرُهَا

وقال الكُمَيْت :

تَمْشِى بِهَـا رُبْدُ النَّعَا مِ تَمَاشِىَ الآمِ الزَّوَافِرْ[5]
والأَخْـدَرِىُّ بِعَانَتَيْـهِ خَلِيطَ آجَالٍ وبَاقِـرْ[6]

---

(١) الجرباء : ابنة عقيل بن علفة ، وكان يكنى بها ، كما كان يكنى بأبى العملس ، الأغانى ١١ : ٨١ . والأبيات فى الأغانى ١١ : ٩٠ .

(٢) الأغانى : «لست مكرمها» . (٣) الأغانى : « وهبها مهرة لقحت ببغل» .

(٤) فى الشعراء ٤٤٥ : « وكان الفرزدق معنا مفنا يقول فى كل شىء ، وسريع الجواب ، فمر بقوم ولهم جنازة ، فقال : ماهذا ؟ فقالوا : مات أبوالخنساء صاحب البغال فقال . . . . » . وفيه : « ليبك أبا الخنساء » و « قد أضيع شعيرها » . وبعده فيه :

ومجرفة مطروحة ومحسة ومقرعة صفراء بال سيورها

(٥) الآم : جمع أمة . وفى الأصل : « الآمى » ، تحريف . وانظر اللسان (أما ٤٧) حيث أنشد هذا البيت . والزوافر : الإماء اللاتى يحملن الأزفار ، جمع زفر ، بالكسر ، وهو الحمل .

(٦) الأخدرى : الحمار الوحشى ، منسوب إلى فحل يدعى «أخدر» . والآجال : جمع إجل ، بالكسر ، وهو القطيع من بقر الوحش والظباء . والباقر : جماعة البقر .

٢٢٤ ظ قال : وفَد المُغيرة بن عبد الرحمن الرِّياحيّ على معاوية فى وفْد ، فقال : يا أمير المؤمنين ، وَلِّنى خُرَاسان . قال : ما هِجاء ما لا هِجاء له ؟ قال : فَشَرِّط البصرة . قال : انظُر غيرَ هذا . قال : فاْحمِلنى على بغل ، ومُرْ لى بقطيفةِ خَزّ . فلامه أصحابه ، فقال : أمّا أنا فقد أخذت شيئاً !

[أخبار فى البغال]

قالوا : ولما أقبل مسروق بن أبرهة الأشرم[1] بالحبَشَة ، فصافَّ جندَ وَهْرِز الفارسيّ ، حين كان استجاش ابنُ ذى يَزَن[2] بفارِس ، فوجَّه كِسرى معه وَهْرِزَ الإُسوار فى ثلاثِ مائة كان أخرجهم من الحبس ، على أنّهم إن ظَفِرُوا كان الظَّفَرُ له ، وإن قُتِلوا كان قد أراح الناسَ من شرِّهم . وكان وَهْرِز شيخًا كبيرًا ، قد شدَّ حاجبَه بعِصابة ، فقال : أَرُونى مَلِكَهم . قالوا : هو صاحبُ الفيل . قال : كفّوا عنه ؛ فإنه على مركبٍ من مراكب الملوك ! وقد أطال الوقوف . فنزل مسروق عن الفيل ، فركب فرسًا ؛ فقيل له : قد نزل عن الفيل ، وركب فرسًا . فقال : دَعُوه ، فإنه على مركَب من مراكب الفُرسان ! وأطال الوقوف حتى ملَّ ظهر الفرس ، وأتوه ببغل فركبه ، فقيل لوَ[هرِز : قد[3]] نزل عن الفرس ، وركب البغل . قال : عن مراكب الملوك ، وعن معاقل [الفُرسان[4]] ، ثم ركِب البغل ابن الحمار ! وكان على مسروق تاجُه ، وياقوتةٌ معلَّقة بين عينيه ، فقال وَهْرِز لمن حوله : إنى راميه ،

(١) مسروق ، هو أخو يكسوم بن أبرهة ، وكلهم كان ملكا على اليمن من قبل الحبشة ، وفى عهده تخلصت الحبشة من حكم اليمن بمجهود سيف بن ذى يزن الحميرى.

(٢) هو سيف بن ذى يزن . استجاش : طلب جيشاً . وانظر قصة ذلك فى سيرة ابن هشام ٤١ — ٤٥ . والخبر فى السيرة والحيوان ٧ : ١٨٢ .

(٣) موضع هذه التكملة بياض فى الأصل .

(٤) لم يظهر فى الأصل إلا بقية حرف النون .

فإنْ رأيتموهم يجتمعون عليه ، ولا ينفرجون عنه ، فقد قتلته ، فشُدُّوا عليهم شَدَّةً واحدة ، وإن تفرّقوا فإنما هى رَمْية . فرمى فأصاب نفسَ الياقوتة المعلقة بين حاجبيْه ، ففلقتْها ، وغابت النُّشّابة فى رأسه ، فاجتمعوا عليه ، ولم يتفرّقوا عنه ، فشدُّوا عليهم شدَّةً واحدة كانت إيّاها .

وبلغنى عن علىّ بن زيد بن جُدْعان[1] ، قال :

شخَصَ أبو سفيان إلى معاوية بالشام ، فى ولاية عُمر رضى الله عنه ، ومعه ابناه عُتْبة وعَنْبَسة ، فكتبتْ إليه هند[2] : « قد قَدِمَ عليك أبوكَ وأخَواكَ ، فلا تَغذِمْ لهم[3] ، فيعْزِلَكَ عُمَر . احملْ أباكَ على فرس وأعْطِه ثلاثة آلاف دِرْهم ، واحملْ عُتبة على بغل وأعطِه ألفَىْ درهم ، واحملْ عَنْبَسَة على حمار وأعطِه ألف درهم » .

فلما فعل ذلك بهم قال أبو سفيان : أشهد أنّ هذا عن رأى هِنْد ، بصِفة جوائز ملوك الشام ، وما لخلفاء الشام والدَّراهمَ ، ما يعرفون إلّا الدنانير !

---

(١) هو أبو الحسن على بن زيد بن أبى مليكة جدعان القرشى التيمى البصرى الشيعى الضرير . أحد أوعية العلم فى زمانه . روى عن أنس وابن المسيب وجماعة، وروى له مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة . توفى سنة ١٢٩ وقيل سنة ١٣١ . نكت . الهميان ٢١٢ .

(٢) هى هند بنت عتبة بن ربيعة والدة معاوية . وكانت من ذوات الرأى . انظر البيان ٢ : ٥٦ والعقد فى مواضع مختلفة بتتبع فهارسه .

(٣) غذم له من ماله شيئاً : أعطاه منه شيئاً كثيرا . وفى الأصل : « تعذم » .

باب

ما قالوا من الشعر فى عقم البغل

قال النابغة الجعدى :

وهَبْنَا لَكُمْ مَا فِيهِ نَرْجُو صَلَاحَكُمْ
وسَوْفَ نُلَاقِيهِ إِذَا البَغْلُ أَحْبَلَا

ومِنْ دُونِ أَوْلَادِ البِغَالِ وحَمْلِهَا
إِلى ذَاكَ ما شَابَ الغُرابُ ورَجَّلَا[1]

وقال العُكْلِىّ :

قد يُلْقِحُ البَغْلَةَ غَيْرُ البَغْلِ لَكِنَّهَا تَعْجَلُ قَبلَ المَهْلِ
.....ة[2] مَشْغُولَةٌ بِالْحَمْلِ
عَنْ مَرْفَقِ الطَّحْنِ وحَملِ الرَّجْلِ[3]
وثَقَلِ[4] السَّفْرِ ومَيرِ الأَهْلِ ولَا تُسَاوِى حَفْنَةً مِنْ زِبْلِ[5]
مَا كَانَ فِيهَا مِنْ كِرَامِ الفَحْلِ دُودَةُ خَلٍّ خُلِقَتْ مِنْ خَلِّ[6]
وكُلُّ أُنْثَى غَيْرِهَا فى الحَمْلِ تَزْدَادُ فى القِيمةِ عِنْدَ السَّحْلِ[7]

---

(١) كذا فى الأصل .
(٢) لم يظهر من هذه الكلمة فى الأصل إلا هذا الحرف .
(٣) المراد حمل الناس .
(٤) الثقل ، بالتحريك : متاع المسافر .
(٥) فى الأصل : « ولا يساوى » .
(٦) انظر لديدان الخل الحيوان ٢ : ١١١ و ٣ : ٣٩٦ .
(٧) يقال سحله مائة درهم سحلا : نقده . والسحل : النقد من الدراهم

مَلْعُونَةٌ بِنْتُ لَعِينٍ نَذْلِ ... قَتَّالَةٌ لِلفَارِسِ الْأَبَلِّ[١]

لَمْ يَعتدِلْ مَنصِبُهَا فى الْأَصْلِ ... مِنْ غيرِ شَكْلٍ خُلِقَتْ وشَكْلِ

فى أَدَبِ الخِنْزِيرِ يومَ الحَفْلِ ... ومُوقُهَا مُوقُ رَضِيعٍ طِفْلِ

أَوْ عَقْلُ أَفْعَى وهِجَفٌّ هِقْلِ[٢] ... أَوْ حُوتِ بَحْرٍ قُذِفَتْ فى سَهْلِ[٣]

أَوْ جَيْأَلٍ يَكْتِفُهَا بِحَبْلِ[٤] ... كُلُّ حُمَيْمِيقٍ وكُلُّ فَسْلِ

وكُلُّ غِرٍّ جَاهِلٍ وغُفْلِ

لَيْس لهَا فى الكَيْسِ رِفْقُ النَّمل[٥]

أَوْ ذِئْبِ قَفْرٍ مُجْمِعٍ لِلخَتْلِ ... أَوْ تَتْفُلٍ راوَغَ كَلْبَ الْمُشْلِي[٦]

أَوْ خُزَزٍ وثَّبَ خَوْفَ الْقَتْلِ[٧] ... أَمَا تَرَاهَا غَايَةً فى الجَهْلِ[٨]

والشُّؤْمُ مِنْهَا فِى ذَوَاتِ الحِجْلِ[٩] ... وغُرَّةٍ تَصْدَعُ جَمْعَ الشَّمْلِ

---

(١) الأبل : الشديد الخصومة ، أو الذى لايستحى .

(٢) الهجف من النعام : الجافى الثقيل . والهقل : الظليم ، أى ذكر النعام .

(٣) الحوت : السمكة ، وأنث ضميره لمعناه .

(٤) الجيأل : الضبع ، معرفة بغير ألف ولام ، وقالها كراع بالألف واللام . وأنشد للعجاج :

* وصاحب الإقتار لحم الجيأل *

(٥) الرفق : لطافة الفعل . ط : « نمل » خلافا لما فى الأصل .

(٦) التتفل بضم التاء والفاء وفتحهما وكسرهما ، وبفتحها مع ضم الفاء ، وبكسرها مع فتح الفاء : الثعلب .

(٧) الخزز ، كصرد : الذكر من الأرانب .

(٨) مع وضوح هذه الكلمة فى الأصل ذكر ناشر ط أنها غير مقروءة !

(٩) هذا الشطر وما بعده إلى آخر الأرجوزة سبق فى ص ٢٥٦ — ٢٥٧ .

فَهِىَ خِلافُ الفَرَسِ الهِبَلِّ وكُلِّ طِرْفٍ ذَائِلٍ رِفَلِّ
قَدْ حَذِرَ النَّاسُ أَذَاهَا قَبْلِي وعدَّدُوا كلَّ قَتِيلِ بَغْلِ

فقال أخوه ناقضاً عليه ، وهو فى ذلك يُقَدِّم البغلة على البغل ، وهكذا هُما عند الناس فى جملة القول ، فقال :

عَلَيْكَ بِالبَغْلَةِ دُونَ البَغْلِ فإِنَّهَا جَامِعَةٌ لِلشَّمْلِ
مَرْكَبُ قاضٍ وإمامٍ عَدْلِ وتاجِرٍ وسَيِّدٍ وكَهْلِ
وهاشِمِيٍّ ذِى بَهًا وَفَضْلِ[1] تَصْلُحُ فى الْوَحْلِ وَغَيْرِ الْوَحْلِ
والسَّقْيِ والطَّحْنِ وحَمْلِ الرَّجْلِ وهْىَ فى المَشْيِ وتَحْتَ الرَّحْلِ[2]
أَوْطَا وأَنجَى مِنْ مَطَايَا الإِبْلِ وكُلِّ جَمَّازٍ وذَاتِ رَحْلِ[3]
وطُولُ عُمْرٍ غَيْرَ قِيلِ البُطْلِ[4] تَقْدُمُ فى ذٰلِكَ غَيْرَ الأَهْلِ
والخَيْلَ والإِبلَ وكُلَّ فَحْلِ قَدْ قَتَلَ العُصْفُورَ فَرْطُ الجهلِ
ولَوْ دَرَى كَانَ قَلِيلَ الشُّغْلِ بِلَذَّةٍ تُسْلِمُهُ لِلْقَتْلِ[5]

(١) فى الأصل : « ذو بها » .

(٢) كتب تحتها فى الأصل « ح » علامة الإهمال . لكن جعلت فى ط « الرجل » بالجيم خلافا لما فى الأصل .

(٣) وضع تحت الحاء فى الأصل « ح » علامة للإهمال . لكن جعلت فى ط « رجل » بالجيم .

(٤) القيل ، بالكسر : القول والبطل ، بالضم : الباطل .

(٥) يعنى كثرة سفاده لأنثاه، وذلك سبب لقصر عمره . الحيوان ١ : ١٣٧ و٢ : ٣٣٠ و ٥ : ٢٠٧ ، ٢٢٣ و ٧ : ٢٢١ .

فَدَعْ مَدِيحِى وهِجَاءَ بَغْلِى فَلَوْ ذَمَمْتَ الْقَمَرَ الْمُجَلِّى
وَجَدْتَ فِيهِ بَعْضَ مَا قد يَقْلِى[١]

ولما تعاور أبا الخطّاب الأعمى[٢] أبو دُلَف[٣] ، وجعفر بن أبى زُهَيْر[٤] ، وهما يتعصّبان لمَعْدَانَ الأعمى[٥] ، فقال :

كَمَا شَدَّ عَيْنَ البَغْلِ طَحَّانُ قَرْيَةٍ
لِيَجْمَعَ بَالَ البَغْلِ لِلدَّوْرِ والطَّحْنِ[٦]
ولَوْ أَنَّ عَيْنَ الْبَغْلِ زَالَ عِصَابُهَا
لَحَاكَى شِهَابَ القَذْفِ فى أَثَرِ الجِنِّى

---

(١) أى بعض ماقد يقليه القمر ، أى يكرهه غاية الكراهة . ، وجعلت فى ط: « بعض مالعلى » ، خلافا لما فى الأصل .

(٢) هو أبو الخطاب محمد بن سواء بن عنبر السدوسى العنبرى البصرى ، روى عن سعيد بن أبى عروبة وشعبة وأبى معشر وغيرهم . وروى له البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجة .توفى سنة ١٨٧ . تهذيب التهذيب٩ : ٢٠٨ ونكت الهميان ٢٥٢ .

(٣) هو أبو دلف القاسم بن عيسى بن إدريس العجلى ، نسبة إلى عجل بن لجيم ابن صعب . وهو أحد قواد المأمون ثم المعتصم من بعده . وكان كريما سريا جوادا ممدحاً شجاعا ذا وقائع مشهورة . توفى ببغداد سنة ٢٢٥ . تاريخ بغداد ٦٨٦٩ ووفيات الأعيان ١ : ٤٢٣ ـ ٤٢٥ .

(٤) ذكره الجاحظ فى البخلاء ٦٤ وذكر لأبى الشمقمق هجاء فيه تجد تخريجه فى الحيوان ٣ : ٣١٧ . واسم أبى زهير وهب ، كما يفهم مما سيأتى .

(٥) هو أبو السرى معدان الأعمى المديرى ، نسبة إلى المدير على هيئة التصغير وهو موضع قرب الرقة .. وكان معدان أحد الشميطية . انظر حواشى الحيوان ٥ : ٢٣٦ .

(٦) فى الأصل و ط : « ليجمع مال » ، والوجه ماأثبت .

وقال أيضاً :

وليس الْعَمَى فى كُلِّ حالٍ نَقِيصةً
وَنَقْصُ الْعَمَى أَجدَى عَليكَ مِنَ الْبَصَرْ

فَسَائِلْ بِغَالَ الطَّحْنِ إِنْ كُنْتَ جاهِلاً
ولو حَجَبُوا تِلْكَ الْعُيُونَ عنِ النَّظَرْ

ولَوْلاَ انْطِبَاقُ العَيْنِ مَا كَانَ طَاحِنٌ
ولاَ كَانَ مَطْحُونٌ بِصَخْرٍ وَلاَ مَدَرْ[1]

لأنَّ أبا دُلَف كان قال :

وليس لِمَكْفُوفٍ خَوَاطِرُ مُبْصِرٍ
وذُو الْعَيْنِ والتَّمْييزِ جَمُّ الخَوَاطِرِ

لأن أبا الخطَّاب كان نخر عليهم بجودة حِفْظ العُميان ، وكان جعفر ابن وهب[2] قد قال :

هـلِ الحِفْظُ إلاَّ لِلصَّبِيِّ ، وذُو النُّهَى
يُمَارِسُ أَشغالاً تُشَرِّدُ بالذِّكرِ[3]

فَإِنْ كَانَ[4] قَلْبُ الْغُمْرِ للحِفظِ فارِغًا
تَنَاوَلَ أَقصــاهُ وإِنْ كانَ لا يَدْرِى

(١) أهل المدر : أهل القرى؛ لأن بيوتها مبنية بالمدر ، وهو الطين . وهم أهل الحضر وأهل الصخر : أهل الجبال والصحارى .

(٢) هو جعفر بن أبى زهير ، كما يفهم من الحديث .

(٣) ط : « للذكر » ، خلافا لما فى الأصل .

(٤) لم يظهر من هاتين الـكلمتين فى الأصل إلا النون الأخيرة .

يَهُذُّ أمُورًا ليس يَعْرِفُ قَدرَهَا
وهل يَعْرِفُ الأَقْدارَ غيرُ ذَوِى القَدْرِ (١)

وقال أبو دُلَف فى بعض تلك المسابقات :

ولَيْسَ فَرَاغُ القَلْبِ مَجْدًا ورِفْعَةً
ولكنَّ شُغْلَ القَلْبِ لِلْهَمِّ دافِعُ
وذُو المَجْدِ محمولٌ عَلَى كُلِّ آلَةٍ وكُلُّ قَصِيرِ الهَمِّ فى الحىِّ وادِعُ

فزعم أنَّ الأعمى إنّما يحفظ لقلّة خواطره وشواغله . وعلى قدر الشواغل والخواطر تنبعث الهمة ، وتصحّ الرويّة ، وتبعُد الغاية .

[الانتفاع بالبغال فى الطحن]

وقالوا : طَحْن الحمير والبغال والبقر والإبل ، لا يجىء إلّا مع تغطية عيونها ، ومَنافع الطحن عظيمة جدًّا ؛ وطحن البغال أطيَب وأريَع (٢) ، وكَيل ما تطحن أكثر ؛ وطَحين أرحاء القُرَى لا يكون له طِيب ، لأنَّ أرحاء الماء ، التى هى أرحاء القُرى ، تَحدقُ الدَّقيق (٣) ، وتُفسد الطَّعم . فهذه المنفعة الكثيرة ، للبغال فيها ما ليس لغيرها .

٢٢٦ ظ

ولو كُلِّفَ البِرْذَونُ الطَّحنَ لَهرِجَ فى ليلةٍ واحدةٍ (٤) .

---

(١) هذّ الحديث هذا : سرده وأسرع فى قراءته .

(٢) أريع : أكثر ريعاً ، والريع بفتح الراء : النماء والزيادة .

(٣) كذا فى الأصل .

(٤) هرج يهرج هرجاً ، بالتحريك : أخذه البهر فلم ينبعث .

والبغل لا يَصرَد كما يصرَد الحمار ، ولا يهرَج كما يهرج البرذون .

وفى أمثال العامّة : الحمار لا يَدْفأ فى السنة إلّا يوماً واحداً ، وذلك اليومَ أيضاً لا يَدفأ ، كأنهم قضَوْا بذلك إذ كان عندهم فى الصَّرَد ووِجدان البرد ، فى مجرَى العنز والحيَّة والجرادة ، وإن كان المثل قد سبق فى غيره ، يقال[1] : « أصرد من جَرادة » ، و « أصرد من حيّة »[2] .

[مقايسة بين الفيل والبغل]

وقال بعض من يحمَد البغل : البغل لا يصرَد كما يصرَد الحمار ، ولا يهرَج كما تهرَج الرَّمَكة فى الحرّ ، والبغل يطحن ، وهو فوق كلّ طاحن . ولو طحن البرذون يوماً واحداً فى الصَّيف لَسقط . ألَا ترى أن الثور يطحن والجاموس أقوى منه وهو لا يطحن ، وهو أيضاً ممّا يَهْرَج .

وليس البغل كالفِيَلة : الفيلة لا تلقح إلّا فى أماكنها ، والبغلة قد تلقَح فى جميع البُلدان ، ولكنّ أولادها لا تعيش ، والفيل الشابّ لا ينبت نابه عندنا .

ولما سمع أبو الربيع الغَنَوىّ أنّ كسرى كان يَعُول تسعمائة فيل ، ويُنفق عليها وعلى سُوّاسها ، ويقوم بشأنها ومَئونتها ، قال :

يزعُمون أنه كان مُصْلِحاً ، وسائساً مدبِّراً ؛ كان ـ والله ـ عندى يحتاج

---

(١) فى الأصل : « قال » .

(٢) انظر لصرد الجرادة الحيوان ٥ : ٥٥٢ و الحية ٦ : ٥٥ والعنز ٥ : ٤٦٠ و ٦ : ٥٥ .

إلى أن يُحْجَرَ عليه ، انظروا كم كان يستهلك من الأموال عليها في غير ردٍّ[1] ، فإن كان يريد أن يباهِيَ بها ، ويهوِّل بها في الحروب ، حَبَس منها بقدرِ ذلك .

ولقد رأى رجل في المنام أنّه ركب فيلا ، وقَصّ رُؤياه على ابن سِيرين ، فقال : « أمرٌ جسيم ، ولا منفعة فيه » .

والفِيَلة إنما يفتخر بها السُّودان ، كالحبَشة والهِنْد ، فأمّا ملوك العراق فإنّما يتّخذون منها بقدر ما يقال إنّ عندهم من كلّ شيء شيئاً . وأيضاً لأنَّ الفيل خَلْقٌ عجيب ، ومعتبَر لمن فكّرَ . وكلّ شيء عجيبٍ فهو أبعثُ على التّفكير من غيره .

[حديث إنزاء الحمير على الخَيل]

ولما رَوَى المدائنيّ والواقديّ[2] وغيرهما ، أنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، لمّا استأذن النبيّ صلى الله عليه وسلم في إنزاء الحمير على الخيل ، قال : « إنّمَا يَفعَلُ ذلكَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ » . قال قوم : جاء الحديث عامًّا في ذكر الخيل ، ولم يَخُصّ العِتاق دون البراذين ؛ لأنّ اسم الخيل واقع عليهما ٢٢٧ و

---

(١) الرد : النفع والفائدة ، يقال هو أرد عليه ، أي أنفع .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدى الأسلمى . فالواقدى نسبة إلى جده ، والأسلمى : نسبة إلى مواليه من بنى أسلم . وكان من أهل المدينة وانتقل إلى بغداد ، وولى القضاء بها للمأمون . وكان عالما بالمغازى والسير والفتوح والأخبار . ولد سنة ١٣٠ وتوفى سنة ٢٠٧ . الفهرست لابن النديم ١٤٤ وتاريخ بغداد ٣ : ٣ ـ ٢١ والمعارف ٢٢٦ وابن خلكان ١ : ٥٠٦ والسمعانى ٥٧٧ .

جميعاً ، قال الله سبحانه : ﴿ والخَيْلَ وَالبِغَالَ والحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها[(١)] ﴾ ، أفتظنُّون أنه ذكر إنعامه عليهم بما خوَّلهم من المراكب ، فذكر البغال والحمير وترك البراذين ؟

فأمّا أبو إسحاق[(٢)] فإنه قال : هذا الحديث مختلفٌ فيه ، وله أسانيد طِوال ، ورجالٌ ليسوا بمشهورين من الفقهاء بحملِ صحيح الحديث . ويجوز أن ينهى عن إنزاء الحمير على الحُجور والرِّماك جميعاً ، فإن جلب جالب ذلك النِّتاج جاز بيعُه وابتياعه ، ومِلْكه وعتقه . وخِصاؤه فى الأصل حَرام .

وقد أهدى المُقَوْقِس عظيمُ القِبْط إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم خَصيًّا[(٣)] ؛ وكان هذا الخَصِىّ أخا مارية أمّ إبراهيم ابن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فقبل هديَّته ، وأرسل إليه ببغلة من نِتاجِ ما بين حِجْر وعَيْر ، وليس فى هذين[(٤)] [الكلام ، إنما[(٥)]] الكلام فى الإخصاء وحدَه ، والإنزاء وحدَه فى أصل العَمل ، فأما إذا ما تمّ الأمر بينهما ، فإن بيعهما وابتياعهما حَلال .

قال : ولا نترك قولاً عامًّا قاله الله تعالى فى كتابه ونصَّه ، لحديثٍ لا ندرى كيف هو ، وقد قال الله جلّ وعزّ ، وهو يريد إذْكار الناس نِعَمَهُ السابغة ، وأياديَه الجلَّة حين عدَّد عليهم ، فقال : ﴿ وَالخَيْلَ وَالبِغَالَ والحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا ﴾ ؛ فمن أين جاز لنا أن نخصَّ شيئاً دون شىء .

---

(١) الآية ٨ من سورة النحل .

(٢) هو أبو اسحاق إبراهيم بن سيار النظام ، شيخ الجاحظ .

(٣) انظر الحيوان ١ : ١٦٣ . ولم يذكر فيه أنه أخو مارية .

(٤) فى الأصل : « بين هذين » .

(٥) موضعهما بياض فى الأصل بمقدار كلمتين .

باب

ماجاء فى الكوادن

قال الشاعر[١] :

جُنَادِفٌ لاحِقٌ بِالرَّأْسِ مَنْكِبُهُ كأَنَّه كَوْدَنٌ يُوشَى بِكُلَّابِ[٢]

وكلّ غليظ بعيد من العَنَق فهو كَوْدَن ، قال ابن قَمِيئة[٣] :

يَسَرٌ يُطْعِمُ الأَرَامِلَ إِذْ قَلَّصَ دَرُّ اللِّقَاحِ فى الصِّنَّبْرِ[٤]

ورَأَيْتَ الإِمَاءَ كالجِعْثِنِ البَالِى عُكُوفاً عَلَى قُرَارَةِ قِدْرِ[٥] ٢٢٧ظ

ورَأَيْتَ الدُّخَانَ كالكَوْدَنِ الأَصْحَمِ يَنْبَاعُ مِنْ وَرَاءِ السِّتْرِ[٦]

---

(١) هو جندل بن الراعى ، يهجو جريرا ، أو يهجو عدى بن الرقاع ، اللسان (جندف ، كدن ، وشى) ونسبه فى اللسان (كلب) لجندل أو لأبيه الراعى .

(٢) الجنادف : الغليظ القصير الرقبة . والكودن : البرذون . ويقال أوشاه يوشيه ، إذا استحثه بمحجن أو كلاب .

(٣) هو عمرو بن قميئة بن ذريح بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة . دخل بلاد الروم مع امرئ القيس فهلك فقيل له « عمرو الضائع » . المؤتلف ١٦٨ والخزانة ٢ : ٢٤٩ والأغانى ١٦ : ١٦٣ والشعراء ٣٣٦ وابن سلام ٥٩ .

(٤) هذا صواب ما فى الحيوان ٥ : ٧٣ : « ليس طعمى طعم الأنامل » . وفى ٦ : ٣٥٦ : « ليس بالمطعم الأرانب » . واليسر : اللاعب بقداح الميسر . واللقاح : جمع لقحة ، وهى الناقة الحلوب . قلص درها : ارتفع لبنها . والصنبر : شدة البرد .

(٥) الجعثن : أصل كل شجرة إلا شجرة لها خشب . شبههن به فى التقبض وشوه الخلق مما أضر بهن الجرب وسوء الغذاء . عكوفا : مستديرات حولها . والقرارة ، بالضم : ما لزق بأسفل القدر من مرق ، أو حطام تابل محترق ، أو سمن أو غيره .

(٦) فى الحيوان : « كالودع الأهجن » . ينباع : يجرى جرياً لينا .

حَاضِرٌ شَرُّكُمْ وَخَيْرُكُمُ دَ رُّ خَرُوسٍ مِنَ الأَرَانِبِ بِكْرِ[١]

وفى ذمّ البغال يقول عَرْهَم بن قَيْس الأسَدِىّ[٢] :

إنَّ المُذَرَّعَ لَا تُغْنِي خُئُولَتُهُ
كالبَغْلِ يَعجِزُ عَنْ شَوْطِ المَضَامِيرِ[٣]

وقال الفرزدق :

سِوَى أَنَّ أَعرافَ الكَوادِنِ مِنْقَرًا قَبِيلَةُ سَوءٍ بارَ فى النَّاسِ سُوقُها[٤]

وإنما قالت حُمَيْدة بنت النُّعمان بن بَشِير لزَوْجها رَوْح بن زِنْباع :

وهلْ أَنَا إلاَّ مُهْرَةٌ عَرَبِيَّةٌ سليلَةُ أَفْرَاسٍ تَجَلَّلَهَا بَغْلُ[٥]

فإنْ نُتِجَتْ مُهْرًا كَرِيمًا فبالحَرَى
وإنْ يَكُ إقْرَافٌ فمِنْ قِبَلِ الفَحلِ[٦]

---

(١) الدر : اللبن . والخروس : البكر فى أول حملها . وانظر حواشى الحيوان ٥ : ٧٣ والمعانى الكبير لابن قتيبة ٢١٠ . وفى كثير من الروايات : « شركم حاضر » .

(٢) فى اللسان (ذرع) : « قال ابن قيس العدوى » . وقد ذكر فى تهذيب الأسماء ٧٩٦ عرهم بن قيس العدوى . والعدوى : نسبه إلى عدى بن نوفل أسد بن عبد العزى . انظر ابن حزم ١٢٩ .

(٣) المذرع : الذى أمه أشرف من أبيه . وفى اللسان : « لا تغنى خؤولته » ، وما هنا صوابه . وفيه أيضاً : « عن شوط المحاضير » .

(٤) فى ديوان الفرزدق ٥٧١ : « خلا أن » .

(٥) انظر سمط اللآلى ١٧٩ حيث تخريج الشعر وتحقيقه .

(٦) كذا بالإقواء هنا ، وفى الأغانى ٨ : ١٣٤ وسمط اللآلى : « فما أنجب الفحل » ، بدون إقواء .

فوضعت البغل فى موضعه . فقال رَوْح(١) :

رَضِى الْأَشْيَاخُ با[لفِطْيَوْنِ(٢)] بعلاً

وتَرْغَبُ فى المَنَاكِحِ عَنْ جُذَامِ

يَهُودِىٌّ له بُضْعُ الجوارِى فَقُبْحًا لِلكُهُولِ ولِلغُلَامِ(٣)

وقال الآخر :

وما كَثُرَتْ بَنُو أَسَدٍ فَتُخْشَى لِكَثْرَتِهِمْ ولا طَابَ القَلِيلُ

قُبَيِّلَةٌ تَذَبْذَبُ فى مَعَدٍّ أنوفهمُ أَذَلُّ مِنَ المَسِيلِ

تَمَنَّى أَنْ تَكُونَ أَخَا قُرَيْشٍ شَحِيجَ البَغْلِ مُلْتَمِسِ الصَّهِيلِ

---

(١) الشعر التالى نسب فى الأغانى ٨ : ١٣٤ إلى ابن عم لروح بن زنباع . أما روح فقد روى له أبو الفرج :

فما بال مهر رائع عرضت له أتان فبالت عند جحفلة الفحل

إذا هو ولى جانباً ربخت له كما ربخت قمراء فى دمث سهل

(٢) موضعها بياض فى الأصل ، وإثباته من الأغانى ٨ : ١٣٤ ، وروايته فيها :

رضى الأشياخ بالفطيون فحلا وترغب للحماقة عن جذام

ورضى ، بفتح الضاد مع القصر : لغة فى رضى لطئ . وكذا لغتهم فى كل ياء انكسر ما قبلها ، يقولون بَقَى ورَضَى وفنى . اللسان (بقى ٨٦) .

والفطيون : ملك اليهود بالمدينة ، واسمه عامر بن ثعلبة بن حارثة بن عمرو . وكان يفتذر النساء قبل أزواجهن ، أى يفترعهن . انظر الاشتقاق ٤٣٦ ونوادر المخطوطات ٢ : ١٣٦ - ١٣٧ والأغانى ٢ : ١٨٠ . وفى ط : « بغلا » بالغين المعجمة ، خلافاً لما فى الأصل .

(٣) فى الأغانى : « بضع العذارى » . والبضع ، بالضم : الفرج ، والجماع ، والنكاح .

وقالَ زيادٌ الأعجَم[1] :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ البَغْلَ يَتْبَعُ إِلْفَهُ كَمَا عَامِرٌ واللُّؤْمُ مُؤْتَلِفَانِ

وقال الكُمَيْت :

٢٢٨ و وما حَمَلُوا الحِيرَ علَى عِتَاقٍ مُطَهَّمَةٍ فَيُلْفَوْا مُبْغِلِينَا

ومَا سَمَّوا بِأَبْرَهَةَ اغْتِبَاطاً بِشَرٍّ خُتُونَةٍ مُتَزَيِّنِينَا

باب

ذكر ركوب نساء الأشراف البغال

قال : لمّا أُهديَتْ ابنة عبد الله بن جعفر إلى يزيد بن معاوية على بغلة ، قال يزيد[2] :

جَاءتْ بِها دُهْمُ البِغَالِ وشُهْبُها مُسَيَّرَةً فى جَوْفِ قَرٍّ مُسَيَّرِ[3]

مُقَابَلَةٌ بينَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وَبَيْنَ عَلِيٍّ والجَوَادِ ابْنِ جَعْفَرِ[4]

مَنَافِيَّةٌ غَرَّاءُ جَادَتْ بِوُدِّهَا لِعَبْدٍ مَنَافِيٍّ أَغَرَّ مُشَهَّرِ[5]

---

(١) هو زياد بن سلمى ، ويقال زياد بن جابر بن عمرو بن عامر ، من عبد القيس ، وكان ينزل إصطخر ، وكانت فيه لكنة ، فلذلك قيل له الأعجم . وهو من شعراء الدولة الأموية ، وطال عمره ووفد على هشام بن عبد الملك . الشعراء ٣٩٥ والخزانة ١٤ : ٩٨ والمؤتلف ١٣١ .

(٢) فى الأغانى ١٦ : ٨٧ أن الشعر لخالد بن يزيد ، وأنه هو الذى تزوج بنت عبد الله بن جعفر بن أبي طالب .

(٣) وكذا ورد البيت بالخرم فى الأغانى . وفى الأغانى: «مقنعة» بدل «مسيرة». والقر ، بالفتح : الهودج . وفى الأغانى : « فى جوف حدج مخدر » .

(٤) فى الأغانى : « والحوارى وجعفر » .

(٥) فى الأغانى : « منافية جادت بخالص ودها » .

وقال ابن أبى رَبيعة :

هِىَ الشَّمسُ تَسْرِى بها بَغْلَةٌ ... وما خِلْتُ شَمْسًا بِلَيلٍ تَسيرُ[1]

وقال الآخر[2] :

مَرَّتْ تُزَفُّ على بَغْلَةٍ ... وفوقَ رِحَالَتِهَا قُبَّهْ[3]

زُبَيْرِيَّةٌ مِنْ بَنَاتِ الَّذِى ... أَحَلَّ الحَرَامَ مِنَ الكَعْبَهْ[4]

تُزَفُّ إلى مَلِكٍ ماجِدٍ ... فَلَا بِالرِّفَا ، وبِهَا الوَجْبَهْ[5]

ولقى عُمَر بن أبى ربيعة عائشة بنت طَلْحة ، وهى على بغلة ، فاستوقفها وأنشدها[6] :

يارَبَّةَ البَغْلَةِ الشَّهْباءِ هل لَكمُ ... فى عاشِقٍ دنِفٍ لاتُرْهِقِى حَرَجا[7]

---

(١) فى ديوان عمر ١٦٣ : « تسرى على بغلة » .

(٢) هو السيد الحميرى ، قاله حينما مرت عليه بالأهواز أسماء بنت يعقوب ، وهى من ولد عبد الله بن الزبير ، وقد زفت إلى إسماعيل بن على بن عبد الله بن عباس . الأغانى ٦ : ٣٠ و ٧ : ١١ .

(٣) وكذا فى الأغانى ٦ : ٣٠ لكن فى ٧ : ١١ : « أتتنا تزف » .

(٤) كان أهل الشام يسمون عبد الله بن الزبير « المحل » ؛ لأنه أحل الكعبة بمقامه فيها ، وكان أصحابه أحرقوها بنار استضاءوا بها . كما كان أهل الحجاز يسمون الحجاج بن يوسف « المحل » أيضاً ، لعدوانه على البيت . الأغانى ٦ : ٢٩ – ٣٠ .

(٥) الوجبة : السقوط مع صوت شديد . وفى الأغانى : « فلا اجتمعا وبها الوجبه » ، و « فلا اجتمعوا وبه » .

(٦) القصة بتفصيل فى الأغانى ١ : ٧٩ .

(٧) فى الديوان ٤٦١ : « هل لكم أن ترحمى عمرا » . وفى الأغانى : « هل لك فى أن تنشرى ميتاً » .

قَالت : بِدائِكَ مُتْ أَوعِشْ تُعالِجُهُ فَمَا نَرَى لكَ فيما عِنْدَنَا فَرَجا

قد كُنْتَ جَرَّعْتَنِي غَيْظًا أُعالُجِه

وإِنْ تُرِحْنِي فَقَدْ عَنَّيْتَنِي حِجَجَا[1]

فَقُلْتُ : لا والّذِي حَجَّ الحَجِيجُ لهُ مَامَحَّ حُبُّكِ مِنْ قَلْبِي ومانَهَجَا[2]

وقال الآخر[3] :

قِفِي يا رَبَّةَ البَغْلِ أُخَبِّرْكِ عَلَى رِجْلِ[4]

فبينا ذَاكَ إِذْ نَادَى مُنَادٍ غَيْرَ ما خَتْلِ[5]

٢٢٨ ظ

فَعُجْنَا بِامْرِئٍ ضَخْمٍ على أَهْوَجَ كالهِقْلِ[6]

وعُجْنَا كُلَّ مُسْوَدَّ وَمَمْسُودِ القَرَا عَبْلِ[7]

إِذَا لَمْ تَكُ ذا رَأْيٍ وذا قَوْلٍ وذا عَقْلِ

وَقَالَتْ أُخْتُها الصُّغْرَى رَدَدْنَاهُ إِلى غُفْلِ[8]

---

(١) الديوان : « حملتنى غيظا » و « فإن تقدنى » ، أى تنصفنى من نفسك . وفى الأغانى : « حملتنا غيظا نعالجه فإن بعدنا » .

(٢) مح : أخلق وبلى ، وكذلك نهج .

(٣) هو ابنة الخس ، كما فى اللسان (حجا) ما عدا البيت السابع « ترى الفتيان» فإنه مضمن فى الشعر وقائله هو عثمة بنت مطرود البجلية ، كما فى أمثال الميدانى.

(٤) الرجل : الخوف والفزع من فوت الشىء ، يقال : أنا من أمرى على رجل ، أى على خوف من فوته .

(٥) فى ط : « قدرنا ذلك» خلافا لما هو واضح فى الأصل . والختل : الخداع .

(٦) أهوج ، تعنى به بعيرا . والهقل : الظليم ، وهو ذكر النعام ، شبهه به .

(٧) الممسود : المجدول الخلق . والقرا : الظهر . والعبل : الضخم .

(٨) فى اللسان (حجا ١٨٠) :

قالت قالة أختى وحجواها لها عقل

تَرَى الفِتْيانَ كالنَّخْلِ   وما يُدْرِيكَ ما الدَّخْلُ[(١)]
ولَيْسَ الشَّأْنُ في الوَصْلِ   ولٰكن يُعرف الفَضْلُ

باب

[ذكر أخبار ومسائل شتى]

وحدّث مُصْعَبٌ الزُّبَيْرِيّ[(٢)] عن بعض أشياخه ، قال : إنّا لَبِالأَبْطَح أيّامَ الموسِم ، إذ أقبل شيخٌ أبيضُ الرأس واللحية ، على بغلة شهباء ، وما نَدْرِي أهو أشدّ بياضًا ، أم بغلتُه ، أم ثيابُه ، فاندفع يغنّي :

أَسعِدِينى بِعَبْرَةٍ أَسرابِ   مِنْ دُمُوعٍ كَثِيرَةِ التَّسْكابِ[(٣)]
فَارَقُونِى وقد عَلِمْتُ يَقِينًا   ما لِمَنْ ذاقَ مِيتَةً مِنْ إيَابِ

---

(١) وكذا في أمثال الميداني والبيان ١ : ٢٢٠ وشرح الحماسة للمرزوقي ٩٢٤ وفيه إقواء . وفي اللسان (دخل) : « بالدخل » ، فلا إقواء فيه .

(٢) هو أبو عبد الله مصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري ، صاحب كتاب « نسب قريش » الذي نشره بروفنسال ١٩٥٣ . وهو عم الزبير بن بكار . وكان مصعب صاحب رواية ونسب ، وروى له أبو الفرج في الأغاني أشعاراً . ولد سنة ١٥٦ وتوفي سنة ٢٣٦ . الفهرست ١٦٠ وتاريخ بغداد ١٣ : ١١٢ – ١١٤ وشذرات الذهب ٢ : ٨٦ .

(٣) لكثير بن كثير بن المطلب بن أبي وداعة السهمي في الأغاني ١ : ١٢٤ و ٢ : ١١٨ و ٨ : ١٠٥ ، ١٠٦ ومعجم البلدان (صفى السباب) . ط : « أسعداني » خلافاً لما هو واضح في الأصل ، وإن كانت « أسعداني » إحدى روايتي أبي الفرج . وكثير بفتح الكاف وكسر الثاء ، وترجمته في المؤتلف ١٦٩ ومعجم المرزباني ٣٤٨ . وضبط سهوا في جمهرة ابن حزم ١٦٤ بهيئة التصغير .

ثم ضرب دابّته وذهب ، فأدركناه ، فإذا هو حُنَيْنٌ النَّخَعِىّ[1] ، وكان نصرانيًّا مستهترًا بالغناء .

ومن حديث المُغيرة بن عَنْبَسَة عن بعض أشياخه قال : قال كعب الأحبار[2] . . . . . .[3] فإذا هو شيخ أبيض الرأس واللحية ، أبيض الثياب ، على بغلة بيضاء .

وحدّثنى صديقٌ لى ، قال : أوّلَ يوم دخلتُ الرَّقّة ـ وذلك فى أيام الرشيد ـ استقبلَنى الشاعر اليَمامىّ المتكلم[4] ، الذى يقول : « إنى تَيْمِىّ » ، فإذا هو أسود ولحيتُه سوداء ، وثيابُه سُود ، وعمامته سوداء ، وسرجه أسود ، وسَمُّور سرجه أسود[5] ، وهو على بِرْذَون أدهم ، وقد ركبه غُبارٌ ، فقلتُ : أعوذ بالله من هذا الزِّىّ ! أهل خُراسان الذين هم أهل الدَّعْوَة ، ومَخْرَج الدولة ، لا يتكلّفون جميع هذه الخِصال كلّها لأنفسهم ،

---

(١) ترجم له أبو الفرج فى ٢ : ١١٦ – ١٢٣ . وهو حنين بن بلوع الحيرى . وكان شاعراً مغنياً فحلا من فحول المغنين ، غنى لهشام بن عبد الملك ، وكان خالد بن عبد الله القسرى قد حرم الغناء بالعراق وأذن له خاصة به حين أعجب بصوته .

(٢) هو كعب بن ماتع الحميرى ، كان يهودياً وأسلم فى خلافة عمر ، وكان يقص فبلغه حديث النبي صلى الله عليه وسلم « لا يقص إلا أمير أو مأمور أو محتال » فترك القصص ، حتى أمره معاوية فصار يقص بعد ذلك . ومات بحمص سنة ٣٢ . الإصابة ٧٤٩٠ والمعارف ١٨٩.

(٣) بياض فى الأصل بمقدار كلمات ثلاث .

(٤) ذكره الصولى فى الأوراق ٧٦ باسم « التيمى بن محمد » ، وذكر قصة له مع الرشيد . وانظر الحيوان ٤ ٢٤٤ والبيان ١ : ٤٠ .

(٥) السمور : دابة تسوى من جلودها فراء غالية الأثمان .

٢٢٩ و

واكتفَوا بسَواد ثيابهم ! وإذا هو يتعرّض لصاحب الأخبار ، طَمَعًا في أن يَرفع خبره ، فينال بذلك مرتبةً ، فقلتُ له : والله إنّ هذا الزىّ لَقبيح من أهل هذه الدولة ، فما ظَنُّك بإنسان عِامىّ مرّةً وتَيمىّ مرّة ؟ ! والله أَنْ لو رُفعتَ فى الخبَرِ ، لارتفعتُ معك حتى أُخبِرَ عنك !

وحدّثنى عمرو القِصَافىّ الشاعر(١) ، قال : دعانا فلان بن فلان الفلانىّ ، وهم قوم يُعْرَفون بالدِّعوة(٢) ، فدعانا إلى منزله فى أيام دِعوتهم إلى العرب ، فإذا هو قد ضرب خيمةً ، وإذا حوله غُنيمات ، وإذا فى الدار بعير أجربُ ، وريح الهِناء والقَطِران(٣) ؛ فدعا بالطَّعام ، فإذا خُبزة قد ثُرِد نصفها فى لبن ، وكَسَر بين أيدينا النصفَ الآخر ، ثم دعا بالنبيذ ، فإذا هو فى عُسٍّ خَشَب ، وإذا نبيذُ تمْر ، ثم دعا بنُقْلٍ فإذا بأقِطٍ ومُقْلٍ وتَنُّوم(٤) ، ثم دعا برَيحان ، فإذا خُزَامَى وعُبَيْثَرانٌ(٥) وشِيح ، وإذا عنده شادٍ وهو يغنّى ، فتًى أمرَدُ

---

(١) هو عمرو بن نصر التيمى القصافى البصرى ، من إخوان محمد بن يسير . وكان مشهورا بالعين ، يعين كل شيء يستحسنه ، فعان حسناء مغنية ، فانصرفت محمومة شاكية العين ، فقال فيه ابن يسير :

إن عمراً جنى بعينيه ذنبا قل منى عليه فيه الدعاء

الأغانى ١٢ : ١٢٨ وطبقات ابن المعتز ٣٠٥ وكتاب الورقة ٧

(٢) الدعوة ، بالكسر : أن ينتسب الإنسان إلى غير أبيه وعشيرته . وفى الحديث : « لا دعوة فى الإسلام » .

(٣) الهناء ، بالكسر : القطران ، أو ضرب منه ، تهنأ به الإبل ، أى تطلى ، من جرب أو نحوه .

(٤) التنوم : شجر له حمل صغار كثل حب الخروع ، يتفلق عن حب يأكله أهل البادية .

(٥) العبيثران ، بفتح العين مع فتح الثاء ، وضمها : نبات له قضبان دقاق طيب الريح .

أجرَدُ أبيض ، [فقال صا]حبي[1] : ما اجتمع هذا الذى رأينا فى بيت هذا الفتى عند عَقِيل بن عُلَّفة[2] ، ولا عند الزِّبْرِقان بن بَدْر[3] ، ولا عند عَوْف بن القَعْقاع[4] ؛ فإن هؤلاء كانوا مَرَدة الأعراب .

[ما قيل فى حب ركوب البغال]

وقال أبو الشَّمَقْمَق[5] فى حُبّ ركوب البغال ، وكان قال . . . .[6] أَخْبِرْنى عن اسمك وبَلدِك ونَسَبك وشهوَتك . قال : أمّا اسمى ونَسَبى فأنا مَرْوان بن محمد ، مولى مروان بن محمد ، وأمّا بَلَدِى فالبصرة ، وأمّا شهوتى فالنبيذ على اللحم السمين . فقال أبو الشمقمق[7] :

مُنَاىَ مِنْ دُنْيَاىَ هَاتِى الّتى تَسْـلَحُ بالرِّزْقِ عَلَى غيرِى

---

(١) لم يظهر من هاتين الـكلمتين إلا هذا الجزء فى الأصل .

(٢) سبقت ترجمته فى ص ٣٤٥ .

(٣) الزبرقان لقب له ، واسمه الحصين بن بدر ، سمى الزبرقان لحسن وجهه ، وهو من الصحابة الذين نادوا رسول الله من وراء الحجرات حين وفدوا فى بنى تميم . الإصابة ٢٧٨٢ والمعارف ٣٦ ، ١٣١ والسيرة ٩٣٥ وزهر الآداب ١ : ٥ — ٦ .

(٤) عوف بن القعقاع بن معبد بن زرارة التميمى الدارى . صحابى وفد مع أبيه إلى رسول الله وهو غلام . الإصابة ٦٠٩٥ ، ٧١٢٢ .

(٥) هو أبو محمد مروان بن محمد ، المعروف بأبى الشمقمق ، من شعراء البصرة ، قال المبرد : كان ربما لحن ويهزل كثيراً ويجد فيكثر صوابه . قدم بغداد فى أيام الرشيد ، وصاحب أبا نواس وأبا العتاهية ، وله قصة مع بشار : توفى نحو سنة ١٨٠ . تاريخ بغداد ١٣ : ١٤٦ وابن خلكان فى تضاعيف ترجمة يزيد بن مزيد وطبقات ابن المعتز ١٢٦ — ١٣٠ .

(٦) بياض فى الأصل بمقدار كلمتين ، لعلهما « له رجل » .

(٧) المقطوعة التالية مما لم يرو فى ديوانه .

الجَرْدَقُ الحاضِرُ مَعْ بَضْعَةٍ مِنْ ماعِزٍ رَخْصٍ ومِنْ طَيْرِ[1]

وجَرَّةٌ تَهْدِرُ مَلآنَةٌ تَحْكِى قِرَاةَ القَسِّ فى الدَّيْرِ[2]

وجُبَّةٌ دَكْنَاءُ فَضْفَاضَةٌ وطَيْلَسَانٌ حَسَنُ النَّيْرِ

وبَغْلَةٌ شَهْبَاءُ طَيَّارَةٌ تَطْوِى لِىَ البُلْدَانَ فى السَّيْرِ

وقَيْنَةٌ حَسْنَاءُ مَمْكُورَةٌ يَصْرَعُهَا الشَّوْقُ إِلَى أَيْرِى[3]

٢٢٩

وبَدْرَةٌ مَمْلُوءَةٌ عَسْجَدًا ما بِالَّذِى أَذْكُرُ مِنْ ضَيْرِ

ومَنْزِلٌ فى خَيْرِ ما جِيرَةٍ قَدْ عُرِفُوا بِالخَيْرِ والمَيْرِ[4]

وصاحِبٌ يَلْزَمُنِى دَهْرَهُ مِثْلَ لُزُومِ الكِيسِ لِلسَّيْرِ

مُساعِدٌ يُعْجِبُنِى فَهْمُهُ مُرْتَفِعُ الهِمَّةِ فِى الخَيْرِ

كَمْ مِنْ فَتًى تُبْصِرُ ذا هَيْئَةٍ أَبْلَدَ فى المَجْلِسِ مِنْ عَيْرِ

وذكر أيضاً البغال، فقال[5]:

ما أَرَانِى إِلاَّ سَأَتْرُكُ بَغْدَا دَ وأَهْوِى لِكُورَةِ الأَهْوازِ[6]

حَيْثُ لاَ تُنْكَرُ المَعَازِفُ واللَّهْوُ وشُرْبُ الفَتَى مِنَ القَمَّازِ

---

(١) الجردق: الرغيف، فارسى معرب.

(٢) يعنى جرة النبيذ. والقراة: القراءة، أى صوت نشيشها يشبه صوت القس. ط: «تحلى» خلافاً لما فى الأصل.

(٣) الممكورة: المدمجة الخلق المستديرة الساقين.

(٤) أى فى خير جيرة، وهم الجيران. و«ما» زائدة. والمير: الطعام.

(٥) القصيدة مما لم يرو فى ديوانه.

(٦) بغداد كذا وردت بالأصل هنا بدالين مهملتين، وفى الموضع التالى بدال مهملة ثم بذال معجمة.

وجَوَارٍ كأنَّهنَّ نُجُومُ الـ ـلَّيْلِ زُهْرٌ مِثْلُ الظِّباءِ الجَوازِى(١)

واضِحَاتُ الْخُدُودِ أُدْمٌ وبِيضٌ فَاتِنَاتٌ مِيلٌ مِنَ الأعْجَازِ(٢)

بَيْنَ عَوَّادَةٍ وأُخْرَى بِصَنْجٍ فى بَسَاتِينِهَا وفِى الأَحْوَازِ

ذَاكَ خَيْرٌ مِنَ التَّرَدُّدِ فى بَغْـ ـدَاذَ تَنْزُو بِىَ البِغَالُ النَّوازِى(٣)

كُلَّ يَومٍ فى كُمَّةٍ وقَمِيصٍ ورِداءٍ مِنَ الغُبَارِ طِرازِى(٤)

لمْ يَحُكْهُ النَّسَّاجُ يومًا لِبَيْعٍ لا ولا يُشْتَرَى مِنَ الْبَزَّازِ

أَخَذَتْ أَهلَهَا الشَّياطِينُ بالرَّ كْضِ لِطُولِ الشَّقَاءِ والإعْوَازِ

كُلُّ شَيْخٍ تَخَالُه حِينَ يبدُو فَوقَ بِرذَوْنِهِ كَشَخْصٍ حِجَازِى

وجَمِيلُ الفُسَيْلُ أعْنِى أبْنَ مَحْفُو ظٍ عَدُوُّ النَّدَى وسِلْمُ المَخازِى

أَلِفَتْ اِسْتُهُ الفَيَاشِلَ حَتَّى مَا تَشَكَّى لِلطَّعْنِ بالعُكَّازِ

يأْخُذُ الأَسْوَدَ الَّذِى يَفْرَقُ الحَـ ـوَّاءُ مِنْهُ كَدَسْتَجِ المِنْحَازِ(٥)

لَيْثُ غَابٍ بِدُبْرِهِ حِينَ يَلْقَى وجَبَانٌ فى الحَرْبِ يَوْمَ البِرَازِ

---

(١) الزُّهر: البيض. والجوازئ: التى تجزأ بالرطب عن الماء، أى تكتفى به.

(٢) الميل: جمع ميلاء، وهى المائلة، أثقلتهن أعجازهن فملن فى مشيتهن. ط: « مثل من الإعجاز »، خلافا لما فى الأصل.

(٣) بغداذ: لغة فى بغداد. وفى ط: « بغداد » خلافاً لما فى الأصل.

(٤) يعنى الغبار الذى تثيره البغال.

(٥) يفرق، من الفَرَق، وهو الخوف. والدستج: اليد، معرب دستك. انظر معجم استينجاس ٥٢٣. والمنحاز: الهاون، أى الميدق.

٢٣٠ و

بَعُدَتْ دَارُهُ فَلاَ رَدَّهُ اللّـــهُ ولا زَالَ نَائِىَ الدَّارِ شَازِى[١]
ذَاكَ شَخْصٌ بِهِ عَلَىَّ هَوَانٌ كَهَوَانِ الْخُصَى عَلَى الْخَبَّازِ[٢]

[الخلق المركب]

أمّا ما ذكرنا من أجناس الحيوان المركَّبات ، كالبغل والشِّهرى[٣] ، والمُقْرِف[٤] ، والهَجين ، وكالبُخْت والبَهْوَنِىّ[٥] ، والصَّرْصَرَانِىّ[٦] ، والطير الوَرْدَانِىّ[٧] ، والحمام الراعِبىّ[٨] ، فقد عرفنا كيف تراكيب ذلك ، وعرفنا اختلاف الآباء والأمَّهات . فأمَّا السِّمْع والعِسْبار[٩]

---

(١) فى الأصل و ط : « سازى »، صوابه بالشين المعجمة. والشازى : القلق ، مقلوب شائز مع التسهيل ، يقال شئز أى قلق . وأنشدوا لرؤبة :

* شازٍ بمن عوّه جدب المنطلق *

(٢) الخصى : جمع خصية . وفى الأصل وط : « الحصى » صوابه ما أثبت ، والخصى من أهون اللحوم . والخباز : المراد به الطاهى الذى يجمع بين الخبز والطهو . انظر تحقيق هذا فى حواشى الحيوان ٥ : ٤٥٧ .

(٣) الشهرى ، بالكسر : ضرب من البراذين ، وهو بين البرذون والمقرف من الخيل .

(٤) المقرف ، بكسر الراء : الذى أمه عربية وأبوه عجمى .

(٥) انظر ما سبق فى ص ٣٢٢ .

(٦) الصرصرانى من الإبل : مابين البخت والعراب .

(٧) الوردانى : ضرب من الحمام المشترك الخلق . انظر الحيوان ١ : ١٠٣ ، ٣ : ١٦٣ ، ٢٠٢ .

(٨) الراعبى : ضرب آخر من الحمام المركب ، واسمه مشتق من الترعيب ، وهو شدة الصوت . انظر الحيوان ١ : ١٣٧ ، ٢٢٢ و ٣ : ١٦٢ ، ٢٠٢ .

(٩) انظر ما سبق فى ص ٢٩٧ .

والدَّيْسَم[١] والعُدَار[٢] والزَّرافة ، فهذا شىء لم أُحُقَّه .

وقد أكثر[٣] الناسُ فى هذا وفى اللُّخْم ، وفى الكَوْسج[٤] ، وفى الدُّلفين[٥] ، وفيما يتراكبْ بين الثعلب والسِّنَّوْر البرّىّ[٦] ، فإنّ هذا كلّه إنما نسمعه فى الأشعار ، فى البيت بعد البيت ، ومن أفواه رجالٍ لا يُعْرفون بالتحصيل والتثبُّت ، وليسوا بأصحاب توقٍّ وتوقُّف .

وإذا كان إياس بن مُعاوية القاضى[٧] يزعُم أن الشَّبُّوطة إنما خُلِقَت من بين الزَّجْر والبُنّىّ[٨] ، وأنّ من الدليل على ذلك أن الشبّوطة لا يُوجد فى جوْفها بَيْضٌ أبداً ، لأنّها كالبغلة ، فأنا[٩] رأيتُ فى جوفها البيْض مرارًا ، ولكنّه بَيضٌ سَوْء لا يؤكل ، ليس بالعظيم ، ولا يستطيل فى البَطْن كما يستطيل بيضُ جميع أناث السمك .

---

(١) الديسم : ولد الذئب من الكلبة . الحيوان ١ : ١٨٣ .

(٢) العدار ، بضم العين ، ذكر الجاحظ فى الحيوان ٧ : ١٧٨ أنها دابة تنكح الناس باليمن .

(٣) فى الأصل : « أكثروا » .

(٤) انظر ما سبق فى ص ٢٩٧ .

(٥) الدلفين : ضرب من السمك الذى يلد . الحيوان ٧ : ١٢٦ . وفى القاموس : « الدلفين بالضم : دابة بحرية تنجى الغريق » .

(٦) فى الحيوان ١ : ١٤٥ أن الثعلب يسفد الهرة الوحشية فيخرج بينهما ولد ، وأنشد لحسان :

يبيت أبوك بها مغسدفا كما ساور الهــرة الثعلب

(٧) انظر حواشى البيان ١ : ٩٨ .

(٨) انظر الحيوان ٦ : ١٨ .

(٩) فى الأصل : « وأنا » .

والشَّبُّوط جنس يكون ذُكرانه أكثرَ ، فلا يكاد إنسانٌ يَقلّ أكله للشبوط يرى بيضَ الشَّبُّوط . فإذا كان إياسٌ يغلط هذا الغلَط ، فما ظنُّك بمن دونه .

[زواج الإنس بالجن]

وقد يكون هذا الذى نَسمعه من اليمانيةَ والقَحْطانيّة ، ونقرؤه فى كتب السِّيرة ، قَصَّ به القُصّاصُ ، وسَمَرُوا به عند الملوك .

وزعموا أنّ بلقيس بنت ذى مشرح[1] ، وهى ملكة سبأ ، ذكرها الله فى القرآن ، فقال : ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ[2] ﴾ ، زعموا أن أمَّها جِنّيّة ، وأن أباها إنسىّ[3] ، غير أن تلك الجنّيّة وَلَدَت إنسيّةً خالصةً صِرْفًا بحتًا ، ليس فيها شَوْب ، ولا نَزَعَها عِرْق ، ولا جَذَبها شَبَه ، وأنَّها كانت كإحدى نساء الملوك .

فاحسُبْ أنّ التناكُح يكون بين الجنّ والإنس ، من أين أوجبوا التلاقُح ، ونحن نجد الأعرابىّ والشابَّ الشَّبِق ، ينيكان الناقة والبقرة والعنز والنعجة ، وأجناساً كثيرة ، فيُفْرِغون نُطَفهم فى أفواه أرحامها ، ولم نر ولا سمعنا على طول الدهر ، وكثرةِ هذا العمَل الذى يكون من السُّفهاء ، ألقحَ منها شيء من هـذه الأجناس ، والأجناس على خالِهم من لحم ودَم ومن النُّطف خُلِقوا . وأصل الإنسان من طين ، والجانّ خُلِق من نار السَّموم ، فشَبَهُ ما بين الجنّ والإنس ، أبعد من شَبَه ما بين الإنسان والقِرْد . وكان ينبغى للقِرَدة أن تَلقَح من الإنسان . ٢٣٠

---

(١) كذا فى الأصل . وانظر ماسبق فى ص ٢٢٩ .

(٢) الآية ٢٣ من سورة النمل .

(٣) انظر الحيوان ١ : ١٧٧ و ٦ : ١٨٧ ، ٢٦٩ .

[الصرع والاستهواء]

ومن العَجَب أنَّهم يزعُمون أنَّما تُصرَع المرأةُ لأنَّ واحدًا من الجنّ عَشِقها، وأنه لم يأتِها إلّا على شهوة الذّكَر للأُنثى، أو شهوة الأُنثى للذّكَر.

وقيل لعَمْرو بن عُبَيْد[1] : أيكون أن يَصْرع شيطانٌ إنساناً ؟ قال : لو لم يكن ذلك لمَا ضرب اللهُ به المَثَل لآكل الرِّبا حيث يقول : ﴿ الّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إلّا كَمَا يَقُومُ الّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المَسِّ[2] ﴾ . فهذا شىء واضح . قال[3] : ثم وقَفْنا على رجلٍ مصروع، فقلتُ له : أرأيتَ هذا الصَّرْع، تزعُم أنه من شيطانه ؟ قال : أمّا هذا بعينه فلا أدرى أمِن فَساد مِرَّة وبَلْغَمٍ، أم من شيطان ؛ وما أُنكِر أن يكون خَبْطَ شيطانٍ وصرعَه، وكيف لا يجوز ذلك مع ما سمعنا فى القرآن ؟

قال : وسمعته، وسأله سائلٌ عن رجلٍ هامَ على وجهه، مثل عَمْرو بن عَدِىّ[4]

---

(١) سبقت ترجمته فى ١ : ٣٢٦ .

(٢) الآية ٢٧٥ من سورة البقرة .

(٣) أى قال القائل، لا الجاحظ، فإن الجاحظ ولد سنة ١٥٥ بعد وفاة عمرو بن عبيد سنة ١٤٢ .

(٤) فى الأصل : « عمرو بن عدس » تحريف . وانظر الحيوان ١ : ٣٠٢ و ٦ : ٢٠٩ . حيث ذكر فى الموضع الأخير أن الجن ردته على خاله جذيمة بعد سنين وسنين . وهو عمرو بن عدى بن نصر، أحد ملوك الحيرة، وهو الذى حارب الزباء ثأراً لخاله جذيمة، فسار إليها فى ألفى دارع على ألف بعير فى جوالق، بحيلة دبرها قصير الذى جدع أنف نفسه احتيالا، وانتهى الأمر بمقتل الزباء . انظر كامل ابن الأثير ١ : ١٩٨ والطبرى ٢ : ٣١ ومروج الذهب ١ : ٢٨٠ وشرح المقامات للشريشى ٢ : ٧ وأمثال الميدانى فى (خطب يسير فى خطب كبير) ١ : ٣١٣ و (كبر عمرو عن الطوق) ٢ : ٧٥ والعمدة ٢ : ١٧٨ .

صاحب جَذيمة الوضاح[١] ، ومثل عُمَارة بن الوليد[٢] ، وطالب بن أبى طالب[٣] ، فقال : قد قال الله : ﴿ كالّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فى الأرض[٤] ﴾ .

وأنا أعلم أنّ فى الناس مَن قد استهوته الشياطين ، ولستُ أقضى على الجميع بمثل ذلك . وقد قالوا فى الغَرِيض المُغَنّى[٥] ، وسَعْد بن عُبادة[٦] وغيرهما ، وهذا عندنا قولٌ عدْل .

---

(١) هو جذيمة بن مالك بن فهم بن عمرو بن دوس بن الأزد . كان ثانى ملوك الحيرة . وأول ملوكها أبوه مالك بن فهم ، كما فى العمدة ٢ : ١٧٨ . وجذيمة هذا خال عمرو بن عدى . وسمى الوضاح لوضح كان به ، أى برص . ويسمى «الأبرش» أيضاً لذلك .

(٢) هو عمارة بن الوليد بن المغيرة ، وهو الذى نزل فيه قول الله : « ذرنى ومن خلقت وحيداً » ، قال ابن حجر فى الإصابة ٦٨١١ : « الصواب أنه مات كافرا ، لأن قريشاً بعثوه إلى النجاشى فجرت له معه قصة ، فأصيب بعقله وهام مع الوحش » . وانظر الحيوان ٦ : ٢١٠ .

(٣) الحيوان ٦ : ٢٠٩ والاشتقاق ٦٣ وجمهرة أنساب ابن حزم ١٤ . وهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأنشد له ابن هشام فى السيرة شعراً يمدح فيه رسول الله ويبكى أصحاب القليب من قريش يوم بدر .

(٤) الآية ٧١ من سورة الأنعام .

(٥) الغريض لقب له ؛ لأنه كان طرى الوجه غض الشباب . واسمه عبد الملك ، وكان من الموالى ، ونشأ خياطاً ثم أخذ الغناء بمكة عن ابن سريج . وذكر أبو الفرج فى الأغانى ٢ : ١٣٦ ، ١٤٣ أن الجن نهته أن يغنى لحنه الذى يقول فيه :

تشرب لون الرازقى بياضه ... أو الزعفران خالط المسك رادعه

فمكث على ذلك دهراً ، فلما أغضبه مواليه تغناه ، فقتلته الجن فى ذلك .

(٦) سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة الخزرجى ، كان سيد الخزرج وممن =

[رجع إلى زواج الإنس بالجن]

وكلّ ما قالوا من أحاديثهم فى الخلق المركّب ، فهو أيسر من قولهم فى وِلادة بِلْقيس[١] .

وهم يَرْوُون فى رواياتهم فى تزويج الإنسان من الجنّ ، حتى جعلوا قول الشاعر[٢] :

يَا قَاتَلَ اللهُ بَنِي السِّعْلَاةِ عَمْرًا وقَابُوسًا شِرَارَ النَّاتِ

– يريد : الناس – أنه الدليل[٣] على أن السِّعلاة تلِد الناس .

هذا سوى ما قالوا فى الشِّقّ[٤] ووَاق وَاق[٥] ودُوَال باى[٦] ، وفى الناس والنسْناس[٧] .

= له بلاء حسن فى الإسلام ، وكان يكتب فى الجاهلية ، ويحسن العوم والرمى . توفى بحوران لسنتين ونصف من خلافة عمر . المعارف ١١٢ والسيرة ٢٩٨ والاشتقاق ٤٥٦ . وذكر الجاحظ فى الحيوان ٦ : ٢٠٩ أن الجن قد رثته بشعر .

(١) انظر ما سبق فى ص ٣٧١ . وخبر ولادتها من جنية فى التيجان لوهب ابن منبه ص ١٣٥ – ١٣٧ .

(٢) هو علباء بن أرقم ، كما فى حواشى الحيوان ٦ : ١٦١ حيث تخريج الرجز

(٣) فى الأصل : « أن الدليل » .

(٤) انظر الحيوان ١ : ١٨٩ و ٦ : ٢٠٦ و ٧ : ١٧٨ .

(٥) زعموا أنه نتاج ما بين نبات وحيوان . الحيوان ١ : ١٨٩ . وانظر أيضاً ٧ : ١٧٨ وحياة الحيوان للدميرى فى آخر الكلام على (السعلاة) .

(٦) زعموا فيه كما زعموا فى سابقه . الحيوان ١ : ١٨٩ و ٧ : ١٧٨ . وفى معجم استينجاس ٥٣٩ أن « دوال پاى » يطلق على جنس هندى يزعمون أنه له أرجلا دقيقة مرنة شبيهة بالسيور ، فهو كسيح يتحين فرصة العثور على المسافرين ويلح عليهم ليحملوه .

(٧) زعموا أن الناس مركب بين الشق والإنسان . الحيوان ١ : ١٨٩ .

ولم يرضَ الكُمَيت بهذا حتى قال :

* نِسْنَاسَهُمْ والنَّسَانِسَا[1] *

فقسم الأقسام على ثلاثة : على الناس ، والنِّسْناس ، والنَّسانِس .

وتزعُم أعراب بنى مُرّة أنَّ الجن إنما استهوَتْ سِناناً[2] لتستفحله إذْ كان مُنْجِباً ، وسنانٌ إنَّما هام على وجهه . وقال رجل من العرب : « والله لقد كان سِنانٌ أحزمَ من فَرْخ العُقاب[3] » .

٢٣١ و

[البراذين والخيل]

وقال محمد بن سَلّام الجُمَحِيّ : قلت ليونس بن حبيب : آلبراذين من الخيل ؟ فأنشدني :

وإنِّى امْرُؤٌ لِلْخَيْلِ عِنْدِى مَزِيَّةٌ   علَى فَارِسِ البِرْذَوْنِ أو فَارِسِ البَغْلِ

وقالوا : إنما ذهب الشاعر من اسم الخيل إلى العِتاق .

وإنما يُوصف الفرس العتيق بصفة الإنسان من بين جميع الحيوان ، يقولون : فرَس كريم ، وفرس جَواد ، وفرس رائع .

---

(١) وكذا أنشد هذا الجزء فى الحيوان ١ : ١٧٨ .

(٢) هو سنان بن أبى حارثة المرى ، والد هرم بن سنان ممدوح زهير كما سبق فى حواشى ص ٣٤٤ . وتجد زعم استهوائه ـ أى الذهاب به ـ فى الحيوان ٣ : ٤٩٠ و ٧ : ٢٠٩ والأغانى ٩ : ١٤٤ .

(٣) الحيوان ٧ : ٢٤ وأمثال الميدانى ١ : ٢٠٢ . حين فسر حزم فرخ العقاب فى إسهاب .

فأمَّا قولهم « كريم » و « عتيق » ، فإنَّما يريدون أن يُبْرُوه[(١)] من الهُجنة والإقراف ، وكيف يجعلون البرذون لاحقًا بالعتيق ، وإنْ دخل الفرسَ من أعراق البراذين شيء هجَّنه ؟

وفى القرآن : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ[(٢)] ﴾ حين أراد أن يعدِّد أصناف نِعَمِه ؛ أفتراه ذكر نِعَمَه فى الحمار والبغل ، ويَدَعُ نِعْمته فى البراذين ، والبراذينُ أكثر من البغال ، ولعلَّها أكثر من الحمير الأهليَّة ، التى هى للركوب ، لأنَّ الله تعالى قال : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا ﴾ ؟ وحُمُر الوَحْش وإن كانت حميرًا فليست بمراكب . وفُرْسان العَجَم تختار فى الحرب البَراذين على العِتاق ، لأنها أحسن مُواتاة . والفحْل والحِصان من العِتاق ربَّما شمَّ ريح الحِجْر فى جيش الأعداء ، فتقحَّم بفارسه حتَّى يعطَب ، ولذلك اختاروا البراذين للصَّوَالجة والطَّبْطابات[(٣)] والمُشاولة[(٤)] ، وإنما أرادوا بذلك كلِّه أن يكون دُربةً للحرب وتمرينًا وتأسيسًا .

فأكثر الحمير والبغال تُتَّخذ لغير الركوب ، وليس فى البراذين طحَّانات ولا نقَّالات ، ولا تُكْسَح عليها الأرض إلا فى القَرْط . فكيف يدع ذكر ما هو أعظم فى المنفعة ، وأظهرُ فى النِّعمة ، مع الجمال والوطاءة[(٥)] إلى ذكرِ ما لا يُدَانيه ؟

---

(١) أى يبرئوه ، يقال أبرأه من العيب إبراء وبرأه تبريئاً ، أى خلصه ونزهه .

(٢) الآية ٨ من سورة النحل .

(٣) جمع طبطاب ، وهو مضرب الكرة . انظر ما سبق فى ١ : ٢١ .

(٤) المشاولة : المطاعنة بالرماح . وانظر ما سبق فى ١ : ٢٠ .

(٥) الوطاءة : اللين والسهولة . وفى الأصل : « الوطا » . وانظر ما سبق فى ص ٢٢٠ ، ٢٣٦ .

[ركوب البغال واختيارها للحرب]

قال : ومما يهجّن شأنَ البغل ويُخبر[1] عن إبطائه عند الحاجة إلى سُرعته ، أنّ القائد الشُّجاع ، والرئيس المُطاع ، إذا أراد أن يُعلم أصحابَه أنه لا يفرُّ ، حتى يفتحَ اللهُ عليه أو يُقتَل ، ركب بغلاً . ولذلك قال الشاعر :

٢٣١ ظ

إذَا رَكِبَ الْأُسْوَارُ بَغْلاً وَبَغْلَةً ... لدَى الحَرْبِ والهَيْجاءِ قَدْ شُبَّ نَارُهَا[2]

فذاكَ دليـلٌ لا يُخيلُ، وعَزْمَةٌ ... عَلَى الصَّبْرِ حتَّى يُستَبانَ بِشَارُهَا[3]

وذُو الصَّبْرِ أَوْلَاهُمْ بِـكُلِّ سَلَامَةٍ ... وبالصَّـبْرِ يَبْدُو عَقْبُهَا وعِيَـارُهَا[4]

ذهب إلى قول أبي بكر ، رضى الله عنه ، لخالد بن الوليد : « احْرِصْ عَلَى الموت تُوهبْ لك الحياة » .

يقول : إذا صبَرتم ولم تفرّوا ، هزمتُم العدُوّ ، فصار صبركم سببًا لحياتكم .

وحدّثني نَهيك بن أحمد بن نَهيك ، كاتبُ عبد الله بن طاهر ، قال : اقتتل أصحاب الأمير عبد الله بن طاهر ، وأصحاب نَصْر بن شَبَث يومًا على باب كَيسوم[5] ، ونصرٌ في آخرِ القوم جالسٌ على مصلًّى ، محتبٍ بحمائل سيفه ،

---

(١) في ط : « ويحيد » ، خلافا لما أثبت واضحا من الأصل .

(٢) الأسوار ، بضم الهمزة وكسرها : الجيد الرمى بالسهام ، والجيد الثبات على ظهر الفرس ، وأصله قائد الفُـرس .

(٣) لا يخيل : لا يشتبه ويشكل والبشار : المباشرة ؛ باشر الأمر : حضره بنفسه .

(٤) العيار : مصدر عار الفرس يعير : ذهب كأنه منفلت عن صاحبه .

(٥) كيسوم : قرية من أعمال ميساط ، فيها حصن كبير على تلعة ، كان ذلك الحصن لنصر بن شبث تحصن فيه من المأمون حتى ظفر به عبدالله بن طاهر فأخرجه . انظر معجم البلدان ، وكان إخراجه من الحصن سنة ٢٠٩ بعد حرب دامت خمس سنوات . الطبرى وابن الأثير في حوادث سنة ٢٠٩ واليعقوبى ٣ : ١٨٣ . وفي ط : « كيوم » خلافا لما في الأصل .

وبين يديه بغل مُسْرَج مجلل ، والله ما أدرى أكان الجَلّ تحت اللِّبْد ، أم كان فوق السَّرج ، وشدّ عُزَيز على أصحاب نصر شدَّةً كشفتْهم[1] ، حتى جاوزوا مكان نصر ، وصار عُزيز بحذاء نصر ، ونصرٌ جالس ؛ فلما رأى ذلك وثب وَثبةً فإذا هو على ظهر البغل ، وقال : مكانَك يا عزيز ! أتبلغ إلى موضعى ، وتطأ حريمى ؟ ! ثم شدَّ نحوه على بغله ، وعُزَيز على برذونٍ ، فعزف — والله — عزيزٌ عنه ، وعزيز يومئذ فارس العَسْكر غير مُدافَع .

[نقد تشبيه البغل بالكلب]

وأنشدوا فى البغل :

أَرَدْتَ مَديحَ البَغْلِ يَاشَيْخَ مَذْحِجٍ فَجِئْتَ بِشَىْءٍ صَيَّرَ البَغلَ كالْكَلْبِ
وحَسْبُكَ لُؤْمًا بالْكِلاَبِ ودِقَّةً وقَدْ ثَمَّنُوا شَروَاهُ شَأْوًا مِنَ التُّرْبِ[2]

لأن فى الحديث : إنَّ دِيَةَ الكلب زَبيلٌ من تُراب ، حَقٌ على القاتل أن يفعله ، وحَقٌّ على صاحب الكلب أن يَقْبَله[3] .

تم الكتاب بعون الله تعالى ومنّه

يتلوه كتاب الحنين إلى الأوطان ، والحمد لله وحده ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وسلامُه .

---

(١) ط : « نسفتهم » ، خلافا لما هو واضح فى الأصل .

(٢) الدقة : الخسة والحقارة . والكلمة واضحة فى الأصل ، ووردت فى ط : « وذمة » . وشروى الشىء : مثله . والشأو : زبيل من تراب يخرج من البئر .

(٣) انظر الحديث فى الحيوان ١ : ٢٩٣ مطولا مع تفسير الجاحظ له . وهو من حديث عبد الله بن عمر .

١٧

رسالة

الحنين إلى الأوطان

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذا هو الكتاب السابع عشر من مجموعة رسائل الجاحظ ، وعنوانه :

« رسالة فى الحنين إلى الأوطان »

وقد ذكره بروكلمان فى كتابه ٣ : ١١٦ ليسرد مخطوطاته ومطبوعاته ، وهى نسخة داماد إبراهيم ٧٤٩ : ١٧٠ ونسخة الموصل ١٣٦ ، ٣٣٣ ، ٦ ، ٢٦٥ : ١٥ .

ولم تبق من مخطوطات هذا الكتاب إلا مخطوطة داماد إبراهيم ، وأما نسخة الموصل وهى التى كانت محفوظة فى مكتبة أمين الجليلى فقد فقدت فلم يعرف مصيرها ، كما ذكر الدكتور داود الجلبي مؤلف كتاب مخطوطات الموصل[1] .

ولم أجد لهذه الرسالة ذكراً فى مرجع من المراجع القديمة ، ولعل هذا ما حدا ببعض الباحثين ، ومنهم الأستاذ حسن السندوبى فى كتابه (أدب الجاحظ ص ١٥٣) أن يزعم أنه ليس للجاحظ . وقد ساق الأستاذ السندوبى هذه الرسالة فى ثبت الكتب التى نسبت للجاحظ وليست له ، وقال : من قرأ هذا وقرنه بشىء من كتب الجاحظ أو وازن بينه وبين طريقته فى التأليف ، لا يشك مطلقا فى أن الجاحظ منه براء ، وأنه من تلفيق الوراقين الذين يجمعون شتى العبارات إلى بعضها فى كتاب ، ثم ينسبونه إلى مؤلف مشهور ليلقى الرواج عند الناس . ومن العجب أن الشيخ طاهر الجزائرى رحمه الله وهو الذى وقف على طبعه يخدع به ، ولا يفطن إلى أن نسبته إلى الجاحظ كذب وافتراء » .

وقال بروكلمان فى كتابه ٣ : ١٢٨ : « أما اتهام السندوبى فى الرسائل ١٥٣ لكتاب الحنين إلى الأوطان بأنه منحول للجاحظ فهذا أمر يعسر القطع به » .

وفى الحق أن هذا الكتاب لا يحمل سمة من السمات التى توحى بأن الكتاب ليس من صنع الجاحظ ، فهو جار على طريقته فى التأليف ونهجه ، فإنه اختيارات

---

(١) انظر مقدمة مجموع رسائل الجاحظ نشر پاول كراوس والدكتور محمد طه الحاجرى ص (و) .

مختلفة تتعلق بموضوع الحنين إلى الأوطان . يربط الجاحظ بينها ويبوبها ذلك التبويب الساذج الذى عهدناه من الجاحظ . وأسلوبه التعبيرى لا يجافى ماعهدناه أيضاً من بيانه . ومقدمة الكتاب آية على ذلك .

كما أنه ليس فى نصوص الكتاب ، ولا فى رجاله ، ولا فى حوادثه ما يجاوز زمنه زمان الجاحظ .

ونلقى كذلك كثيراً من النصوص المشتركة بين الكتاب وبين سائر كتب الجاحظ . وتلك سمة نعرفها من سمات تأليفه[1] .

وهو كذلك يذكر أقوال الفرس ، وكلام الحكماء والفلاسفة ونوادر الأعراب وأهل البادية فيما يعن من مناسبة . وقد جرى على هذا النمط فى سائر كتبه .

أما ما ورد فى ص ٢٣٧ و — ٢٣٧ ظ من قوله : « وقال أبو عثمان . . . » فله نظير فى كتبه .

فنى الحيوان ٧ : ١٦٨ : « قال أبو عثمان : ومما أكتب لك من الأخبار العجيبة » . وفى ٧ : ١٨٣ : « قال أبو عثمان : وقد رأيت أنا فى عين الفيل من صحة الفهم والتأمل إذا نظر بها » . وفى ٧ : ٢٠٨ : « وقال أبو عثمان : ويوصف جلد الفيل وجلد الجاموس بالقوة » .

وفى الجزء الأول من هذه الرسائل ص ٢٦٧ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٧٩ وكذا فى الجزء الثانى منها ص ١٩٩ نصوص مصدرة بعبارة «قال أبو عثمان» .

وليس هذا يبدع فى كتب الرعيل الأول من علماء العرب وأدبائهم، فعلى ذلك كله تنتفى الريبة فى أن يكون هذا الكتاب منحولا ، بل هو جاحظى جاحظى .

وأما بعد فإن لهذا الكتاب أصلين هما :

١ — الأصل الأول نسخة داماد ، وهى المعبر عنها بالأصل .

٢ — الأصل الثانى النسخة التيمورية ، وهى فى الخزانة التيمورية الملحقة بدار الكتب برقم (٣٥١ أدب مجاميع) وهى مجموعة تشتمل على :

١ — كتاب المبهج للثعالبى ص ٢ — ٤٣ .

٢ — المتشابه للثعالبى ص ٤٤ — ٨٥ .

---

(١) انظر على وجه المثال ماورد فى كتاب مناقب الترك ص ٦٤ — ٦٥ من الجزء الأول من الرسائل، مما يتعلق بذكر الحنين إلى الأوطان ، وما سيرد فى حواشى هذا الكتاب .

٣ — رسالة فى الحنين إلى الأوطان ص ٥٩ — ٧٠ .

٤ — الوشى المرقوم فى حل المنظوم لابن الأثير ٧٢ — ١٧٩ .

٥ — الطرائف واللطائف للثعالبى ، وضم إليه المقدسى كتاب اليواقيت . ص ١٨٠ — ٣٢١ .

٦ — مرآة المروءات للثعالبى ٣٢٢ — ٣٤٨ .

والمجموعة بخط أمين العمرى سنة ١١٧١ وفيها نصوص على المقابلة على الأصول التى نقل عنها .

فمن نتاج هاتين النسختين ، والمقابلة على النسخة المطبوعة التى نشرها الشيخ طاهر الجزائرى بمطبعة المنار سنة ١٣٣٣ عن نسخة التيمورية . وهى فى ٣٨ صفحة رجع فى تصحيحها كما يقول إلى « كثير من أمهات كتب الأدب فصحت بقدر الإمكان » صنعت نسختى هذه .

وأحب أن أذكر أن الشيخ الجزائرى مع فضله الظاهر فى تصحيح النسخة لم يتبع النهج العلمى للنشر ؛ إذ تراه قد بدل كثيراً من النصوص دون الإشارة إلى ما فى أصله المخطوط ، كما يتضح من المقارنة التى أجريتها فى نشرتى هذه .

وقد أشرت إلى نشرته بالرمز (ط) .

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ لكلّ شىء من العلم ، ونوعٍ من الحكمة ، وصِنفٍ من الأدب ، سببًا يدعو إلى تأليف ما كان فيه مشتّتًا ، ومعنًى يحدو على جمع ما كان منه متفرقًا[١] . ومتى أغفل حَمَلةُ الأدب وأهل المعرفة تمييزَ الأخبار واستنباط الآثار ، وضمَّ كلِّ جوهرٍ نفيسٍ إلى شِكله ، وتأليف كلِّ نادر من الحكمة إلى مِثله — بطَلت الحكمةُ وضاع العلم ، وأُميت الأدبُ ، ودَرَس مستور كلِّ نادر .

ولولا تقييد العلماء خواطرهم على الدهر ، ونقرهم آثار الأوائل فى الصَّخر ، لبطَل أولُ العلم وضاع آخِره . ولذلك قيل : « لا يزالُ الناس بخيرٍ ما بقىَ الأولُ يتعلم منه الآخِر » .

وإن السبب الذى بعثَ[٢] على جمع نتفٍ من أخبار العرب فى حنينها إلى أوطانها ، وشوقها إلى تُربها وبلدانها ، ووصفها فى أشعارها توقُّدَ النار فى أكبادها ، أنِّى فاوضتُ بعضَ من انتقل من الملوك [فى[٣]] ذكر الدِّيار ، والنِّزاع إلى الأوطان ، فسمعته يذكر أنه اغترب من بلدِه[٤] إلى آخرَ أمهدَ من وطنه ، وأعمر من مكانه ، وأخصبَ من جَنابه . ولم يزلْ

---

(١) فى الأصل : « جمعهم » ، صوابه فى التيمورية و ط . وكلة « منه » ثابتة فى الأصل فقط .

(٢) الذى بعث ، ساقطة من ط والتيمورية .

(٣) ساقطة من الأصل ، وإثباتها من التيمورية . وفاوض لاتتعدى إلى اثنين .

(٤) ط والتيمورية : « من بلد » .

عظيمَ الشأنِ جليلَ السُّلطان ، تدين له من عشائر العرب ساداتُها وفتيانها ، ومن شعوب العجم أنجادها وشُجعانها ، يقود الجيوش ويَسُوس الحروب ، وليس ببابه إلا راغبٌ إليه ، أو راهبٌ منه ؛ فكان إذا ذكر التُّربة والوطنَ حنّ إليه حنينَ الإبل إلى أعطانها ، وكان كما قال الشاعر :

إذا ما ذكرتُ الثَّغر فاضت مدامعى   وأضحى فؤادى نُهبةً للهَماهِمِ[1]

حنيناً إلى أرضٍ بها اخضرَّ شاربى   وحُلَّت بها عنّى عُقودُ التمائم

وألطفُ قومٍ بالفتى أهلُ أرضه   وأرعاهمُ للمرء حقَّ التقادمِ

وكما قال الآخر[2] :

يَقَرُّ بعينى أن أرى مَنْ مكانُه   ذُرى عَقِدات الأبرق المتقاودِ[3]

وأن أردَ الماء الذى شربتْ به   سُليمى وقد ملّ السُّرى كلُّ واخدِ[4]

٢٣٣ و   وأُلصق أحشائى ببرد ترابها   وإن كان مخلوطاً بسُمِّ الأساودِ[5]

---

(١) المحاسن والمساوى للبيهقى ١ : ٤٩١ . والهمهمة : الكلام الخفى ، والمراد الهواجس .

(٢) هو نبهان بن عكى العبشمى ، كما فى الكامل ٣١ واللآلى ٢٢٦ وزهر الآداب ٩٤٠ نقلا عن المبرد . وعزيت النسبة فى زهر الآداب أيضا إلى حليمة الخضرية فى رواية الزبير بن بكار . وانظر أمالى القالى ١ : ٦٣ وعيون الأخبار ٤ : ١٣٨ .

(٣) العقد بفتح فكسر : المتراكم من الرمل ، واحدته عقدة . والمتقاود : المستطيل على وجه الأرض ، يقال قاد ، وانقاد ، وتقاود ، أى استطال .

(٤) الواخد ، بالخاء المعجمة ، عنى به من وخد به بعيره ، أى أسرع ووسع الخطو . وفى الكامل : « كل واجد » بالجيم .

(٥) كذا فى الأصل والتيمورية ، فالضمير فى « ترابها » عائد إلى العقدات . وفى سائر المراجع : « ببرد ترابه » ، بعود الضمير إلى الماء .

فقلت : لئن قلتَ ذلك لقد قالت العجم : مِن علامة الرُّشد أن تكون النفسُ إلى مَولدِها مشتاقة ، وإلى مَسقِط رأسها تَوّاقة[1]

وقالت الهند : حُرمة بلدِك عليك مِثل حرمة أبويك[2] ؛ لأنّ غذاءك منهما ، وغذاءهما منه[3] .

وقال آخر : احفظ بلداً رشَّحك غِذاؤه[4] ، وارعَ حِمًى أكنَّك فِناؤه[5] . وأَولَى البُلدان بصبابتك إليه بلدٌ رضِعْتَ ماءه ، وطعِمتَ غذاءَه .

وكان يقال : أرضُ الرجُلِ ظِئرُه ، ودارُه مَهده[6] . والغريب النائى عن بلده ، المتنحِّى عن أهله ، كالثَّور النادِّ عن وطنه[7] ، الذى هو لكلِّ رامٍ قَنيصة .

---

(١) وكذا فى محاضرات الراغب ٢ : ٢٧٦ . وفى المحاسن والمساوى ١ : ٤٩٦ . « إلى أوطانها مشتاقة ، وإلى مولدها تواقة » .

(٢) ط فقط : « كحرمة » .

(٣) ط : « لأن غذاك منهما وأنت جنين » وكلمة « وأنت جنين » لم ترد فى أصل أو مرجع . انظر ديوان المعانى ٢ : ١٨٨ . وفى الأصل والتيمورية وديوان المعانى : « وغذاءهما منك » ، والوجه ما أثبت من ط .

(٤) الترشيح : التربية والتقوية . فى الأصل والتيمورية : « أرشحك » ، والوجه ما أثبت من محاضرات الراغب ٢ : ٢٧٦ .

(٥) فى الأصل : « أكدك » وفى هامشه : « ظ : أكنك » أى الظاهر أن صوابه « أكنك » . وفى التيمورية : « أكداك » ، وما أثبت مطابقاً لما فى ط ومحاضرات الراغب هو الصواب .

(٦) ديوان المعانى ٢ : ١٨٨ .

(٧) ند يند ندودا : شرد وذهب على وجهه . التيمورية « الناذ » ، صوابه فى الأصل وط .

وقال آخر : الكريم يحنُّ إلى جَنابه ، كما يحنُّ الأَسَد إلى غابه[١] .

وقال آخر : الجالى عن مسقط رأسه ومحلِّ رضاعِه ، كالعَير الناشط عن بلده[٢] ، الذى هو لكل سبعٍ قَنيصة ، ولكلِّ رامٍ دريئة .

وقال آخر : تُربة الصبا تَغرس فى القلب حُرمة وحلاوة ، كما تغرس الولادةُ فى القلب رقّةً وحفاوة .

وقال آخر : أحقُّ البُلدان بنزاعكَ إليه بلدٌ أمصَّكَ حَلَبَ رَضاعِه .

وقال آخر : إذا كان الطائر يحنُّ إلى أوكاره ، فالإنسانُ أحقُّ بالحنين إلى أوطانه .

وقالت الحكماء[٣] : الَحنين من رقّة القلب ، ورقّة القلب من الرِّعاية ، والرِّعاية من الرَّحمة ، والرَّحمة من كرم الفطرة ، وكرم الفطرة من طهارة الرِّشدة ، وطهارة الرِّشدة من كرم المحتد .

وقال آخر : ميلك إلى مولدك[٤] من كرم مَحتِدك .

وقال آخر : عُسرك فى دارك أعزُّ لك من يُسرك فى غربتك[٥] .

---

(١) كلمة « الأسد » ساقطة من الأصل والتيمورية ، وإثباتها من زهر الآداب وط .

(٢) الناشط : الثور الوحشى يخرج من بلد إلى بلد ، ومن أرض إلى أرض . وفى المحاسن للبيهقى ١ : ٤٩٠ : «الناشز» ولا وجه له . وانظر سائر الرواية فيه .

(٣) انظر ديوان المعانى ٢ : ١٨٨ .

(٤) فى محاضرات الراغب ٢ : ٢٧٦ : « ميلك إلى بلدك » .

(٥) فى المحاسن والمساوى ١ : ٤٩٠ : « عسرك فى بلدك خير من يسرك فى غربتك » .

وأنشد :

لقربُ الدار فى الإقتــار خيرٌ من العيش الموسَّع فى اغترابِ[١]

وقال آخر : الغريب[٢] كالغَرْس الذى زايل أرضه ، وفقد شِربَه ، فهو ذاوٍ لا يثمر ، وذابلٌ لا ينضُر[٣] .

وقال بعض الفلاسفة : فطرة الرجل معجونةٌ بحبِّ الوطن[٤] .

ولذلك قال بُقراط : يُدَاوَى كلُّ عليلٍ بعقاقير أرضه ؛ فإنّ الطبيعةَ تَتَطلَّع[٥] لهوائها ، وتنزِع إلى غذائها[٦] .

٢٣٣ ظ

وقال أفلاطون : غذاء الطبيعة من أنجع أدويتها[٧] .

وقال جالينُوس : يتروّح العليل بنسيم أرضه ، كما تنبت الحبة ببَلِّ القَطْر[٨] .

والقول فى حبِّ الناس الوطن وافتخارهم بالمحالِّ قد سبق ، فوجدنا الناسَ بأوطانهم أقنعَ منهم بأرزاقهم[٩] .

---

(١) ديوان المعانى ٢ : ١٨٨ .

(٢) فى المحاسن المساوى : « الغريب عن وطنه ومحل رضاعه » .

(٣) هذا الوجه من المحاسن والمساوى . وفى الأصل والتيمورية : « وذليل لا ينصر » . (٤) المحاضرات ٢ : ٢٧٦ .

(٥) كذا فى الأصل والتيمورية ، أى تتطلع بحذف إحدى التاءين . وفى ديوان المعانى : « تتطلع » ، مع نسبة القول إلى أفلاطون .

(٦) فى المحاسن : « فإن الطبيعة تنزع إلى غذائها » فقط .

(٧) ديوان المعانى ٢ : ١٨٨ .

(٨) ديوان المعانى : « يبل المطر إذا أصاب الأرض » . وفى المحاسن : « كما تتروح الأرض الجدبة يبلل المطر » . وفى ط : « الأرض الجدبة يبلل القطر » .

(٩) فى الحيوان ٣ : ٢٢٧ وكذا رسائل الجاحظ ١ : ٦٤ : «قال ابن الزبير : ليس الناس بشىء من أقسامهم أقنع منهم بأوطانهم » .

ولذلك قال ابن الزُّبير : « لو قَنِع الناس بأرزاقهم قناعتَهم بأوطانهم ما اشتكى عبدٌ الرِّزق[1] » .

وترى الأعرابَ تَحِنُّ إلى البلد الجَدْب ، والمحلِّ القفر ، والحجَر الصَّلْد ، وتستوخِم الرِّيف ، حتّى قال بعضُهم :

أتَجلِينَ فى الجالينَ أم تتصبَّرى على ضيق عيشٍ والكريمُ صبورُ[2]

فبالمِصر بُرغوثٌ وحُمَّى وحَصْبَةٌ ومُومٌ وطاعونٌ وكلُّ شُرورِ[3]

وبالبيد جوعٌ لا يَزالُ كأنّه رُكامٌ بأطراف الإكام يَمورُ

وترى الحضَرىَّ يُولد بأرضٍ وباء ومُوتانٍ[4] وقلّة خِصْب ، فإذا وقع ببلادٍ أريفَ من بلاده ، وجَنابٍ أخصبَ من جَنابه ، واستفاد غنًى ، حَنَّ إلى وطنه ومستقَرِّه .

ولو جمعنا أخبارَ العرب وأشعارَها فى هذا المعنى لطال اقتصاصُه ، ولكن توخَّينا تدوينَ أحسنِ ما سَنَح من أخبارهم وأشعارهم ، وبالله التوفيق .

ومما يؤكّد ما قلنا فى حبِّ الأوْطان قولُ الله عزّ وجلّ حين ذكر الدِّيار

---

(١) محاضرات الراغب : « قنوعهم بأوطانهم لما شكا عبد رزقه » .

(٢) أراد : أم تتصبرين . فحذف النون لغير جازم كما أنشدوا من قوله :

أبيت أسرى وتبيتى تدلكى وجهك بالعنبر والمسك الذكى

الخصائص ١ : ٣٨٨ والخزانة ٣ : ٥٢٥ . وانظر الحماسة بشرح المرزوقى ٢٩٤ ، ٤٠٧ .

(٣) فى البيت إقواء . والموم : الجدرى الكثير المتراكب .

(٤) الموتان ، بالضم : الموت الكثير الوقوع .

يُخبر عن مَوَاقعها من قلوبِ عباده[1] فقال : ﴿ ولو أنّا كَتَبْنَا عليهمْ أنِ اقْتُلوا أنفُسَكُمْ أو اخْرُجُوا من دِيارِكُمْ ما فَعَلُوه إلاَّ قَلِيلٌ مِنْهم[2] ﴾ ، فسوّى بين قتل أنفسهم وبين الخروجِ من ديارهم . وقال تعالى : ﴿ وما لنا ألا نقَاتلَ فى سَبِيلِ اللهِ وقد أُخرِجنا من ديارنا وأبنائنا[3] ﴾ .

وقال عمر رضى الله عنه : « عَمَّر اللهُ البُلدانَ بحبِّ الأوطان[4] » .

وكان يقال : لولا حبُّ الناس الأوطانَ لخسِرت البُلدان .

وقال عبد الحميد الكاتب ، وذكَر الدُّنيا : « نفَتْنا عن الأوطان ، وقطعتنا عن الإخوان » .

وقالت الحكماء : أكرم الخيل أجزَعُها من السَّوط[5] ، وأكيس الصِّبيان أبغضُهم للكُتَّاب[6] ، وأكرم الصَّفايا أشدُّها ولَهاً إلى أولادها ، وأكرم الإبل أشدُّها حنيناً إلى أوطانها ، وأكرم المِهارَة[7] أشدُّها ملازمةً لأمِّها ، وخير الناسِ آلَفُهم للناس . ٢٣٤ و

وقال آخر[8] : من أمارات العاقل برُّه لإخوانه ، وحنينه لأوطانه ، ومداراته لأهل زمانه .

---

(١) انظر نحو هذا والاستشهاد بالآيتين الكريمتين فى البيان ٣ : ٢٢٨ .

(٢) الآية ٦٦ من سورة النساء .

(٣) الآية ٢٤٦ من سورة البقرة .

(٤) هذا ما فى الحيوان ٣ : ٢٢٧ بدون نسبة القول إلى عمر . وفى الأصل والتيمورية : « لحب الأوطان » . وفى المحاسن : « بحب الأوطان عمرت البلدان » .

(٥) ديوان المعانى ٢ : ١٨٧ : « أشدها خوفا من السوط » .

(٦) ديوان المعانى : « للمكتب » . والعبارة بعده تخالف ما هنا .

(٧) المهار والمهارة ، بكسر الميم فيهما : جمع مهر ، بالضم ، وهو ولد الفرس والرمكة ونحوها .

(٨) ديوان المعانى : « وقال بزرجمهر » .

واعتلَّ أعرابىٌّ فى أرض غربة ، فقيل له : ما تشتهى ؟ فقال : حِسْل فلاة ، وحَسْو قِلات[١] .

وسئل آخر فقال : مَحْضًا رويًّا[٢] ، وضبًّا مشويًّا .

وسئل آخر فقال : ضَبًّا عنينًا أعور .

وقالت العرب : حماك أحمَى لك ، وأهلك أحفَى بك .

وقيل : الغُربة كُربة ، والقلّة ذلة[٣] . وقال :

لا ترغبوا إخوتى فى غربة أبدًا إنّ الغريب ذليلٌ حيثما كانا

وقال آخر :

وقال آخر : لا تنهض من وكرك فتنقُصَك الغُربة[٤] ، وتَضِيمَك الوَحدة[٥] .

وقال آخر : لا تجفُ أرضًا بها قوابِلُك ، ولا تشكُ بلداً فيه قبائلك[٦] .

---

(١) الحسل ، بالكسر : ولد الضب . والقلات : جمع قلت ، وهى نقرة فى الجبل تمسك الماء . وفى محاضرات الراغب : « قلاة » تحريف .

(٢) المحض : اللبن الخالص لم يخالطه ماء ، حلوا كان أو حامضا . وفى الأصل والتيمورية : « مخضا » ، تصحيف صوابه فى المحاسن ١ : ٤٨٧ .

(٣) فى المحاسن ١ : ٤٩٠ : « الغربة ذلة ، والذلة قلة » .

(٤) كذا فى المحاسن . وفى الأصل والتيمورية : « فتنقصك » فقط .

(٥) كذا فى المحاسن . وفى الأصل والتيمورية : « الواحدة » .

(٦) ديوان المعانى ٢ : ١٨٧ : « لا تشك بلدا فيه قبائلك ، ولا تجف أرضا فيه قوابلك » . وفى محاضرات الراغب ٢ : ٢٧٦ : « لا تجف بلدا فيه قوابلك ، وأرضا تبنكها قبائلك » . وتبنك بالمكان : أقام به .

وقال أصحاب القِيافة فى الاسترواح : إذا أحسَّت النفس بمولدها[١] تفتَّحتْ مَسامُّها فعرفَتِ النَّسيم .

وقال آخر : يحنُّ اللبيب إلى وطنه ، كما يحنُّ النَّجيبُ إلى عَطَنه[٢] .

وقال : كما أنَّ لحاضنتك حقَّ لبنها ، كذلك لأرضك حرمة وطنها .

وذكر أعرابىٌّ بلدةً فقال : رملةٌ كنتُ جَنينَ رُكامِها ، ورضيعَ غمامها ، فحضنتنى أحشاؤها ، وأرضعتنى أحساؤها[٣] .

وشبَّهت الحكماء الغريبَ[٤] باليتيم اللَّطيم الذى ثَكِلَ أبَويه ، فلا أمٌّ ترأمه ، ولا أبَ يَحدِب عليه .

وقالت أعرابية : إذا كنت فى غير أهلك فلا تنسَ نصيبك من الذلِّ[٥] .

وقال الشاعر[٦] :

لَعمرِى لَرهطُ المرءِ خيرٌ بقيّةً ... عليه وإن عالَوْا به كلَّ مركبِ[٧]

---

(١) المراد بالمولد هنا موضع الولادة .

(٢) النجيب من الإبل : الكريم العتيق . وانظر ديوان المعانى ٢ : ١٩٠ وزهر الآداب ٦٨١ .

(٣) الأحساء : جمع حسى بالكسر ، وهو سهل من الأرض يستنقع فيه الماء .

(٤) وكذا فى المحاسن ١ : ٤٩٠ . وفى التيمورية : « الغربة » ، تحريف .

(٥) ديوان المعانى ٢ : ١٨٩ .

(٦) هو خالد بن نضلة ، كما فى الحيوان ٣ : ١٠٣ والبيان ٣ : ٢٥٠ . والشعر فى الحماسة بشرح المرزوقى ٣٥٨ بدون نسبة .

(٧) أى أركبوه المراكب الصعبة المكروهة . وبين البيت وتاليه فى الحيوان والحماسة :

من الجانب الأقصى وإن كان ذا ندى ... كثير ولا ينبيك مثل المجرب

إذا كنتَ فى قومٍ عِدًى لستَ منهمُ   فكُلْ ماعُلِفتَ من خبيثٍ وطيِّبِ

وفى المثل : « أوضَحُ من مرآة الغَريبة[1] » . وذلك أن المرأة إذا كانت هدِيًّا فى غير أهلها [2] ، تتفقَّد من وجهِها وهيئتها مالا تتفقَّده وهى فى قومها وأقاربها ، فتكون مرآتُها مجلوَّةً تتعهَّد بها أمرَ نفسها . وقال ذو الرمّة :

لهـا أذنٌ حَشْرٌ وذِفرَى أسيلةٌ   وخدٌّ كمِرآة الغَريبة أسجَحُ[3]

٢٣٤ ظ وكانت العرب إذا غزتْ وسافرتْ حملتْ معها من تُربة بلدِها رملاً وعَفَرًا تستنشقه[4] عند نَزْلةٍ أو زكام أو صُداع . وأُنشِد لبعض بنى ضَبَّة :

نسيرُ على علمٍ بكُنهِ مسيرِنا   وعُدّةِ زاد فى بقايا المزاود[5]

ونَحمل فى الأسفار ماءَ قَبيصةٍ   من المنشأ النائى لحبِّ المراودِ[6]

وقال آخر : أرضُ الرَّجل أوضحُ نسبه ، وأهله أحضَرُ نَشَبه .

وقيل لأعرابيٍّ [7] : كيف تصنع فى البادية إذا اشتدَّ القيظُ وانتعل كلُّ شىء ظلَّه ؟ قال : وهل العيش إلا ذاك ، يَمشى أحُدنا ميلاً فيرفَضُّ

---

(١) مجمع الأمثال ٢: ٣٠٤ .

(٢) الهدى : العروس تهدى إلى زوجها .

(٣) ديوان ذى الرمة ٨٨ والكامل ٥ واللسان والمقاييس (سجح) . والأسجح : الحسن المعتدل . التيمورية : « أسمح » ، تحريف . والبيت فى صفة ناقة . ويروى : « وخد » .

(٤) محاضرات الراغب ٢ : ٣٧٦ : « فتنشقه » .

(٥) ط فقط : « بعفة زاد فى بطون » .

(٦) ط فقط :

ولا بد فى أسفارنا من قبيصة   من الترب نسقاها لحب الموالد

(٧) ديوان المعانى ٢ : ١٨٩ والمحاسن ١ : ٤٨٩ .

عَرَقاً[١] ، ثم ينصِب عصاه ويلقى عليها كساءه ، ويجلس فى فيئه يكتال الرِّيح[٢] ، فكأنَّه فى إيوان كسرى !

وقيل لأعرابيٍّ : ما أصبرَكم على البدو ؟[٣] قال : كيف لا يصبر مَن وِطاؤه الأرض ، وغِطاؤه السماء ، وطعامُه الشَّمس ، وشرابه الريح ! والله لقد خرجنا فى إثر قومٍ قد تقدَّمونا بمراحلَ ونحن حُفاة ، والشَّمس فى قُلَّة السماء ، حيث انتعل كلُّ شىء ظِلَّه ، وأنَّهم لأسوأُ حالاً منّا ، إنّ مِهادهم للعَفَر ، وإنّ وِسادهم لَلحَجَر ، وإنّ شِعارهم لَلهواء ، وإنّ دِثارهم لَلخَواء[٤] .

وحدّثنى التوّزِىُّ[٥] عن رجلٍ من عُرينة قال : حدّثنى رجلٌ من بنى هاشمٍ قال : قلتُ لأعرابىٍّ من بنى أسد : مِن أينَ أقبلت ؟ قال : من هذه البادية . قلت : وأين تسكنُ منها ؟ قال : مَساقط الحَمَى حِمَى ضَرِيّة[٦] ، بها لَعمر الله ما نُريد بدَلاً ، ولا نبغى عنها حِوَلا[٧] ، أمّا الفَلَوات ،

---

(١) زاد فى المحاسن : « كأنه الجمان » .

(٢) المحاسن : « وتقبل عليه الرياح من كل جانب » .

(٣) التيمورية : « البرد » ، تحريف .

(٤) الخواء : الهواء بين السماء والأرض .

(٥) التوزى ، بتشديد الواو : نسبة إلى توز ، ويقال فيها أيضاً توج ، بلدة بفارس . وهو أبو محمد عبد الله بن محمد بن هارون ، تلميذ أبى عبيدة والأصمعى . توفى سنة ٢٣٣ . بغية الوعاة وإنباه الرواة ٢ : ١٢٦ .

(٦) حمى ضرية : قرية فى طريق مكة من البصرة .

(٧) فى معجم البلدان (ضرية) : « بأرض لعمر الله ما نريد بها بدلا عنها ولا حولا » .

فلا يَملَوْلِح ماؤها[١] ، ولا يَحمَى ترابُها ، ولا يُمعِرُ جنابها[٢] ، ليس فيها أذًى ولا قَذًى ، ولا أنينٌ ولا حُمَّى[٣] ؛ فنحنُ بأرفهِ عيشٍ وأرفغِ نَعْمة[٤] ! قلت : فما طعامُكم فيها ؟ قال : بَخٍ بَخٍ ! عيشُنا واللهِ عيشٌ تعَلَّل جادبه[٥] ، وطعامُنا أطيب طعامٍ وأهنؤه : الهَبيد[٦] والضِّباب واليرابيع ، والقنافذ والحيَّات ، وربَّما واللهِ أكلْنا القدّ[٧] ، واشتوينا الجِلْد ، فلا نعلم أحداً أخصبَ منّا عيشًا ، فالحمدُ لله على ما بَسَط من السَّعة ، ورَزَق من الدَّعة ، أو ما سمعتَ قول قائلنا ـ وكان واللهِ عالماً بلذيذ العيش : ٢٣٥ و

إذا ما أَصَبنا كلَّ يومٍ مُذيقةً وخمسَ تُميراتٍ صغارٍ كنائزِ[٨]

---

(١) فى معجم البلدان : « قد نفحتها الغدوات ، وحفتهـا الفلوات ، فلا يملولح ترابها » . وفى ط كذلك ، لكن فيه : « فلا يملولح ماؤها » .

(٢) أمعرت الأرض : لم يك فيها نبات . وأرض معرة ، إذا انجرد بنتها .

(٣) فى معجم البلدان : « ولا عك ولا موم ولا حمى » .

(٤) رفغ عيشه بالضم رفاغة : اتسع . والرفاغة والرفاغية : سعة العيش والخصب .

(٥) الجادب : العائب . تعلل : لم يجد مقالا . قال ذو الرمة :

فيالك من خد أسيل ومنطق رخيم ومن خلق تعلل جادبه

ديوانه ٤٣ واللسان (جدب) . وفى معجم البلدان والمحاسن والتيمورية وط : « جاذبه » تحريف .

(٦) الهبيد : حب الحنظل ، تنقعه الأعراب فى الماء أياما ، ثم يطبخ ويؤكل ، وانظر الحيوان ٥ : ٤٤٣ .

(٧) القد ، بفتح القاف : جلد السخلة . وفى اللسان : « وفى حديث عمر رضى الله عنه : كانوا يأكلون القد . يريد جلد السخلة فى الجدب » .

(٨) الذيقة : تصغير المذقة بالفتح ، وهى الشربة من اللبن المذوق بالماء . والكنائز : جمع كنيز ، وهو التمر يكنز للشتاء فى قواصر وأوعية . وفى الأصل والتيمورية والمحاسن : « كوانز » ، ولم أجد له وجها .

فنحنُ ملوكُ الأرضِ خِصْبًا ونَعْمَةً ... ونحن أسودُ الغاب عند الهَزاهزِ[(١)]

وكم متمنٍّ عَيْشَنَا لا ينـــاله ... ولو ناله أضحى به حَقَّ فائزِ[(٢)]

ولهذا خبرٌ طويلٌ وصفَ فيه نُوقًا أَضَلَّها ، واقتصرنا منه على ما وصف من قناعته بوطنه[(٣)] .

قال الهاشمىّ : فلمَّا فرغَ من نعتِه قلت له : هل لكَ فى الغَداء ؟ قال : إنِّى والله غاوى إغباب[(٤)] ، لاصقُ القلب بالحجاب ، مالى عَهدٌ بمَضَاغٍ إلا شِلوِ يربوعٍ وجَد معممةً منِّى فانسَلَتَ[(٥)] ،فأخذت منه بنافقائه وقاصعائه ودامَّائه وراهطائه[(٦)] ، ثم تنفَّقْتُه[(٧)] فأخرجته ، ولا والله ما فرحتُ بشىء فرحى به ، فتلقَّـانى رُوَيعٍ ببطن الخَرْجاء[(٨)] ، يُوقد نُويرةً تخبو طَورًا

---

(١) معجم البلدان : « شرقا ومغربا » وفيه وفى المحاسن : «أسود الناس » . والهزاهز : الفتن يهتز فيها الناس .

(٢) فى معجم البلدان : « جد فائز » .

(٣) انظر بقية الخبر فى معجم البلدان .

(٤) الغاوى : الجائع الخالى الجوف . والإغباب : مصدر أغب ، والمراد ترك الأكل يوما ، كالإغباب فى الزيارة . وفى الأصل والتيمورية و ط : « غاو أغياب » .

(٥) المضاغ ، بالفتح : مايمضغ . والشلو بالكسر : العضو ، والقطعة من اللحم . والمعمعة : الدمشقة ، وهى عمل فى عجلة . وفى ط والتيمورية : « معمعة فانسلت منى » .

(٦) كل هذه أسماء خاصة لجحرة اليربوع . انظر الحيوان ٥ : ٢٧٦ ، ٤٤٧ . فى الأصل والتيمورية : « ودامياته » ، تحريف .

(٧) تنفق اليربوع وانتفقه : استخرجه من نافقائه .

(٨) رويع : مصغر راع . والخرجاء : موضع بين مكة والبصرة . وفى الأصل والتيمورية : « الجرما » .

وتسمو[١] أخرى ، فدَسَسْتُه فى إرَته[٢] نخمدتْ نُوَيرتُه ، ولا والله ما بلغ نُضجَه حتّى اختلسَ الرُّويبِي منه ، فقَلبنى على رأسه وجَوْشه[٣] ، وصدره وبدنه ، وبقىَ بيدى رِجلاه ووركاه ، وفقرتان من صُلبه[٤] ، فكان ذلك ممّا أنعمَ الله به علىّ[٥] ، فاغتبقتُها على نَكْظٍ مُنْكِظ[٦] ، وبَوْصٍ بائص[٧] عن عراكه إيّاى ، غير أنّ الله أعاننى عليه . فذلك والله عهدى بالطّعام ، وإنى لذو حاجةٍ إلى غِذاء أنوِّه به فؤادى[٨] ، وأشُدُّ به آدى[٩] ، فقد والله بلغ منى المجهود ، وأدركَ منّى المجلود[١٠] .

يصف هذا البؤس والجهد ، ويتحمّل هذه الفاقة ، ويصبر على الفقر ، قناعةً بوطنه ، وحبًّا لعطنه ، واعتداداً بما وصَف من رفاغة عيشه .

---

(١) النويرة : مصغر النار . تسمو : ترتفع وتشتعل . التيمورية : « وتشبوا » تحريف ما أثبت من الأصل .

(٢) الإرة : موضع النار . التيمورية : « اربه » ، تصحيف .

(٣) الجوش ، بفتح الجيم : الصدر والوسط ، مثل الجؤشوش . وفى الأصل والتيمورية : « حوبشه » ، تصحيف .

(٤) فى الأصل : « وفقرتان صلبه » وفى التيمورية : « وفقرتا صلبه » . والجمع بينهما يقتضى ما أثبت .

(٥) فى الأصل والتيمورية : « إياه » .

(٦) النكظ والإنكاظ : الإعجال .

(٧) البوص : البعد . والبائص: البعيد . ط والتيمورية: «بوض بايظ» ، تحريف.

(٨) التنويه : الرفع والتقوية .

(٩) الآد : الصلب .

(١٠) المجلود : مصدر من الجلد، بمعنى الشدة والقوة والصبر . ومثله المحلوف والمعقول بمعنى الحلف والعقل .

وحدَّثنا سليمان بن معبد[١] ، أنَّ الوليد بن عبد الملك أراد أن يُرسل خيله ، فجاء أعرابىٌّ له بفرسٍ أنثى ، فسأله أن يُدخلَها مع خيله ، فقال الوليد لقهرمانه أُسَيْلِمَ بن الأحنف : كيف تراها يا أسيلم ؟ فقال يا أمير المؤمنين ، حجازيّة ، لو ضمَّها مضمارك ذهبت[٢] . قال الأعرابى : أنت والله منقوص الاسم ، أعوج اسم الأب[٣] ! فأمر الوليدُ بإدخال فرسه ، فلما أُجريت الخيلُ سَبق الأعرابىُّ على فرسه ، فقال الوليد : أوَاهبُها لى أنتَ يا أعرابىّ ؟ فقال : ٢٣٥ ظ لا والله ، إنّها لقديمةُ الصُّحبة ، ولها حقٌّ ، ولكن أحملُك على مُهرٍ لها سَبق عاماً أوّلَ وهو رابضٌ . فضحك الوليـدُ وقال : أعرابىٌّ مجنون ! فقال : وما يضحكـكم ؟ سبقَتْ أمُّه عاماً أوّل وهو فى بطنها ! فاستظرفه واحتبسه عنده فمرِضَ ، فبَعَثَ إليه الوليدُ بالأطبّاء ، فأنشأ يقول :

جاء الأطبّـاء من حِمصٍ تخالهم ... من جهلهم أن أُداوَى كالمجانينِ
قال الأطبّاء: ما يَشْفيكَ؟ قلتُلهم ... شمُّ الدُّخَانِ من التسرير يَشفينى[٤]

---

(١) سليمان بن معبد ، أبو داود السنجى النحوى . روى عن النضر بن شميل والأصمعى والهيثم بن عدى وغيرهم ، وعنه مسلم والترمذى والنسائى وغيرهم . وكان ثقة . توفى سنة ٢٥٧ . تاريخ بغداد ٩ : ٥١ وتهذيب التهذيب ٤ : ٢١٩ .

(٢) فى الأصل والتيمورية : « مضا بك » ، والوجه ما أثبت . والخبر بإيجاز فى معجم البلدان (التسرير ، الجنينة) .

(٣) منقوص الاسم ، عنى به أنه مصغر أسلم . أعوج اسم الأب ، لأن الأحنف هو الأعوج الرجل .

(٤) التسرير : موضع من بلاد عكل . الأصل والتيمورية : « من النسرين » صوابه فى معجم البلدان ، وروايته : « دخان رمث من التسرير » .

إنّى أَحِنُّ إلى أدخان مُحتطَبٍ من الُجنينةِ جزلٍ غير موزونِ[(١)]

فأمر الوليد أن يُحمل إليه من رمثٍ سليخة[(٢)]، فوافَوه وقد مات[(٣)] فهو عند الخليفة، وببلدٍ ليس فى الأقاليم أريَفُ منه، ولا أخصبُ جَناباً، لحنّ إلى سَليخة رمثٍ[(٤)]، حبًّا للوطن.

وحكى أبو عبد الله الجعفرى عن عبد الله بن إسحاقَ الجعفرىّ قال: أُمرتُ بصهريجٍ لى فى بستانٍ، عليه نخلٌ مُطلٌّ [أن يُملأ[(٥)]]، فذهبتُ بأمِّ الحسام[(٦)] المرّيّة وابنتها ـ وهى زوجتى ـ فلمّا نظرتْ أمُّ الُحسام إلى الصِّهريج قعدتْ عليه وأرسلتْ رجليها فى الماء، فقلت لها: ألا تَطُوفين معنا على هذا النَّخل، لتجنىَ ماطابَ من ثَمَرِه؟ فقالت: ها هنا أعجبُ إلىّ. فدُرنا ساعةً وتركناها، ثم انصرفنا وهى تُخضخِض رجليها فى الماء وتحرِّكُ شفتيها، فقلت: ياأمّ الُحسام، لا أحسبك إلا وقد قلتِ شعراً. قالت: أجل. ثم أنشدتنى:

أقول لأدنى صاحبيَّ أُسِرُّه وللعين دمعٌ يَحدِرالكُحلَ ساكبُه

---

(١) الأدخان: جمع دخن، بالتحريك، وهو الدخان. والجنينة: ثنى من التسرير، وهو واد من ضرية. غير موزون، عنى أنه خفيف.

(٢) الرمث، بالكسر: شجرة من الحمض. والسليخة: خشبه اليابس ليس فيه مرعى. وفى الأصل والتيمورية: «من رمل سليحة»، والوجه ما أثبت.

(٣) ط: «فوافوه به». وكلمة «به» لم ترد فى النسختين.

(٤) ط والتيمورية: «رمل سليحة».

(٥) التكملة من التيمورية.

(٦) فى محاضرات الراغب ٢: ٢٧٦: «زينب أم حسانة الضبية». والخبر فيه مختصر محرف.

لعمرى لنِهىٌ باللوى نازح القَذَى نقىُّ النواحى غير طَرْق مَشاربُه(1)

بأجـــرعَ مِمراعٍ كأنَّ رياضَه سِحَاب من الكافور والمسك شائبُه(2)

أحبُّ إلينا من صَهاريج مُلِّئت للعب فلم تَملُح لدىّ ملاعبُه

فياحبّذا نجدٌ وطيبُ ترابه إذا هضَبتْه بالعشىِّ هواضبُه(3)

وريح صَباً نجدٍ إذا ما تنسَّمتْ ضحىً أوسرت جُنحَ الظلام جنائبه(4)

وأنشد أبو النصر الأسدىّ(5) : ٢٣٦ و

أحبُّ الأرضَ تسكنُها سليمى وإن كانت توارثها الجُدوبُ(6)

وما دهرى بحبِّ تراب أرضٍ ولكن من يحلُّ بها حبيبُ(7)

وأنشدنى حمّاد بن إسحاق الموصلى :

أَحَبُّ بلاد الله ما بين صارةٍ إلى غطفانَ إذ يصوب سحابُها(8)

---

(١) الطرق ، بالفتح : المطروق ، الذى تبول فيه الإبل وتبعر .

(٢) الأجرع : المكان الواسع فيه حزونة وخشونة . والممراع : من قولهم مرع الوادى : أخصب وأكلأ . وفى النسختين : « مجراع » ، صوابه من معجم البلدان (نجد) . وفى الأصل والتيمورية : « كأن رجاجه » . وفى معجم البلدان : « كأن رياحه » ا ، والوجه ما أثبت .

(٣) يقال هضبتهم السماء ، أى مطرتهم .

(٤) الجنائب : جمع جنوب ، وهى الريح التى تقابل ريح الشمال .

(٥) الشعر فى ديوان المعانى ٢ : ١٨٩ لأحمد بن إسحاق الموصلى .

(٦) الجدوب : جمع جدب . التيمورية : « الجذوب » ، تصحيف .

(٧) يقال ما دهرى بكذا وما دهرى كذا ، أى همى وإرادتى وعادتى . ط والتيمورية : « وما عهدى » ، وأثبت ما فى الأصل وديوان المعانى .

(٨) معجم البلدان (منعج) ومحاضرات الراغب ٢ : ٢١٦ وزهر الآداب ٦٨٢ والقالى ١ : ٨٣ . وصارة : جبل فى ديار بنى أسد . ورواية سائر المصادر :

أحب بلاد الله ما بين منعج إلى وسلمى أن يصوب سحابها

بلاد بها نيطت علىَّ تمائمى وأول أرضٍ مسَّ جلدى ترابُها[١]

قال : ولمّا حُملت نائلة بنتُ الفَرافِصة[٢] الكلبية إلى عثمان بن عفّان رضى الله عنه ، كرهتْ فراق أهلها ، فقالت لضبّ أخيها[٣] :

ألستَ ترى بالله يا ضَبُّ أنّنى مرافقةٌ نحوَ المدينةِ أركُبا[٤]

أما كان فى أولاد عوف بن عامرٍ لكَ الويل ما يُغنى الخباء المطنَّبا[٥]

أبَى اللهُ إلاّ أن أكون غريبةً بيثربَ لا أمًّا لدىَّ ولا أبا

قال : وزُوِّجت من أبان[٦] فى كلبٍ امرأةٌ ، فنظرتْ ذات يومٍ إلى ناقةٍ قد حنَّت فذكرتْ بلادَها وأنشأتْ تقول :

ألا أيُّها البَكْرُ الأَبانىُّ إنّنى وإياكَ فى كلبٍ لمغتربانِ

تحِنُّ وأبكى ذا الهوى لصبابةٍ وإنّا على البَلوَى لمصطحبانِ[٧]

وإنَّ زماناً أيُّها البكرُ ضمَّنى وإيّاكَ فى كلبٍ لشرُّ زمانِ

وقال آخر :

ألاَ يا حبّذا وطنى وأهلى وصَحْبى حين يُدَّكَرُ الصِّحابُ

وما عَسَلٌ ببارد ماء مُزنٍ على ظمأٍ لشاربه يُشابُ

بأشهَى من لقائكمُ إلينا فكيف لنا به ، ومتَى الإيابُ

---

(١) معجم البلدان : « بها حل الشباب تميمتى » .

(٢) فى اللسان : « كل مافى العرب فرافصة بضم الفاء ، إلا فرافصة أبا نائلة امرأة عثمان رحمه الله ، بفتح الفاء لاغير » .

(٣) القصة بتفصيل فى الأغانى ١٥ : ٦٧ .

(٤) التيمورية والأغانى : « ياضب بالله » . والأركب : جمع ركب .

(٥) الأغانى : « لقد كان فى أبناء حصن بن ضمضم » .

(٦) هم أبان بن دارم بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم . وفى حماسة ابن الشجرى ١٧٣ : « من بنى مازن » .

(٧) ابن الشجرى : « إن ذا لبلية » .

وأنشد الغنويُّ لبعض الهذليين[1] :

وأرى البلادَ إذا سكنتِ بغيرها جَدْباً وإن كانت تُطَلُّ وتُجنبُ[2]

وأرى العدوَّ يحبُّكم فأحبُّه إن كان يُنسَب منك أو يتَنَسَّبُ[3]

وأرى السَّمِيَّة باسمكم فيزيدها حبًّا إلى . . . .[4] ٢٣٦ ط

قال : ومن هذا أخذ الطائيُّ قوله :

كم منزلٍ فى الأرض يألفُه الفتى وحنينُه أبدًا لأوّلِ منزلِ[5]

وأنشد أبو عمرٍو البَجَلى :

تمتَّع من شميم عَرارِ نجدٍ فما بعد العشيّةِ مِن عَرارِ[6]

(١) هو أبو ذؤيب الهذلى . ديوان الهذليين ١ : ٦٣ وشرح أشعار الهذليين للسكرى ١ : ٢٠٥ . وفى شرح السكرى أنها تروى أيضاً لرجل من خزاعة . وقال زبير : هى لابن أبى دباكل .

(٢) تطل : يصيبها الطل . تجنب : تصيبها الجنوب . ومع الجنوب خير وتلقيح . وفى الديوان والشرح : « وتخصب » ، بالبناء للمفعول وللفاعل .

(٣) وكذا فى الديوان . وفى التيمورية : « منكم أو تنسب » ، وفى شرح الديوان : « منك أو لا ينسب » .

(٤) بياض فى النسختين ، والبيت لم يرو فى الديوان ولا فى شرحه .

(٥) ديوان أبى تمام ٤٥٧ من أبيات أربعة وأخبار أبى تمام للصولى ٢٦٢ ، والمحاسن والمساوى ١ : ٤٩١ وديوان المعانى ٢ : ١٨٨ . وذكر الصولى عن محمد ابن داود أنه مأخوذ من قول ابن الطثرية :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنا

وقال : وهو عندى بقول كثير أشبه :

إذا وصلتنا خلة لتزيلها أبينا وقلنا : الحاجبية أول

ونحوه فى دلائل الإعجاز ٢٤٦ .

(٦) للصمة بن عبد الله القشيرى . الحماسة ١٢٤٠ بشرح المرزوقى . وهى =

أَلا يا حبّذا نَفَحاتُ نجدٍ ورِيّا روضِه غِبَّ القِطارِ
وعيشك إذْ يحُلُّ القومُ نجداً وأنت على زمانك غيرُ زارِ
شهورٌ ينقضِينَ وما شَعَرنا بأنصافٍ لهنَّ ولا سِرارِ
فأمّا ليلهنَّ فخيرُ ليلٍ وأقصر ما يكون من النَّهارِ[1]

وقال آخر[2] :

ألاَ هل إلى شمِّ الخُزَامَى ونظرةٍ إلى قَرقرَى قبلَ المماتِ سبيلُ[3]
فأشربَ مِن ماء الحجَيلاءِ شربةً يُداوَى بها قبلَ المَماتِ عليلُ[4]
فيا أثَلاثِ القاع ، قلبي موكَّلٌ بكنَّ وجدوى خيرِكنَّ قليلُ
ويا أَثَلاثِ القاع قد ملَّ صُحبتى مَسيرِى فهل فى ظِلِّكنَّ مَقيلُ

= بدون نسبة فى أمالى القالى ١ : ٣٢ والمحاسن ١ : ٥٠٦ وزهر الآداب ٦٨٥ ومعجم البلدان (الضمار ، المنيفة) . والعرار : كسحاب : بقلة صفراء ناعمة طيبة الريح ، الواحدة عرارة .

(١) فى المحاسن : « وأنضر ما يكون » وفى معجم البلدان :

تقاصر ليلهن فخير ليل وأطيب ما يكون من النهار

(٢) هو يحيى بن طالب الحنفى كما فى الأغانى ٢٠ : ١٤٩ ، ١٥٠ عند ترجمته وذكر أنه من شعراء الدولة العباسية . وكذا نسب فى معجم البلدان (القاع ، قرقرى ، الحجيلاء) وأمالى القالى ١ : ١٢٣ . وفى حماسة ابن الشجرى ١٦٤ خطأ : « يحيى ابن أبى طالب » .

(٣) فى الأصل والتيمورية : « بنظرة » ، وأثبت ما فى سائر المراجع .

(٤) الحجيلاء : بئر باليمامة . وفى الأصل والتيمورية : « الحجيلات » ، صوابه فى معجم البلدان والأغانى واللآلى ٣٦٣ .

أُريدُ انحدارًا نحوها فيردُّنى ويمنعنى دَيْنٌ علىَّ ثقيلُ[١]
أحدِّث نفسى عنكِ إذْ لستُ راجعًا إليك ، فحزنى فى الفؤادِ دخيلُ[٢]

وأنشد للمجنون :

إلى عامرٍ أصبو ، وما أرضُ عامرٍ هى الرَّملةُ الوعساء والبلد الرَّحبُ[٣]
معاشِر بيضٌ لو وردتَ بلادَهم وردتَ بُحورًا ماؤها للنَّدى عذبُ
إذا ما بدا للنـــاظرين خيامُهم فثَمَّ العِتاقُ القُبُّ والأسَل القَضْبُ[٤]

وأنشدنا المازنى[٥] :

اقرأ على الوشَلِ السَّــلامَ وقل له : كلُّ الموارد مُذ هُجرتَ ذميمُ[٦]
جَبَل يُنيف على الجبـال إذا بدا بين الغدائر والرِّمال مقيمُ[٧] ٢٣٧ و

---

(١) كان قد خرج إلى مدينة الرى هرباً من دين ثقيـل عليه . ويذكر أبو الفرج أن الرشيد غنى هذا الشعر فسأل عن قائله ، فلما علم بقصته كتب إلى عامله بالرى بقضاء دينه وإعطائه نفقة ، وإنفاذه إليه على البريد ، فوصل الـكتاب يوم مات يحيي بن طالب .

(٢) فى الأصل والتيمورية : « واجدا » ، تحريف صوابه فى معجم البلدان .

(٣) الوعساء : السهلة اللينة .

(٤) القب : الضوامر . والأسل : الرماح ، والقضب من الشجر ، كل شجر سبطت أغصانه وطالت .

(٥) المازنى ، هو أبو عثمان بكر بن محمد بن بقية ، روى عن أبى عبيدة والأصمعى وأبى زيد ، وعنه المبرد وجماعة . توفى سنة ٢٣٠ وقيل ٢٤٩ أو ٢٤٨ . بغية الوعاة ٢٠٢ وإنباه الرواة ١ : ٢٤٦ وفيه مراجع ترجمته .

(٦) لأبى القمقام الأسدى فى الحماسة ١٣٧٧ بشرح المرزوقى ومعجم البلدان (الوشل) .

(٧) فى معجم البلدان : « بين الربائع والجثوم » . والبيت وتاليه لم يرويا فى الحماسة .

تسرى الصَّبـا فتبيتُ فى ألواده ويبيت فيه من الجنوب نسيم[١]
سَقيًا لظلِّكَ بالعشىّ وبالضُّحى ولبرد مائكَ والميـــاهُ حميمُ
لو كنت أملك برد مائك لم يذقْ ما فى قلاتِكَ ما حييتُ لئيم[٢]

وقالت امرأةٌ من عقيل :

خليليَّ من سكانِ ماوانَ هاجنى هبوبُ الجُنوبِ مَرُّها وابتِسامها[٣]
فلا تَسـألانى ما ورائى فإنَّنى بمنزلةٍ أعيـا الطبيبَ سَقامُهـــا

وقال آخر :

ألا ليتَ شعرى والحوادثُ جَمّةٌ متى تجمعُ الأيامُ يومًا لنـا الشَّملا
وكلُّ غريبٍ سوف يُمسِى بذِلَّةٍ إذا بانَ عن أوطانه وجفا الأهلا

وقال آخر :

ألا ليتَ شعرى يُجمعُ الشَّملُ بيننا بصحراءَ من نجرانَ ذاتِ ثَرًى جعدِ[٤]
وهل تَنفُضَنَّ الرِّيحُ أفنـانَ لِمَّتى على لاحقِ الرِّجلين مضطمِرٍ وَردِ[٥]

---

(١) الألواذ : المنعطفات والنواحى ، واحدها لوذ . وفى معجم البلدان : « فى أكنافه » .

(٢) فى الحماسة ومعجم البلدان : « منع مائك » . والقلات : جمع قلت ، وهى حفرة فى الجبل يستنقع فيها ماء المطر .

(٣) لعلها قصدت ابتسام سحاب الجنوب عن البرق .

(٤) التيمورية : « يجمع الدهر » . وفى ديوان المعانى ٢ : ١٨٨ : « هل تحثن ناقتى » .

(٥) اللاحق : الضامر . وفى ديوان المعانى : « لاحق الإطلين » ، وهو الأمثل والإطل : الخاصرة . والمضطمر: الضامر .

وهل أردنَّ الدَّهرَ حِسْىَ مُزاحمٍ وقدْ ضربتْه نفحةٌ من صَبا نجدِ[١]

وقال آخر :

وأزلنى طولُ النَّوى دارَ غَرْبةٍ إذا شئتُ لاقيتُ امرأً لا أشاكلُه[٢]

فحامقتُه حتَّى يقـــالُ سجيّةٌ ولو كان ذا عقلٍ لـكنتُ أعاقلُه

ولو كنتُ فى قومى وجُلِّ عشيرتى لألفَيتُ فيهم كلَّ خِرقٍ أواصله

وأنشد لذى الرمة :

إذا هبَّت الأرواحُ من نحو جانبٍ به أهلُ مىٍّ هاجَ قلبى هبوبُهـا[٣]

هوًى تَذرِف العينانِ منه ، وإنّما هوى كلِّ أرض حيث حلّ حبيبُها[٤]

وقال أبو عثمان[٥] :

رأيت عبداً أسود حبشيًّا لبنى أَسِيد[٦] قدم من شِقِّ اليمامة فصـار ناظورًا[٧] ، وكان وحشيًّا مجنونًا[٨] لطول الغُربة مع الإبل ، وكان لا يلقى ٢٣٧ ظ

---

(١) ديوان المعانى : « حسمى مزاحم » ، وما هنا صوابه .

(٢) البيتان فى البيان ١ : ٢٤٥ و٢ : ٣٣٥ و ٤ : ٢١ وعيون الأخبار٣ : ٢٤ والغربة ، بالفتح : النوى والبعد ؛ وبالضم : الاغتراب .

(٣) ديوان ذى الرمة٦٦ والأغانى ١٦: ١٢٥ . وفى الديوان : « هاج شوقى » .

(٤) فى الديوان والأغانى : « كل نفس » .

(٥) الخبر فى البيان ٢ : ٧١ — ٧٢ .

(٦) فى الأصل وبعض نسخ البيان : « أسد » .

(٧) الناظور للزرع والنخل وغيرهما : حافظه ، وهو بالطاء المعجمة من لغة أهل السواد ، قال بعضهم : وليست بعربية محضة . وفى الأصـــل : « ناظوريا » وفى التيمورية « ناطوريا » ، صوابه فى البيان .

(٨) فى البيان : « محرما » .

إلاّ الأَكَرَةَ ، فلا يفهم عنهم ولا يستطيع إفهامَهم ، فلمّا رآنى سكن إلىَّ ، وسمعتُه يقول : لعَن الله أرضًا ليس بها عَرَب[١] ، قاتل الله الشاعرَ حيث يقول :

* حرُّ الثرى مُستعرب التُّرابِ *

أبا عثمان ، إنَّ هذه العُرَيبَ فى جميع الناس كقدار القُرحة فى جِلْد الفرس ، فلولا أنَّ الله رقَّ عليهم فجعلهم فى حَشَاةٍ[٢] لطمست هذه العجم آثارهم[٣] . أترى الأعيار إذا رأت العِتاقَ لا تَرى لها فضلا ! والله ماأمر اللهُ نبيَّه صلى الله عليه وسلم بقتلهم ، إذْ لا يدينون بدينٍ ، إلّا لضنِّه بهم ، ولا تَرَكَ قَبولَ الجزيةَ منهم إلّا تنزيهًا لهم .

وقيل لأعرابىٍّ : ما السُّرور ؟ فقال : أوبةٌ بغير خيبة ، وألفةٌ بعد غيبة .

وقيل لآخر : ما السُّرور ؟ قال : غيبةٌ تُفيد غنًى ، وأوبةٌ تُعقِب مُنًى . وأنشأ يقول :

وكنت فيهم كمطورٍ ببلدته يُسَرُّ أن جَمع الأوطانَ والمطرا[٤]

وأحسن ما سمعنا فى حبِّ الوطن وفَرحة الأوبة قوله[٥] :

---

(١) فى الأصل والتيمورية : « عرف » ، صوابه فى البيان .

(٢) يقال أرض حشاة : سوداء لا خير فيها ، أو أرض قليلة الخير . وفى البيان: « حاشية » .

(٣) البيان : « هذه العُجمان آثارهم » .

(٤) فى الحيوان ٣ : ٢٢٨ وديوان المعانى ٢ : ١٩٠ : « فسر أن جمع » .

(٥) هو عبد ربه السلمى ، أو سليم بن ثمامة الحنفى ، أو معقر بن حمار البارقى ، كما فى اللسان (عصا) . ونسب إلى مضرس الأسدى فى البيان ٣ : ٢٤٠ . ونسب فى المؤتلف ٩٢ والاشتقاق ٤٨١ إلى معقر بن حمار .

وياسَرتها فاستعجلتْ عن قِناعِها وقد يستخفُّ[الطامعين] المُياسر[(١)]

مشمِّرة عن ساق خَدلاءَ حُرَّة تُجارى بنيها مرّةً وتُحاضِرُ[(٢)]

وخبَّرها الرُّوَّاد أن ليس بينها وبين قُرى نجرانَ والدَّربِ صافرُ[(٣)]

فألقت عصاها واستقرَّت بها النوى كما قَرَّ عينًا بالإياب المسافرُ[(٤)]

وقيل لبعض الأعراب : ما الغبطة ؟ قال : الكفاية مع لزوم الأوطان[(٥)] ، والجلوسُ مع الإخوان . قيل : فما الذّلّة ؟ قال : التنقُّل في البلدان ، والتنحِّى عن الأوطان .

وقال آخر :

طلب المعاشِ مفرِّقٌ بين الأحبَّة والوطنْ

ومصيِّرٌ جَلْدَ الرجا ل إلى الضَّراعة والوهَن

حتّى يُقادَ كما يُقا دُ النِّضو في ثِنْى الرَّسَنْ

ثم المنيَّة بعدهُ فكأنه ما لم يَكُنْ

ووجدنا من العرب : مَن قد كان أشرفَ على نفسه ، وأفخر في حسبه ؛ ومن العَجم : من كان أطيبَ عنصراً وأنفسَ جوهراً — أشدَّ حنيناً إلى وطنه ، ونزاعًا إلى تُربته .

---

(١) فى التيمورية : « وباشرتها » ، و « الباشر » . وقبل الكلمة الأخيرة من البيت بياض فى النسختين بمقدار كلة جعل موضعه فى ط « الطامعين » التى أثبتها .

(٢) الخدلاء : الممتلئة الساق . وفى النسختين و ط : « حولاء » . وفى التيمورية بعدها : « جسرة » .

(٣) الرواد : جمع رائد . التيمورية : « الوارد » . وفى اللسان (كفر عصا) : « نجران والشام كافر » . وفسر الكافر فى الموضعين بأنه المطر .

(٤) يضرب مثلا لكل من وافقه شىء فأقام عليه .

(٥) فى المحاسن والمساوى ١ : ٤٩٠ : « ولزوم الأطان » .

وكانت الملوك على قديم الدّهر لا تؤثر على أوطانها شيئاً .

٢٣٨ و

وحكى المُوبَذ[١] أنَّه قرأ فى سيرة إسْفَنْدِيار بن يستاسف[٢] بن لُهْراسف[٣] ، بالفارسيّة ، أنّه لما غزا بلادَ الخزر ليستنقذ أختَه من الأسر ، اعتلَّ بها ، فقيل له : ما تشتهى ؟ قال : شَمَّةً من تُربة بلخ ، وشَربةً من ماء واديها .

واعتلَّ سابور ذو الأكتاف[٤] بالرُّوم ، وكان مأسورًا فى القِدّ ، فقالت له بنت ملك الرُّوم وقد عشِقَتْه : ما تشتهى مما كان فيه غذاؤك ؟ قال : شَربةً من ماء دِجْلة ، وشَمَّةً من تربة إصطخر ! فغبرت عنه أيّامًا ثم أتته يومًا بماء الفرات ، وقَبضةً من تراب شاطِئِه[٥] ، وقالت : هـذا من

---

(١) الموبذ : قاضى المجوس ، ورئيس الكهنة . فارسى معرب . وانظر التنبيه والإشراف ٩٠ .

(٢) فى الأصل والتيمورية : « ويستاسف » ، وإنما المراد الابن فقط . وانظر معجم استينجاس ٥٨ والتنبيه والإشراف ٨٧ . ويقال فى والده أيضاً « كيشتاسب » كما يأتى بصور أخرى فى كتب العرب . انظر الطبرى ٢ : ٥٦ . ولفظه فى الفارسية « گشتاسپ ». استينجاس ١٠٩١ .

(٣) فى الأصل: «نهراسف» بإهمال نقط الحرف الأول ، وإنما هو«لهراسف» كما فى التيمورية ومعجم استينجاس ١١٣٣ . ولفظه فى الفارسية : « لُهراسب » .

(٤) هو التاسع من ملوك الفرس الساسانية ، وهو سابور بن هرمز بن نرسى ابن بهرام . ذكر المسعودى فى التنبيه ٨٨ أنه ملك ٧٢ سنة . وهو غير سابور بن أردشير بن بابك فإن هذا هو الثانى من ملوك الساسانية . التنبيه ٨٧ . وانظر الطبرى ٢ : ٥٩ ، ٦٦ . والخبر فى محاضرات الراغب ٢ : ٢٧٦ موجزا .

(٥) التيمورية : « شاطبه » ، تحريف .

ماء دِجلة ، وهــذه من تربة أرضك ، فشرب واشتمَّ من تلك التُّربة فنَقه من مرضِه[1] .

وكان الإسكندرُ الرُّومىّ جال فى البُلدانَ[2] وأخْرَبَ إقليم بابل ، وكنز الـكنوزَ وأبادَ الخَلْق ، فمرِض بحَضْرة بابل[3] ، فلما أشفَى أوصى إلى حكمائه ووزرائه أن تحمل رِمَّته فى تابوتٍ من ذهبٍ إلى بلده ؛ حبًّا للوطن .

ولمَّا افتتح وَهرِز بن شيرزاذ بن بهرام جور[4] اليمن ، وقتـل ملك الحبشة المتغلب ـ كان[5] ـ على اليمن ، أقام بها عاملاً لأنوشِروان ، فبنى نجران اليمن — وهى من أحصن[6] مدن الثغور — فلمّا أدركته الوفاةُ أوصى ابنه شيرزاذ أن يحمل إلى إصطخر ناوسَ أبيه ، ففعل به ذلك .

فهؤلاء الملوك الجبابرة الذين لم يفتقدوا فى اغترابهم نعمة ، ولا غادروا فى أسفارهم شهوة ، حنُّوا إلى أوطانهم ، ولم يؤثروا على تُربهم ومساقط رءوسهم شيئاً من الأقاليم المستفادة بالتغازى[7] وللدن المغتصبة من ملوك الأمم .

وهؤلاء الأعراب مع فاقتهم وشدّة فقرهم يحنُّون إلى أوطانهم ، ويقنعون بتُربهم ومحالِّهم .

---

(١) نقه من مرضه : برئ ولا يزال به ضعف، التيمورية : «فاق» ، تحريف .

(٢) التيمورية : « جال البلدان » ، تحريف . وجال فعل لازم .

(٣) الحضرة : قرب الشىء ، يقال كنا بحضرة ماء ، أى عنده . وفى النسختين: « بحظيرة بابل » ، تحريف .

(٤) وهرز ، سبقت ترجمته فى ١ : ٢٠١ .

(٥) كلمة « كان » ساقطة من التيمورية .

(٦) التيمورية : « أحسن » بالسين .

(٧) التغازى : تفاعل من الغزو ، وإن لم تصرح به المعاجم .

ورأيتُ المتأدِّب من البرامكة المتفلسف منهم ، إذا سافر سفراً أخذ معه من تربة مولده فى جِرابٍ يتداوى به .

ومن أصدق الشواهد فى حبّ الوطن أن يوسف عليه السلام ، لمّا أدركته الوفاة أوصَى أن تُحمَلَ رِمّته إلى موضع مقابر أبيه وجدّه يعقوب وإسحاق وإبراهيم عليهم السلام .

٢٣٨ ظ

وروى لنا أنّ أهل مِصر منعوا أولياءَ يوسف من حمله ، فلمّا بعث الله موسى عليه السلام وأهلك على يديه فرعَون وغيره من الأمم ، أمره أن يحمل رِمّته إلى تربة يعقوب بالشّام ، وقبره عَلَمٌ بأرض بيت المقدس بقرية تسمّى حسامى[1] .

وكذلك يعقوب ، مات بمصر فحملت رِمّته إلى إيلياء[2] ، قرية بيت المقدس ، وهناك قبر إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام .

---

(١) كذا فى النسختين ، وإنما هى « حِسمَى » . وفى معجم البلدان أنها أرض بين أيلة وجانب تيه بنى إسرائيل . وفى التكوين ٥٠ : ٢٦ : « ثم مات يوسف وهو ابن مائة وعشر سنين ، فحنطوه ووضع فى تابوت فى مصر » . لكن فى الطبرى ١ : ١٨٧ : « وأوصى يوسف أن يحمل جسده حتى يدفن إلى جنب آبائه ، فحمل موسى تابوت جسده عند خروجه من مصر » .

فى التكوين ٥٠ : ٥ قول يوسف : « أبى استحلفنى قائلا : ها أنا أموت ، فى قبرى الذى حفرته لنفسى فى أرض كنعان هناك تدفننى . فالآن أصعد لأدفن أبى وأرجع » . وفى الطبرى ١ : ١٨٧ عند الكلام على يعقوب أنه « تقدم إلى يوسف عند وفاته أن يحمل جسده حتى يدفنه بجنب أبيه إسحاق ، ففعل يوسف ذلك به ومضى به حتى دفنه بالشام ثم انصرف » .

ومن حبِّ النـاس للوطن ، وقناعتهم بالعطن ، أنّ إبراهيم لمّا أتى بهاجَر أمِّ إسماعيل مكّة فأسكنها ، وليس بمكّة أنيسٌ ولا ماء ، ظمئ إسماعيل فدعا إبراهيمُ ربَّه فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ[1] ﴾ ، أجابَ الله دعاءه إذ رضى به وطنًا، وبعث جبريل عليه السلام فركض موضعَ زمزم برجله ، فنبع منه زمزم .

ومرّ بإسماعيل وأمِّه فِرقةٌ من جُرهم ، فقالوا : أتأْذنون لنا أن ننزل معكم ؟ فقالت هاجر : نعَمْ ولا حقَّ لكم فى الماء ، فصار إسماعيل وولدُه قُطَّانَ مكةَ ، لدعوة إبراهيم عليهما السلام .

نعم ، وهى مع جدوبتها خير بقاع الأرض ، إذ صارت حرمًا ، ولإسماعيل وولده مَسكنًا ، وللأنبياء مَنسِكًا ومجمًّا على غابر الدّهر .

وممّن تمسّك من بنى إسرائيل عليه السلام بحبِّ الأوطان خاصّةً ، ولدُ هارون ، وآلُ داود ؛ لم يمت منهم ميِّت فى إقليم بابل فى أىِّ البُلدان مات ، إلَّا نبشُوا قبرَه بعد حول ، وحملت رِمَّته إلى موضع يدعى الحصاصة بالشّام فيُودَعُ هناك حولاً ، فإذا حال الحولُ نُقِلت إلى بيت المقدس .

وقال الفرزدق[2] :

لَكِسرى كان أعقلَ من تميم ... ليـالىَ فرَّ من بلد الضِّبابِ

فأسـكنَ أهلَه ببلادِ ريفٍ ... وجنّاتٍ وأنهـارٍ عِذابِ

---

(١) الآية ٣٧ من سورة إبراهيم .

(٢) لم أجد الشعر فى ديوانه . ونسب فى الحيوان ١ : ٢٥٦ إلى أبى ذباب السعدى ، وفى ٦ : ١٠١ إلى التيمى .

فصـــار بنُو بنيهِ بهـــا مُلوكًا   وصِرْنا نحن أمثالَ الـكلابِ
فلا رحِمِ الإلٰهُ صَـــدى تميمٍ   فقد أزرَى بنَا فى كلِّ بابِ

وقال آخر فى حبّ الوطن :

سقى الله أرضَ العـاشقين بغيثِهِ   وردَّ إلى الأوطان كلَّ غريبِ
وأعطَى ذَوِى الهيئاتِ فوقَ مُنامُ   ومَتَّع محبوباً بقرب حبيبِ

تمت الرسالة فى الحنين إلى الأوطان من كلام أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، بعون الله ومنّه ، وبتمامها تم جميع الجزء من كلامه ، والله الموفق للصّواب برحمته ، والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه الطّيّبين الطاهرين وسلامه ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

أنهاه مطالعة العبد الفقير أحمد شهاب الدين المصرى .

استدراك وتذييل

١ : ١٢ س ١٣ من الحواشى : «اسم أبيه أمية بن عبدة » . هذا ما ورد فى هذا الموضع من الجمهرة ص ٢١٣ . لكن فى ص ٢٢٩ منها « أمية بن أبى عبيدة بن همام بن الحارث » . وهذا يطابق ما فى الإصابة ٩٣٦٠ .

١ : ٦٠ س ٦ : « لأنسوك أدب البصريين » . كذا وردت فى الأصل بالباء . وأرى أن صوابها « المصريين » . وجاء فى حسن المحاضرة للسيوطى ٢ : ١٩٩ : « من أقام بمصر سنة وجد فى أخلاقه رقة وحسناً » .

١ : ٨٣ س ١ : « فيروزا شاهى » جاء فى جمهرة أنساب العرب ٨٩ أن أم يزيد هى « شاهفريد بنت كسرى بن فيروز بن يزدجرد » .

الفهارس الفنيـــة

١ — فهرس القرآن

مرتباً حسب المواد اللغوية

٢ — فهرس الحديث

٣ — فهرس الأمثال

٤ – فهرس الأشعار

(١) ويقال إنه للفضل بن العباس.

أجزاء أبيات

٥ — فهرس الأرجاز

٦ — فهرس اللغة(*)

(ا) الألفاظ العربية

(*) يشمل ما فسره الجاحظ وقد وضعت أرقامه بين قوسين (   ) ، وما قمت بتفسيره فى الحواشى وقد جرد من الأقواس . وما وضع تحته خط فهوما لم يرد فى المعاجم . كما يشمل الفهرس أيضاً مسائل العربية .

ب ـ الكلمات غير العربية

٧ - فهرس الأعلام (*)

(*) الأرقام الموضوعة بين قوسين تدل على مواضع الترجمة . وما وضع بعده (ح) فهو مما ورد فى الحواشى .

---

(١) تهذيب التهذيب ٢ : ٨٨ .

(خ)

(د)

(ش)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ن)

٨ — فهرس القبائل والطوائف ونحوها

٩ — فهرس البلدان والمواضع ونحوها

١٠ — فهرس الكتب (*)

(*) ما قرن منها بنجم فهو من تأليف الجاحظ .

مراجع الشرح والتحقيق

أخبار أبي تمام للصولي . لجنة التأليف ١٣٥٦ .
أخبار الظراف والمتماجنين ، لابن الجوزي . دمشق ١٣٤٧ .
أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، القفطي . السعادة ١٣٢٦ .
أخبار أبي نواس ، لابن منظور . الاعتماد ١٣٤٣ .
أدب الدنيا والدين ، للماوردي . الأميرية ١٣٤٣ .
أساس البلاغة ، للزمخشري . دار الكتب ١٣٤١ .
الاستيعاب ، لابن عبد البر . حيدر أباد ١٣١٨ .
أسد الغابة ، لابن الأثير . الوهبية ١٢٨٦ .
أسماء خيل العرب ، لابن الأعرابي . ليدن ١٩٢٨ م .
أسماء المغتالين من الأشراف ، لابن حبيب (في نوادر المخطوطات) .
الاشتقاق ، لابن دريد . تحقيق عبد السلام هارون . السنة ١٣٧٨ .
الإصابة ، لابن حجر . السعادة ١٣٢٣ .
إعتاب الكتاب ، لابن الأبار . تحقيق د . صالح الأشتر . دمشق ١٣٨٠ .
اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي . لجنة التأليف ١٣٥٦ .
الأغاني ، لأبي الفرج . التقدم ١٣٢٣ .
الأغاني ، لأبي الفرج . دار الكتب من سنة ١٣٤٥ .
الاقتضاب ، لابن السيد . بيروت ١٩٠١ م .
الإكليل ، للهمداني . تحقيق الأب أنستاس ماري . بغداد ١٩٣١ م .
ألف ليلة وليلة . بولاق ١٢٥١ .
الألفاظ الفارسية المعربة ، لأدى شير . بيروت ١٩٠٨ م .
أمالي الزجاجي . تحقيق عبد السلام هارون . المدني ١٣٨٢ .
أمالي القالي . دار الكتب ١٣٤٤ .
أمالي المرتضى . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . الحلبي ١٣٧٣ .
إمتاع الأسماع ، للمقريزي . تحقيق محمود شاكر . لجنة التأليف ١٩٤١ .
إنباه الرواة ، للقفطي . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . دار الكتب ١٣٦٩
الأنساب ، للسمعاني ، ليدن ١٩١٢ م .
الأوراق ، للصولي . الصاوي ١٩٣٦ م .
البخلاء ، للجاحظ . تحقيق د. طه الحاجري . دار الكاتب المصري ١٩٤٨ م .
البداية والنهاية ، لابن كثير . السعادة ١٣٢٨ .
بغية الوعاة ، للسيوطي . السعادة ١٣٢٦ .
بلوغ الأرب ، للآلوسي . الرحمانية ١٣٤٣ .
البيان والتبيين ، للجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون . لجنة التأليف ١٣٨١ .
تاريخ الإسلام ، للذهبي . القدسي ١٣٦٧ .

تاريخ بغداد ، للخطيب البغدادى . السعادة ١٣٤٩ .
تاريخ الطبرى . الحسينية ١٣٢٦ .
تحقيق النصوص ونشرها ، تأليف عبد السلام هارون . لجنة التأليف ١٣٧٤ .
تذكرة الحفاظ ، للذهبى . حيدر أباد ١٣٣٣ .
تذكرة داود الأنطاكى . الشرفية ١٣١٧ .
التربيع والتدوير ، للجاحظ . فى مجموعة رسائل الجاحظ . التقدم ١٣٢٤ .
تزيين الأسواق ، لداود الأنطاكى . الأزهرية ١٣٢٨.
تفسير أبى حيان ، البحر المحيط . السعادة ١٣٢٨ .
تفسير ابن كثير . الاستقامة ١٣٧٣ .
تقريب التهذيب ، لابن حجر . الهند ١٣٢٠.
التمثيل والمحاضرة ، للثعالبى . تحقيق عبد الفتاح الحلو . الحلبى ١٣٨١ .
التنبيه والإشراف للمسعودى . الصاوى ١٣٥٧ .
التنبيه على شرح مشكلات الحماسة ، لابن جنى . (مصورة خاصة من مخطوطة أحمد الثالث) .
تهذيب الأسماء واللغات ، للنووى ، تحقيق وستنفلد . طبع غوطا ١٢٤٢ .
تهذيب تاريخ ابن عساكر . لعبد القادر بدران . دمشق ١٣٣٢ .
تهذيب التهذيب ، لابن حجر . حيدر أباد ١٣٢٧ .
التيجان ، لوهب بن منبه . حيدر أباد ١٣٤٧ .
ثمار القلوب ، للثعالبى . الظاهر ١٣٢٦ .
الجامع الصغير ، للسيوطى . حجازى ١٣٥٢ .
جمع الجواهر ، للحصرى . الرحمانية ١٣٥٣.
جمهرة أشعار العرب ، لأبى زيد القرشى . بولاق ١٣٠٨ .
جمهرة الأمثال ، للعسكرى . بمباى ١٣٠٦ .
جمهرة أنساب العرب ، لابن حزم ، تحقيق عبد السلام هارون . دار المعارف ١٣٨٢ .
جنى الجنتين ، للمحبى . الترقى بدمشق ١٣٤٨ .
جوامع السيرة ، لابن حزم . تحقيق إحسان عباس وناصر الأسد . دار المعارف ١٩٥٦ م .
حاشية الصبان على الأشمونى . عيسى الحلبى ١٣٦٦ .
حسن المحاضرة ، للسيوطى . الموسوعات ١٣٢١.
حماسة البحترى . الرحمانية ١٣٢٩ م .
حماسة أبى تمام . السعادة ١٣٣١ .
حماسة ابن الشجرى . حيدر أباد ١٣٤٥ .
حياة الحيوان ، للدميرى . صبيح بالقاهرة .
الحيوان ، للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون . الحلبى ١٣٦٦.
خزانة الأدب ، للبغدادى . بولاق ١٢٩٩ .
الخصائص ، لابن جنى . تحقيق محمد على النجار . دار الكتب ١٣٧٦ .
خلاصة تذهيب الكمال ، للخزرجى . الخيرية ١٣٢٢ .
الخيل ، لأبى عبيدة . حيدر أباد ١٣٥٨ .
دلائل الإعجاز ، لعبد القاهر الجرجانى . السعادة ١٣٣٧ .
الديارات ، للشابشتى . تحقيق كوركيس عواد . بغداد ١٩٥١ م .

ديوان الأخطل . بيروت ١٨٩١ م .
» أبي الأسود الدؤلي (ضمن نفائس المخطوطات) . بغداد ١٣٧٣ .
» الأعشى . تحقيق جاير . ڤينا ١٩٢٧ م .
» امرئ القيس . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . المعارف ١٩٥٨ م .
» أوس بن حجر . تحقيق د . محمد يوسف نجم . بيروت ١٣٨٠ .
» البحترى . هندية ١٣٢٩ .
» بشار بن برد . شرح ابن عاشور . لجنة التأليف ١٣٦٩ .
» أبي تمام . بيروت ١٣٢٣ .
» جرير . الصاوى ١٣٥٣ .
» جميل . جمع وتحقيق د . حسين نصار . دار مصر ١٣٨٢ .
» حسان بن ثابت . الرحمانية ١٣٤٧ .
» حميد بن ثور . تحقيق الميمنى . دار الكتب ١٣٦٩ .
» ذى الرمة . كمبردج ١٩١٩ م .
» زهير ، بشرح ثعلب . دار الكتب ١٣٦٣ .
» زهير ، بشرح الشنتمرى . النعسانى ١٣٤٧ .
» الشماخ . السعادة ١٣٢٧ .
» أبي العتاهية . بيروت ١٩١٤ م .
» علقمة الفحل . الوهبية ١٢٩٣ .
» عنترة . الرحمانية .
» الفرزدق . الصاوى ١٣٥٤ .
» القطامى . ليدن ١٩٠٢ م .
» لبيد . تحقيق د . إحسان عباس . الكويت ١٩٦٢ م .
» أبي محجن الثقفى . الأزهار بالقاهرة .
» مسلم بن الوليد . تحقيق د . سامى الدهان . دار المعارف ١٣٧٦ .
» المعانى ، للعسكرى . القدسى ١٣٥٢ .
» النابغة الذبيانى . الوهبية ١٢٩٣ .
» أبي نواس . العمومية ١٨٩٨ م .
» الهذليين . دار الكتب ١٣٥٠ .
ذيل الأمالى ، القالى . دار الكتب ١٣٤٤ .
الرياض النضرة ، للمحب الطبرى . الحسينية ١٣٢٧ .
زهر الآداب ، للحصرى . تحقيق على البجاوى . الحلبى ١٩٥٣ م .
سرح العيون ، لابن نباتة . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . المدنى ١٣٨٣ .
سرقات أبي نواس ، لمهلهل بن يموت . تحقيق د . محمد مصطفى هدارة . مخيمر ١٩٥٧ .
سفر التكوين .
سمط اللآلى ، للراجكوتى . لجنة التأليف ١٣٥٤ .
سنن ابن ماجه ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى . الحلبى ١٣٧٣ .
سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزى . المؤيد ١٣٣١ .
السيرة ، لابن هشام . جوتنجن ١٨٥٩ م .

شذرات الذهب ، لابن العماد الحنبلي . القدسي ١٣٥١ .
شرح أشعار الهذليين ، للسكرى . تحقيق عبد الستار فراج ومراجعة محمود شاكر . المدنى ١٩٦٣م .
شرح الألفية ، للأشمونى . عيسى الحلبى ١٣٦٦ .
شرح الحماسة ، للتبريزى . تحقيق محمد محيى الدين . حجازى ١٣٥٨ .
شرح الحماسة ، للمرزوقى . تحقيق عبد السلام هارون . لجنة التأليف ١٣٧٢ .
شرح الشافية ، للرضى . حجازى ١٣٥٦ .
شرح شواهد الألفية ، للعينى (بهامش خزانة الأدب) .
شرح شواهد المغنى ، للسيوطى . البهية ١٣٢٢ .
شرح المقامات ، للشريشى . بولاق ١٣٠٠ .
شرح القصائد السبع الطوال ، لابن الأنبارى . تحقيق عبد السلام هارون . دار المعارف ١٩٦٣ .
شرح القصائد العشر ، للتبريزى . السلفية ١٣٤٣ .
شرح الكافية ، للرضى . الآستانة ١٢٧٥ .
شرح المعلقات السبع للزوزنى . السعادة ١٣٤٠ .
شرح نهج البلاغة ، لابن أبى الحديد . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . الحلبى ١٩٦٣ م .
شروح سقط الزند ، تحقيق لجنة أبى العلاء . دار الكتب ١٣٦٨ .
الشعر والشعراء ، لابن قتيبة . تحقيق أحمد شاكر . الحلبى ١٣٧٠ .
الشعور بالعور ، للصفدى . (مخطوطة دار الكتب رقم ١٨٣٤ تاريخ) .
شفاء الغليل ، للخفاجى . السعادة ١٣٢٥ .
صحيح البخارى ، بهامش فتح البارى .
صحيح مسلم . بعناية محمد فؤاد عبد الباقى . الحلبى ١٣٧٥ .
صفة الصفوة ، لابن الجوزى . حيدر أباد ١٣٥٦ .
الصناعتين ، للعسكرى . الحلبى ١٣٧١ .
طبقات الأطباء ، لابن أبى أصيبعة . الوهبية ١٢٩٩ .
طبقات الشعراء ، لابن سلام . تحقيق محمود شاكر . المعارف ١٩٥٢ م .
طبقات الشعراء ، لابن المعتز . تحقيق عبد الستار فراج . المعارف ١٣٧٥ .
الطبيخ ، للبغدادى . الموصل ١٣٥٣ .
طراز المجالس ، للخفاجى . الوهبية ١٢٨٤ .
العثمانية ، للجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون . دار الكتاب العربى ١٣٧٤ .
العقد الفريد ، لابن عبد ربه . لجنة التأليف ١٣٧٠ .
العمدة ، لابن رشيق . هندية ١٣٤٤ .
عيون الأثر ، لابن سيد الناس . القدسى ١٣٥٦ .
عيون الأخبار ، لابن قتيبة . دار الكتب ١٣٤٣ .
غرر الخصائص ، للوطواط . بولاق ١٢٧٤ .
الغريب المصنف ، لأبى عبيد . (مخطوطة دار الكتب ١٢١ لغة) .
الفاخر ، للمفضل بن سلمة . تحقيق عبد العليم الطحاوى . الحلبى ١٣٨٠ .
فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، لابن حجر . بولاق ١٣٠١ .
فتوح البلدان ، للبلاذرى . تحقيق عبد الله وعمر الطباع . دار النشر للجامعيين ببيروت ١٣٧٧ .
الفخرى ، لابن طباطبا . الموسوعات ١٣١٧ .

الفرق بين الفرق ، للبغدادى . المعارف ١٣٢٨ .
الفهرست ، لابن النديم . الرحمانية ١٣٤٨ .
فوات الوفيات ، لابن شاكر الكتبى . بولاق ١٢٨٣ .
الكامل ، لابن الأثير . بولاق ١٢٩٠ .
الكامل ، للمبرد . ليبسك ١٨٦٤ م .
الكتاب ، لسيبويه . بولاق ١٣١٦ .
كتاب بغداد ، لابن طيفور . عزت الحسينى ١٣٦٨ .
كشف الظنون ، لحاجى خليفة . تركيا ١٣١٠ .
الكنايات ، للجرجانى . السعادة ١٣٢٦ .
اللآلى = سمط اللآلى .
لسان الميزان ، لابن حجر . حيدر أباد ١٣٣٠ .
مجالس ثعلب ، تحقيق عبد السلام هارون . المعارف ١٣٦٩ .
مجالس العلماء ، للزجاجى . تحقيق عبد السلام هارون . الكويت ١٩٦٢ م .
مجلة الثقافة . العدد ٢٢٤ .
مجمع الأمثال للميدانى . البهية ١٣٤٢ .
مجموع أشعار العرب ، بعناية وليم بن الورد البروسى . ليبسك ١٩٠٣ .
مجموعة المعانى ، لمجهول . الجوائب ١٣٠١ .
المحاسن والأضداد ، للجاحظ . الجمالية ١٣٣٠ .
المحاسن والمساوى ، للبيهقى . تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم . نهضة مصر ١٣٨٠ .
محاضرات الأدباء ، الراغب الأصفهانى . الشرفية ١٣٢٦ .
محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر ، للبسنوى على دده . بولاق ١٣٠٠ .
المحبر ، لابن حبيب . تحقيق د . إيلزة ليختن . حيدر أباد ١٣٦١ .
المختار من شعر بشار ، للخالديين . الاعتماد ١٣٥٣ .
المخصص ، لابن سيده . بولاق ١٣١٨ .
مسند ابن حبان . تحقيق أحمد شاكر . دار المعارف ١٣٧٢ .
المصاحف ، للسجستانى . تحقيق د . أرثر جفرى . الرحمانية ١٣٥٥ .
المصون ، لأبى أحمد العسكرى . تحقيق عبد السلام هارون . الكويت ١٩٦٠ م .
المعارف ، لابن قتيبة . الإسلامية ١٣٥٣ .
المعانى الكبير ، لابن قتيبة . حيدر أباد ١٣٦٨ .
معاهد التنصيص ، للعباسى . البهية ١٣١٦ .
معجم الأدباء ، لياقوت . دار المأمون ١٣٢٣ .
معجم البلدان ، لياقوت . السعادة ١٣٢٣ .
معجم الحيوان ، للمعارف . المقتطف ١٩٣٢ م .
معجم الشعراء ، للمرزبانى . القدسى ١٣٥٤ .
المعجم الفارسى الإنجليزى ، لاستينجاس . لندن ١٩٣٠ م .
معجم قبائل العرب ، لعمر رضا كحالة . الهاشمية بدمشق ١٣٦٨ .
معجم ما استعجم ، للبكرى . تحقيق مصطفى السقا . لجنة التأليف ١٣٧١ .
المعجم الوسيط (مجمع اللغة العربية) . مطبعة مصر ١٣٨٠ .

المعرب ، الجواليقي . تحقيق أحمد شاكر . دار الكتب ١٣٦١ .
المعمرين ، السجستاني . السعادة ١٣٢٣ .
مغنى اللبيب ، لابن هشام . التقدم ١٣٤٨ .
مفاتيح العلوم ، الخوارزمى . محمد منير ١٣٤٢ .
المفضليات ، المفضل الضبى . تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون . المعارف ١٣٧١ .
المقصور والممدود ، لابن ولاد . السعادة ١٣٢٦ .
الملل والنحل ، الشهرستانى . الأدبية ١٣١٧ .
المواقف ، العضد . العلوم ١٣٥٧ .
المؤتلف والمختلف للآمدى . القدسى ١٣٥٤ .
الموشح ، المرزبانى . السلفية ١٣٤٣ .
الموطأ ، لمالك بن أنس . تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى . الحلبى ١٣٧٠ .
النجوم الزاهرة ، لابن تغرى بردى . دار الكتب ١٣٤٨ .
نزهة الألباء ، لابن الأنبارى . القاهرة ١٢٩٤ .
النزهة المبهجة ، لداود الأنطاكى ، بهامش تذكرة داود .
نسب الخيل ، لابن الكلبى . ليدن ١٩٢٨ م .
نسب قريش ، الزبيرى . تحقيق بروفنسال . دار المعارف ١٩٥٣ م .
نفائس المخطوطات . تحقيق محمد حسن آل ياسين . النجف وبغداد ١٣٧٢ — ١٣٧٥ .
النقود العربية وعلم النميات ، للأب أنستاس مارى . العصرية ١٩٣٩ م .
نكت الهميان ، الصفدى . تحقيق أحمد زكى باشا . مصر ١٩١٠ م .
نهاية الأرب ، للنويرى . دار الكتب ١٣٤٢ .
نوادر المخطوطات . تحقيق عبد السلام هارون . لجنة التأليف ١٣٧٠ — ١٣٧٤ .
همع الهوامع ، السيوطى . السعادة ١٣٢٧ .
الورقة ، لابن الجراح ، تحقيق عزام وفراج . دار المعارف ١٣٧٢ .
الوزراء ، والكتاب ، الجهشيارى . تحقيق السقا والأبيارى وشلبى . الحلبى ١٩٣٨ م .
وفاء الوفاء ، السمهودى . السعادة ١٣٧٤ .
وفيات الأعيان ، لابن خلكان . الميمنية ١٣١٠ .
وقعة صفين ، لنصر بن مزاحم . تحقيق عبد السلام هارون . المدنى ١٣٨٢ .

محتويات الكتاب

الجزء الأول

الجزء الثانى

الفهارس

تصحيحات للجزء الأول
من رسائل الجاحظ

٨ س ٢ من الحواشي يضاف : «والأخابير : جمع جمع للخبر » .

٢٢ س ١٣ « المرانى » تصحح إلى «المرئى » وتجعل حاشيتها :

(٢) الأصل : « المرنى » ؛ صوابه فى الطبرى ٧ : ٣٨٢

٢٢ س ١٤ ، ١٥ يصحح « المزنى » إلى « المرئى » وتكتب لهما حاشية مماثلة للسابقة ، وتسلسل أرقام الحوواشى تبعاً لذلك .

٩٤ س ١ وامتنحت ، صوابها « وامتحنت » .

٩٨ س ٥ تستنبط لها ، صوابها « تستنبط بها » .

٢٤٣س ٥ والقصد والعدل ، والاهتبال ، صوابها : « والقصد والعدل ، وكالانتهاز والاهتبال » .

٢٤٣س ٧ وجاراتها ، صوابها : « وجارتها » .

تصحيحات للجزء الثانى
من رسائل الجاحظ

٧٥ س ١ الأبيات رواها ابن خلكان فى ترجمته ٢ : ٢٢٩ مع خلاف فى الرواية والترتيب . وأولها هنا هو آخرها عنده » .

٣١٠ س ١١ ، ١٢

مِنَ الأُسْدِ عادىٌّ [يكاد] لِصَوتِهِ

رُءُوس الجبَالِ الرَّاسيَاتِ [تقعَّرُ(٥)]

٣١٠ س ٩ من الحواشي يكتب بدل هذه الحاشية :

(٥) هذه التكملةوسابقتها من الديوان ٦٠ . وفى الأصل :

[illegible] .

٣١١ س ٣ [illegible] وأين نجاؤكم]

٣١١ س ٧ من الحواشي يكتب بدل : «وموضع النقط بعدها بياض فى [illegible] والتكملة بعدها من الديوان ٦١ » .

٣١١ س ١٠ من الحواشي يضاف إلى الحاشية : «وديوان أبى زبيد ١٣٨–١٣٩»

٣١١ س ١١ (٤) انظر الديوان والحيوان لمقارنة الروايات فى هذه الأبيات وتفسيرها .

